لا يموت فيها ولا يحيى

راشد شاز



لا يموت

صدى الروح بين الحياة والموت

لا يموت
صدى الروح بين الحياة والموت
راشد شاز

دار الحكمة
لندن

"لا يموت" ليست مجرد سيرة ذاتية تقليدية، رغم السعي لنسجها بهذا النسق. في تقليبك صفحات هذا الكتاب، ستتردد في أذنيك أصداء أصوات مألوفة، وقد تشعر أحيانًا برابطة روحية عميقة تمتد عبر الأجيال مع شخصياته. أصوات خافتة مكبوتة، وجوه متعبة وأجساد مشوهة، أطياف بشرية سُلبت منها جذوة الحياة. هؤلاء المعذبون في الأرض، ممن فُقدت أرواحهم في متاهات الظلم والنسيان، لا يعلمون حتى ما هي قصتهم الحقيقية. يسمي اليهود مأساتهم بـ"الهولوكوست"، والفلسطينيون يطلقون على نكبتهم التي عصفت بحياتهم على مدى خمسة وسبعين عامًا الماضية "النكبة". بينما المسلمون في الهند، المثقلون بالأحزان، حُرموا حتى من فرصة تسمية هذا الغول الذي ابتلعهم، بأي اسم يُعبر عن مأساتهم العميقة.

هي في جوهرها حكاية حياة إنسان، لكن بين طيات هذه الأوراق، تنسج حكايات الحياة اليومية للمسلمين في الهند بطريقة تجبر القارئ على التوقف عند كل صفحة، متأملاً في سبب غياب هذه الأحداث والدلالات العميقة المخبأة في ثناياها عن وعيه حتى هذه اللحظة.

للعديد، سيكون هذا الكتاب نافذة لرؤية أعماق لم تُكتشف بعد. ومع ذلك، تظل هذه السردية، بكل ما تحمله من تفاصيل درامية ومشاهد مروعة، عاجزة عن منح الكارثة التي اجتاحت المسلمين في الهند اسمًا يليق بها. قد يكمن في هذا العجز بريق جمال الرواية؛ فكيف للكاتب أن يحتضن بأحرفه حقيقة مذهلة ومريرة، في غياب مفردات جديدة ودقيقة تليق بسرد مثل هذه الوقائع المذهلة والمأساوية؟

راشد شاز، الأستاذ المتميز في جامعة علي غره الإسلامية ورئيس منظمة بيس إنديا الدولية غير الربحية في نيودلهي، وسفير النوايا الحسنة لدى الإيسيسكو، هو أيضًا كاتب مرموق. له أكثر من أربعين كتابًا رائدًا في مجال الفكر الإسلامي، كل منها يُسهم في فتح آفاق جديدة وإثراء الحوار الفكري.

£34.99


Dar Alhikma London



لا يموت: مذكرات

صدى الروح بين الحياة والموت

لايموت

صدى الروح بين الحياة والموت

لا يموت فيها ولا يحيى

راشد شاز



دار الحكمة
لندن

سنة النشر: ٢٠٢٤م

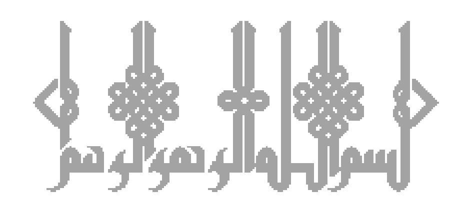
لا يموت: مذكرات

بقلم

راشد شاز

الرقم الدولي الموحد للكتاب: ٨ ٢٩٢ ٧٨٤٨١ ١ ٩٧٨

الناشر:
دار الحكمة لندن
Dar Al-Hikma Bookshop,
٨٨ ChaltonSt,
London NW١ ١H
hikma_uk@yahoo.co.uk
٠٠٤٤٢٠٧٣٨٣٤٠٣٧
٠٠٤٤٧٩٥٦٢٥٩٧٣٢



شبِ ہندی غلاماں را سحر نیست
بایں خاک آفتابے را گزر نیست
بما کن گوشۂ چشمے کہ در شرق
مسلمانے زما بیچارہ تر نیست
(محمد إقبال)

في ليالي الهند الحالكة، للأسرى لا فجر يبزغ،
في هذي الأرض، شمسنا لا تشرق، لا تُرى،
ألقِ إليّ بزاوية من عين ترنو، تبصر،
ففي أرجاء المشرق، لا مسلمٌ يعاني كما نحن، يُعذَّب.

محتويات



على هذه الأرض ما يستحق الحياة:
تردد إبريل، رائحة الخبز
في الفجر، آراء امرأة في الرجال،
كتابات إسخيليوس، أول الحب،
عشب على حجر، أمهات يقفن
على خيط ناي، وخوف الغزاة من الذكريات.
(محمود درويش)

إهداء من القلب إلى أبنائي، إبراهيم ومحمد،
رمزاً لجيل يعانق الأمل في وجه العاصفة،
وإلى طلابي الأبطال، الذين يزرعون بذور الصمود
في أرض اليأس القاحلة، متحدين سيول الإحباط بعزيمة لا تلين.



يا إلهي،

هل قررت حقاً أن يتحول مسجد بابري إلى جلجثة لنا، نحن المسلمين في الهند؟

في مذبحك، تتقاذف مركب إيماني بين الأمواج.

كنت خفيًا، لكن منذ ظهورك، انقلبت الحياة رأسًا على عقب.

الضعفاء سحقوا، ولا تكفينا عبارات الخسارة والجوع.

كتب أحدهم على جدار معسكر النازي:

'إذا كان هناك إله، فسيأتي يوم يطلب فيه الغفران مني عما يحدث لي. ما ذنبي؟'

في الضيق يولد النضال! ياقوب قاومك،

أنحن، حاملو لوائك الأخيرون، هل نواجه مصير بروتس؟

إذا فقدنا، من سيرفع راية ربوبيتك؟

تقول إننا الأمة المختارة، حقاً! سخريتك لا تضاهى.

كفى الآن، منحنا السلام، أوكل مهمة النبوة لغيرنا.

يا منافس العباد! حان الوقت للتوقف.

(مقتطف من لايموت - الفصل السابع والأربعون)

١

همسات الغيب: خالم مخول

في ذلك اليوم المحمّل بأثقال الأحلام، بدا لي والدي المتوفى كلمحة من ذكريات الزمن البعيد. وقف هناك، على عتبات الباب الرئيس لبيتنا العتيق، حيث كان يودعني في أيام رحلاتي الطويلة. في يديه كانت تستقر نسخة من القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي كان يعتز به فوق الحياة. على وجهه كانت تشع ملامح الرضا وفرح عميق، كأنه يستعد لنزهة في صباح ربيعي مضيء بألوان الورد. وبصوت غارق في الحنين والعمق، قال: 'لماذا توقفت عن الكتابة؟ ألم يكن من المقدر لك أن تكمل رواية القصة التي بدأناها معاً؟'

في تلك اللحظة الغامرة بأنفاس الماضي، رأيت والدي يحتضن 'مصحف جيب' القرآن الكريم، ذلك المصحف الصغير الذي يعتز به الحفاظ. والدي، حافظ القرآن، كانت ذاكرته ملاذاً لكل آية. في تلك الأيام المظلمة، أيام الطوارئ التي اجتاحت الهند في عام ١٩٧٥، عندما تم تعليق الحريات وسجن والدي كأسير لمبادئه، سُلب منه ذلك المصحف العزيز. في رحلاتي عبر أقاصي الأرض، كانت كل نسخة مميزة من القرآن في عيني هدية تليق بروحه. من اسطنبول، أحضرت له يوماً نسخة فاخرة مزدانة بالزخارف. عند رؤيتها، انبعثت على وجهه بسمة ممزوجة بذكريات الألم والأمل، ثم غرق في تأمل عميق، كأنه يبحث في فضاء الذاكرة عن صدى آيات طفولته. كان يعلمنا القرآن بنفسه، متجنباً إسناد هذا الدور العظيم لغيره. ومن خلال تعليمنا، أورقت فينا أفكاره، فرأينا العالم من خلال عينيه، مختلفًا، عميقًا، متعدد الأبعاد، بعيدًا عن سذاجة نظرتنا الطفولية.كانت تلك الأحداث تتشكل في داستان موجع يعصف بالروح، يستلزم لغة جديدة لسردها. في

رحلتي الطويلة بحثاً عن هذه اللغة، خضتُ بحار الدنيا، ارتحلتُ في أراضٍ شتى. سعيتُ لاستيعاب تاريخ الأمم التي عانت من ويلات ومآسٍ خارقة للعادة عبر العصور. تأملتُ في الابتلاءات الجسام التي واجهها المسلمون الموريسكيون في الأندلس دفاعاً عن دينهم، والمحن العظام التي اجتاحت السكان الأصليين والعبيد الأفارقة في العالم الجديد الذي اكتشفه كولومبوس، ومأساة معسكرات التعذيب لليهود في ألمانيا النازية، وحكايات الألم في جزر الجولاج في روسيا الشيوعية. كنت أجول في متاهات الكلمات، أبحث عن ذلك الأسلوب الذي يُمكّنني من صياغة صدى أحزاني الشخصية ومعاناة أمتي المُقهورة.على مدى سنوات طوال من التجوال والبحث، كانت تسيطر عليّ حالة من الانتشاء الروحي. أتذكر يوماً من أيام الدراسة، حين كنت على متن الطابق العلوي لحافلة في شوارع لندن، وإذ بمتجر 'فيرجن ميغا' يقع في مرمى بصري. خالجني حينها شعور بأنني ربما أعثر على الكنز المنشود هناك. لم أجد ما يشفي غليل الروح من الأفلام عن الكرب والأحزان، ولكني اكتشفت مكتبة ثورية بإلهام من مغنية متمردة، حيث كنت أجد الأدب الثوري، التسجيلات الحية للخطباء الثائرين، والأفلام الوثائقية عن الظلم الذي عانته الشعوب والأمم، بما في ذلك الأفلام التي تحكي عن المعاناة التي تعرض لها اليهود. في هذا السعي المتواصل للعثور على لغة جديدة، جوبت متاحف العالم التي تجعل الشعر يقف من الرعب، ومع ذلك، لم يتكلل بحثي بالنجاح المطلوب في العثور على اللغة التي كنت أسعى إليها.

تلك الأحداث المروّعة، من محرقة اليهود إلى تجريد العبيد الأفارقة من إنسانيتهم، ومن مذابح السكان الأصليين على يد الاستعمار الجائر، كانت واضحة وملموسة في قسوتها ووحشيتها. كانت تلك المظالم محسوسة بوضوح للعامة، لكن الآلام التي عانى منها المسلمون في الهند المستقلة كانت معضلة مبهمة، حتى لكبار قادتنا. أجسادهم كانت طليقة خلف القضبان، لكن قلوبهم وعقولهم كانت محبوسة في قيود خفية تغلغلت في أعماقهم، مما جعلهم عاجزين عن إدراك حقيقة ذواتهم. أقدامهم لم تكن مغلولة بالأصفاد، ولكنهم في جوهرهم كانوا

متيمين بقيودهم. تحولوا إلى أقلية مكتومة الصوت، مصرّة على التشبث بواقعها المرير. أتذكر في أحد الأيام عندما كنت جالساً في مجلس معلمي الراحل وقار حسين، حيث قال بصوت محمل بثقل الحقيقة: 'ما نعانيه من تعذيب هو عملية تحطيم داخلية، حيث حتى الضحايا لا يدركون حجم الويلات المحيقة بهم، فكيف للعالم أن يستشعر هذه الكارثة المروعة؟'



في تلافيف ذكريات الطفولة المغلفة بالضباب، كانت هناك شخصيات تلوح كظلال غامضة، أحاجي تتوارى في الأعماق. 'البروفيسور' كما كان يلقب، شخصية لا اسم لها سوى هذا اللقب الذي خلده الناس. في ثوبه الأسود الأنيق وقبعته المخملية، وبمسبحته البيضاء وساعته الذهبية، كان يبدو كظلٍ من لغز. كان يحمل دائمًا دفترًا صغيرًا، ينقش فيه أفكاره اللامتناهية. لم يكن للبروفيسور مأوى يأوي إليه أو أسرة تحتضنه، كائنٌ يجوب الدنيا بلا هدف معلوم. حركاته تنضح بكبرياء واعٍ ونفور صامت، قليل الكلام، ولكن غزير الفكر. وفي صفحات دفتره، خط عبارات مبهمة مثل 'أفخان خفى مخول است' و'خالم مخول'، كلمات تحمل في طياتها ثقل حزن لا تستطيع اللغات العادية حمله. وفي أوقات أخرى، كان يتلو بصوت رخيم فقرات من رسائل كتبها إلى الملك جورج الخامس بالإنجليزية، كمن يبحث عن لغة توازي عمق مأساته وتعبيرها. لم يكشف لنا الزمن، إلا بعد مرور عقود، أن 'البروفيسور' كان عماد أسرة نافذة. تلقى تعليمه العالي وبدأ لتوه مشواره المهني في إحدى الجامعات الحكومية بلاهور، حينما اندلعت فجيعة التقسيم. بعد سنين من الصراع، قادته رائحة الوطن إلى الهند، ولكن ما واجهه هناك هز كيانه إلى الأعماق. غدا يتأمل العالم من منظور الغائب، ضائعًا في الهند المستقلة التي لم تعد تحتضنه. كان يأتي إلى منزلنا كل يومين أو ثلاثة، معلنًا ذاتيًا عن دعوته. ولم يكن يقتصر على منزلنا فحسب، بل كانت هذه عادته في العديد من البيوت. في أحد الأيام، وبعد الانتهاء من الطعام، وهو يغرق في نشوة الروح، يهمهم بأبيات شعر فارسية، فاستغللت لحظة انشراحه لأسأله: 'ما الذي تكتبه

دائمًا في دفترك؟' فأجاب بنبرة حالمة: 'أنت لا تدري، إنني أدمنت كتابة الرسائل، رسائل قصيرة أرسلها.' فسألته بفضول: 'لمن ترسل كل هذه الرسائل؟' فابتسم بهدوء وأخرج من جيبه مظاريف صغيرة مكتوب عليها 'إلى المستقبل'. فقلت مستغربًا: 'لكن المستقبل ليس شخصًا، فإلى من تذهب هذه الرسائل؟' لدى سماعه هذا، بدا كأن ضربة قاسية قد أصابته، غرق في صمته الحزين، وعاد ليحدق في الفضاء، غارقًا في بحر من اليأس والحزن.

كل مرة يزورنا فيها البروفيسور، كان يحمل معه بشارة أو نذيراً جديداً. تارة يقول إن صدىً ينبعث من القبة الخضراء، مبشراً بأن النصر سيكون حليف المؤمنين عما قريب. وأحياناً أخرى يتنبأ بأن اليهود على وشك العثور على تابوت السكينة، مؤذناً بقرب معركة مصيرية عظيمة. وفي أوقات أخرى، يعلن بثقة أن مزامير داود قد انتقلت الآن إلى الغرب، وأن الشرق قد خلا من معناه. كان المستمعون يهمسون فيما بينهم: 'يبدو أن البروفيسور قد رأى حلماً جديداً اليوم'، لكنه كان يغرق في دفتره، يخط بسرعة، غير مكترث بأحاديثهم. وفي يوم، عندما تمعنت في ما يكتب، اكتشفت أن الصفحة بأكملها مغطاة بتكرار كلمتين فقط: 'خالم مخول خالم مخول خالم مخول.'...

كانت البزة السوداء للبروفيسور موضوع فضول وإعجاب بالنسبة لنا نحن الأطفال. تلك البزة التي كانت تحتوي على جيوب لا يعلم عددها إلا الله، وكل جيب فيها كان عالمًا قائمًا بذاته. في جيب تجد دفتره وقلمه، وفي آخر ساعته الجيبية المتدلية. هناك أوراق مطوية بدقة، وفي آخر رسائل كتبت للتو، وأشياء أخرى ضرورية. كأن هذه البزة لم تكن مجرد قطعة ملابس، بل خيمة سفر يحملها البروفيسور أينما ذهب. في أيام الصيف، كان يطويها بأسلوبه الخاص ويعلقها على كتفيه. وفي المجالس الأرضية، وبخاصة أثناء تناول الطعام، كان يحرص على وضعها بجانبه، تحت مراقبته المستمرة. ولكن عند النهوض، كان يصدر صرخة تملؤها الدهشة والفزع: 'آه، بزتي، أين ذهبت؟' وهي تكون موضوعة أمامه دون أن يبصرها. وفي أحيان كثيرة، كانت هذه الحالة تسبب ضجة بين الحضور. يقوم

الناس برفع البزة ووضعها في حجره، فيبدأ بتفقد جيوبها بحثًا، ولا يهدأ حتى يتأكد بنفسه أن بزته قد عادت إليه.

كان البروفيسور يستطيع قراءة أصغر الخطوط في الصحف بيسر، لكنه فجأة يصرخ: 'ماذا حدث لبصري، لا أرى شيئًا!' وأحيانًا كان يسير متعثرًا لأيام، على الرغم من سلامة قدميه. في مشيته، كان يميل بشكل مفاجئ نحو اليمين كأنه يتفادى رصاصة. وفي لحظات أخرى، كان يتحدث وكأنه في وسط حشد من الأرواح، يجيب على عدة أسئلة في وقت واحد. فجأة، يقف معلنًا: 'سأرافقكم'، بينما لا أحد بجانبه. الأطفال كانوا يجدون متعة في هذه التصرفات، بينما الكبار يرونه شخصًا مسحورًا. سألت والدي ذات يوم: 'لماذا يفعل البروفيسور ذلك؟ يخفي معطفه بنفسه، ويكتب 'خالم مخول' في دفتره، ويمشي متعثرًا فجأة.' فرد والدي: 'يا بني، إنه مثقل بأحزان الحياة، عبر بحار من النار والدماء ولم يعد قادرًا على استعادة توازنه. ليس كل إنسان قادرًا على تحمل الغم. هناك جرح عميق بداخله، وروحه المتألمة تجعله في حالة قلق مستمر. نسأل الله أن يمنحه السكينة ويحمي الآخرين من مثل هذه المحن'.

في عالم ذكرياتي الطفولية، لم يكن البروفيسور وحده من تزعزعت به فتن الزمان. كانت هناك مجموعة من المجذوبين والمختلين بعقولهم يحتشدون حول والدي، متعطشين لسماع كلمات التعاطف وأملاً في الحصول على لمسة حانية. من بينهم كان 'بوتل ميان'، الذي يُقال أن عمره تجاوز المائة وأربع سنوات. كمرتدي قوس، كان ظهره منحنيًا، يتكئ على عصاه في كل خطوة. صوته كان مشحونًا بروح الجهاد، دائم السعي وراء الرزق الحلال. حتى في تلك السن المتقدمة، كان ينصب كشكًا للكتب أمام المسجد، مكتسبًا رزقه بعرق جبينه. على الرغم من انحناء ظهره، كان يحمل دائمًا كيسًا مليئًا بالكتب الدينية وأجزاء القرآن، متنقلاً كمتجر متحرك. كان يجمع بين كسب الحلال والعمل في التبليغ والإصلاح. شديد الأمانة في تعاملاته، رقيق القلب مع الصغار، وأكثر سخاء من الجميع، لكن لا أحد كان يجرؤ على ذكر البصل الأبيض في حضوره؛ فمجرد سماعه لذلك الاسم كان يثير

استياءه العميق. في يوم ما، دفعني فضول الطفولة لأسأل بوتل ميان، بناءً على نصيحة أحدهم: 'هل لديك بصل أبيض؟' ولم تكن اللحظة سوى فاجعة. لم أكن قد شاهدت من قبل تلك التحولات المفاجئة في شخصية رجل كريم وحنون إلى هذا الحد، فانهمرت دموعي. لاحقًا، اكتشفت أن بوتل ميان كان من الرواد في حركة الخلافة، حيث بذل كل شيء في سبيل حركة محمد علي وشوكت علي. هذا الواقع أصبح جزءًا لا يتجزأ من شخصيته؛ حتى اليوم، لا يزال يرفع عصاه مرددًا تكبيرات، كأنه عائد لتوه من تجمع الخلافة. بعد سنوات طويلة، وتغيرات جذرية، وانتهاء الخلافة وتقسيم البلاد، ظلت روح بوتل ميان متقدة بالجهاد. الآن، إذا ما أشار أحدهم إلى انحناء ظهره بالبصل الأبيض كاستعارة ساخرة لشيخوخته، كان يرى في ذلك إنكارًا لإيمانه العميق.

كان هناك رجل يُدعى منشي أيوب، جاء من إحدى ولايات جنوب الهند واستقر بجوارنا لأغراض تجارية. يبدو أن لا أحد كان معه. كان يقطن وحيدًا في منزل كبير. لا تزال كلماته الرقيقة تتردد في أذني. كانت فكرة الفناء تستحوذ على حديثه، يصف الموت بطريقة تجعله يبدو أفضل من الحياة. في ذلك الوقت، لم أفهم سبب تركيز منشي أيوب على الموت في حديثه، لكني علمت لاحقًا أنه في شبابه ذهب إلى باكستان بحثًا عن دولة إسلامية. لكن القدر كان قاسيًا؛ فقط قليلون نجوا في القطار الذي كان يستقله إلى باكستان. أصيب بصدمة عميقة استمرت لأيام. نجا من الهجمات لظنهم أنه ميت. عندما استفاق، كانت الدنيا قد تغيرت. لم يجد سحرًا في باكستان فعاد إلى الهند. تلك الأيام في الغيبوبة أصبحت جزءًا من تجربته. عندما يكون في حالة جيدة، كان يسرد بحماس قصة رحلته إلى العالم الآخر. كان يقول: 'الموت ليس للخوف منه، إنه بوابة إلى الأبدية. تخيلوا نفقًا طويلًا ينتهي بنور ساطع. الأرواح والملائكة تنتظر للترحيب بكم. عند دخول النفق، تشعرون بخفة وكأنكم تطفون في الهواء. كل الهموم تتلاشى خلفكم، وتغمركم نشوة لا توصف، كأنما سجين حصل على حريته. لا يمكن وصف فرحة الحرية الأبدية بالكلمات البشرية'.

في ذلك العصر، كانت هناك كتب شائعة تثير الهلع من الموت، مثل 'خوف الجحيم' و'صدمة الموت'. لكن حين يتحدث منشي أيوب، كان يطغى بسحر كلماته على تلك الكتب. من يحضر جلساته مرة أو مرتين يفقد خوفه من الموت. الآن، أتعجب كيف امتلك هذا التاجر العادي قدرة على إعادة صياغة قلوب وعقول الناس. كان يبعث الأمل في النفوس اليائسة ويغير منظور المتعلقين بالمال والمكانة، محولًا حياتهم. كان يسيطر على المحافل بسحر بيانه. وفي الوقت نفسه، كان يستمر في تنافسه مع الدكتور ستيفن، أحد كبار تجار الأدوية الإنجليزية في المدينة. الدكتور ستيفن كان دائمًا يرتدي بدلة وربطة عنق، وكان يحمل دائمًا صحيفة أو مجلة بالإنجليزية. رغم أن قلبه كان مجروحًا، إلا أنه كان يخفي حزنه خلف نمط حياته الغربي. حتى في حرارة يونيو ويوليو، عندما ينزل من الركشة، لم يكن يبدو عليه أي تراجع في أناقته وارتدائه لبدلته وربطة عنقه.

في تلك الأيام، كانت الدراجة الهوائية تحظى بمكانة مرموقة كوسيلة نقل. صديق الدكتور ستيفن، المعروف بين الناس بـ'كالا صاحب'، كان يظهر ببدلته السوداء، يسير بجانب دراجته دون أن يركبها لعدم معرفته بقيادتها، استخدمها كوسيلة لزيادة هيبته. كانت هذه المشاهد تبدو غريبة في ذلك الوقت. الآن، مع تذكر تلك الأحداث في إطار تقسيم الهند، يعتريني شعور بألم لا يوصف. كانت حركة الهجرة الكبرى التي حدثت باسم الحرية من أضخم حركات الهجرة في التاريخ الإنساني. حوالي مليون ونصف المليون شخص اقتلعوا من جذورهم، ووقع ما يقرب من عشرة إلى عشرين مليونًا ضحايا للقتل الوحشي والنهب. وبعدها انتشرت نار الكراهية التي ظلت تتأجج لسنوات. كيف يتحمل الإنسان العادي هذا العنف الشديد؟ بعضهم تحول إلى مجذوب، وآخرون لجأوا إلى التصوف، بينما عاش آخرون في شوق للموت ومتعته، وأخفى بعضهم جراحهم وراء ستار الثقافة الغربية.

على المسلمين في الهند، هبطت جبال من الأسى والغم بطريقة عصفت حتى بالأكثر تحملاً بينهم. كانوا لم يزالوا يجمعون شتات أنفسهم من ويلات سقوط

دلهي في عام ١٨٥٧م، عندما واجهوا مأساة جديدة: سقوط الخلافة العثمانية في عام ١٩٢٤م. بذلوا جهوداً تفوق طاقاتهم لإنقاذ الخلافة، لكنهم لم يحصدوا سوى خيبة الأمل والحرمان. وبتقسيم الهند، شُطرت جذورهم، وتحطمت قوتهم الوطنية والعددية.في تلك الأجواء، بدا وكأن المسلمين الهنود كانوا يعيشون في زنزانة من التعذيب المستمر والأزمة الفكرية، جيلًا بعد جيل. كان من النادر أن تجد أسرة خالية من صوفي أو مجذوب أو مجنون. حتى عائلتنا لم تسلم من هذا القلق المستمر. جدي، الممزق بين تربية أبنائه إما كمحامين أو كمتدينين، فقد توازنه العقلي تحت وطأة هذا الصراع. ولم يجد عمي الأكبر طريقًا واضحًا حتى بعد انضمامه إلى جامعة جامعة ملية.في هذه الأسرة، حيث كان التراث الديني والثقافي جزءاً لا يتجزأ من نسيجها، كان هناك تركيز كبير على التاريخ والثقافة. أفنى العم إلياس حياته في دراسة تأثيرات الإسلام في الهند، وبخاصة في بهار. وكانت مقالاته، بنثرها النقي والجميل، موضوع نقاش دائم في منزلنا. وعندما تزورنا خالتي، التي كانت تعيش في عالم من الروحانية، كانت هذه النقاشات تكتسب بُعداً جديداً. كانت تمضي أيامها في الأوراد والأذكار، وكتاباتها، التي تضمنت الحزب الأعظم والمجربات الديربي وأنواعاً مختلفة من الأوفاق والرسوم، كانت تحتوي على أسرار السيطرة على الأعداء وأوقات مجربة لقبول الدعاء.

ذات مرة، اجتاحت أمواج من الاضطرابات الطائفية بين الهندوس والمسلمين شوارع مدينتنا. كنا نقطن في حي حيث كان المسلمون أقلية والهندوس الأغلبية. كانت القلوب المسلمة ترتجف خوفًا، وكانت النصيحة السائدة هي أن نهاجر فورًا إلى المناطق ذات الأغلبية المسلمة. كانت الأوضاع تنذر بالخطر، لكن والدي، صامدًا كالجبل، رفض فكرة الرحيل، معتبرًا أنها ستقطع أواصرنا بالمكان. خلال تلك الأيام المشحونة، ظلت عمتي في حالة من السكينة الغامضة، وكانت دائماً ما تطمئننا بأن لا شيء سيئ سيحدث، مكثفة جهودها في الأوراد والأذكار بشكل أكبر. تحت تأثيرها، أتيحت لي فرصة التعرف على كتب مثل 'نافع الخلائق' و'نقش سليماني' في سن مبكرة. كانت هناك أيضًا العديد من الكتب الأخرى، مجلدة في

أغلفة جلدية فاخرة، في متناول أيدينا. كانت مكتبتنا تحوي مجلدات ضخمة تجمع بين عدة كتب ومجلات مختلفة، ما جعلني أتعرف على 'قصيدة البوصيري' و'قصة يوسف وزليخا' خلال ورق الصفحات.عندما لاحظ والدي اهتمامي البالغ بكتب الأوفاق والرسوم، نبهني قائلًا: 'ما هذه الكتب التي تنهمك في قراءتها؟'، ثم أردف بلهجة متسامحة 'حسنًا، دعها كما هي'. كان والدي يجسد الروحانية المتجذرة في العقل والحكمة، بينما عمتي كانت تحمل لواء التقليد الذي ورثته عن أجدادنا، وعلى رأسهم سيد بشارت كريم. كانت القصص عن معجزات بشارت كريم وأحداثه الخارقة تشكل همسات متواصلة في أرجاء المنطقة. كان الناس يعتبرون تراب قبره دواءً شافياً. وفي هذا التعايش بين العقلانية والتقليد، كان هناك توتر ملموس، لكنه لم يصل إلى درجة الصدام.

في الكلية المحلية، كان يعمل أستاذ رياضيات، يزور مكتبتنا بشكل شبه يومي. كان يغمرنا بحديثه العميق عن القضايا الوطنية والمجتمعية، حيث في أحيان كان يظهر عزيمة على التغيير، وفي أحيان أخرى تغلف كلماته بيأس وحرمان. كان يحمل تقديرًا عميقًا للحركات الإحيائية، متسائلاً أحيانًا عن جدوى جهودها بتعبير 'ماذا سيتغير بهذا؟'.غالبًا ما كانت عيناه تمتلئ بالدموع خلال هذه النقاشات. والدي، بروحه المواسية والمشجعة، كان يوفر العزاء ويشد من أزره، في سلسلة من اللقاءات التي لا تنتهي. وأحيانًا، كان يأتي زائر كبير في السن، متأنقًا بطاقية تركية وبزة سوداء. كان له مكانته الرفيعة بين الشيعة، وكانت مجموعته الشعرية 'شعلة نداء' تتمتع بشهرة كبيرة في عالم الأدب والشعر. وقد أصبح فيما بعد نائب رئيس للجامعة. كان يخفي أحزانه وراء قناع الرسميات. نادرًا ما كان يفتح قلبه، لكن عندما يفعل، كانت كلماته تتدفق كشلال، وكأنها تنقل لك حرارة المنازل المدمرة والمظلات المحترقة، تشعر بلهيبها يلامس أطراف ثوبك.

في ضوء الفجر الأول، كان هناك رجل يقرع بابنا بانتظام، يأخذ والدي معه في نزهات صباحية. في بعض الأحيان، كنت أرافقهم. هذا الرجل، بطلته التي تشبه الزئبق، كان يتمتع بإصرار وعزم لا يتزعزع. كانت خططه دائمًا تدور حول تعليم

وتطور المسلمين، وكانت محادثاتنا الصباحية تتخللها هذه المواضيع. في تلك الأيام، لم أكن أستوعب معناها تمامًا، لكني لاحقًا اكتشفت أنه كان بمثابة الراعي لعدة مؤسسات وطنية، وأصبح فيما بعد رئيس جمعية أهل الحديث في كل الهند.تلك السماء المليئة بالنجوم المجروحة، التي أحاط بها والدي، كانت كما لو أنها حوار دائم، تكبير متواصل. وفي تلك اللحظات التي تسبق قدوم الشتاء، عندما كنا نخرج صناديق ذكرياتنا ونعرض متعلقات أقاربنا المسافرين إلى باكستان لأشعة الشمس، كنا ننظف أچكن عمي وغرارات أخواتي وصندوق الزينة الذهبي لعمتي، ثم نعيدها إلى صناديقها. في تلك اللحظات، كان حزن والدي يفيض عن حدوده. كان يقول: 'لا أعرف إذا كان جيلاني سيأتي أم لا'. وعندما كان يبدو عليه الحزن، كانت والدتي تطمئنه: 'بالطبع سيأتون، حتى لو لم يكونوا ليبقوا، فللقاء واستلام أمتعتهم سيأتون بالتأكيد'. كانت تلك الصناديق تغلق حتى المطر التالي، لكن رائحة الأحباء المنبعثة منها كانت تجدد الجروح في كل عام.

كان للعقلانية دور بارز في حياة أبي، لكن معظم قراراته كانت تستند إلى الحدس والإشارات. لم يكن هناك تناقض بين العقل والحدس في تصرفاته، بل كانا يتكاملان. في إحدى الليالي، رأى حلمًا محفزًا. ومع أول ضوء الفجر، بدأنا في التجهيز لرحلة مفاجئة إلى القرية. كانت رحلات القطار في ذلك الوقت، وخصوصًا مع الأطفال، تُعتبر رحلة محفوفة بالمخاطر. لم يكن واضحًا لماذا انبثقت فجأة فكرة السفر إلى القرية.كان والدي يكتنفه الصمت، مشحونًا بالتوتر، وكانت والدتي تتجنب أيضًا الإجابة المباشرة. ومع ذلك، عندما وصل القطار إلى المحطة التالية، كشف لنا رسول قادم من القرية أن أحد أفراد عائلتنا قد فارق الحياة، وأن المتوفى قد طلب أن يتولى والدي إمامة صلاة الجنازة.في تلك الأزمان، حيث كان غياب الموبايلات والإنترنت، كان أهل القلوب يتواصلون عبر الإشارات الخفية. وبعد الظهيرة، وصل القطار إلى وجهته النهائية. هناك، وُجدت عربة تجرها البقر، مُعدة بخيمة من سيقان البامبو. بالنسبة لنا الأطفال، كانت الرحلة مليئة بالمغامرات. الحقول والبساتين كانت تمتد على جانبي الطريق إلى ما لا نهاية. ومع

ذلك، اختار والدي المشي، لكون الراحة في السفر لم تكن مقبولة للرجال في تلك الأيام. كانت العربة مخصصة للنساء والأطفال.

عند وصولنا إلى المنزل، كان كل شيء مختلفًا. كان هناك تجمع كبير من الناس في كل من الأماكن المخصصة للرجال والنساء. في زاوية الفناء، كانت هناك جنازة ملفوفة في كفن أبيض، وكان كل من يأتي يزورها واحدًا تلو الآخر. تبين أنها جنازة جدتنا، التي كان يناديها جميع أطفال الأسرة بـ'الأم' بسبب حبها العظيم لنا، حيث كانت تعتبرنا أطفالها بالمحبة والعطاء، رغم أنها لم تكن لها أبناء. لم أكن أتخيل أنني سأرى جدتي بهذه الحال في رحلتنا إلى القرية. لم أفهم الحزن الذي يخيم على الجميع، ولم أستوعب سبب بكائهم. كان غضبي يكمن في أن جدتي، التي كنا نناديها بحب 'الأم'، قد تركتنا وحدنا. من خلال جلسات منشي أيوب، شعرت بأن جدتي الآن في عالم آخر من النور، محاطة بالملائكة، تنعم بجمال العالم السماوي والخدم حولها، وكأنها نسيتنا تمامًا. لم أتوقع هذا منها. في تلك اللحظات، أشار أحدهم إلي قائلاً: 'انظروا، هذا الطفل لم يبكِ'. فردت عليه امرأة عجوز: 'آه، إنه طفل، ماذا يعرف عن الموت؟'. لكن الغضب في داخلي كان يتصاعد من فكرة أن جدتي ذهبت لوحدها لتستمتع بعالم النور هناك، دون أن تأخذنا معها. كان هذا في نظري أنانية لم أكن أتوقعها من 'الأم' التي عودتنا دائمًا على الحب والعطاء.

في أيام ما بعد الفقدان، استمرت زيارات الأقارب والمعزين، وعندما بدأت الحياة تستعيد إيقاعها الطبيعي، علمنا أننا سنمكث في القرية لبعض الوقت. كنت أشعر بألم داخلي لفقدان جلسات والدي، وبالغربة وسط أجواء القرية الجديدة. لكن سرعان ما جذبني أقراني وأطفال عائلتي إلى روتين المدرسة. في البداية، لم يكن هناك من يوليني اهتمامًا كبيرًا، فاستمتعت بحريتي في التنقل بين المدرسة والمنزل كما يحلو لي. جاء اليوم الذي فيه أُجري اختبار لتحديد مستواي الدراسي، وهنا واجه المعلمون لغزًا في تصنيفي. كنت أجيد قراءة وفهم الكتب والقصص باللغة الأردية، وتم اختباري في مستويات مختلفة، من الأول إلى الرابع. لكن عندما حان وقت الإملاء، كتبت كل حرف على حدة، مما كشف عن ضعفي

في المواد الأخرى. اقترح البعض وضعي في الصف الثاني، بينما رأى آخرون أن مهارتي في النظم والنثر تتناسب مع الصف الرابع، لكني لا أعرف الرياضيات حتى للصف الأول. وهكذا، استمرت هذه الحيرة لفترة، وأنا أتفاعل مع طلاب من مختلف الفئات العمرية.

في يوم ما، حوّلت والدتي حبوب الأرز المحروقة إلى حبر وأعطتني لوحًا خشبيًا جديدًا لأصطحبه معي إلى المدرسة، وكأنها إشارة لبدء رحلتي التعليمية الرسمية. كنت مفتونًا بالكتابة على اللوح بحبر الأرز، ثم مسحه بعشب الحقول، مستمتعًا بتلك اللحظات البسيطة. كان هناك سحر خاص عندما نتسابق نحن الأطفال في فرك ألواحنا على العشب. كنت أتوقع أن يظهر صديقي عاصم سعادته عند رؤية لوحي الجديد، لكنه بدلاً من ذلك همس لي بقلق: 'هل تعلم أن القيامة قريبة وأن أوقاتاً عصيبة قادمة على المسلمين؟' قال إن مسجد المعراج أُحرق، وأن هناك كارثة وشيكة. في البداية لم أستوعب تمامًا، لكن مع استمرار الحديث عن مسجد المعراج بين الأطفال، بدأت أحاول فهم الوضع من والدتي. لم أفهم كثيرًا عن سياسات الشرق الأوسط وإسرائيل، لكن القلق في اجتماعات الأطفال كان يتصاعد. تلت ذلك خطب حماسية في مسجد القرية وبدأ الطلاب يضعون خططًا وهمية لمواجهة اليهود.

كانت المدرسة، التي كُتب على لوحها 'درس گاه اسلامی'، تجاور منزلنا مباشرة. الميدان المحيط بها كان فسيحًا، وعلى بعد مئات الأمتار، يرتفع مسجد القرية، حيث قبور أجدادنا تستريح في فنائه، وعلى الجانب الآخر تنتشر متاجر الضروريات. كان المسجد والمدرسة يُشكلان قلب الحياة في القرية، حيث تعج ساحة المدرسة بألعاب الأطفال وضحكاتهم، بينما تصدح باحة المسجد بحديث الكبار.عندما اندلعت النيران في مسجد المعراج، غلب الهلع على الأطفال، والقلق على الكبار. نُشر في مجلة 'تجلى' مقال للشيخ أبو الأعلى المودودي حول مأساة المسجد الأقصى. عندما عاد والدي إلى القرية في نهاية الأسبوع، كان معه هذا العدد، مما أثار مناقشات حادة بين البالغين. في أحد الأيام، دار نقاش في مردان

خانه حول سبب إذلال الله للمسلمين على يد اليهود، الشعب المطرود من رحمته. 'هل ابتعد الله عن المسلمين؟' لم أكن أدرك في ذلك الوقت وقع هذه الأسئلة. الآن، بعد التأمل، أدرك كيف أن مأساة الأقصى قد هزت عميقًا أسس التفكير الديني للمسلمين في تلك الفترة.

`

٢

ها نحن، قائمون عند رأس العَلَم

كانت حياة القرية مغمورة بمتع مستمرة. نخطط للسباحة مع الشباب الأكبر سنًا، نتجول في حقول قصب السكر، نصطاد الطيور والأسماك، ونتلذذ بفواكه الموسم في البساتين. الأبواب كانت مفتوحة لنا، الأطفال، في كل بيت، وكانت أشجار الفاكهة بمثابة ملكية مشتركة لنا. في تلك الأيام، كانت المجلات مثل 'ماهنامة مولوي'، 'ماهنامة مخزن' و'ماهنامة نگار' منتشرة بين البيوت. وعلى الرغم من أنها كانت مجلات للكبار، كان هناك دائمًا ما يجذبنا نحن الأطفال. أتذكر إحدى أعداد 'ماهنامة مخزن' التي قدمت شرحًا للأمثال الفارسية. كانت تلك الأمثال ترسخ في أذهاننا أثناء الحوارات. قصة أو اثنتان ما زالتا ترن في ذاكرتي حتى الآن، مثل 'اين هم برسرِ عَلمَ.' في سياق الحكاية، كان هناك مولوي يلقي خطبة ضد السرقة، يصوغ كلماته بحنكة وحكمة. قال: "السرقة لا تقتصر فقط على حفر نفق أو القيام بعملية سطو، بل هناك أشكال أخرى من السرقة، خفية وغير ملحوظة. خذوا مثال الخياط الذي يجمع بشغف قصاصات القماش، معتبراً ذلك جزءاً من فنه ومهارته. لكن، في يوم القيامة، عندما يُمنح علم أعماله، ستتدلى منه كل تلك القطع المسروقة، حتى الأجزاء الصغيرة. في ذلك اليوم، لن يستطيع الهروب من هذا العار والفضيحة. سيغمره الندم العميق لأنه قد أفسد آخرته بسبب هذه القطع الصغيرة".يقال إن بين الحضور كان هناك خياط، متأثراً بعمق من الخطبة. قرر التوبة والابتعاد عن هذه الممارسات. مضت الأيام والخياط متمسك بعهده. كلما خطرت بباله فكرة سرقة القماش، كانت صورة الراية في الآخرة تلوح أمامه، معلقاً عليها قطع القماش الملونة المسروقة، فكان يعدل عن

الفعل.لكن في يوم ما، وصلت قطعة قماش جذبت انتباهه بشدة. كان يلمسها مراراً وتكراراً، محاولاً كبح جماح رغبته، متذكراً عزمه على عدم إفساد آخرته. أخّر العمل لعدة أيام، لكن مع اقتراب موعد تسليم الطلبية للزبون، لم يعد قادراً على المقاومة. قرر في النهاية أن يُظهر مهارته. قال لنفسه: "على رأس العلم"، مشيراً إلى أنه إذا كانت هناك العديد من قطع القماش معلقة على راية الآخرة، فلتُضاف إليها واحدة أخرى.

في سياق محاورة قديمة من الأردو، نادرة الاستخدام اليوم، "رو میں روا ہے"، تنسج القصة حكاية مولوي يعيش بجوار منزل يربى فيه الدجاج. كانت هذه الدجاجات تتسرب بانتظام إلى منزله، تترك فضلاتها في الفناء وتنقر الحبوب من مخزونه. المولوي، الذي كان يغادر إلى عمله، كان بعيداً عن هذا الإزعاج، بينما كانت زوجته تتحمل العبء الأكبر.ذات يوم، غمرت الزوجة الغضب، فامسكت بدجاجة ماكرة وذبحتها. بعد ذلك، دفنت ريشها بعناية في الفناء وشرعت في طهي اللحم. كانت تردد في نفسها، "هذه الدجاجات كانت تزعجني كثيرًا، واليوم أنا أطهوها". عندما عاد المولوي في المساء، لاحظ رائحة اللحم المطهو وسأل عما يُطهى. أوضحت الزوجة أنها، في نوبة غضبها، ذبحت دجاجة من دجاج الجيران. انتاب المولوي الغضب، وأعلن أن هذا حرام ولا يمكنه تناوله. فردت الزوجة بأن الدجاجات كانت تأكل حبوبهم وتسبب الفوضى، وأن ذبح دجاجة واحدة لا يجعلها حرامًا. وعرضت عليه صنع الثوم وصلصة الفلفل بدلاً من تناول اللحم.هنا تردد المولوي قليلاً، ثم قرر أنه لن يأكل اللحم، لكنه سيشرب الحساء، مبرراً ذلك بأن الماء والتوابل المستخدمة هي من ممتلكاته. عندما بدأت زوجته في صب الحساء، وظهرت قطع اللحم، حاولت منعها بالملعقة. لكن عندما رأى المولوي ذلك، قال لها "لا تستخدمي الملعقة، دعي ما يأتي من تلقاء نفسه، 'رو میں روا ہے'". عند سماع هذا، انفجرت الزوجة بالضحك.

عندما يغوص كل من الخياط البسيط وحتى أولئك المتمرسين في العلم والتقوى في أعماق طمع الدنيا، وعندما يتورط العامة وحتى العلماء في متاهات

التناقض بين الفكر والعمل، ينبثق شعور طبيعي بأن الحياة الروحانية للمؤمنين قد ضلت طريقها. في هذا الواقع، ما الصلة التي تبقى بينهم وبين لمسة الرحمة الإلهية؟ يصبح الحرمان والغياب عن النعم الإلهية قدرهم المحتوم.

كل عام، مع حلول عيد الأضحى، تتحول القرية إلى موقع لتجمع عظيم. في فناء المدرسة، تُنصب قدور ضخمة، وتعم الأجواء بروح الاحتفال والمشاركة. يتجمع الغني والفقير، الشيوخ والأطفال، النساء والرجال، جميعهم يشتركون في هذه الوليمة الجماعية. بالنسبة للأطفال، كان الأمر مجرد رحلة ترفيهية، ولكن الكبار، يجتمعون تحت ضوء القناديل في المساء، يخوضون في نقاشات عميقة حول مختلف القضايا. يُناقشون وضع التعليم في المدرسة، الرفاهية العامة للقرية، والتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية. هذا العام، عقدت الجلسة كالمعتاد، لكن لم تكن هناك نفس الروح الاحتفالية. فقد غلب على الأجواء شعور بالحزن والكآبة، بفعل الأحداث المؤلمة التي شهدها المسجد الأقصى.

كانت الجلسة السنوية للمدرسة تُقام بكل تزك واحتشام، حيث تتلهف النساء الكبيرات في السن لهذه المناسبة. كان لهذه الجلسات رونق خاص، فكل أهل القرية كانوا يشعرون بانتماء عميق لها. في فناء المدرسة، كانت تُرتب الكراسي والجلسات للمشاهدين، وخلفها تُقام حواجز من السرائر المغطاة بالستائر، حيث تراقب النساء فعاليات الجلسة بإعجاب. كانت قلوبهن تفيض بالفرح عند مشاهدة تعليم أبنائهن وأحفادهن يتجلى في هذه اللحظات. المدرسة، بمركزيتها، كانت قد خلقت شعورًا بالتوحيد والمعنى للقرية بأسرها. كان هناك نوع خاص من السرور في مراقبة البرنامج من وراء حواجز السرائر. الجلوس في صفوف الرجال كان يُعد تعبيرًا عن الانضباط والاحترام، في حين أن ضوضاء ومرح الأطفال في خيمة النساء كان يُضفي رونقًا خاصًا على المساء الترفيهي. وعندما بدأت مسابقات الخطابة تتحول إلى أمسيات شعرية تمثيلية، قام أحد الطلاب، مرتديًا الطربوش التركي والأچكان الأسود، تقمص شخصية نظير أكبرآبادي، وبدأ بأداء غنائي مذهل على طريقة القوالين، مما خلق أجواءً ساحرة.

عندما انتقل المغني إلى أداء هذه الأبيات بصوته المؤثر:

"تخل عن الطمع والرغبات، يا رجل، لا تجوب البلاد شريداً.

لص الموت يسرق في كل مكان، يدق طبوله ليل نهار.

عندما يطلق لص الموت رمحه في الطريق،

لن يفيد المال، الثروة، الأحفاد، أو الأسرة،

كل شيء سيترك خلفك عندما يغادر الحمّال".

شعرت بأن هذه الأبيات ترسم صورة قوية وعميقة: تحذير من الطمع وتذكير بأن الموت لا يرحم، وأن كل ما نملكه من ثروات وأحباء لن يفيدنا في النهاية. شعرت بأن عيون النساء الكبيرات في السن امتلأت بالدموع، كأنهن يتذكرن هذه الحقيقة الأزلية بقلوبهن وأرواحهن.

في مسيرك عبر الطرقات، ستُترك وراءك هذه الأصداء،

عجوز ستُزرع فوق ترابك، ولن تعود لترعى العشب هناك.

الأحمال التي جمعتها، ستُقسم بين الناس،

بناتك، أحفادك، أصهارك، لن يقتربوا من الحمّالة... كل شيء سيُترك مهملاً".

مع الشاعر التمثيلي، جاء طلاب ليضيفوا جمالًا فريدًا لمصرع القصيدة، بأسلوب ينبئ بدق طبول الرحيل وكأنها توقعات بأن صوت بوق إسرافيل لا يفصله سوى ثوانٍ. ظهر شاب يرتدي نظارات اللعب وقبعة مرتفعة، متمثلًا دور شاعر عظيم. كانت نبرات صوته مفعمة بالحرقة والعمق. عندما أدى هذا المصرع:

"تعبیر ہے جس کی حسرت و غم اے ہم نفسو وہ خواب ہیں ہم"

"نحن حلم مليء بالحسرة والألم، أيها الرفاق"

خيم على المكان صمت غامض وعميق.

وعندما انتقل إلى الأبيات التالية:

"ہوجائے بکھیڑا پاک کہیں پاس اپنے بلالے بہتر ہے

اب درد جدائی سے ان کی اے آہ بہت بیتاب ہیں ہم"

"أفضل لنا حمل مشاكلنا الخاصة، فنحن الآن متلهفون بفراق الآلام"

شعر الحضور بأن الشاعر يعبر عن ألم شخصي أكثر من كونه تعليقًا على واقع الأمة. وبشكل خاص، أثرت هذه الأبيات:

"لاکھوں ہی مسافر چلتے ہیں منزل پر پہنچتے ہیں دو ایک"

"ملايين المسافرين ينطلقون، لكن قليلين فقط يصلون إلى الوجهة"

في إعادة إحياء ذكريات الإخفاقات المؤلمة في رحلتنا الجماعية.

تتجلى الاحتفالية السنوية للمدرسة كمهرجان عام، ولكن يبدو أن هناك طريقة غير مقصودة في اختيار المواضيع وتقديم القصائد وترتيب الأفكار، تضفي شعوراً بالحزن العميق حتى في تلك اللحظات الاحتفالية. ربما يعود ذلك إلى أن حياتنا الدينية غنية بالاستعارات عن فناء العالم وفقره، بطريقة تمزج الحزن في نسيج هويتنا النفسية والقومية، وتجعل منه علامة دينية معترف بها. هناك شيء محير، فقد ترك الله هذه الأمة في قبضة الظروف، حيث كان يتردد في هذه الأيام صدى عبارة 'لماذا تأخرت كثيراً في دوري' بين آهات النساء العجائز في معاشاتهن.

رغم الازدهار العام الذي كانت تنعم به القرية، حيث كانت الحبوب والمواد الغذائية متوفرة بكثرة لدى الناس، كانت المشاركة في المصاعب والمعاملات المتبادلة تُنظر إليها بإعجاب. كان التعليم منتشرًا وقد سافر العديد من الأهالي إلى مدن مثل كلكتا وبومباي لأغراض التجارة، واستقر بعضهم في الخليج وحتى في أوروبا وأمريكا. مشاركتهم الفعالة في الأعمال الخيرية والمهرجانات السنوية كالعيد وعيد الأضحى أوجدت حالة من الوعي العام. وعلى الرغم من هذا الرفاه، كان هناك شعور بفراغ مقلق. كلما عاد 'عمي الأكبر' من المدينة، كان يعقد اجتماعًا في فناء المدرسة، حيث يقترح خطة لتحويل القرية إلى نموذج مثالي. كانت فكرة إنشاء المدرسة مبادرة منه، التي بدورها وضعت القرية على مسار التطور والتعليم بسرعة فائقة.تشبه المدرسة في القرية قاعة البلدية، حيث كانت تُعقد بين الحين والآخر خطابات لشخصيات مرموقة من خارجها. في أحد الأيام، أتى عالم جليل من لكناو، تحدث ببلاغة عن حادثة حرق المسجد الأقصى والمتهم دينيس. كانت القصة معقدة بالنسبة لي في ذلك الوقت، لم أفهم لماذا أقدم دينيس، الذي كان

يعاني من مشكلات نفسية، على هذا الفعل. ما هي الصلة بين تدمير المسجد وظهور المسيح؟ لكن كان ملفتاً للنظر أن دينيس كان يسمع أصواتاً وهمية تُخبره بأنه يهودي وقد تم اختياره لدور مهم قبل مجيء المسيح. في بعض الأحيان، كان يشعر وكأن الله يخاطبه مثل نبي الله موسى. كان يعتقد أن أمر الحرق هذا جاءه من الله. في نهاية الحدث، عندما زار العالم منزلنا، فكرت في سؤاله عما إذا كانت الأصوات الغريبة التي يسمعها أستاذنا تعني أنه يعيش في دوامة من الأوامر الإلهية. كان الأستاذ يقول إنه يتلقى إشارات ويحدد على أساسها مواعيده. أردت الاستفسار عن الطريقة الصحيحة لتمييز الأصوات الغيبية وفهم الإشارات، لكن الزحام والمحادثات المستمرة للكبار حالت دون حصولي على إجابات لأسئلتي.

في القرية، كان ضريح منجل شاه يقع قرب المسجد، لكنه لم يشهد وميض الشموع أو عبق البخور. سيطرت أجواء الحزن على المكان. في تلك الأيام، كان الناس يميلون عادةً إلى مبايعة الصوفيين. كان يُنظر إلى التصوف كعلاج شعبي للآلام النفسية التي أحدثتها الأحداث المتتالية على القلوب والعقول المسلمة. لكن المعضلة كانت أن مشروع عمي الأكبر لجعل القرية نموذجية لم يؤثر فقط على ضريح منجل شاه، بل أضعف أيضًا تأثير الصوفيين. إنشاء القرية المثالية بعد سقوط الخلافة كان بمثابة محاولة لملء الفراغ العميق الذي لم يُدرك أحد حقيقته. كان الناس يلجؤون إلى الماضي بحثًا عن العزاء، يسترجعون ذكريات الأيام الجميلة ويروون قصص عظمة الأجداد. في يوم ما، أحضر أخي الأكبر، الدكتور نجيب أختر، الذي ندعوه بـ'بهائى جان'، نسخة قديمة من 'آئينه تربت'. وبينما كنا نتصفح الكتاب، مرّ والدي وسأل عنه. أخبرته أنه يحتوي على قصص أجدادنا وتفاصيل عن عائلتنا. لبرهة، تلاشى على وجهه ظل ابتسامة حزينة. قال: 'يا بني، ما الأهمية الآن لهذه الأمور؟ فكّر فيما أنت عليه الآن. لا قيمة لـ'بدرم سلطان بود' (كان أجدادنا ملوكًا) بعد الآن.'

مع حلول نهاية كل أسبوع، عندما يعود والدي إلى البيت، كانت حياة مجلس الرجال تزدهر بشكل لافت. لكن، بعد حادثة الحرق المأساوية في مسجد المعراج،

تحول المجلس إلى ما يشبه قلب القرية، حيث تتواصل النقاشات حول تلك الحادثة، متخللة بتفاصيل الحرب العالمية الأولى وأحيانًا تتعالى الأصوات الحزينة عند ذكر تمزيق الخلافة من قبل الأتراك. كانت الأجواء توحي بأن موجة من المآسي والآلام لن تنتهي، وربما تؤدي إلى محو وجودنا. في هذا المناخ المليء بالقلق، بدأت تتدفق الأخبار المقلقة من داخل البلاد. في البداية، لم أستطع فهم كيفية تأثير الهجمات التي نفذها المخربون في أحمد آباد ضد المسلمين ومساجدهم وأضرحتهم وممتلكاتهم علينا، لكن مع تواصل تلك الأنباء، اهتز وجودنا بالخوف والترقب.

قال محبوب بلهجة مليئة بالقلق: 'أخي، الفتنة في أحمد آباد ليست مجرد صراع بين الهندوس والمسلمين، بل هي خطة محكمة لاقتلاع جذورنا. هل سمعت خطاب بلراج مدهوك؟ يقول بوضوح أنه يجب تحويل المسلمين الهنود إلى الهندوسية.'

'بالطبع، ماذا يمكن أن نتوقع غير ذلك من تعصبهم؟'

'هم يسعون للانتقام منا لإقامة باكستان. يظنون أن ولاءنا الأبدي لباكستان. ولكن بالنسبة لنا، الحدود الوطنية لا تعني شيئاً من الناحية النظرية، وفي الإسلام لا مكان لمفهوم الدولة القومية. بالنسبة لنا، كل أرض هي أرضنا، كل أرض هي أرض الله'، أضاف السيد عبد الأحد بحزم.

طرح الأستاذ مرتضى السؤال بنبرة تفحصية: 'هل لديكم أية معلومات عن كيفية بدء هذه المذابح الواسعة النطاق؟'

أجاب بصوت محمل بالوقار: 'تتداول الأقاويل، والآن يُخلق جو من العداء ضد المسلمين في جميع أنحاء البلاد بشأن تقديس البقر. في أحمد آباد، نشأ الخلاف حول البقر أيضًا. يُقال أن بعد حادثة حرق المسجد الأقصى، نظم المسلمون مظاهرات على مستوى الوطن، وكانت هناك مظاهرة مماثلة في أحمد آباد شهدت مشاركة واسعة من المسلمين. خلال هذه المظاهرة، كانت هناك شعارات كثيرة، منها 'من يتحدنا سيُسحق'. استغل الهندوس المتعصبون، الذين كانوا يتربصون بمثل هذه الفرصة، هذا الشعار للإيحاء بأن المسلمين يتوحدون

ويقوون. بعد أيام قليلة من المسيرة، جاء احتفال رام ليلا، حيث انتشرت شائعات عن انتهاك مزعوم لرامايان بواسطة مفتش مسلم. وبسرعة تشكلت لجنة 'هندو دهرم ركشا سميتي'، وانطلقت مظاهرة هائلة دفاعًا عن رامايان. بسرعة بدأت تحترق أحياء المسلمين، وتحت رعاية الحكومة، شهدت الهند المستقلة إحدى أفظع فتنها.'

قال: 'انظر، العقل الهندوسي يبحث عن الرموز. يشعر بالضيق الشديد من حقيقة أن حادثة المسجد الأقصى توحد المسلمين. يعتبر المسلمون أنفسهم أمة عالمية. على النقيض من ذلك، ليس لدى الهندوس ما يوحدهم. خذ مثلاً رامايان، لقد حاولوا منحها قداسة مماثلة للقرآن. ربما تعلم أنه مؤخرًا، في ذكرى الشيخ بيربخاري، سقطت حقيبة كتب بسبب دفع الشرطة. عندما علم المسلمون أن نسخة من القرآن كانت في تلك الحقيبة، شعروا وكأن النار اشتعلت في أجسادهم. تجمعت فجأة حشود تصل إلى أربعة أو خمسة آلاف شخص، واضطر رجال الشرطة للبحث عن طريقة للاعتذار. يريد العقل الهندوسي استخدام رامايان بنفس الطريقة، لكنه يدرك أيضًا أن العنصرية المتأصلة في هذه الأساطير الدينية تحول دون أن تصبح رمزًا عامًا'.

قال بنبرة تفكيرية: 'تأمل، العقل الهندوسي يجوب في بحث عن الرموز. يتألم عميقًا لأن حادثة المسجد الأقصى توحد المسلمين. يرون أنفسهم كأمة عالمية، بينما لا يملك الهندوس ما يوحدهم بهذا الشكل. خذ رامايان مثالًا، حاولوا تقديسها كالقرآن. قد تعرف ما حدث مؤخرًا في ذكرى الشيخ بيربخاري، حيث أدى تدافع الشرطة إلى سقوط حقيبة كتب. عندما علم المسلمون بوجود نسخة من القرآن ضمنها، اشتعلت فيهم نيران الغضب. تجمعت فورًا حشود تضم آلاف الأشخاص، واضطرت الشرطة للبحث عن سبيل للاعتذار. يسعى الهندوس لاستخدام رامايان بالطريقة نفسها، لكنهم يدركون أيضًا أن العنصرية المنغرسة في هذه الأساطير الدينية تحول دون تحولها إلى رمز عام.'

طرح الأستاذ مرتضى السؤال بتأمل: 'ما هي الوسيلة التي يستخدمونها لتوحيد شعبهم؟'

بصوت يمزج اليقين بالقلق، أجاب: 'ليس أمامهم إلا تأجيج العداء ضد المسلمين وصنع عدو خيالي في باكستان. ألم تسمع آخر خطب جولوالكر؟ كان هنا في أحمد آباد. منذ بضعة أشهر، أعلن أن الأقليات المسلمة في الهند تتمتع بالحماية الدستورية ولديهم قوانين خاصة، بينما لا يوجد شيء مماثل للهندوس. يرى جولوالكر أن حماية الهندوس ممكنة فقط ضمن دولة هندوسية. أعتقد أن الأيام المقبلة ستزيد من حدة العداء ضد المسلمين.' وغرق والدي في بحر من التفكير بعد هذه الكلمات.

نظر السيد عبد الأحد بعمق نحو محبوب عالم وسأل: 'في هذا الواقع المعقد، ما هو المسلك المتاح للمسلمين؟' وقبل أن يجيب محبوب عالم، تقدم الأستاذ مرتضى بكلماته: 'لا تنسى ما حدث العام الماضي في أحمد آباد، حيث وجه أسعد مدني في جلسة جمعية علماء انتقادات لاذعة لجن سنغ وآر إس إس، وألقى باللوم عليهم في فتنة ميرت. مع تأثيرهم الواضح في الكونغرس، ألا يبدو لك أن الحكومة لن تدع المتطرفين ينجحون في مخططاتهم؟'

بعبارات تنضح بالدهشة والتشكك، تحدث السيد عبد الأحد: 'يا عزيزي، تبدو الأمور وكأنك تفعل المعجزات. أتظن حقًا أن علماء جمعية علماء في غاية السذاجة لدرجة أنهم ما زالوا يعلقون آمالهم على حكومة الكونغرس؟ في جوجارات، من الأعلى إلى الأدنى، من رجال الشرطة إلى السياسيين، وحتى في الحكومة المركزية، جميعهم من الكونغرس. لا يمكن أن تكون جثث المسلمين التي تُنقل بالشاحنات للدفن الجماعي قد أتت من السماء. لماذا يتجاهل هؤلاء العلماء اللعبة الخفية بين السنغيين والكونغريسيين؟' تساءل السيد عبد الأحد، الذي غرق في تفكير عميق، بنبرة محملة بالإحباط والقلق.

بلهجة تشع بالإحباط، علق السيد محبوب عالم: 'يا السيد حافظ! ما دام الكونغرس يجد هذه النوعية من المشايخ، فلن يرى المسلمون في هذا البلد فجرًا جديدًا'.

ثم تابع بتأمل عميق: 'علماؤنا فقدوا البصيرة. نحن نشجب بحرارة السنغيين الذين يهاجمون المسلمين من خارج الحكومة، ولكن عندما يأتي الدور على السنغيين الكونغريسيين داخل الحكومة الذين يعادون المسلمين، تصمت ألسنتهم. بل إنهم يساندون هؤلاء المجرمين في حملاتهم الانتخابية. ليفتح الله على أعينهم.'

بنبرة تنم عن عمق الألم، تحدث والدي: 'هذا هو البلاء الأكبر.' واستطرد بعمق: 'لا تغتر بمظهر هؤلاء المشايخ المتظاهرين بالسياسة، ولا تنخدع بصلواتهم وصيامهم. هم في الواقع لا يعدون كونهم أقمارًا تدور حول أسيادهم في الكونغرس، يعملون جاهدين لإبقاء هذا الواقع المؤلم في قلب المجتمع المسلم. وفي كل الأحوال القاسية، لا يتزعزع ولاؤهم للكونغرس، إنها مكيدة مقززة. من ناحية، توجد مكائد السنغيين، ومن ناحية أخرى، خطة إبادة المسلمين المنظمة من قبل السنغيين الكونغريسيين. يصور هؤلاء المشايخ الأولى كأعداء والثانية كأصدقاء. يا له من أمر عجيب'!

ثم قرأ والدي البيت الشعري بنبرة محملة بالأسى، فغمرت الحاضرين حالة من الصمت المشحون بالقلق:

'لقد ضاعت ثروات الدين والمعرفة من أيدي أهل الله'.

'متاع دين و دانش لٹ گئی اللہ والوں کی'

بنبرة تخترق الصمت الثقيل، عبر السيد محبوب: 'بالفعل، يا السيد حافظ، أنتم على حق.' وتابع قائلاً: 'الأوضاع بالغة الخطورة، تنشأ منظمات هندوسية متطرفة جديدة. تم تأسيس فيشوا هندو بريشد منذ سنوات قليلة، وأعتقد أن تنظيم شيوسينا الجديد في مومباي يهدف صراحةً لإبادة المسلمين. الأمر المقلق حقًا هو تحول جن سنغ إلى قوة سياسية في الانتخابات الأخيرة، مما يشير إلى تحول جذري في مسار البلاد'.

'بلاشك، تنبئ العلامات بأن الأمور ستزداد سوءًا. ليت المشايخ الكونغريسيين يتوقفون عن تقديم الوعود الفارغة للمسلمين ويهيئوهم لمواجهة الواقع بدلًا من مداعبتهم بكلمات مهدئة'، أضاف السيد عبد الأحد بتنهيدة عميقة.

'من المثير للدهشة كيف يُلبسون هذه المذابح الوحشية ثوب الدين، ويتحدثون عن حرب دينية، دون أن يسمع صوت اعتراض من كبار الهندوس وشخصياتهم الروحية على هذه الفظائع، وكأن الضمير الجماعي للهندوس قد فارق الحياة'، تأمل أبي.

بنبرة يغلفها الحزن، علق السيد محبوب: 'بالفعل! التقارير القادمة من أحمد آباد توحي بأن البقاء هناك قد يكون إهانة للحياة نفسها. المشهد المروع لقتل الأطفال الأبرياء أمام أمهاتهم، وانتهاك النساء وقتلهن ببربرية أمام أفراد عائلاتهم، وتحول الأحياء إلى أراض خالية، وحتى اللاجئون الذين طلبوا الحماية من الشرطة قتلوا في الطريق إلى مخيمات اللجوء. صرخات الأطفال لم تلين قلوب هؤلاء الفسادين القاسية'.

ثم قال السيد عبد الأحد بتأمل: 'أنت على صواب. في أيام الاستقلال، ربما كان الناس تحت تأثير الهوس، لكن الآن، بعد عقدين، لا يمكن اعتباره مجرد جنون. هذا كله مؤامرة محكمة. من الضروري الإدراك بأنه في فتنة أحمد آباد، تم استهداف المساجد والضرائح بشكل خاص. يبدو أنهم يريدون محو كل ما يمثلنا من هذا البلد'.

'لا يبدو أنهم يدركون أن الإسلام بطبيعته يتمتع بالمرونة.' بينما كان السيد مرتضى يستعد لإكمال قصيدته، بدأ الأذان لصلاة العشاء في مسجد القرية. تمتم والدي بلا وعي: 'والله المستعان.' وعلى إثر ذلك، تفرق الحضور في مجلس الرجال.

في أعقاب العشاء، وفي حضرة والدتي، شرحت وجهة نظري الخاصة حول فتنة أحمد آباد، مستلهمًا من الحوار الذي دار في مجلس الرجال، مع تركيز خاص على مأساة الأطفال الأبرياء. ومن دون قصد، وجهت إليها سؤالاً مليئًا بالقلق: هل

سيصل المفسدون إلى قريتنا أيضًا، وهل من الممكن أن ينهوا حياتنا؟ عند سماعها لذلك، ضمتني والدتي إلى صدرها بمحبة عميقة، ومع قبلة على جبيني، قالت برفق: 'ابني العزيز! ليحفظك الله في حمايته، نحن في رعاية الله، ولن يتركنا أبدًا.'

في أعقاب العشاء، وجدت في كلمات والدتي بعض الراحة، لكن ظل هناك خوف يتسلل إلى أعماقي. في ليلة قمرية، بجانب الجزء من الفناء حيث الأحواض المزهرة بالورود، قطفت بغير قصد واحدة منها. كان عبيرها لا يزال يحمل إحساسًا بالنشوة. كان منجلا، الهندوسي، يعتني بهذه الأحواض، وكان دائمًا يقدم لي الزهور بحب، ويجلب لي الفواكه من الأشجار. وفي موسم الحصاد، كانت عائلته تنشغل بطريقة توفر لنا الأطفال أمورًا مسلية. في القرية، كان موسم الحصاد يبعث أجواء احتفالية. عندما يأتي وقت الأذان، وتستعد النساء للصلاة ويسود الهدوء مجالس الكبار، كان منجلا يستمع للأذان بإجلال شديد. كان جزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية، محبًا لنا نحن الأطفال. أحيانًا كانت تنتابنا شعور بالغربة عندما يعد طعامه منفصلاً بسبب ديانته، لكن الفكرة أنه ليس من عائلتنا لم تخطر ببالنا. الآن، في محاولة لفهم الأحداث المروعة في أحمد آباد وما ارتكبه الهندوس من فظائع، يبدو الأمر كلغز شديد التعقيد.

٣

مسجد المعراج

على مسافة ميل أو أكثر من القرية، كان هناك مزار هندوسي تاريخي يُعرف بـ'أهيلا سثان'. الأسطورة تقول إن آثار أقدام سيتا موجودة هناك. يُروى أن أهيلا، زوجة الحكيم جوتام، تحولت إلى حجر بفعل لعنة، وعندما مر راما وقافلته من هناك، لمس الحجر بقدمه المباركة، مما أعاد أهيلا إلى شكلها البشري. كان الاعتقاد سائدًا بأن الاغتسال في البركة القريبة من المعبد يشفي الأمراض الجلدية، وكان للباذنجان مكانة مرموقة في هذا المعبد، حيث كان الزوار يقدمونه كقربان. في أحد أيام الظهيرة، ربما في مناسبة رام نومي، حيث بلغ المهرجان ذروته، ذهبت أنا وأطفال العائلة الآخرون إلى المهرجان. كانت هناك جموع غفيرة، ألعاب متنوعة، ومتاجر تبيع مختلف البضائع، وكان الاحتفال في الهواء. بالقرب من المعبد، كان هناك زحام للحصول على البرشاد. عندما رأى الكهنة أننا لم نقترب، اقترب أحدهم ووضع حلوى في أيدينا رغم اعتراضاتنا، قائلاً إنها بركة من الإله للجميع. عند عودتنا، عندما حكينا للنساء الكبيرات في المنزل قصة الحلوى المجانية، نشأ نقاش حول ما إذا كان تناولها حلالًا لنا أم لا.

ما يميز هذا المعبد هو أن امرأة كانت تتولى منصب الكاهن الأكبر، وهو تقليد استمر لآلاف السنين. يحفل معبد أهيلا سثان بقصص العصور القديمة وإشارات متعددة من الرامايان، وكان المكان أكثر من مجرد معبد؛ إنه كان مركزًا ثقافيًا رائدًا في المنطقة. كانت ميكة سيتا تقع على مقربة. مر راما من هذا المكان، وبخطواته المباركة أنعش الحياة في كوخ الحكيم جوتام. كل عام، يتوافد الناس من كل الديانات للمشاركة في فرحة المهرجان، محتفلين بألق الحياة. حتى النظرة

الهندوسية هذه بدت مألوفة ومقربة. لكن، من هم هؤلاء الذين يطلقون على أنفسهم هندوس ويسعون لإبادة المسلمين من هذا البلد؟ بعد تأمل طويل، لم أجد إجابة واضحة لهذا اللغز.

في أثناء مشينا الصباحي مع والدي في لهريا سراي، كانت أصداء الأناشيد الدينية تنبعث من مكبرات الصوت في المعبد، مما يثير في النفس نوعاً من البهجة. كأنها أناشيد حمد وتمجيد ترتفع باللغة المحلية.

شري رادهي جوفيندا من بهجلي هاري كا بيارا نام هي
جو بالا هاري كا بيارا نام هي
نند لالا هاري كا بيارا نام هي
شري رادهي جوفيندا من بهجلي هاري كا بيارا نام هي
مور مكت سر جلبن مالا كيسر تيلك لجائي
فرندافن كي كنج جالي مين سب كو ناتش نتشائي
سب كو ناتش نتشائي
من بهجلي هاري كا بيارا نام هي
شري رادهي جوفيندا[1]

كانت ظاهرة العبادة للأشجار والحجارة في كل مكان تثير في نفسي حالة من الحيرة. وأحياناً، عند المرور بمعبد كالي ومشاهدة لغتها النارية، كنت أشعر بالذعر. لكن في مهرجان تشهات، حيث تمارس النساء الطقوس الروحية بتفانٍ ورطوبة، ومع الأناشيد الدينية التي تملأ كل ركن، كان ينبثق شعور بأن هذه الجماعات

[1]. في قلب شري رادهي جوفيندا، تتردد أصداء الحب الأبدي لاسم هاري
جو بالا، ذلك الاسم الذي يلامس الروح
نند لالا، اسم يعانق السماء
في ذكرى شري رادهي جوفيندا، يتجدد العشق في كل نبضة قلب
تاج الطاووس يتلألأ على الرأس، وعقد الورود يحتضن العنق، والزعفران يزين الجبين
في أزقة فرندافن الساحرة، ترقص الأرواح على إيقاع الفرح
في كل خطوة، رقصة الحياة
في القلب، تتردد الأنغام المقدسة
يا شري رادهي جوفيندا

تسعى نحو النور بطريقتها الخاصة. الهندوس العاديون، الذين كنت معتادًا عليهم، كانوا يبثون فيّ شعورًا بالألفة رغم غرابتهم الثقافية. أتذكر ذلك الصباح عندما مر براهمن الحي بسلة الزهور من أمام منزلنا، ناديًا 'نارايان نارايان'، متوقفًا للحظات لتحية والدي والاستفسار عن الأحوال، مبثوثًا الابتسامات قبل أن يواصل رحلته. فكرت كثيرًا، هؤلاء كلهم هندوس. فما الذي جرى لأبناء جلدتهم في أحمد آباد حتى يصبحوا معادين للمسلمين ويرغبون في إبعادهم عن هذا البلد؟

ذات يوم، خطر لي أن أسأل عم بشيرا عن هذا الموضوع. على الرغم من أنه لم يكن عمًا بالدم، إلا أنه كان مرتبطًا بعائلتنا، بمثابة عامل، وفي تقاليدنا الشرقية، كنا نناديه باحترام بـ'عم بشيرا'. كان دائمًا مطلعًا على شؤون الدنيا، مشغولًا بقراءة الصحف أو تعديل مؤشر الراديو. في كل مرة أراه، كان غارقًا في نشوة روحانية، بعيدًا عن هموم الحياة الدنيوية. عندما كان يرتل 'يا رسول الله، أعطنا العون' في محضر الرسول ﷺ، كان يغمر المستمعين بحالة من النشوة. النساء الكبيرات في السن كن يذرفن الدموع.

'يا رسول الله، أعطنا العون، وإلا ستتناثر دموعنا كاللؤلؤ

إن لم تمنحنا عطفك، سنفنى

هذه آلام الدنيا، هذا الألف من الظلم،

يا نبي، إن لم تكن سندنا، إلى من نلجأ وأين نذهب؟'

في أحد الأيام، خطر لي التحدث مع عم بشيرا حول هذا الموضوع. كان يقضي معظم وقته في مجلس الرجال، وكان البعض يسخر منه بلقب 'الحاج بمبيا'، لعله لأنه سافر ذات مرة مع قافلة الحجاج إلى مومباي وعاد منها. كان يغني المنقبت ليواسي نفسه، مؤمنًا أن دعوة النبي ﷺ ستأتيه يومًا ما. 'استمروا في تحمل الغم والابتسام' كان يرددها بعاطفة، وكأنه يرى القبة الخضراء على مرمى حجر.

'استمروا في النشيد والغناء

المصائب ستتحول للخير ببركاتهم

الألم والحزن سيأتيان ويزولان'

في تلك الأيام، كانت إذاعة سيلون تبث الأناشيد الدينية التي تتحول إلى قوالي. كنت أجهل كم من العزاء تحمله هذه الأغاني للقلوب المتألمة.

في البداية، حاول عم بشيرا تجاهلي. لم يعر اهتمامًا لوجودي، كأنه غارق في عالم آخر. بعد صوت الراديو، توقف المؤشر على محطة كانت مغنية تؤدي فيها بصوت حزين ساحر:

كيف لنا أن نبحر في رحلة الحياة بدونك؟
أتركنا تائهين وسط عواصف تتلاطم.
في عباب البحر المتلاطم، هل سيغرق مركبنا؟
غابت الشمس خلف الأفق، وأدركنا الظلام،
في زمن الحياة المجهول، متى يبزغ فجر جديد؟

شعرت وكأن هذه الأغنية الحزينة التي بثتها الإذاعة كانت تعكس حزن حياتنا الوطنية. كنت في السابق أعتقد أن هذه الأغاني لا تعدو كونها مجرد ترفيه، لكن في ذلك اليوم، بجلستي مع عم بشيرا، أدركت كيف أن هذه الأنغام تتداخل مع قصص حياتنا. قبل أن يتحرك عم بشيرا ليعيد ضبط الراديو على محطة جديدة تبث نغمة أخرى أو قوالي، مددت نحوه الجريدة الطازجة قائلاً: 'اترك الجريدة الآن، أخبرني أولاً، ما السبب الحقيقي وراء الأخبار المقلقة عن قتل المسلمين في أحمد آباد؟ ما الذي جرى لهؤلاء الهندوس ليرغبوا فجأة في طردنا من البلاد؟'

همس بثقل: 'هي السياسة، والدين ليس إلا ذريعة.'

ما المعنى؟ لم أفهم ما تقصد، سألته. 'أليس الهندوس يعيشون حول قريتنا أيضًا؟ منجلا وعائلته الهندوس، كم هم رائعون'!

عندما استمع عم بشيرا إلى أسئلتي البريئة، ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة. قال بلهجة تحمل عمق الخبرة: 'يا بني، الهندوس العاديون لا يكنون لنا العداء. لقد كانت لنا علاقات عريقة معهم عبر القرون. ولكن الطبقة الحاكمة من الهندوس لا تتقبل تحدي هيمنتها. قبل وصول المسلمين إلى هذا البلد، لم يكن يُنظر إلى هندوس الطبقات الدنيا كبشر لآلاف السنين. الكثير منهم تأثروا بمبادئ

المساواة في الإسلام واعتنقوه. بعد الاستقلال، لم يقتصر الدستور على ضمان المساواة والعدالة والحرية والأخوة فقط، بل منح أيضًا مزايا مثل الحصص الخاصة لهندوس الطبقات الدنيا. ترى الطبقة الحاكمة من الهندوس الإسلام والمسلمين مسؤولين عن هذا التحول الاجتماعي والفكري. بعض التنظيمات الهندوسية تعتقد أن استقرار سيطرة الطبقات العليا من الهندوس لن يتحقق ما دام المسلمون يحملون رسالتهم الفكرية في هذا البلد.'

في تلك اللحظة، لم أستوعب تمامًا تحليل عم بشيرا، لكنني شعرت بفهم مبدئي يلوح في الأفق، إدراك أن الهندوس ينقسمون إلى فئتين. في صفوف الهندوس الطيبين كان منجلا، والكاهن الصغير في المعبد الذي كثيرًا ما رأيته يتبادل الحديث مع عم شبراتي، وهو نفسه الذي قدم لنا الحلوى في المهرجان. أما عن الهندوس الأشرار، فلم أصادفهم شخصيًا حتى ذلك الحين؛ فقصص وحشيتهم وصلتني فقط عبر صفحات الصحف.

ذات يوم، لمحت في الأفق امرأة تحمل على رأسها جرة ماء وترافقها طفل في السابعة أو الثامنة من عمره. هذا أحمد، رفيق ألعابنا. فجأة، اجتاحت رياح شديدة، فقدت الأم توازنها وانزلقت الجرة من رأسها. صرخة قوية تخترق الهواء، ورأس أحمد يتدحرج من على كتف أمه ككرة قدم ليستقر بعيدًا. ومع ذلك، تستمر الأم في المشي مع جثة الطفل بلا رأس. خطاها لا تتوقف. فجأة، صخب يعم المكان. جمع من الناس يحملون الرماح ويرددون 'جاي بجرانج بالي'. وها هو الكاهن في المعبد، ومنجلا، حاملاً عصا كالتي في قصص السحر، تتطاير الشرر من طرفها. يقترب مني، وقبل أن يباغتني، انطلقت صرختي. توقظني والدتي من الحلم، 'هل كنت تحلم؟ كابوس؟' تقول وهي تعاتب: 'لا تقرأ قصص السحر قبل النوم.'

كيف لي أن أوضح لهم أن هذا الخطر ليس مجرد وهم؟ الكوارث التي حلت بعدد لا يحصى من الأمهات في أحمد آباد، والحوادث المفصلة التي ما زالت تملأ صفحات الصحف والمجلات. يوماً ما، رأيت بأم عيني في محيط بيتنا، حيث تنتهي الحدائق، الغزلان تقفز، السماء مغطاة بالغيوم، الأطفال يلهون في ألعابهم. فجأة،

ظهر راكب على حصان، ممسكاً بسيف، يتجه نحونا. هذا السيف هو ذو الفقار، الذي يتدلى في منزلنا بكل فخر. وهذا الفارس، يشبه منجلا، لا، إنه منجلا بالفعل! استيقظت من نومي مذعوراً. منجلا الذي نعرفه ليس بهذا الشكل، فلماذا يظهر في حلمي وهو يشهر سيفه نحوي؟

في إحدى الليالي، انتقلت في الحلم إلى مسجد المعراج. هناك، شاهدت أناسًا يحاولون إطفاء شمعة في الطاق. كلما أخمدوا اللهب، كنت أسرع إلى إعادة إشعاله. استمرت هذه اللعبة بين الإضاءة والإطفاء. مع تكرار هذه الأحلام، بدأ العالم من حولي يتخذ طابعًا سحريًا حتى في وضح النهار. في الرواق، كانت رؤوس الحيوانات البرية المعلقة على الجدران لفترات طويلة توحي بإمكانية إعادة إحيائها بسبب تعويذة ما. الحقول الخضراء والأشجار المثمرة والبط والبجع في البرك، التي كانت تمثل السكون والسرور، أصبحت مصدرًا للقلق والخوف. كنت دائمًا على حذر من أن يظهر عدو فجأة من وراء شجيرة، مسلحًا بسيف. ظهرت صورة أحمد برأس مقطوعة مجددًا في مخيلتي. ذات يوم، في ضوء الظهيرة، عندما كنت عائدًا إلى المنزل، سمعت صوتًا يقول 'خدا حافظ'. التفت لأرى من هو، لكن لم يكن هناك أحد. تقدمت بضع خطوات وسمعت الصوت مرة أخرى. عندما تحدثت عن هذا مع والدي، لم يعطه أهمية كبيرة، قائلاً: 'إنه فقط يقول خدا حافظ، لا داعي للقلق.'

في تلك الأيام، كانت القصص عن الجن والأشباح محور حديث القرية. ربما كان بعضها من خيال العجائز، اللواتي كنّ يروينها للأطفال عند المغرب ليبقوا داخل البيوت. كانت هذه الحكايات تُسهل السيطرة على الصغار، الذين كانوا يبتلعون طعامهم بسرعة، خوفًا منها. لكن تجربتي مع هذه القصص كانت مختلفة. عندما وصلت إلى القرية لأول مرة، كانت الطبيعة الغنّاء بأشجارها المثمرة ومروجها الخضراء تبعث فيّ شعورًا بالفرح لا يوصف. لا أذكر أنني سرت يومًا إلى المدرسة بثقل أو كآبة، بل كنت أقفز كالغزلان. لم أكن أدرك معنى هذا الشعور آنذاك، لكن الآن، أدرك أن العيش في حضن الطبيعة، حيث تتجلى الحياة في أبهى صورها،

بعيدًا عن التمييز العنصري أو الطبقي أو الديني، وفي وجود براءة الطفولة، يجعل أيّ شخص ينجذب إلى هذا الوادي الساحر. لكن حادثة حرق مسجد المعراج والأحداث المتواصلة في أحمد آباد، التي أدت إلى تدمير منازل المسلمين، قد سلبتني طفولتي. الحقول والمروج، التي كنت أتجول فيها بحرية سابقًا، بدأت تثير فيّ شعورًا بالرعب. الشجيرات والأشجار التي تأتي إلى الحياة في أحلامي، أصبحت مصدرًا للرعب الذي لا يوصف.

في أحد الأيام استيقظت فجأة وشعرت كأن الكوابيس المرعبة تحولت إلى واقع ملموس. صرخت 'انظروا! هناك نار، دخان، رمح... وفي يده سيف ذو الفقار!' كأن السماء تتهاوى فوق رأسي. الناس حاولوا تهدئتي وإيقاظي من خدري. كنت أشير هنا وهناك في حيرة. 'لكن لا أحد هنا في الفناء... انظروا، إنه منجلا!' وعندما عادت إليّ حواسي، ما رأيت؟ منجلا يروي الزهور. لدى رؤيتي في حالة هلع، أراني ابتسامة أسنانه وقال: 'يبدو أنك خائف، يا صغيري'، وقدم لي وردة طازجة. هذه السلسلة من الأحلام المطولة دفعت والدي للقلق عليّ، خائفًا من بقائي غارقًا في عالم القصص الأسطورية. قرر أن حان الوقت لبدء تعليمي بشكل رسمي، فأخذني إلى المدينة. كان يتوقف عند الباب، يعدل أزرار شيروانيه، يودع والدتي، يتقبل منها قطعة بان رغم عدم ميله لها. في تلك المرة، مدت والدتي إليّ بعض الطعام وسلمتني لوالدي.

٤

هذا ليس بفجر أحلامنا المنتظر

لم أشعر بأسف عند مغادرتي للقرية في البداية، وذلك ربما لأن رحلتي جاءت مفاجئة ولم يتح لي الوقت للتفكير في تداعياتها. ولكن، عندما أطلق القطار صافرته وبدأت حقول القمح المتمايلة وصفوف الأشجار تودعني من خلال النافذة، تذكرت بلهفة حياة القرية المفعمة بالفرح، وجلسات الأصدقاء، وليالي الجمع في غرفة الرجال. ثم امتلأت بالراحة عند تذكر أن المدينة ستكون مليئة بالكتب المثيرة للاهتمام، والصحف والمجلات بوفرة، وأنني سأتمكن من حضور المجالس العلمية في المكتبة. وفي الآونة الأخيرة، كنت أشعر بالوحدة بين رفاقي، كأنما همسات تتردد في أذني، وكنت أعاني من الخوف من اتساع الحقول والكروم. فقررت أن الانتقال إلى المدينة سيحررني من هذا الخوف.

بعد أيام قليلة فقط من وصولي إلى المدينة، فوجئت ذات صباح بطرقات على الباب. إذ به عالم، سائق الركشة، يقف على العتبة والدموع تغمر عينيه، يحاول التحدث وسط نوبة من العواطف المتأججة. والدي يحاول تهدئته، لكنه أيضًا يكافح لإخفاء دموعه. تبين لي أن الأحداث الدامية التي قرأنا عنها في أحمد آباد قد وصلت إلى منزل عالم. كان معروفًا بجده وأمانته، وكان من بين العديد ممن يثقون بوالدي لحفظ مدخراتهم، آملين في استثمارها في المستقبل. والدي، في هذا السياق، تحول إلى بنكر يُدير أموالهم. عالم كان قد جمع مبلغًا محترمًا من المال بعد سنوات من العمل الشاق، لكن أحداث أحمد آباد المأساوية قد حطمت كل آماله. فقد قُتل أخوه في الفتنة وتدمر نصف عائلته، ما ألقى بظلال الحزن واليأس على حياته.

"لم يبق لي شيء، لا أستطيع رؤية أي مستقبل أمامي"، هذه الكلمات التي تنهمر من عالم، سائق الركشة، وهو يبكي بحرقة. والد صاحب يحثه على الصبر، "الآن عليك أن تتولى رعاية أطفال أخيك، وتوفير أفضل التعليم والتربية لهم. مسؤولياتنا أصبحت أكبر الآن. علينا أن نبقى ثابتين في جميع الظروف، وإلا ستزداد ثقة أعدائنا". عالم، بعد أن أفرغ قلبه من همومه وغادر، ترك في نفسي إحساساً عميقاً بواقع الوضع المأساوي الذي يواجهه المسلمون في أحمد آباد. لم يعد الأمر مجرد أخبار بعيدة، بل أصبح تجربة حقيقية ومحسوسة، قلبت حياة عالم وخططه المستقبلية رأساً على عقب.

في اليوم التالي، أعاد الأستاذ ذكي فتح موضوع الفوضى في أحمد آباد. كان الأستاذ ذكي معروفًا كأستاذ للرياضيات في الكلية المحلية، لكنه كان يعبر دائمًا عن اهتمامه العميق بشؤون الأمة ومصائرها. عادة ما كان يتوقف في المكتبة لفترة قصيرة بعد عودته من الكلية ليناقش الأحداث الجارية أو يطرح موضوعًا علميًا للنقاش. في ذلك اليوم، كان يبدو على عينيه قلق واضح ويأس ملموس.

قال بنبرة جادة: "الأوضاع مزرية، يا أستاذ، يمكن القول إننا نواجه مرة أخرى وضعًا مشابهًا لسقوط دلهي." ثم تابع قائلًا: "التفاصيل التي تتوارد بشأن أعمال الشغب في أحمد آباد تشير إلى أنه كانت هناك كارثة حقيقية هناك. هل يتذكر الناس هجوم نادر شاه؟"

رد والدي بتعبير يحمل القلق والتأمل: "نعم، الله يستر، الحالة خطيرة جدًا. منذ عام ١٩٤٧، نواجه يوميًا نوعًا من الانهيار. انهيار دلهي معروف للمؤرخين، لكن الانهيار الذي نعيشه منذ ذلك الحين غالبًا ما يغيب عن الأنظار. ألا تعتقد أن هناك شيئًا ما ينهار ويتفتت يوميًا ولا يبدو أن هذه السلسلة ستتوقف؟"

"بالتأكيد، هذا صحيح"، قال الأستاذ ذكي مؤكدًا. وأضاف: "كنا نعتقد أن جراح التقسيم ستشفى بسرعة وسيعود الحياة إلى طبيعتها، ولكن أعمال العنف في أحمد آباد دقت ناقوس الخطر. حتى المسلمون في الكونغرس يشعرون بالقلق. مولانا عبد العليم زار السيد بالأمس، ولم نره قط بهذا القدر من القلق. يقول إن

الكونغرس تخلى عن المسلمين. إندرا غاندي تواجه معارضة من زملائها حول قضية المسلمين. في مثل هذه الأوقات، يقول مولانا إنه بدلاً من انتقاد رئيس الوزراء ومهاجمته، يجب أن ندعمه".

"غريب!" عبّر والدي عن دهشته وقال: "متى سيدرك هؤلاء العلماء الحقيقة؟"

"ما الذي سيحدث بعد ذلك، يا أستاذ؟" سأل الأستاذ ذكي بفضول.

"أعتقد أن جيلاً كاملاً سيمضي فقط في فهم هذه الخدعة. وعندما يفتح الناس أعينهم، سيدركون حقيقة الحرية ونوع الديمقراطية التي نعيشها."

"كما قال فيض 'هذا ليس بفجر أحلامنا المنتظر'"، تحدث السيد شادان فاروقي، الذي كان يبدو وكأنه منهمك في قراءة كتاب، مستمعًا للحوار. وقال: "الإحباط يغلف كلا جانبي الحدود. بالنسبة للمسلمين، الاستقلال جاء كتقسيم مأساوي، قسم قوتهم العددية إلى ثلاث مناطق جغرافية مختلفة. وبالنسبة لما تحدثتم عنه من سقوط دلهي، فالجرح النفسي لهذا الحدث لا يزال نازفًا، محملاً بالألم والذكريات المؤلمة".

كانت أحاديث الكبار تختلط في ذهني، بعضها يصل إلى فهمي وبعضها يظل عصيًا على الاستيعاب. تملكني التفكير في جراح غامضة، تنزف دون أن تظهر للعيان. لم يكن السيد شادان يتحدث حتمًا عن ذلك الطفل بلا رأس الذي يطاردني في أحلامي، والذي يتركني في حالة من الذعر الممتد لأيام. صورة رأس الطفل وهو ينفصل فجأة عن جسده ويتدحرج، والدماء تتفجر من الشريان السباتي، تستقر في مخيلتي. أتذكر عالم، سائق الركشة، وكيف كان صادقًا في كلامه. بعد جهد جهيد وكدح مضني، كان قد ادخر مبلغًا من المال، يخطط لاستقدام أخيه من أحمد آباد، والشروع سويًا في مشروع تجاري صغير بهذه المدينة. لا تفارقني ذكرى بكائه المرير كالأطفال وهو يتساءل: أليس للمسلمين الحق في عيش كريم وآمن في هذا البلد؟ هذا السؤال يعود إلى ذهني مرارًا، ولكن الجرح

النازف المستمر، والطفل بلا رأس، وتدفق الدم، كل هذا لم يكن كافيًا لرسم صورة واضحة.

كانت المكتبة تتلقى يوميًا رسائل بريدية متنوعة. صحف ومجلات مختلفة، بطاقات بريدية، ظروف مليئة بالأسرار، قوائم بأحدث الكتب، رسائل دعوية لقراءة الفاتحة، نماذج حوالات بريدية من الزوايا والخانقاهات لإرسال الصدقات والهبات الخيرية. في بعض الأحيان، كانت الظروف تحمل قطعًا من الحلويات المحلاة بالسكر (شبيهة بالبسكويت الحلو) كهدايا مباركة، مرسلة بأمل في تحفيز الناس على التبرع. ذات يوم، استوقفني إعلان في مجلة منادي عن كتاب 'أعمال حزب البحر'. أفاد الإعلان أن هذه النسخة الجديدة تضم أعمالًا خاصة، كان الشيوخ يخفونها لسنوات، وأبرزها عمل لتغيير القدر، مسجل من قبل الحضرت خواجه لأشخاص خاصين فقط. وكل هذا بثمن زهيد، ثلاثة روبيات وخمسون بيسة بالإضافة إلى ضريبة البريد. أيقظ هذا الإعلان فضولي نحو الكتاب. وفي نفس المجلة، كان هناك إعلان آخر عن كتاب للخواجه يسمى 'أسرار كلام الله واسم أعظم'. كان الشرط للحصول عليه إرسال تعهد خطي بالسرية، إذ يحتوي الكتاب على أسرار لا ينبغي أن تصل إلى غير المؤهلين. في الصفحة التالية، كان هناك إعلان عن مشاركة في حفل ديني (مشابه للاحتفالات الصوفية)، وكانت الدعوة مفتوحة لمن يريدون الدعاء أو قراءة الختم لأمر معين، مع توضيح كيفية التواصل للحضور.

لماذا لا نجرب هذه الطريقة أيضًا؟ ربما كانت تلك الوسيلة لحل المشكلات ستصيب هدفها. لكن، حتى بعد ذلك، ظلت الشكوك تعتمل في قلبي، وساوس تدور في ذهني. ولكن مع ذلك، تغلب علي الفضول. قررت إرسال بطاقة بريدية إلى الحجرة القديمة في الدرغاه للحضرة خواجه نظام الدين. بعد عدة أيام سادت فيها الصمت، استقبلت ذات يوم ظرفًا إعلانيًا، بداخله قطع من الحلويات البيضاء المحلاة بالسكر، ونموذج حوالة بريدية مطبوعة بالعنوان الكامل للمستلم. كانت هذه أولى بركات قلمي. عندما اكتشف والدي أنني أرسلت بطاقة

بريدية إلى الخواجة حسن الثاني بنية حل المشكلات وتغيير القدر، وأن هذه الحلويات وصلت كرد على ذلك، لم يفعل سوى أن ابتسم بصمت.

مع اقتراب الشتاء، ومع بداية العام الجديد، كانت هناك استعدادات لتسجيل أخي أرشد، الأكبر مني بسنتين أو ثلاث، في المدرسة. كان هناك معلم يأتي يوميًا لتعليمه الإنجليزية والرياضيات، ولتدريبه على الخط الجميل. كان خطه رائعًا بحق؛ فعندما كان يخط بقلمه المصنوع من البامبو على الورق السميك، كنت أقف مشدوهًا، أتأمل بإعجاب حركات أصابعه وإتقانه لهذا الفن. ذات يوم، وأنا أحمل فنجان الشاي للمعلم، وقع نظري على عصا معلقة على الباب. خطرت لي فكرة غريبة. كان المعلم يجلس على حصير، يضع الورقة الكبيرة في حضنه، ويغمس قلمه في المحبرة الموضوعة على الأرض، منغمسًا في عالم إبداعه. بحركة خفية ومحسوبة، تلاعبت بمقبض العصا بطريقة جعلت المحبرة تنقلب فجأة. تبدد تركيز المعلم في الحال. قام أرشد وقفًا، لكن قبل أن يستوعب الجميع ما حدث، كنت قد اختفيت من المشهد. عندما علم الجميع في البيت بالحادثة، تساءلوا كيف يمكن لمثل هذه المقالب أن تصدر مني. للحظة، شعرت بفرح غامر لأن خطتي نجحت، لكن سرعان ما غمرني الندم. والدي، بدلًا من توبيخي، أورد عبارة ذات مغزى عميق: 'من يمنحه الله شيئًا مثل العصا، تكون عليه مسؤولية أكبر'. لم أتبين الأبعاد الفلسفية لهذا القول آنذاك، ولكن الآن، وأنا أتأمل فيه، أدرك قيمة هذا النهج في التربية.

لم تكن هناك خطط محددة لتسجيلي في المدرسة حتى ذلك الحين. كانت كل الاستعدادات منصبة على أخي الأكبر، لكني أبديت إصرارًا شديدًا على الانضمام إليه. شعرت بألفة معينة تجاه أجواء المدرسة. لفت انتباهي أن معظم المعلمين كانوا معارف لي، إذ كثيرًا ما كانوا يزورون المكتبة. الأستاذ إنس، معلم الصف السادس، كان يدرس الرسم للطلاب. بخطوط قلم الرصاص على الورق الأبيض، أبدع رسم كرسي جميل، تطورت الصورة لتظهر صحنًا وكوبًا من الشاي على الكرسي. ثم أضاف بضع خطوط ببراعة لتظهر كأن البخار يتصاعد من الكوب.

كانت العملية برمتها تنضح بالجاذبية. خطر لي أن إذا كان هذا هو أسلوب التعليم في الصف السادس، فستكون التجربة مليئة بالمتعة والإثارة. وبفضل إصراري الشديد، تم قبولي في الصف السادس مع أخي أرشد.

لم تكن المسافة بين المدرسة والمنزل تزيد عن كيلومترين. على هذا الطريق، كانت هناك مدارس أخرى، وكانت أكبر مدرسة حكومية في المدينة قريبة أيضًا. اخترنا هذه المدرسة لأنها كانت تتميز بأجواء دينية، وكان معظم طلابها ومعلميها من المسلمين. في نهاية المدينة كانت هناك مدرسة تبشيرية مسيحية، لكن المسلمين كانوا ينظرون إلى تسجيل أطفالهم هناك على أنه خطيئة أو على الأقل مشين. كانت اللغة الأردية تحظى بأهمية كبيرة في هذه المدرسة؛ لم تكن مجرد وسيلة للتعليم، بل كان هناك نوادي للكتب والمجلات في كل فصل، ونشاطات أسبوعية لنادي الأردية. هناك، لأول مرة، أدركت أن المجتمع المسلم منقسم إلى طبقتين: الأشراف والعوام. وهناك أيضًا سمعت لأول مرة عن عبد القيوم أنصاري. كان غالبية الطلاب، القادمين من المناطق ذات الأغلبية المسلمة في المدينة، يعجبون به. كان عبد القيوم قائدًا في مؤتمر المؤمنين، وكان مؤيديه يرون في إندرا غاندي مناصرة للمسلمين. لم يكن لدى هؤلاء الطلاب دلائل عقلانية لدعم موقفهم، ولم أكن أنا بعد لدي النضج السياسي الكافي لفهم تلك القضية. لكن بقي في ذهني انطباع بأن هناك انقسامًا عميقًا بين المسلمين حول موقفهم من حزب المؤتمر، الذي أحدثت حكومته في أحمد آباد كوارث على المسلمين، وكانت تفاصيلها ما زالت تثير القشعريرة حتى اليوم.

ذات يوم، انتشر الخبر أن رئيسة الوزراء إندرا غاندي ستزور مدينتنا. كانت ستخاطب الجماهير في ميدان بولو، الذي لم يكن بعيدًا عن منزلنا. في تلك الأيام، حيث كانت الأراضي الغير مأهولة تمتد لمسافات، كان بإمكاننا رؤية الميدان بوضوح من المكتبة. كانت فرصة لا تتكرر. حصلت على إذن من والدي وذهبت إلى التجمع الانتخابي. كانت المناسبات التي يزور فيها زعماء سياسيون أو شخصيات علمية أو دينية المدينة تشكل استثناءً يُسمح لنا بحضورها. تجمع حشد غفير

لسماع السيدة غاندي. كان خطابها مفعمًا بالتوسل والرجاء، لكنه خلت من الحماس والعاطفة. كان في صوتها نبرة ساحرة تغرس في المستمع شعورًا بأن كلماتها قد تكون صائبة، وأن التصويت لها لن يكون خطأً، وأنها إذا فازت بأغلبية ساحقة، ستنهي الفقر في البلاد. عندما عدت وأخبرت والدي بأن إندرا غاندي تريد القضاء على الفقر، ابتسم على سذاجتي وعلق قائلًا: إنها في الواقع تريد القضاء على الفقراء أنفسهم، وليس الفقر. 'لا بانس ولا بانسري' - لا شجر ولا ناي.

زيارة إندرا غاندي للمدينة أحدثت ضجة كبيرة. شعارها المغري 'إزالة الفقر' كان قد زاد من شعبيتها بين الناس، لكن ذكرى أحداث أحمد آباد الأليمة - التي وقعت تحت إدارة حكومتها - كانت لا تزال حية في الأذهان. كان المسلمون يعيشون في حالة من الحيرة والتساؤل عن مستقبلهم. هل سيصوتون مجددًا لحزب المؤتمر؟ لا يزال صدى خطاب السيدة غاندي في ميدان بولو يرن في أذني، خطابٌ مليء بالعطف تجاه الفقراء والمستضعفين. فلماذا كانت نظرة والدي ناقدة ومعارضة لها؟ كان الأمر محيرًا بالنسبة لي. كان والدي يعوّدنا على قراءة الأخبار له. في إحدى المرات، أخبرته أن جماعة المؤمنين قد أعلنت دعمها لإندرا غاندي بصورة جماعية، وحثت المسلمين على التصويت لها. سألني أن أحضر الجريدة له، فأظهرت له الصفحة التي تحتوي على إعلان مؤتمر المؤمنين الهندي. كان موقعًا من قبل 'عبد القيوم أنصاري'. نعم، إنه ذات العبد القيوم الذي كان طلاب المدرسة يتحدثون عنه بحماس. تذكرت ذلك فجأة، لكن لا تزال الحيرة تسيطر علي: كيف يمكن لإندرا غاندي، هذه الشخصية اللطيفة المهتمة بالفقراء، أن تسمح بمثل هذا الظلم ضد المسلمين في أحمد آباد تحت حكومتها.

في أحد الأيام، بينما كنت غارقًا في قراءة صحيفة 'دعوت'، دخل إلى المكتبة أحد الأعيان. كان يرتدي ملابس تقليدية جنوب آسيوية، تتكون من قميص طويل وسروال خفيف، بالإضافة إلى سترة خفيفة فوق القميص. كان يمتاز بوجه مضيء وعيون جادة تطل من خلف نظاراته الكبيرة. كنت أعرف هذا الرجل الكبير، المعروف بجولاته الوطنية لدعم صحيفة 'دعوت'. كان من معارف والدي

وكان يعتبر جدًا لنا. في غياب والدي، اغتنمت الفرصة ووجهت له سؤالاً بطريقة تنم عن فضول فكري:

'جدي، هل ستصوت لإندرا غاندي؟'

ابتسم ردًا على سؤالي المفاجئ، قائلاً: 'يا بني، نحن لا نعطي أصواتنا لأحد. لقد وهبنا صوتنا لله'. لم أستوعب كلماته كاملةً في تلك اللحظة، لكني لاحقًا أدركت أن المنتمين لجماعة الإسلامي يعتبرون تقوية نظام الكفر بأصواتهم خيانة لإيمانهم. دخل والدي بعد ذلك. بقي سؤالي من دون إجابة شافية، لكن من خلال حديثهما استنتجت أن الكلمات المعسولة للسيدة غاندي لم تكن كافية لكسب قلوب كبارنا.

٥

علامة خورش

في أيام الجمعة، كانت المكتبة تتحول إلى خلية نشاط. منذ الصباح، يبدأ الزوار من القرى والبلدات المجاورة في التوافد. بعضهم كان يصل في عرباته الفاخرة، تجرها الخيول ومزودة بكل وسائل الراحة. عند نزول العم شحمة من عربته، كان عطره يفوح في المكان. النواب بيغمبربور كان يأتي متكئًا على عصاه، ويدعي أن الأطباء نصحوه بالمشي، علمًا بأن الجميع كان يعرف أن هذه الأعذار تُستخدم لإخفاء الحاجة المادية. كان هناك رجل دائمًا في حالة من الذهول، يُعرف بـ'علامة خورش'. كان قد فقد بصره، لكنه في شبابه قرأ الكثير. كان حديثه يتخلله الشعر الفارسي والأردو، لكن بعد أن أصابه الجذب الروحي، أصبح يميل للصمت. كان يتحدث عندما يشعر بالرغبة في ذلك، متدفقًا بالعلم والمعرفة. لكن في بعض الأحيان، كان يتلعثم وتتبعثر كلماته، ويفقد السيطرة على نفسه، ويظهر على وجهه حالة من التشنج، كأنما فقد قدرته على الكلام. كانت عيناه الدامعتان تبحثان في الفراغ. في مثل هذه اللحظات، كان عجزه مؤثرًا. اليوم، وبالصدفة، كان العلامة خورش والبروفيسور حاضرين في مجلس الجمعة. كان البروفيسور يستمتع بالأطعمة الفاخرة، بينما كان العلامة خورش يتبع نهجًا زاهدًا في الطعام. كان يتقبل ما يُقدم له بفرح، دون شكوى. اليوم، كان مزاجه غير معتاد. قال: 'لا أعلم متى سيحظى المسلمون الهنود بفرصة أداء صلاة الجمعة حقًا. كل هذه مجرد طقوس بلا روح نحن عالقون بها. تحت الاستعمار، يبدو كل جمعة وكأنها رش الملح على الجراح.'

لم يعد اليوم هناك من يفهم هذه الأمور،" علق العمشحمة، معبرًا عن حيرته العميقة. "أصبحت تعزيز العلمانية الآن هدفًا قوميًا. انظروا كيف يحاول القادة البارزون جعل دعم حزب الكونغرس الإندرا واجبًا إسلاميًا".

"لكن ما الخيار الآخر المتاح للمسلمين؟" تساءل نواب بيغمبربور، وفي صوته نبرة من الاستسلام. "حزب الكونغرس، بكل ما فيه، على الأقل يظهر بعض التعاطف مع المسلمين".

"لكن ما فائدة هذه الكلمات الفارغة؟" استفسر العم مرة أخرى بتأمل. "هذا لم يعد حزب نهرو وغاندي القديم. خذوا مسألة ذبح البقر، مثلاً. كان غاندي يعارض فرض الحظر على الذبح رغم الضغوط الشعبية. وحتى نهرو لم يسمح بتشريع يحظر ذبح البقر. لكن القادة الجدد يبدو أنهم قبلوا بحظر ذبح البقر كجزء من مبادئهم. وإندرا تبدو وكأنها تسعى لتجاوز حتى الهندوس المحافظين في هذا السباق." أعرب العم شحمةعن قلقه البالغ بهذه الكلمات.

"ماذا يمكن لإندرا أن تفعل؟ ألم تروا كيف احتشد الملايين ضد ذبح البقر، محاصرين البرلمان؟ حتى ثلاثة من الشانكاراشارياه، القادة الدينيين الهندوس، خرجوا دعمًا للمتظاهرين. حتى وزير الداخلية غلزاري لال ننداكان يتعاطف معهم، ويُقال إنه كان متواطئًا معهم. فما الذي كان بوسع الفقيرة إندرا أن تفعل؟ اتخذت الخطوة التي يتخذها أي سياسي في مثل هذه الظروف. الحقيقة هي أن المزاج العام في البلاد يتغير." شرح العم شحمة وجهة نظره بهذه الكلمات. "وفوضى أحمد آباد، كانت نتيجة للصراعات الداخلية في حزب الكونغريس. مجموعة مرارجي ديساي تريد إضعاف إندرا، ولديها دعم من الهندوس المحافظين. في هكذا ظروف، لا يمكن لإندرا أن ترفع راية المسلمين.

فكيف يأمل هؤلاء من العلماء وقادة مؤتمر المؤمنين والشخصيات المسلمة البارزة في أن يدافع حزب الكونغريس عن المسلمين ويعمل لمصلحتهم؟" تساءل نواب بيغمبربور بهذا الاعتراض.

"هؤلاء الناس مجانين، مجانين تمامًا." قال البروفيسور بنبرة قاطعة.

"أنت محق، سواء كانت جمعيات العلماء أو السياسيين المسلمين العلمانيين، لا يدركون ما يحدث لهم. إن لم تعرف ما فقدت، تصبح ضحية للذهول والخوف المستمر. يُسلب منك شيء جديد كل يوم، وقبل أن تستوعب الصدمة أو تحاول التعامل معها، تحدث كارثة جديدة تسلبك المزيد. هذه حالة من الدهشة المتواصلة، الخوف الدائم، والألم العميق، هذه هي قصتنا. حتى مرهم الزمن عاجز عن شفاء هذه الجروح." توقف علامة خورش عن الكلام بتلعثم.

"التحدي هو ما إذا كنا قادرين على نقل هذا الألم إلى الأجيال القادمة. هل سيدركون أن أجدادهم كانوا يعيشون في هذا البلد تحت السماء الواسعة بلا خوف؟" أطلق نواب بيغمبربور تنهيدة حزينة. حاول علامة خورش استعادة تماسكه. في تلك اللحظة، ارتفع صوت الأذان من الجامع الكبير، وتفرق المجلس.

اليوم، في طريقي إلى المسجد، ظلت كلمات علامة خورش تتردد في ذهني مرارًا وتكرارًا: هناك شيء ما قد ضاع، والذين فقدوه لا يدركون حتى فقدانه. فما هو هذا الشيء؟ عندما يُفقد المال والثروة، قد يكون من الممكن استعادتها، ولكن إذا كان الفاقدون لا يعرفون حتى ماذا فقدوا بالضبط، كيف يمكنهم أن يستردوا ما ضاع منهم؟

"لماذا يتحدث علامة خورش بهذه التعقيدات؟ كان بإمكانه التعبير بلغة أكثر بساطة." ذات يوم، عندما كان في حالة مزاجية شاعرية، قال: "لم تعد سجداتي تجد مكانًا للسجود." فكرت في غرابة هذا القول. هل كان يشير إلى ما فقده المؤمنون، أو إلى الحياة الخالية من الخوف تحت السماء المفتوحة، التي لم تعد ممكنة في الهند المنقسمة؟ ومع ذلك، يبدو أن المسلمين ما زالوا يميلون إلى الكونغريس. كلما تأملت الأمر، زادت حيرتي. إندرا غاندي، امرأة راقية تنثر الزهور من كلماتها، كم كان في خطابها من التعاطف مع الفقراء والضعفاء. لكن كيف استمرت في تأجيج الفوضى ضد المسلمين تحت حكومتها؟ كيف اصطفت مع المتطرفين الهندوس في قضية ذبح البقر؟ هل السلطة تجعل الإنسان بهذا القدر

من القسوة ليدمر بلدات الآخرين ويتجاهل صرخات وآهات الضحايا؟ ما أدهشني أكثر هو أنه على الرغم من تجاهل السيدة غاندي المستمر للمسلمين وتقديم حكومتها لهم هدايا من الفوضى والمآسي الجديدة يوميًا، أكثر فظاعة من سابقتها، فلماذا لا يبتعد المسلمون عن دعمها؟ لماذا يقود رجالنا البارزون، سواء كانوا علماء من جمعية العلماء أو شخصيات مثل عبد القيوم أنصاري، حملات دعم صاخبة لإندرا غاندي؟ هل فقدوا عقولهم حقًا، أم أن الظلال المتزايدة للنار والدماء قد أرعبتهم؟ كلما فكرت أكثر، بدا لي كلام علامة خورش أكثر صحةً بأن عقول القادة المسلمين قد تجمدت أمام حدة الأوضاع. وعندئذٍ تذكرت كلمات والدي: سواء فازت جناح إندرا في الكونغريس أو جناح مرارجي، سواء نجح الشيوعيون أو أي حزب معارض آخر في الحكم، فإن نصيبنا لن يكون إلا المحرومية والفقدان.

في النهاية، تحقق ما كان متوقعًا. نجحت شعارات 'إزالة الفقر' في منح السيدة غاندي أغلبية كبيرة. بمجرد انتهاء الانتخابات، غابت قضايا المسلمين عن الحوار العام، لكن في المدرسة، تحولت المناظرات إلى شكل جديد. في الجلسات الأسبوعية لنادي الأدبي الأردو، التي كانت تركز عادة على المواضيع الأدبية والثقافية، كان موضوع هذه المرة 'مستقبل المسلمين في الهند'. فكرت في المشاركة، فالموضوع مألوف. لم يكن لدي خبرة في المناظرات، لكنني رأيت كتاب 'المستقبل المشرق للمسلمين الهنود' لطفيل أحمد منجلوري. وكنت أيضًا على دراية بخطابات أبو الكلام آزاد الشهيرة. قال والدي إن الحيوانات والطيور وحتى الأحجار والأشجار كانت تستمع إليه عندما يتحدث في الغابة. وكنت مطلعًا بعض الشيء على أشعار إقبال ومسدس حالي. استخدمت كل ما تعلمته،

'كيف تم فقدان جوهر إدراكك؟
لماذا لا تتشقق أحشاء النجوم بسببك'؟[1]

---

[1] 'کھویا گیا کس طرح ترا جوہرِ ادراک
ہوتے نہیں کیوں تجھ سے ستاروں کے جگر چاک؟'

افتتحت الخطاب بذلك البيت الشعري، ودمجت فيه خطابات أبو الكلام آزاد الملهمة ولمحات من التفاؤل الذي زرعه المولانا منجلوري. ثم جاءتني فكرة التركيز على ذلك الشيء الذي فقده المسلمون في الهند والذي لم يدركوا حتى فقدانه، وهو الشيء الذي كان علامة خورش يتحدث عنه بطريقة تخلق أجواءً فريدة. أدرجت بعد ذلك هذا البيت من شعر إقبال:

وا أسفاه على فقدان ثروة القافلة التي ضاعت،

فقد ذهبت الإحساس بالخسارة من قلوب أهل القافلة.[1]

'أيها الناس! إذا علمتم ما هو ذلك الشيء الذي فُقد، ستصابون بالدهشة. الأمر المذهل هو أن حتى علماءنا وقادتنا لا يعرفونه. اليوم سأكشف هذا السر.' كان الخطاب محملًا بالبلاغة والعمق. وفي ختامه، استشهدت ببيت آخر من شعر إقبال:

إذا ما احيي اليوم إيمان إبراهيم مجدداً،

يمكن للنار أن تخلق جمال الحدائق.[2]

عدت لمراجعة الخطاب مرة أخرى، معدلًا بعض التفاصيل الصغيرة، لكن ظل هاجس محير يراودني: ذلك الشيء الذي تحدثت عنه بحماس شديد ظل غامضًا ولم يتضح ماهيته حتى النهاية. ثم تذكرت أن علامة خورش نفسه كان يستخدم هذا الأسلوب الرفيع في حديثه، إذ كانت كلماته تفرض الإجلال والوقار على الحضور. لم تكن هناك فرصة لطرح الأسئلة بعد الخطابات على أية حال، فقررت أن أترك هذا اللغز دون حل. وأخيرًا حل اليوم الموعود لمسابقة الخطابة في القاعة المركزية بالمدرسة. عندما حان دوري ونودي على اسمي، شعرت وكأنني وقفت فجأة أمام مشهد جليل. كانت كل الأنظار في المدرسة موجهة نحوي، فلجأت

---

1 'وائے ناکامی متاع کارواں جاتا رہا
کارواں کے دل سے احساس زیاں جاتا رہا'

2 'آج بھی ہو جو براہیم کا ایماں پیدا
آگ کر سکتی ہے انداز گلستاں پیدا'

`

إلى النظر إلى السقف كمحاولة للهروب من ذلك الموقف المهيب. واصلت الخطاب بنبرة حماسية ورنانة، لكن كلما التقت عيناي بأعين الحضور، كدت أفقد توازني. أنهيت الخطاب بمشقة، لكن ما زاد من دهشتي وسروري كان رؤيتي للأستاذ ظفير، مدرس الفيزياء، الطويل القامة والقوي البنية، يهز رأسه بإيماءة تأييد ويقول فورًا: 'هذا هو الخطاب المنشود'. كانت موافقته تعني أن خطابي قد تم اختياره للمشاركة في الجلسة السنوية للمدرسة.

في تلك الأيام، صادفت مقالاً للشيخ المودودي يسرد فيه ذكريات طفولته تحت عنوان 'طفولتي'، ويبدو أنه كان جزءًا من كتاب دراسي. تحدث الشيخ المودودي عن كيفية قدوم فقير إلى منزلهم قبل ولادته ونصح والديه بتسميته أبو الأعلى. كشف المقال أيضًا عن ارتباط عائلته بعائلات بارزة، بما في ذلك سر سيد أحمد خان. تضمنت قصص طفولته، مثل بحثه عن الغنائم في نصيب أخيه الأكبر بعد الانتهاء من حصته، وحكايات أخرى تعكس فخرًا عائليًا، وبدت كما لو كانت جزءًا من قصتي الخاصة. ألهمني ذلك لكتابة سيرتي الذاتية، ربما يكون هذا سبيلي للعظمة. كانت الرقي والروحانية والتصوف جزءًا من تراث عائلتي. فلماذا أحتاج للسفر بأربعين دينارًا ذهبية، مع خطر اللصوص والقلق على الحياة؟ بعد النجاح في مسابقة الخطابة، أدركت أنه بدمج قلق علامة خورش وأسلوبه المؤثر مع خطابات أبو الكلام آزاد الرنانة وأشعار إقبال، يمكنني كسب إعجاب الجمهور. حتى المعلمون الذين لا يتسامحون في الأيام العادية، كانوا يهزون رؤوسهم موافقين. فلماذا لا أجمل قصتي بطريقة توحي بأنها سيرة شخص عظيم مثل الشيخ المودودي؟

بدأت سرًا في ترتيب أفكاري لكتابة سيرتي الذاتية. كنت أراقب في المدرسة معلمي، الأستاذ شاداں فاروقي، وهو ينقش بعناية حدودًا رائعة على الورق الأبيض ثم يسكب أشعاره بخط يد جميل يبدو كما لو كان مطبوعًا. جال بخاطري أن أشتري دفترًا فاخرًا لهذا الغرض، مماثلًا للدفاتر التي يحتفظ بها الشعراء لأشعارهم. جمعت بعض المال من مدخراتي وما أعطتني إياه والدتي، واشتريت

دفترًا جميلًا بروبية ونصف. كانت صفحاته سميكة وناعمة وبيضاء، تدعو للكتابة. كان لدينا في المنزل العديد من الأقلام وأدوات الكتابة الأنيقة، لكن خطي كان رديئًا. فاستعنت بأخي الأكبر شكيب ارشد ليكتب عني، واتفقنا على الحفاظ على سرية المشروع حتى اكتماله. كنت أملي عليه وهو يكتب بعناية شديدة. تنشأ أحيانًا بعض الخلافات حول الصياغة وأسلوب البيان، لكننا كنا نتوصل دائمًا إلى حل. استمرت الكتابة بسرية وأناقة لعدة أيام، إلى أن وقع خلاف جعله يعترض على طريقة الكتابة. كان قد تحمل الكثير من توجيهاتي من قبل، وربما نفد صبره الآن. عندما تصاعد النقاش، وصل الأمر إلى والدي. طلب الدفتر لمعاينته، وبعد تصفحه، ابتسم لهذا المجهود الطفولي وقال: 'يا بني، ما الذي أنجزته حتى الآن لتكتب سيرتك الذاتية؟ أنجز شيئًا ملموسًا أولاً، ثم اكتب سيرتك'.

قيّد والدي تعبيري عن الفخر الشخصي والعائلي، لكن استخدامي للبلاغة الفكرية جلب لي فوائد في مسابقة الخطابة. لم أفز بالمركز الأول فحسب، بل قام أحد القضاة المخضرمين ذوي اللحى البيضاء بدعوتي إليه وأشاد بي. سألني: 'أنت ابن من؟' وفي اليوم التالي، زار منزلنا. اتضح أنه الأستاذ محمد يعقوب، أحد معارف والدي القدامى، والذي كان يعكف على إنشاء وتطوير مدرسة للفتيات المسلمات في المدينة بعد تقاعده. سأل بعض الأسئلة الرسمية حول دراستي. أمام والدي، أثنى على خطابي وعرض علي: 'أرغب في أن ينضم راشد إلى طلابي. أدرس مجموعة من الطلاب في الصباح، ويمكنه الانضمام إذا أراد.' كان السيد يعقوب يُدرس الرياضيات، لكنه كان ذو نظرة عميقة في الأدب والفلسفة والعلوم الشرقية. كان حقًا معلمًا كلاسيكيًا. سواء كان الحديث عن العلوم أو التاريخ، السياسة أو المسائل الوطنية الأخرى، كان حديثه يشدنا كطلاب بشغف واهتمام، كما لو أن سحر كلماته قد حولنا إلى تماثيل بلا حياة. كانت لديه مهارة خاصة في تبسيط المسائل المعقدة واستخدام القصص في التعليم. كان هناك سحر ما في كلامه يحافظ على ابتهاج المستمعين. في يوم ما، بدا قلقًا وقال: 'هل تعلمون أن خطر الحرب يتزايد في البلاد. يحدث الكثير من القتل والدمار في شرق باكستان،

وإذا خرجت الأمور عن السيطرة، قد ينشب حرب أخرى بين الهند وباكستان، والحروب لا تجلب إلا الدمار'.

"هل لا يمكننا أن نحول دون وقوع هذا الخطر؟" تساءل أحد الطلاب بحماسة شابة.

رد الأستاذ بهدوء وحكمة: "بالتأكيد يمكننا، لكنكم لا تزالون صغاراً جداً لفهم أعماق هذه القضايا".

كان يبدو وكأن طفولتنا البريئة لا تستطيع تحمل ثقل حديثه العميق. قرأت قصصاً عن مسلمي الأندلس في إسبانيا، كيف كان الآباء يخبرون أطفالهم بأقصى درجات السرية بأنهم في الحقيقة مسلمون، تنتمي أصولهم إلى سلالة المسلمين، لكنهم اضطروا لاعتناق المسيحية بعد انهيار الدولة الإسلامية في الأندلس لحماية أنفسهم. استعنت بما قرأته لأثير تساؤلاً: 'لقد مر المسلمون في إسبانيا أيضاً بتجربة مماثلة، أليس كذلك؟' عند سؤالي، غمرته أفكار عميقة. توقف للحظات، كما لو كان يبحث عن طريقة ميسرة لتوضيح حقائق تاريخية معقدة ودقيقة، ثم قال: 'أتعلم ما هي أكبر مشكلة تواجه المسلمين في هذا البلد؟'

لقد تحدث أحد الطلاب قائلًا: 'المشكلة أن لا حزب سياسي خاص بالمسلمين.' رد الأستاذ قائلًا: 'هذه مجرد جزء من المشكلة، السطح وليس الجوهر. إنهم لا يدركون مسؤولياتهم الحقيقية.' لكنه أضاف: 'حتى هذا الكلام لا يشرح الوضع بأكمله.' أعرب طالب آخر عن رأيه قائلًا: 'أعتقد أن الفتن والفساد هي المشكلة الأكبر.' استمع الأستاذ بتأمل ثم قال: 'لا يوجد إجابة واحدة لهذا السؤال. ولكن هناك جرح عميق يستمر في النزيف. كيف لي أن أوضح؟ تخيلوا أن أحد أقاربكم قتل، وأنتم تعرفون القاتل الذي يعيش أمام أعينكم، وتجدون أنفسكم مضطرين لمدحه والعيش معه. عيشوا مع قاتل والدكم، مدحوه وتوجهوا إليه في كل محنة، بينما يكن في قلبه نفس الكراهية لكم. إذا وجد شخص نفسه في مثل هذا الوضع، ماذا تظنون أن يكون شعوره؟'

استوعبنا فقط أن الوضع معقد، أشد تعقيدًا من مأساة مسلمي الأندلس. قال الأستاذ: 'في هذا البلد، يكابد المسلمون منذ عهد طويل تحت وطأة النفاق والمداهنة. ألسنتهم ترفض أن تنطق بكلمة الحق، أن تسمي القاتل بقاتله. فلننظر إلى مثال الفتن، حيث يُركن المسلمون كل شيء للكونغرس، وهو بدوره يتركهم عرضة للمشاغبين والمجرمين. ورغم ذلك، يواصل قادتهم دعم الكونغرس، ويستجدون حمايته، متحدثين عن صداقته للمسلمين.' كنت أعرف معنى النفاق، فسألت عن 'المداهنة'. أجاب: 'هي التجاهل المتعمد للحقيقة، والتغطية على الواقع. المسلمون في الهند يعرفون جيدًا من يلطخ أيديهم بالدماء. قادتنا يعلنون بأفعالهم أنه علينا العيش مع هؤلاء الظالمين، وإيجاد طريقة للتعايش، حتى وإن لم يتوبوا عن ظلمهم وجورهم. هذا عذاب لا يمكن حتى تخيله، حتى في أقسى قصص الجحيم'.

"لماذا لا نتحد جميعًا لنفعل شيئًا؟" سأل أحد الطلاب.

أجاب الأستاذ: "المسلمون مقسمون إلى فرق وطبقات. على سبيل المثال، يصوت الإخوة الأنصاري للكونجرس للحصول على بعض المزايا الحكومية وضمان تمثيل قليل في البرلمان والجمعية. جمعية العلماء أيضًا لا ترغب في تطوير فكر سياسي مستقل للمسلمين، والكونجرس يمنحهم أيضًا بعض المزايا. أما المسلمون العاديون فهم رهائن لهؤلاء القادة السياسيين والدينيين".

"ولكن لدينا أيضًا رابطة المسلمين (Muslim League)، لماذا لا يصوت المسلمون لها؟"

"رابطة المسلمين لا تعبر عن المسلمين بطريقة تفيدنا".

"لكن المسلمين كانوا مقسمين بين الكونجرس ورابطة المسلمين منذ البداية." قلت، مستخدمًا معلوماتي.

"ماذا كان يمكنهم فعله؟ رابطة المسلمين تأسست لحماية مصالح الطبقة الأرستقراطية المسلمة".

"الأرستقراطيون؟"

"نعم، أولئك الذين يُعتبرون من الطبقة العليا المسلمة، على الرغم من أننا جميعًا من نسل آدم وفي نظر الله، كلنا سواسية. فماذا يمكن للمسلمين من الطبقات الأدنى فعله؟ لذا لجأوا إلى حماية الكونجرس".

"لكن مولانا أبو الكلام آزاد كان شخصية مرموقة، صاحب كتاب 'القول الفيصل'،" قلت، معبرًا عن معرفتي بالكتب.

"نعم، أبو الكلام آزاد وحسين أحمد مدني، على الرغم من مكانتهما الاجتماعية، لم يكونا من نسب رفيع، لذا لم يكن بإمكانهما الحصول على مكانة قيادية في رابطة المسلمين. كان الانضمام إلى ظلال الكونجرس هو الخيار الوحيد المتاح لهما".

"آه! هذا مدهش!" تفوهت بدهشة.

"ستندهش عندما تعلم أن العديد من الأشخاص الدينيين والنبلاء كانوا متورطين في هذا النفاق. حتى في كتاب 'بهشتي زيور' لأشرف علي ثانوي، وهو من أكثر العلماء احترامًا في الطائفة الديوبندية، هناك فصل خاص يتناول الاختلاط والعلاقات بين الأشخاص من نفس المستوى الاجتماعي. ومولانا زكريا من الجماعة التبليغية، مؤلف كتاب 'تبليغي نصاب'، كان مؤيدًا للطبقية. بالفعل، أقصى الأمير الثالث، مولانا رحمت الله، من منصبه فقط لأنه من طبقة تيلي، الطبقة المنخفضة. لكن دعنا نترك هذه القصة جانبًا." وبهذه الكلمات، أنهى الأستاذ يعقوب الجلسة.

في أيام مدرستي، كنت أواجه عالمًا مليئًا بالألغاز والأسئلة المحيرة. حين سئلت ذات مرة عمّا إذا كنت أنتمي إلى عائلات الأنصاري أو السيد أو الخان، كان جوابي البسيط: 'أنا مؤمن'. هذه الإجابة لم تُرضِ أصدقائي في المدرسة، فانفجروا ضاحكين قائلين: 'لا يمكن أن تكون مؤمنًا بدون لقب يزيّن اسمك'. كنت في حيرة من أمري، كيف أفسّر لهم أن خالتي، التي كان والدي يحترم تقواها وورعها، أخبرتني يومًا بأن أجيب على سؤال النسب بأنني 'مؤمن' فقط. ولكن في بيئة المدرسة، لم تكن هويتي كـ'مؤمن' تحظى بأي اعتبار أو قيمة.

في أحد الأيام، انطلقت مع زملائي الطلاب إلى حي المسلمين، حيث كانت الألعاب والمرح يسودان. ولكن، مع بدء أذان المغرب، بدا كأن الحياة توقفت فجأة بأمر غير مرئي. سرعان ما امتلأ المسجد في الحي بالمصلين من كل الأعمار، يستعدون للوضوء بنشاط. وعندما أتم الإمام قراءة سورة الفاتحة، انطلق صدى 'آمين' الجماعي بتناغم ساحر من بين صفوف المصلين. هذه كانت المرة الأولى التي أصلي فيها في مسجد يجهر فيه الناس بـ'آمين'. لدى عودتي إلى المنزل، حكيت لوالدتي كيف تحولت صلاة المغرب إلى تجمع يشبه ازدحام العيدين. قالت والدتي: 'بالطبع، لماذا لا؟ هذا هو السر وراء تقدمهم علينا في كل من الدين والدنيا.' لكن ما زلت لا أفهم كيف يمكن لمجتمع بهذا القدر من الإيمان الصادق، حيث تملأ 'آمين' القلوب بالإيمان، أن يظل وفيًا للكونغرس طوال هذه الفترة.

٦

الهجرة الثانية

بعد الانتخابات، حيث حققت السيدة غاندي فوزاً مذهلاً، اندثرت أخبار أحداث أحمد آباد في الخلفية، وتحول الاهتمام نحو الأنباء المقلقة القادمة من باكستان الشرقية. ذات يوم، سمعت والدي يتحدث، قائلاً بتأمل: 'العدالة كانت تتطلب منح مجيب الرحمن الحق في تشكيل الحكومة. هذا الجو الذي خلقه بوتو بشعاره 'نحن هنا وأنتم هناك' سيكلف الأمة ثمناً باهظاً'. كانت الصحف الهندية تعرض جانباً واحداً فقط من القصة، ولم يكن واضحاً ما يحدث هناك بالفعل. في هذه الأثناء، وصلت رسالة من العم جيلاني في تشيتاجونج، مما أثار القلق والذهول في الأسرة بأكملها.

"في الثالث والعشرين من يونيو عام ١٩٧١،

كالار غات، تشيتاغونغ،

شرقي باكستان

العزيز حافظ نور الهدى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو أن تكونوا بخير جميعًا. هنا في شرقي باكستان، الوضع يتدهور يومًا بعد يوم. المسلمون هنا يصبحون أعداء لبعضهم البعض، والخطر يحيط بنا من كل جانب. أين نذهب؟ عند التقسيم، آملنا أننا نهاجر من دار الإسلام القديمة، الهند، إلى دار الإسلام الجديدة، شرقي باكستان. الآن، نحن نبحث عن طريق للهجرة إلى باكستان الغربية. صديق لنا في الجيش الباكستاني وعدنا بترتيب ذلك. عائلات أخرى، مثلنا من بهار وأوتار براديش، تحاول العودة إلى الهند، ولكن حتى هذا الطريق

محفوف بالمخاطر. الأخبار عن السرقات والعنف ضد المسافرين شائعة. نحن لا نستطيع التفكير حتى في العودة إلى دار الكفر مرة أخرى.

كانت زوجتي ترغب بشدة في السفر إلى الهند لزيارة الأقارب مرة أخرى. يبدو الأمر كما لو كان بالأمس عندما تركنا مزارعنا وراءنا، محملين بأحلام باكستان في أعيننا. ولكن الآن، يبدو أن هذه الأرض تضيق بنا. يشكو المسلمون البنغاليون من أن الطبقة الحاكمة في غرب باكستان قد حولتهم إلى عبيد. ينظرون بتحقير إلى اللغة والثقافة البنغالية، بينما تعتمد البلاد على شرق باكستان للحصول على العملة الأجنبية من خلال إنتاج الشاي والقطن. يعتقد البنغاليون أنه إذا أنفقوا مواردهم الطبيعية في شرق باكستان فقط، فسوف يصبحون مزدهرين. كما أنهم يرون أن الناطقين بالأردية يهيمنون على المناصب الهامة. والآن، بدأ العديد من المثقفين البنغاليين يقولون صراحةً إنهم تعرضوا للخداع باسم الإسلام. من الصعب الآن تحديد من تم خداعه بالفعل. بالنسبة لنا، المهاجرين، يبدو الأمر واضحًا الآن أننا كنا نلاحق سرابًا طوال هذا الوقت.

كانت الأشهر الماضية حافلة بمشاهد الفزع والصدمات. ما شاهدته وسمعته من فظائع ارتكبها المسلمون ضد بعضهم البعض أفقدني إيماني بقادة حركة الاستقلال. هل لم يكن واضحًا لجناح أن إدارة منطقتين متباعدتين في باكستان ستكون مهمة شاقة؟ مئات الآلاف من الأرواح فُقدت، وغرقت في محيط الدماء خلال التقسيم والهجرة. والنتيجة؟ من كان يُعرف بالمهاجرين أصبحوا الآن محاصرين. أظن أن جناح، وغاندي، وكل القادة الكبار في حركة الاستقلال، كانوا أدوات بأيدي البريطانيين، دمروا شبه القارة الهندية لمجرد طموحاتهم الضئيلة وسعيهم للسلطة. ما حدث كان مأساة لا توصف. اللهم امنحنا القوة للقيام بالأعمال الصالحة.

نأمل أن نتمكن من الهروب من هذا المكان. الحياة والموت أصبحا قريبين للغاية من بعضهما.

بأطيب التمنيات،

م.ك. جيلاني"

غرق والدي في الصمت بشكل متزايد، كأنه يحمل عبء العالم على كتفيه. يستقر ذقنه على يده اليمنى، عيناه تحدقان في الفضاء، غارقًا في بحر من التفكير العميق. في لحظات القلق والتوتر، كان يلجأ إلى جملته المعتادة للتسلية والطمأنينة: 'الله هو مُسبب الأسباب'. هذه الكلمات كانت بمثابة منارة أمل له، خاصةً عندما يرفع عينيه نحو السماء، يبدو عاجزًا ومثقلًا بالهموم، وتتردد عبارة 'الله هو مُسبب الأسباب' من شفتيه في استسلام واضح لإرادة القدر.

في أحد أيام العصر بالمكتبة، كان والدي يتحدث بهمس مع صديقه ذكي. في العادة، المكتبة كانت تشبه مجلساً يغمره الحديث المفتوح، لكن ذلك اليوم كان مختلفاً. أظهر والدي قلقاً وهو يقول: 'لقد وصلتنا رسالة من الأخ جيلاني. كم هي مؤلمة الظروف! الرسالة عمرها أربعة أشهر، ربما تأخرت بسبب الرقابة'. 'من أين أرسلها؟' سأل ذكي. 'من تشيتاغونغ. لا نعرف إذا ما كانوا قد وجدوا طريقاً للانتقال إلى غرب باكستان أم لا'، أجاب والدي بتوتر. 'إنه أمر محزن! إذا لم يجد المرء الأمان حتى في باكستان، فأين يمكنه الذهاب؟' تساءل ذكي بأسى. ثم أردف بنبرة تطمينية: 'لكن الأخ جيلاني رجل مقدام. أنا متأكد أنه وجد حلاً ما.'

في تلك الأيام، حينما تفاقمت الأزمة في شرق باكستان وازداد تدخل القوات الهندية العسكرية وشبه العسكرية، غرق والدي في بحر من القلق والحزن. كانت الأنباء متضاربة، فمن المستحيل تحديد مَن هو الظالم - الجيش الباكستاني، أو القوات الهندية شبه العسكرية، أو البنغاليون القوميون. لكن الواضح كان أنهم جميعًا يلاحقون الأبرياء مثل العم جيلاني وآلاف المهاجرين الذين سعوا وراء حلم بمجتمع إسلامي. عندما وردت أنباء عن قصف من قِبَل القوات الباكستانية وفُرض حظر التجول في المدينة، كانت هناك حالة من التوتر الشديد. والدي، الذي نادرًا ما كان يستمع للراديو، بدأ يتابع الأخبار من راديو باكستان وBBC، محللًا إياها في ضوء الدعاية الهندية. كان كل تقرير عن القصف فوق دكا وتشيتاغونغ يمزق قلبه، وكأن القنابل تسقط فوق رأس العم جيلاني مباشرةً. من جهة، قيل لنا كمواطنين هنود أن نفتخر بجيشنا، ومن جهة أخرى، كانت هذه

الأعمال تهدد عائلتنا. لم يكن الأمر مقتصرًا على الروابط الدموية مع العم جيلاني، بل كان من بين أولئك الذين هاجروا بإخلاص من أجل الإسلام. كنت ممزقًا بين ديني وعائلتي، وبين وطني وجيشه الباسل. لم أعرف أي جانب يجب أن أختار. بدا الوقوف مع الإسلام وكأنه خيانة لوطني.

وصلت أنباء فجائية في يوم ما تفيد بأن القوات الهندية قد حققت نصرًا حاسمًا في شرق باكستان. كانت الأجواء في الهند مليئة بالاحتفالات. في البرلمان، أعلنت السيدة غاندي بفخر أن دكا أصبحت الآن عاصمة دولة مستقلة وحرة. هذا الخبر كان كالصاعقة على والدي، تركه محطمًا من الداخل. اجتاح الصمت منزلنا بأكمله. المكتبة، مركزنا للحوار والتفكير، بدت وكأنها مهجورة. والدي كان يمضي معظم وقته في صمت عميق، يحدق في الفراغ. لم يعد يبدو قلقًا بشأن العم جيلاني أو في انتظار خطاباته. كأن روحه وجدت راحة بعد طول قلق. والدتي كانت تحاول أن تهدئنا نحن الأطفال، مؤكدة أنه يعاني من مجرد نوبة قلق وسيتحسن قريبًا بإذن الله. لكن من يمكنه أن يفهم حقًا ما يعانيه والدي؟ كنت أفكر مرارًا وتكرارًا في قصة سقوط دلهي، وأدركت أن والدي كان على حق. معاناة المسلمين الهنود لم تتوقف عند سقوط دلهي، فسقوط دكا كان استمرارًا لتلك المأساة.

في يوم من الأيام، وصلت نسخة حديثة من جريدة 'صدق الجديد' التي تُنشر في لكناو. حاولت أن ألهي والدي بقراءة جزء منها، ظنًا مني أن هذا قد يُحسن حالته المزاجية. سألني بنبرة غير مهتمة: 'ما الجديد في صدق الجديد؟' بدأت بقراءة السطور الأولى التي كتب فيها: 'في عام ١٩٢٤، أنهى مصطفى كمال مؤسسة الخلافة المحترمة، وبقي العالم الإسلامي ينظر عاجزًا. في عام ١٩٤٨، انطفأت شعلة سلطنة آصفية بعد ثلاثة أيام فقط من المقاومة. وفي العام نفسه، تأسست دولة إسرائيل. والآن، يُضاف إلى هذه السلسلة قيام بنغلاديش وانتهاء باكستان المتحدة'. وقبل أن أستطيع الاستمرار، رأيت الدموع تتجمع في عيني والدي. قال بحزن: 'اتركها، لا جدوى من البكاء على هذه الأمور الآن'. حاول تهدئتي عندما

لاحظ قلقي، قائلًا: 'لا تقلق، أعاني فقط من الصرع. أحيانًا، تحدث لي نوبات. عندما كنت في سنك، سقطت على صدري ولا تزال آثار تلك الإصابة تظهر أحيانًا'. كنت أعرف أن والدي كان شخصًا حساسًا بطبعه. لم يكن قادرًا حتى على مشاهدة الحيوانات وهي تُذبح. أخبار القتل والدمار القادمة من شرق باكستان كانت دائمًا تزعجه، لكنه لم يفقد الأمل. ومع ذلك، عندما تعرضت وحدة المسلمين للهجوم، لم يعد قادرًا على الحفاظ على هدوئه، والآن يحاول ببراءة إخفاء ألمه وراء حادثة السقوط التي تعرض لها في طفولته والإصابة في صدره.

عندما انتشر خبر مرض والدي، جاء الأستاذ يعقوب لزيارته. والدي، الذي يحمل له كل احترام، استقبله بحفاوة. بعد التحيات الأولية، تبادلا نظرات تحمل تفاهمًا عميقًا لآلام بعضهما البعض. كانت هناك لحظات من الصمت الثقيل، حيث بدا وكأن كلا منهما يعي تمامًا ما يعانيه الآخر. أخيرًا، كسر الأستاذ يعقوب الصمت، قائلًا: 'يا سيدي، لم أستطع النهوض من الفراش لعدة أيام. لم أكن أعرف ماذا أفعل. قرأت عن سقوط بغداد وغرناطة، والآن أفهم مدى قسوة هذه الأحداث التاريخية. لكن شيئًا واحدًا واضحًا: بنغلاديش، بأغلبيتها المسلمة، ستعود قريبًا إلى جذورها الإسلامية.'

وأجاب والدي: 'هذا صحيح. رغم تقسيم باكستان، أدى ذلك إلى ظهور دولة مسلمة جديدة. عاجلاً أم آجلاً، سيدرك الأعداء هذا الأمر، وستتحطم آمالهم.'

'لكن في الوقت الحالي، يعتقدون أنهم انتقموا لتاريخ المسلمين الذي استمر ألف عام بتقسيم باكستان.'

بالتأكيد، كانت كلماتها مملوءة بالسموم. تدعي أنها حليفة المسلمين، لكن انظروا إلى ما تخفيه في قلبها من دسائس. لم أتوقع هذا المستوى من النفاق من ابنة نهرو. ولكن، ما العمل عندما يوجد من بيننا من يصفقون لها؟ انظروا إلى تجمع محرري الصحف الأردية الذي دعتهم إليه لدعمها، كيف كانوا يوافقونها الرأي بحماس.

'هذا النوع من الأشخاص موجود في كل عصر. لكن محرري الصحف الأردية البارزين لا يزالون رهن الاعتقال. الحكومة تدرك أن المسلمين، مهما كانت ضعفهم، لا يمكنهم تحمل الهجوم على وحدتهم الإسلامية بصمت.'

كانت الغرفة محاطة بصمت ثقيل ومشحون بالتفكير. الأستاذ يعقوب، بصوت متأثر بالحزن، تحدث عن حال المسلمين قائلاً: 'كم كانت الأمور مختلفة لو كان لدينا شخصية كمحمد علي تقف مع الأمة الإسلامية في هذه الأوقات'. الصمت عاد ليخيم مجدداً على الغرفة، ترك كل منهم يغرق في تأملاته الخاصة. بعد فترة وجيزة، قطع الأستاذ يعقوب الصمت قائلاً: 'هل رأيت العدد الأخير من 'ندائے ملت'؟ نشرت تقريراً مثيراً للاهتمام'.

'لا، لم أتمكن من قراءة أي شيء في الآونة الأخيرة.' أجاب والدي.

'التقرير يتحدث عن رابطة العالم الإسلامي ويذكر أن إسرائيل أرسلت ثلاثة من عملائها الصهاينة إلى شرق باكستان لتحريض البنغاليين ضد الغرب.' أوضح الأستاذ يعقوب. 'ويشير أيضاً إلى لقاء سري بين رحمان سبحان، الاقتصادي البنغالي المعروف، ودانيال كوهن في باريس. يبدو أن الخبر يكشف عن عمق وخطورة هذه المؤامرة'.

'وهناك مقال آخر نُشر في 'شبستان' حول نبوءات شاه نعمت الله ولي.' تدخلت بفضول.

'أي مقال هذا؟' سأل الأستاذ يعقوب بنبرة تشجعني على المشاركة.

'ذلك المقال حول نبوءات شاه نعمت الله ولي.' أكدت.

'أها! فهمت.' قال الأستاذ يعقوب ثم تابع حديثه.

شعرت فجأة بأنني تسرعت في الدخول في حديث الكبار. لتفادي الإحراج، جمعت أكواب الشاي وغادرت الغرفة بشعور بالخجل.

٧

مهرجان الربع قرن

من ناحية، كانت قلوب المسلمين تنزف ألماً لسقوط دكا، ومن الناحية الأخرى، كانت أفراح الاحتفالات تتردد في أرجاء البلاد. عندما دخلت إندرا غاندي البرلمان لتعلن النصر، كانت محاطة بعبارات التحية والإعجاب. أتل بهاري فاجبايي، بلغ به الإعجاب أقصاه، فاعتبرها تجسيداً للإلهة الهندوسية درغا. لكن المسلمين، على الجانب الآخر، كانوا يشعرون بعزلة أعمق من أي وقت مضى. كانوا يجدون أنفسهم غير قادرين على فهم كيف يمكنهم الاحتفال بهذه الكارثة الوطنية. في هذا السياق، أُعلن في المدرسة أنه سيتم الاحتفال باليوبيل الفضي لعيد الاستقلال على المستوى الحكومي. كانت جراح دكا لا تزال نازفة، وأثارت في قلبي غضباً جارفاً. ما هذه الاحتفالات؟ لكن، راودتني الفكرة بأن هناك شيئًا عميقًا خفيًا قد يفوت فهمي. كنت أعيش في حيرة بين قلبي وعقلي. في يوم ما، قرأت في أحدث إصدار من 'صدق جديد' أن 'السبب الحقيقي وراء حزن وغضب المسلمين هو أن استقلال بنغلاديش وانفصالها عن باكستان يُنظر إليهما على أنهما نصر ضد المسلمين. هناك شعارات مهينة ومثيرة للغضب تُوجه ضدهم. وأحد أسباب استيائهم أيضًا هو شعورهم بأن هذه الحرب خاضت أساسًا لتفتيت وحدة باكستان. وزارة الإعلام، التي عادةً ما تتصدى لكل أنواع الدعاية في الوقت المناسب، لم تتخذ أي خطوات لمعالجة حزن وغضب المسلمين.' لم أكن أفهم كيف أن هذه الحرب خيضت لفصل شرق باكستان عن غربها، وذلك للانتقام من ألف عام من الحكم الإسلامي، فكيف كان من الممكن لوزارة الإعلام أن تغير هذه الصورة؟ كثيرًا ما كنت أفكر أن هناك نقطة عميقة في هذه المسألة. ثم خطر ببالي أن معلمينا أيضًا

يحملون هم الأمة، فقررت بدافع هذه الفكرة أن أنضم إلى اللجنة المشكلة للاحتفال باليوبيل الفضي. وفقاً للخطة، كانت مسابقات صغيرة وكبيرة ستُقام في المدرسة طوال العام، وكانت الفصول ستُزين، وثم يأتي اليوم الموعود حيث كان على جميع طلاب الصف السابع، بمرافقة طلاب المدارس الأخرى في المدينة والقرى، أن يشاركوا في موكب الاستقلال بزي موحد محدد.

كنت آنذاك طالبًا في الصف السابع، وقد أصبحت صفوفنا محورية في المدرسة بالنسبة للعرض القادم. وهكذا، كنا نقضي معظم أوقاتنا في أنشطة خارج نطاق المنهج الدراسي، حيث تشكلت مجموعات صغيرة من الطلاب، كل منها تبتكر خططها وأفكارها. في خضم ذلك، انتشر خبر مفاجئ بأن نادي الروتاري استقبل شحنة كبيرة من البضائع المنهوبة من بنغلاديش، تُباع بأثمان بخسة. 'تصور، شانو اشترى مضرب كريكيت جديد بثمانية آنة فقط، وحصل على كرة جلدية لامعة مجاناً'، همس خورشيد لي بسرية. 'هناك أنواع متعددة من البضائع، ربما لا يزال الكثيرون غافلين عنها، وإلا لشهد المكان زحاماً شديداً'. لم أكن مهتمًا بالمضارب، لكن الحديث عن البضائع المنهوبة، وخصوصًا تلك الآتية من بنغلاديش، أيقظ فضولي. نادي الروتاري لم يكن بعيدًا عن منزلنا. وفي المساء، تجمعنا نحن الأطفال وتوجهنا إلى هناك. في الشرفة، كانت هناك أكوام من الملابس المنثورة، تضم مختلف الأدوات المنزلية والمستلزمات. يبدو أن الأشياء القيمة قد ذهبت بالفعل مع المارة الأوائل. عيناي وقعتا على معطف بلون الكريم، وتملكني الذهول. 'يا له من شبه بمعطف العم جيلاني، نفس المعطف الذي نحرص على عرضه لأشعة الشمس، ونحتفظ به كتذكار عزيز'. تناولته بإعجاب شديد، أفحصه ذهابًا وإيابًا، كأنه يجمعني به رابطة غير مرئية، لكن ما هذا؟ بقع دم على النسيج. انتابني شعور بالرعشة يتسلل إلى كياني. كأننا قد خرجنا فجأة إلى مسرح معركة. القصص المروعة التي أتت من شرق باكستان كانت تتجسد أمام عيني من جديد. دراجة ذات ثلاث عجلات، فستان وردي صغير، وجورب يتيم لقدم صغيرة. حاولت أن ألتقطه، لكن قواي خانتني. تساءلت: لمن كانت هذه الدراجة؟ بأي

حماس اشتراها صاحبها؟ هل كانت تعود لتلك الطفلة صاحبة الفستان الوردي؟ لا أعلم إن كانت لا تزال على قيد الحياة أم قد فارقت الحياة. قُتل الملايين، يرتدون ويحملون معهم أشياء، بينهم أطفال بريئون اقتنصوا من أهاليهم ألعابًا وأشياء متنوعة. هذه بعض الأشياء المتناثرة هنا فحسب، في هذه الشرفة. أين يا ترى أصحابها الآن، وفي أي حال؟ ربما لن يعرف العالم أبدًا عنهم. تلك القصص، قصص العجائز والأطفال الذين تركوا وراءهم هذه الأشياء المبعثرة هنا، من سيكتبها؟ كنت قد قرأت في الصحف عن تسعة أشهر من القتال وعدد القتلى، لكنها كانت مجرد أرقام حتى هذه اللحظة. الآن، وأنا أرى أغراض الموتى أمامي، بدأت تلك الأشياء تروي بصمت قصص المآسي التي حلت بأصحابها، تلك القصص التي جعلت الأرض الملطخة بالدماء في شرق باكستان تتلألأ من جديد في خيالي.

بينما تتسارع وتيرة الاستعدادات لاحتفالات عيد الاستقلال في المدرسة، بدأت النظم الصفية تتراخى تدريجياً. بجوار حرم المدرسة، كانت هناك كلية الطب المرموقة. في أحد الأيام، انطلقت في جولة مع بعض الرفاق إلى الكلية. هناك، صادفت مشهداً لم أكن أتوقعه - جثتين محنطتين في غرفة نصف معتمة، مفعمة برائحة الكيماويات النفاذة. الرؤية أثارت فيّ شعوراً بالخوف والرهبة، أمام هذه الأجساد التي كانت يومًا مثلي، بشرًا حيّة، الآن متروكة بلا عون أو مؤانسة. تساءلت في حيرة عن هويات هؤلاء الذين ألقت بهم أقدارهم المشؤومة هنا. فجأة، اجتاحتني ذكريات الأغراض في نادي الروتاري، وتلك الليالي التي كنت أفزع فيها من نومي، مطاردًا بصورة طفل برأس مقطوع في أحلامي. والآن، بجوار تلك الجثث المحنطة، بدا وكأن الميدان بأسره، ميدان المعركة والرعب، قد تحول إلى هنا، وسرعان ما بدأت تتسلل إلى سمعي أصداء أصوات غامضة ومربكة.

في تلك الفترة، تدهورت صحة والدي. بدأت بنزلة برد عادية، وكان يعالج نفسه عادةً من مثل هذه الأمراض، لكن الحمى المفاجئة أثارت قلقنا. لم نعتد على رؤيته طريح الفراش هكذا. اتخذنا قرارًا بضرورة خضوعه لعلاج طبي منتظم. كان

يعارض الفكرة، ربما كان يدرك أنها مجرد نزلة برد، ولكن تحت إلحاح العائلة، وافق على رؤية الطبيب. الأدوية الملونة خففت من الحمى، لكنها تركت وراءها الوهن ومضاعفات أخرى. عندما عاد الطبيب، غمر الطاولة بأنواع مختلفة من الأدوية. وبنبرة محملة بالسرية، أعطى توجيهات للعائلة ألقت بظلال من القلق على البيت بأسره. كنا نحن الأطفال، ووالدي نفسه، خارج دائرة هذا السر. ومع ذلك، بدأت أحس، بطريقة ما، أن المرض خطير وأن الأيام المتبقية معدودة. والدي كان يصر على أنه بخير، لكنه استمر في تناول الأدوية تحت ضغط العائلة. الأدوية أظهرت تأثيرات جانبية، فظهرت القروح على جسده. في مواجهة هذا الوضع، توقف عن تناول الأدوية وقرر أن يأخذ مصيره بين يديه. 'لم يحدث لي شيء'، كان يقول. 'الطبيب لم يصل إلى جوهر المرض.'

في غضون أيام، تحولت الجروح إلى قروح نازفة تغطي صدره وظهره ومعصميه. كان يعاني من ألمها كل يوم، يفقده السكينة. تلك الجراح التي خلفها سقوط دكا في قلبه، كان قادراً على إخفائها بطريقة ما، لكن جروحه هذه لم تكن لتختبئ. جربنا عدة مراهم لكن دون فائدة. ذات يوم، في حرارة الظهيرة، وبينما كان يتألم، دخل رجل غريب إلى المكتبة. بدا كفلاح، ممسكاً بمظلة وحزمة صغيرة. رآه في عذابه وعزاه قائلاً: 'لا تقلق، ضع معجون الفلفل الأحمر على الجروح وستشفى خلال أيام'. معجون الفلفل الأحمر على الجروح المفتوحة؟ كانت الفكرة تبدو مخيفة، لكن ماذا كان بوسعنا أن نفعل بعد أن ترك الرجل العلاج ورحل؟ عند وضع المعجون، انخفض الألم الشديد لوالدي بشكل ملحوظ، كأن أحدهم وضع كمادة باردة على جروحه. وفي أيام قليلة، بدأت تلك الجروح تلتئم وعادت الحياة الطبيعية إلى المكتبة.

وأخيرًا، في المدرسة، حان الوقت الذي طال انتظاره، الوقت الذي كنا نستعد له منذ أشهر. كانت المسابقات الخطابية والكتابية تضفي نوعًا من البهجة والانبساط. أما مسابقات الرياضة فكانت تحمل معها قدرًا من المرح. لكن المشاركة في العرض العسكري كانت قصة مختلفة. كانت مجرد فكرته تستحضر في ذهني

صورة طابور الشرطة وهم يمارسون خطواتهم الميكانيكية، صوت أقدامهم المدوية وأوامر القائد الصارمة، شعور بالغربة كان يتسرب إلى داخلي. عندما وصلت في الصباح إلى المدرسة بالزي الأبيض والسراويل الزرقاء القصيرة، ذُهلت لرؤية جميع زملائي يرتدون نفس الزي. كأن فرديتي قد تبخرت. لم يكن لدينا تقليد ارتداء الزي الموحد في مدرستنا، كل واحد كان يرتدي ما يحلو له. ولكن في الصباح، كنت أحيانًا أرى مجموعات من السجناء يُساقون في زيهم الموحد. هذه كانت تجربتي الأولى مع 'زي الحرية'. ولجعل الأمور أكثر تعقيدًا، تم ترتيبنا في صفوف حسب أرقام الدراسة، وتم لصق أرقام على ظهورنا لضمان عدم ضياعنا خلال المسير إلى ملعب البولو. كان على كل طالب أن يحافظ على ترتيبه في الصف. كان رقمي هو الثالث عشر، وكنت متذمرًا من أن أصبح في المرتبة الثالثة عشرة في الصف بدلًا من الجلوس في المقدمة. كلما تباطأت، كان يُصرخ 'أين الطالب رقم ثلاثة عشر؟ تحرك بسرعة'. أحيانًا يُنادى 'أخبروا ذلك الطالب رقم ثلاثة عشر ألا يخرج عن الصف'. كنت دائمًا موضع عطف المعلمين وحتى في مجالس والدي، لم يعترض أحد على مرحي. لكن اليوم، شعرت بإحباط شديد لأنني أصبحت مجرد 'الطالب رقم ثلاثة عشر' في هذا العرض الاحتفالي بالحرية.

بطريقة ما، وصلت موكب أسرى الاحتفال بالاستقلال إلى ميدان البولو. هناك، كانت الطلاب والطالبات يشكلون بحرًا عارمًا. البالونات الملونة والأعلام كانت تنتشر في كل مكان، والوجوه تشع فرحًا. في هذا الحشد، كان 'الطالب رقم ثلاثة عشر' مجرد واحد من الجموع. تسلمت مكاني في الصف بقلب متردد. بعد مراسم رفع العلم، تتابعت الخطب، بعضها كان مفهومًا، والبعض الآخر لم يكن كذلك. لكن، شعرت بوضوح أن الهند أصبحت الآن 'دولة عظيمة'. كانت الأشهر الماضية قد شهدت حديثًا متواصلًا عن عظمة الهند وقوتها العسكرية. بعد سقوط دكا، تضخم هذا الإحساس، مما جعل المسلمين يعيشون في حيرة. تم عزلهم عن التيار الوطني للاحتفال بالاستقلال، أو بالأحرى، أصبح هذا التيار يجري ضد مشاعرهم وكرامتهم. متعبًا من هذه الخطب المملة، عاد 'الطالب رقم

ثلاثة عشر[١] إلى المنزل بقلب ثقيل. كان يشعر وكأن الاحتفال كان في الواقع مجرد رش الملح على جراح كرامته المجروحة. لم يتمكن حتى من التعبير عن حزنه، خشية أن يُنظر إليه على أنه معارض للحرية. شعر بعجز شديد اليوم. تساءل عن العم جيلاني، أين قد يكون الآن، في أي حال؟ هل لا يزال على قيد الحياة أم لا؟ والعمة وأطفاله الذين لم يعرف سوى أسمائهم فقط. تساءل عما مر به هؤلاء الناس. لو أن هناك من يمكنه إخبارهم أنه حتى في زحمة هذا الاحتفال، لم يكن مسموحًا لنا حتى بالبكاء على مآسيهم.

٨

الدكتور من لكناو

بعد أن هدأت ضجة مهرجان الربع قرن، تكشفت لنا حقيقة أن تحولاً كبيراً قد حدث في البلاد. الأنباء القادمة من علي غرة، فيروز آباد وبنارس لم تكن مجرد اضطرابات عادية ضد المسلمين، بل كانت عبارة عن هجمات مباشرة نفذتها قوات الشرطة المسلحة. أدركنا حجم الخطر عندما ظهر ذات يوم أحد قادة الكونغرس المحليين، وهو زائر مألوف للمكتبة، بمظهر ينم عن القلق. بدأ يحكي: 'الأحداث في فيروز آباد وبنارس لم تكن إلا عمليات أحادية الجانب من قبل الشرطة. أكد تشاران سينغ بوضوح أن تصنيفها كأعمال شغب بين الهندوس والمسلمين غير صحيح. هاجمت الشرطة المتظاهرين المسلمين العزل في هجمات من جانب واحد'. وهو يتحدث، اختنق صوت الرجل بالعبرات، وامتلأت عيناه بالدموع. تابع بجهد، وهو يحاول استعادة هدوئه: 'ما العمل الآن، يا والدي؟ الذين كنا نثق بهم تخلوا عنا الآن.'

إندرا تغلي غضبًا لأن المسلمين لم يؤيدوا بشكل كامل الهجوم على شرق باكستان. في المجلس، أخذ أحد الشيوخ ينسج تحليله للأوضاع. ما الذي كان بإمكانهم عمله أكثر؟ بقي القادة المسلمون، البارزون في صمتهم، يسعون لطمس معالم هذه الكارثة العظيمة. إذا استجمع أحدهم الشجاعة ليتكلم، فإن كلامه لم يتعدَ مجرد توصية بأن يجري رئيس وزراء شرق باكستان حوارًا مباشرًا مع الرئيس الباكستاني لحل المشكلات. وآخر يرى أن عدم الانفصال كان سيكون أفضل لشرق باكستان، وثمة من زاد على ذلك بالتحذير من أن تدخلنا في قضية شرق باكستان قد يصبح مبررًا للقوى الخارجية لدعم حركة التمرد في تاميل نادو.

هذا هو ذنبنا نحن المسلمون. تطلب الحكومة منا الولاء دون شرط، تريد منا أبطالًا كعبد الحميد في الأوقات الصعبة، ولكن عند حصاد الثمار، يُذكَّر المسلمون بأنهم لا يمكن أن يشغلوا مناصب رئيسية، لأن ذلك سيجرح مشاعر الأغلبية.

عندما استمع العم عباس لهذا، أعاد ترتيب قبعته البيضاء على طراز غاندي بحركة هادئة، وبصوت رصين قال: "لقد أصبتم في اعتراضكم. في بهار، كلما طُرحت فكرة تولي مسلم منصب الوزير الأعلى، تُهمَش شخصيات مثل عبد القيوم أنصاري والدكتور محمود، رغم كل ما قدموه من خدمات. نحن واعون بهذا الواقع، لكن ما العمل؟ فلا خيارات أخرى تبدو متاحة للمسلمين."

"سنجد طريقًا، لكن عليكم أن تدعمونا. أنظروا إلى ذلك الدكتور من لكناو."

"أتقصدون الدكتور فريدي؟"

"بالضبط، عبد الجليل فريدي، ليحفظه الله، يتكلم بجرأة وصراحة". بدا العم عباس مضطرباً قليلاً لسماع الإطراء للدكتور فريدي، كأنما لامس أحدهم جرحاً عميقاً لديه. ثم تابع بنبرة تخفي خلفها بعض الأسى: "كبارنا يفتقرون إلى الشجاعة اللازمة، نحن الأقل شأنًا، ماذا في وسعنا أن نفعل؟ القرار يجب أن يأتي منهم."

"فماذا يمكن للكبار أن يفعلوا؟ إنهم يخوضون معركة خاسرة منذ البداية. خذوا عبد القيوم أنصاري، ذلك القائد الذي يتسم بقوته وحضوره الطاغي، حتى إنه عندما سأل مستر كريبس نهرو عن القادة المسلمين الأقوياء الذين يمكنهم التصدي لجناح في حزب المؤتمر، أشار نهرو إلى خان عبد الغفار خان، حسين أحمد مدني وعبد القيوم أنصاري. والآن، هذا القائد البارز تُحرم منه حقوقه في بهار. كان مستاءً بالتأكيد، لكن عضوية راجيا سابها أخمدت غضبه. لو أن قادة كهؤلاء يمتلكون الشجاعة كما لدى الدكتور فريدي، لكان حزب المؤتمر الوطني الهندي قد استيقظ على الواقع".

وأضاف العم عباس، بنبرة تحمل خليطًا من الحكمة والأسى: "صدقت فيما قلت. حزب المؤتمر الوطني الهندي يدرك القلق المتزايد في نفوس المسلمين، وربما يسعى، بسبب هذا الوعي، إلى كسر عزائمهم قبل أن يرتفعوا. هذه الحملات البوليسية التي شُنت ضد المتظاهرين المسلمين في علي جره، فيروز آباد، بنارس وغيرها، ليست إلا وسيلة لإيصال رسالة واضحة: على المسلمين أن يتبعوا حزب المؤتمر الوطني الهندي دون تردد، وإلا فإن أي مقاومة ستكون لها تبعات وخيمة".

"بغض النظر عن الثمن الذي قد يُطلب منا دفعه، لم يعد أمام المسلمين أي خيار سوى سلوك طريق الدكتور فريدي، ليحفظه الله". كانت هناك رجفة توسلية في صوت الرجل العجوز وهو يتحدث، تحولت نظراته نحو السماء، كأنه يعرض حالة عجزه أمام الله، يرفع قضيته إلى العلي القدير بيأس وأمل مختلطين.

في تجمع محبي الدكتور فريدي، كان هناك عجوز آخر، معتاد الحضور في المجالس الليلية بالمكتبة. لم نكن نعرف اسمه، لكن الجميع كان يناديه 'الصيدلي'. بعد تقاعده من العمل بالسكك الحديدية، أقام عيادته في حي المسلمين. كان يقضي نهاره في العيادة ومساؤه بين جدران المكتبة. برع في فن الدعابة والنكتة. كان يقول ببهجة: 'انظروا إلى بيدل يذهب للحج مشياً على الأقدام. ما الذي دفعه لهذا في سنه المتقدمة؟'، ثم يضيف مازحاً: 'الكاتب فقط أضاف نقطتين ليصبح بيدل بيدال، محولاً رحلته إلى مسيرة على الأقدام'. كان يحول الحديث إلى مجرى من النكات الذكية. في يوم ما، سأل أحد الشيوخ: 'أين مرزبومك؟'، فاغتاظ الشيخ في البداية، لكنه سرعان ما شعر بالحرج عندما أدرك السؤال الحقيقي. وأحياناً كان يحمل نسخة من صحيفة 'القائد'، ويعلق قائلاً: 'انظروا ماذا تقول صحيفة 'القائد''. كنت في البداية أتساءل هل يشير إلى الصحيفة أم يتحدث عن الدكتور فريدي. ذات يوم، كان ممتلئاً بالغضب، قائلاً: 'لقد وقعت مذبحة للمسلمين مؤخراً في فيروز آباد، ويبدو أن النار تتسع'. ومن داخل الصحيفة، أخرج ورقة مكتوب عليها بقلم أحمر أرقام وإحصائيات، وتابع: 'انظروا، في سبتمبر تم حرق منازل المسلمين في دادري، وفي نوناري في نوفمبر دُمرت ٧٢ منزلاً للمسلمين، وفي

ديسمبر في سجني وراني مئو، وفي يناير في درغاجوت، وفي فبراير في غوندا وباستي، تم اضطهاد المسلمين تحت رعاية الدولة. ماذا تريد هذه المرأة في النهاية؟ هل ترغب في الهجوم على كل منطقة مسلمة كما في شرق باكستان؟ كم من الدماء ستشرب هذه الدرغا؟'

كان من غير المعتاد أن نرى السيد الصيدلي في حالة غضب، فعادة ما يكون مصدرًا للفكاهة والذكاء، مضفيًا على النقاشات الجادة لمسة من الظرافة بتعليقاته الساخرة. لكن في تلك اللحظة، ظهر غضبه مختلطًا بالخوف. قال بصوت متأثر: 'الأوضاع في المدينة تزداد سوءًا. لقد رفع الدكتور فريدي صوته قليلًا، فقررت تلك المرأة تأديب المسلمين. الأمور تتدهور منذ توليها القيادة.'

"الوضع لم يكن جيدًا حتى من قبل، لكن عندما كان نهرو وأزاد على قيد الحياة، كان هناك بعض الاحترام، بريق من اللطف في أعينهم. الآن، يتم ممارسة الظلم بوقاحة على المسلمين أنفسهم الذين صوتوا لحزب المؤتمر". قدم السيد ذكي تحليله للأوضاع، معبرًا عن نقده الصريح.

تكلم والدي بنبرة تحمل أثر الأيام، 'أزاد كان يعتبر نفسه رجلًا مهزومًا في أواخر أيامه، يتساءل دومًا: من يستمع إليه؟ عندما منح دار المصنفين خمسين ألف روبية كمساعدة حكومية، أثار ذلك استياء كبيرًا من قبل الهندوس'. توقف لبرهة، يبدو كأنه يستعيد ذكرياته، ثم استرسل قائلًا بصوت أكثر عمقًا: 'ماذا كان بإمكان أزاد المسكين أن يفعل؟ في الهند المقسمة، أصبح صوته مجرد صدى ضائع. ألا تتذكرون تلك الشعارات الرنانة؟' نظر مباشرة في عيون السيد الصيدلي، وأضاف: 'ما معنى باكستان؟ لا إله إلا الله، إذا كنت مسلمًا فانضم إلى Muslim League، غنِّ بحماس ترانيم الوحدة. لم يدرك الناس خدعة أن هذا المشروع غير الطبيعي لباكستان سيفضي إلى تقسيم المسلمين في الهند إلى ثلاثة أقسام جغرافية، مما يضعف قوتهم في الأيام المستقبلية.'

بصوت يحمل وقع التأمل، تحدث السيد ذكي: 'من كان يتصور أن يومًا سيأتي في الهند المقسمة يُجبر فيه المسلمون على الخروج إلى الشوارع، محتجين من أجل

حماية لغتهم وهويتهم؟' وأضاف السيد الصيدلي، معبرًا عن استيائه: 'لكن هذه المظاهرات هي بالضبط ما تكرهه تلك السيدة. غضبها مشتعل لأن المسلمين تجرأوا على الاحتجاج. ترغب في جعل المسلمين تحت سيطرتها. الدكتور فريدي كتب بوضوح عن هذا، مشيرًا إلى التاريخ، المكان، وحتى الاجتماع الذي وعدت فيه السيدة غاندي المسلمين بحماية الطابع الأقليتي للجامعة الإسلامية واللغة الأردية بعد فوزها في الانتخابات. ولكن ماذا فعلت بعد ذلك؟ قامت بالعكس تمامًا، أدخلت الجامعة تحت وزارة التعليم، وعندما عبر المسلمون عن غضبهم في تظاهرات عامة، أصدرت أوامر بإطلاق النار عليهم. في فيروز آباد وحدها، قُتل ستة وستون شخصًا برصاص الشرطة. إنه ظلم شديد، ظلم لا يُطاق.'

تحدث أحدهم بتأمل: 'في رأيي، المظاهرات السلمية ستلحق الضرر بالمسلمين أنفسهم'. فسأل السيد الصيدلي بحثًا عن إجابة: 'إذًا ما الذي يجب فعله؟' رد السيد ذكي، المعروف بقراءته المستمرة لصحيفة 'دعوت' وتعاطفه مع جماعة الإسلامي، قائلاً: 'الحل الوحيد هو الدعوة'. نظر إلى السيد الصيدلي مضيفًا: 'لا أحد يمكنه رفض 'دعوت'، لكن الاتجاه الحقيقي سيحدده 'قائد'!' مشيرًا إلى نسخة مطوية من صحيفة 'قائد' في يده.

'لا يمكن الشك في صدق الدكتور فريدي، إنه رجل شجاع. لقد شهد ألاعيب الأحزاب السياسية غير المسلمة قبل تأسيسMuslimMajlis، لكن الخطر يكمن في أن العلماء المحيطين به قد يدفعونه مرة أخرى نحو حزب المؤتمر. عندما يلدغك حزب المؤتمر، على الأقل تشعر بالألم، لكن عندما يلدغك العلماء، لا تدرك حتى كيف ومتى حدث ذلك'. بعد هذه الكلمات، طلب السيد الصيدلي الإذن بالمغادرة.

كانت ألسنة الفتن التي تلتهم أطراف أوتار براديش تلوح الآن في المدينة نفسها. يومًا بعد يوم، تتردد إشاعات جديدة عن تآمر الهندوس في أحياء معينة ضد المسلمين، عن تجمع الأسلحة. كنا نقطن خلف المكتبة، في قلب المنطقة التجارية، بالقرب من مكاتب الإدارة الضلعية والشرطة، لكن مصدر الخوف الأكبر كان من

الشرطة نفسها، التي شنت أو رعت هجمات ضد المسلمين في مختلف مدن الولاية. كانت منازل غير المسلمين تحيط بنا، كأننا في الصف الأول للمواجهة. في أحياء المدينة الإسلامية، كانت هناك استعدادات للدفاع، ولكن ماذا يمكن أن تفعل العصي والهراوات أمام الشرطة المسلحة؟ حاول الأصدقاء إقناعنا بالانتقال إلى حي إسلامي، لكن والدي اعتقد أن الهروب سيضعف معنويات المسلمين. فقررنا البقاء ومواجهة الأوضاع.

في منزلنا كانت هناك تحف قديمة، من بينها مصباح ألماني قديم وسيف ذو الفقار. الآن فقط بدأنا ندرك قيمة السيف. بينما كان أحدنا يشحذ ذو الفقار، بدأ آخر في إعداد قائمة بالسكاكين وغيرها من الأدوات للاستخدام. استلهمنا خططنا الدفاعية من الروايات التاريخية عن الحروب التي قرأناها. كان هذا هو استعدادنا نحن الأطفال. من جهة أخرى، كان قلق والدي يزداد. تارة يشد من عزائمنا قائلًا 'إن شاء الله لن يحدث شيء'، وتارة أخرى يدعو في جذبة 'يا الله، أنت مسبب الأسباب'. كلما ازداد بريق ذو الفقار، ازداد البريق في أعيننا. أحد الإخوة يحكي عن عظمته الأسطورية، والآخر يسترجع قصص الأبطال من القرون الأولى، ونحن نتخيل أنفسنا في ساحة المعركة. سيف واحد، ذو الفقار، والعديد من العليّ، كان وكأن كفتنا ترجح في المعركة.

كل يوم كان يحمل إشاعات جديدة، تتردد أصداؤها في أرجاء المدينة. أحيانًا نسمع أن الهجوم سيأتي من الشمال هذه الليلة، وأخرى يتردد أن ليلة الجمعة ستشهد غارة. مع حلول الظلام، أدركنا طول ليالي الغربة والترقب. بين المغرب والعشاء، بدت كل لحظة وكأنها تزن قرونًا. أذان العشاء لم يكن كما في العادة، فقد فقد بعضاً من قوته. دعوة المؤمنين إلى الصلاح بدت وكأنها تغرق في اليأس، كأنها الأذان الأخير لهذه المدينة، التي قد لا تستقبل بعدها من يدعو إلى عظمة الله. رغم ذلك، كان هناك شعاع أمل خفي في القلب يردد أن الله لن يتخلى عنا. مر الليل بصمته الرهيب، وكل صوت بعيد يثير الرعب في قلوبنا الطاهرة. انقضت الليلة بعيون مفتوحة، وكأننا نواجه ساعات لا نهاية لها. بعد أيام من الخوف

والرجاء، تجاوزنا الأزمة بالاعتماد على سيف ذو الفقار والتوكل على رب ذو الفقار. كان الأمر كما لو أن همم الأعداء قد انهارت، وتخلوا عن نواياهم للهجوم.

تراجعت أخيرًا أمواج الفتن في المدينة، لكن الأيام القليلة، العشرة أو ربما الإثني عشر، التي قضيناها في ظلال القلق والرهبة، تركت جراحًا عميقة في قلوبنا وأرواحنا. حتى في ضوء النهار، كانت تراودنا مخاوف مستمرة لدى الخروج من المنزل؛ الخوف من أن يلوح خنجر فجأة، أو تأتي رصاصة من مكان غير متوقع لتنهي حياتنا. كلما وقعت أعيننا على ذو الفقار، كنا نتساءل: 'إلى متى يمكننا الاستمرار في تحويل ليالينا إلى صباح بهذا السيف البالي؟' نجونا هذه المرة بأعجوبة، لكن إذا استمرت الأحداث على هذا النحو، فليس ببعيد ذلك اليوم الذي يشرق فيه الصباح في هذه الأرض بدون وجودنا.

أتذكر ذلك المجلس في حي المسلمين، حيث كان شيخ كبير يتحدث عن أهمية وحدة المسلمين. كانت القصة تتعلق بحضوري حفل زفاف كممثل لوالدي. بالنسبة لي، كانت تجربة جديدة تمامًا، تمثيل والدي في حدث اجتماعي. في البداية، أذهلني الحشد الكبير، وكأن كل الحي انقلب رأسًا على عقب. ولكن عندما رأتني أسرة البيت، عاملوني بتقدير خاص وأسكنوني في مجلس المدعوين الرفيعين. كان هناك قادة الحي يتجمعون، وكان النقاش يدور حول وحدة المؤمنين. بعد فترة من الجلوس، أدركت أن التركيز الرئيسي للمجتمعين لم يكن على رفعة المؤمنين بقدر ما كان على تنظيم 'مؤتمر المؤمنين .(Momin Conference) ' شيخ ذو لحية بيضاء، يرتدي قميص خادي فوق بندي ينم عن دور قيادي، وقبعة على طراز غاندي، وعينان تنظران من وراء نظارته البارزة تشي بأنه قضى جزءًا كبيرًا من حياته في أعمال مجتمعية وقومية. لم أكن أعرف اسمه، لكن الناس كانوا ينادونه بالدكتور.عندما بدأ الشيخ يتحدث، ارتفعت همسات في أرجاء المجلس. كان يشدد على ضرورة الحفاظ على وحدتنا، مؤكدًا أن هذه الوحدة هي التي جعلت الحكومة تلتفت إلينا. تحدث عن خطط جديدة للنساجين تعدها الحكومة، وموافقتها على قروض للنول الآلي. ذكر أن حصص الحجز للطبقات المتخلفة ستفتح لنا آفاقًا جديدة، وأننا

نعمل على إقناع الحكومة بشراء منتجاتنا مباشرةً، خاصة توريد السجاد للشرطة والجيش. أكد أن هذا سيحسن من وضعنا الاقتصادي، لكن الحكومة ستساعدنا فقط إذا أدركت أننا نرغب في دعمها. قال إنه يمكننا على الأقل ضمان أن تذهب أصواتنا إلى حزب المؤتمر. فما الجدوى من تشتيت أصواتنا؟ انتقد البعض يأسهم حول حزب المؤتمر. لكنه أشار إلى أنه في العلاقات المتبادلة، تحدث بعض التفاوتات. شدد على أن أسلافنا يعرفون هذه المسائل جيدًا، وليس من السهل على أي شخص أن يتولى زمام القيادة.

عندما امتد النقاش، عبر أحد الحاضرين بلطف عن تحفظاته تجاه برودة حزب المؤتمر وتغير موقفه إزاء المسلمين. فرد الدكتور قائلاً: 'هذه الأمور ليست بعيدة عن متناولنا، فأسلافنا يتابعون هذا الوضع عن قرب. علينا أن نفكر في المستقبل وأن نستغل خطط الحكومة. الآن، بدلاً من صناعة الشراشف واللنجي، ركزوا على صناعة السجاد، مع مراعاة الجودة، حتى تتمكن تعاونيتنا من بيعها بسعر جيد مباشرةً لإدارة الشرطة.'

فسأل شخص منحني القامة، وهو يعدل نظارته: 'ولمن تصنع هذه يا سيدي؟' وأضاف: 'يا دكتور! لمن تصنعون هذه السجاد؟ لنفس رجال الشرطة الذين يصبحون عطشى لدمائنا بمجرد أن تسنح لهم الفرصة؟ هل سيستريحون على سجاد صنعناها ليتمكنوا من مهاجمتنا بنشاط وحيوية؟ ما هذا الاقتراح الغريب الذي جئت به؟'

يبدو أن الدكتور لم يكن مستعدًا لمثل هذا الاعتراض. رد بنبرة من الدهشة: 'يا أخي، أنت لا تفهم الأمر. نحن لا نصنع بنادق لهم، بل سجاد فقط'. ثم استطرد بجدية: 'لكننا في الواقع نسلمهم سلاحًا أشد خطرًا من البنادق، وهو أصواتنا الثمينة. نعطيهم بذلك الحق في حكمنا بمحض إرادتنا. متى ما تسلموا زمام الأمور، لماذا لا يلعبون بكرامتنا الوطنية، يجرحوننا متى شاؤوا، وإذا احتججنا، يزعجهم ذلك'. أضاف الدكتور بنبرة تحمل خبرة السنين: 'نحن أيضًا متألمون من هذا

الوضع، لم يجلس أسلافنا دون عمل. لقد قضيت حياتي في هذا الميدان، والسياسة دائمًا ما تشهد تقلبات.'

"هل لم تقرأ بيان السيدة غاندي حول مأساة فيروز آباد، حيث سقط ثمانية وستون مسلمًا ضحايا لرصاص الشرطة؟ كتب إن جي غوري، عضو البرلمان، إليها بوضوح يشرح كيف عانى المسلمون هناك من الظلم والاضطهاد، النهب والقصف والحرق وحتى اغتصاب النساء، وكيف تواطأت آلة الدولة مع الغوغاء. ومع ذلك، ماذا كان رد السيدة غاندي؟ بكل براءة اعتنقت التبريرات التي قدمها المسؤولون بأن الشرطة لا تتحمل مسؤولية هذه الاتهامات. لقد أظهرت تحقيرًا شديدًا في تعاملها مع المسلمين، متجاهلةً آهاتهم وأنينهم. وأنت تقول إن على المسلمين الاستمرار في دعمها بأصواتهم. ألكل هذا فقط من أجل بضع قطع من الخبز؟ هذا أمر لا يمكنني فهمه".

عندما انقلب النقاش ضد الدكتور، حاول تحويل مجرى الحديث قائلاً: 'حسنًا، الآن ليس وقت النقاش، فقد تم تقديم الطعام'. كانت محاولة لاستعادة السيطرة على النقاش الذي كان يخرج عن مساره. تأملت في نفسي كيف أن الدكتور، رغم خبرته ونفوذه في الحي، وجد نفسه متحديًا بكلمات الرجل المنحني القامة. الفكرة التي طرحها كانت كضربة مفاجئة، تلتهم بسرعة كل ما قاله الدكتور من حكمة ومصلحة، كعصا موسى التي ابتلعت السحرة.

٩

ما تعبدون من بعدي

تملكني الحنين اليوم لذلك الضابط في الشرطة السرية، الذي دخل المكتبة ذات يوم، وكأنه يتتبع رائحة الفتنة. حدث والدي عن الأحوال بطريقته الخاصة. كان متعجبًا من عدم رغبتنا في الرحيل من ذلك المكان حتى في تلك الظروف المتأزمة. ثم سأل بفضول: ماذا تفعلون إذا تفلتت الأمور من السيطرة؟ رد والدي بإهمالٍ متناهٍ: 'الموت وسط الحشود يحمل بهجة'. كان رجال الشرطة السرية يترددون على المكتبة باستمرار. بعضهم، بفضل رفقتنا، تحولوا إلى أناس طيبين، أو على الأقل تظاهروا بذلك. كان واضحًا أن تحركاتنا وسكناتنا تحت المراقبة. على الرغم من أن النقاشات في مجالس المكتبة كانت تدور حول الحرية الفكرية وسمو الأفكار، إلا أن هذه الأمور كانت تبدو خطيرة وغير محتملة لهم، أولئك الذين لم يرغبوا في أن يفكر المسلمون بحرية في هذا البلد. وبعد فترة طويلة من المضايقات من قبل الشرطة السرية، اشتكى جدي أخيرًا إلى السيد زاكر، الذي كان قد أصبح حينها رئيسًا للجمهورية. وبتدخله، خفت حدة تصرفات رجال الشرطة ولم تعد عدائية كما كانت في السابق.

في أثناء مرض الوالد، بدأ يتضح لنا بشكل ما أن حول أبي تجمعت شبكة واسعة من المسلمين المتعاطفين، امتدت أطرافها إلى مناطق بعيدة. لم يكن هناك يوم يمضي دون أن يزوره أشخاص للاطمئنان على صحته، أشخاص لم نكن نعرف عنهم الكثير. هؤلاء الناس من مختلف المذاهب والأفكار كانوا يجمعهم هم واحد: الحفاظ على الدين والإيمان. هذا هو الذنب الذي أدى إلى فرض الرقابة

الصارمة علينا. الحرية في الهند المقسمة كانت مفهومة فقط لأولئك الذين عاشوا وتعايشوا مع تلك الأوضاع.

كان الوالد يميل إلى أن يستمع إلينا ونحن نقرأ له ترجمات القرآن الكريم وتفاسيره. لعل ذلك كان جزءًا من مسعاه الخاص في البحث والدراسة، أو ربما كان يهدف إلى تربيتنا بهذا الأسلوب. يومًا ما، وأنا أتلو سورة البقرة، وعندما وصلت إلى الآية 'إذا حضر يعقوب الموت قال لبنيه ما تعبدون من بعدي'، أوقفني والدي عن القراءة، غارقًا في صمت عميق كأنه يرغب في قول شيء. قرأت له الترجمة، فقال: 'اتركها'. ثم أطلق تنهيدة عميقة وقال: 'إنها أمانة ثقيلة'. شعرت أن هناك معنى غامضًا ربما لم أكن مستعدًا لفهمه بعد. في ذلك الوقت، كانت هناك نسخ من القرآن الكريم مخصصة للأطفال، لكن حتى هذه النسخ كانت تبدو معقدة لعقلي الصغير. بالرغم من ذلك، لم أتمكن من 'ختم' القرآن الكريم بسبب هذه الطريقة في القراءة. ومع مرور الوقت، هذا الشعور بالعجز قادني إلى دراسة القرآن بشكل مباشر وجاد. بدا لي أن والدي كان مهتمًا بشكل خاص بسلامة أفكارنا وإيماننا.

في تلك الأيام، غمرتني صفحات رواية تاريخية عن موريسكو المسلمين في إسبانيا. تناولت الرواية حكاية فتى في مثل سني، متحيرًا ومتسائلًا عن بعض الأفكار والمعتقدات التي يحملها والداه. كان يشعر بأنهما يخفيان عنه أشياء. في منزلهم، كان هناك غرفة خاصة يدخلها والده بسرية. ذات يوم، استدعاه والده إلى تلك الغرفة وقال: 'يا بني، أنت الآن على أعتاب البلوغ، وهناك شيء ثقيل على قلبي أود أن أطلعك عليه، شريطة أن توعدني بالاحتفاظ به سرًا'. 'أقسم بيسوع المسيح، يا أبي، لن أخبر أحدًا به'، أجاب الفتى مطمئنًا. سماع هذا أدمع عيني الأب، الذي قال: 'يا بني، هذا الزي المسيحي الذي نرتديه ليس هويتنا الدينية الحقيقية، إنها قسريات النظام الذي أجبرنا على اعتناق المسيحية، لكننا في الحقيقة مسلمون. وربما حان الوقت الآن لأنقل إليك أمانة دين الحنيف'. بدأت أتساءل، هل كان والدي يشير إلى هذه الأمانة في حديثه السابق؟

حكم المسلمون في كل من إسبانيا والهند بعظمة وفخامة لقرابة سبعة قرون. أتساءل، ما الصلة بين تاريخ الأندلس ونحن، مسلمو الهند؟ وهذه المحاولات للقضاء على اللغة الأردية، هل تنطوي على سيناريو مماثل لما حدث للغة العربية في إسبانيا؟ لذا قررت استشارة الأستاذ يعقوب، ذلك الذي يتقن فن تحويل النقاشات الجادة إلى حكايات شيقة. لكن انتزاع لؤلؤة المعرفة من الأستاذ يعقوب لم يكن مهمة سهلة. كان يقوم أولاً بتقييم معرفة الطالب بالموضوع، ثم يمده بإجابة تناسب فهمه. وإذا ما كان الطالب مطلعاً على الموضوع، كانت ملامح الأستاذ يعقوب تتغير، فتنبثق من حديثه سيول من الفكر والمعرفة، تتراقص بروح الحماس والجمال.

لدى سماع سؤالي، بدأ الأستاذ يعقوب بتحليل فهمي، فسألني: 'ماذا تقرأ هذه الأيام؟' ثم، عندما أشرت إلى الظروف القاسية التي عانى منها مسلمو الموريسكو في إسبانيا، حيث اضطروا لإخفاء هويتهم الإسلامية، بدت على وجهه علامات القلق. قال بنبرة حزينة: 'بعد سقوط غرناطة، مر المسلمون في إسبانيا بأزمنة شديدة الصعوبة. تم إجبارهم على اعتناق المسيحية بأمر حكومي. وإن كانوا قد تظاهروا بالمسيحية، إلا أن قلوبهم ظلت متعلقة بالإسلام. لم تتغير عاداتهم، تصرفاتهم، ولا حتى صلتهم باللغة العربية. أصدرت السلطات تعليمات متكررة تحظر أي رمز ديني أو ثقافي إسلامي، ولكنهم، رغم المخاطر، واصلوا نقل تراث الإيمان من جيل إلى جيل. وفي نهاية المطاف، أصبح حيازة الكتب العربية في المنازل وتعليمها جريمة. كانت الشرطة السرية تفتش البيوت، وإذا عثرت على كتاب بالعربية، كان يُصادر على الفور. لكن المسلمين لم يكونوا ليتخلوا عن إرثهم العلمي والديني بهذه السهولة. والملفت للنظر هو أن النساء كن في طليعة هذه الحركة. كن يخبئن صفحات القرآن داخل الوسائد والملابس، وعند المداهمات المفاجئة، كن يخفين المخطوطات داخل ثيابهن.

"دعني أحكي لك قصة ستثير دهشتك،" بدأ الأستاذ يعقوب بتحويل حديثنا إلى قصة مشوقة. قال بلهفة: "هل تعلم كيف تعامل المسلمون مع الكراهية التي

كانت توجه للغة العربية؟" توقف للحظة، وكأنه ينسج أفكاره، ثم استرسل: "هل سمعت عن كتب الرصاص في غرناطة؟" وبعد توقف قصير، أضاف: "هذه قصة فريدة. كتب المسلمون نصوصاً على لفائف الرصاص بالعربية، تتضمن تعاليم المسيح عليه السلام، وفقاً للرؤية الإسلامية لقدسيته. وتقول الرواية إن السيدة مريم، عندما أرسلت رسالتها إلى فالنسيا، أمرت بترجمة تعاليم الإنجيل إلى العربية لتلاميذها العرب. هذه اللفائف صُممت لتبدو كأنها قديمة جداً، واكتُشفت فجأة في الكهوف المجاورة، مما أثار دهشة كبيرة في إسبانيا بعد اكتشاف هذه المخطوطات المسيحية بالعربية. أدى هذا إلى تغيير في نظرة العديد من المسيحيين، الذين بدؤوا يعتقدون أن هذه اللفائف العربية جزء لا يتجزأ من التراث المسيحي الإسباني. وبات من الضروري الاعتماد على الخبراء الناطقين بالعربية لدراسة هذه المخطوطات. والأكثر أهمية، أن العداء الشديد الذي كان يُعرف به العربية قد تبدد إلى حد كبير".

"لكن، ألم يثر هذا الأمر ضجة في العالم المسيحي؟" استفسرت بفضول. "ما الذي كان يمكن أن تفعله الضجة؟" رد الأستاذ يعقوب، "على الرغم من تأكيد علماء الدين المسيحيين في روما مرارًا وتكرارًا على أن هذه المخطوطات لا يمكن أن تكون أصيلة من حيث المضمون، إلا أنه من الصعب إيقاف ما انتشر بين العامة. وأضف إلى ذلك، كانت القضية متصلة بالفخر الوطني الإسباني. لمسيحي غرناطة، كانت هناك الآن رسالة خاصة من السيدة مريم بالعربية، تميزهم عن باقي العالم المسيحي. سياسات كتب الرصاص هذه أحدثت تغييرًا جوهريًا في نظرتهم إلى اللغة العربية".

"إذًا، هل ينبغي لمتحدثي الأردية التفكير في استراتيجية مماثلة؟" تساءلت، مستعرضًا معرفتي الأدبية. أجاب بحزم: "التعصب والتحيز هما السبب، ولا شيء آخر. في أذهان هؤلاء الناس، استقرت الفكرة بأن الأردية لغة المسلمين. ولكن الدوافع الحقيقية وراء ذلك اقتصادية. بعد الاستقلال، بدأت المدارس الأردية تختفي تدريجيًا، مما تسبب في أضرار جسيمة للمسلمين. الهندوس، بفضل

معرفتهم بالخط الهندي، سيطروا على الوظائف الحكومية والمؤسسات، بينما تُرك المسلمون بلا وسائل. الآن، يرغبون في حرمان الجيل الجديد من الإرث الإسلامي الغني المكتوب بالأردية."

"لماذا لم يقم المسلمون برد فعل حازم ضد هذه المؤامرة منذ البداية؟" تساءلت. "المحاولات كانت موجودة، لكنها لم تقاوم مكر ودهاء المعارضين بفعالية،" أجاب الأستاذ. "وماذا عن مولانا أبو الكلام آزاد؟" سألت. "ماذا كان بوسعه أن يفعل وهو الذي لم يجد من يستمع له؟" قال الأستاذ بنبرة حزينة. "في البداية، وعد غاندي الجميع بأن اللغة الوطنية للهند الجديدة لن تكون الأردية ولا الهندية، بل ستكون الهندوستانية، والتي ستكتب بكل من النظامين الكتابيين، العربي والديفاناغري. لكن ما حدث كان مختلفًا، أُقصيت الأردية ومُنحت الهندية الدعم الحكومي." "وماذا عن الحركة لجعل الأردية اللغة الرسمية الثانية؟" سألت. "لنرى ما سيحدث. المسلمون ليسوا من النوع الذي يستسلم بسهولة. يواجهون هنا منافقين يقولون شيئًا ويفعلون عكسه. أولاً، أُغلقت المدارس التي تدرس بالأردية وأُزيلت الأردية من المكاتب الحكومية. الآن يدعون أن حكومتهم تسعى لتعزيز الأردية. في الهند المقسمة، تحولت قضية الأردية إلى قصة مؤلمة عن الخيانة والخداع".

عند مغادرتي لمجلس الأستاذ يعقوب، طفت في ذهني مشاهد من الرواية التاريخية التي قرأتها، حيث تحمل فتى في عمري أعباء مآسي ثقيلة، مآسي كانت تجعل الدموع تنساب من عيني بغزارة. بعد سقوط غرناطة، واصل المسلمون جهادهم من أجل الحفاظ على دينهم لما يقرب من مائة وخمسين عامًا. في البداية، أُجبروا على اعتناق المسيحية، وبعد ذلك، تم فرض قوانين لحرمانهم من لغتهم وثقافتهم. أصبح الحديث بالعربية، امتلاك الكتب العربية، ارتداء اللباس العربي، بل حتى اعتناق أسلوب الحياة العربي، أمورًا محظورة قانونيًا. وعندما أصبحت الحياة غير محتملة، سُمح لهم بالهجرة مقابل مال، ولكن فرض الظالمون شرطًا

قاسيًا بترك الأطفال الصغار تحت وصاية الدولة، بحجة أن هؤلاء الأطفال، الذين خضعوا للمعمودية رسميًا، لا يجب أن يُتركوا تحت رعاية والديهم المسلمين.

في خاطري، تلألأت صورة الطفلة فاطمة البالغة من العمر خمس سنوات، وهي تودع بعينين دامعتين من والدها الذي كان ينطق بكلمات 'فاطمة، مع السلامة' وصوته مبحوح بالأسى. كان يدرك أنه بعد هذا اليوم، لن تسمع ابنته اسمها العربي ثانيةً. خلال قراءتي لتلك الرواية، لم أتوقف عن مسح دموعي، متسائلاً عما عاناه تلك الوالدين. قامت أمهات كثيرات بالانتحار مع أطفالهن الصغار. حاول البعض الثورة، لكن كل ذلك باء بالفشل. كان حكام الأندلس المسيحيون يهدفون إلى تربية جيل من الأطفال المسلمين بعيدًا عن معرفة تاريخهم وهويتهم. تأملت في كلمات الأستاذ يعقوب، وتيقنت من صدقها: إن حكام الهند الجدد يرغبون في طمس اللغة الأردية، بهدف قطع الصلة بين الجيل الجديد من المسلمين وإرثهم التاريخي العريق.

عندما غادرت مجلس الأستاذ يعقوب، طرأ على ذهني ذكريات المؤتمر الذي عُقد في قاعة البلدية، حيث كانت لي الفرصة، على الرغم من صغر سني، للجلوس على المنصة الأرضية بجوار العلماء. استمرت الخطب الشديدة الحماسة حتى ساعة متأخرة من الليل. ظلت الأجواء ممتلئة بالهتافات الرنانة مثل 'سنحصل على حقوق الأردية'. وعند ختام الجلسة، أُركبت في سيارة الضيوف. في شعيب منزل، كانت هناك عشاء رسمية. بمحض الصدفة، جلست بجانب غلام سرور، رئيس تحرير صحيفة 'روزنامه سنگم'. في هذا المجلس الذي غلب عليه الكبار، لم يُلاحظ أحد وجودي، الوافد الجديد. ومع تطور الحديث، علمت أن مؤتمر داربهانغا كان جزءًا من حملة لتحفيز اللغة الأردية في جميع أنحاء المقاطعة. كنت قد قرأت بالفعل يوميات غلام سرور في السجن، 'غوشه مين قفس كي'، وكنت من قراء صحيفته 'سنگم'. وكان لي شرف الاستمتاع بخطابه الملتهب في قاعة البلدية. مثل أغلب المتحدثين المتميزين في تلك الأوقات، تميز خطابه بغنى المترادفات. كان يلقي بعض الأسماء كل دقيقتين تقريبًا، ثم يتبعها بقائمة طويلة من الأسماء

بأسلوب يجعل الجمهور يشعر بأن لديه مخزون لا نهائي من الكلمات والأسماء. على سبيل المثال، كان يتحدث عن النهر، فيذكر أسماء جميع الأنهار المحلية والعالمية، وعندما يتطرق للزهور، يُعدد أسماءها بطريقة تبهر الحضور، فتتعالى صيحات 'واه واه' و'سبحان الله' في الجمهور. كان الأمر وكأنه يقرأ شعرًا في نثر.

بعد هذا الخطاب، عندما أتيحت لي الفرصة لسماع غلام سرور عن قرب في حفل العشاء، أدركت بوضوح أن الخطابة فن قائم بذاته، وأن الخطاب الجماهيري يتطلب مجهودًا خاصًا ومهارة فريدة. غادر السيد سرور إلى باتنة، متركًا وراءه مشاريع طموحة وخططًا ثورية. كانت أصداء المؤتمر تتردد في كل أنحاء المدينة، وكان الشعور العام يوحي بأن مدافعي الأردية لن يقبلوا بالهزيمة بسهولة. كانت الخطوة التالية هي تنظيم مظاهرة احتجاجية ضخمة في المدينة، لكن قبل أن يتم تنظيم مسيرة يوم المطالبة بالأردية، تم اعتقال أخي الأكبر فجأةً.

كان ذلك حوالي وقت المغرب، في ليلة براءة. كانت رائحة الحلوى تنتشر في الحي. الأطفال في سني الصغيرة كانوا يتنقلون بين البيوت، مشغولين بتوزيع الحلوى، مما أضفى على الأجواء نكهة من البهجة والحيوية. في منزلنا لم يكن من العادة صنع الحلوى، لكن كانت أمي تحرص على تحضير البلاو والزردة لكي لا ينجذب الأطفال لروائح طعام الجيران. شامي كباب الذي تحضره أمي كان له طعم لا يُنسى، وكان الجميع ينتظر وقت الطعام بلهفة. لكن اعتقال أخي الأكبر المفاجئ حوّل هذا المساء المفعم بالفرح إلى لحظات باهتة ومليئة بالقلق، حتى فقد الجميع رغبتهم في الطعام والشراب. كان مركز الشرطة على بعد خطوات قليلة فقط. كنا نزوره بشكل متكرر، محملين بآخر المستجدات إلى أمي. قضينا الليل في قلق وترقب لما سيحدث. ظل والدي يردد 'يا مسبب الأسباب'، متضرعًا إلى الله. وبفضل الله، تم إطلاق سراح أخي في اليوم التالي.

كان أخي الأكبر في ذلك الوقت طالبًا في المدرسة الثانوية العليا، وكان قد أطلق بالفعل مجلة أدبية ضخمة بالأردية تحت اسم 'توازن'. كان له دور بارز في تنظيم مؤتمر الأردية الذي عُقد في داربهانغا. اعتقاله المفاجئ جعلني أدرك للمرة الأولى أن

المبادرات العملية لتعزيز لغتنا وثقافتنا في هذا البلد ليست بالأمر الهين وتحمل مخاطر كبيرة. كنت قد سمعت من والدي عن الأحداث التي وقعت في رانشي عام ١٩٦٧، والتي نُظمت لقمع حركة الأردية. كنت مقتنعًا بأنه يمكن تحمل التضحيات الجسام من أجل الدين، لكن فكرة السجن من أجل اللغة كانت تفوق فهمي. بدأت أفكر في طرح هذا السؤال على الأستاذ يعقوب: هل للغة حقًا تأثير كبير علينا يبرر تحمل مشقة السجن من أجلها؟

في يوم من الأيام، زار الأستاذ يعقوب المكتبة بمبادرة منه، ربما ليعبر عن تضامنه معنا بعد الأحداث الأخيرة. بدأ بالقول: 'إن اللغة جزء لا يتجزأ من شخصيتنا. اللغة والثقافة والأفكار والمعتقدات، كلها تتحد لتشكيل شخصية الإنسان. إذا فقد الإنسان لغته، يصبح كمن فقد جزءًا من ذاته. وإذا ضاعت ثقافته ودينه أيضًا، فما الذي يتبقى له؟ سيصبح مجرد إنسان فارغ، آلي، يشبه الحيوانات في نمط حياته'. ثم أضاف: 'وأدرك أمرًا آخر، أن اللغة لها علاقة وطيدة بالمواطنة.'

'كيف ذلك؟' سألت.

'هذا موضوع معقد'، أجاب، 'لكن افهم الفكرة العامة: إذا كان الإنسان ناقصًا بدون لغته، فإنه يصبح بذلك مواطنًا ناقصًا. اللغة تمنحنا قدرة الاختلاف، نفكر بها ونعبر عن رفضنا لما لا يروق لنا. وإذا أُنتزعت لغتنا منا، سنفقد القدرة على التفكير والتعبير.'

في تلك اللحظة، لم أتمكن من استيعاب كل ما قاله الأستاذ يعقوب بشكل كامل، لكنني شعرت بأن هناك رابطة عميقة بين نضالنا من أجل اللغة الأردية وهويتنا الدينية والملية. كان والدي يؤكد دائمًا أن الكثيرين يستسلمون لضغوط الأحداث، ولكن ليس كل الناس على هذا النحو. هناك أشخاص يقفون صامدين، يواجهون التحديات ويتمكنون في النهاية من تغيير مجرى الأحداث. كان يأمل أن نكون نحن من بين هؤلاء الأشخاص الصامدين.

في قلب المدينة، كانت مدرستنا تشكل نقطة محورية لحركة الأردية. واقعة جغرافيًا في مركز المدينة، كانت هذه المدرسة الأردية الوحيدة التي يديرها المسلمون بكل فخر بهويتهم الدينية. في أثناء الفعاليات السنوية لـ'بزم الأردية'، كانت الأحياء المسلمة تنبض بالحياة والنشاط. كانت الجالية المسلمة في المدينة تشارك بحماس في تنظيم جوائز المسابقات الكتابية والخطابية، وكانت الشخصيات البارزة تختار مواضيع المسابقات الكتابية وتعلن عن جوائز ثمينة. هذا النشاط أكسب المدرسة شعورًا بالارتباط العميق بالجالية المسلمة في المدينة، وجعلها محور الحركة الثقافية واللغوية.

في مدرستنا، كان يتم تدريس العلوم بالكامل باللغة الأردية. حتى في مختبر الكيمياء، عند إعداد قوائم الأدوات اللازمة لتجارب مثل التنقية والتقطير، كنا نستخدم مصطلحات بالأردية، مثل 'آلة قياس الحرارة' بدلاً من الترمومتر. هذا الالتزام باللغة كان يشكل تحديًا للطلاب في الامتحانات الرسمية، حيث كان المُمتَحِنون الذين لا يتحدثون الأردية غير مألوفين بالأسماء الأردية للأدوات العلمية. لكن، على الرغم من هذه التحديات، كانت الأردية تتألق وتنبض بالحياة في هذه البيئة الفريدة للمدرسة، محتفظة بكبريائها ورونقها.

عندما طُرحت فكرة يوم المطالبة بالأردية، انغمست المدرسة بكاملها في التحضير لهذه الحملة الثورية. تقرر إرسال الآلاف من الخطابات إلى رئيس الجمهورية، مطالبين بجعل الأردية اللغة الرسمية الثانية في ولاية بهار، حيث ما زالت توجد مدارس تعتمد الأردية كلغة تعليم. تشكلت فرق من الطلاب تجلس أمام أكوام البطاقات البريدية. في البداية، كنا متحمسين للغاية، آملين أن تحفز هذه الخطابات رئيس الجمهورية على اتخاذ قرار جذري. لكن عبد الرشيد قلب هذا الأمل بقوله إنه لو كانت الخطابات كافية لإحداث تغيير جذري، لأصبحت الأردية لغة رسمية منذ زمن. 'إنهم يعلمون تمامًا ما يريده المسلمون. ما تفعلونه بإرسال هذه الخطابات هو مجرد سذاجة. في الواقع، الحكومة هي المستفيدة هنا. سيؤدي إرسال هذا العدد الضخم من الخطابات إلى تحقيق فائدة لدائرة البريد،

بينما تضيعون حماسكم في هذه الخطابات. في رأيي، لا قيمة لهذه الإجراءات الطفولية.'

عندما جاءت فكرة إرسال خطابات جماعية في يوم المطالبة بالأردية، أقر مهتاب بذلك، قائلاً: 'بالفعل، لقد قلتم الحقيقة، الفائدة الوحيدة هي لدائرة البريد، ربما نحن أيضًا نُخدع في هذا'. وعندما رأيت حماس حملة الخطابات يخبو بين اليأس واللامبالاة، تحدثت بحماس: 'ليس كل شيء يُقاس بالمال. عندما تصل هذه الآلاف من الخطابات من مدن مختلفة إلى رئيس الجمهورية، ستشهد كل دوائر البريد من الصغيرة إلى الكبرى في دلهي حالة من الاضطراب. سيتساءل الناس: ما الذي أدى فجأة إلى وصول الآلاف من الخطابات يوميًا إلى الرئيس؟ كل بطاقة بريدية تعبر عن أسلوب وعاطفة مختلفة، تحمل مطالبنا وغضبنا. والأهم أن أهل الأردية بدأوا الآن في التفكير والتعبير عن أنفسهم. لقد أدركوا حقوقهم الديمقراطية واستعادوا الحياة في دواخلهم. هذه الخطابات، يا عبد الرشيد، ليست مجرد قطع من الورق، بل هي شعلات الشجاعة التي اندلعت، والآن لا يمكن لأحد إطفاءها'. حاولت إقناعه بحماسة المتحدثين.

فأجاب: 'حسنًا، دعونا نفترض ذلك، لكن الاختبار الحقيقي سيكون يوم الأربعاء، لنرى كم من الناس سيشاركون في المسيرة.'

في يوم الأربعاء، تجمع الطلاب في المدرسة لتنسيق المسيرة، حيث تم توضيح أهميتها، مسارها، والإجراءات الأمنية اللازمة. تم اختيار الشعارات التي ستُرفع والردود المناسبة لكل منها. بعد تحضيرنا بشكل كامل، تحركنا في صمت نحو مدرسة حميدية قلعة غاط، حيث كانت تتجمع مسيرات محبي الأردية من كل حدب وصوب. الجموع كانت تتدفق بحماس عارم، والشعار 'سنحصل على حقوق الأردية' يتألق على اللافتات الكبيرة، وعبارات مثل 'في العالم أجمع، لغتنا لها صدى' تعكس روح الحماس. وسط الخطب الحماسية والهتافات الصاخبة، انطلقت المسيرة نحو المبنى الإداري. أغلب الطرق التي مرت بها كانت تمر عبر الأحياء المسلمة، مع بعض المناطق الغير مسلمة التي تحمل خطر محتمل، لكن

محبي الأردية كانوا مستعدين لمواجهة أي تحديات. عندما مرت المسيرة بالقرب من المكتبة وأنا أحمل الميكروفون، وجدت والدي ينظر إليّ بتعبير مليء بالاهتمام والدهشة. شعرت بخجل وتردد، فأعطيت الميكروفون لأحد زملائي وانسحبت إلى داخل المكتبة. كان مبنى الإدارة قريبًا، وهناك انتهى دوري في المسيرة.

١٠

تحت ظلال البنادق

كانت البلاد تسير نحو حالة طوارئ. حتى استقلال بنغلاديش قد تحولت إلى مصدر للقلق العام. من جهة كانت تكاليف الحرب، ومن جهة أخرى الجفاف وحملات الكراهية ضد المسلمين، وسلسلة من الفتن. وأولئك الذين كانوا يعظمون السيدة غاندي كتجسيد لإلهة دورغا، الآن قد تحولوا ضدها بشدة. انتشرت الإضرابات والاحتجاجات في كل مكان، وأدى نقص السلع الضرورية إلى التخزين المفرط. في طريقي من المدرسة إلى المنزل، كانت هناك مناظر لا تنسى: شاحنات الكيروسين محاطة بطوابير طويلة، ومكان آخر لطوابير الصابون، وأماكن للثقاب والسجائر. هذه المشاهد أصبحت سمة المدينة. كانت الشرطة تستخدم الهراوات للسيطرة على الحشود. بدأ الناس بنهب الشاحنات قبل تشكيل الطوابير عندما أصبح من الصعب الحصول على الضروريات. كانت هناك حالة من الفوضى في البلاد. في المساء، كانت أصوات الطبول والصحون تصدح في الهواء، وهي علامة الاحتجاج الشعبي بقيادة الزعيم جاي براكاش نارايان. كانت الدعوات المتواصلة لثورة شاملة تتعالى. من كل اتجاه، كان هناك صدى واحد: 'افسحوا الطريق للعرش، فالشعب آتٍ'.

كانت الامتحانات نصف السنوية قد بدأت في المدرسة. اليوم كان أول يوم في الامتحانات. عند الاستيقاظ صباحًا، لاحظت قلقًا غير عادي يكتنف والدي. سرعان ما عرفت أن حالة الطوارئ قد أُعلنت في البلاد. في طريقي إلى المدرسة، شاهدت مجموعات من الناس يتبادلون الهمسات في تجمعات سرية. في البداية، لم أستوعب معنى حالة الطوارئ تمامًا، خاصة وأنني كنت مثقلًا بضغوط

الامتحانات. عند عودتي إلى البيت، وجدت في المكتبة عدة صحف بالأردية والإنجليزية. كان العنوان البارز في إحداها يقول: 'تم إعلان حالة الطوارئ'.

بعد أيام قليلة، وصلت أنباء تفيد بأن ستة وعشرين حزبًا قد تم تصنيفها كأحزاب محظورة، وكان من ضمنها جماعة الإسلامية. تم تعليق الحقوق الأساسية. وقف والدي يتأمل المستقبل، مرددًا 'يا مُسبِّب الأسباب'. كانت هناك نبرة من الرضا والسكينة في صوته وسط القلق الذي كان يعتريه.

مرت أيام عدة في هذا الجو المتوتر، ثم جاء الخبر المفاجئ بأن عمي الأكبر قد تم اعتقاله بموجب قانون ميسا. هنا فقط فهمت لماذا كان والدي قلقاً بهذا الشكل. لم يمضِ وقت طويل حتى زارني ابن عمي جميل في المدرسة وأنا في قاعة الامتحان. أخبرني بأن والدي قد تم اعتقاله وأن المكتبة قد أُغلقت بالكامل، وطلب مني الذهاب إلى إسلام نجر بعد الامتحان بدلاً من العودة إلى المنزل. كان خبر اعتقال والدي بمثابة صاعقة لي. تخيلت جدران السجن الشاهقة التي كنت أمر بجانبها في نزهاتي الصباحية. بدأت الدموع تنهمر من عيني. حاول أصدقائي تهدئتي، لكنني لم أستطع التوقف عن التفكير في والدي المهموم وجدران السجن المهيبة التي تفصلنا. إسلام نجر كانت قريبة من المدرسة، حيث ذهبت والدتي صباحًا لزيارة الجد بعد اعتقاله. استغل الأشرار غياب والدتي ليقوموا بإغلاق المكتبة ومنزلنا بالكامل. كانت والدتي قلقة، لكنها استمرت في محاولة تهدئتي قائلة 'بعد كل ليلة يأتي صباح، لا تقلق، ستتغير الأمور'. في البداية لم أكن أدرك كيف حدث كل هذا فجأة، وتساءلت هل كانوا ينتظرون خروج والدتي من المنزل ليستغلوا الفرصة ويغلقوا المكتبة ومنزلنا معًا؟

كان هناك بعض الأوراق الامتحانية المتبقية في الفصل الدراسي الأول، لكن الاهتمام بالامتحانات كان قد تلاشى الآن. الكتب مغلقة والملابس محبوسة، شعرنا وكأننا فجأة أصبحنا بلا مأوى تحت السماء الواسعة. كنت أقلق بشدة على والدي، وكان الخوف يخنق قلبي. لم تتوقف دموعي عن الجريان، وكنت أحاول تهدئة نفسي بالتفكير في أن المسافرين على درب الحق يجب أن يمروا بمحنة

السجن والتعذيب. كنت أفكر في والدي وهو يرفع يديه للدعاء في سكون الليل، وكيف يستجيب الله له، فلماذا إذًا سيتركه يضيع؟ هذه الأفكار كانت تمنح قلبي بعض السلوى، لكن سرعان ما كانت القلق يعاودني مرة أخرى، ملفوفًا بضباب الأسئلة والشكوك.

في مساء ذلك اليوم، جاء أخي الأكبر إلى والدتي بأخبار جديدة. أخبرها بتفاصيل اعتقال والدي وإغلاق المكتبة، موضحًا أنه ما زال في مركز الشرطة وسيُنقل إلى السجن بعد المثول أمام المحكمة في اليوم التالي. في وقت العشاء، ذهبنا لزيارته في الشرطة. وجدناه يصلي صلاة العشاء بخشوع عميق، كما لو كان في حالة تهجد، يتحدث سرًا مع الله. بعد السلام، استدعانا للقرب وقال: 'لا تقلقوا، ثقوا بالله، فهو مسبب الأسباب. لا تهملوا دراستكم، إن شاء الله ستتحسن الأمور، فالظروف لا تدوم.' وعندما قال ذلك، لامس ظهري بيده بحنان، فشعرت بطاقة غير عادية تنبعث من لمساته. تلاشت سحب الحزن والقلق قليلاً. حبست دموعي بصعوبة، لكن عند سماع كلماته، تساقطت قطرات دموعي، التي مسحتها بسرعة بكمي، متظاهرًا بأنني أعدل صندلي لكي لا يلاحظ والدي ذلك. جمعت نفسي وجلست أمامه كصخرة صبر، محاولًا أن يستمد منا قوة وشجاعة.

كانت الليلة طويلة، حيث أثقلت الأفكار والوساوس دماغي وقلبي. تارة يغرقني القلق بأفكار السجن ومشقاته، وتارة أخرى يملأني الاطمئنان عند تذكر لقاءنا في مركز الشرطة، حيث لاحظت على وجه والدي ثباتًا وسكينة غير عادية. وفي غمرة هذه التقلبات الفكرية، غلبني النوم. رأيت في حلمي والدي جالسًا تحت شجرة على منصة، ممسكًا بنسخته من المصحف الجيبي الذي كان يقرأ منه دائمًا. حوله الخدم وجموع من الأشخاص، بعضهم يبدو مألوفًا، جالسين على كراسي مزينة، وكثير منهم كانوا يزورون المكتبة بانتظام. كان هذا المكان الخلاب بالقرب من شلال. دائمًا ما كانت لحظات ما قبل شروق الشمس تبعث في نفسي السرور. وفي تلك اللحظة التي كان ينتهي فيها والدي من تلاوته، كنا نذهب سويًا للتنزه في الصباح. رؤية والدي في ذلك المكان الجميل جعلت قلبي يرقص فرحًا. ظننت أن

نزهة اليوم ستكون ممتعة. ركضت نحوه بلا وعي، لكن قبل أن أصل إليه استيقظت. كان الصباح لا يزال بعيدًا، ولم يعد بمقدوري العودة للنوم، لكني شعرت بالاطمئنان لأن والدي بدا سعيدًا ومطمئنًا، وقد تم تكريمه في ذلك المكان الرائع بصحبة مصحفه الجيبي. خطر لي أنه ربما يطلب نسخته الخاصة من القرآن، فتوجهت صباحًا إلى المكتبة، لكني وجدتها مغلقة وحارسًا مسلحًا يمنع الاقتراب، مما أثار خيبة أملي الشديدة.

قضيت اليوم التالي في حالة من الاضطراب الذهني الشديد. من جهة، كان هناك موعد والدي في المحكمة، حيث وُجهت إليه تهمة تحريض الفوضى في البلاد، ومن جهة أخرى، كانت هناك هذه الأزمة المروعة التي ألمت بمنزلنا، مما شكل خطراً على استمرارية تعليمنا نحن الإخوة الستة. كل من تقدم لمساعدة المعتقلين خلال فترة الطوارئ وجد نفسه مهددًا بالاعتقال. في هذا الجو المليء بالخوف والقلق، وجد الكثير من الأقارب والأصدقاء أنه من الأفضل تجنب التواصل معنا. وبينما كنا نخطط لمستقبلنا، وصلتنا أنباء مفجعة أخرى بأن عمي الأصغر قد اعتقل أيضًا، مما جعل الوضع يبدو وكأن الدائرة تغلق حولنا.

في ذلك اليوم، وجدنا أنفسنا دون أي دعم ذكوري في المنزل، نتساءل إلى من يمكننا اللجوء لطلب المساعدة. عندما تنهار كل الأعتاب الدنيوية، يظهر تدبير القدر. جاءت المساعدة من جارنا، أحد المقدرين والأصدقاء المقربين لوالدي، الذي أرسل إلينا مفاتيح منزله مصرًا على أن ننتقل إليه ونعتبره بيتنا طالما المكتبة مغلقة. كانت فكرة الانتقال للعيش بجوار المكتبة مصدرًا للتشجيع. لكننا انتقلنا بلا أي أمتعة أو مقتنيات، فكل ما نحتاجه من الضروريات كان محبوسًا داخل المكتبة ومنزلنا الملحق بها، تحت حراسة مسلحة. ولأول مرة، تعلمنا كيف نعيش بدون الاحتياجات الأساسية. نظمت والدتي البيت الجديد بطريقة أعادت خلق بيئة من الرضا والشكر والتعليم. وفي تلك الفترة، كنا نتلقى أخبار والدي من السجن. ثم جاء الخبر بأن يوم الأربعاء قد حُدد لزيارة السجناء بموجب قواعد الدفاع عن الهند.

كان يوم الأربعاء يومًا متقلبًا، غمرته أجواء من الحرارة والرطوبة التي تميز الصيف الشديد. وصلنا إلى السجن في الوقت المحدد، حيث كانت الساعة تشير إلى حوالي الثانية والنصف أو الثالثة بعد الظهر. تميزت البوابة الرئيسية للسجن بثلاثة نوافذ تشبه الأبواب، محكمة بقضبان حديدية متينة. وقد شُيد جدار بعيدًا قليلاً عن هذه النوافذ، مفصلاً بحيث يفصل بين الزوار والسجناء بمسافة حوالي عشرة إلى اثني عشر قدمًا. كانت مساحة هذا الجدار تبلغ ارتفاعًا من ثلاثة إلى أربعة أقدام. على جانب الزوار تجمع حشد من الأشخاص، بينما كان السجناء يتزاحمون خلف النوافذ الحديدية. الأصوات المتداخلة في هذا الجو المزدحم كانت تعجز عن إيصال الكلمات بوضوح، فكانت تتداخل وتتشابك بشكل يجعلها غير مفهومة. كنا نبحث عن والدي بعيون تملؤها الأمل، وفجأة ظهر أمامنا. بادر بالتحية والسلام، لكن في ذلك الزحام، كان صوته غير واضح، كأنه اختنق في حلقه. كان القلق يطغى على ملامح وجهه، وعيناه تحمران من الأرق. رؤيته في هذه الحالة كانت قاسية للغاية. كنت قد توقعت في طريقي إلى الزيارة أن أعانقه وأعطيه الشجاعة، وأخبره بأننا نواصل تعليمنا بشكل أفضل مما كان يتوقع. كنت أتوقع أن يستقبلني بفرح ويعانقني ويداعب جبيني بحنانه الأبوي. لكن ما وجدته هناك كان العذاب بعينه. رفعت إخوتي الصغار في حضني ليراهم والدي. كانت النظرات بيننا مليئة بالحسرة والعجز وألم لا يوصف، يتجلى أحيانًا في دموعنا وأحيانًا في صوت والدي المخنوق. وقفت والدتي تراقب المشهد المؤثر من وراء نقابها، كيف أن الأطفال الصغار حُرموا حتى من لمسة الأب خلال الزيارة. كانت تريد أن تقول شيئًا لكن لم تستطع في ذلك الضوضاء. هكذا انتهت

في طريق العودة، كان عقلي يسبح في بحر من الفوضى. عيون والدي المتورمة، على ما يبدو من كثرة البكاء، كانت تتراءى أمامي باستمرار. كنت أصلي في قلبي، "يا الله، خفف على أبي من مشقات السجن." والدي كان جزءًا لا يتجزأ من يومياتنا، قلب عائلتنا النابض. كان يعتني بأقاربه ويمد يد العون للآخرين بما يفوق قدراته. له دور محوري ليس فقط بين أفراد العائلة بل وبين المسلمين الفقراء والأيتام

والشباب الطموحين خارجها. كثيرون يطلبون نصحه في مسائلهم الشخصية والاجتماعية. ولكن، مع اعتقاله المفاجئ وعزله وراء القضبان، وجد هذا النظام الذي كان يعمل بهدوء نفسه في أزمة. توقفت الأمانات والمساعدات التي كان يقدمها. الحكومة اتهمته بإثارة الاضطرابات، ولكن الحديث عن لطفه ومساعداته الخفية من قبل الزائرين كان يرسم صورة ملاكية لوالدي، لم نكن ندركها بهذه الوضوح إلا بعد سجنه. تلك الشهادات من الفلاحين والزوار البعيدين والقريبين، المعروفين والغرباء، كانت تشير إلى علاقة روحية قوية بينهم وبين والدي. كان يعيل عائلة كبيرة، ولم نكن ندرك حجمها حتى تلك اللحظة.

عند عودتي من الزيارة، كانت نفسي مضطربة بشدة. كنت قد خططت للوقوف أمام والدي كقوة صلبة، مظهرًا له عزمنا وشجاعتنا، ومطمئنًا إياه بأننا قد قبلنا هذه الصدمة كتحدٍ وتجربة. كنا راضين ولم نكن منهارين. ولكن، عند رؤية وجهه، خانتني قوتي وانهمرت الدموع من عيني دون إرادة. قررت بتصميم أنني في المرة القادمة لن أظهر أمامه في حالة من العجز والضعف. تذكرت أقوال والدي، الذي كان دائمًا ما يقول إن الحياة بدون أهداف عليا وأفكار نبيلة هي بمثابة الموت. هذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان: الحيوانات تعيش بالأكل والشرب وتكون سعيدة، بينما الإنسان بدون أفكار هو مجرد حيوان. كان يؤكد دائمًا أننا لسنا عاديين، بل خير أمة، منتخبون من الله. لا يمكننا التنازل عن هذا الدور السماوي الذي وضعه الله علينا كمسلمين. والدي الآن خلف القضبان بسبب هذه الجريمة، وهذا شرف، لكن كيف يكون هذا شرفًا عندما يصبح الأشخاص الذين لهم علاقة خاصة بالله غير قادرين وعاجزين إلى هذا الحد؟ يا الله، أبي لا يلتمس المعونة إلا منك. لقد كان دائمًا ينظر إلى السماء في الأوقات العصيبة، فلماذا تركته لوحده؟ تذكرت فجأة تلك الأبيات من مسدس حالي التي كنت أرددها بحماس لأجدادي وأنال الجوائز منهم:

يا من بين الرسل، أنت الخاص، لحظة الدعاء قد دنت
أمتك، يا نبي، ترزح الآن تحت ظروفٍ قاهرة

تلك الديانة التي بُعثت بمجدٍ من موطنها
في الغربة الآن، تلوح وحيدة ومهجورة

ما زالت المكتبة تحت حراسة الشرطة المسلحة. كلما حاولت الاقتراب، كان الجندي المكلف بالحراسة يضرب الأرض بحذائه بطريقة تصدر صوتًا كريهًا. كان وجهه خاليًا من أي تعبير، كأنه روبوت. كانت دوريات الشرطة تتجول في المنطقة بشكل متكرر، ونحن الأطفال أحيانًا كنا نذهب إلى معسكراتهم للعب أو السباحة. كانوا يتعاملون معنا بلطف، ولكن حالة الطوارئ قد حرمتهم حتى من صفاتهم الإنسانية الأساسية. كل ضربة من حذائه تحت قدميه كانت تشعرني وكأن قلبي يُسحق. المكتبة، التي ارتبطت بذكرياتي اليومية، وكانت مكان تجمعي ومدرستي، حيث كانت أيامي مليئة بالفرح والبصيرة، والتي تركت من أجلها حياة القرية المليئة بالاحتفالات، أصبحت اليوم محظورة علينا.وقفت هناك، غارقًا في أفكاري، أحدق بحزن عميق نحو المكتبة المغلقة، عندما لمحت صديقي القديم سمير يمر بالقرب. ناديته، فالتفت للحظة ولكنه سرعان ما زاد من سرعته، متجاهلاً ندائي. عندما حاولت اللحاق به، أخبرني بأن والده نهاه عن الذهاب إلى منزلنا. كان سمير، الذي كان يومًا صديقي المقرب ومعجبًا بعبد القيوم أنصاري، قد تغير بشكل مفاجئ. شعرت بألم عميق في روحي، كأن خيانته قد طعنتني. لكن سمير لم يكن وحده في تغيره. فقد أوجدت حالة الطوارئ فجأة عالمًا جديدًا محيطًا بنا، غريبًا ومنعزلاً. كان الناس يعبرون عن تعاطفهم بهمس، وقلة تجرأت على سؤالنا عن صحة والدي، ولكن في الحقيقة، كانوا مجرد متفرجين. لم يكونوا أعداءًا لنا، لكنهم لم يكونوا حلفاءًا أيضًا. لقد كانوا يتابعون محنتنا كمشهد مسرحي، ممزوجين بمشاعر التعاطف والنوايا الحسنة. لم يكونوا ضد الحق، لكنهم أيضًا لم يقفوا إلى جانبه. من يفهمهم أن عدم الوقوف إلى جانب الحق هو في حد ذاته نوع من المعارضة؟

في الزيارتين الثانية والثالثة للسجن، غمرتنا نفس المشاعر. كان الشعور بالعجز يتغلغل بعمق، ولكن تدريجيًا بدأ يصير جزءًا من يومياتنا العادية. في أحد

الأيام، بعد صلاة الجمعة في حر الصيف الخانق، زارنا رجل في منزلنا. كانت هيئته توحي بأنه عالم مرموق. وعلى الرغم من حرارة الأيام اللاهبة، كان متأنقًا بجبته وعمامته. دراجته كانت محملة بأصناف متنوعة من الأغراض. على جانبها صندوق إفطار، وعلى الآخر حقيبة جلدية، ومعلقًا في مكان ما كيس من الملابس، وفي الخلف على الحامل بعض الكتب. عيونه، اللامعة من وراء نظاراته ذات الإطار الثقيل فوق لحيته المصبوغة بالحناء، كانت تضفي عليه هيبة خاصة. أخبرنا بأنه الإمام في السجن وشاعر يعرف بلقب 'راهي'، وقد عاد للتو من لقاء والدي في صلاة الجمعة. شعرنا وكأن الله أرسل إلينا ملاكًا بشكل غير متوقع. تجمعنا حوله نستمع ونسأل، متعطشون لمعرفة كل تفصيل عن صحة والدي ويومياته. أخبرنا بأن صحته جيدة بفضل الله، ولكن البكاء المستمر أثر على بصره. ويبدو أنه بدأ يعاني من المياه البيضاء في عينيه. وقد طلب نسخة من القرآن المجيد بخطوط واضحة ليساعده في قراءتها.وفي تلك اللحظة، دخل أخي حاملاً كأس شربت. كان قد تعود على وجودنا وأصبح جزءاً من حديثنا. بدأ يتحدث بنبرة تملؤها الحيرة والدهشة: 'يا إخوان، ما أغرب هذه الأيام! فكم من النفوس النقية ألقيت في غياهب السجون'. ثم أفصح عن قصيدة كتبها لهذه المناسبة، وتلا علينا بضعاً من أبياتها، فظللنا نرقبه، وقد تمثلت فينا مشاعر الشغف والعجب. فكرت في سري أنه يبدو شاعراً مميزاً حقاً، وترنمه يحمل سحراً خاصاً. بدأ يسرد علينا بعض الحكايات الشيقة عن الحياة داخل السجن، ربما في محاولة لتخفيف شعورنا بالغربة والهول تجاه السجن. وقال بنبرة خفيفة: 'يا إخوان، لا تزال التحقيقات تجري عليّ'. وأضاف: 'هذه الأيام، السجون مكتظة بالسجناء، ونؤدي صلاة الجمعة بانتظام، لكن في الأيام العادية، قد يؤدي أحدهم الصلاة وقد لا يؤديها. كان عليّ أن أذهب إلى وليمة في القرية، فصليت صلاة الجمعة يوم الخميس، فلم أستطع الانتظار'. لقد أدهشنا هذا الذكاء الفقهي. صلاة الجمعة يوم الخميس؟ تساءلت بدهشة. فأجاب: 'يا إخوان، ماذا تعني صلاة الجمعة في السجن؟ إنها مجرد إجراء

شكلي. بل يقول الخبراء أن إقامة الجمعة في ظل الحكومات غير الإسلامية لا تعدو كونها عديمة الجدوى والمعنى.[١]

أصبحت العادة للسيد راهي أن يزور منزلنا كل يوم جمعة بعد عودته من السجن. كأن القدر قد فتح لنا نافذة مباشرة من السجن إلى بيتنا، نافذة تطل على عالم آخر، عبرها. وبوصول نسخة جديدة من القرآن بخط واضح إلى والدي، فُتحت أمامه فرصة لإعادة قراءة وتأمل القرآن بطريقة جديدة، بعيداً عن النسخة الصغيرة التي حفظها عن ظهر قلب، والتي ربما أقفلت أمامه آفاقاً جديدة في فهم النص القرآني. هذه الفراغات الزمنية فتحت أمامه أبواباً لذوق تلاوة جديد وشغف فكري يخترق حدود أفكاره السابقة. تملأ الأيام والليالي بكلمات الله ومناجاته، في تجلٍ روحي متواصل. وربما كانت دموعه ودعائه سبباً في شعورنا، حتى في غيابه، بأن هناك من يحرسنا، وكأن رحمة الله ترافقنا في كل لحظة، ظلالاً تغشانا بالأمان والسكينة.

في يوم من الأيام، جاء البريد بكومة من الرسائل والصحف والمجلات، تراكمت على مدى ثلاثة أو أربعة أسابيع. فيما بينها كانت هناك رسائل من تجار وقوائم بكتب أرسلت عبر شركات النقل وكانت تنتظر استلامها. وكانت لدينا تجربة سابقة مع إشعارات متكررة من مخازن السكك الحديدية حول وصول حزم الكتب. هذا الأمر أثار في نفسي فكرة: لماذا لا نفتح مكتبة جديدة بجوار المكتبة الحالية؟ وبسرعة مذهلة، نشأت مكتبة جديدة للكتب في الجزء الأمامي من المنزل. بدأنا نتناوب في أداء الواجبات هناك. بعد العودة من المدرسة، تحولت عملية التعامل مع العملاء إلى هواية جديدة لنا. وكلما فتحنا المتجر، توافد الزبائن. لاحظت حقيقة غريبة: كان الناس يأتون دائماً يطلبون الكتب المتوفرة لدينا، وخاصة في الفترة المسائية بعد الظهر، وهي وقت عودتنا من المدرسة، حيث كان يتشكل طابور من العملاء. كأن هؤلاء الزبائن لم يكونوا يأتون من تلقاء أنفسهم، بل كأن الله هو من أرسلهم في مهمة.

في غمضة عين، تحول ذلك المتجر الصغير إلى مكتبة تامة الشكل. من البعيد، كان يبدو للناظرين كأن أيام الأزمة لم تترك علينا أثراً سيئاً. ببطء، بدأت الحياة تشق طريقها نحو الروتين الطبيعي. في هذه الأثناء، وبشكل غير متوقع، ظهرت غاسلتنا تحمل حزم الملابس المغسولة. وبنبرة تخفي اللوم، سألتها والدتي: 'أين كنتِ؟'، وهي تتلاشى الخجل، أجابت: 'كنا خائفين، سمعنا أن الشرطة تعتقل من يقترب منكم'. عند رؤيتها للملابس المغسولة، استراحت والدتي وتنهدت قائلة: 'هذا كله بترتيب من الله'. ألهمتنا تجربة المكتبة الجديدة ثقة جديدة بأنفسنا. بدأت مرة أخرى النقاشات حول التعليم والتعلم وعظمة الإسلام في منزلنا بذات الحماس. استطاعت والدتي، ببراعة إدارتها، أن تحافظ على وجهنا البيض بأبسط الوسائل. صوت تلاوتها في الصباح كان يتردد كسيمفونية رقيقة، معيداً إحساس الحياة العادية. والدي كان غائباً عن هذا المشهد، لكن النافذة التي فتحها الله لنا في السجن عبر إمام الجمعة، منحتنا رؤية واضحة وعميقة له.

١١

الحرية الباهتة

لقد اعتادت قلوبنا على الحياة تحت ظلال الطوارئ، حيث لم تعد قضبان السجون وحراس البنادق يبعثون فينا الرهبة. بل أصبحوا يشعلون في أرواحنا لهيب السؤال: كيف نمزق ستار هذه الليلة الدامسة؟ في مدرستنا، تكاتفت أنا ورفاقي لتشكيل لجنة، مهمتها التخطيط بدقة وسرية لخطوات عملية جريئة. في يوم الاحتفال بالاستقلال، كانت المدرسة تشهد مراسم رفع العلم ببساطة رسمية. عزمنا على الوصول باكرًا في الخامس عشر من أغسطس، لنمنح أنفسنا فسحة من الوقت للتباحث قبل بدء المراسم. وصلت المدرسة كما خططنا، وإذا بي أرى طلاب الفيلق الوطني للطلاب، وهم يؤدون استعراضهم العسكري. المدير وبعض المعلمين جلسوا في الشرفة المجاورة لمكتبه، وكان الراديو يعمل على الطاولة، حيث استمع الجميع باندماج لخطاب رئيسة الوزراء إنديرا غاندي المبث من القلعة الحمراء. أدركت حساسية الموقف، فألقيت التحية بإيماءة، وجلست بهدوء على كرسي قريب. تحدثت السيدة غاندي عن عظمة العلم الوطني، مستذكرة كلمات زعيم حزب المعارضة الذي وصف العلم بأنه مجرد قطعة قماش. وأكدت قائلة: نعم، هو قطعة قماش، ولكنها القطعة التي ضحى من أجلها ملايين المناضلين بحياتهم وأضاعوا أعمارهم من أجلها. إنها رمز قوتنا الوطنية، ولذا ننحني أمامها بإجلال. يجب أن نحافظ على شرفها دائمًا، فهي أعز علينا من حياتنا. وأضافت أن الحرية ليست مجرد سحر يمكنه أن يزيل الفقر بلمح البصر، إنما هي باب فُتح، وتنفسنا من خلاله هواءً طلقًا بعد قرون من الاختناق. وأثناء حديثها عن

فضائل الحرية، شددت على أن الحرية لا تعني التحرر من القيود لنفعل ما نشاء، بل هي فرصة لأداء واجباتنا بكل إخلاص.

في خضم استماعي لخطابها الذي لم يزل يتدفق، انبثقت في ذهني فكرة مفاجئة، متفجرة بالتساؤلات. 'أيتها السيدة الفاضلة، ما هذا الذي تروينه؟' صدى كلماتها عن 'إزالة قرون من الاختناق' بدا غامضًا ومحيرًا. كيف يمكن الحديث عن اختناق دام قرونًا في بلادنا؟ لم يمر على حكم الإنجليز للقلعة الحمراء سوى تسعين عامًا فقط. إذن، إلى أي اختناق تشير بكلماتها؟ عقلي عاد بي إلى سنوات قليلة مضت، حين تحدثت عن الانتقام من ألف عام من الحكم الإسلامي في سياق استقلال بنغلاديش. وها هي اليوم تصف يوم الاستقلال كإزالة لاختناق دام قرونًا. هل ترى الهند المستقلة بعيون من نظر إلى الاسترداد الإسباني؟ هذه الأفكار أعادت إلى ذاكرتي صورًا من رواية عن الأندلس المسلمة، حيث بعد سقوط غرناطة، قُدمت في البداية وعود بالحرية الدينية للمسلمين، ولكن سرعان ما تحولت الأحداث. تلك الأوامر الحكومية القاسية التي جردت المسلمين من ثقافتهم ودينهم وأدت في أقل من مائة وخمسين عامًا إلى إزالة وجودهم من الأندلس. ذلك الوقت الذي كانت فيه الأميرة إيزابيلا تقود هذه المهمة، والآن تُطلق ابنة جواهر لال نهرو على العصر الذهبي للمسلمين في الهند 'قرون الاختناق.'

في ظلال العلم الذي كان يرفرف في المدرسة، كانت ذاكرتي تتجول باستمرار نحو تلك الرواية، وفي ملامح السيدة غاندي كنت أرى انعكاسًا واضحًا لإيزابيلا. تساءلت عن هذه الحرية الغريبة، حيث يقبع والدي في السجن، ومعه كبار عائلتنا، أسرى وراء القضبان، بينما يُطلب منا أن نواصل أداء واجباتنا دون تردد. لماذا لا يستوعبون أن الحرية التي يتغنون بها، والتي تم التضحية بوحدة الهند من أجلها، تركت فينا ندبة أعمق، ممزقة وحدتنا القومية إلى ثلاثة أشلاء؟ كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يحتفلوا بعيد الاستقلال، وهم يغوصون في بحر من الدماء، وأحباؤهم ما زالوا مكبلين بالسلاسل حتى هذه اللحظة؟

في ذلك اليوم، الذي كان يفترض أن يكون احتفالاً بالحرية، كان الزحام في المدرسة يختلف عما عهدناه في الاحتفالات السابقة لعيد الاستقلال، ربما كانت هذه آثار حالة الطوارئ المخيمة على كل شيء. بعد انقضاء المراسم، اندفع بعض الطلاب نحو ملاعب الكريكيت والفوتبول، تاركين وراءهم فكرة اجتماعنا السري. في ذلك الزحام، كان من الحتمي تأجيل لقائنا الخفي إلى وقت آخر. وعلى دروب العودة، هزتني أخبار مفاجئة: محاولة اغتيال تعرض لها الشيخ مجيب الرحمن، رئيس بنغلاديش. بجانب الطريق إلى المدرسة، كانت هناك كنيسة صغيرة، حيث التف حولها الناس يستمعون للأخبار. الانقلاب العسكري ابتلع الشيخ مجيب وعائلته بكاملها. لم يكن الأمر سوى البارحة، عندما عبر الشيخ مجيب من لندن عبر دلهي إلى دكا، ليبدأ قيادة بنغلاديش الحرة. كان يُعرف بـ 'بنغله بندهو'. ولكن، لماذا هذه النهاية الوحشية، ولماذا في ذلك اليوم بالذات، الذي كان ينبغي أن يكون احتفالاً بذكرى استقلال الهند؟

في يوم ما، جاء الخبر الذي يحمل في طياته بعض الأمل: بعض السجناء تحت قانون دفاع الهند حصلوا على الكفالة من المحكمة العليا. نحن أيضًا كنا قد قدمنا استئنافًا، لكننا واجهنا مرارًا تأجيل الجلسات، حتى بزوغ شهر رمضان. هذا القرار من المحكمة العليا زرع فينا بذور الأمل بأن تتبع المحاكم الدنيا نفس المنوال. ومع ذلك، مرت أيام رمضان تباعًا دون تغيير يذكر. في آخر أيام الشهر، حوالي الثامنة أو التاسعة صباحًا، سمعت أن القمر قد شوهد الليلة الماضية، وأن بعض المناطق بدأت تحتفل بالعيد، في حين أصر البعض على صيام اليوم الأخير. ذهبت إلى المسجد الجامع القريب من منزلنا للتحقق من صحة الخبر. وجدت الإمام جالسًا على كرسي خارج حجرته، غارقًا في قراءة كتاب ضخم. كان قد تناول البان، ما يشير إلى أن الصيام ليس واجبًا اليوم. خارج المسجد، كان الناس يتناقشون في مجموعات صغيرة، متسائلين عن سبب عدم إقامة صلاة العيد. الإمام، بعيدًا عن تلك المناقشات، كان يلقي نظراته الفاتحة على الحاضرين قبل أن يعود إلى كتابه. عند رؤيتي، سأل عن والدي ثم تحدث عن عدم جواز الصيام

بعد ظهور القمر وأن الصلاة ستكون في الغد. بالنسبة لي، كانت فكرة صلاة العيد بدون والدي تمزق الروح. والآن، مع هذه الخلافات التي ألقت بظلالها على فرحة العيد، بدا لي وكأن الجميع، مثلي، فقدوا بهجة العيد هذا العام.

ظلت الجلسات تتأجل، تارة تلو الأخرى، في بداية الأمر كان هناك شعور طاغٍ بأن الإفراج عن الأب قريبٌ جدًا، لكن مع مرور الأيام والأشهر، تحولت آمالنا إلى عادة متكررة من التوقعات الواهية. عندما كان يسألنا أحدهم، كنا نجيب بفتور: 'القضية ما زالت قيد النظر، دعونا نرى ماذا سيحدث'. ثم فجأة، ورد الخبر: المحكمة أمرت بفتح المكتبة ومنزلنا المجاور لها، وبدا أن إطلاق سراح الأب سيتبع قريبًا بعد بعض الإجراءات الرسمية. عندما فُتحت المكتبة أخيرًا، وجدناها لم تعد كما كانت. الفيضانات الأخيرة قد ألحقت دمارًا هائلاً بكل ما فيها، وحتى منزلنا لم يسلم من الخراب. الجدران الخارجية انهارت ولم يبق شيء في مكانه. ومع ذلك، أصر موظفو الحكومة على أن نمدهم بإيصال يفيد بأن كل شيء قد عاد إلينا سالمًا. في عالم مليء بالظلم، ما كان بوسعنا إلا الاستسلام للواقع. أتمت الشرطة إجراءاتها وشرعنا في تركيز جهودنا على إطلاق سراح الأب.

في يوم عودتي من المدرسة إلى البيت، وجدت أبي هناك، جالسًا في صمت على كرسي في الفناء، يسند ذقنه بيده اليمنى، وعيناه تتطلعان إلى السماء بتأمل عميق. وقفت هناك، مرتبكًا، غير مدرك كيف أستقبله في هذا الموقف المفاجئ. رحبت به بحذر وجلست على الأريكة. سألني عن حالي بنبرة رسمية، كتلك التي اعتاد استخدامها خلف قضبان السجن، ثم عاد ليغرق في صمته، عيناه مثبتتان على السماء. بدا وكأنه يحمل في قلبه الكثير ليقوله، لكن الكلمات تخونه. تارة يبدو وكأنه يقيس التغييرات التي طرأت خلال غيابه، وتارة أخرى كأنه مندهش من التحول الذي طرأ على أبنائه، كيف صقلتهم تجارب الحياة القاسية وحولتهم إلى أشخاص حساسين وجديين. كانت هناك نغمة صامتة تلوح على شفتيه، ترسم أحيانًا دموعًا على وجنتيه. اقتربت منه بهدوء، مددت يدي لألمسه، شيء لم يكن متاحًا لي في السجن. ذكريات زيارات السجن تلك تتداعى في ذهني. كيف يمكن لأحد

أن ينسى تلك الأيام؟ السجن، بكل ما يحمله من معاناة، أصبح الآن جزءًا لا يتجزأ من حياتنا. لأطفال السجناء تجاربهم الخاصة، يرون ما يخفى عن الآخرين، يحملون وعيًا بالعذاب يتجلى بوضوح في حديثهم، مما جعل أبي ينظر إلى كل هذا بعين الدهشة والحيرة.

تحرر أبي من قيود السجن الحديدية، لكنه لم يستطع التحرر من سجن ذاكرته وأعماقه الداخلية. غيرت تجربة السجن مسار حياته بشكل جذري. بعد فترة من الصمت المطبق، بدأ ينطق أخيرًا، مدركًا أنه حتى بعد إطلاق سراحه، ما زال أسيرًا في زنزانة التاريخ والتقسيمات العميقة. صارت شخصيته تجسيدًا لصدى أصوات أمته في صحراء الزمن. في حديثه، كان يتنقل بين أحداث تاريخية متعددة - من قتل عثمان رضي الله عنه إلى نهب بغداد، ومن سقوط القسطنطينية إلى سقوط دهلي ودكا - يسرد قصص الاضطراب والتشتت التي مرت بها الأمة بأسلوب يبعث على الانغماس في عمق القصة. كل كلمة تصدر منه كانت تنضح بتاريخ مشبع بالبصيرة، تاريخ يتسرب من كل حرف وكلمة، معبرًا عن طيف واسع من المشاعر والأفكار.

عندما عمّ الخبر بإطلاق سراح والدي، بدأت الأبواب تفتح لاستقبال تيار لا ينقطع من الزائرين. كان كل واحد يحمل شوقًا ملحًا لمعرفة ما دار خلف جدران السجن. أحد الأشخاص، معروف في الدوائر الثورية ولكنه لأسبابه الخاصة لم يذهب إلى السجن، زارنا ذات يوم. لم يكد يطأ قدمه عتبة الباب حتى بدأ يتحدث: 'تقبلوا تهانينا على اتباع أسوة يوسف. وأخبرونا، ما هي حقيقة هذه الحادثة المتعلقة بالعلم في السجن؟ سمعت أن هناك كانت معركة عظيمة.' تلك الكلمات، المحملة بفضول ممزوج بإعجاب، فتحت بابًا لقصص لم يكن أحد قد سمع بها من قبل.

'يا مولانا! لماذا لا تختبرون جدران السجن بأنفسكم بدلاً من الوقوف عند الأبواب؟'، قال أبي بنبرة ساخرة للزائر. ثم غاص في تأملات عميقة: 'في نظري، يجب على كل شخص أن يعانق ظلال السجن مرة واحدة على الأقل في حياته،

ليزيل عن قلبه ثقل خوفه. السجن، بما كان يضمه من تنوع فكري، من الشيوعيين إلى الاشتراكيين، من متحمسي راشتريا سوايامسيفاك سانغ إلى المنتمين لجن سنغ، كان عالمًا قائمًا بذاته. في بداية الأمر، كان كل فرد يغرق في بحر أفكاره الخاصة، لكن مع تتابع الليالي والأيام، بدأت حياة السجن تنسج من هذا التنوع نسيجًا متماسكًا. في إحدى الليالي، بعد انقضاء وقت العشاء، برزت فكرة تحدي النشيد الوطني بأصواتنا. كانت عاداتي اليومية معروفة للجميع، ولكن عندما واجهتني فكرة الانخراط في هذا النشاط الجماعي، شعرت بعاصفة من التوتر تعصف بداخلي. بعض السجناء كانت أعينهم تتلألأ بالتحدي، في حين كانت هناك نفوس متعصبة تكمن خلف الاقتراح. وهكذا وجدت نفسي أقف وحيدًا في مواجهة الجميع، وجهًا لوجه أمام تحدي تقاليد السجن. عندما ارتفعت أمواج النقاش، جاءت نصائح بعض المسلمين لتجنب الصدام، ولكنني ثبت على موقفي بقوة، مؤكدًا على أن هذه مسألة مبدأ، وأن الخضوع والتنازل عن الحرية، حتى في ظل قيود السجن، ليس خيارًا لي. سأظل ثابتًا على طريقتي الخاصة، مهما كانت ردود فعل الآخرين ومهما كانت عواقبها.عندما رأى الناس أنني ثابت على موقفي، لا أتزحزح، اتخذ أحد قادة الحزب الاشتراكي خطوة لتهدئة الأوضاع، قائلًا بنبرة تحمل نوعًا من الاحترام والتفهم: 'اتركوا مولوي صاحب لشأنه، فهو منهمك في عبادته. إذا كان لا يريد المشاركة، فلا داعي لإجباره. لماذا نخلق صراعًا بلا ضرورة؟' ثم تدخل شخص آخر، معترضًا بشدة: 'كلا، هذا غير مقبول. يجب عليه المشاركة لأن الأمر يتعلق بالنشيد الوطني.' عندها، انبرى رجل طويل القامة بغضب، معبرًا عن رأيه بقوة وحزم: 'أعتقد أنكم تتعدون حدودكم. تضايقون هذا الرجل الشريف والصالح. إذا لم يرغب في المشاركة بالنشيد الوطني، فهذا حقه. كيف نفرض عليه ذلك؟ ألم تسمعوا ما قاله جي پركاش عن الرموز الوطنية؟ لقد تحدى نهرو الذي أراد أن يطلق النار على من يهين العلم، قائلًا إن العلم ليس سوى قطعة من القماش ويمكننا صنع آخر، لكن حياة الشباب الوطنيين ثمينة لا تعوض. وكيف نسيتم كلمات جي پركاش التي فضحت نوايا نهرو عندما حاول تبرير إطلاق

`

النار على الشباب في پٹنه باسم الوطنية؟ نحن أتباع جي پركاش، فكيف يليق بنا أن نزعج رفيقنا في السجن؟' كانت كلمات الرجل الطويل تلك بمثابة موجة من القوة والحكمة، مما أدى إلى تلاشي المعارضة لي، وبدأ الآخرون يتقدمون لدعم موقفي.عندما اقترح بعضهم إلغاء البرنامج الذي يثير الخلافات، مؤكدين أن الرموز الوطنية يجب أن توحد الناس وليست لتفريقهم، تحدث شاب، ربما كان قائداً طلابياً، معبراً عن رأيه بحماس: 'جي پركاش كان محقاً، فسياسة الرموز الوطنية ألحقت ضرراً بالغاً ببلادنا.' أضاف بعمق: 'قال جي پي ذات مرة إن الوطنية لا تكمن في قطعة قماش، بل تعبر عن نفسها في خصالنا الوطنية، قيمنا الحياتية، والأخلاق العالية في حياتنا العامة. عندما قلل نهرو من شأن إطلاق النار على الشباب في پٹنه قائلاً إنه لا يهمه سقوط عشرة آلاف أو مليون شخص طالما لم يُهان العلم، رد جي پركاش بأن هذا الكلام يعكس طغيان نهرو ولا يمكن قبوله في ديمقراطيتنا. وأشار إلى أنه لا يوجد قانون يعاقب بالرصاص من يهين العلم أو يحرقه. وشدد على أنه يجب علينا التفكير في الأسباب التي تدفع شبابنا لهذه الأفعال، وما هي الظروف التي تجبرهم على ذلك. إذا فقد شبابنا الثقة في العدالة بهذا النظام، فستظهر اليأس والفوضى. يجب علينا كصانعي مستقبل البلاد أن نفهم عمق وخطورة هذا الوضع.' ثم أضاف شخص آخر: 'أي نوع من الحرية ترغبون في الغناء عنها؟ هل تعلمون ما قاله جي پركاش عندما سئل عن رأيه في الحرية؟ أجاب بأنها 'باهتة'، وأنها لا تعني شيئًا إلا لأولئك القلائل الذين اختطفوها. أكد جي پركاش أنه يتم تخويف الناس بأن حيدر آباد وكشمير في خطر، لكنهم لا يرون أن حريتنا هي التي في خطر. إذا فقدنا حريتنا، فماذا سنفعل بكشمير وحيدر آباد؟'

قال أحد الكوميونيست القدماء بنبرة تحمل خليطًا من الاحترام والنقد: 'أيها الإخوة، نحارب ضد إنديرا غاندي، وليس ضد نهرو. كان نهرو رجلاً عظيمًا، لا تخلطوا بينه وبين إنديرا.' لكن الشاب المتحمس، الذي يبدو أنه كان قائدًا طلابيًا، تدخل قائلًا بثقة: 'لم يكن نهرو بهذا العظمة كما تصوره الدعاية الرسمية. إذا

قارنتم نهرو بجي پركاش جي، سترون الفرق الشاسع بينهما. نهرو هو من فرض علينا إنديرا غاندي. لماذا تتجاهلون هذا الأمر؟ نحن أتباع جي پركاش، الذين لم يخافوا يومًا من المعارضة، ولم يسعوا لمصلحة شخصية، بل وقفوا دائمًا ضد الظلم أينما وجدوه. ألا تتذكرون كيف تعامل مع الانتهاكات في ناجالاند وكيف ساهمت شخصيته في تحويل حرب دامت عشر سنوات إلى معاهدة سلام؟ هو من أخرج الشيخ عبد الله من السجن بعد اعتقال دام أحد عشر عامًا وقاد اللصوص في مادهيا پرديش إلى طريق الإصلاح. وعندما سُئل عما إذا كان ينصحهم بالترشح للبرلمان، أجاب مازحًا بأنهم لن يجدوا رفقة جيدة هناك، لأنهم أصبحوا من المصلحين. وعند سماع هذا، عمت الضحكات وتعالت الهتافات: 'عاش لوك نايك، عاشت الثورة.' وهكذا تحولت جلسة النشيد الوطني إلى احتفاء بجي پركاش نارائن، بحيث لم يجرؤ أحد بعدها على اقتراح برنامج مماثل. بل أصبح الناس يهتمون بما نقول، وألهمتهم حديث جي پركاش إلى البحث عن الحرية الحقيقية بعيدًا عن الطقوس الرمزية، متجهين نحو جوهر الحرية في ذواتهم.

في يوم من الأيام، بعد غروب الشمس، زارنا تاجر معروف من المدينة. تبادلنا الحديث في شؤون مختلفة لبعض الوقت، ثم عندما أيقن أن المكتبة خالية إلا منا، اقترب من والدي بسرية وسرور. بصوت خافت، ملؤه الثقة، قال: 'لقد نُشر كتيبكم الجديد يا حضرت، وقد أرسلت لكم بعض النسخ.' في اليوم التالي، وفقاً لإشارة والدي، ذهبت إلى معرضه. استقبلني بحرارة وانتقل إلى الجزء الداخلي من المتجر، ليعود بنسخة من الكتيب، مسلمًا إياها لي بعناية وتوجيه، مشددًا على أهميتها كأمانة لا يجب أن يطالها أحد. والدي، بعد أن ألقى نظرة سريعة على الكتيب وتصفحه، قرر في ظل فضولي الواضح أن يسلمه لي. وما أن بدأت في قراءته، حتى دخل أحد كبار السن من قريتنا، يتكئ على عصاه. قدمت له كأسًا من الماء البارد وعدت إلى قراءتي. لفت انتباه الرجل الكبير تركيزي العميق، فسألني عما أقرأ. لم أجبه بكلمات بل أظهرت له غلاف الكتاب. أعرب عن دهشته: 'أها، إذاً أنت تقرأ "الإسلام والتخطيط الأسري". من كاتبه؟' وبعد لحظة تبصر، أجاب

`

نفسه: 'آه، هو من تأليف منت الله رحماني.' ثم التفت إلى والدي وتساءل بنبرة حائرة: 'هؤلاء العلماء، أي جانب يقفون عليه؟ ضد إنديرا غاندي أم معها؟ يكتبون ضد التخطيط الأسري، وفي الوقت ذاته، يكون ابنهم عضوًا في حزب المؤتمر'.

في إحدى الأمسيات، بعد المغرب، استقبلنا تاجر مرموق من المدينة في مكتبتنا. تبادلنا أحاديث متفرقة حتى التأكد من خلو المكان، حينها اقترب الرجل من والدي بخطى حذرة، ملؤها الاحترام والسرية. بصوت خافت، كشف عن كنزه الثمين: 'تم نشر كتاب الحضرة منت الله رحماني، وقد أرسلت بعض النسخ لكم.' في اليوم التالي، ذهبت إلى معرض التاجر بإيعاز من والدي، حيث استقبلني بحرارة وقدم لي نسخة من الكتيب، مشددًا على أنها أمانة ذات قيمة عظيمة. وبينما كنت أتلمس صفحات الكتيب، دخل عجوز من القرية، يعتمد على عصاه. قدمت له كأسًا من الماء البارد، وعدت لاستكشاف كنوز الكتيب. فضولي الشديد لفت انتباه العجوز الذي سألني عما أقرأ. دون أن أنبس بكلمة، أظهرت له غلاف الكتاب. تعجب العجوز وسأل: 'أها، تقرأ "الإسلام والتخطيط الأسري"، من المؤلف؟' وعرف الجواب سريعًا: 'إنه لمنت الله رحماني'.

ثم التفت إلى والدي متسائلًا بحيرة: 'لا أفهم هؤلاء العلماء، هل يقفون ضد إنديرا غاندي أم معها؟ يكتبون ضد التخطيط الأسري، بينما ابنهم عضو في حزب المؤتمر.' رد والدي بلهجة توبيخية: 'لكن لماذا تحمل الأب مسؤولية أفعال الابن؟' أصر الرجل: 'الابن جزء لا يتجزأ من سمعة الأب. حصل على مقعد في مجلس النواب لأنه ابن منت الله رحماني، ضياء خانقاه رحمانية. لكن مؤسف أن يُعتبر نشر هذا الكتيب جهادًا أكبر في أوساط المريدين'.

حاول والدي تخفيف حدة النقاش: 'دع كل شخص يقدم ما بوسعه. على الأقل حاولوا المساهمة.' لكن الرجل لم يقتنع: 'لا، لا أتفق معكم. في رأيي، هذا الدفاع الفاتر هو سبب ما آل إليه حال الدين اليوم'.

تدخل شخص كان منهمكًا في قراءة كتاب منذ بعض الوقت: 'منت الله رحماني عالم جليل. في منطقتنا بپورنيه، يحظى بتقدير كبير. عندما زار المنطقة، تدفق الناس ليبارك لهم الماء. في النهاية، بسبب الزحام، بارك كوبًا من الماء وأمر بقلبه في بئر، وظل الناس يملأون منها حتى المساء. إذا شككتم حتى في شخص بمقامه، فإلى من سيتطلع المسلمون العاديون للإرشاد والهداية؟'

لما سمع العجوز هذا الكلام، انتابه الغضب، ودق عصاه بقوة على الأرض، معبرًا عن استيائه بصوت مفعم بالجدية والغضب. قال: 'أيها السادة، الكرامة لا تكمن في نفخ الماء وجذب المريدين. الكرامة الحقيقية هي الشجاعة في مواجهة الظالم، والقدرة على نطق كلمة الحق بلا خوف. أنظروا كيف يُجبر المسلمون على التعقيم قسرًا في جميع أنحاء البلاد، وكيف يُطردون من بيوتهم، وكيف تفتح الشرطة فوهات بنادقها عليهم وقتما تشاء. لا صوت يرتفع من المسلمين السياسيين أو علماء المؤتمر، سواء كانوا من الخانقاهين الكبيرين في بهار، مجيبية في باتنة ورحمانية في مونغير، أو العلماء في ديوبند وندوة أو المنظمات مثل جمعية علماء. لا أحد يجرؤ على الكلام ضد هذا الظلم الفاضح من إنديرا غاندي. أعتقد أن الأبطال الحقيقيين هم هؤلاء المسلمون الفقراء الذين خرجوا إلى الشوارع، معترضين على برنامج التخطيط الأسري، متحملين رصاص الشرطة وحتى الشهادة كواجب ديني لحماية أجيالهم القادمة. أظن - ولا تغضبوا من قولي هذا'، وضرب الأرض بعصاه مرة أخرى، 'أن معظم هؤلاء العلماء الذين ترونهم يلعبون في ملعب المؤتمر. هم ليسوا منا، بل هم من أتباعهم. يحافظون على مكانتهم بين المسلمين بإصدار بيانات أو مقالات بين الفينة والأخرى، ليستمر الناس في الاعتقاد بأنهم معهم ومناصرين لهم'.

استمر في القراءة يا ولدي، استمر في مسعاك. أمامك مسارات طويلة وشاقة من العلم والمعرفة تنتظر أن تُكتشف. لكن احتفظ بنصيحة واحدة في ذهنك: لا تقرأ أبدًا بعيون مغلقة العقيدة، فالإنسان الأعمى لا يستفيد من نور النهار." بعد هذه الكلمات، حمل العجوز عصاه وانصرف.

ظللت أفكر في دهشة: يا إلهي! ما هذه القصة؟ الكتيب الذي تلقيته بكل هذه السرية ليس بالضرورة موثوقًا، والشخص الذي تحولت نفخته إلى بركة لكامل بئر ليس بمنأى عن الشكوك. يبدو أن الحقائق أعمق مما تظهر، وأن الأمور ليست دائمًا كما تبدو على السطح.

١٢

وعي المسافر

مع تمدد زمن الطوارئ، زاد اليأس في قلوب المسلمين، وتعمق شعورهم بالعجز. من شتى أرجاء الوطن، كانت الأنباء تترى عن الإجبار على تحديد النسل. أصبح المسلمون، في هذه المعركة، الهدف الأبرز. كانت الحكومة ترى في معارضتهم لتحديد النسل قضية دينية متجذرة، معتقدةً أن اختراق هذا الحصن سيؤدي إلى انهيار المعارضة في الأمم الأخرى. لكن هذا لم يكن سوى الوجه الظاهر للمشكلة. ففي قلب وعقل من كانوا يقودون هذه الحملة، كان الإيمان راسخًا بأن المسلمين تحولوا إلى 'قنبلة سكانية' في البلاد. فقرهم كان حاجزاً يمنعهم من التخطيط لمستقبل أسرهم. وكانت الحكومة، بإصرارها الجبري، تسعى لدفعهم نحو مسار التقدم. وتحول شعار 'محاربة الفقر'، في واقع الأمر، إلى حرب ضد الفقراء، لا الفقر. ومع توالي أخبار عنف الشرطة في المدن المختلفة، كان الرعب يتصاعد. وكان الوضع الحقيقي غامضًا، يكتنفه الضباب، بفعل الرقابة المفروضة على الصحف.

في أروقة المدرسة، تلك اللجنة التي نسجنا خيوطها نحن قلة من الطلاب لمقاومة الطوارئ، لم تتمكن من بسط أجنحتها أبعد من بضعة اجتماعات سرية. كان يوم الخميس يشهد دوامًا نصفيًا في المدرسة، وأحيانًا كانت الأبواب تغلق مباشرة بعد جمع الرسوم. تحت إشراف معلم الفصل، كنا، نحن أعضاء لجنة المقاومة، نتولى مهمة تحصيل الرسوم. وقد عزمنا أن نستغل يوم الخميس، لنبقى بعض الوقت في المدرسة لنسطر مذكرة إلى رئيس الوزراء الهندي، نلفت فيها نظره إلى ما يتعرض له المسلمون من ظلم، ونلوح فيها بتدابير صارمة. وهكذا، بدأنا في

صياغة المذكرة تحت سماء مفتوحة، على ضفاف بحيرة، في ظل شجرة وارفة. كان القلق يساورنا دومًا في الفصول الدراسية من احتمال ظهور أحدهم فجأة. في تلك الأيام، كان من الصعب تمييز من يعمل سرًا كمخبر للحكومة. ولذلك، اخترنا هذا المكان العلني متخذين في الحسبان هذه الهواجس. تم تكليف أحدنا باليقظة والحذر، بينما شرعنا نحن الثلاثة في صياغة المذكرة بعناية وتفاني.بعد جهد مضني استمر لقرابة ساعتين، أبدعنا في صياغة نص بخط يتميز بالجمال والرونق. ظفر، الذي ظل صامتاً طوال هذه الفترة، تحدث أخيراً بعد الانتهاء من المحضر، قائلاً: 'يا أصدقاء، الخط رائع بحق، لكن ألا يكون أجمل إذا أضفنا بيتًا شعريًا؟' 'وما هو ذلك؟' سألت. أجاب: 'اكتبوا: لا تغتر كثيراً ببياض بشرتك، فالبياض سيزول في غضون يومين.' كانت هذه إشارة مبطنة لجمال السيدة غاندي. انفجرت أنا وسجاد في الضحك على هذا التعليق العفوي من ظفر، وتحول الأمر إلى مزحة مرحة. في اليوم التالي، بكل حذر وحيطة، وبعيدًا عن أعين الناس، وضعنا الخط في صندوق البريد الرئيسي. لم نعلم مصير الخط بعدها، لكننا شعرنا، بعد إرساله، وكأننا أضأنا شمعة صغيرة في ظلمة ليلنا، شمعة تحمل بصيص أمل ومقاومة.

في أيام تلك الأحداث الجسام، عقد الشيخ منت الله رحماني اجتماعًا غير رسمي لزعماء المسلمين في جامعة رحيمية مهنديان بدلهي، حيث صرح بأن تحديد النسل يخالف مبادئ الإسلام. في تلك اللحظة، نطق بعض العلماء بانتقادات للحكومة، لكن بصوت خافت ومتحفظ. لاحقًا، اتضح لنا أن الخوف الذي كان يكتنف أعمال لجنتنا للمقاومة أثناء إعداد المحضر، كان حاضرًا هناك أيضًا. كان الخوف من ظهور مفاجئ للشرطة السرية يلازم الجميع. كما قال الشيخ مجاهد الإسلام قاسمي، الذي شارك في ذلك الاجتماع: 'كان الجو مشحونًا بالتوتر لدرجة أن جميع القادة المسلمين الحاضرين كانوا على شفا الوقوع في قبضة السجن.' وبعد أن أرسلنا الخط، كنا نحن، اليافعون في سننا والأبرياء، نشعر بنفس القلق، كأن خطر الاعتقال كان يحوم حولنا، ليمر بجوارنا ويكاد يلمسنا.

في تلك الأيام، كان صدى عبارة السيدة غاندي تتردد في الأثير بشكل مستمر: 'التحديد القسري للنسل ليس بالإجباري، لكنه ضروري'. كان والدي يروي بنبرة حزن أن المسلمين قد عانوا من المذابح في العام ١٩٤٧ باسم التقسيم، وكيف تم قصف أسس وجودهم، والآن، في ظل الطوارئ، يواجهون إبادة جماعية أخرى، لكن بصورة مختلفة. لم تكن الصحف قادرة على رسم صورة حقيقية لما يحدث في البلاد؛ غالبًا ما كانت صفحاتها إما خاوية أو ملطخة بالحبر الأسود، وذلك بفعل قيود الرقابة. في جميع أنحاء البلاد، كانت ألسنة العلماء المخلصين مكبلة، لا تستطيع التعبير عن الحقيقة.

في تلك الأيام الثقيلة، حين كان والدي يكابد ظلم السجون، أطلت الذكرى الخامسة والثمانون لتأسيس ندوة العلماء. وصلني كتيب يضم خطبة الشيخ أبو الحسن علي الندوي، كأنه نسيج من التاريخ والحكمة. قرأته بإمعان شديد، وهناك، في أعماق ذاكرتي، رقصت ذكريات لقائي بالشيخ في دربهنغا برفقة عمي أكبر. ملؤني الأمل والتطلع، غصت في صفحات الكتيب، لكن الدهشة اجتاحتني حين اكتشفت غياب أي إشارة للطوارئ التي تعصف ببلدنا. كانت الخطبة خالية من أي ذكر للزمن العسير الذي نعيشه، حيث الظلم يلف المسلمين في كل أرجاء الهند. تناولت الخطبة مآسي المسلمين بعد عام ١٨٥٧، وأشارت لحركة الخلافة، لكنها كانت كالسائر على حبل مشدود، متفادية بحذر ذكر الواقع المؤلم الذي يعتصر المسلمين في الهند المقسمة.

في تلك الأيام الملبدة بالغيوم، حيث كانت ندوة العلماء تحتفل بعقدها الثامن بعد المئة، ظهر الشيخ الأزهر كنجم في سماء الحضور. في خطابه، لم يتهيب من ملامسة واقع الطوارئ، وصفًا للقيود الحكومية على إحدى المنظمات الإسلامية بالتجاوز، ونقدًا لاذعًا للحكومة على ظلمها للمسلمين. يُحكى أن المترجم، وفي حضرة الشيخ أبو الحسن علي الندوي، قد تجاهل جزءاً من الخطاب المتعلق بالطوارئ. ومع ذلك، عندما أثيرت الاعتراضات من قبل الحضور، ضمّ بعض الكلمات المختصرة عن الموضوع. وفي ذلك الحين، كان الشيخ قاري طيب، ليس فقط رائدًا لمؤسسة ديوبند

العريقة، بل رئيسًا للجنة قانون الشخصي للمسلمين الهنود، حاملًا راية الشريعة في بلاد ممزقة. ذات يوم، صدح صوته عبر أثير الراديو الوطني الهندي، مرسلاً رسالة واضحة: طوفان الطوارئ قد أطاح بكل قلاعنا الفكرية والروحانية والعلمية. كل يوم كان يزداد قتامة على المسلمين، وفي خضم تلك الأوقات المريرة، وقعت فاجعة تركمان غيت، وتوالت الأخبار المؤلمة، كأن كل ليلة تصبح عاشوراء وكل يوم يُخلق فيه قيام جديد.

في أحد الصباحات، حوالي السابعة أو الثامنة، توقفت عربة ركشة أمام المكتبة. رجل بقامة متوسطة وبشرة فاتحة، مرتديًا شيرواني تحت معطفه وقبعته، وعلى عينيه نظارات، نزل من الركشة وهو يحمل عصا. 'أها، هذا عمي شبير!' لم أتعرف عليه مباشرةً بسبب الوشاح والقبعة التي كانت تغطي وجهه. كان من أعز أصدقاء والدي، ويدير مطبعة جمال في قلب الديلي القديمة، وقد أتى مباشرةً من دلهي وتوقف للقاء والدي قبل أن يتوجه إلى قريته ململ. كان وصول عمي شبير دائمًا مثل العيد بالنسبة لنا. سرعان ما تحولت المكتبة إلى صالون اجتماعي حافل بالحياة. بدأنا في تحضير الشاي والإفطار، بينما اجتمع الكبار في مجلسهم الخاص. كانت النقاشات عميقة ومتبادلة؛ تارة يخيم القلق على المكان، وتارة تملأ نكات وضحكات عمي شبير الجو. ثم بدأ يروي حادثة وقعت مع صالح صاحب: دخلت الشرطة مكتبه وصادرت الأوراق والسجلات، وعندما وجدوا نسخة من ديوان الحافظ، تصفحوها وطلبوا 'اقرأوا لنا ما فيها'. 'إنه كتاب شعر، ماذا ستستفيدون منه؟' حاول صاحب الدار التوضيح، قائلًا: 'اقرأوا هذا: كه سالك بي خبر نه بود ز راه ورسم منزلها.'

قال بلهجة مشحونة بنبرة الفكاهة: 'ألم أقل لكم أن في هذا الكتاب معلومات هامة عن السيد سالك؟' وما أن انتهى من قوله حتى ارتفعت ضحكات عمي شبير تصدح في أرجاء المكان، معمّرةً الجلسة بروح الفرح والبهجة. ومع تقدم ساعات الشاي، تجمع الأقارب والأصدقاء، وتحول الحديث إلى رياح دلهي العاتية. سأل أحدهم بنبرة تحمل قلق الأيام: 'هل لديكم فكرة عن اتجاه الجمل القادم، ومتى

سينتهي هذا الإعصار من الظلم والاستبداد؟' وأجاب بصوت يحمل ثقل الوقت: 'أي كان اتجاهه، فإنه سيستقر في النهاية. متى سينتهي عهد الرعاية لولي العهد؟ في رأيي، لن يكون مصيرهم جيدًا، لقد ارتكبوا ظلمًا كبيرًا، هذه الأم وابنها.' وأضاف بصوت يختنق بالذكريات: 'تذكرني هذه الأحداث بغزوات نادر شاه. في بعض الأحيان، عند قراءة قصص الظلم القديمة، تتساءل: هل يمكن للإنسان أن يكون بهذه القسوة تجاه أخيه الإنسان؟ لكن ما شاهدته دلهي بأعيننا يفوق الوصف.' ترقرقت الدموع في عينيه واختنق صوته وهو يتابع: 'اعتبروا أن دلهي تعرضت لتقسيم آخر. دُمرت دلهي المسلمة مرة في عام ٤٧ ومرة أخرى في عام ٧٦، حيث حاولوا إجلاء المسلمين قسرًا من الديلي القديمة. سبعمائة ألف شخص، عاشوا في هذه الشوارع لقرون، تم إجلاؤهم بشكل غير قانوني من منازلهم، دُمرت ممتلكاتهم، وتحولوا من أثرياء إلى فقراء. الواقع المرير الذي يصعب على الكتّاب تفصيله في كتاباتهم اليوم.'

سألوا بنبرة تحمل ثقل الحيرة: 'أين تم نقل هؤلاء الناس؟ لقد سمعنا عن مجازر دموية'.

فأجابوا بصوت يختلط فيه ألم الحقيقة بمرارة السخرية: 'إلى أين يمكن أن يذهبوا في هندوستان المستقلة، حيث يعانون من عذاب الحرية؟ تم نقلهم قسرًا إلى مناطق غير مأهولة عبر نهر اليمونة، حيث يلف الغبار الأرض، وتغيب مظاهر الحياة الحضرية. بعضهم أُرسل إلى ترلوك بوري، وآخرون تلقوا أوامر بالتوجه إلى سيلم بور، وأُمر آخرون بالانتقال إلى ويلكم. أولئك الذين عاشوا معًا لقرون، فُرقت شملهم بسبب هذه الهجرة القسرية، فقدوا أعمالهم ومصادر رزقهم. حتى عندما تم تخصيص قطع صغيرة من الأرض لهم، كان تحديد النسل شرطًا مفروضًا، شرطًا يرسم خطًا آخر من خطوط الألم في رحلتهم المضنية.'

'لم يبذلوا جهدًا لنقل الجميع إلى مكان واحد، إلى مستوطنة واحدة'. قال بنبرة ممزوجة بالسخرية والمرارة: 'أوه، النزاع كله يدور حول كرههم لتجمعنا معًا.

حاول المسلمون جاهدين، إذ التقى وفدهم بنائب رئيس هيئة تطوير دلهي، جاغموهان. تعلمون ماذا قال هذا اللئيم؟'

'ماذا؟' خرجت الكلمة من أحد الحضور بشكل لا إرادي، وانساب الجميع في سكون، يستمعون بكل اهتمام.

قال بصوت محمل بغضب خفي: 'لعنه الله، تفوه قائلًا: 'أتظنوننا أغبياء لدرجة أن ندمر باكستان في مكان ونقيمها في مكان آخر؟'

'آه، ومن هو هذا الرجل؟' سأل أحد الحضور، وهو يضبط نظارته. 'يبدو أن كلماته مسمومة.'

أجابوا: 'هذا هو نائب رئيس هيئة تطوير دلهي، لكن العقل المدبر الحقيقي وراء هذا الإجراء هو سانجاي غاندي، الذي يحمل في قلبه أفكارًا متضاربة ومشوشة حول المسلمين. يرى المناطق المسلمة في الديلي القديمة كمعاقل لأنصار باكستان، ويمكن القول إنه كان يقود هذه العملية في تركمان غيت بيده. وكانت هناك رخسانة سلطانة، التي كثيرًا ما رافقت سانجاي في جولاته المتكررة في تلك المنطقة.'

سأل أحد الحاضرين بنبرة تحمل طيفًا من الفضول: 'من هذه رخسانة؟ فقد سمعنا عن زوجة أخرى له.' اعترض شخص آخر، مستذكرًا رؤيتهما معًا في سيارة.

قال بصوت ممزوج بالسخرية والمرارة: 'في عالم السياسة، لا تعني الزيجات شيئًا، وهؤلاء الذين يهاجمون أسسنا يتواجدون بيننا بسهولة'.

ثم تساءل آخر عن موقف رئيس الجمهورية: 'تم فرض الطوارئ بأمره، ألم يعترض فخر الدين علي أحمد على هذا الظلم الصارخ؟'

أجابوا بنبرة تحمل وقع الحتمية: 'حتى لو كان فخر الدين رئيس الجمهورية، لا يزال خادمًا لإندرا غاندي، يدين لها بكل شيء. أي خادم يحتج؟ لقد شعر بالأسى على ما حدث في تركمان غيت مثل الشيخ عبد الله، لكنه لم يفعل شيئًا. حتى عندما احتج هو وآخرون على إندرا غاندي، كانت احتجاجاتهم ضعيفة، خاوية من الفعالية. وأما محمد يونس، الذي أمضى حياته في خدمة عائلة نهرو وإندرا، لم

يستطع أن يفعل شيئًا أيضًا. قال شخص ما إنه علق قائلًا إن جاغموهان يظن نفسه شاهجهان ويريد إعادة تنظيم دلهي. لم يستطع أحد التحرك ضد سانجاي غاندي، ابن إندرا غاندي؛ في عالم الخدم، لا يملكون القوة للتأثير'.

تلك الذكريات عن كلمات عمي شبير لم تغادرني، حتى في زمن ناراسيمها راو، حين بدت سونيا غاندي كأنها تتوق لخوض غمار السياسة العملية. كان محمد يونس، الذي طالما كان ظلًا وفيًا لعائلة نهرو، يعيش في وهم أنه أصبح الوصي على الجيل الثالث بعد راجيف وإندرا. بمزيج من الولاء والحنان، أدلى بتصريح مثير للجدل، مفاده أنه خيرٌ لأرملة راجيف أن تتسول في شوارع دلهي عوضًا عن الغرق في مستنقعات السياسة. كانت جراح فقدان إندرا وراجيف لا تزال نازفة في قلبه .وكرمز للبزرگية، لم يكن يرغب في رؤية أرملة راجيف تتخبط في مسالك السياسة الشائكة. لكن سونيا لم تستسغ هذه التعليقات، وأعلنت عبر مستشارها في جورج أن يونس لا يمثلها. وعندما وصلت هذه الحقيقة إلى يونس، انهارت أوهامه حول وضعه ككبير وحكيم في العائلة، فتفوه بكلمات مغموسة في مرارة التلخص: 'الخادم، في نهاية المطاف، يبقى خادمًا.' صدى كلماته، المحملة بحسرة الأيام ومرارة الخيبة، كان كنغم حزين يعزف على وتر زمن تلاشى فيه الوفاء والعرفان، مهبطًا أمام رياح السياسة وتقلباتها العاتية.

'لكن كيف ليونس، الذي كان يعتبر جزءًا من عائلتهم، أن يشهد هذه الأحداث؟ ألم يكن منزله مسرحًا لزفاف سانجاي غاندي؟ وابنه عادل شهريار، الصديق القديم لكل من راجيف وسانجاي، كيف يمكن أن تمر هذه المحن على المسلمين في وجوده، وعلى يد سانجاي؟' تساءل أحد الحضور، المتعطش دائمًا لأخبار 'نشيمن' و'بليتز' الزاخرة بالتفاصيل.

وبصوت يحمل وقع الحقيقة القاسية، أجاب: 'نعم، إنه لأمر محير كيف نمت بذور الكراهية للمسلمين في قلب إندرا وابنها. عندما رفعت إندرا شعار 'إزالة الفقر'، لم يدرك أحد أنها في الحقيقة تسعى لمحو المسلمين الفقراء من المشهد.

وعندما وضع سانجاي خطته لإعادة تجميل دلهي، لم يخطر ببال أحد أنه يرى الأحياء المكتظة بالمسلمين ومنازلهم المتراصة في قلب دلهي كعار يجب إزالته ومحوه من الوجود. كانت خططهما تنضح بالعزم على تغيير وجه المدينة، وكانت الأهداف المخفية تشير إلى عمق النية في استئصال تلك الحياة المتجذرة في أعماق دلهي.'

'ما الذي أدى إلى هذا التحول المفاجئ في تصرفات إندرا وسانجاي؟' تساءل أحدهم وسط الحضور، وكأنه يستنطق التاريخ نفسه.

أجابوا بصوت محمل بنغمة من التأمل: 'لم يكن هناك تحول حقيقي، فالإناء يظهر ما فيه. ظن المسلمون خطأً أن هؤلاء الأشخاص كانوا متسامحين وغير متعصبين، بينما ما حدث لمولانا آزاد على أيديهم كان واضحًا للجميع. كيف أصبح المولانا عاجزًا ومهمشًا! والآن، بعد غياب المولانا، بقيت فقط الوجوه التي تم تعيينها في مناصب الرئاسة والبرلمان والوزارات والسفارات، سواء كانوا يرتدون العمامة أو البدلة. ليس من شأن الخدم أن يحاسبوا أسيادهم. الآن، ما كان خفيًا في القلوب بدأ يظهر على السطح.' ونظر شبير العم إلى أبي، كأنه يسعى لتأكيد هذه الحقائق الصعبة.

'بالتأكيد، لقد أصبتم في تحليلكم'، أقر أبي، 'تذكرون عندما تحدثت عن تجاهل الحريات الشخصية في سياق قضية تحديد النسل.'

أردف قائلًا: 'تعنون اجتماع الأطباء؟ لقد تجاوزت تلك المرأة كل الحدود، تدعي أنه من الضروري تجاهل الحقوق الفردية من أجل تطور البلاد، معتقدةً أن الحقوق الإنسانية تتعارض مع مصالح الدولة وتعيق التقدم. وبحسب رأيها، فإن الزيادة السكانية تمثل عائقًا أمام التطور، لذا يجب على الحكومة فرض قيود صارمة على النمو السكاني، وتقع كل هذه الأعباء على المسلمين، وكأن زيادة أعدادهم هي السبب الرئيسي لتدهور البلاد.'

لكن الأمر المثير للسخرية هو أن تلك الحملة القسرية لتحديد النسل، التي تحرص الحكومة على تنفيذها بكل قوة، هي في الواقع جزء من الخطة الخماسية

لسانجاي غاندي، والذي لا يحمل أي منصب رسمي في الحكومة. حتى في البرنامج العشريني لإندرا غاندي لم تُذكر تلك النقطة.

'كيف لا تُذكر؟' إذا نظرتم من خلال عيني كرن سينغ، فستجدون أن هذه النقطة تتفوق في أهميتها على كل النقاط الأخرى.

"من هو هذا الشخص؟" سأل أحدهم بلهجة حائرة.

أجابوا بنبرة تحمل وقع السخرية: "ألا تعرفون كرن سينغ؟ إنه الأمير القادم من كشمير، الذي طوال الوقت يبحث عن عرشه المفقود في دلهي. أولئك المتملقون استطاعوا اكتشاف معانٍ عميقة في خططه العشرينية. يرون أن عدم إدراج التخطيط العائلي في برنامجه لا يقلل من أهميته، بل يشير إلى أهميته الكبرى، لدرجة أن وضعه كنقطة واحدة قد يخفي قيمته الحقيقية. ويزعمون أنه إذا لم يتبنى الناس التخطيط العائلي طواعية، فيجب على الحكومة إصدار القوانين اللازمة. ولكن، في بلد يسوده القانون الغاب، يبدو الحديث عن القوانين مجرد كلام في الهواء. إنها أوقات مظلمة، نسأل الله أن يكون في عون المسلمين." بعد هذا القول، ألقى شبير العم نظرة على الحاضرين، ثم غرق في صمت عميق.

بعد سنوات، عندما كنت أقرأ مقالة لإم. إن. بوتش بعنوان 'الدولة الدينية'،[1] استعادت ذاكرتي فجأة ذكريات تلك الجلسة في المكتبة. حينها أدركت أن كبارنا، رغم بدايتهم كأنهم غير ملمين بمناهج البحث الحديثة وقلة تدريبهم الفكري في ترتيب الحجج لصالحهم، كانوا في الواقع على دراية تامة بخطورة الأوضاع. كتب المؤلف في مقالته: 'لا زلت أتذكر أيامي في هيئة تطوير دلهي عندما تولت حكومة جاناتا السلطة بعد انتهاء حالة الطوارئ. قمنا ببناء محلات في منطقة جامع مسجد ومينا بازار ودريبة كلان في منطقة بائع الأحذية، لإعادة توطين التجار الذين فقدوا متاجرهم خلال الطوارئ. قال لي سانجاي غاندي إننا نرتكب خطأ

[1]M. N. Buch by "The Dharmic State"

بفعل ذلك. إن تدمير تلك المحلات خلال الطوارئ أدى في الواقع إلى تدمير معاقل مؤيدي باكستان. شعرت بالرعب عند سماع هذا من حفيد نهرو.'

في تلك الأيام نفسها، صادفت كتابًا لجون ديال وأجاي بوس بعنوان 'لأسباب الدولة: دلهي تحت الطوارئ'.[١] تملكني الذهول عندما قرأته؛ إذ وجدت أن معاناة كبارنا قد تشكلت في هذه السردية بطريقة تجعلك تشعر وكأنك تجلس في مجلس المكتبة، تستمع إلى شبير العم وهو يسرد بلسانه قصص الدمار الذي شهدته تركمان غيت بعينيه. كان مكتوبًا في الكتاب:

> كان الإمام حافظ محمد من مقام فيض الإلهي على وشك إتمام صلاة الاثنين عندما دخلت الشرطة إلى المسجد. قد بذل دعاء ملحًا إلى الله لوقف المذبحة الدائرة خارجاً وحماية جماعته خلال الربع ساعة الأخيرة. لكن يبدو أن الله تخلى عن مسجد فيض الإلهي وإمامه في ذلك اليوم المشؤوم.
>
> كان الباب العظيم للمسجد قد أُغلق بالفعل، وذلك لمنع تدفق الشرطة إلى داخله، إلا أنه كان مجرد إجراء احترازي. لم يكن الإمام محمد يتصور حقًا أن الشرطة ستتجرأ على دخول المكان المقدس. عندما سُمعت طرقات عالية على الباب، ظن أن الشرطة تحاول تخويفهم لفتح الباب. لكن صوت قرقعة قوية على الباب أذاب أوهامه. كانت الشرطة تستخدم مِرْوَسًا لكسر الباب. كان قد أصلح الباب قبل شهر واحد فقط بتكلفة بلغت أكثر من سبعة آلاف روبية. غرق قلب الإمام وهو يدرك أن الأضرار التي لحقت بالباب ستكون أقل ما يتضرر في ذلك اليوم المحفوف بالمآسي.
>
> كان المصلون يتملكهم القلق والتوتر. تصاعدت الطرقات العنيفة على الباب حتى وصلت إلى ذروتها. وأخيرًا، مع دوي صاخب، انفتح الباب محطمًا. اندفع رجال الشرطة إلى داخل المسجد.
>
> "توقفوا، هذا بيت الله!" صرخ الإمام، وكان وجهه يعكس خليطًا من الخوف والغضب. لكن صوته ابتلعته صرخات الثلاثمائة من الرجال والنساء والأطفال تقريبًا، حيث هاجمتهم الشرطة بعنف.

[١] *For Reasons of State: Delhi Under Emergency* by Ajoy Bose & John Dayal

لم يكن هناك مفر من ضربات هراوات الشرطة في المساحة الضيقة للمسجد. كان الناس يُسحبون واحدًا تلو الآخر إلى الخارج.

ولكن لم يكن الأمر سهلًا على الشرطة. تشبث الناس بيأس بجدران ونوافذ المسجد، متمسكين برغم وابل الهراوات والضربات من قبل الشرطة. كان المسجد بالنسبة لهم لا يزال ملاذًا أكثر أمانًا من الفوضى الدائرة في الخارج.

"حسنًا، استخدموا الغاز لإخراج هؤلاء الأوغاد من المسجد"، أمر ضابط الشرطة. سقطت قنبلتان من الغاز المسيل للدموع داخل المسجد. في ذلك المكان المغلق، كان الغاز كالموت. هذا جعل الناس يهرعون خارج المسجد كالنمل من جحره. كانت بضع دقائق من التعرض للغاز كافية لخنق شخص حتى الموت.

فقد الصغير عثمان أثر أمه وسط الفوضى الشديدة. بسبب صغر حجمه، استطاع تجنب الهراوات والضربات حتى تلك اللحظة. لكن الغاز كان تحديًا آخر. بعيون ممتلئة بالدموع، ركض عثمان في أرجاء المسجد، لكن في الفوضى العارمة لم يتمكن من تحديد مكان الباب. كان يلهث بشدة.

"أمي جان"، صرخ عثمان. "أين أنتِ؟ أنقذيني!" لكن "أمي جان" كانت مختفية في ضباب الغاز الذي كان يخنق حياة عثمان ببطء. داس عليه أحدهم بقوة، لكن عثمان كان قد فقد الإحساس. أخذ الغاز روحه.

كان عبد الستار، البالغ من العمر ثمانين عامًا، يختبئ بجانب الجدار، مرتعبًا. كان قد عمل كمنظف في المسجد لأعوام أطول مما يتذكر. لم يشهد مثل هذه الفوضى من قبل. صرخات، ضربات بالهراوات، غاز مسيل للدموع والدماء - أغلق عبد الستار عينيه وصلى إلى الله. لكن سرعان ما أثر الغاز فيه. بينما كان يكح بشدة، ركض نحو الباب.

تم القبض عليه للتو عندما وجد طريقه إلى الباب. جره شرطي ضخم من عنقه. "سأذهب معك، فقط اسمح لي بزيارة المرحاض مرة واحدة"، صرخ عبد الستار. جاءت الإجابة في صورة ضربة قوية على رأسه، ومن ثم فقد عبد الستار الوعي.

كان الإمام حافظ محمد قد لجأ إلى إحدى الغرف الداخلية للمسجد.
"يا الله"، همس وهو يصلي، "احم أطفالك، كم ستدوم هذه المذبحة؟"
"أين أنت، يا الله؟" دوى صوت خلفه. وقف في الباب اثنان من رجال الشرطة وعضو من كتيبة نهرو. كان عضو كتيبة نهرو هو الذي تحدث.
"أحضر إلهك يا إمام، وشاهد ما سنفعل به. تعال، دعنا نرى، أخرج إلهك، أرغب في رؤيته"، سخر الرجل بنبرة تهكمية.
"أنا إمام المسجد. لا تمسوا شخصًا مقدسًا. سيكون دمي على رؤوسكم"، تراجع الإمام حافظ محمد مذعورًا. انقبض قلبه عندما تذكر أن ابنه الصغير كان نائمًا في الغرفة المجاورة.
"أين أخفيت الباقين، يا إمام؟ نعلم أن البعض منهم مختبئ في الغرفة التالية"، قال الرجل وهو يحطم باب الغرفة. ركض الإمام ليوقفه، لكن أحد الشرطيين أمسكه من عنقه.
"آه، ماذا لدينا هنا. ابنك، يا إمام"، همس رجل كتيبة نهرو بصوت متسمم.
"لا تؤذوه، إنه مجرد طفل صغير"، صاح الإمام.
"اعتقلوهما كلاهما"، أمر رجل كتيبة نهرو.
"حسنًا، سأذهب معكم ولكن لا تؤذوا ابني"، استسلم الإمام. حاول الطفل الركض، لكن ضربة هراوة أصابته في فخذه فسقط على الأرض. قفز الإمام لحمايته، فتلقى ضربة هراوة على ذراعه اليسرى، مما أدى إلى كسرها على الفور.
"أخضعوا هذا الكلب الإمام"، قال رجل كتيبة نهرو. "سننزع بعض حب الله منه."
واصل الإمام الصلاة بينما كانت الضربات تهطل عليه.
"يا الله، كل هذه الإهانات والذل لك ولإمام المصلين لك. عاقبهم يا الله. دعهم يتذكرون ما فعلوه بمسجدك إلى الأبد"، صلى الإمام، بينما كان يُجر إلى الخارج.

في غضون نصف ساعة فحسب، تحوّل المسجد إلى مشهد يشبه المسلخ. امتلأت الأرض ببرك من الدماء، وغمر الهواء رائحة كريهة من أبخرة الغاز المسيل للدموع وصدى أنين وآهات المصلين المصابين.

وصلت الشرطة إلى الحلقة الداخلية من منازل بوابة تركمان، وبدأ عشرات منهم في اقتحامها. اندلعت موجة جديدة من المذبحة.

في البيت رقم ٣٣٩٣ في بوابة تركمان، كانت حسنة بيغم تتلوى وترتجف من الخوف، مستمعة إلى أصوات إطلاق النار والصياح خارج غرفتها. تقلص ابنها الصغير أكبر بجانبها وهي تسمع الطرقات العنيفة على الباب المغلق.

"افتحوا، هذه الشرطة"، صاح صوت.

ظلت الأم والطفل في صمتهما.

"سنحطم الباب إذا لم تفتحوا"، ارتفع صوت الصياح.

زحف أكبر إلى أقرب مكان من أمه. ثم، بصوت عالٍ ومدوي، انكسر الباب.

أغمضت حسنة بيغم عينيها. حاولت ألا تفتحهما أثناء تعرضها للإساءة من قبل الشرطي ذو الرائحة الكريهة. ارتفع نحيبها الخافت إلى صرخة عندما سمعت صياح أكبر الصغير وهو يُضرب بمؤخرة البندقية على الأرض. حل بها ظلام غريب.

على بُعد أمتار قليلة، كانت سلينا بيغم، الجميلة ذات العيون اللامعة، تقاوم كالوحش البري الشرطي الضخم الذي اقتحم غرفتها. كانت قد جرحته بأظافرها وأسنانها.

"هذه المرأة شرسة. لا أستطيع التعامل معها لوحدي. تعال وساعدني"، صاح الشرطي إلى زميله خارجًا.

شرطيان ضد امرأة واحدة، ومع ذلك قاتلت سلينا. بالعض والركل والصراخ، جرت كلاهما من زاوية إلى أخرى في الغرفة وهما يحاولان تمزيق برقعها. لن تُهزم سلينا بيغم بسهولة.

انتقل المشهد من موقع الهدم إلى داخل المنازل التي لا تزال قائمة في بوابة تركمان. خمد إطلاق النار بينما تسللت الشرطة بثبات في الأزقة والممرات الجانبية بحثًا عن فرائسها.

أُعلن حظر التجول في الساعة الخامسة والنصف مساءً. وبعدها بدأت موجة منظمة من السلب والاغتصاب. كان معظم الرجال إما قد اعتقلوا أو فروا من المنطقة، تاركين النساء والأطفال وحدهم في منازلهم دون حماية.

كانت رضية بيغم تنتظر زوجها لأكثر من ساعة في منزلها، لكن لم يظهر له أثر. ثم سمعت طرقات على الباب، وذهبت مسرعة لتفتحه، آملة أن تجد زوجها، لكنها واجهت شخصية شرطي بدلاً من ذلك.

"خلعي أقراطك"، أمرها الشرطي. وأطاعت رضية وأعطته أقراطها.

"أين تخبئين باقي مجوهراتك؟"، بدون أي خيار، دلت رضية الشرطي على الصندوق الصغير الذي يحتوي على مجوهراتها ومدخراتهم التي جمعوها على مدار السنين.

"والآن ملابسك". أشارت رضية إلى حقائب السفر بجانب السرير.

"ليست الملابس في حقيبتك. الملابس على جسدك". أظهر الشرطي أسنانه الملطخة بعرق البن.

اتسعت عينا رضية بالرعب. وبحركة سريعة، تمكنت من الإفلات من ذراع الشرطي وركضت نحو الشرفة. كان هناك سقوط حر يبلغ ارتفاعه أربعين قدمًا إلى الأرض.

"عودي، يا امرأة. ماذا تفعلين؟" صاح الشرطي من خلفها.

أغمضت رضية بيغم عينيها وقفزت. استقبلها الرصيف بصدمة مؤلمة.

أغلقت رضية بيغم عينيها بشجاعة واندفعت في قفزة عميقة. استقبلها الرصيف أدناه بصدمة مدوية، (وقعها يتردد في الهواء مثل نداء أخير مليء بالألم.)

بدأ الظلام يخيم على بوابة تركمان. لا تزال خيوط حمراء تلون السماء المعتمة مع مغيب الشمس الأكثر عمقًا. ساد هدوء مُثقل، متخلله أحيانًا صرخات مفاجئة أو نحيب هيستيري.لم يُضيء أي نور في البيوت المتجاورة. تم قطع التيار الكهربائي. كما تم قطع الماء وخطوط الهاتف. كأن بوابة تركمان قد تُركت وحيدة، مُنفصلة عن باقي المدينة.انتُهك الصمت فجأة بأصوات غريبة ومقلقة للآلات. كأن وحشًا من عصور سحيقة يضحك بسخرية على بوابة تركمان. عادت الجرافات للحركة مجددًا.

مُرتبة كسرب من الدبابات، تنبض ستة عشر ظلاً ضخمًا بالحياة مع اختفاء آخر أضواء النهار. أفواهها القبيحة ترتجف وهي تتقدم. كانت تبدو وكأنها تقهقه بفرح غامر. لم تعد هناك عقبات أمامها الآن.

كان سليمان، الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، يختبئ في ركن منزل نصف مدمر، حيث تمكن من الهروب والاختباء. كان قلقًا على أخيه الذي تم اعتقاله، وفي خاطره أن يحاول إخراجه بكفالة في اليوم التالي.في البداية، لم يكن صوت الجرافات يعني لسليمان شيئًا. اعتقد أنها ربما تكون مجرد شاحنات الشرطة تغادر. لكن الصوت اقترب، وازداد قربًا.

"هذه ليست شاحنة"، اندفعت الفكرة في ذهن سليمان. "الشاحنات لا تصدر هذا النوع من الضوضاء". بدأ سليمان يتساءل والضجيج يتصاعد، لكنه لم يجرؤ على النظر خارجًا خوفًا من اكتشافه.بدا الضوضاء يتجه نحو المنزل الذي يختبئ فيه سليمان، ومع اقترابها، أدرك أنها جرافة.فتح فمه ليصرخ، لكن صرخته غُمرت في زئير الجرافة وهي تهدم طريقها داخل المنزل، مخلطة جسد سليمان مع الأنقاض. ثم تواصلت الوحوش في تدميرها.

فجأة، أضاءت الأضواء الكاشفة القوية الظلام، وظهرت بوابة تركمان المدمرة بوضوح تحت أشعتها الحادة.واصلت الجرافات الست عشرة تحركها، لم تتوقف تلك الليلة، ولا في اليوم التالي، ولا في الليلة التي تلتها. في الواقع، عملت الجرافات دون توقف حتى ٢٢ أبريل، حتى أنها محت كل علامات الحياة وكذلك الموت في بوابة تركمان.

في المكتبة، تحول النقاش ببطء من أحداث بوابة تركمان إلى الحوادث المروعة التي وقعت في أنحاء أخرى من البلاد. أخذ أحد الحضور يروي عن قرية أتاور في هاريانا، حيث أفادت التقارير الصحفية بأن أكثر من عشرة أشخاص قد لقوا حتفهم، عاجزين عن تحمل عمليات التعقيم.

"في أتاور وقع ظلم شديد. لدينا معلومات مؤكدة من رفاقنا الذين شاهدوا الأحداث بأم أعينهم"، أضاف العم شبير بتوضيح. "أتاور، المنطقة ذات الأغلبية المسلمة في هاريانا، والتي تقع بالقرب من ميوات وبالول، شهدت وصول الشرطة على الخيل، وكأنهم فاتحون غزاة".

في المكتبة، تحول النقاش ببطء من أحداث بوابة تركمان إلى الحوادث المروعة التي وقعت في أنحاء أخرى من البلاد. أخذ أحد الحضور يروي عن قرية أتاور في هاريانا، حيث أفادت التقارير الصحفية بأن أكثر من عشرة أشخاص قد لقوا حتفهم، عاجزين عن تحمل عمليات التعقيم.

"في أتاور وقع ظلم شديد. لدينا معلومات مؤكدة من أصدقائنا الذين شاهدوا الأحداث بأم أعينهم"، أضاف العم شبير بتوضيح. "أتاور، المنطقة ذات الأغلبية المسلمة في هاريانا، والتي تقع بالقرب من ميوات وبالول، شهدت وصول الشرطة على الخيل، وكأنهم فاتحون غزاة".

"نعم، بالنسبة لهم، كل منطقة يسكنها المسلمون تبدو كباكستان جديدة"، تدخل أحد الحضور بتعليق لاذع.

"يروي الشهود أنه حوالي الثالثة فجراً، حاصرت قوات الشرطة الآلاف من أهالي قرية أتاور، وقد نُصبت المدافع الرشاشة على التلال. أُعلن أن يتجمع جميع الرجال في المدرسة الحكومية. وفي غضون ذلك، كانت الشرطة تجوب البيوت بحثاً، تاركة النساء الخائفات والأطفال الأبرياء عاجزين عن الفعل، وكانت عفة كل واحد منهم معرضة للخطر. نُقل حوالي ثمانمائة رجل، من بينهم نحو ٢٥٠ شاباً لم يتزوجوا بعد، في حافلات إلى المستشفى. حاول البعض استخدام شهادات

طلاق مزيفة للتهرب من التعقيم، لكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل. تم تخصيص رقم لكل رجل، رقم انتظاره، ولم يعودوا يُعتبرون بشراً بل مجرد أرقام."

شدد العم شبير على كلمة "أرقام" بنبرة توحي بأن الناس كانوا يُعاملون ليس كمخلوقات حية، ولكن كأشياء بلا روح، بلا إحساس، بلا قيمة إنسانية.

"وما هي حقيقة مظفر نغر؟ سمعت أن المسلمين هناك كانوا هدفاً لرصاص الشرطة على نطاق واسع"، تساءل أحد الحاضرين عن حادثة إطلاق النار في خالابار.

"هناك شخص يدعى فيديا بهوشان، قائد في الكونغرس ومن المقربين لسانجاي غاندي. لفت انتباهه حي خالابار الذي يسكنه المسلمون. اعتقلت الشرطة جزاراً وأحد زبائنه لإجراء عملية التعقيم. وعندما انتشر الخبر، خرج المئات من المسلمين إلى الشوارع للاحتجاج. ثم تولت وحدات الشرطة الموقف، وبسرعة امتلأت السوق بخمسة وثلاثين (٣٥) جثة، وامتلأت الأرجاء بالدماء. تم فرض حظر التجول، وكما هو الحال في مثل هذه المواقف، تم اعتقال العديد من الشبان المسلمين من منازلهم واتهامهم في قضايا مفبركة. والأكثر فظاعة هو أن هذا الظلم لم يجد آذاناً صاغية"، قال العم شبير بصوت مرتعش، "الله وحده القادر على محاسبة هؤلاء الظالمين."

"إلى أي مدى وصلنا، وما هذا الواقع المرير؟ نواجه خيارًا قاسيًا بين نوعين من الموت: إما أن نسقط تحت رصاص الشرطة أو نستسلم لإنهاء نسلنا بيد الأطباء"، تأمل الأب في الوضع العصيب.

"ها هي الحقيقة الصارخة لجمهورية الهند الديمقراطية الحرة. فماذا نفعل الآن؟ لا بد أن نجد مسارنا وسط هذه الظروف الجائرة. لن يطول عمر الظلم، وسيأتي يوم يبكي فيه أيضًا والدة ماروتي (في إشارة إلى السيدة إندرا غاندي). الله هو المعين والمستعان"، قال العم شبير بنبرة مليئة بالتحدي والأمل، واقفًا في وجه الظلم.

كان العم شبير يُعرف بخفة روحه وذكائه المتقد. كانت الابتسامة لا تفارق محياه. حتى اليوم، عندما نزل من الركشة بخفة قدم، رأيت عينيه تمتلئان بالدموع مرارًا وتكرارًا خلال مناقشتنا للشؤون الجارية. أدركت اليوم أن كبارنا أخفوا وراء طيبتهم المعهودة أحزانًا عميقة. رحل العم شبير تاركًا وراءه غيمة من الآهات والأنين. فكرت في وطن يجبر فيه ٨,٣ مليون إنسان على التعقيم القسري في عام واحد، حيث يُقتل في بوابة تركمان وحدها اثنا عشر مائة مسلم بريء برصاص الشرطة لمجرد الدفاع عن حياتهم وممتلكاتهم وبيوتهم. لا يمكن القول بأن الأمور بخير. هل يُعقل أن تكون الحياة هكذا، حيث يُقتل المسلمون الذين يعيشون بالفعل برصاص الشرطة، ويُمنع من لم يولد بعد من الوجود بقوة السلاح؟ ثم خطر ببالي أن تحديد عدد شهداء بوابة تركمان باثني عشر مائة هو في حد ذاته ظلم، فهذا لا يعكس الواقع بدقة. الحقيقة المريرة هي أنه بعد التقسيم، أعيد تشكيل ديموغرافية دلهي مرة أخرى، وشُرد المسلمون من دلهي قسرًا مرة أخرى. كما يقول أبي والعم شبير، رؤية البشر كأرقام تحجب فظائع الجرائم، فالناس ينسون ويمضون قدمًا.

تشبيه أحداث بوابة تركمان بمجزرة جاليانوالا باغ يعبر عن ذاكرة جماعية تتلاشى ببطء. في هذا السياق، أذكر خطبة الشيخ أبو الحسن علي الندوي التي تمت قراءتها بكثير من الاحتفاء في الذكرى الخامسة والثمانين لتأسيس ندوة العلماء، في خضم أيام الطوارئ. لقد أبرزتها الصحف الأردية بعناوينها البارزة، لكن الخطبة في حد ذاتها غاب عنها ذكر الطوارئ. هذا الغياب يطرح تساؤلاً ملحًا: كيف يمكن لأمة تتجنب الغوص في تفاصيل حقبتها التاريخية المعقدة أن تستمد الإلهام والإضاءة من دروس الماضي؟ إن إهمال التاريخ يجردنا من قدرتنا على فهم ماضينا والاستفادة منه.

بعد أشهر من مأساة بوابة تركمان، خفتت حدة حملة التعقيم الإجبارية، لكن الجو العام ظل مليئًا بالقمع والصمت. في تلك الفترة، أُعلن فجأة عن إقامة أمسية شعرية في حي مسلم. جارنا، الطبيب الشهير وشاعر الديوان، اقترح علي أن

نحضر. كانت ليلة باردة. نصبت الخيام في حديقة اليتيم خانة، مضيئة بأنوار الغاز، وتألقت المنصة بحضور الشعراء الكبار. الأمسية كانت في أوجها، لكن اللحظة الحاسمة جاءت عندما بدأ رئيس الجلسة في قراءة قصيدته بعنوان'الأنا'، التي تعكس الأنا المتضخم للحاكمة إندرا غاندي.

في بداية قراءة الشاعر لقصيدته، "لأجل الصمت، يعلو عرش الأنا"، انتبه الجمهور على الفور. ومع قول الشاعر لأول بيت، تحولت الهمسات المعتادة من "سبحان الله" و"واه واه" إلى حذر شديد. مرت الأبيات التالية في جو من الحذر والتزام، ثم عندما قرأ الشاعر:

"للآلاف من الاتهامات، الاعتقال والسجن، بسيطة الإجابة،

نحن مجبرون على قبول صبر الأنا"

استشعر الحضور أن الأشعار تنطوي على طابع سياسي خطير. وعندما وصل الشاعر إلى البيت الأخير:

"قليلاً من الصبر، انتظروا يوماً أو آخر،

سيأتي يوم الهوان لهذا الأنا"

بدأ الجمهور يتبادل النظرات، متحيرين كيف يمكن التعبير عن تقديرهم لهذه القصيدة في جو مشحون بالحذر خلال فترة الطوارئ. لكن الأمر الأصعب كان أن رئيس الجلسة كان استاذ الأساتذة، ليس فقط شاعراً، بل أيضاً مربياً معترف به. كانت هناك احترام كبير له بين العامة والخاصة. بدأ الجمهور يقلق على سلامته، خوفًا من أن يؤدي صراحته في هذا العمر الكبير إلى تورطه في مشكلة. كانت قصة سجن حفيظ ميرثي، الذي أرسل إلى السجن مباشرة من مكان الأمسية بسبب بعض أشعاره، لا تزال حية في أذهان الناس:

أُقِرَّ اليومَ قرارٌ بين أهلِ الحقِّ المدَّعينْ

"مَن لَم يُؤمِنْ بِنا، فَلْيُدْفَنْ بينَ الجُدرانِ السامقينْ"

كلُّ ظالِمٍ تصدّى لهُ شاعرٌ صادقٌ كحفيظٍ، ببَسالَةٍ ويَقينْ

"لَسْنا مِمَّن يَخافُ ويُعلِنُ طاعتَهُ بينَ الخاضعينْ"

انتهت الأمسية الشعرية، لكن احتجاج الأستاذ محسن ضد قمع الحريات أصبح حديث الناس. في تلك الأيام، كان فيلم أمريت نهاتا "قصة الكرسي" موضوعًا رائجًا، حيث سخر بأسلوب دقيق من طريقة حكم سنجاي وإندرا. وبما أن الحكومة رفضت إعطاء الفيلم ترخيصًا ودمرت النسخة الأصلية بطريقة غير قانونية، أصبح الفيلم محور اهتمام الجمهور. يصور الفيلم أن السبب الحقيقي للفقر هو الفئران الصغيرة التي تأخذ حبوبنا إلى جحورها الضخمة. ولذا، للقضاء على الفقر، يجب التخلص من هذه الفئران. تم تنظيم حملة وطنية لقتل الفئران، حيث يُمنح الناس عشرة روبيات لكل فأر يقتلونه. هذه الرمزية في الواقع كانت إشارة للتعقيم الإجباري. الفئران في هذه الحالة كانت تمثل الفقراء، وبالأخص المسلمين. كانت الفكرة العامة لدى حكام الطوارئ أنه لن يأتي الازدهار إلى البلاد حتى يتم وقف تكاثر الفقراء المسلمين. لاحقاً، عندما بدأت أفهم معاني هذه الرموز كطالب في الأدب، أدركت السبب وراء ضرورة إزالة الإنسانية من الأشخاص قبل قتلهم. وأثار إعجابي أيضًا بصيرة والدي المؤمنة في استنباط خطة "القضاء على الفقراء" من وراء شعار "القضاء على الفقر" منذ البداية.

١٣

لحظات الروح المتألمة

في يوم غير متوقع، بدون أية مقدمات، انبثقت في ذهن السيدة غاندي فكرة إعلان الانتخابات. كانت الأجواء تغلي بشائعات تزعم أن الحكام الراهنين لا يفكرون حتى في التنازل عن عروشهم. وفي خضم هذه الأوضاع، كانت هناك أصوات تتعالى من بعض الأوساط تطالب بتشكيل جمعية تأسيسية جديدة، وقد اتخذت بعض الولايات خطوات جريئة نحو دعم نظام حكم جديد. في هذا السياق، جاء إعلان الانتخابات كالبرق في سماء صافية، غير متوقع ومدهش بذات القدر.لطالما كنا نحن الشعب نتجنب الانخراط في الانتخابات. يقول والدي دومًا إن تسليم السلطة لأحد الفاسدين يناقض كل مبادئ العقل والفهم. "فإذا لم يكن هناك بديل، فلمن نمنح أصواتنا؟" كان يتساءل. ولكن الآن، كان علينا مواجهة تحدٍ جديد. أصبح التحول السياسي أمرًا ضروريًا لفك قيود الناس وإعادة الحرية إليهم.كان هناك نوع من التردد والحيرة يسود بين كبار أعضاء الحزب. شمس بيرزاده من بومباي وعبد الحفيظ خان من ناجبور، كانا يتوقان لتحليل هذه المسألة بعمق. وقبل أن تصل هذه المناقشات إلى نتيجة محددة، اتخذ أخي أرشد موقفًا جريءًا وأطلق حملة داعمة للمعارضة بكل حماسة وعزيمة، مستغرقًا فيها بكل جوارحه. ولم يبدِ والدي أي معارضة لذلك، فانجذبت تعاطفاتنا جميعًا، بلا استثناء، نحو المعارضة.

في تلك الأيام، وفي صباح غير متوقع، دوى خبر وفاة الرئيس فخر الدين علي أحمد كالرعد في سماء صافية. كنت في ذلك اليوم، غارقًا في تأملاتي، داخل قاعة الامتحان. كانت تلك آخر ورقة في امتحان الثانوية عندما همس المعلمون بأن فخر

الدين علي أحمد قد فارق الحياة. عند خروجي، وأنا أبحث عن ركشة للعودة، لفت نظري أحد شيوخ القرية الذي جاء برفقة ابنه الصغير لأداء الامتحان. استقبلني الشيخ بابتسامة ودية وأصر على أن أرافقه في الركشة. وما إن انطلقت الركشة حتى بادرني بالحديث.

قال بنبرة مفعمة بالتساؤلات: "هل سمعت بوفاة فخر الدين علي أحمد؟"

أجبته وأنا متأثر: "بلى، علمت بذلك للتو في قاعة الامتحان".

فتابع بحكمة العارفين: "أها! أراك مطلعًا. ولكن، هل تعرف ما هي أسباب وفاته؟ يبدو أنها نوبة قلبية".

فقلت، معبرًا عن شكوكي: "ربما يكون وراء ذلك مؤامرة. حتى عمي شبير كان يقول إنه كان متأثرًا بشدة بأحداث بوابة تركمان. من يدري تحت أي ضغط كان يعيش".

فابتسم الشيخ مبديًا حكمته، وقال: "يا بني، ليس كل ما يحدث مؤامرة. الأمر واضح كالشمس، فالمسلم الحقيقي، الذي ينبض قلبه بذرة الإيمان، لا يمكنه أن يتوافق مع مثل هذا النظام. ضميره يظل يعذبه، يشعر بالعجز والضعف حتى وهو جالس على كراسي السلطة، لا يقدر على منح قومه العدالة، فكيف بمنع انتهاك حقوقهم".

تردد في الأجواء أن في الأيام الأخيرة لم تعد العلاقات بين السيدة غاندي وهو على ما يرام. فتساءلت، لماذا لم يقدم على قرار حاسم؟ كان، أليس كذلك، يجلس على أرفع مقاعد السلطة.

فأجاب بنبرة تحمل في طياتها خبرة الأيام: "أولًا، الصلاحيات الممنوحة لرئيس الجمهورية محدودة، وثانيًا، الرئيس المسلم لا يمكنه استخدام هذه الصلاحيات المحدودة، إذ يفقد، بعد المرور بمراحل متعددة من الخدمة والولاء للوصول إلى هذا المنصب، القدرة على اتخاذ قرارات مستقلة. انظر إلى السيد ذاكر حسين، مثالًا على ذلك، فمسيرته الوطنية معروفة للجميع. قدم الدعم لجامعة جامعة ملية الإسلامية في الأوقات الحرجة، وأنقذ جامعة علي غره من مستقبل غير مؤكد

بعد الاستقلال، وقاد حملة قوية لدعم اللغة الأردية، لكنه، عندما أصبح رئيسًا، اختار الصمت".

"وما السبب وراء ذلك؟" سألت بفضول.

فتابع: "أولئك الذين قادوه إلى سدة الرئاسة كانوا يعرفون تمامًا أن الهوية الإسلامية للسيد ذاكر حسين كانت تحمل أهمية استراتيجية لعلمانيتنا. في عالم يُعتبر فيه تعيين مسلم كرئيس للجمهورية دعمًا للعلمانية، فما المجال المتاح لرئيس مسلم للتعبير عن اهتمامه باللغة الأردية أو بقضايا المسلمين الأخرى أثناء توليه المنصب؟"

سنوات عديدة مضت، وعندما أتيحت لي الفرصة أخيرًا للاطلاع على تقرير لجنة شاه وما يرتبط به، غمرتني دهشة كبيرة من مدى الوعي العميق الذي كان يحمله هؤلاء الأكابر، رغم أنهم لم يختبروا يومًا ممرات السلطة. سوبهادرا جوشي، النائبة البرلمانية عن الكونغرس من دلهي القديمة في ذلك الوقت، شهدت أمام لجنة شاه قائلةً إن الرئيس الراحل فخر الدين علي أحمد كان قد أفصح لها: "هذا الشاب (سانجاي غاندي)، شقي ومجنون، يجد سروره في تعذيب الناس، وبخاصة المسلمين. لقد بلغنا شكاوانا للسيدة غاندي، ولكن العجيب في الأمر أن من يشكو منه ينتهي به المطاف معتقلًا." وأضاف الرئيس الراحل: "أشعر بألم عميق لما يجري في دلهي، لكن ما بوسعي أن أفعله؟ لا أحد يصغي إليّ، وقد ألصق سانجاي بي تهمة الطائفية." وأنا، وقد غرقت في بحر التفكير، تساءلت: إذا كان رجل بمثل هذه القامة، يشغل أعلى منصب في البلاد، يشعر بهذا العجز، فكيف يكون حال المسلمين العاديين، الذين يتم استهدافهم كأنهم ليسوا أكثر من فئران للصيد؟

في تلك اللحظات من الزمن، تستعيد ذاكرتي بلا إرادة رحلتي إلى أمريكا. كان ذلك في عام ١٩٩٦، في أيام ديسمبر الأخيرة. كانت أجواء عيد الميلاد تعم مطار هيثرو، مما أدى إلى ازدحام كبير بالمسافرين. عندما دخلت إلى صالة الانتظار الخاصة بشركة فيرجن أتلانتك للتوجه إلى الطائرة، انتابني دهشة كبرى لرؤية أن أغلب الركاب كانوا من اليهود الدينيين، يرتدون المعاطف السوداء والقبعات. في

البداية، خلبتني الرهبة من هذا المشهد المتجانس للغاية، ولكن سرعان ما تسلل إلى ذهني أن هذه الرحلة الطويلة التي تمتد لسبع ساعات قد تفتح باب التفاهم مع هؤلاء المسافرين. يبدو أن القدر كان ينسج خيوطه في نفس الاتجاه. بعد أن أنهيت وجبتي، كنت أتنقل بين صفحات الصحف والمجلات، حتى استوقفتني مقالة تحمل عنوان "اليهود في جيش هتلر". حتى ذلك الحين، كانت لدي معرفة واسعة عن اليهود، لكن هذه المعلومات كانت مذهلة وغير متوقعة بالنسبة لي.نقل المؤلف في مقالته إشارة إلى الباحث بريار ريج(Bryar Rigg) ، حيث أوضح أنه في أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما كان اليهود تحت وطأة العذاب على أيدي الجنود الألمان، كان هناك في الوقت نفسه الكثير من أبناء اليهود يقاتلون ضمن صفوف جيش هتلر ضد إخوانهم. وفقاً لريج، كان في الجيش النازي أكثر من ١٥٠,٠٠٠ شخص لهم صلات باليهود، بما في ذلك عشرة جنرالات واثنان من مارشالات الميدان الذين كانوا يقودون جيوش تضم مئة ألف جندي. وكان هناك على الأقل عشرون شخصاً قد نالوا أعلى وسام عسكري في ألمانيا، وسام الفارس(Knight's Cross)، تقديراً لخدماتهم العسكرية. وكان معظم هؤلاء من المشلينج الألمان، أي نصف يهود ونصف ألمان. من خلال المقابلات التي أجراها ريج مع حوالي ١٢٠٠ من الجنود الألمان السابقين، معظمهم كبار في السن، استخلص أن هؤلاء الأشخاص قد عاشوا بقية حياتهم مكبلين بقلب مثقل بالحزن والشعور بالذنب. مرت السنوات ولم يجرؤوا على مواجهة الأعباء التي تثقل ضمائرهم، ولم يجدوا مناسبًا مناقشة هذا الأمر مع أحد، حتى جاءت لحظة ريج التي فتحت باب ضبط النفس. بكى الكثيرون بشكل لا إرادي، كأنهم كانوا ينتظرون لحظة الإفراج عن دموعهم المكبوتة منذ زمن بعيد.

لم يكن هتلر بمعزل عن معرفة أن جيشه يضم جنودًا ذوي أصول يهودية، وبعضهم كان يشغل حتى مناصب رفيعة. لكنه كان في أمسّ الحاجة إلى قادة أكفاء وذوي خبرة، حتى وإن كانوا ينتمون إلى عائلات يهودية. كان هؤلاء اليهود ذو قيمة

عالية بالنسبة له، أولئك الذين كانوا على استعداد للتضحية بقومهم من أجل النجاة بحياتهم أو لأجل مكاسب مادية زهيدة.

كانت الدهشة تسيطر عليّ بقوة عندما اكتشفت أن غالبية هؤلاء الجنود لم يحصلوا على ضمان النجاة، حتى بعد تقديمهم لخدمات إجرامية. عندما حلت اللحظة المحتومة، وُضعوا أيضاً على متن قطارات الموت المتجهة إلى معسكرات التعذيب. بعضهم دخلوا الغرف الغازية وهم يرتدون الزي العسكري ومعهم أوسمتهم. كان هناك جندي ذهب لزيارة والدته في معسكر الاعتقال في محاولة يائسة لإثبات أنه ليس يهوديًا. والأم، في تضحية لا مثيل لها، ادعت أن ابنها هو ثمرة علاقة مع كاثوليكي ألماني لإنقاذه. طويت الجريدة ووضعتها على الطاولة أمامي، غارقًا في التأمل. هل يمكن حقًا أن يقدم شخص على بيع أهله وعشيرته وحتى منزله مقابل حياته؟ وما هي هذه الأم التي لا تجد حرجًا في تلفيق تهمة تمس شرفها لإنقاذ حياة ابنها؟ لكن العار الأشد يقع على هذا الابن الذي لم يتردد في جر والدته إلى أعماق جديدة من العذاب النفسي والروحي حتى في معسكر الاعتقال، فقط من أجل إنقاذ نفسه.

ألقيت نظرة على الشاب اليهودي الذي جلس بجانبي، وكان حتى تلك اللحظة يتابع قراءتي بصمت. كان ينتمي إلى الكلية اليهودية في لندن، ويبدو أنه قد لاحظ جديتي في التفكير بمحتوى المقالة. سألني بهدوء: "كيف وجدت المقالة؟ إنها مثيرة للتفكير، أليس كذلك؟ لقد التقيت بريج(Rigg)، لقد زار كليتنا." ثم أضاف بنبرة متأملة: "إنه باحث متحمس، يتنقل بين أوروبا وأمريكا محاورًا العديد من اليهود المسنين".

سألته لأعرف رأيه، فأجاب بصوت عميق: "ريج(Rigg)قد أصاب الهدف في مقتل. كيف نلوم الآخرين، عندما كان بيننا من يعمل كأداة بأيدي أعدائنا؟ لولا وجود هؤلاء بيننا، لما كان بمقدورهم إبادة ستة ملايين يهودي." وأشار إلى نفسه بإصبعه وقال بحزن عميق: "جذور الهولوكوست كانت تعيش فينا، والعدو لم يكن إلا المحفز لإظهارها".

تساءلت: "هل ما ورد في كتابات ريج (Rigg) عن تلك الأحداث صادق؟"

أجاب الشاب بجدية: "لا شيء غير متوقع. ففي أوروبا، اعتاد اليهود منذ زمن طويل على إخفاء هويتهم. حتى اليوم، الكثير من الأشخاص الذين يظهرون كمسيحيين، إذا تعمقت في أصولهم، ستكتشف أنهم ينتمون إلى عائلات يهودية. لكن القضية الجوهرية ليست في تغيير الهوية، بل في وجود أولئك الذين يفرضون الذل على شعبهم مقابل منافع زهيدة، وفي النهاية لا يحصلون على شيء".

سألته: "كيف يتعامل المفكرون اليهود مع هذه الأحداث؟"

قال بنبرة حاسمة: "قد انطلق نقاش عميق حول ضرورة النظر في أنفسنا. الأمر المبهج هو أن الأشخاص الذين عانوا سنوات طويلة تحت ثقل الذنب بدأوا يتحدثون، يعترفون بخجل بجرائمهم. ويتزايد الإدراك بين الناس بأن خيانة الشعب مقابل النجاة الشخصية لا تنتهي بالنجاة، بل تترك جرحًا نازفًا يستمر طوال الحياة".

كان الشاي قد استُهلك. طويت قصاصة المقال وأودعتها في حقيبتي، وبينما كنت أحول مقعدي إلى سرير في محاولة لاستراحة قليلة في هذه الرحلة الطويلة، استلقيت. لكن النوم تاه من عيني، فكانت المقالة لا تزال تهيمن على أفكاري. تأملت في كيفية أن بحث ريج(Rigg) أثار القلق في صفوف المفكرين اليهود. كثيرون يحاولون تطهير جراح أرواحهم بدموعهم. تذكرت مشهد الطوارئ عندما اجتاحت الكوارث المسلمين في بوابة تركمان. صدى صرخات الأطفال الأبرياء والنساء العاجزات، ودوي الرصاص، والإخلاء القسري، وأكثر من ذلك، الترتيبات المحكمة لتحديد النسل كوسيلة للإبادة الجماعية، كلها تمثلت في ذهني. وفي كل ذلك، كان وجه الرئيس الجمهورية المسلم يبرز أمامي مرارًا وتكرارًا. على الرغم من عدم رضاه عن الوضع، إلا أنه كان هو من وقع على إعلان حالة الطوارئ.غمرتني ذكريات محمد يونس، الذي كان يُعتبر الممثل الخاص لرئيسة الوزراء إندرا غاندي في تلك الأيام. من ناحية، كان ينتقد سياسات جغموهن، ومن ناحية أخرى، أفاد مؤرخ الأحداث[١]بأنه قال: "يجب طرد أولئك الذين يدعمون إمام الجامع الكبير من

[١]Slum Clearence, demolition etc

المنطقة وإلقاؤهم خارج المدينة". كانت السيدة غاندي ترغب في ذلك أيضًا، كما ذكرت كتابات سراج براشا، بأن المنطقة حول الجامع الكبير ستظل مصدر إزعاج لها حتى يتم إزالة الأغلبية المسلمة منها. تذكرت شهنواز خان، الذي كان له صلة قرابة بعائلة نهرو وشغل مناصب متعددة خلال حالة الطوارئ، ومظفر حسين برني الذي تحدى عبد الله بخاري كرئيس لمجلس الوقف، ومولانا أسعد مدني، الذي نال عضوية مجلس الشيوخ من السيدة غاندي في عام ١٩٦٨. وإم. إف. حسين، الذي كان من المؤيدين الشديدين لحالة الطوارئ واضطر لاحقًا لترك البلاد، وشفيع محمد قريشي، نائب وزير السكك الحديدية في ذلك الوقت، وشيخ محمد عبد الله الذي شهد بأم عينيه دمار بوابة تركمان. كيف كانت مشاعرهم وهم يرون مناطق المسلمين في دلهي القديمة وغيرها من المناطق ذات الأغلبية المسلمة تترنح تحت وطأة الأنين والصراخ؟في خيالي استعادت صورة موكب سنجاي غاندي حيويتها، ذلك الموكب الذي كان يجوب شوارع دلهي القديمة خلال أيام الهدم. في هذا المشهد، برزت صورة رخسانة سلطانة، التي كانت تشرف على الهدم وتحديد النسل في دلهي القديمة، تحث النساء المسلمات على التخلي عن الحجاب وتبني أسلوب حياتها، مُبرزةً هويتها كمسلمة. نعم، هي نفسها رخسانة سلطانة، والدة امريتا سينغ التي اشتهرت لاحقًا في عالم السينما. وأيضًا، تذكرت لطيفة فاطمة، التي كانت جزءًا من موكب سنجاي غاندي، ابنة شهنواز خان بالتبني، ووالدة شاروخان، نجم السينما البارز. هل كان دور هؤلاء المسلمين، الجنرالات والمتطوعين والعلماء، في حملة الكونغرس المعادية للمسلمين؟ اليوم، وأنا أسطر هذه الكلمات، لا أعلم أين ذهب هؤلاء الأشخاص أو ماذا أصابهم. محمد يونس، الذي قضى حياته في خدمة عائلة نهرو، لم ينل الاحترام المستحق، ورحل عن هذا العالم بشعور أن "الخادم يظل خادمًا". من ذاكر حسين إلى فخر الدين علي أحمد، ومن شهنواز خان إلى برني ومدني وعشرات آخرين من الخدم، ما كانت مشاعرهم؟ هل تمكنوا من مداواة جراح أرواحهم بدموعهم؟

١٤

محنة بوابة تركمان

في أحد الأيام بالمكتبة، انطلق الحديث عن إمام الجامع الكبير عبد الله بخاري. كان يتصدر العناوين الرئيسية بفضل ندائه الانتخابي، مما يعكس وزنه السياسي الذي بدأ يظهر بعد طول غياب. الذكريات المتصلة بمسجد شاهجهاني في دلهي كأنها عادت للحياة مجددًا. كان هناك تقرير عن ندوة في بومباي حيث ناقش عبد الله بخاري التجاوزات خلال حالة الطوارئ، مُحثًا الناس على دعم حزب جنتا لإزاحة الكونغرس. قرار عبد الله بخاري بإعلان الحرب على الكونغرس، وخاصة بعد انفصال جاغ جيوان رام عن الحزب، أُعتبر خطوة استراتيجية ذات أهمية كبيرة. هذا النداء الصادر من منبر مسجد شاهجهاني أثار حماسة بين المسلمين، وكأنه دق أجراس التغيير في أرواحهم.

قال أحدهم بنبرة قاطعة: لقد انتهى عهد الكونغرس، لم يعد لهم موطئ قدم. ضياء الدين بخاري من مومباي، الذي ظل طويلاً في ظل جمعية علماء الهند والكونغرس، قد انقلب الآن ليشد رحاله نحو حزب جانتا، مبشرًا بعهد جديد. ومع دخول عبد الله بخاري إلى الساحة بشجاعة وصراحة، ارتفع الهتاف في الأرجاء: إنه الأسد، جاء الأسد.

وفي تلك اللحظة، انفجر البروفيسور، المعروف بترديده المتكرر لعبارة "خالم مخول"، قائلاً: ما هذا الهراء، خالم مخول! لا تدركون حقيقة الأمور. أنتم تسرعون في الحكم، متأججين بالحماس. ثم استطرد قائلاً: ألا تذكرون الزمن القريب حينما كان الشيخ عبد الله، أسد كشمير، محط الأنظار؟ ولكن الآن، احتواه الكونغرس بطريقة جعلت منه خروفًا وديعًا. أنتم لا تعرفون عبد الله بخاري حق

المعرفة. لم يمض سوى بضع سنوات على تلك التصريحات التي أدلى بها داعمًا لتخطيط الأسرة، وكيف تم تعليق صوره في المناطق المسلمة، حينها كان محبوبًا لدى الحكومة، التي أرسلته إلى موسكو وقادته في جولات إلى دول الخليج. ظنّ أنه بذلك قد يجد حلاً لمشكلته مع مجلس الوقف بشأن منصبه كإمام، لكن عندما أدرك أن موقفه هذا يفقده احترام الناس، انقلبت رؤيته واستراتيجيته.

"أوه! لم أكن أدرك هذا الأمر بتاتاً،" قال الرجل بنظرات حائرة، وهو يطوي صفحات الجريدة ببطء، ليعقب بنظره تجاه البروفيسور. "لو راجعتم الصحف القديمة منذ عامين أو ثلاثة، ستجدون بلا شك تلك النداءات التي أطلقها عبد الله بخاري داعمةً لتخطيط الأسرة".

"فكيف إذًا جرى هذا التحول الجذري في مواقفه؟" سأل بدهشة.

أجاب البروفيسور: "في عام ١٩٧٣، ترك حامد بخاري، والد عبد الله، منصب الإمام لابنه، الإمام النائب حينها. كانت هناك اعتراضات من قبل مجلس الأوقاف على هذا التعيين. ففي نظرهم، كان الإمام مجرد موظف لديهم، وأرادوا تأكيد ذلك. نتج عن ذلك صراع بين مجلس الأوقاف وعبد الله بخاري. وفي الوقت نفسه، كان تأييده لتخطيط الأسرة ينال من شعبيته بين الناس، الذين بدأوا ينعتونه بـ'الإمام الحكومي' ويتحاشون الصلاة خلفه. وهنا قرر عبد الله بخاري تغيير موقفه بشكل جذري. في تلك الأيام، حدثت اعتداءات على الزوار في أجمير ووقعت أحداث ضد المسلمين في سوق صدر. استغل عبد الله بخاري هذه الأحداث في خطبه، وسرعان ما امتلأ الجامع الكبير بالمصلين الذين جاءوا لسماع خطبه بحماس.

'لقد عاد إلى الطريق الصحيح، على الأقل في الظاهر. لكن الله وحده يعرف ما في القلوب.' وبشغف، تابع: 'ثم كيف حُلت مسألة الإمامة هذه؟'

رد البروفيسور: 'ما حدث بعد ذلك كان مفاجئًا. في يوم ما، كان هناك اجتماع حاسم لمجلس الأوقاف برئاسة الوزير المركزي شهنواز خان في 'بيت الأطفال'. فور علم الإمام بالاجتماع، اصطحب أنصاره وتوجه لتعطيل الاجتماع. نشبت فوضى

عارمة. تم اعتقال الإمام ومرافقيه. وفي غضون ذلك، انتشرت في منطقة الجامع الكبير شائعة مفادها أن الإمام أُصيب برصاصة. اندلعت الاحتجاجات في الشوارع بين الحزن والغضب. وقعت اشتباكات مع الشرطة، مما أدى إلى سقوط قتلى، وظل الحظر مفروضًا لأيام. بعد حوالي أسبوعين، تم إطلاق سراح الإمام، وتم تعيين نائب وزير السكك الحديدية شفيع قريشي كوسيط، وبذلك تم حل قضية الإمامة'.

"أوه! لم يكن لي خبر بهذه الوقائع،" قال بنبرة مليئة بالتأمل والدهشة. "لكن يتعين علينا الاعتراف بأمر هام: عبد الله بخاري لم يلجأ إلى مداهنة الحكومة بل اعتمد على قوة الشعب. لقد أدرك من أين تأتي قوته الحقيقية، وها هو اليوم يقف شامخًا، قادرًا على تحدي حكومة مستقرة دون خوف أو هوادة".

وأضاف بلهجة تحمل بعض القلق: "أتفق معك في أنه الآن أقوى مما كان عليه من قبل. لكن الخوف الذي يساورني هو أن يجد نفسه يومًا ما في شباك مكائد الكونغريس، التي كانت قادرة في الماضي على ترويض الأسود العاتية وتحويلها إلى خراف هادئة".

لقد تحققت مخاوف البروفيسور، وبأسى عميق، في انتخابات عام ١٩٨٠، حينما أذعن عبد الله بخاري لإغراءات الكونغرس وأعلن دعمه لهم. يُروى أنه منذ ذلك الحين، بقي في كلامه صدى القوة والرنين، لكنه خلت كلماته من الثقل الأخلاقي والعمق الروحاني. على الصعيد السياسي، استمرت فاعليته حتى عهد في بي سينغ، لكن السحر والهيبة التي أحاطت بالإمام شاهجهاني، والتي نسجت أساطيرها في انتخابات عام ١٩٧٧، لم تعد لها تلك البريق أو القوة في أيامه اللاحقة.

في ذلك الاقتراع الحاسم، منيت السيدة غاندي بخسارة مدوية، ولفظت حالة الطوارئ أنفاسها الأخيرة، وبدأت تتشكل في أرجاء البلاد ملامح عهد سياسي جديد. بثقة تحملها الرياح، أعلنت الحكومة الجديدة عن تأسيس لجنة شاه للتحقيق، مكلفة بتقصي الانتهاكات التي وقعت في ظلال الطوارئ وسعيها لإيجاد سبل التعويض. كانت لجان التحقيق في الماضي تُشكل كستار دخاني للتسويف أو

لطمس الحقائق في غبار النسيان. لكن هذه المرة، جاءت لجنة شاه بخطاب جديد، داعية المتضررين للمطالبة بحقوقهم المفقودة. رأى البعض في نهاية الطوارئ وصعود حزب جانتا فجر حرية جديدة. ولملم البعض آمالهم، متطلعين إلى أن يُكرم من عانى في زمن الطوارئ كما كُرم مجاهدو الاستقلال عام ١٩٤٧، بمنح وامتيازات جديدة. وبذلك، كانت الأنظار معلقة بترقب على الحكومة الجديدة، التي بدا أنها تعد بإجراءات ثورية. وفي هذا المشهد السياسي المتحول، بدت دعوة لجنة شاه للأفراد لتقديم تقديرات خسائرهم إلى مكتب اللجنة في أقرب وقت كبارقة أمل في سماء مظلمة.

بدأ أخي الأكبر بتقدير الخسائر. ففي ظل الإغلاق الحكومي، تحولت مكتبتنا إلى ركام، حتى الجدران الخارجية للمبنى لم تسلم من الدمار. أمامنا الآن مهمة إعادة بناء وتنظيم ما كان يومًا عملاً مزدهرًا من الأساس. كان في خاطرنا أمل، ربما تمنحنا لجنة شاه العدالة التي ننشدها. عندما علم والدي بتأسيس اللجنة وأهدافها، استمع إلى التفاصيل بتعجب، تأمل الاستمارة، ثم ابتسم بهدوء قائلاً: 'هذه الأمور لا تجدي نفعًا.' وعندما أخبرناه بأن الحكومة تفكر في منح معاش شهري لأسرى الطوارئ مثل ما فعلت مع مجاهدي الاستقلال، تساءل بنبرة شك: 'ما الذي يمكن أن نتوقعه من هذه الحرية الثانية؟ نحن، المسلمون، لم نجنِ بعد ثمار الحرية الأولى.' 'من العبث توقع العدالة منهم،' أضاف. 'لكن دعنا نحمد الله على الخلاص من قسوة أيام الطوارئ، هذه هي نعمتها الحقيقية. هذه الحكومة المتنوعة في أفكارها، لنرى كم ستصمد.' وبعد تردد وتأمل، أعطى والدي الإذن لأخي الأكبر بتقديم الأوراق للجنة شاه لطلب التعويض، لكن بتحفظ جعل آمالنا تتلاشى. قال ذات يوم: 'اللجان تشكل عادةً لأغراض سياسية. كيف يمكنها تعويض الخسائر؟ قد يُسجل الدمار المادي ويُقدر، لكن الجروح التي أصابت القلوب والأرواح، من يستطيع تعويضها؟ وهناك جروح نفسية قد تستغرق سنوات للشفاء، أو ربما لا تلتئم أبدًا.' حتى في تلك اللحظة، كان في كلمات والدي صدى

الحقيقة، كان واضحًا أن شيئًا ما قد حدث لنا، أن في دواخلنا شيئًا قد تأذى، لكن لم ندرك حقيقة ذلك إلا بعد سنوات طويلة.

كانت تلك الأيام حين كانت البلاد تبتهج بالذكرى الخمسين للاستقلال. وجدت نفسي في حي من الأحياء الإسلامية الكثيفة في قديم دلهي، مشاركًا في مناسبة اجتماعية. كان الاحتفال جزءًا من وليمة، لكنه جمع بعض الشباب النشطاء الذين يكنون لي الود والاحترام. اقترب مني شاب، يبدو عمره في الثلاثينات، وقال: 'أعتبر نفسي من أبناء قديم دلهي، اسمي ناصر. أعيش الآن في مايابوري، لكن طفولتي قضيتها في أزقة بوابة تركمان.' عند ذكر بوابة تركمان، شعرت بالدهشة. سألته: 'أين كنت أثناء الطوارئ؟'

أجاب: 'كنت في العاشرة من عمري تقريبًا. لا يمكنني أن أنسى ما رأيته. حتى اليوم، كلما رأيت جرافة، ينتابني الفزع. أشعر وكأنها ستمزق وجودي بمخالبها الفولاذية. أعلم أن هذه الجرافات لا علاقة لها بجرافات الطوارئ، لكن هناك شيء في أعماقي يقنعني بأن الجرافات معادية للمسلمين، وأنها صُممت خصيصًا للإضرار بهم. مهما حاولت التحليل بعقلانية، يظل خوفي من الجرافات ملازمًا لي'.

رأيت عينيه تمتلئان بالدموع وهو يتحدث، توقف للحظة ثم تابع: 'كيف أصف لك؟ أخذت تلك الجرافات حياة ابن خالتي. هم قتلة، قتلة بكل ما تحمله الكلمة من معنى'.

لبرهة، وقفت مشدوهًا، غير قادر على فهم كيف يمكن لشاب مثقف ومبتسم، مهندس برمجيات بالمهنة، أن ينزلق فجأة إلى حالة من التشنج. ثم تبادر إلى ذهني أن هذه هي سمة مرضى الاكتئاب، حيث تأخذهم جروحهم الدفينة إلى ماضٍ يظل مختبئًا خلف الوجوه المبتسمة. حاولت جاهدًا تحويل مسار الحوار لأخرجه من هذا الوضع، لكنه ظل متمسكًا بحديثه. بدأ يتحدث: 'لعلك لا تدرك ما يعتمل في قلوبنا، نحن أهل بوابة تركمان الذين نشرنا الآن في مايابوري، نندنغري، ترلوك بوري وأطراف المدينة الأخرى. ما زلنا لم نتخلص من ذكريات بوابة تركمان المؤلمة. كيف لنا أن ننسى تلك المشاهد التي ترسخت في أعيننا ولم تغادرنا؟ كل

زيارة لقديم دلهي، حيث تتواجد عائلاتنا، تجدد فينا إحساسًا مضاعفًا بالحرمان. يتساءل أطفالنا عن تلك الأيام، يريدون معرفة كل تفصيل: الشارع الذي عشنا فيه، موقع متجرنا، أعمالنا، جيراننا، ومصائرهم. كأن تفاصيل المعاناة قد حفرت في قلوبهم وعقولهم. نحن متحيرون: هل يجب أن نروي لهم هذه القصص أم لا؟ ولكن كيف يمكن إخفاء الحقيقة؟'ثم تابع الحديث، قائلاً بنبرة محملة بثقل الذكريات: 'لدي قريبة، حائزة على الدكتوراه، موهوبة ونشطة في المجال الاجتماعي، لكنها كانت تتجنب الزواج. أثارت قلق العائلة، وعندما ضغطوا عليها، انفجرت باكية. كان الجميع يظنون أن قصة حب فاشلة وراء حزنها، لكن السبب الذي كشفت عنه لرفضها الزواج كان صادمًا. تبين أن جرح بوابة تركمان لا زال ينزف في قلبها. تقول: 'كلما فكرت في الزواج والأطفال، أتذكر صديقتي ندى. كانت في التاسعة حين تعرضت لاعتداء جنسي من قبل الشرطة أثناء حملة التعقيم وفقدت حياتها. كلما تبادر إلى ذهني فكرة الزواج، أشعر أن الله سيهبني طفلة جميلة مثلها، كانت نابضة بالحياة، تحبني حبًا عميقًا. لكن لا، لا أستطيع تحمل فكرة أن تعيش في عالم مليء بالخطر، حيث الوحوش تتربص في كل زاوية، يرتعد فؤادي خوفًا.' وكانت تغرق في بحر من هذه الأفكار، وبينما يسرد ناصر قصتها، برزت الدموع في عينيه وأضاف: 'لا يدرك الناس ما نخفيه في قلوبنا، ما هي العواصف التي تعصف بدواخلنا. نمارس حياتنا اليومية بابتسامة، لكنهم لا يعلمون مدى عمق الجراح التي نخبئها.'

اليوم، وأنا أرسم هذه الكلمات، تعود إلى ذاكرتي وجوه مسنين من خالة بار، تلك الوجوه التي لا تزال تحمل في طياتها أرواحًا متعبة، لا تجد الراحة حتى هذه اللحظة. أستعيد في ذهني تقريرًا نُشر في 'Indian Express' لشريف كونين، كان يضم مقابلات مع ضحايا الطوارئ بعد مرور أربعين عامًا. شبيرن، الذي تخطى السبعين من عمره، شارك حكايته بكلمات تحمل وطأة الألم والذكرى:

> في يوم العشرين من أكتوبر، أرسلت شبيران ابنها نظام الدين، الشاب الثماني عشري، إلى متجر البقالة في مالهوبارا لشراء السكر. وعندما تأخر

عودته، أرسلت ابنها الأصغر سلام الدين للبحث عنه. ولم يمض وقت طويل حتى عاد سلام الدين صارخًا: 'لقد قتلوا أخي، يا أمي.'
كانت شبيران، المرأة السبعينية، تجلس منحنيةً على أرضية منزلها. 'ركضت نحو الشارع ووجدت نظام الدين مسجى هناك. وعندما حملته، رأيت الدم يتدفق من صدره. فتح عينيه ولم ينطق بكلمة. سألته، لماذا تنام يا بني، هيا نعود إلى البيت. ولكنه أمسك يدي وأدار وجهه بعيدًا عني. ثم جاءت الشرطة وأخذت جسده. صرخت وبكيت، لكن لم يسمعني أحد،' تروي شبيران والدموع تغمر وجهها. بعد ساعتين، عاد زوجها، سائق الركشة، إلى المنزل ليدخل في حالة من الصدمة استمرت لأسابيع. 'عندما رأى دم ابننا على الأرض، بدأ يغسله ولم يتوقف لساعات. ثم ذهب إلى المقبرة وكفن ابننا بنفسه. لم يتحدث إلينا لأسابيع،' تقول. توفي زوجها بعد سبع سنوات في حادث سير. 'تسألني عن ذكرياتي عن ابني؟ دعني أخبرك، كل يوم أفكر فيه، ويسألني دومًا، 'لماذا قتلوني يا أمي؟' هل لأحد جواب على هذا؟

منذ أربعين عامًا، في يوم العشرين من أكتوبر، خلفت الرصاصتان التي أصابت عمر، العامل في مصنع المعادن، عاهة جزئية في كتفه الأيسر. يروي بصوت يحمل وقع السنين: 'كنت عائدًا إلى البيت وبيدي بعض الحليب عندما فاجأتني رصاصات القوات البارامیلیتارية. سقطت مغشيًا عليّ،' يقول. 'ألقوا بنا في المستشفى كأننا مجرد حيوانات. قال الأطباء إن عليهم بتر يدي اليسرى. فرفضت وأصررت على الذهاب إلى مستشفى في ميرات بدلًا من ذلك.' يستطرد عمر، مشيرًا إلى أنه خضع لأربع عمليات جراحية.

عند الثلاثة والتسعين من عمره، يجتاح خواجة عبد المجيب نوبات متكررة من النسيان، ولكنه عندما يذكر الثامن عشر من أكتوبر، يوم مقتل ابنه محمد سليم في خالة بار، يتحدث عنه بكل تفاصيله كما لو أنه حدث بالأمس.

يتصدر اسم سليم قائمة الخمسة وعشرين شهيدًا في شاهد تشوك. كان سليم، الابن الأصغر لمجيب، من بين المحتجين الذين احتشدوا في الساحة. يروي مجيب أنه كان يعمل في محطة الحافلات عندما اعتقلته الشرطة لإجراء عملية التعقيم... .

يقول مجيب إنه لم يعلم بموت ابنه حتى مر نهار كامل. 'كنت أظن أنه على قيد الحياة في مكان ما. لم أدرك أنه توفي حتى زرت المقبرة.' كان حفار القبور قد قام بتمزيق أجزاء من ملابس الموتى قبل دفنهم ليتمكن الأهالي من التعرف على مكان دفن أحبائهم. 'وهناك وجدت قميص ابني الممزق'.

في الشهر الثامن من حملها، فقدت حسينة زوجها محمد صديق، الذي كان يبلغ من العمر ثلاثين عامًا، عندما أطلقت الشرطة الباراميليتارية النار عليه وهو في طريقه إلى المصنع الذي يعمل به. 'عندما أحضروا جثته إلى المنزل، رأيت ثقبًا في وجهه. دخلت الرصاصة من فكه وخرجت من عنقه،' تتذكر بألم.

لسنوات بعد فقدان زوجها، صنعت حسينة الأسرة وخاطت الملابس مقابل سبع روبيات لكل سرير. 'جلست تحت الشمس الحارقة أصنع هذه الأسرة، وذلك لرعاية أطفالي الثلاثة. اضطر ابني لترك المدرسة والعمل من أجل توفير نفقات زواج أختيه'.

ابنها شاهد، الذي يبلغ من العمر ٤٤ عامًا الآن، يعمل نجارًا في مظفرنجار. تقول حسينة بصوت يحمل آلام السنين: 'أخذت الحكومة من ابني تعليمه. أتمنى أن يوفروا له عملًا يمكّنه من تعليم أطفاله الثلاثة'.

لم تتحقق الأماني التي زرعتها لجنة شاه في قلوب الناس لتحقيق العدالة. فقبل أن تتقدم اللجنة بخطواتها الحاسمة، تهاوت حكومة حزب جانتا. يُقال أن جاي براكاش نارايان كان يدرك أن الأشخاص الذين اعتمد عليهم في معركة العدالة لم يكونوا على قدر المسؤولية. مورارجي ديساي، الذي نشأ في ثقافة الكونغرس، كان يسعى لهدف واحد: رئاسة الوزراء، هدفٌ كاد أن يتحقق مرتين. في

المرة الأولى، وقف لال بهادور شاستري في طريقه، وفي المرة الثانية، عجز عن مجابهة الدهاء السياسي لإنديرا غاندي. كان جاي براكاش نارايان مثقلًا بالقلق تجاه هذا الوضع. وفي ظل تدهور صحته، عبر في مستشفى جاسلوك بمومباي، حيث كان يُعالج، عن مشاعره قائلًا: 'لو كنت بصحة جيدة، لأثرت قلقهم ومضايقتهم'.

كان جاي براكاش نارايان، بعقليته الواضحة وقلبه النقي وأفقه الواسع، يواجه مأزقًا غير مقصود. في محاولته لإزاحة إنديرا غاندي، أتاح بطريق الخطأ لحزب جان سانغ، وهو جزء من حركة راشتريا سيواك سانغ، أن يكون له دور في حركته المقاومة، مما فتح المجال أمام حركة طائفية هامشية لتدخل الساحة الوطنية. خلال الطوارئ، حاولت راشتريا سيواك سانغ التقارب مع السيدة غاندي، حيث أرسل بالا صاحب ديوراس رسائل تثني على بعض برامج الكونغرس وتشير إلى رغبة في التوافق، بينما كان أتل بهاري فاجباي، أحد قادة الحركة، يقضي معظم أوقات الطوارئ خارج السجن. ولكن ماذا كان بمقدور جاي براكاش أن يفعل؟ كانت صحته تتدهور، ونمط حياته الزاهد لم يسمح له بأخذ زمام المبادرة بنفسه.

من بطن أزمة الطوارئ، برزت تجربة محفزة في علاقات الهندوس والمسلمين. بالنسبة للعديد من الهندوس، وخاصةً أعضاء حركة راشتريا سيواك سانغ، كانت التجربة مع أعضاء جماعة الإسلامي بمثابة فتح للأعين. تبددت العديد من سوء الفهم حول الإسلام والمسلمين، ونمت بذور الاحترام والمحبة المتبادلة. بعضهم، على المستوى الشخصي، تحولوا إلى مؤمنين بمبادئ جماعة الإسلامي. كان هذا تطورًا مفرحًا. في البداية، كان هناك حماس شديد داخل جماعة الإسلامي لتعزيز هذه العلاقة واستخدام التجربة في دعوة غير المسلمين، لكن هذا الحماس خف تدريجيًا وبهذا فقدت فرصة نادرة وهامة.

لو أن لجنة شاه قد ذوت دون أن تحقق تقدمًا ملحوظًا، فذلك لأن أذهان مؤسسيها لم تكن واضحة حول أهدافها. منذ البدء، أعلن أن اللجنة أُقيمت

للتحقيق في الانتهاكات التي وقعت خلال الطوارئ. كيف لمن يصف إبادة المسلمين المنظمة بأنها مجرد 'انتهاك' أن يُرجى منه العدل؟ نُشر تقرير اللجنة المكون من ثلاثة أجزاء بشكل غير رسمي، وسعت الحكومة الجديدة لطي صفحته كليًا. أحد هذه الأجزاء كان يتناول مأساة تركمان غيت. وكما كانت الحال مع التقارير السابقة، فإن هذا التقرير أيضًا يسلط الضوء على الجرائم الرسمية ضد المسلمين، لكن لا أحد هناك ليعطي هؤلاء المظلومين حقهم، البعض منهم يحتضر، وآخرون رحلوا وهم يحلمون بالعدالة. ولم تزل مواقف الشرطة والقمع الحكومي كما هي. يشعر المسلمون، بطريقة لا شعورية، بأن أحداث تركمان غيت لا تزال تحيط بهم في كل مكان. الأمان يكمن فقط عندما تمر رصاصات الشرطة بجانبك دون أن تلامسك.

١٥

مؤتمر الطفولة العظيم

بعد قيام حكومة جانتا، لم يطرأ تغيير جوهري على الساحة السياسية، ولكن ثمة إحساس بالانفراج ساد بعد زوال القيود النفسية. عادت الحياة العامة لتنبض من جديد بالنقاشات والمؤتمرات. خامرني التفكير في تنظيم مؤتمر عام. في تلك الأيام، كانت المجموعة المدرسية التي شكلناها لمواجهة الطوارئ قد اكتملت دورتها، فتشكلت مجموعة أخرى من الأصدقاء القدامى والجدد لإطلاق حركة أدبية إسلامية على المستوى الوطني. بجهود يسيرة، تم تأسيس تنظيم جديد. لم يكن المؤتمر يتطلب تجهيزات ضخمة؛ كل ما احتجنا إليه هو لافتة كبرى تُعلن عن عظمة المؤتمر وكلمات ترسم طابعه الوطني. الأغطية البيضاء للطاولات كانت متاحة في المنزل. وتم ترتيب ميكروفون ومصور لتوثيق الحدث. اختير ملعب المدرسة المسلمة كموقع للمؤتمر، نظرًا لأهميته الجغرافية وربما لأن بعضنا كان قد تخرج من هذه المدرسة قبل عام ونصف.كانت الجلسة مقررة بعد صلاة المغرب. مع بزوغ الفجر، أرسلنا شابين في ركشة مزودة بمكبرات صوت ليعلنا عن الحدث في أرجاء المدينة. أحضر أحدهم قناطير لزينة المسرح، لضمان عدم نقصان شيء. وهكذا، في غمضة عين، اكتملت خطة المؤتمر الوطني للأدب الإسلامي. طوال النهار، بينما كنت أغوص في التفاصيل التنظيمية، ظل ذهني مشغولاً بما يجب إدراجه في خطاب الترحيب. استنادًا إلى خطب الترحيب التي قرأتها لكبار الشخصيات سابقًا، كنت أعي أن عليّ تصوير النقص كمكاسب، مُعلنًا أن الثورات العظيمة في التاريخ تمت بأيدي أشخاص بسطاء مثلنا. كنت أتساءل أحيانًا: أليس هذا مجرد تقليد؟ ما الذي يميز جلستنا؟ حتى الأصدقاء

الذين ذهبوا للإعلان في الركشة كانوا يتساءلون في الصباح عمن يجب ذكره من المتحدثين المعروفين لجذب الجمهور، الذي اعتاد التجمع حول أسماء الشخصيات البارزة كالشعراء المتميزين أو القادة الاستثنائيين.

لدى وصولنا إلى موقع الجلسة، وجدناه غارقًا في بساطته. لم تهتم إدارة المدرسة بالتجهيزات الأساسية، لكننا بسرعة استعدنا زمام الأمور. تزينت المنصة، واصطفت الكراسي على العشب للجمهور. وبدأ الحضور يتدفق في الوقت المحدد. تم اختيار سيد شاه أسدالله المرحوم، ذو المظهر الشرعي البهي، لرئاسة الجلسة. تولى الأخ إعجاز، المعروف بفصاحته والذي أصبح لاحقًا عميدًا للعلوم الاجتماعية في جامعة ملية إسلامية، مسؤولية الإدارة. بعد أيام، تم نشر تقارير موسعة عن الجلسة في الصحف، حيث تم نشر صور أيضًا. ومما لفت النظر أن كل متحدث في الجلسة وُصف بأنه إما مفكر أو أديب أو على الأقل مفكر إسلامي. بالإضافة إلى الصحف، أُرسل تقرير مفصل عن الجلسة إلى القادة المسلمين والمنظمات. 'سنگم' وصفتني في أحد تقاريرها بأنني أديب أردو مشهور، وبشكل مفاجئ، تلقيت دعوة من الشيخ أبو الحسن علي الندوي، الذي تأثر بالتقرير، وكان ينظم برنامجًا حول الأدب الإسلامي في ندوة العلماء، مما أدى إلى بزوغ حركة أدبية كبيرة. كان الناس يتعجبون كيف أصبحت فجأة أديبًا أردو مشهورًا. على الرغم من نشر مقالاتي في الصحف والمجلات، لم تكن هذه المقالات القليلة كافية لتبرير اللقب 'أديب مشهور.'كنت قد قرأت يومًا عن مولانا أبو الكلام آزاد في طفولته، حيث كان يقف على صندوق ويقنع أقرانه بأنه يخطب كأحد كبار علماء دلهي أمام جمع غفير. وعندما يعترض الأطفال بأن لا أحد هناك سوى بضعة منهم، كان يرد بأن الأمر مجرد جزء من اللعب. كما تعلمت أن الألقاب التي يتقلدها الناس لا تُمنح لهم، بل يجب أن يختاروها بأنفسهم. فعل ذلك مولانا أبو الكلام آزاد حينما اختار لنفسه لقب 'إمام الهند'، وبدأ الناس يعرفونه بهذا اللقب. الآن، بعد تبني صيغة 'الأديب المشهور'، وجدت أن السهم قد أصاب الهدف بدقة. لم أتخيل أبدًا أن الانتقال من كوني طالبًا إلى أديب ومفكر مشهور يمكن أن يكون بهذه السرعة.

الآن، عندما أرى شخصًا يحمل ألقابًا مثل 'بير طريقت' أو 'قاضي الشريعة' أو 'فقيه الأمة' أو 'أمير الشريعة'، لا أشعر بالإعجاب بل أفهم أنهم، كما فعلت، اختاروا هذه الألقاب في شغف طفولتهم.

لما انتشرت شهرتي كأديب ومفكر في أنحاء المدينة، زارني ذات يوم مسؤولان من اتحاد الطلبة، مقدمين دعوة للمشاركة في جلستهم الأسبوعية التي تشهد دروسًا في القرآن والسنة ومحاضرات حول غلبة الدين. حان اليوم الذي كان عليّ فيه إلقاء كلمتي. في تلك الفترة، كانت الثورة الإيرانية تملأ الآفاق، مخلفةً وراءها تيارًا من الحماس والنقاشات، لا سيما حول الخلافات بين السنة والشيعة. كان كثيرون يعيشون في حيرة. فكرت في جعل الثورة الإيرانية محور حديثي. لا تزال صورة عودة الخميني إلى طهران واستقباله الحماسي عالقة في ذهني، حيث يبدو أن ملايين الناس مستعدون للتضحية بكل شيء من أجل الثورة. ومع ذلك، كان التحدي يكمن في أن الدعاية المعادية والمعارضة للثورة كانت عارمة للغاية بحيث أصبح من الصعب التمييز بين الحقائق والخيال.كانت الصحف الأردية في حالة من الجهل لدرجة أنها كانت تضع اسم الخميني تحت صورة بني صدر. تارة تأتي أخبار عن ظلم الثوار، وتارة أخرى تنشأ نقاشات عقائدية بين السنة والشيعة، ما يجعل من الصعب على القارئ تحديد الحقيقة. وصلت بعض المنشورات من السفارة الإيرانية إلى المكتبة، لكنها كانت تحمل طابع الدعاية الأحادية. في هذه الأثناء، علمت أن الشيخ أبو المكارم من جامعة سلفية قد تلقى بعض الوثائق من السفارة الإيرانية لتوزيعها على العامة، من بينها نص خطاب الخميني وكتيبات تمجد قائد الثورة، بالإضافة إلى مواد دعائية أخرى. اخترت بعض الجمل من الخطاب وأعددت حديثًا موجزًا في سياق وحدة الأمة. في الجلسة الأسبوعية، التي كان يحضرها عادةً ثلاثون إلى خمسة وثلاثون شابًا، وأحيانًا يحضرها شخص من كبار السن بالصدفة. كان خطابي موجهًا للطلاب، لكن في ذلك اليوم، كان هناك رجل في منتصف العمر يجلس بين الجمهور. بعد انتهائي من الحديث، عبر عن

إعجابه بحماس غير عادي، قائلًا: 'والله، لقد تحدثت بالحق، استخدمت جرأة كبيرة في كلماتك.'

في تلك الجلسات، كانت الخطابات المقدمة تشبه تمارين الخطابة. بالنسبة لي، كان من الصعب التمييز إذا ما كان إعجابهم بكلماتي حقيقيًا أو مجرد نوع من الانتقاد. في خطابي، تطرقت إلى مخاوف العلماء، مؤكدًا أن الثورة الإيرانية فتحت أفقًا جديدًا من الإمكانيات. إذا كنا ندعم الثورة الفرنسية وإعلان الاستقلال الأمريكي لما يحملانه من احترام للإنسانية وحرية الفكر، فلماذا لا تستحق الثورة الإيرانية، التي عُرفت كرائدة لوحدة الأمة وبمثابة إعلان حرب للمستضعفين ضد المستكبرين، دعمنا وتمنياتنا الطيبة؟ كل مسعى للتحرر من نظام الاستبداد يستحق دعمنا. نحن نقدر إعلان الاستقلال الأمريكي لأنه يكفل للفرد حياته وحريته في التفكير وكل مسرات الحياة. لقد أفرزت الثورة الأمريكية الثورة الفرنسية، والواقع هو أن كل صوت يرتفع ضد أي نظام قمعي يجب أن يُنظر إليه كصدى لقول 'إن الحكم إلا لله.'

كالخطابات الأسبوعية المعتادة، كان يُفترض أن يظل خطابي محصورًا ضمن جدران المسجد. لكن ما حدث كان مختلفًا؛ فقد بدأ ذلك الرجل في منتصف العمر بنشر دعاية حول خطابي في المدينة. زار المكتبة يومًا، وأبدى إعجابًا شديدًا بخطابي حتى شعرت بالحرج من ثنائه. في أحد الأيام، وأنا عائد من صلاة المغرب، صادفته. استقبلني بحماسة بالغة، قائلًا: 'ما زال صدى كلماتك يرن في أذني، لقد قلت الحق، نعم الحق. يقول الإمام علي رضي الله عنه: لقد قلت الحق وبقيت وحيدًا'. كان أحد الجيران يستمع إلينا. وبعد رحيل الرجل، تحدث إلي بقلق، قائلًا: 'ما الخطب؟ في أية دوائر تجول؟ أتعلم من هو هذا الرجل؟ إنه شيعي متطرف. هؤلاء الناس أصبحوا نشطين جدًا هذه الأيام، الثورة الإيرانية أشعلت حماسهم.'

عندما تعمق الحديث وأدرك جاري حقيقة موقفي تجاه الثورة الإيرانية، انتابته حالة من القلق الشديد. أصر على أن يأخذني إلى مجلسه، حيث قدم سردًا مفصلًا عن أفعال الشيعة التي اعتبرها سيئة، عدائهم للصحابة، ومؤامراتهم

التاريخية ضد الإسلام، مما أثار في نفسي الرعب. لم يتزعزع ثقتي بنفسي فحسب، بل بدأت أخشى أن ثقتي الكبيرة في عقلي ومطالعتي قد تجرني إلى مآلٍ سيء. كانت تلك الليلة قاسية عليّ، حيث تتنازعني مشاعر متباينة بين جاذبية شعار 'لا شيعي ولا سني' وشعوري بأنني أصبحت فريسة لمؤامرات السبائية، وأجد نفسي في أسفل دركات جهنم. عند الوداع، حذرني قائلًا إن من يختار طريقًا مغايرًا للأغلبية يُرفض من قبل قومه، وأن الأشخاص ذوي المواهب العظيمة قد يصبحون منبوذين. يجب على الإنسان ألا ينطق بما يتعارض مع مشاعر وأحاسيس الأغلبية.

كانت الثورة الإيرانية قد مضى عليها نحو خمس أو ست سنوات. في ذلك اليوم، كنت بحضور معلمي الموقر، الأستاذ جعفر ذكي. كان جعفر ذكي، رغم كونه أستاذًا في اللغة الإنجليزية، يتمتع بفهم عميق للتاريخ الإسلامي والآثار. عارف بأسرار الشرق والغرب، ومتبصر في جوهر الدين، يظل ناظره معلقًا بالسماوات، مهما تبدلت الأحوال من يسر أو عسر، وكأنه دائمًا محاط بهالة من النور. على الرغم من انتمائه لطائفة أهل التشيع، إلا أنه كان بعيدًا كل البعد عن أي شكل من أشكال التعصب الطائفي في تفكيره وسلوكه. في أحد الأيام، انتقل الحديث إلى الثورة الإيرانية وتطرق إلى المفكر الفرنسي البارز ميشال فوكو، الذي كان قد توفي قبل بضعة أشهر. كان النقاش لا يزال في بداياته عندما انضم إلينا أستاذ آخر، الأستاذ رفيق أحمد نقوي.

كطالب في ميادين الأدب، كانت كتابات فوكو جزءًا من عالمي الفكري، لكنني لم أتخيل يومًا أن يكون فوكو واحدًا من الأصوات المدوية المؤيدة للثورة الإيرانية. وعندما تفجرت دهشتي بهذا الكشف، ابتسم نقوي صاحب بابتسامته المحفورة بخفة الدعابة وقال: "أتعجب؟ ألا تعرف فوكو حق المعرفة؟ لقد كان روحًا شيعية بيننا، ألم تر صورته؟ يظهر فيها بكل ملامح الشيعي، وكأنما الغموض والشؤم ينسكبان من ثنايا وجهه."

"آه، يا أخينقوي، تمهل!" هكذا نادى جعفر ذكي صديقه المقرب بنبرة مرحة، محاولاً أن يضع له حدودًا في الحديث، ربما لأنه اعتقد أن تلك العفوية قد لا تكون

مناسبة في حضوري. لكن كيف لنقوي أن يقف عند هذا الحد؟ الابتسامة كانت رفيقة دائمة لمحياه، مزيجًا من تكوين وجهه وذكاء كلماته. وأردف ببريق في عينيه: "في أيامي بلكنؤ، ظن صديقي السني طويلاً أنني شيعي، مخدوعًا بلقب 'نقوي' في اسمي. ولما اكتشف حقيقتي السنية، ضحك ضحكة رنانة وقال، 'ألا تخدعنا الأسماء وحتى الوجوه!' ثم انطلقت ضحكته مجلجلة واستطرد قائلاً: 'أهمل المثقفون الغربيون فوكو كأنه غريب عن ديارهم، لكن جلال عمله سيظل يتردد صداه عبر الأزمان. وإلا، من سيردد اسمه كداعم للثورة الإيرانية؟ يكاد يُنسى ذكر تلك المقالات التي كتبها دعمًا للثورة.'

بدافع الفضول لفهم كيف اشتعلت جذوة اهتمام فوكو بالثورة الإيرانية، وما الذي أيقظها، توجهت بسؤالي إلى الأستاذ الفاضل.

فرد قائلاً بصوت يحمل وقار الفكر: "يا راشد، الذهن المفكر لا يحصر العالم في خانات الشرق والغرب. بالنسبة لطالب الحقيقة، يكفي أن يصل إلى أذنيه صدى الكلمة الصادقة. لا يهمه مصدر الصوت أو منطقه. سافر فوكو إلى إيران مرتين ليشهد بنفسه الثورة، واستمر في إرسال تحليلاته حول الحقائق التي رآها إلى الصحف الفرنسية والإيطالية. في المرة الأولى التي حط فيها رحاله هناك، كانت مأساة الجمعة السوداء قد وقعت للتو، حيث سقط المئات شهداء تحت رصاص الشرطة في مظاهرة جمعة. ومع ذلك، استمرت المظاهرات بنفس العزيمة. أدهش فوكو هذا الشجاعة الفائقة في قلوب الناس رغم القتل الجماعي. لم يرى في حياته مجموعة مؤمنة بهذا القدر من الإيمان الذي لم يلمسه الخوف. من هم هؤلاء؟ وما هي تلك الفكرة التي ألهمت شعبًا بأكمله إرادة جماعية نحو التغيير؟ يبدو أن هناك شيئًا فريدًا يميز الثورة الإيرانية عن سائر ثورات العالم."

كان هذا الوضع واضحًا للمفكرين والصحافيين الغربيين الآخرين أيضًا.

أجاب بنبرة تعكس عمق التفكير: "كان فوكو رجلًا ذا فكر متفتح منذ البداية. تمكن من فهم الإسلام في سياقه الخاص، لا كعدو للغرب أو معارض للقيم العصرية. ما جذبه بشكل أساسي هو الجانب الروحاني للثورة، حيث لاحظ أن

وراء هذا التغيير السياسي دوافع دينية، وأن الشعب يعتبر الثورة واجبًا دينيًا. في حين كانت الثورة الفرنسية في الغرب تفتقر إلى الروحانية، متشبعة بعلمانية محددة، رأى فوكو في الثورة الإيرانية بريق الروحانية والدين. لأنها انبثقت من أعماق الشعب ومن ثقافتهم وحضارتهم، لم يروا حاجة لتحديث يُفرض من الخارج كما فعل الشاه. وصف فوكو الثورة بأنها الأحدث والأكثر جنونًا، وهي التي وضعت لأول مرة تحديًا لنمط الحياة الغربي. شدد فوكو على أن من يظنون أن الدين يقف ضد الثورة أو يختطفها يجب أن يعون أن الدين كان الدافع الرئيسي في الثورة الإيرانية. كما أكد أنه لم ير الدين في إيران كمجرد مجموعة عقائد، بل كواقع حي يتجلى في الحياة الاجتماعية اليومية".

كيف استطاع فوكو أن ينغمس في أعماق الثورة بهذا العمق، حتى أصبح مدافعًا شغوفًا عنها؟

عندما طرحت هذا السؤال، ظهرت ابتسامة عميقة المعنى على وجه الأستاذ الجليل. قال بنبرة تحمل طيات من الحكمة: "ألا تذكرون كتابات الشريعتي؟ كم هي مفعمة بالنور. للعديد من الغربيين، تبدو كتاباته كومضة مفاجئة، بريقاً يخطف الأبصار، وإشراقاً يأسر الفكر. هذا النظر الشرقي يسحرهم." وهو يتحدث، توقف للحظة كأنما اكتنفته فكرة فجائية. ثم تابع: "في الفكر الشيعي، هناك نظرية تفيد بأن الإمام الحسين، كإسماعيل، قد استسلم لمشيئة الله. وعلى أتباعه الانتظار بصبر وتقية لظهور الإمام المهدي. لكن الشيعة الزيدية تقدم تفسيراً آخر لمسار الحسين. يرون أنه قاوم حتى نهايته، وعلى الأتباع أن يسيروا على درب التقية نحو مسار القيام. حاول الشريعتي تسليط الضوء على هذه المناقشات باستخدام مصطلحات الشيعة العلوية والصفوية. وقال إن الجوهر الحقيقي للشيعة لا يكمن في المؤسسات التي نشأت في القرن السابع عشر، بل في تلك الخطب التي ألقاها الإمام علي، حيث دعا أتباعه إلى النهوض دفاعاً عن العدالة".

وجد فوكو جاذبية عميقة في الطريقة التي امتزجت بها نداءات العدالة بالروحانية، حتى صارت بمثابة واجب ديني لمعتنقيها، بل واعتُبرت ضمانًا للنجاة الأخروية. "وأجل، يا راشد!" تأمل الأستاذ متبسمًا، واضعًا كلماته بعناية. "لا يحضرني الآن الموضع الذي قرأته فيه، لكن عندما تزورني سأريك الإشارة. لقد لفت فوكو الانتباه إلى أن الناس يركزون عادةً على وصف ماركس للدين كأفيون الشعوب، متجاهلين السطور التي سبقته. كتب ماركس أن الدين هو روح عالم فقد روحه. أوضح فوكو أنه يمكننا أن ننظر إلى الإسلام الذي شهدناه خلال الثورة عام ١٩٧٨ كروح لعالم بلا روحانية، لا كأفيون".

ثم تحدث نقوي صاحب، الذي كان يستمع بهدوء حتى الآن، معترضًا بخفة: "فأين تبقى الشكوك حول تشيّعه؟"

ابتسم الأستاذ الجليل مجددًا وقال: "يدهشني دومًا وضوح فكر فوكو حول الإسلام. كان يرى في قيام دولة إسلامية والعودة إلى عهد الرسول ﷺ أمرًا محمودًا. ومع ذلك، لم تلقَ كتابات فوكو هذه القدر الكافي من التقدير، لا في الشرق ولا في الغرب".

"في الأرجاء الشرقية، تتردد أصداء كتب مثل 'صورتان متناقضتان' و 'الثورة الإيرانية، الإمام الخميني والشيعة'،" تحدث أستاذ نقوي مجددًا، وكلماته تحمل ثقلًا من التبصر.

"أتقصد كتابات الشيخ أبو الحسن علي الندوي؟" سأل أحدهم.

"بلى، وهناك آخر، منظور نعماني. كتبهم تلقى رواجًا سريعًا"، أردف أستاذ نقوي.

"إنه لأمر مؤسف، تثير الدهشة عقول هؤلاء العلماء الأفاضل. إذا لم يستطيعوا الإشادة بأمة تقاوم الهيمنة الأمريكية، كان يجدر بهم على الأقل الحفاظ على صمتهم".

"ولكن كيف يصمتون، والناس تسأل عن موقفهم من الثورة الإيرانية. لعلهم يخشون أن يفقدوا رونقهم السني إن هم نطقوا بالحق. الحقيقة ليست يسيرة، لم

تكن كذلك أبدًا،" عقّب أستاذ نقوي، وهو ينهض من مقامه. وبهذا انسدل الستار على المجلس.

تأملت بعمق، فربما كان في كلام أستاذ نقوي شيء من الصواب. الحقيقة ليست بالأمر اليسير في النطق، فهو يغلف الكثير بروح الدعابة، حتى تلك الأمور التي قد ترتد بالندم على القائل إن أُعلنت جهرًا. إذا لم يتدخل توفيق الله، تبقى كلمة الحق عالقة في الحلق، تختنق. عبر فوكو عن مشاعره نحو الثورة الإيرانية بصدق وبلا تحفظ، فأصبح غريبًا بين أهله. في المقابل، تفادى علماؤنا السنة البحث العميق وأثاروا بدلاً من ذلك النزاعات الطائفية، لكنهم ظلوا محتفظين بمكانتهم الرفيعة لدى شعبهم. كلما غرقت في التفكير، بدا لي فوكو، رغم كل أخطائه، أكثر روحانية من الكثير من الزعماء الدينيين، بعيدًا عن الخوف من أن يتحول إلى منبوذ.

في صباح اليوم التالي، شاركت والدي الحكاية. تساءلت، هل حقًا يعتبر الكلام الداعم للثورة الإيرانية انحرافًا عن الأغلبية؟ مع تأملي هذا، ابتسم والدي بتفهم عميق وقال: "من أين جاءك الشيخ سميع؟ هذه مجرد ترهات العلماء، أما أنت، فمهمتك هي أن تظل مستخدمًا عقلك، متواصلًا في بحثك عن الحقيقة، وإذا كانت نيتك صادقة، فلن يخيبك الله. بالمناسبة، يوجد مقال مفيد نُشر أمس في الجريدة، ابحث عنه، هو هنا." وأضاف بلهجة تعكس حكمة السنين: "شيء ملفت أن كتابات الخميني تكشف عن تطور مستمر. في 'كشف الأسرار'، من بين مؤلفاته الأولى، كان يترك مساحة للملكية، لكن في 'الحكومة الإسلامية'، الذي كتبه قبل الثورة بقليل، يطرح فكرة ولاية الفقيه ويتبرأ تمامًا من الملكية. مع الزمن، يصبح مفهوم المستضعفين لديه الأساس للثورة. يبدو أنه في تناقض مع العلماء الشيعة التقليديين، كان دائم البحث عن طريق جديد، والأكثر أهمية، بدلاً من انتظار ظهور الإمام الغائب فقط، دعا الخميني كامل الأمة الشيعية إلى التنظيم والتطهير، ليجد الإمام، عند مجيئه، أتباعه في حال أفضل ومنظمة".

بينما كان حديث والدي لا يزال يتردد في أرجاء الغرفة، رحت أبحث في الصحيفة حتى وقعت عيناي على الصفحة الرئيسية. هناك، امتدت أمامي مقالة طويلة تغطي كامل الصفحة. في بعض الفقرات، نقل الكاتب مقتطفات من مقابلة حديثة مع الخميني، حيث تحدث عن رؤيته للدولة الإيرانية كـ"دولة إسلامية شعبية". وعندما طُلب منه توضيح ما إذا كان يعني "جمهورية إسلامية"، أكد بثقة أنه يقصد بالضبط "جمهورية إسلامية"، لا أقل ولا أكثر. وعندما سُئل عن معنى هذه الجمهورية الإسلامية، شرح أنها تعني الجمهورية كما هو معروف، لكنها "إسلامية" لأنها متجذرة في الإسلام، وأن الشعب هو من يحدد شكلها وملامحها.

أغلقت الصحيفة وعدت إلى حيث كان والدي يستمر في حديثه: "قلوب البشر مجهولة إلا لله، وهو وحده العالم بالغيب. للطالب علم يكفي أن يظل مستمرًا في رحلته نحو الحق. الحق مفعم بالعزة، لا يُدرك إلا بطلب صادق، وإذا لم يُحترم حقه، يمكن أن يزول حتى وإن كان ضمن متناول اليد".

كان الشيخ سميع يتقن فن تسليط الضوء على الألغاز الفقهية المعقدة بطريقة تجعل المستمعين في حالة من الذهول. لديه مخزون من القضايا العويصة التي كان يستعرضها ليس لحلها بقدر ما كانت لإثبات علمه الغزير. فمرةً، حكى قصة قافلة تعرضت لهجوم قطاع الطرق، حيث قُتل رجلان، وكانت زوجتاهما معهم. لدى سماع صرخات النساء، ظهر شيخ كريم الطباع، الذي وضع الرؤوس المقطوعة على أكتاف الرجلين ودعا الله، فاستجاب له واندملت الرؤوس بالأجساد. حتى هذه النقطة، كانت القصة تحمل سحر حكايات "حلية الأولياء" و"سير الأولياء"، لكن المفارقة حدثت عندما اندمجت رأس أحد الرجلين مع جسد الآخر، مما ترك الزوجتين في حيرة عن هوية أزواجهن الحقيقيين. كيف يمكن التعرف عليهما؟ وكيف يمكن حل هذه الأحجية؟ لم أفهم القضية آنذاك وما زلت عاجزًا عن فهمها، ولا تزال علامة فارقة في جلال علم الشيخ سميع.وفي مرة أخرى، طرح سؤالاً محيرًا: هل يمكن لله القادر المطلق أن يخلق حجرًا ثقيلاً لا يستطيع هو نفسه رفعه؟ وأحيانًا كان يفتح باب النقاش حول موضوعات مثل الإسراء

والمعراج، أو يتحدث عن تفاصيل المجيء الثاني للمسيح بتمعن وكأنه يراقب هذه الأحداث تتكشف أمامه. تارة يثير الشك حول مغفرة أبو طالب، وتارة أخرى يتحدث عن حياة النبي بعد وفاته كأنه شاهد عيان. وفي تلك الأيام، مع اقتراب القرن الخامس عشر الهجري، كان يضيء على روايات ظهور المهدي بطريقة تملأ القلوب بأمل فجر جديد، مستخدمًا خياله الخصب لتلوين هذه الروايات بألوان الإشراق والتفاؤل.

في أحد الأيام، عند خروجي من المسجد، وجدت الشيخ سميع يعترض طريقي بحديثه المفاجئ. بنبرة حماسية، قال: "هل وصلكم الخبر؟ كنت أحذر من هذا. الحرم المكي محاصر من قبل الأعداء. التفاصيل لا تزال مبهمة، لكن هناك شائعات تشير إلى تورط الإيرانيين." ومن ثم، تابع الشيخ سميع طريقه. عدت إلى المنزل وجهدت لاكتشاف المزيد من المعلومات. الإعلام الغربي، وخاصة الأمريكي، كان يحمّل الإيرانيين المسؤولية، بينما اتهم آية الله الخميني الأمريكيين بالوقوف وراء الحادثة. تصريحات الخميني أثارت موجة من الغضب ضد السفارات الأمريكية في الدول ذات الأغلبية المسلمة. استمرت محاصرة الحرم المكي أربعة عشر يومًا، وتلاها سيل من التكهنات والتحليلات. نشرت صحيفة "الدعوة" في دلهي عددًا خاصًا مع صور للثوار الذين سقطوا خلال العملية العسكرية. تحت هذه الصور، كتبت عبارات تشير إلى أن مصيرهم في الدنيا لا يقل درامية عما ينتظرهم في الآخرة، مما يثير الرهبة في النفوس. لاحقًا، عندما تكشفت الأمور، تبين أن الحادثة لم تكن نتيجة مؤامرة سبائية أو تدخل أمريكي، بل كانت تعبيرًا عن صوت الاحتجاج الصادر من داخل الحركة السلفية في السعودية نفسها.

بينما كنت أنقب في عمق أخبار الشيخ سميع، وجدت نفسي عاجزًا عن حل الأحاجي الفقهية المعقدة والألغاز اللاهوتية التي يطرحها. في محاولة لاستجلاء الأمور، توجهت إلى والدي طلبًا للهداية، خصوصًا فيما يخص حياة المسيح وظهور المهدي. سابقًا، كنت قد استمعت إلى مناقشات عميقة حول النبوة الظلية والبروزية في مقاربات غلام أحمد قادياني، وكنت مطلعًا إلى حد ما على الكتب

المستخدمة في هذه النقاشات، وبالأخص الجزء الرابع من 'تفهيم القرآن'، الذي يضم معظم هذه الروايات.

كنت أمل في أن يسددني والدي بإجابة حاسمة عن هذه الإشكالية، لكن الأمور سارت بشكل مختلف. فبابتسامة تحمل براءة استفساري، توقف قليلًا قبل أن يقول: "هل قرأت 'أرمغان حجاز'؟ أحضرها." وعندما أتيت بالكتاب، فتح بعض صفحاته وأشار إلى قصيدة 'مجلس شورى إبليس'.بينما كنت أتلو هذه الأبيات:

"لنكسر أوهام التكبير الخاوية،
فلا يضيء ليل هذا المفكر الغامق.
هل مات ابن مريم، أم يحيا خلود الحياة؟
وهل صفات الحق منفصلة عن ذاته، أم هي ذاته؟
ألا يكفي المسلم في هذا العصر
أصنام اللاهوت المنحوتة؟"

بدأت تتكشف أمامي لمحات من الحقيقة. ومع مرور الوقت، تبين لي أن قائمة المسائل الكلامية التي استخلصها إقبال من مجلس إبليس كانت من رواسب الماضي، وحتى الشاعر الكبير إقبال نفسه كان ضحية لها. أدركت أن والدي لم يرد أن يمنحني عقيدة جاهزة بخصوص النظرة المستقبلية، بل كان يهدف إلى ترك هذا الباب مفتوحًا أمام تفكيرنا وبحثنا الذاتي، كي نجوب في أعماق الفكر ونستخرج درره بأنفسنا.

لقد طغت حادثة وفاة المجدد المفترض للقرن الجديد داخل الحرم المكي بظلالها القاتمة على تطلعات النهضة الإسلامية. وبينما كانت الذكريات الحزينة لهذا الحدث لا تزال حية، اندلعت فتنة جديدة مع التدخل الروسي في أفغانستان، مضيفةً تحديًا جديدًا للأمة الإسلامية. في فجر اليوم الأول من القرن الخامس عشر الهجري، دخل جهيمان العتيبة وأربعمائة من أتباعه الحرم المكي بهدف محاصرته، آملين أن تكون خطوتهم هذه بداية عهد جديد بقيادة شاه خالد. لكن الأمور انقلبت رأسًا على عقب، وتحولت الآمال إلى مأساة دموية مروعة.

وقفت متأملاً، أتساءل عما يخبئه المستقبل. هل ستزدهر نهضة الصحوة الإسلامية أم ستذوي؟ حاولت النظر عبر نوافذ المستقبل، لكن معرفتي كانت محدودة والأسئلة كانت عميقة. هنا، خالجني إدراك: عالم الله واسع وغني بالإمكانيات، فلم لا نخطو خطوات جريئة لاستكشاف أرجائه؟

١٦

أن تكون ملاً: يا لها من بساطة

اليوم، بدا والدي مضطربًا مجددًا. كان يحمل في يده مصحف جيب، وأصابعه مغروسة في صفحة من منتصفه، كأنه توقف فجأة عن التلاوة. كان هناك شيء يرغب في قوله، لكن الصمت ظل مخيمًا على شفتيه. تتنقل نظراته بين الخلاء ووجهي، في حالة تأمل عميق. ظللت في انتظار، ربما كان سيطلب مني إحضار كتاب أو قراءة بعض الحواشي التفسيرية، لكن لم يحدث شيء.شعرت بأنه، بدلاً من رغبته في الحديث، كان يبحث عن شيء يستمع إليه مني. حشدت شجاعتي لأنطق بكلمة، لكن قبل أن يفلت لساني بحرف، استيقظت. كان ذلك أول صباح لي في علي غره. كان الإرهاق لا يزال يلفني، لكن ذاك الحلم قد طرد النوم من عيني. تداعت إلى ذهني ذكريات الجلسات في المكتبة، وبينما كنت أغرق في زوبعة الأفكار، جلست مستفيقًا. راودني شعور بأن القدر قد حمّلني مهمة ما، كأن عليّ أن أجد حلولًا لأسئلة عديدة تعتمل في ذهني، وكأن الوقت يتسارع، فاقدًا ثوانيه أمامي.

في تلك الأيام، كان صدى القرن الخامس عشر الهجري يملأ الأرجاء. في علي غره، ازدهرت الفعاليات الطلابية الإسلامية بكل ألوانها وحيويتها: مؤتمرات، ندوات، اجتماعات، مسيرات، مسابقات خطابة وكتابة، إضافة إلى أمسيات شعرية وبرامج ثقافية متنوعة، تفتح أبوابًا جديدة للفكر والإبداع.وفي قلب تلك الحركة، كان المقر الوطني يقبع في بدر باغ. هناك، حيث قدمت مقالي للمسابقة، وجدت أن النقاشات المحتدمة تغمر غرفة رئيس الحركة. كان أحد الحاضرين، بحماس متقد، يؤكد أن النموذج المثالي للحركة الإسلامية في عصرنا قد تجسد في

الثورة الإيرانية، في حين كان يعتبر كل ما يجري في السعودية باسم الدعوة الإسلامية ما هو إلا كفر صريح. كان كل طرف يسلح نفسه بحججه ومبرراته، لكن الواضح كان أن الثورة الإيرانية قد فجرت جدلاً حادًا بين الدعاة، مما خلق تناقضات واضحة على الأقل من الناحية النظرية.

في تلك الأيام، كانت الجامعة تعج بعدد كبير من الطلاب الإيرانيين، وكانت المواجهات بينهم أمرًا شائعًا، حتى أن بعض هذه المواجهات كانت تصل إلى حد العنف والدماء. كلما التقيت بالطلاب الإيرانيين، كان يبدو عليهم عدم القدرة على التحكم في أنفسهم. قبل بضعة أشهر، في مؤتمر بناجبور، وجدت صعوبة لدى وفد الطلبة الإيرانيين في التعبير بوضوح عندما تحدثوا على المنصة. لقد مر الشعب الإيراني بعملية ثورية غيّرت جوهره الداخلي. كان تعبيرهم عن هذا التحول الفكري والنظري أمرًا فوق طاقتهم.عندما حاول هؤلاء الشباب التعبير عن أنفسهم، كان من الصعب عليهم تحديد نقطة البداية والنهاية. غالبًا ما تحولت خطبهم إلى هتافات بعد بضع جمل. في نفس المؤتمر بناجبور، عندما تحدث أحد أقارب الشيخ أبو الحسن علي الندوي كممثل له، بدأ حديثه بالبيت "لم أستطع يومًا أن أصف السم القاتل بأنه سكر"، مما أثار ضجة واستياء في الجمهور. الآن، في أوساط علي غره الإسلامية، تصاعدت النقاشات حول ما إذا كانت الثورة الإيرانية إسلامية فعلًا أم لا. من ناحية أخرى، كان مؤيدو الثورة الإيرانية يصفون علماء السنة المرتبطين بالسعودية بالكفر والشرك وأنهم عملاء لأمريكا. ويمكن القول إن الخلافات السياسية السعودية الإيرانية كانت تتسع باستمرار في أوساط المسلمين بحجة الفروقات بين الشيعة والسنة.

في أحد الأيام، وجهت سؤالي إلى بهزاد، الطالب المتخصص في علم الاجتماع، حول متى ستنتهي هذه الدوامة من العنف والدماء. كان بهزاد يختلف عن غيره من الطلاب الإيرانيين؛ ففي حماسه ثمة نوع من الهدوء والتعقل، وفي حديثه مزيج من الجدية والحكمة. كان يطرح آراءه بثبات، لكنه دائماً ما يترك مساحة للحوار مع

الأطراف الأخرى. كان جاري في السكن الجامعي وجارًا مثاليًا، دائم الابتسام، ويبدو أنه كان يستمتع بشكل خاص بشرب الشاي تحت الأشجار في الحدائق الخضراء.

ذات يوم، بدأ بهزاد في التعبير عن حزنه على الصراعات الداخلية بين الطلبة الإيرانيين، قائلاً: "الأشخاص الذين كانوا بالأمس يقفون جنبًا إلى جنب لإسقاط الشاه، أصبحوا اليوم يتعطشون لدماء بعضهم البعض". ومع ذلك، كان لديه نوع من الطمأنينة بأن الإمام الخميني سيجد حلاً لهذه المشكلة. عندما سألته عن سبب هذا الاعتقاد العميق تجاه الإمام ولماذا يطلقون عليه لقب "الإمام"، وخاصة أن ظهور إمام العصر لم يحدث بعد، ابتسم بهزاد وأجاب: "لقد أثرت نقطة جيدة. كيف وصلت إلى هذا العمق؟ في الواقع، اللقب الرسمي للخميني هو نائب الإمام، ولكن كلمة نائب تم حذفها بسبب الحماس الشعبي. نحن لا نعتبره بديلاً للإمام الغائب، بل هو مجرد نائب يمهد الطريق لظهور الإمام. أقصى ما يمكن أن يكون للخميني هو منصب ولي الفقيه، وهو يدير شؤون الدولة بهذه الصفة، وهذا الأمر ليس بالجديد في الفكر الشيعي. ففي العهد الصفوي، كان الحكام الصفويون يبررون حكمهم بكونهم نوابًا للإمام."

"لماذا إذًا لا يقر المعارضون بهذا الموقف الديني؟" سألت.

رد بهزاد بنبرة تجمع بين التأمل والجدية: "المسألة تكمن في أن الشيوعيين والعلمانيين يخشون من فكرة حكومة العلماء في إيران. مثلما يُنظر في الهند إلى العلماء على أنهم غير مؤهلين للسياسة والحكم، يُقال في إيران 'ملّا شدن چه آسان، آدم شدن چه مشكل' - أن تصبح ملّا أمر سهل، لكن أن تكون إنسانًا أمر صعب. يصعب على البعض قبول أن الإمام الخميني ليس مجرد عالم دين عادي، بل عبقري ببصيرة عميقة. لقد أعد تلاميذه بطريقة لا يمكن توقعها من الحوزة العلمية التقليدية. وفي تقليدنا الشيعي، للعلماء دور محوري. هل سمعت عن واحد بهباني، الذي توفي في عام ١٧٩٣؟ حسنًا، ماذا عن باقر المجلسي؟"

أومأت موافقًا وقلت: "أتتحدث عن بحار الأنوار، للمجلسي؟"

أجاب بهزاد بنبرة تعكس تقديره العميق: "نعم، المجلسي، شيخ الإسلام، الذي وجهت إليه اتهامات بتغيير فكر الشيعة. يقول البعض إنه أغرق الشيعة في الطقوس، وبحسب علي شريعتي، تحولت الشيعة بذلك من دين الشهادة إلى دين الندب والبكاء. لكن دعنا من هذا الآن. المهم أن حفيد المجلسي، واحد بهباني، أرسى أسس المدرسة الأصولية، منح العلماء سلطة تقديم الإرشاد والتوجيه للناس، مستندين إلى الكتاب والسنة والإجماع والعقل. وفي عهد القاجار، قدم ملا أحمد نراقي أدلة تبرر حكم العلماء في غياب الإمام. في إيران الشيعية، كانت مجالس الروضة دائمًا تذكرنا بأن العلماء، في غياب الإمام، يحملون جزءًا من مسؤوليات الإمامة، أو على الأقل يُذكرون الناس بها. في السابق، كانت المجالس تقام تحت رمزية الحسين ضد يزيد، أما اليوم فقد تحولت إلى شكل جديد بفضل الثورة الحية التي أعطتها قالب خميني ضد الشاه. من ناحية، يحمل الخميني منصب ولاية الفقيه كنائب للإمام، ومن ناحية أخرى، تم نفي شاه إيران، أداة القوى الغربية المستندة على الجبت والطاغوت. وبالنسبة لنا، لا يوجد خيار آخر سوى الدعم الكامل للإمام الخميني في هذه المعركة الفاصلة بين الكفر والإسلام".

بهزاد، هذا الرجل العميق، فاجأني بجديته وتوازنه. لم أكن أتوقع مثل هذا الحوار الرصين والمتعقل من شخص بهذا الهدوء والوقار. كان الاعتقاد السائد عن الطلاب الإيرانيين أنهم لا يهتمون كثيرًا بالدراسة والكتابة، وغالبًا ما يكونون غير قادرين على التعبير بالإنجليزية. في صفي، كان هناك طالب إيراني يُدعى تشراغ، كثيرًا ما يغيب عن الدروس. ذات يوم، عندما وبخه الأستاذ، قال تشراغ: 'عذرًا يا سيدي، كنت في دلهي، لم أكن هنا'. ظهرت على وجه الأستاذ ابتسامة معنوية، فرد بنبرة جافة مصطنعة: 'الآن لا دلهي، هنا فقط.'من ناحية، كانت تلك اللحظات الطريفة مع الطلاب الأجانب، ومن ناحية أخرى، كانت نضج أفكار وآراء بهزاد تظهر بوضوح أنه ينتمي إلى عالم مختلف. كانت هناك طبقة من التفكير والتحليل تنبع من داخله، تشير إلى مدى عمقه وفهمه للواقع المعقد الذي يعيش فيه. بهزاد

لم يكن مجرد طالب، بل كان رجلًا يحمل في داخله عوالم من الفكر والرؤية، متجاوزًا الصورة النمطية للطالب الإيراني في عيون الآخرين.

في يوم ما، نظمت رابطة الطلاب الإيرانيين معرضًا استثنائيًا، حيث غمرت اللوحات الإيرانية الجذابة المكان بأكمله. كانت هناك لمحات من آيات القرآن، أقوال الإمام الخميني، ومشاهد ملونة تصور الثورة الإيرانية. تحولت غرف الطلاب، التي كانت في السابق مزدانة بصور الممثلين أو أقوال المفكرين الغربيين، إلى معرض فني يتألق باللوحات الإيرانية.خلال هذا المعرض، كان لبهزاد مكانة واضحة ومحترمة. وفي هذه المناسبة، ألقى متحدث من دلهي كلمة مؤثرة، مشددًا على أن الثورة الإيرانية هي إرث مشترك للأمة الإسلامية كلها، ولا يجب حصرها في الفصائل السنية والشيعية. أكد أن شعر إقبال اللاهوري المحيي وكتابات سيد قطب الثورية كانت عناصر أساسية في إمكانية وقوع الثورة. فوجئت بمعرفة أن خامنئي، أحد التلاميذ المتميزين للخميني والذي أصبح لاحقًا آية الله العظمى، قام بترجمة كتابين لسيد قطب إلى الفارسية بنفسه. وأشار المتحدث إلى أن مؤسس فيدائيي الإسلام، نواب صفوي، قام برحلة خاصة إلى مصر في عام ١٩٥٤ للقاء سيد قطب، حيث وجدا توافقًا كبيرًا في أفكارهما حول سيادة الله والجاهلية الحديثة، مؤكدين على ضرورة الجهاد المشترك بين الشيعة والسنة ضد الغرب. قبل ظهور الخميني، كان الفكر الثوري السني قد استقر في قلوب وعقول الإيرانيين، لذلك فإن اعتبار الثورة الإيرانية نتاجًا للفكر الشيعي فقط هو ظلم. كان إبراهيم يزدي، ممثل خميني، مرتبطًا بقادة الإخوان المسلمين في الغرب، ولا يمكن إغفال دور علي شريعتي الذي ساهم في تلوين الثورة بألوان "الملاء الأحمر". كل هذه التدخلات الفكرية المتنوعة ساهمت في تشكيل خميرة الثورة.

عائدًا من المعرض، ظلت هذه الأسئلة تسيطر على ذهني بشكل محير: لماذا يوجد مقاومة لقبول الثورة الإيرانية كإرث مشترك، رغم أن كتابات المفكرين السنة كانت جزءًا لا يتجزأ من تأسيسها؟ لماذا تخشى دول الخليج الإسلامية من الثورة الإيرانية بهذه الدرجة الكبيرة؟ والأهم من ذلك، لماذا يستمر العلماء السنة،

المعروفون بدورهم القيادي في الصحوة الإسلامية بالدول العربية، في معارضتهم للثورة الإيرانية؟

في طريقي للعودة إلى السكن الجامعي، صادفت بهزاد. كان اللقاء مليء بالحرارة، وقد دعاني لتناول الشاي في غرفته، وهو دعوة قبلتها على الفور. من خزانته، أخرج كتيبًا صغيرًا وقدمه لي قائلاً: "هذه هدية صغيرة من كتابات المعلم المرحوم، اقرأها بتمعن. كل كلمة فيها تنبض بروح الثورة. لا يمكنني أن أشرح لك، عليك أن تقرأها بنفسك لتفهم". تناولت الكتيب بفضول، فقد كنت معتادًا على اسم علي شريعتي، لكن لم أكن قد اغتنمت الفرصة بعد لغوص في أعماق كتاباته.

"شريعتي والمعلم المتوفى؟ ما هذا؟" استفسرت بدهشة. تساءلت، "ما هي علاقتك بشريعتي؟ هل التقيت به من قبل؟" لما سمع بهزاد سؤالي، تلألأت عيناه بالفخر والبهجة، ثم انغمس في لحظات من الصمت، كأنه يستحضر ذكريات بعيدة. بعد ثوانٍ قليلة، تحدث بعمق، "اجتماعات المعلم هي كنز ذكرياتي الأثمن، لن أنساها أبدًا. أحتفظ بها كجواهر متألقة في صرح ذاكرتي، تلك اللحظات المقدسة عندما كان يتحدث المعلم كانت تغسل غبار القلوب والعقول، مانحة إيانا ثقة جديدة بكل مجلس. كأن الأعين تتفتح للمرة الأولى، والظلام يتبدد".مع انسكاب كلماته، برزت دموع بهزاد. فكرت في نفسي، كنت على حق تمامًا. بهزاد رجل ذو بصيرة عميقة. حاولت التحديق في عينيه، التي بدت غارقة في بحر من الذكريات. قال، "كيف أصف اجتماعات المعلم؟ في حسينية الإرشاد، حيث كان يلقي خطبه، كان الشباب يتوافدون بحشود. أي شخص كان يجلس في مجلسه، حتى لو لمرة واحدة، كان يشهد تحولًا جذريًا في فكره ورؤيته للعالم".

لقد أدركت الآن أن بهزاد كان ثمرة لتعليم حوزة علمية تقليدية. سألته عن مدة تتلمذه على يد شريعتي، فأجاب: "رغم أن تعليمي الأولي كان في قُم، إلا أن الأشهر التي قضيتها مع شريعتي في حسينية الإرشاد كانت أثمن بكثير. تعلمت منه فن النقد وكيفية القراءة النقدية. لكن، للأسف، يُنسى الآن تراثه الفكري، ويُعتبر مجرد أسير للفلسفة الغربية والماركسية. صحيح أنه عرفنا بفرانز فانون وسارتر،

لكنه لم يكن مروجًا للغرب. استخدم كتابات المفكرين الغربيين كأداة للتحليل النقدي، وصور الفكر الغربي كمغالطة وسعى لتسليط الضوء على ذلك. نحن، الذين اقتصر تحركنا في البداية على الحوزات العلمية التقليدية، اكتسبنا من خلال مجالسه القدرة على قراءة نقدية للفكر والفلسفة الأجنبية، مع الحفاظ على عقولنا مفتوحة بلا تحفظات لتستقبل النور من كل اتجاه وزاوية".

من خلال كلمات بهزاد، كان واضحًا الشعور بالإحباط العميق بسبب عدم تقدير شريعتي في إيران بعد الثورة. سألته عن الأسباب التي جعلت شريعتي محرومًا من الاعتراف الرسمي كأحد المفكرين المؤسسين للثورة. بدا بهزاد منزعجًا من سؤالي، وكأنه يلمس جرحًا عميقًا. قال: "للسياسة مصالحها. شريعتي، على الرغم من كونه من عائلة العلماء التقليدية، فقد تلقى تعليمه العالي في فرنسا، حيث التقى بالمفكر الفرنسي سارتر وترجم أعمال فرانز فانون إلى الفارسية. هذه الأمور تحولت إلى نقاط سلبية ضده بعد الثورة. اعتبر الإمام خميني أن كتابات شريعتي متأثرة بما يُعرف بـ'Westoxification'أو تسمم الغرب، مما كان بمثابة إعلان غير مباشر بأنه لن يُعترف به كواحد من المفكرين المؤسسين للثورة الإيرانية".

عندما سألت بهزاد عما إذا كان يعتقد أن شريعتي قد تعرض للظلم، بدا مندهشًا قليلًا ثم استعاد توازنه وأجاب: "ربما لم يفهم الإمام خميني شريعتي بشكل صحيح، وربما لأن شريعتي قد تحدى بجرأة الشيعية الصفوية التقليدية، التي اعتبرها دينًا للبكاء والعزاء. في حين أن الشيعية العلوية، كما يراها شريعتي، هي دين الشهادة، الذي يحثنا على التحدث بالحق دون خوف حتى في أصعب الظروف. قد يكون الانغماس في التفاصيل الدقيقة للمصطلحات قد أدى بنا إلى فقدان الحقيقة الأساسية من أمام أعيننا".

سألته: "ماذا تعني بذلك؟" فأجاب: "بعد الثورة، عندما جرت مباحثات حول تسمية إيران بالجمهورية الإسلامية الديمقراطية، كان للإمام خميني اعتراض شديد على إضافة كلمة 'ديمقراطية'. قال إن الإسلام لا يحتاج إلى أي إضافات. كلمة 'الإسلام' كافية بذاتها. إيران ستكون جمهورية إسلامية فحسب، لا أقل ولا

أكثر. كان هذا صحيحًا من الناحية الأصولية، لكن نتيجة لهذه النظرة، بدا شريعتي كمفسر للمصطلحات الغربية ومتأثرًا بها بدلاً من كونه ناقدًا لها. أصبح من الصعب الاعتراف بشخصية إسلامية غير تقليدية خارج نطاق العلماء التقليديين. على الرغم من ذلك، يجب ألا ننسى أن الكثيرين الذين يظهرون اليوم كأفراد بين العلماء يعتمدون بشكل كبير على خطب وكتابات شريعتي. لكن دعنا نترك هذا جانبًا، فشريعتي سيظل حيًا دائمًا من خلال كتاباته، ولا يحتاج إلى دعم أي دولة." كان في صوت بهزاد الآن نبرة احتجاجية. شعرت بحبه الصادق وولائه لأستاذه، وأخذت الكتاب وودعته حتى اللقاء القادم.

١٧

وقت الدماء والفوضى

في تلك الأيام، أثار معرض الثورة الإيرانية في جامعة علي غره تنافسًا جديدًا ومعقدًا. بدأت الجمعيات الطلابية العربية، التي تتألف أساسًا من طلاب فلسطينيين وعراقيين ويمنيين، بمواجهة النفوذ المتزايد للثورة الإيرانية. اتخذت هذه الجمعيات موقفًا حازمًا، فأصبحت تنظم فعاليات تصور الحرب الإيرانية العراقية كصراع بين العرب والعجم، وكخلاف شيعي سني. وعلى الرغم من أن صدام حسين قدم نفسه في البداية كممثل للحضارة العربية ضد العجم، إلا أن الدعم الذي تلقاه من الدول السنية العربية جعل الحرب تُنظر إليها تدريجيًا على أنها صراع شيعي سني. في البداية، كان الشيعة العراقيون يدعمون صدام بحماس، لكن مع تحول الحرب إلى نزاع شيعي سني، تراجع حماسهم.من ناحية أخرى، قامت الحكومة السورية، الداعمة لإيران الإسلامية، بقمع عنيف ضد الإخوان المسلمين في حماة، مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرين ألفًا منهم. كان الإخوان المسلمون، نظريًا، من داعمي الثورة الإيرانية، لكنهم واجهوا هذه الأيام العصيبة على يد الحكومة الأسدية المدعومة من إيران. كانت الأوضاع مليئة بالتعقيدات: الصراعات الشيعية السنية، العربية والعجمية، الإسلامية والكفر، أو كانت مجرد صراع على السلطة؟ ما هو الدافع الحقيقي وراء هذه الأحداث الدموية؟ هذه الأسئلة تعلقت بذهني، تاركة وراءها غموضًا عميقًا يحيط بكل هذه الأحداث.

أثناء جلوسي في غرفة بهزاد ذات يوم، مر محمود، السكرتير العام للاتحاد العربي، من أمامنا. كان شخصًا يتمتع بعقلية مستقلة وروح دعابة حية. كان

يوقظني بانتظام لصلاة الفجر، مطرقًا على الباب، لكنه نادرًا ما كان يظهر في المسجد نفسه. في أحد الأيام، عندما سألته عن سبب غيابه المستمر عن الصلاة، ابتسم بمكر وقال إنه يحصل على الثواب بمجرد إيقاظ الآخرين للصلاة، وهذا ليس بالأمر الهين.كان محمود قد عاد للتو من رحلة إلى وطنه، وتحدث عن متاعب السفر، مشيرًا إلى الصعوبات التي واجهها بسبب عدم وجود رحلات جوية مباشرة. ومع ذلك، أضاف بنبرة مازحة أن السفر بأسلوب النواب يحمل متعته الخاصة، قائلًا: "الخطوط الجوية الملكية الأردنية، حتى الاسم يوحي بالفخامة والرقي. وبالمناسبة، أعتقد أن أيام النواب العرب ستزداد سوءًا، ويبدو أننا نتجه نحو حرب ضخمة ومخيفة".

كان بهزاد يعبر عن قلقه العميق. قال بنبرة متأملة: "نعم، أنت على حق. الطريقة التي تدعم بها الدول العربية في الخليج صدام توحي بأن هذه الحرب الأخوية ستستمر لفترة طويلة. لكنني لا أتحدث عن الحرب الإيرانية العراقية فحسب، بل أشير إلى الحرب الأهلية التي يتم تحضيرها في العالم الإسلامي بأكمله. يبدو أننا نتجه نحو حرب دينية مدتها ثلاثون عامًا، مثلما حدث في أوروبا. إذا اندلعت هذه الشرارة، فستكون صعبة الإخماد".

"القوى الأجنبية ترغب في ذلك بالضبط، أن تشتت الطاقة الثورية الكبيرة التي نشأت من الثورة الإيرانية في صراع طائفي بين الشيعة والسنة"، حاول بهزاد الدفاع عن الثورة بشغف.

"كلا الطرفين مسؤولان، لا يمكننا توجيه اللوم فقط لحكومات العرب. كل صوت من إيران، حتى لو قدم نفسه في سياق الأمة المتحدة، يدرك تمامًا أن الشيعة في البلدان العربية سيكونون قوة رائدة لهم. تقوم إيران بخطوات مستمرة لتنظيم السكان الشيعة في الدول العربية. إذًا، كيف يمكن اعتبار دعوتهم خالية من التأثيرات الطائفية ومخلصة للوحدة الإسلامية؟"

"بالفعل، لكن الإمام زعم أنه يسعى لتوحيد المستضعفين"، ألقى بهزاد كلماته بنبرة تلميح.

"لكن، يجب أن ننظر إلى ما يجري على أرض الواقع. فبعد الثورة الإيرانية، برزت حركة لافتة في أوساط الشيعة. في أفغانستان، العراق، البحرين، الكويت، وحتى السعودية، يتم تنظيم الشيعة بشكل ملحوظ. في العراق، حيث يشكلون ٥٥٪ من السكان، وفي البحرين حيث يطغى وجودهم، وفي الكويت، حيث استقبل الإمام خميني مؤخرًا وفدًا من الشيعة ونصحهم بتأسيس حزب لتنظيم الشيعة عالميًا. تشعر الدول السنية في الخليج بقلق بالغ حول كيفية التعامل مع هذه الأقليات. وفقًا لمجلة الدستور في لندن، فقد تشكلت جمعية سرية في الأحساء، منطقة الشيعة في شرق السعودية. وفي بيروت، يتم تنظيم الناس تحت مظلة حزب الله، وهويتهم الطائفية واضحة للجميع. كيف يمكننا القول إن الثورة الإيرانية ليست شيعية بل برنامج لإحياء الإسلام؟ قد تكون لديك خطة لاستعادة قوة العالم الإسلامي، ولكن في الواقع تعتمد هذه الخطة على الشيعة. في كل مكان يوجد فيه الشيعة، تراهم كمعاقل ثورية، وتستخدم الحكومة الإيرانية مواردها لإعادة تنظيمهم. من الطبيعي أن يشعر العالم السني بالقلق إزاء هذه الأساليب. بل أذهب إلى أبعد من ذلك، وأقول إن الحكومة الإيرانية قدمت بنفسها الفرصة للدول العربية لتقدم نفسها كحماة للإسلام السني في مواجهة العدوان الشيعي."

"لكن هناك أمر آخر يبعث على الدهشة والقلق في آنٍ واحد"، قلت بتأمل.

"ما هو؟"، سأل محمود بفضول.

"كيف انخرطت الحركات الإسلامية في العالم العربي، التي نعدها جزءًا من الصحوة الإسلامية، وأولئك المعروفون بكونهم قادة الفكر الإسلامي، في هذه الحرب الطائفية بكل رضا؟ الآن، يطبل قادة الصحوة للإسلام السني. العالم الإسلامي انقسم إلى معسكرين سياسيًا وفكريًا. الإسلام الشيعي تحت قيادة إيران الثورية، والإسلام السني تحت قيادة السعودية، مدعومًا من السلفيين والإخوان المسلمين. كلا الطرفين يخدم مصالح سياسية لأسيادهم. في هذه الفوضى، الإسلام غائب بشكل شبه كامل"، أفسرت.

"كلامك صائب إلى حد ما"، أكد بهزاد. وأضاف: "قادة الصحوة الإسلامية يتحملون المسؤولية بالتساوي في هذا الوضع المتفجر. في الحقيقة، أعتقد أنهم تجاهلوا الحقائق عمدًا. هم أكثر من غيرهم يعلمون أن الثورة الإيرانية جاءت برسالة حياة للعالم الإسلامي. خروج الاستعمار الأمريكي من إيران يُعد بشرى للمنطقة بأسرها. فكيف يمكن لأولئك الذين يحملون لواء عزة الإسلام والمسلمين أن يضعوا وزنهم في المعسكر المعارض في اللحظات الحاسمة بدلًا من دعم الثورة؟"

"بالتأكيد، هذا أمر مذهل ومقلق في ذات الوقت. ما تفسيرك، لماذا يُفضل الإسلاميون السنة قيادة الإمام الخميني على نظام الملكية المدعوم من أمريكا؟ هل طمع الدنيا قد أعمى أعين قادة الصحوة، أم هناك سبب آخر؟"، سألت محمود، طالبًا رؤيته لهذا الموضوع.

بتأنٍ، أجاب محمود: "لن أذهب إلى حد القول بأن علماء السنة والحركات الدينية قد خانوا الآخرة، فهذا افتراء شديد. ولكن، يبدو لي أنهم عجزوا عن تحليل الأحداث بشكل دقيق، ما أوقعهم في فخ البساطة والتردد. هناك أمر معقد يتطلب الفهم، وهو خلفية حركة جهيمان العتيبة. تحفل الأوساط الشعبية بمفاهيم خاطئة عن جهيمان. الكتاب الذي صدر مؤخرًا في الكويت 'صورة في رحاب مكة' يلقي الضوء على هذا الموضوع. كان جهيمان من الجيل الثاني أو الثالث للإخوان السعوديين، الذين ساعدوا في تأسيس الدولة السعودية. هذه الحركة السلفية البدوية الخالصة لا يجب الخلط بينها وبين الإخوان المسلمين. عندما رأى جهيمان السعودية تسلك طريق التغريب، عارض ذلك بشدة. تم القبض عليه وعلى بعض رفاقه من قبل الشرطة، ولكن تم إطلاق سراحه بتدخل الشيخ بن باز، وهو أحد تلاميذ الشيخ. لكن عندما حاصر جهيمان الحرم المكي في بداية القرن الخامس عشر الهجري، وقدم عبدالله قحطاني كمجدد للقرن الجديد، لم يعد بإمكان الشيخ بن باز التدخل لصالحه. هذا الحدث أثار حالة من الهيجان الشديد في العالم الإسلامي.لم يكن أمام الحكومة السعودية خيارٌ آخر سوى استخدام القوة لإخلاء الحرم المكي. لقد قُتل جهيمان، لكن نقده للسياسة السعودية الموالية

للغرب ظل يرن في الأذهان. في المقابل، كانت إيران تدّعي قيادة الإسلام، مما دفع الحكومة السعودية إلى اتباع سياسة تخدم الإسلام تتجاوز بها إيران، وتُبطل اعتراضات جُهيمان. وهكذا، قررت الدولة دعم علماء السلفية، الذين كانوا يُعتبرون حماة الصحوة الإسلامية تحت تأثير الإخوان المصريين، مما خلق حالة من المنافسة بين الدولتين السعودية والإيرانية حول خدمة الإسلام. إذا كان من ناحية يُعتبر الإمام الخميني ولي فقيه بصفته نائب الإمام، فمن ناحية أخرى اختار الملك فهد تسمية نفسه خادم الحرمين بدلاً من جلالة الملك. وفي ذات الوقت، وقعت حادثة التدخل الروسي في أفغانستان، حيث قررت الولايات المتحدة رعاية الجهاد في أفغانستان، وكان من المفترض أن تلعب كل من السعودية وباكستان دورًا رئيسيًا فيها."

"انظروا إلى مدى التحول الذي حدث"، قال محمود، متوقفًا للحظة ومشيرًا بيديه إلى اتجاهين متباينين. "في مواجهة الثورة الإسلامية الإيرانية ودعوتها للوحدة والثورة، وجدت السعودية نفسها تعتمد على قادة الصحوة والحركات الإسلامية. أمامهم كانت خطة الجهاد الإسلامي الضخمة في أفغانستان تحت رعاية الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتي. هذه البديلة السنية للجهاد، التي واجهت عدوًا لادينيًا مثل الاتحاد السوفيتي، كانت تمتلك جاذبية كبيرة. تشكلت هذه الرواية الجديدة بسرعة مذهلة، ولم يستطع قادة الصحوة التكيف معها بشكل كامل. كانوا يشعرون بالرضا لأن الحكومة، بعد حصار الحرم المكي، قررت اعتناق نهج أكثر إسلامية في البلاد. جهيمان ورفاقه قدموا التضحيات، لكن قادة الصحوة استفادوا من الطاقة الإبداعية الناتجة عن ذلك، متنقلين حول العالم في جلسات ومؤتمرات. لم يدركوا أنهم باتوا جزءًا من السياسة الخارجية الأمريكية تحت ستار الجهاد والدعوة".

تحليل محمود أثار دهشتي بشكل كبير. في الأوساط الإسلامية، كنت قد سمعت الكثير من الأقوال التي تعكس بعض القلق، لكن يبدو أن محمود تمكن من توحيد جميع العناصر المتفرقة وتقديم صورة واضحة ومتماسكة للوضع

الحالي. كان كما لو أنه قام برسم خارطة تفصيلية تظهر كيفية ترابط الأحداث وتأثيرها على بعضها البعض، مما يعكس عمق فهمه وتحليله للأوضاع الراهنة.

"في ذلك المساء البارد من أيام الشتاء، قبل بضع سنوات، كنت جالسًا في مطعم ببيشاور مع بعض الأصدقاء، وكان الحديث يدور حول جهاد أفغانستان. فجأة، أثار أحد الحاضرين دهشتي بقوله إن وكالة الاستخبارات الأمريكية تظهر اهتمامًا استثنائيًا بتوزيع القرآن الكريم في المناطق التي تخضع للنفوذ الروسي. كنت في البداية مرتبكًا، لكن عندما أوضح أن الترجمات الأوزبكية للقرآن تُطبع على نطاق واسع، أدركت ما يعنيه. خبراء الحرب الأمريكيون يعتقدون أن هذا سيساعدهم على نقل الجهاد إلى قلب الاتحاد السوفيتي.

'هل يمكن أن يكونوا يستغلون حماستنا للجهاد لأهدافهم؟' سألت نفسي.

'في الحقيقة، نحن من يستغلهم'، أجاب. 'راقب الوضع: المال لهم، الأسلحة لهم، التكنولوجيا لهم، لكنهم مضطرون لدعمنا ضد الروس. يعرفون أننا القوة الوحيدة التي يمكنها إيقاف الجيش الأحمر. يوزعون ترجمات القرآن الأوزبكية بكل سرور، آملين أن تصل شعلة الجهاد إلى عمق الاتحاد السوفيتي'، أضاف بنبرة محددة".

عندما سمعت هذا، انتابني القلق أكثر. فسألت بتأمل: 'هل يمكن أن تكون الحركة الإسلامية، التي طالما حلمت بإقامة دولة مستقلة واستعدت لأكبر التضحيات من أجل هذا الهدف، تتعرض للاختطاف النفسي والعاطفي على يد الإمبريالية الأمريكية؟ ونحن، في غمرة حماسنا للجهاد، لا ندرك ذلك. وإلا، ما الذي يدفع الأمريكيين للاهتمام بنشر القرآن؟'

رد قائلاً بنبرة تفكير: 'لله الحق في استخدام من يشاء ومنح شرف حمل كتابه لمن يختار'.

'صحيح، ولكن المسألة هنا ليست مجرد حمل الكتاب. كيف تتجاهل حقيقة أن الأمريكيين لم يقبلوا الكتاب، بل يستغلون حماستنا للجهاد لتعزيز أجندتهم

الرأسمالية. يعرفون أن المسلم يمكن أن يضحي بحياته في سبيل الشهادة، وأن آيات القرآن تحفزه على ذلك. لذا، يسعون لإنعاش المناطق الاستراتيجية في أوزبكستان حيث يغطي المسلمون في سبات، باستخدام ترجمات القرآن. لكن وراء كل هذا، لا يكمن هدف إقامة نظام عادل، بل تعزيز الهيمنة والنصر الإمبريالي الأمريكي'.

أجاب بنبرة تحدٍّ: 'الوقت سيكشف من استغل من. حالياً، ما لدينا سوى أن نقبل بفيض الكرم الأمريكي بكل فرح وامتنان'.

١٨

في رحاب مجلس الشيخ الكبير

في علي غره، لم يمضِ وقت طويل على وصولي حتى وجدت نفسي ضمن حضور مجالس الشيخ أحمد سورتي، الأستاذ المرموق في مجال التعليم العام. كان يعلم طلاب السنة الأولى مقرر "العلوم والمجتمع". ترتكز فكرة التعليم العام على توسيع آفاق الطلاب وتجاوز حدود تخصصاتهم الضيقة، من خلال تقديم رؤية شاملة للعلوم في مختلف مجالاتها. لذلك، شملت الموضوعات الرئيسية لهذا المقرر العلوم وعلم الاجتماع، وكيفية تأثير الاكتشافات العلمية على تحولات المجتمع، بهدف تزويد طلاب الآداب بفهم أعمق للعلوم وتأثيراتها المتنوعة على النسيج الاجتماعي.

في أحد الأيام، خلال الدرس، انطلق نقاش حاد حول مفهوم القيم. ما هو الشر وما هو الخير، ما هو الحق وما هو الباطل، هل هذه القيم مطلقة أم نسبية أم تتأرجح بين هذين القطبين في دورة لا تنتهي؟ كان الشيخ يقدم تحليلاته ونقاشاته حول الأفكار المسلم بها بطريقة تجعل من المشكوك فيه أمراً مطلقًا. في أحد الدروس، وبطريقة درامية، اقترب من طالب في الصف الخلفي وسأله: "ماذا ستختار إذا واجهت خيارًا بين العزة والثروة؟" ثم ضحك ضحكة عميقة قائلاً: "أليس هذا غريبًا؟ إنهم يريدون العزة. لكن ماذا ستفعل بالعزة بدون المال؟ الثروة تجلب معها العزة وتغطي على عيوب الإنسان". بدا الطالب البسيط محتارًا ومندهشًا في مواجهة هذا التحدي الجديد.

واستمر النقاش حول الطبيعة النسبية للقيم بهذا الشكل، متنقلاً بين مختلف الزوايا. وبعد أيام، بدأنا ندرك أن هناك منطقة رمادية واسعة بين الأبيض

والأسود، منطقة يمكننا اختيارها بصدق واطمئنان وفقًا لعقولنا وفهمنا. هذه القرارات الاستراتيجية تتبع الزمان والمكان والأحداث والظروف، وهذا ما يُعرف بالاجتهاد الشخصي. بدون هذا، يظل الإنسان مجرد آلة تعمل وفقًا للمفاهيم المسلم بها، دون تفكير أو تحليل عميق.

في أحد الأيام، وأنا أغادر المكتبة، صادفت الأستاذ الفاضل. تقدمت بالسلام وعندما سألني عما أفعل، أجبت بأنني أبحث عن جوهر القيم. عند سماع كلامي، ابتسم بحنان وقال: "يبدو أنك شخص مجتهد. لكن هل تفرق بين كونك مجتهدًا والانغماس في العمل؟ هناك العديد من المواهب الكبيرة التي تضيع بسبب الغرق في العمل. البعض أصبحوا حكامًا، وآخرون تبوؤوا مناصب وزارية، وبعضهم حظي بالتمثيل الدبلوماسي، فيما آخرون أصبحوا أسرى لروتين العمل اليومي. العالم أغرقهم في العمل بطريقة جعلتهم يفقدون الرؤية لرعاية الأفكار الرفيعة وحلم بناء عالم جديد. الوقت والمكان والظروف يمكن أن يجعل الإنسان يفقد نظرته الشمولية ويصبح مجرد أداة في آلية المسلمات."

هذا اللقاء مع الشيخ سورتي أتاح لي فرصة الحضور في مجالسه. كلما وجدت الفرصة، كنت أذهب للجلوس في حلقاته. عندما يراني، كان وجهه يتلألأ بالسرور. كان صديق مياں يأتي حاملاً صينية الشاي، متقناً فن تحضيره بطريقة خاصة، حيث يُبقي الشاي على النار لوقت معين ويسخن الأكواب إلى درجة حرارة محددة. كان الشاي الذي يقدمه بتلك العناية يتمتع بطعم يجعل الشرب في أي مكان آخر لا يُقارن. كانت مجالس الشيخ سورتي تضم مجموعة متنوعة من الأشخاص؛ من المفكرين الذين يدخنون الغليون إلى العلماء الذين يرتدون الجبة والعمامة. كان كل فرد يعتبر وجوده في هذه المجالس فرصة ثمينة.

في أحد الأيام عندما وصلت إلى هناك، وجدت البروفيسور خورشيد الإسلام موجودًا بالفعل، يحمل غليونه ويدخنه في أوقات متفرقة، مملئًا الفراغات بكلماته الفكرية. كان النقاش يدور حول خطبة أبو الأعلى المودودي التي ألقاها في عام ١٩٤٠ في قاعة ستريتشي بجامعة علي غرة الإسلامية، والتي دعته إليها جمعية

الإسلام التاريخية والحضارية، ونُشرت لاحقًا تحت عنوان "كيف يتم تأسيس الحكومة الإسلامية." كان البروفيسور خورشيد الإسلام عادةً حاضرًا في تلك الجلسة، يقول بتأمل: "تخبروني، ما مدى دراسة المودودي للماركسية؟ ثم، مع التخصص والبحث العميق، هل قام بنقد علمي حقيقي؟ أم أنه فقط رفضها على نحو سطحي؟" يتبع كلامه بالتحديق من النافذة، مشغولًا بتشكيل حلقات من الدخان. تساءلت كيف استطاع أن يقلل من شأن عبقرية مثل أبو الأعلى المودودي، الذي كان له تأثير عميق في الفكر الإسلامي في القرن العشرين، وكيف أنه اختزله في بضع حلقات دخان. رغبت في سؤاله عن تفاصيل الجلسة في قاعة ستريتشي التي حضرها، لكن الأدب منعني. كانت تلك أول مواجهة لي مع مفكر يدخن الغليون، ولكن بعد لحظات، عندما قال بتواضع كبير: "أنا مجرد ماركسي بسيط"، أدركت أن هذا الرجل كان أيضًا متيمًا بعقيدة ماركس. العقيدة، سواء كانت في شخصية روحانية أو عالم محبوب، تحجب القدرة على التحليل الدقيق والنقد العميق.

في أحد الأيام، في مجلس السيد سورتي، كان السيد إقبال أنصاري ينسج حديثه حول الخير والشر. هذا الرجل، معلمنا في اللغة الإنجليزية، كان يحمل بين طيات عقله ورقة نقدية عن شكسبير. في أسلوبه الفريد، كان يطرح الأسئلة العميقة والمعقدة: ماهية الشر، منبعه الأصلي، تأثيره الدرامي في ملحمة الإنسانية، وكيف يتم محاسبته من قبل الإنسان نفسه.أسئلة كهذه، التي تعانق تعقيداتها كحلوى الجليبي الملتفة، قد نوقشت واعترض عليها فلاسفة عديدون دون الوصول إلى حوار حاسم. وربما، كما تشير الأقدار، لن تتوصل البشرية إلى جواب نهائي أبدًا.كانت كلمات أنصاري تتدفق كماء النهر، تترك الأسئلة نصف معلقة، مبهمة، كأنها خيوط معقودة في سماء الفكر. لم يكن يكمل جملة حتى ينتقل إلى أخرى، كان يقاطع نفسه بنفسه، مشيرًا إلى أن السامع لم يستوعب الفكرة بعد، وهكذا يستمر بلا انقطاع، في رحلة فكرية لا تجد لها مرسى.بالصدفة المحضة، طفت تلك المسائل العويصة عن الخير والشر إلى السطح أثناء دراستنا

لملاحم شكسبير. في الصف، تقدمت بشموخ الطالب المتعلم أمام معلمنا الفاضل، مُعرضاً تلك الأسئلة اللغزية التي تحفر في أعماق الوجود. كان النقاش يشتعل كنار تحت الرماد، لكن معلمي اختار الصمت كملاذ، مثلما يختار الفيلسوف الهدوء في عاصفة الأفكار.لم يمضِ وقت طويل حتى وجدت نفسي مدعوًا إلى مجلس علمي، حيث تركز الحوار حول سؤال عميق ومثير: "من هو الكافر؟". وهناك، في ذلك المحفل الأكاديمي، أصابني الدهشة عندما وجدت نفسي، مجرد طالب، مرشحًا للمشاركة والإسهام بأفكاري.تلك اللحظات حيث يُعترف بالطالب كشخصية متكاملة، يُمنح أفكاره الفردية قيمة واعتبار، ويُسمح له بتقديم رأيه بغض النظر عن محدودية خبرته ومعرفته، هي لحظات تُجسد جوهر ما يُعرف بالجامعة أو الأكاديمية. كانت محض الصدفة أو الحظ لنا نحن الطلاب، أن نجد أنفسنا في هذا الفضاء الفكري الرحب، هذه الجامعة داخل الجامعة التي يقودها الشيخ أحمد سورتي من علي غرّة، حيث تنفتح الأبواب على مصاريعها لعوالم المعرفة والفكر.

في يوم ما، وجدت السيد سورتي يغرق في بحر الحزن بغرفته، وكأنه ظلٌّ لرجل لم أعهده من قبل. بصوت يخترق الصمت، قال: "أتدري، إريك فروم قد رحل عن عالمنا". "ومن هو هذا؟" سألت بفضول. فرد بدهشة مختلطة بأسى: "ألا تعرف إريك فروم؟ إنه علامة فارقة في عالم الفكر". وهو يتحدث، أخرج كتاباً من المكتبة وأعطاني إياه قائلاً: "هذا كتاب يجب أن تقرأه."

أثار فضولي لمعرفة سبب تأثر السيد سورتي العميق بهذا الرحيل. كان الفصل الأول من الكتاب يدور حول "العصيان". جاء في كلمات المؤلف أنه بدون العصيان، كيف كانت ستُرسم ألوان الملحمة الإنسانية. "من الدم الذي ألون به قصة آدم؟" لكن القصة لا تنتهي عند عصيان إبليس؛ العصيان قيمة إيجابية أيضاً. كل من وقف ضد نظام الاستبداد في العالم، ومن عارض الطغيان، هؤلاء الذين نعتبرهم ثوريين، هم الضوء الذي ينير الحضارة الإنسانية. في الحقيقة، هم

في جوهرهم مجرمون في عصيان نظام الزمان. وفي تقليب الصفحات، توقفت عيناي على جملة أثارت تأملي.

"لأجل أن يزدهر اقتصادنا، لا بد أن يعيش الإنسان في ظل الاعتلال". كانت هذه الكلمات تتردد في أذني، مثيرةً للتأمل. يرسم المؤلف صورة صادمة: في المجتمعات الرأسمالية، حيث يتدفق الثراء وترتفع معايير الحياة، يكمن ظل غامق. هناك، في أعماق هذا التدفق، يقبع الأشخاص الذين يصنعون هذه الثروات، محرومين من ثمار عملهم. هذا التناقض الصارخ في النسيج الرأسمالي ليس بمثابة نذير خير لمستقبله.

يتابع المؤلف بالقول إن أمريكا في العام ١٩٥٨ قد تُحتفى بها كواحدة من أزهى الأيام في التاريخ البشري، حيث لم يسبق للعالم أن شهد هذا المستوى من الرفاهية. لكن في هذا الازدهار تكمن خطورة عظيمة؛ فاستمرار هذا الحال وتطويره يتطلب تضحية جماعات كبيرة من البشر، محكومة بالحرمان والنسيان.

كانت هناك فكرة لامست روحي بعمق: كل إنسان يولد ضمن طائفة معينة، لكن الحقيقة تكمن في أنه يجب عليه ألا يظل أسيرًا لهذه الهوية، بل أن ينطلق لتشكيل وجوده الفريد والمستقل. هذا هو معنى "الولادة الكاملة". يرحل العديد من الناس عن هذه الدنيا دون أن يكتملوا بالكامل، محتجزين في قوقعة ذاتهم. الخروج من هذه القوقعة ليس بالمهمة اليسيرة. كان تعريف الزنا المحارم، كما ورد في الكتاب، مثيرًا للاهتمام: السعي نحو البحث عن الأمان في وجود الأم.

يشير المؤلف إلى صعوبة منح الوجود الذاتي استقلاله الكامل. إذا رأى المرء في هوية أمه، أو عائلته، أو طائفته، أو مجموعته الفكرية أو القومية التي يعتبر نفسه متحدثًا باسمها هويته الخاصة، فإن هذا يوفر له راحة كبيرة. لكن إذا بقي المرء جزءًا من هذه المجموعة، فأين تكون ولادته الفردية الحقيقية؟ كانت هذه الأفكار وغيرها من الأفكار المتعددة المطروحة بأساليب مختلفة تحمل صدمة ثقافية. ناقض المؤلف بعض المبادئ الأساسية التي وضعها فرويد، مما يدل على أن حتى أعظم أعمدة الفكر في العالم الأكاديمي قابلة للسقوط.

في اليوم التالي، وأنا أعيد الكتاب إلى الأستاذ الكبير سيد سورتي، طرحت عليه سؤالاً يختمر بالتفكير: لماذا يُصر الكاتب على أهمية أن يكون الإنسان "مولودًا بالكامل"، مؤكدًا أنه إذا لم يتخطَ المرء القوالب الفكرية الجاهزة، فكأن وجوده في هذا العالم لا معنى له؟ ومع ذلك، يبدو الكاتب نفسه متمسكًا بإعلان نفسه كديمقراطي اشتراكي. أمام هذا التساؤل، ابتسم الأستاذ سورتي بحكمة، وقال: "صحيح أن في كلامك عمق، لكن علينا ألا نستعجل الوصول إلى الاستنتاجات. الشك هو الخطوة الأولى، وعندما تبدأ في الشك بشكوكك، فذلك هو بداية السير نحو اليقين". كانت كلماته تنضح بالعمق والتبصر، كأنها تجسد تجربة وحكمة متراكمة عبر السنين.

في مركز التعليم العام، حيث يحتضن مكتب الأستاذ الكبير سيد سورتي، كان المكان يعج بفيض من الأنشطة اللاصفية المتنوعة. هناك، حيث تتداخل أصوات تمارين طلاب الموسيقى مع زمجرة تدريبات المسرحيين الشغوفين لمسرحيتهم القادمة، بينما يعكف أعضاء نادي السينما على رسم خططهم لعرض وثائقي جديد. في هذا الفضاء الثقافي الحيوي، حملت على عاتقي، بصفتي سكرتير منتدى الكتّاب، مسؤولية تنظيم مجالس تتناول موضوعات متعددة من الأدب والثقافة إلى الفلسفة والسياسة.

كانت الأمسيات تتزين بانعقاد هذه الجلسات كل أسبوع أو عشرة أيام، حيث تُنشر الكراسي صفًا بعد صف تحت ظلال الأشجار في المروج الخضراء، ويستقر الأساتذة براحة على الأرائك. كان الشاي والمقرمشات يُقدمان كلمسة طعم زاكية تزيد اللقاء حلاوة. تارة يُنصب محفل للشعر والأدب، وتارة أخرى تُلقى المحاضرات حول موضوعات علمية متنوعة، كل هذا يتجلى في سيمفونية ثقافية تعبق بأريج المعرفة والفن.

في يوم من الأيام، وصلت طائفة من الروحانيين من السويد، حاملة معها وعدًا غامضًا: أنهم بقدرتهم على التركيز الروحاني يمكنهم إنارة عالم قلوبنا. زعموا أنه إذا وجدوا إقبالاً صادقاً من السالكين، فلن يكون من المستبعد أن تحلق

أرواحنا الرقيقة في الهواء ككرات القطن. عرضوا علينا كتيبات ملونة تصور أشخاصًا يطفون في الهواء كأنهم على أعتاب الطيران. كانت الفكرة جذابة وملهمة، فانجذب بعض الأساتذة والطلاب لخوض هذه التجربة الروحية.بدأت رحلة جديدة: السالكون بأعين مغمضة، ينقبون في أعماقهم بحثًا عن صمت الفكر. كان الهدف الأول هو تطهير الذهن والروح من كل الأفكار والهواجس، تمهيدًا لاستقبال الأفكار الأكثر سموًا. استمرت هذه الجلسات لأيام، ملئت الصباح والمساء بتأملاتها، لكن بعد فترة، وبشكل مفاجئ، غادرت الطائفة الروحانية دون سابق إنذار، تاركة وراءها أحلامنا المعلقة في فضاء الرغبات الغير محققة، كأنما هي نجوم بعيدة لم نستطع بلوغها.

١٩

مسلمان في معتقلات النازية

كل تلك الأفراح الطلابية المغمورة بسعادة لا توصف، لقد تلاشت ببؤس في تلك الحادثة الروتينية التي يواجهها المسلمون الهنود في الهند المقسمة منذ بدايتها. في مورادباد، تحول احتفال العيد إلى مأساة بفعل إطلاق النار الوحشي والعشوائي من قبل الشرطة. مئات الأرواح زهقت تحت رصاص الشرطة، والعديد فقدوا حياتهم في التدافع الهائج، بينهم أطفال براءة. هكذا كانت "هدية" عيد المسلمين في هند علمانية، تحت حكم السيدة غاندي ووزارة فير بهادر سينغ.

في اليوم التالي، صور الصحف كانت تروي قصصاً موجعة، ومن بينها تلك الصورة المؤثرة لكومة من الأحذية. أحذية مالكيها غابوا عن عالمنا، كأنها شهود صمت على مأساة لا توصف. قد يكون المصور قد أراد أن تنطق هذه الأحذية بما لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه. تلك الأحذية، المحملة بقصص الألم والكرب، لا تستطيع أن تعكس بشكل كامل تلك اللحظات الأخيرة المحفوفة بالأهات والعذاب، تلك اللحظات التي عاشها البشر وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة.عندما وقعت عيناي على تلك الأحذية الطفولية الصغيرة، انفطر قلبي. تخيلت تلك الأرواح النقية التي ربما خططت لشراء أشياء بأموال العيدية عقب عودتها من المصلى. كم من الحب والحنان سكبته الأمهات وهن يجهزن أبناءهن لهذا اليوم. أين هؤلاء الأبرياء الآن؟ كومة الأحذية تنبئ فقط بمرور موكب الموت، لكنها لا تستطيع أن تنقل آهات وأنين البشر الحقيقيين الذين عانوا من وراء هذا الموت.

ظلت صورة هذه الأحذية محفورة في ذاكرتي، كأنها تتحدث فيما بينها، مدى الأيام. سنوات لاحقة، حين زرت متحف الهولوكوست ورأيت كومات الأحذية وتلال

الشعر البشري المعروضة بدقة متناهية، أدركت كيف أن الآثار، وإن لم تستطع سرد كل التفاصيل، فإنها تُحدث زلزالًا في نفس المشاهد، موجة من الدهشة تخترق كيانه من الرأس حتى الأقدام. ومع ذلك، لم أكن حينها قادرًا على استيعاب تمامًا ما تحكيه صورة أحذية المصلين.

تتابعت الأيام، وتناثرت التفاصيل شيئًا فشيئًا، ولكن لنقل إن الصحافة الوطنية والآلة الحكومية كانتا تسعيان جاهدتين لطمس حقيقة المذبحة التي تعرض لها المسلمون. في البداية، سُعي لتصوير المجزرة كأعمال شغب بين الهندوس والمسلمين، ثم سرعان ما تحولت الأصابع لتشير إلى المسلمين، متهمة إياهم بأنهم كانوا بادئي التحرش. زعمت الرواية الرسمية أن المسلمين هم من رشقوا الشرطة بالحجارة، مما استدعى ردًا بالرصاص. الأرقام الرسمية أشارت إلى مئتين إلى ثلاثمئة قتيل، بينما تحدثت المصادر المستقلة عن خسائر تتجاوز الألفين إلى ثلاثة آلاف.إم جي أكبر، الصحفي الشاب الصاعد آنذاك، نقل في تقريره من مورادأباد عن حادثة إطلاق النار العشوائي من قبل الشرطة على حشد يضم أربعين ألف مسلم جاءوا لأداء صلاة العيد. تعذر تحديد عدد القتلى بدقة، ولكن الثابت أن ما حدث لم يكن مجرد فتنة بين الهندوس والمسلمين، بل كان مذبحة ضد المسلمين نفذتها قوات الشرطة. "تايمز أوف إنديا" وضعت مسؤولية المذبحة على عاتق السلوك الطائفي للمسلمين، ملمحة إلى تورط أموال خليجية. حتى "إيكونوميك آند بوليتيكال ويكلي"، المعروفة بموضوعيتها، ألقت باللائمة على القادة المسلمين والتنظيمات الإسلامية.

ما جرى في عيد الغاه للمسلمين، وكيف أفنت قوات الشرطة المسلمين العزل والأطفال، ظلت قصة مخنوقة في حلق وسائل الإعلام، بلا صوت ولا صدى.

في صفوفنا كان يجلس حليم أحمد صديقي، رجل يفوقنا عمرًا بسنوات. وصل إلى علي غرّة في عام ١٩٧٣ بنية دراسة البكالوريوس، لكن الظروف العائلية أجبرته على ترك الدراسة. بعد سبع سنوات من الكفاح، عاد مجددًا لينهل من علم الجامعة على الرغم من فقره. كانت جمله تتسم بحدة خاصة، وعندما يتحدث،

تتحول كلماته إلى سحر يأسر الألباب. تكتنز ذاكرته بمخزون لا ينضب من النكات والقصص، يسردها بروح الدعابة الخاصة به، محولًا إياها إلى نسيج من السخرية.ذات يوم، بعد لقائه بقرة العين حيدر – التي كانت في ذلك الوقت أستاذة زائرة بالجامعة – أطلق تعليقًا على مظهرها قائلًا: "الأطلال تشهد على ماضي القصور". كان مولعًا بكتابة القصص القصيرة ولم يكن بمنأى عن عالم الشعر. كلما التقيناه، كان يحمل بين ثناياه شيئًا ليرويه، ولكن الناس كانوا يتوقون لسماع حديثه الساحر أكثر من انجذابهم لكتاباته.

بعد انقضاء عطلة العيد، عادت الحياة لتدب في جدران الصفوف، لكن أخ حليمظل غائبًا لأيام عديدة. ثم، في يوم بارد ومفاجئ، ظهر في الصف كظل لرجل آخر، يتحرك بخطى مترددة ومحطمة. كان مرآة للحزن واليأس، صامتًا، غارقًا في فقدان الحياة. استحوذ الدهشة علينا لرؤية حليم بك في هذه الحال. بعد الدرس، احتشد الطلاب حوله، محاولين استجلاء الحقيقة.كان قلبه ثقيلاً بألم لا يحتمل، ودموعه كشلال ينهمر. بدأ يروي بصوت متهدج: "لا أفهم لماذا نجوت، لم يكن يجدر بي النجاة. ما كان ذنب أخي ليُقتل؟ هو من كان يحمل عبء العائلة. لقد عدت إلى علي غرّة، لكن ما الذي كنت سأفعله لو بقيت هناك؟ الشرطة في كل مكان، يطاردني الخوف من الاعتقال في كل لحظة. أُهلكت أسرتي، دُمرت حياتي، والآن أواجه محاكمات باطلة". وهو يتكلم، انهمرت دموعه كدموع طفل. حاولنا تقديم العزاء وبث الأمل فيه، ولكن في أعماقنا، كنا نعلم أن عجزنا عن مواساته لا يُحتمل. في هذه الأرض، أن تكون مسلمًا يعني أن تعيش في دوامة من الرعب، حتى يأتيك الفرج من رصاص الظالمين.

بعد أيام قليلة، عندما بدأت تعود حواس أخ حليمإلى وضعها الطبيعي، انسابت كلماته بصورة متماسكة وعميقة. تحدث قائلًا: "أنا من أمروهة بالأصل، لكننا كنا في منزل الجدة خلال العيد. رأيت بأم عيني أخي يستسلم للموت. الرصاصة كانت قد اخترقت صدره. تلك النظرة المتجمدة بالخوف في عينيه ما زالت تطارد ذاكرتي. الظالمون حرموه حتى من فرصة الحصول على العلاج. ربما

كان بإمكانه النجاة لو تُركت له الفرصة، وهذه الفكرة قد تلازمني كظل طوال حياتي." كانت كلماته تنضح بألم عميق وحزن لا يُوصف، يسرد حكاية مأساة لا تنسى.

كلما حاول أخ حليم أن يتحدث عن مأساة مصلى العيد، كان يتوقف عند بضع كلمات، وكأن اللغة تخذله. في يوم، بدا مزاجه أفضل، وبدأ يسرد كيف نجا من ذلك النهر الدموي. قال بنبرة تمزج بين الدهشة والأسى: "أتعجب أحيانًا من شجاعتي، أو ربما يجب أن أقول جبني. بعد إطلاق النار من قبل الشرطة، وفي زحمة الهروب العام، لم يكن أحد يعرف أين ذهب الآخرون. كنت أعلم بموت أخي، لكن جدي وعمي لم يعودا إلى المنزل. ظللت أدور حول المقبرة لأيام، أفحص الجثث في شاحنات الشرطة، أبحث بين المصابين في المستشفيات. لم أجد أثرًا لعمي أو جدي. وبعد حوالي أسبوع، عاد عمي فجأة إلى المنزل. في منتصف الليل، دق الباب، وكنا مذعورين. من يكون في هذا الوقت؟ بعد تردد، فتحنا الباب. كانت الدهشة بادية على وجوهنا عندما رأيناه. سألته كيف عاد بهذه الطريقة الغامضة. قال: 'ماذا أقول لك؟ لا يمكن تصديقه، لكن عندما يتعلق الأمر بالبقاء على قيد الحياة، يفعل الإنسان أشياء لا يتخيلها. بعد إطلاق النار من قبل الشرطة، واجه المسلمون الشرطة بشجاعة لفترة، لكن عندما وصلت التعزيزات الشرطية وبدأوا في اصطيادنا كالحيوانات، لم يكن هناك خيار سوى الفرار للنجاة بالحياة. لجأت إلى مقبرة قريبة، وعندما شعرت بتواجد الشرطة هناك، اختبأت في قبر مهجور. بقيت هناك جائعًا وعطشانًا لثلاثة أيام. عندما قل الخطر، ذهبت إلى منزل قريب. كانت الشرطة لا تزال تبحث في المناطق المسلمة عن الرجال المسلمين. فكر في الأمر، استغرق عمي أسبوعًا للعودة من مصلى العيد إلى المنزل'".

وسألت أخ حليم عن جده، فأجاب بصوت محمل بالأسى: "جدي، تم اعتقاله من منزلنا، وكان مريضاً بالفعل. يحكي الناس أن الشرطة كانت تهاجم الأسرى بعنف وحشي، تضربهم بالعصي لدى محاولتهم الخروج من سيارة الشرطة. أُصيب جدي بضربة قاسية على رأسه، وانفجر دمه، ملطخًا لحيته

البيضاء بالأحمر. لم ترحمه الشرطة حتى في ذلك الحال. دُفع إلى الأرض ولم يعد قادرًا على النهوض". بينما كان يروي ذلك، اغرورقت عينا أخ حليم بالدموع مجددًا، وقال بصوت متهدج: "عمي، الذي نجا بأعجوبة، لم يعد فيه ما يدل على الحياة. يشبه الجثة الحية. تلك الليالي الثلاث التي قضاها مختبئًا في قبر مهجور سلبته كل ما تبقى من روحه. عندما أرى عجزه، يبدو لي أن موت جدي كان رحمة. على الأقل، دُفن بكرامة في قبره. نحن، الذين بقينا أحياء، نحمل الآن مأساة العيش كالموتى". وهكذا، تساقطت دموع أخ حليم مرة أخرى، في حين كانت كلماته تحمل وجعًا يفوق الوصف. كان يريد قول المزيد، لكنني فضلت عدم الضغط عليه، خشية أن ينهار تمامًا تحت وطأة هذا الألم العميق.

في مركز التعليم العام، أنشأ الأستاذ سورتي نادي الكتب الرائعة، حيث كان يجمع العقول الفضولية للتداول حول الكتب العظيمة التي لها صدى في العالم. السكرتير الذي يدير شؤون النادي، عبد المجيد شمسي، كان من زملائنا في السكن الجامعي. شمسي، وإن كان طالب هندسة، إلا أن روحه كانت مشدودة نحو عوالم الأدب والفلسفة. كان يغوص في بحور الشعر أحيانًا، ولديه هوس بجمع الكتب النادرة. كان يرتاد بازار الأحد في دلهي كل أسبوعين أو نحو ذلك بحثًا عن كنوزه المطبوعة.كانت غرفته ممتلئة بالكتب المتراكمة، بعضها حديث ولكن يحمل عبق التاريخ. في أحد الأيام، لفت انتباهي وجود كتابين لبريمو ليفي. الأول بعنوان *Periodic Table*، الذي ظننته في البداية كتابًا عن الكيمياء. أما الثاني، فكان بعنوان *If this is a Man*، وبدا كأنه سيرة ذاتية. كان الكاتب من الطائفة اليهودية ويروي فيه تجربته القاسية التي عاشها في معسكر الاعتقال النازي لمدة عشرة أشهر، سرد ينقلنا إلى أعماق الألم والبقاء.لأول مرة في حياتي، وجدت نفسي ممسكًا بسيرة ذاتية كتبها مؤلف يهودي. بدأت القراءة بفضول متزايد، ومع كل صفحة، غرقت أكثر فأكثر في أعماق النص. كانت هناك شعور بالألفة الغريبة تجاه هذه التجربة. قرأت نصف الكتاب بسرعة غير معهودة، رغم رغبتي في التأمل عند كل فقرة، ولكن الرغبة في فهم ما عاناه البشر على يد أقرانهم في تلك

المعسكرات كانت تدفعني للمضي قدمًا. وصلت إلى فصل يحمل عنوان "الغرق والناجون"، فصل يحكي عن أولئك الذين ابتلعتهم أمواج اليأس ومن أُنقذ منهم بأعجوبة. كان من المدهش اكتشاف أنه في معسكرات الاعتقال النازية، كان يُطلق على أدنى فئة من السجناء، الذين فقدوا كل بريق للحياة، اسم "المسلمان". كلمة "مسلمان" تعني ذلك السجين الذي تلاشت صحته، وفقد قدرته على العمل القسري، ولم يعد مصيره سوى غرف الغاز. هذا السجين لم يكن يُعتبر جديرًا بالصداقة أو المساعدة، بل كان ذكره يُعتبر مصدر إحراج. أصبح شخصًا بلا قيمة، لا يستحق تعاطف زملائه في ظل قواعد قاسية تحكم المعسكر:

"لمن يملك يُعطى، ومن لا يملك يُؤخذ منه حتى ما يملكه".

في ذلك المعسكر الرهيب، حيث كان كل سجين يستحق لمسة من التعاطف، كانت فكرة التعاطف مع "المسلمان" تُعتبر ترفًا زائدًا. فلكل كلمة من التعاطف ثمنها، فلماذا إذًا تُهدر على من لا مستقبل له، على من يقف على أعتاب غرف الغاز؟ الأهمية في المعسكر كانت تُقاس بمدى الفائدة. الأطباء، الخياطون، صناع الأحذية، الموسيقيون، الطهاة، وحتى الشباب الجميل كانوا يستطيعون بناء علاقات مع الضباط الألمان. أما الآخرون، فكانت قيمتهم تُقاس بقدرتهم على مساعدة النازيين في إدارة المعسكرات، وتقديم الاستراتيجيات للسيطرة على زملائهم. كان هؤلاء يُعرفون باسم "كابو"، وكان عدد الضباط الألمان محدودًا للغاية، وبالتالي كان الكابو هم من يديرون المعسكرات بالفعل، وهم الذين يفهمون نفسيات رفاقهم ويعرفون كيف يتحكمون بهم ويسيطرون عليهم.في ظلال تلك المعسكرات المظلمة، كان الكابو اليهود يتجاوزون أحيانًا في قسوتهم حتى النازيين أنفسهم. يساورهم الخوف من أن تساهلًا بسيطًا في الإدارة قد يؤدي إلى خسارتهم لمناصبهم، ومعها امتيازاتهم ورعايتهم. فكانوا يفرضون الظلم بلا رحمة على أبناء قومهم للحفاظ على مراكزهم. كان الخيار لديهم محدودًا: إما أن يتمسكوا بدور الكابو، متجاوزين كل الحدود الأخلاقية للحفاظ على مكانتهم، أو يتحولوا إلى سجناء عاديين، متجهين نحو مسار "المسلمان."

كان بريمو ليفي يتأمل في مصير الرجال الذين فقدوا الأمل والحياة، الغارقين في يأسهم، العاجزين عن إدراك معاناتهم أو حتى سماع صرخات ألمهم. كيف يمكن أن يُسمى موت الذين قد ماتوا في الحياة بالفعل؟ هذه الحالة من اليأس والقنوط في معسكر أوشفيتز كانت تُعرف باسم "المسلمان"، الشخص الذي فُصل عن كل ما يُعتبر إنسانيًا، فقد كرامته وعزته وأصبح كالجثة الهائمة، متخليًا عنه الإنسانية والاحترام.

عندما سمعت تعريف "المسلمان" من فم مفكر يهودي، غمرني العجب. كان معسكر أوشفيتز ليس إلا مختبرًا لتعذيب اليهود وتحويلهم إلى "مسلمان". لتحويل الملايين إلى هذه الحالة المتهالكة، لسلب كرامتهم وتحويلهم إلى جثث تمشي على الأرض، استلزم الأمر إنشاء معسكرات النازية الوحشية على نطاق واسع. هذا الظلم الفظيع صرخت ضده الإنسانية، وتحركت طائرات الحلفاء، لكن في الهند المقسمة، حيث يعاني المسلمون من مقاومة دموية منظمة من الحكومة لعقود، يسير حوالي عشرين مليون مسلم هندي على خطى "المسلمان" في أوشفيتز.

تعريف "المسلمان" الذي نشأ من هذا المعتقل هو الشخص الذي سُلب منه كل ما هو إنساني. كلما قرأت هذه السطور، كانت تطفو على ذهني صورة عم حليم، الذي بعد فترة وجيزة من الاختباء في القبر، بدا خاليًا من الحياة، كأنه قد أتم حياته الحقيقية وما تبقى له إلا استمرار لحياة نصف ميتة. كانت عيون حليم الدامعة تراودني مرارًا. لم تكن مذبحة مراد آباد حادثة فريدة في هذا البلد. بدأت أشك في صلابة تفكيري. ألست أنا أيضًا شخصية في هذا المختبر الوجودي؟ أدعو الله أن يحميني من التحول إلى "مسلمان."

٢٠

المولوي كابو

في ظلال تلك المعسكرات القاسية، حيث طغى اليأس والقهر، أدركتُ من خلال قراءة بريمو ليفي مدى مأساوية ما عاناه اليهود. لم يكن الأعداء وحدهم هم من صنعوا هذه المأساة، بل كان لأبناء الشعب اليهودي أنفسهم دورًا لا يستهان به. عدد الضباط الألمان كان محدودًا للغاية، فكيف يمكن لقلة منهم أن تحكم قبضتها على آلاف السجناء؟ وجد النازيون حلاً في تجنيد بعض هؤلاء السجناء كـ"كابو"، مانحين إياهم السلطة لتكوين فرق من السجناء أنفسهم لضمان الانصياع لأنظمة المعسكر. تلك الفرق كانت تُعرف بـ"الكوماندو." كان المشهد مذهلاً: معسكر يحتوي على آلاف السجناء تحت رقابة قلة من ضباط الإس إس، ويُديره الكابو، الذين لديهم مجموعاتهم الخاصة من الأقوياء. استُخدموا للإكراه على العمل القسري، حيث لم يكن مسموحًا لأحد بالتذمر، سواء كان مريضًا أو مُنهكًا من قلة النوم أو نقص التغذية. كانت قسوة الكابو بلا رحمة، فلم يكن هناك مجال للعطف أو الشفقة في تلك الظروف القاهرة.

تجسدت في كتابات بريمو ليفي مأساة اليهود تحت نير النازية بشكل يدعو للدهشة. أذكر وصفه لأحد الكابو وهو يمسح يديه المتسختين على ثيابه، معاملًا إياه كما لو كان شيئًا لا إنسانًا، دون أدنى تأسف. كان لهؤلاء الكابو، الذين كانوا أسرى أيضًا ومن أبناء الشعب اليهودي، سلطة هائلة حصلوا عليها من خلال الإدارة الدقيقة للأمور وتعاونهم مع النازيين.كانوا دائمًا يخشون أن يُظهروا أي لين تجاه أبناء قومهم، وإلا فقدوا مناصبهم المرغوبة. تحملوا بفخر مسؤولية فرض العبودية على زملائهم السجناء، مقابل مرافق وامتيازات معينة. كانوا معفيين من

العمل القسري، وكان دورهم هو إبقاء السجناء في حالة استغلال دائم. تلقوا حصة أكبر من الطعام، غرف خاصة للمعيشة، وتجنبوا مرارة المراحيض العامة. في بعض الأحيان، كانت تُمنح لهم سجائر وزجاجات الكحول. كان مطلوبًا منهم فقط الحفاظ على الوضع القائم. وعلى الرغم من أن بعض الكابو الطيبين استخدموا مناصبهم لمساعدة الآخرين، إلا أنه كان هناك إجماع بين جميع الكابو، الطيبين والسيئين، على ضرورة الحفاظ على الوضع الراهن وعدم السماح بأي تغيير.

في روايته التي تشهد على أهوال الحياة في المعسكرات، يصف بريمو ليفي كيف تُطحن الأرواح في مواجهة اليأس المطلق، حيث يتلاشى بصيص الأمل. في هذا العالم القاسي، يصبح قبول المناصب المعروضة مقابل الخيانة للقوم أمرًا لا مفر منه، فالرفض يعني فقط ترك الفرصة لغيرك. تُقال أمثال عن توحد الأمم في أوقات الشدة، لكن قوانين المعسكرات تنسف هذه الحكمة. هناك، يُقاس النجاة بمدى قدرتك على تجاوز الآخرين، وكل خطوة نحو الحياة تُسلب من إنسان آخر يشبهك. في غرف الغاز والأفران التي كانت تُحرق فيها جثث اليهود، كان المسؤولون هم أنفسهم من اليهود. كانوا يُعرفون باسم "سوندركوماندو"، وكان من مهامهم استخراج الأسنان الذهبية من الجثث قبل حرقها. هذا العالم المروع من الظلم والاستبداد كان، في جوهره، مُدارًا بأيدي الكابو. كيف لعدد قليل من الضباط الألمان أن يتحكموا في ملايين اليهود؟ كانت الإجابة مخبأة في ظلال العبودية والخيانة التي أشاعها الكابو بين أبناء قومهم، مُجسدين لوحة قاتمة من اليأس والقهر.

عندما قرأت كلمات أبو الكلام آزاد، تلك العبارة التي تحدث فيها إلى المسلمين، "تذكروا، لا يمكن لأحد أن يهزمنا إلا نحن أنفسنا"، بدأت أُدرك حقيقة جديدة ومذهلة. هل تقوم هذه الهند العلمانية المنقسمة على أكتاف "الكابو"؟ من فتنة أحمد آباد عام ١٩٦٩ إلى مذبحة موراد آباد في عام ١٩٨٠، يستمر القمع المنهجي للمسلمين دون صوت قوي يُحدث فرقًا. النخبة المسلمة، الوسطاء بين

حزب المؤتمر الحاكم والجماهير المسلمة، يسعون فقط للحفاظ على الوضع القائم، رافضين أي صوت ينادي بالتغيير. علماء متحالفون مع المؤتمر وسياسيون مسلمون، لا يجرؤون حتى على الاعتراض على النظام الحالي حتى في أقسى الأوقات. هؤلاء العلماء، الذين يظهرون وكأنهم يعجون بالحكمة الدينية، يحثون المسلمين على دعم المؤتمر في كل انتخابات، مستغلين خوفهم من الوطنية الهندوسية. هل هؤلاء العلماء والقادة السياسيون، المتمتعون بامتيازاتهم، قد باعوا بالفعل شعبهم مقابل بضع علب سجائر وزجاجات خمر، تمامًا كما فعل كابو اليهود، محافظين على حالة من النوم الدائم والعذاب الأبدي لأمتهم؟ كتاب ليفي كان بمثابة صدمة بالنسبة لي، يدفعني للتساؤل عن الحقيقة وراء ما يبدو لنا. أصرخ متوسلاً إلى الله أن يُظهر لي الحقيقة الكامنة وراء هذا الواقع، لأفهم الجوهر الحقيقي لهذا الوضع.



عندما غاب أخ حليم عن الصف لأيام عديدة، تملكني القلق، وقررت التحقق من حاله. في المساء، توجهنا إلى غرفته، حيث وجدناه مستلقياً على السرير، مما أثار فينا القلق. "كيف حالك؟" سألته. عند رؤيتنا، حاول النهوض، لكن ضعفه منعه، فاكتفى بالاستناد على السرير. قال بصوت خافت: "شعرت بحمى قبل بضعة أيام، لكن الآن لا يوجد حمى، لكني لا أشعر برغبة في فعل أي شيء. كل شيء يبدو بلا معنى. الوضع في موراد آباد لا يزال مقلقًا. لا يمر يوم دون وقوع حادث عنف. الأشخاص الذين دمرت بيوتهم وعائلاتهم، يتم الآن زورًا اتهامهم في قضايا كاذبة. يبدو أن لا أحد يهتم بحال أمتنا. كلما أغمضت عيني، تظهر لي صورة المصلى عيد." في محاولة لتواسيه، اقترحت: "لماذا لا تكتب عن هذه القضية؟ لديك موهبة في كتابة القصص، شارك هذا الألم مع الناس." فأجاب بنبرة محبطة: "كنت أظن أنني جيد في كتابة القصص، لكن الآن أصبحت أنا نفسي قصة، أدعو الله أن يمنح قصتنا نهاية سعيدة".

عندما تطرقنا إلى موضوع موراد آباد، اكتشفتُ أن القيادة الإسلامية تظهر تجاهلاً جنائياً تجاه القيام بأي عمل حاسم ردًا على المجزرة. "ألم تسمع عن اجتماع المشاورة الذي عُقد مؤخرًا؟" سألته. بنبرة محبطة، أجاب: "نعم، حضرت بنفسي الاجتماع الذي أُقيم في 'بيت الأطفال' في الحادي عشر من سبتمبر. كان هناك عدد من طلاب علي جره أيضًا. لكننا شعرنا بخيبة أمل شديدة حين وجدنا أنه، حتى بعد هذه المجزرة الرهيبة، لم يتخذ مجلس المشاورات أي خطوات عملية فعلية. كل ما فعلوه كان الجلوس، النقاش، ثم التفرق دون تحقيق أي تقدم ملموس".

"في الاجتماع، لم يتم الاتفاق على شيء ذي قيمة. بدا كما لو أنهم كانوا يؤدون مجرد طقوس فارغة من المعنى. كالمعتاد، تم تمرير قرار يعبر عن 'القلق الشديد'. شعورنا بالغضب كان لا يوصف؛ كنا نصر على أنه إذا لم يكن بمقدورهم فعل أي شيء آخر، فعلى الأقل يجب أن تذهب وفد من المشاورة إلى موراد آباد على الفور. عندما رأينا عدم استعدادهم حتى لهذا الأمر البسيط، أعربنا عن احتجاجنا بشكل صريح وقوي. تسود جو من التوتر في الجلسة. بدأ الطلاب برفع أصواتهم بشعارات تطالب القادة إما بالذهاب إلى موراد آباد غدًا أو التوجه إلى قبورهم؛ فنحن لا نحتاج لقيادة بلا فاعلية وبلا حساسية".

"من كان حاضرًا في الاجتماع؟" سألت بفضول. أخي حليم، الذي بدا مثقلًا بالهموم، أجاب بنبرة مختلطة بخيبة الأمل: "كان هناك كل تلك الشخصيات التي نعتبرها بؤسًا قيادتنا المتعاطفة. رؤساء مختلف الجماعات الإسلامية، علماء كبار، وقادة مجتمعيون، كلهم كانوا هناك. لكنهم بدوا كأنهم يتفادون الفعل، وكأن ألسنتهم مقيدة. لم يستطيعوا التعبير عن أي شيء سوى 'القلق الشديد.'"

"ثم ماذا حدث بشأن الذهاب إلى موراد آباد؟" سألت، متوقعًا إجابة أكثر تحديدًا.

حليم بك، وقد بدت عيناه ثقيلتين بالحزن، أجاب: "ذهب هؤلاء السادة إلى موراد آباد بعد عدة أيام، لكن قبل ذلك، التقوا برئيسة الوزراء إنديرا غاندي.

كأنهم يحتاجون إلى إذن لهذه الرحلة. وعندما وصل الوفد إلى موراد آباد تحت توجيهاتها، رتب مفوض موراد آباد إقامتهم في بيت الضيافة. نُظمت لقاءات مع السكان المحليين وبعد بضع ساعات من المناقشات، غادر هؤلاء السادة المدينة، مدفوعين بالخوف من أن بقاءهم قد يزيد من المخاطر".

"عندما ذهب هؤلاء الأشخاص بأمر من رئيس الوزراء وقام مفوض موراد آباد بترتيب إقامتهم الرسمية، فما الذي كانوا يخشونه؟" سألت. أجاب أخي حليم: "هذا ما لا أستطيع فهمه، لماذا كانوا مستعجلين للمغادرة من موراد آباد؟ كان يجب عليهم استغلال هذه الفرصة لزيارة أحياء المسلمين، الاستماع إلى آلامهم، وضع خطة لإطلاق سراح من ما زالوا في السجون، ترتيب محامين للتخلص من التهم الكاذبة، ورفع قضايا تعويض لمن قُتلوا ظلماً برصاص الشرطة، تسجيل شهادات الشهود عياناً لكي يعرف العالم الحقيقة. بعض الكتّاب والمؤلفين كانوا في الوفد، لماذا لم يفكروا في إعداد تقرير مفصل عن هذه المأساة لمنع حدوث مثل هذه الفظائع مرة أخرى؟"

"أولئك الذين كانوا في الوفد معظمهم من الشخصيات المحترمة بين المسلمين، لا أعتقد أنهم قصروا في جهودهم." عند سماع هذا، اشتعل غضب أخي حليم، قائلاً: "هذا النوع من التفكير المتعصب هو الذي أغرقنا. لا تقيّموا الناس بألقابهم ومظاهرهم، بل انظروا إلى مدى فائدة أعمالهم للأمة. يبدو لي أن كل كارثة تحل بالأمة توفر لقادتنا فرصة للقاء رئيس الوزراء. اجتماع للجنة التنفيذية، إعداد محضر، التعبير عن القلق في الصحافة، أو فرصة للتصوير الفوتوغرافي، ثم العودة إلى منازلهم. هذا قائلاً واضحًا بشكل متحمس: 'أعتقد أن هؤلاء الناس ربما ينتظرون حدوث فتنة ليحظوا بفرصة لقاء رئيس الوزراء'".

عندما فاض قلب حليم بمشاعر الأسى، بدا كأن روحه تستعيد بعضاً من الحيوية. استأذنت بالمغادرة، وأثناء رحلة العودة، لم يفتأ خاطري يتململ بفكرة أن حليم قد يكون على صواب. في أعقاب مجزرة ضخمة كهذه، تخلي مسلمو موراد آباد لمصيرهم المجهول لم يكن الحل؛ لو أُعدّت ورقة بيضاء، وأُجريت تحقيقات

قانونية ضد الضباط والحكام المتورطين، لأمكن ربما تغيير الانطباع بأن أمتنا بلا منقذ. لكن هذه مجرد جزء من المشكلة. علماؤنا وقادتنا، وخاصة الذين غمروا أنفسهم بنور القداسة والروحانية، الذين يستطيعون حشد الجماهير في احتفالات ندوة والذكرى المئوية لديوباند، لو أقدموا على خطوات عملية للإصلاح، فماذا لا يمكن تحقيقه؟ فلماذا يكتفون هؤلاء بمجرد تسليات رئيس الوزراء ولا يسعون لتغيير الوضع القائم؟ لماذا يظلون متمسكين بنفس النمط المتكرر من الفتنة والاجتماعات ولقاءات رئيس الوزراء؟ أحسست وكأنهم يُغذون فيّ فكرة أن احترامهم ومكانتهم يأتيان من لقاءاتهم مع رئيس الوزراء. يبدو أن رئيس الوزراء وحزبه يحتاجان إلى قادة يلجأون إليهم للمساعدة بعد كل كارثة ومجزرة. يبدو أنهم لا يريدون أن ينطقوا بأي كلمة تحد ضد النظام الحاكم. وللحظة، شعرت كأن علماءنا وقادتنا يقومون، عن علم أو جهل، بدور الكابو في هذا العالم الغامض للهند المقسمة، لكن سرعان ما رفضت هذه الفكرة، معتبراً أن مثل هذه الأفكار حول الناس المقدسين والروحانيين ليست سوى وساوس شيطانية.

٢١

معركة من أجل الحقوق والعدالة

مع انطلاق العام التعليمي الجديد، استمرت محادثاتنا في التفاعل حول مأساة مراد آباد، تلك الحادثة التي بدت كأنها ألقت بظلالها الثقيلة على قلوبنا. لم يزل يسود الاعتقاد بأن هذه الأمة المهملة تفتقر إلى من يحميها، حتى وإن استمرت الحياة في سيرورتها الطبيعية. قبلت القيادة الدينية والسياسية ما حدث في مراد آباد كأمر واقع، ولكن كان هناك إحساس متنامي بأن العوامل التي أدت إلى تلك المأساة لم تزل قائمة. لم تظهر أي مؤشرات على تغيير في نهج الحكومة أو في سياسات الشرطة، ولا حتى في استجابة المسؤولين السياسيين. كان القلق يعتمل في الأفئدة، إذ كان من الممكن في أي لحظة أن تتكرر مأساة مماثلة. كان النقاش حول إيجاد مسار جديد يملأ أروقة الطلاب بالحماس، لكن لم يبدُ أي طريق واضح. وفي خضم هذه الأوقات، أصدر الأستاذ سورتي أمراً بدعوة أحد الشبان لمناقشة قضايا المسلمين، واختار لهذه المهمة جاويد حبيب، في مبادرة لرسم مسار جديد لهذا النقاش.

كان جاويد حبيب من المفضلين لدى الأستاذ سورتي، واشتهر كقائد طلابي في حملة حفظ هوية الجامعة كأقلية. حقق شهرة واسعة من خلال تنظيم مؤتمر الشباب المسلم وكان متحدثًا بليغًا، يصدر صحيفة أسبوعية في دلهي. ربما كان يبحث عن مسار سياسي جديد. كان الأستاذ سورتي يلقبه بـ"القلندر النصف" لاحتفاظه بروح القلندر حتى في الساحة السياسية.بوصول جاويد حبيب، انبعثت الحياة مرة أخرى في نادي الكتاب القديم الذي أسسه الأستاذ سورتي، وأصبحت قضية المسلمين محورًا رئيسيًا للنقاش. كانت الخطة تقضي بأن أقدم كلمات

تمهيدية كسكرتير المنتدى، ثم أترك المنصة للمتحدث الرئيسي. بهدف إثراء النقاش، تم تكليف بعض الطلاب بتقديم بيانات وإحصائيات ضرورية عن الأوضاع السياسية والثقافية والاقتصادية للمسلمين.جاويد حبيب كان مقررًا عامًا يجيد جذب انتباه الجمهور بخطابته الساحرة، متجاهلًا الأرقام والإحصائيات. أسر الطلاب بخطابه لمدة تصل إلى ساعة ونصف، لكن السؤال الأساسي حول مستقبل المسلمين وكيفية تحقيق تمكينهم سياسيًا ظل دون إجابة.

في تلك الأيام، كان جاويد حبيب منهمكًا في تشكيل تحالف سياسي بين الداليت والمسلمين تحت تأثير جاغجيوان رام. قبل خطابه بيوم واحد، عبرت بشدة عن رفضي لهذا النهج السياسي، معلنًا أنه ينحرف بشكل كامل عن أجندة الإسلام. أكدت أن قادة الداليت، بغض النظر عن نواياهم الطيبة، لا يمكنهم قيادة مهمة الأمة المسلمة كأفضل أمة في هذا البلد.كانت كلماتي قوية لدرجة أنها بدت كإنكار تام لخطاب جاويد حبيب. استمع إليه بابتسامة لكنه اشتكى للأستاذ سورتي من تصرفي. رأى جاويد أن قراءة كتابات الإسلام السياسي والمفكرين الإسلاميين قد شكلت عقلية الشباب بطريقة معينة. رد الأستاذ سورتي على الأمر بالقول إنه إذا وجد شخص يمتلك الغيرة والحماسة الدينية وتعرض لكتابات مولانا مودودي، فمن الطبيعي أن يتأثر بها أو ينضم إلى جماعة الإسلامية. لكن إذا دخل شخص الجماعة في شبابه وظل عالقًا هناك طوال حياته، فيجب الحزن على عقله واعتبار أن نموه العقلي قد توقف.ضحك الأستاذ سورتي وأعاد الجو الودي إلى الاجتماع. كان الأستاذ سورتي عضوًا نشطًا في جماعة الإسلامية لفترة طويلة والآن، حسب قوله، استمرت رحلته العلمية والفكرية بعد تجاوز الجماعة.

في يوم ما بعد انتهاء البرنامج، كنا نجلس تحت شجرة المولسري في مركز التعليم العام، نستمتع بشرب الشاي. خلال ذلك، انضم إلينا أخي حليم. كان قد شارك في خطب جاويد حبيب، لكنه كان صامتًا ومنعزلًا في أغلب الأوقات. اليوم، عندما رأى نسخة الجيب من دستور الهند بيد عادل، اشتعلت حماسته. قال بنبرة حاسمة: "يبدو أنك ستحفظها عن ظهر قلب! من المهم معرفة الدستور لفهم

الحماية الدستورية الممنوحة لنا. الكثيرون منا لا يدركون حتى حقوقهم الدستورية". حاول عادل طمأنته، مشيرًا إلى اهتمامه بالدستور نظرًا لدراسته العلوم السياسية كمادة إضافية. كان يتساءل لماذا، على الرغم من الضمانات القوية التي يوفرها الدستور للمسلمين كمواطنين وخاصة كأقلية، يظل وضع المسلمين في البلاد متدهورًا. وكان هذا الموضوع يثير نقاشات حادة بينه وبين عباس.

بعد واقعة مراد آباد، ظل أخي حليم في حالة من الكآبة لعدة أيام، ثم تحول إلى شخصية ملتهبة بالاحتجاج. أصبح من الصعب التنبؤ بأفعاله. في البداية، كان يقضي وقته بعيداً عن المجلس، منغمساً في شرب الشاي، ثم انتقل إلى مركز الاهتمام. جذب كرسياً وجلس في وسط الجميع، معلناً: "أيها الإخوة، هذه المناقشات لن تؤدي إلى شيء. الذين يتحدثون عن إشعال شموع الحب بعد مراد آباد ليس لديهم فهم لمعاناتنا. لا يدركون ما مررنا به وكيف تستمر جروحنا الداخلية في النزف. أولئك الذين يحاولون تغطية معاناتنا بكلمات التعزية الإنسانية هم في الواقع مجرمون. لا يمكن أن يكونوا محبين لنا. لو عاشوا هذا العذاب بأنفسهم، لفهموا مدى قسوة تجاهل آلام الآخرين والتقليل منها في خطبهم العاطفية على القلوب المجروحة."

أخي حليم، صحيح ما تقوله، لكن يجب علينا أن نسعى للأمام. لا بد من اكتشاف حلول جديدة، فمتى سنتوقف عن النواح على مأساة مراد آباد؟

"النواح؟" انتفض حليم بسخرية واضحة وأدار كرسيه بعيدًا عن الجمع، كأنما يغادر الاجتماع احتجاجًا.

"أيها الرفاق، أرى أننا لم نستغل بعد التحفظات الدستورية والقانونية المتاحة لنا. يجب أن نُعد أنفسنا لمعركة قانونية ودستورية كمسلمين في هذا البلد."

"لكن عن أي دستور تتحدث؟" رد عباس بحذر، "الأحكام البراقة على الورق تفقد بريقها في الواقع. تلك الأحكام تعزز قوة الأقوياء على حساب الضعفاء. وفي

الحقيقة، يبدو لي أن الدستور ذاته يحتوي على عناصر تضمن هيمنة الأغلبية الهندوسية."

"وكيف ذلك؟" تساءل عادل، مستفهمًا.

فتح عباس الصفحات الأولى من الدستور وأشار إلى المادة الأولى: "انظروا ماذا تقول: 'الهند، أي بهارات، ستكون اتحادًا للولايات'". كانت هذه الكلمات بمثابة مقدمة لنقاش حاد حول الحقوق والعدالة في إطار دستوري بدا كأنه يخذل من كان يفترض أن يحميهم.

"ما هي 'بهارات' هذه؟ إنها الهند الأسطورية، حيث كان يُنظر إلى الهندوس من الطبقات العليا على أنهم المتفوقون والمسيطرون. يُروى أنه عندما كانت الجمعية التأسيسية تصوغ خطة الهند الجديدة، حاول قادة الهندوس تصور هندوستان الحرة كإحياء لبهارات الأسطورية. بعض السادهو والسنت انخرطوا في إضراب عن الطعام، وإحدى النساء السنياسن أصرت بشدة على أنها لن تنهي إضرابها حتى تضمن أن الهند الجديدة ستُدعى بهارات وأن اللغة الوطنية ستكون الهندية. نهرو وقادة المؤتمر الوطني الهندي استجابوا لمطلبهم. ذكر 'بهارات' في البند الأول من الدستور يشير إلى أن الحكام الجدد للبلاد هم من يرتبطون بالحضارة الهندوسية القديمة لبهارات."

"لم أفكر في هذا الأمر من قبل"، عبر عادل بلهجة مفعمة بالدهشة والاستغراب.

"ليس هذا فقط، دعني أوضح لك مسألة أكثر إثارة للاهتمام. فيما يخص التأكيد في المادة الأولى من الدستور على جعل الهند اتحادًا، فهناك خلفية تاريخية لهذا. الهند كانت دومًا عبارة عن اتحاد لدويلات صغيرة متعددة. حتى في عهد المغول، كان الراجا والمهراجا يحكمون بدرجة من الاستقلالية. واستمر هذا الوضع خلال الاستعمار البريطاني. من هذا المنطلق، كان يفترض أن تكون هذه البلاد اتحادًا فيدراليًا. لكن الذين دعوا لجعلها اتحادًا وحاولوا تركيز كل السلطات في المركز، كان تبريرهم أن غياب حكومة مركزية قوية في الماضي سهل على الغزاة

الأجانب السيطرة على البلاد. إذا استمعت إلى خطابات أمثال جاجت نارايان لال وكابور، سترى واضحًا أنهم يطالبون بحكومة مركزية قوية لحماية الهند المستقبلية من الغزاة المسلمين، مثل المغول وغيرهم."

"ما هذه النقاط العجيبة التي تأتي بها؟" تساءل عادل، معبراً عن دهشته العميقة.

"حسنًا، ليست مجرد نقطة أو اثنتين، بل لدينا هنا قائمة طويلة"، رد عباس. "على سبيل المثال، ألقِ نظرة على قانون الهندو الذي تم تمريره في عام ١٩٥٥ في عهد نهرو. هذا القانون قدم تفسيرًا لكلمة 'هندو' يشمل كل شخص باستثناء المسلمين، المسيحيين، اليهود، والزرادشتيين. على الرغم من أن البوذيين، الجينيين، والسيخ ظلوا يحتجون ضد إدراجهم تحت هذا التصنيف. ألا ترون كيف يضع الدستور الأغلبية الهندوسية، أو لنقل الفكر البراهماني، في قلب المشهد الوطني، في حين يُنقل الآخرون إلى الهامش بموجب هذا التعريف؟ وإذا كنتم لا تزالون غير مقتنعين بكلامي، انظروا إلى المادة ٤٨ التي تتحدث عن الزراعة والحيوانات العاملة. ما معنى أن تتولى الدولة مهمة حماية الأبقار والعجول؟ هذا جدول أعمال للطبقة العليا من الهندوس، حيث لا يعتبر الكثيرون من الهندوس البقر مقدسًا، خاصة في جنوب الهند، بالإضافة إلى الداليت والمسيحيين والمسلمين الذين يرون هذه المادة كنوع من القمع الحكومي. ما هذا النوع من العلمانية الذي يحاول فرض روحانية فرقة دينية واحدة على الآخرين من خلال آليات الدولة؟"

"ربما يكون لديك نقطة جيدة، لكن لا يمكننا إغفال الجوانب الإيجابية الأخرى. خذ على سبيل المثال المادة ١٤، والمادة ١٨، والمادة ٣٠. وأكثر من ذلك، فكر في المقدمة التي تعكس طموح الدستور لبناء مجتمع يقوم على الحرية والمساواة والكرامة والأخوة الإنسانية. كيف يمكنك تجاهل هذه الجوانب؟" قال عادل، وكأنه يطلق سهامًا من سهامه الدستورية.

"لا أنكر هذه النقاط"، رد عباس. "أحاول فقط الإشارة إلى أنه تم زرع بعض العناصر من قبل المتعصبين داخل هذا الدستور الجميل، والتي توجه هذا البلد نحو إحياء الحضارة الهندوسية بدلاً من التوجه نحو عالم حديث. وهذا ليس فقط من قبل المتعصبين، بل أيضًا من أولئك الذين يُعتقد خطأً أنهم هندوس علمانيون ومستنيرون. خذ مثالًا على مسألة اللغة الوطنية. قد توحي بيانات نهرو وغاندي الأولية للكثيرين بأنهما لم يرغبا في اختفاء الأردو من هذا البلد. حاول غاندي حل نزاع اللغة الوطنية بالإشارة إلى أن لغتنا الوطنية ستكون الهندستانية، التي يمكن كتابتها بالديفاناغاري والفارسي، لكن في الواقع، أصبح الهندي بالديفاناغاري هو اللغة الوطنية، وتلزم المادة ٣٥١ الدولة بالاستعانة بالسنسكريت لتوسيع مفردات اللغة الهندية. بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون السنسكريت لغة الآلهة والأساطير، فإن تعزيز الهندي الممزوج بالسنسكريت يبدو وكأنه تحقيق لواجب ديني. فأين الخطأ في هذا التصور؟"

"عباس، كلماتك تحمل وزنًا كبيرًا، لكن دعني أضف نقطة مهمة من جانبي"، قال حليم بحزم، وهو يلتفت إلينا بعد أن كان يدير ظهره للمجموعة. "مؤلفو الدستور، سواء كان ذلك بشكل واعٍ أو غير واعٍ، خلقوا فضاءً يسمح بأن تبقى تلك الوعود الرائعة والتأكيدات على الحماية مجرد وعود، مكتوبة بين السطور. لماذا، بعد ثلاثين عامًا، لم تتحقق بعد تلك الأخوة الإنسانية؟ لماذا لا تزال الحرية والمساواة والكرامة مجرد أحلام؟ صحيح، مهندسو دستورنا قد صنعوا عربة رائعة، لكنهم زرعوا بها بصمت آليات للرجوع للخلف. وإلا، لماذا كلفت الدولة بمسؤولية تطبيق قانون مدني موحد، وحظر الذبح البقري، وترويج الهندية الممزوجة بالسنسكريت، لتأخذنا مرة أخرى إلى عصور الهند القديمة؟ والأهم من ذلك، كل هذا القمع القانوني والحكومي يتم تغطيته بستار التنوير، العلمانية، وحكم القانون".

"أظن أنكم تمزجون بين شيئين: النظرية الدستورية ومعضلات التطبيق العملي"، أشارت كلماتي، لكن حليم، الذي كان منفصلًا عن الحوار، تحول إلينا

فجأة وقال: "المسألة العملية هي أنه لا يرغبون في بقاء أحد حيًا في هذا البلد سوى أنفسهم. لا يريدون رؤيتنا أحياء، وأنتم تعتقدون خطأً أننا ما زلنا على قيد الحياة. لكن الحقيقة هي أنه في هذه السراب العلماني، لم يبق أي مؤمن حيًا. لقد متنا في أعماقنا. بعد مذبحة مراد آباد، أين الحياة؟ والذين يعتقدون أنهم ما زالوا أحياء، أصبحوا متبلدين لدرجة أن عقولهم صمتت وحواسهم تجمدت، وكأنهم ليسوا بشرًا بل زومبي."

عندما رأى عادل حليم يعود إلى عالم اليأس، حاول تهدئته بكلمات تحفيزية: "حليم، أنت تبالغ في التشاؤم. ألم يقل شاعر المشرق 'هناك شيء يجعل وجودنا لا يزول'؟ كأمة، مررنا بأزمات كثيرة. يجب علينا أن نتجاوز مأساة مراد آباد ونجد طريقًا للمضي قدمًا".

رد حليم بحدة: "ذلك شعر وهذه هي الحقيقة. أصدقاؤنا العلمانيون، الذين يحثوننا على نسيان حادثة مراد آباد والتقدم للأمام، يريدون فقط أن نبقى على قيد الحياة بالحد الأدنى. لا يمكنهم تحمل وجودنا الواعي والنظري. وبخصوص ما تقوله عن التقدم باستخدام الحمايات الدستورية، فإن العقبات الدستورية والقانونية نفسها تسد الطريق. أخبرني، كيف يمكن للمسلمين التقدم عندما يتم تخصيص نصف المقاعد البرلمانية المخصصة لهم للمجتمعات المحرومة والقبائل؟ إلى أين يذهب المسلم المسكين؟ المقاومة موجودة في كل مكان".

"تمامًا، عادل، لكن الأمر يتطلب الكثير من الحكمة والصبر"، قلت، محاولًا جسر الفجوة في وجهات النظر. "لن يمكننا إنكار أن الظروف خطيرة. يجب أولاً أن نعيد الحياة الطبيعية إلى بلادنا. يجب أن نعزز التفاهم والحوار بين الطوائف المختلفة لمنع الاضطرابات".

حليم بصوت حاد وعميق، عبّر عن استيائه: "أين تحدث هذه الفتن؟ هذا ليس بفتنة، بل مذابح منظمة يستخدمها الحكام لمصالحهم السياسية".

"يجب إذًا أن نحاور هؤلاء الحكام".

"لكن الحوار يفترض المساواة، وهم يروننا مجرد أدوات في أيديهم".

"صحيح،" أجبته، محاولاً إيجاد بعض الأمل. "لماذا لا نحاول فتح أبواب قلوبهم؟ من يعلم، قد تنفتح باب الرحمة".

حليم نظر إليّ بنظرة عميقة وقال: "هذا ممكن، لكنه يتطلب بعض النبوة".

أجبته بابتسامة: "ألسنا هنا كرسل؟ نحن مكلفون بمهمة نبوية".

"من هم هؤلاء الناس؟" بدا حليم كما لو كان يحاول فهم شيء ما. ثم انفجر بقهقهة ساخرة، قائلاً: "أه، خير أمة! تدّعون أننا خير أمة، لكن يبدو أن لديكم موهبة في سرد النكات". ثم صرخ بعمق، "إذا كنا حقًا خير أمة، فلماذا نعيش هذه المأساة؟ لو كان لدينا إله، لماذا تُركنا بلا عون؟ نحن الخطاة، لكن ماذا عن تلك الأرواح البريئة؟ سبعمائة طفل لقوا حتفهم! هل لأحد إجابة على ذلك؟ هؤلاء الأطفال ذهبوا للسجود لإلههم. ماذا حدث لإله المسلمين في الهند؟ هل هاجر إلى باكستان؟" ترتعش صوته وتتملأ عيناه بالدموع. وبصوت مخنوق، قال: "أي إله هذا؟ أي عبادة؟ وأي مهمة نبوية؟ إذا التقيت به، سأسأله: ما هي الجريمة التي ارتكبناها باسمك لتحرمنا من الحياة، بل وحتى من الموت؟"

عندما رأينا حليم يغرق في عمق مأساة مراد آباد، قررنا البقاء صامتين. لقد وصل إلى مستوى من اليأس حيث لم يعد النقاش مجديًا.

٢٢

مجلة التجديد

أخي حليم، الذي كان يومًا ينسج من الكلمات أجمل الأحلام، وجد نفسه فجأة في عالم حيث ذبلت شغفه بالكتابة والنشر كزهرة في الصحراء. في تلك الأيام، حين تجمعنا في المنتدى حاملين حلم إصدار مجلة أدبية، لم يبد أخي حليم أدنى اهتمام، كأنما غادرت روحه ميدان الأدب.السيد سورتي، الذي كان بمثابة النور في ظلام أخي حليم، تحدث إليه قائلاً: "يا أخي حليم، الكتابة ليست مجرد رصف للكلمات، بل هي نسيج الروح ودواء للآلام الخفية. يجب أن تستمر، فبالنسبة للمفكرين، هي سفينة النجاة في بحر هذا الزمن العاصف".هذه الكلمات أعادتني بالذاكرة إلى أيام الطفولة، حيث كان الأستاذ، ذلك المبدع الذي لا يكل، يملأ الصفحات بكلماته الثاقبة. وفي تلك اللحظة، أدركت أن كتاباته ربما كانت له استراتيجية بقاء، مثل محارب يتسلح بقلمه في وجه عواصف الحياة.

مع خططنا الطموحة لتجديد الربع سنوية، توجهنا إلى مكتب رئيس الجامعة، السيد حامد، حيث كانت تلك الأروقة تقع عند بوابة فيكتوريا، تلك البوابة التي تحكي قصصًا من الماضي وتنبض بالحياة الأكاديمية. استقبلنا السيد حامد بابتسامته التي تشع نورًا ومودة، معبرًا عن فرحه العميق ومتعهدًا بتقديم كل دعم ممكن في مسعانا النبيل.كانت لي عدة لقاءات سابقة مع السيد حامد، حيث كنت قد شاركت في أمسيات شعرية أقيمت في دياره، مترجمًا الأشعار بلساني ومحلقًا في فضاءات الكلمة. ومع مرور الوقت، أصبح الأمر أشبه بعادة؛ نحن، أنا وعادل وشاهد وعباس وآل علي، كنا نسعى لزيارته كلما أتيحت الفرصة أو غمرتنا الرغبة في اللقاء.كان السيد حامد بحد ذاته شاعرًا يستلهم الكلمات من أعماق

الروح، ومن بين قصائده كانت هناك واحدة تتردد بين الألسنة في أوساط محبي الشعر:

"ليس جرحًا واحدًا أو اثنين يزينان الجسد، بل هو كله مشبع بالثقوب،

والألم، ذلك الرفيق الأبدي، يتيه في تيهانه، غير مدرك أين يبدأ رحلته."

في الحقيقة، كانت شغفنا العلمي والأدبي قد نقشت آثارها العميقة في قلب السيد حامد. وجدت فيه روحًا نبيلة، مغمورًا في أسلوب الرقي واللطف، تلك السمة المميزة لعلي غره. أنا، طالب في السنة الثانية، وهو، شيخ الجامعة، تلك كانت المسافة بيننا. ولكن كل لقاء كان يتسم بالحميمية؛ كان ينهض للمصافحة، متخطيًا كرسيه بكرم وتواضع يفوق الوصف.في أحد الأمسيات، دعانا إلى مأدبة عشاء، ألقى فيها ظلال المودة والكرم، حيث قام بنفسه بتقديم الأطباق لنا. بعد تأكيد الدعم المالي من قبل السيد حامد، انطلقنا بحماس وشغف نحو مشروع المجلة. أعلمنا الطلاب عبر إشعارات، ورسمنا خارطة طريق للقاءات مع الأدباء والشعراء والمفكرين في علي غره، وكانت المحطة الأولى منزل أختر أنصاري، الذي كان قد تقاعد للتو من الجامعة.

عند سماعه لطلبي، نظر إليّ بعيون تحمل حكايات الزمن، قائلاً بنبرة تحمل خليطًا من الدهشة والحنين: "من أين عرفت بي؟ يظن الناس أنني قد رحلت عن هذا العالم، فمن يتذكرني الآن؟" وهمس ببيت شعر ينبض بالأسى والذكريات:

"يا رب، إن ذكرى الماضي عذاب،

خذ مني ذاكرتي".

وتساءل بعمق، هل يعرف أحد أن من نظم هذا البيت ما زال بين أحضان الحياة؟

لفترة طويلة، ظل يشكو من تجاهل العالم له، مثل صوت صدى يتردد في فضاء النسيان. كان رؤية هذا الأستاذ السابق في جامعة علي غره، وهذا الشاعر المخضرم غارقًا في هذه الحالة النفسية، بمثابة طعنة في الروح. تأملت في وضع الشاعر الذي، بكل براعته وجماليات قصائده، ما زال أسير لغة تتلاشى تدريجيًا.

شهد هؤلاء الشعراء هجرة اللغة الأردية من هذه الأرض، ومعها هجرت جزءًا من روحهم.

ماذا يتبقى لشاعر وأديب لغة قد غادرت روحها الأمة؟ تقسيم الهند سلبهم لغتهم وتركهم مع بقايا ذكريات خالية من الفرح. كان هذا الرجل اشتراكيًا بارزًا، يُحتفى به في أوساط الحركة التقدمية، لكن طلسم العلمانية هذا ما هو إلا لعبة مكر، تحول الاشتراكيين إلى "مسلمان"، كما في أوشفيتز، مفقودين في بحر من الضياع والنسيان.

كما ذكرت سابقًا، في تلك الأيام كانت قرة العين حيدر تُقيم في علي غره كأستاذة زائرة، وكانت تتراءى لي كثيرًا في ردهات كلية الفنون. في لحظة شجاعة نادرة، قصدت مكتبها، وعرضت عليها فكرة كتابة مقال لمجلتنا "تجديد". ردها كان مقتضبًا وحاسمًا: "أيها الشاب، لا أكتب بناءً على الطلب". وقفت هناك، متحيرًا في كيفية التعامل مع هذا الرفض، ثم تفوهت بجرأة: "إذًا، اكتبي بدون طلب."

نظرت إليّ بتمعن، وكأنها تقيّم جسارتي، ثم بعد لحظة صمت قالت: "تعال إلى منزلي يوم الأحد. سأبحث في ملفاتي؛ إذا وجدت شيئًا يناسب، سأمنحك إياه". وهكذا في يوم الأحد، زرت منزل ثريا آبا، رئيسة قسم الأردية، حيث كانت عيني آبا تقيم. استقبلتني بابتسامة دافئة، ومدت يديها بمقال عن التراث الشعري للأندلس الإسلامية بعنوان "آبِ روانِ كبير."

"على ضفاف آبِ روانِ كبير، يقف شخصٌ،

ينظر إلى الأفق، يحلم بزمن آخر، زمن ضائع".

"أين ذهبت تلك الأندلس الإسلامية، التي رسم لنا القاضي العصري أمير علي ملامحها، كما أوردت الأستاذة عيني - الأخت الموقرة في تقاليدنا - في نقلها، وصفًا لمجتمع ينبض بالتعايش بين الرجال والنساء، فأنجب هذا التعايش أخلاقًا وتهذيبًا عاليًا لا يمكن لمسلمي الهند اليوم حتى تخيله؟ تلك الأندلس التي كانت فيها النساء محترمات وحرات، حيث كان التعليم متاحًا للجميع. أسماء كحسانة التميه، بنت الشاعر أبو الحسين، وأم العلي، والشريفة أمة العزيز، وحفصة الركينة، وحفصة

بنت حمدون، وزينب المروية، ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري، وأسماء العمارية، وأم الحنا بنت القاضي أبو محمد عبد الحق ابن عطية، كلهن كانَّ جواهر في عالم العلم والشعر والخطابة، وأم الحنا كانت خبيرة في القانون".

"كانت الأندلس الإسلامية تعج بالحياة والمسرات. كتبت الأستاذة عيني - أنه في إشبيلية، كان الناس يتوجهون في المساء إلى ضفاف النهر، يتمتعون برحلات في القوارب، ويتجولون في بساتين البرتقال. ومع غروب الشمس، كان المطربون يحملون عودهم ويغنون في شوارع المدينة، بينما تجتمع النساء عند النوافذ المشبكة في منازلهن للاستماع إلى ألحانهم".

تلك الأندلس الفردوسية ذابت واختفت خلف ستائر التاريخ، لكن عيني، تلك المرأة التي تحمل في قلبها قصصًا عميقة، شهدت بأم عينيها انهيار حضارة كاملة في وطنها. عبرت طريقها عبر نهر من النار لتصل إلى الجانب الآخر من الحدود، ولكن حتى هناك لم تجد السكينة، فعادت إلى أحضان الهند. كانت الأندلس ليست سوى مرجعية بعيدة، فتخيلوا ماذا عانت تلك الكاتبة التي شاهدت لغتها تتحول إلى غريبة أمام ناظريها. شعورها بالضياع وزوال عظمة حضارية، واحتوائها لذلك في فنها وإبداعها، لم يترك أمامها خيارًا سوى البحث عن السلوى في أحضان القديس في ديوا شريف.

معين أحسن جذبي، شاعرٌ عظيم في نظر الكثيرين، كان يقطن بالقرب من الحرم الجامعي. بعد تبادل التحيات والألفاظ المهذبة، دخلنا في صلب الموضوع. من أدراج مكتبه القديم، سحب قلمًا يحمل آثار الزمن وبمساعدة ذاكرته الواسعة، خط غزلاً بيده الثابتة، ثم أهداني إياه:

"تلك الظلمة التي تغمرني أحيانًا،

أتساءل، هل لي على سمائي شمس أم أنها خافتت؟"

وهذا البيت من شعره لازم ذاكرتي، مثل أغنية لا تنسى، حتى الآن يتردد صداه في أذني:

"هذه الحياة التي نجتازها يا جذبي،

إن التقيت الخالق، سأسأله: هل هي عذابٌ أم لا؟"

في جوهر اللطفة، كان هناك السيد حامد، رئيس الجامعة، الذي بدا لنا كجبل صلب من العزم بسبب قراراته الإدارية الحكيمة ومشاريعه الجسورة. حينما توجهت إليه طلبًا لغزل جديد لمجلتنا، استهل غزله بأبيات تنضح بروح العمق والتأمل:

"لماذا نخشى الفناء؟ أي قيمة في البقاء،

عندما تخبو القلوب، ماذا يتبقى لنا سوى الذكريات؟"

وفي ختام غزله، نسج هذا البيت بخيوط من الحكمة والجمال:

"في زاوية تلك العيون الفاتنة،

قل لي، ما السر المخفي في أعماقها؟"

خورشيد الإسلام، الذي سبق وأن أشرت إليه 'كماركسي متواضع'، يبدو من خلال أشعاره كأنه يحمل في أعماقه عالماً من الحسرة واليأس، رغم مظهره القوي وروحه المرحة:

"كلما خفق قلبي، يتردد صدى البكاء،

في الماضي، كانت حياتي مليئة بالضجيج والحياة".

"والآن، في زحمة السوق، أجد نفسي بعيدًا،

كنت في السابق نبض تلك الأسواق الصاخبة".

وكان هناك البائس شهريار، الذي اشتهر بأغانيه في فيلم "أمراؤ جان أدا". كانت الحضارة المتداعية قد ألقت بظلالها عليه بطريقة مختلفة:

"في كل عودة إلى البيت، كنت أتمنى،

لو أنني سافرت في رحلة بعيدة، بلا عودة".

"نحن محظوظون بتوارثنا لأشعة الشمس،

لكن كان يمكن لأجدادنا زرع بعض الأشجار لنا".

كان هذا موضوعًا يستحق النقاش: هل تلاشي الحضارة كان خطأ الأجداد؟ ولكن كان واضحًا للجميع أننا كأمة نعاني من عذاب العيش في حياة خالية من البهجة والفرح.

مع إصدار "تجديد"، انبعثت حالة من الحراك الأدبي في أوساط علي غره، أو على الأقل، تملكنا نحن نوع من النشوة والحماسة. ربما كانت تلك الروح متأتية من الطريقة التي تناولت بها مقالتي الافتتاحية، حيث عكست لغة عالية ونظرة مرتفعة لقرائي، فمن الطبيعي أن تُولد هذه العبارات المديحية التي ترددت في أرجاء المكان، شعورًا بالارتقاء الروحي.وكانت هذه الأوساط لا تعدو كونها غرف جلوس الأساتذة، تجمعات في الأقسام الدراسية، ومقاهي حيث يلتقي الطلاب الأدباء والشعراء في سوق شمشاد أو كافيه دي فوس، يجدون فيها يوميًا مادة للنقاش وذريعة للدردشة. كان أولئك الحاضرون يتمتعون بشعور عميق بأنهم نوابغ عصرهم، كل واحد منهم يرى نفسه شخصية بارزة على الصعيد الدولي. فكيف يمكن لأهل "تجديد" أن يظلوا بمعزل عن هذا الإحساس، وهم يخطون بأقلامهم صفحات جديدة في تاريخ العلم والأدب بنشرهم لهذه المجلة؟

ممتلئًا بثقة غير متزعزعة، توجهت يومًا للقاء البروفيسور نذير أحمد، علمًا بارزًا في الفارسية، ورئيس معهد غالب في دلهي رغم تقاعده من الجامعة. في ذلك اليوم الشتوي، وجدته يستمتع بالشاي في حديقته الخضراء. إلى جانبه كان وارث كرماني، الذي نشرت مقالته "صحراء الجنون، ملعب الجنون" في "تجديد". في هذه المقالة، ذكر كيف قدم شاب من علي غره قصيدته "عربة كلية البنات" في مجلس شعري بحضور جغر، سيماب، وسجاد حيدر يلدرم، كبار الشعراء وأعلام الأدب الأوردو. القصيدة تبدأ بالبيت:

"تسير عربة كلية البنات، وأنا متخفٍ خلفها".

لم تترك هذه القصيدة أثرًا إيجابيًا على المستمعين الكبار، ولكنهم ظلوا صامتين، محافظين على آداب المجلس.عندما جاء دور وارث كرماني ليتحدث، وجه إليه أحد البزرغ نظرات قاطعة مشحونة بالغضب، سائلاً: "يا فتى، ما الجانب

الذي تنوي إلقاء الضوء عليه في قصيدتك عن كلية البنات؟" كان كرماني قد كتب أن ذلك الشاب الطائش، الذي ما زال في علي غره، أصبح الآن من كبار السن، وقد نهاني بلطف وتقدير للتقوى عن ذكر اسمه. واليوم، وأنا أراه يتناول الشاي مع شيخ ذي لحية بيضاء، لم أستطع إلا أن أسأله، بعد التحيات الأولية، عن مكان ذلك الشيخ الذي حذرني من ذكر اسمه. لم أعرف ما فهم من كلامي، ولكن في مجلس الأستاذ، كان الصمت هو الخيار الأفضل.

في تلك الأيام، كان معهد غالب في دلهي على وشك تنظيم ندوته الدولية السنوية، ويبدو أن الحديث بين هؤلاء الرجال كان يدور حول هذا الموضوع. بعد أن استمعوا إليّ، قدم لي البروفيسور نذير أحمد دعوة بروح تشجيعية، مدعوًا إياي للمشاركة في البرنامج بدلهي بصفتي السكرتير لمنتدى الكتاب. كنت حتى ذلك الحين قد شاركت في مسابقات خطابة متنوعة نيابة عن الجامعة. لقد عدت للتو من مشاركة في كلية سيفية ببوبال مع صديقي العزيز إعجاز مقبول، حيث نلت رعاية عبد القوي دسنوي وغيره من علماء المدينة. لكن برنامج دلهي كان مغايرًا؛ فلم أكن هناك للتنافس مع أقراني من الطلاب، بل لمواجهة نقاد ومفكرين مخضرمين. دوري لم يكن كاتبًا بل كمراقب ومستمع. فاجأت نفسي بالتفكير، لماذا لا أستغل هذه الفرصة لأضيف إلى تجربتي الشخصية مشاركة في ندوة دولية بهذا الحجم؟

في اليوم الموعود، وصلت إلى معهد غالب في دلهي. كانت السماء لا تزال تحتضن بقايا الليل، وكانت هناك جلسة لقراءة الأبحاث يقودها البروفيسور غوبي تشاند نارانغ. استغرقت لحظات في التأمل والفهم، ثم تبين لي أن موضوع النقاش هو جانب لغوي في شعر غالب. كان النقاش يتراقص على أنغام لغوية غنائية، لكن يبدو أن البروفيسور نارانغ كان يواجه بعض الغموض في تحديد بعض المصطلحات والتعابير اللغوية. قمت بتدوين هذه الأخطاء بسرعة، فكوني طالبًا في علم اللغويات، كانت هذه الدروس طازجة في ذهني.بعد جلسة الاستماع للمقالة، عندما بدأت جلسة الأسئلة والأجوبة، حاولت المشاركة لكن لا أحد أبدى

اهتمامًا. بعد أن تحدث البعض واستمررت في رفع يدي، أُتيحت لي الفرصة أخيرًا للحديث. قلت إن لدي بعض الأسئلة والملاحظات على المقالة، وأنني كطالب في علم اللغويات، أعتقد أن المحاضر ارتكب بعض الأخطاء الكبيرة. لم أكن قد أنهيت كلامي حتى قاطعني آل أحمد سرور، رئيس الجلسة، قائلاً: "تفضل إلى الأمام وعرّف بنفسك، من أنت ومن أين أتيت، ثم طرح سؤالك".

في ذلك اللقاء المحدد، عرّفت بنفسي كطالب في السنة الثالثة في جامعة علي غره وكتلميذ للبروفيسور مسعود حسين خان، السلطة المعترف بها في اللغويات الأردية. ثم ألقيت بسلسلة من اعتراضاتي. في رده، لم يواجه نارانغ أسئلتي مباشرة، بل اختار طريقًا ملتويًا، مؤيدًا بعض النقاط ومعارضًا أخرى. هذه الإجابات المبهمة أوحت للحاضرين بأن الأمر قد يكون مجرد خلط في المصطلحات أو زلة ذاكرة.كان المشهد بين طالب في السنة الثالثة وبروفيسور شهير في قمة العلم والفضل لافتًا. الأخطاء ممكنة من الجميع، لكن الاعتراف بها في جلسة عامة ليس بالأمر الهين. عند ختام الجلسة، في فترة استراحة الشاي، كثيرون من الكبار قاموا بمباركتي. بعضهم كان فرحًا بتحدي نارانغ علنًا، والبعض الآخر قدم لي الصداقة، على ما يبدو، تحسبًا لدورهم المستقبلي كمحاضرين. لم أكن قد أدركت بعد أن الانقسامات الأدبية تلعب دورًا كبيرًا في هذه الجلسات. وبدون قصد، وجدت نفسي غارقًا في دوامة السياسة الأدبية الأردية، بمجرد تحديي لنارانغ في العلن.

٢٣

الفئران، الأرضة و إنسانية المسلمين

في رحلتي إلى دلهي، وجدت نفسي ضيفًا لأيام عدة في جامعة جواهر لال نهرو. في تلك الفترة، كانت السفارة الروسية تنظم معارض كتب في الحرم الجامعي القديم، محملة بأدبيات الحزب الشيوعي. هناك، كانت تتربع كتب ماركس، إنجلس، لينين، وأمثالهم من المفكرين، معروضة بأثمان رمزية. كان الطلاب يقتنونها لزينة غرفهم أكثر منها للقراءة. وكان تجار الكتب القديمة يتوافدون أيضًا، حيث يمكن أحيانًا انتقاء كتب قيمة بأسعار زهيدة.من بين تلك الكتب، اخترت "التحول" لفرانز كافكا. كان الكتاب موجزًا، فانغمست في قراءته، أتوقف عند فقرات معينة، متأملاً، وكأنني خُطفت إلى عالم جديد من العجب والدهشة. كنت أعكس على حالتي الشخصية والمجتمعية، وشعرت بأن الكتاب يتحدث إلينا بلغة الرموز والإشارات. كانت تلك لحظة بداية لتحول في نظرتي الفكرية، تغير في الأفق الذي أرى من خلاله العالم.

في يوم مصيري، عندما استفاق جريجور سامسا صباحًا، اكتشف بدهشة وذهول أنه تحول إلى حشرة ضخمة. تلك الحقيقة المروعة لم تكن وهمًا. حين حاول النهوض، وجد نفسه لم يعد بشرًا، بل حشرة ذات أرجل قصيرة ومنحنية. غمرته مشاعر العجز. 'ما الذي أصابني؟' كان عليه الذهاب للعمل كالمعتاد، فهو المعيل الوحيد لأسرته. والداه وأخته شعروا بشفقة عاجزة، لكنهم لم يستطيعوا المساعدة. تغيرت احتياجاته بتغير هيئته. كحشرة، اقتصر غذاؤه على المتعفن. لم يعد بحاجة للسرير أو الأثاث. أزالت والدته الأثاث من غرفته لتوفير مساحة للزحف. عندما بدأوا بإزالة الأشياء التي يحبها من غرفته، شعر سامسا بألم

عميق، وعندما رأى لوحته المفضلة تُزال، تمسك بزاوية منها وجلس هناك. استمرت أخته في الاعتناء بطعامه لفترة، لكن لا يمكن الاستمرار في رعاية حشرة إلى الأبد. أصبح وجود سامسا عبئًا على أسرته. مع عدم وجود مصدر دخل، تم تخزين الأشياء غير الضرورية في غرفته وتأجير جزء من البيت. في يوم جميل، خرج سامسا بصعوبة من غرفته. الناس الذين رأوه تراجعوا بخوف. 'من يمكنه العيش في مكان مليء بالحشرات الضخمة؟' أصبح وجود سامسا لا يُطاق بالنسبة لأسرته، وشعر باليأس من معاملتهم، فقرر الانتحار.

تخيّل لو أن إنسانًا يجد نفسه فجأة متحولًا إلى حشرة، كم سيشعر بالعجز والذل. حيث كانت الكرامة الإنسانية مقدسة، فإذا به يتحول إلى كائن دوني يُداس دون اكتراث. في عام ١٩٤٧، عاش المسلمون في الهند مثل هذا الكابوس. وجدوا أنفسهم في واقع جديد حيث تحولوا إلى غرباء في بلدهم الذي سقوا ترابه بدمائهم وعرقهم لقرون. تم التقليل من شأنهم ووصف عملية ختانهم بكلمة "كٹوا"، مما يُظهر الاحتقار لهويتهم الجسدية. تم تحميلهم مسؤولية الفقر وزيادة السكان في البلاد. وفي عهد الطوارئ، اعتُمد الإخصاء القسري للحد من نموهم السكاني. في فيلم "قصة الكرسي"، تم تصويرهم كفئران تلتهم موارد البلاد، عائقة تقدمها. قبل ظهور أمت شاه، الذي وصف المسلمين الهنود علانية بأنهم "غزاة" و"أرضة"، كان واضحًا أن المسلمين في الهند قد فقدوا كرامتهم الإنسانية في أعين مواطنيهم. عند قراءتي للكتاب، ترددت في ذهني عبارات والدي عن الخداع الذي واجهه المسلمون الهنود باسم الحرية، وعن العذاب الذي كتب في مصيرهم باسم تقسيم الوطن. يتطلب الأمر جيلًا لفهم الأبعاد والعواقب الكاملة لهذه المأساة. الآن، وأنا أتأمل تاريخ أمتي، أشعر كما لو أن الستار قد رُفع عن حقائق مرة وقبيحة. وتساءلت: كيف يمكن علاج عجز الأمة إذا لم تعد إلى أسسها الفكرية الأصيلة؟ طالما يُنظر إلينا في هذا البلد على أننا حشرات، كيف يمكن لحكامه وأهله أن يعاملونا بالمساواة والاحترام؟

في ظلال نزل جنجا، حيث تنحدر الطرق نحو الأسفل، كان الطلاب والطالبات يتجمعون تحت الأشجار على المقاعد الحجرية، يتبادلون الأحاديث ويرتشفون الشاي مع هبوط الظلال. في ذلك المساء، كان الاحتفال الثقافي للنزل يتفتح بألوانه. وصلت مجموعة من مغنيي "الچهار بيت" من ثونک، ينسجون قصص الإغواء والغرام على إيقاع الدف. تحكي أغانيهم عن سهام العيون وجراح القلوب، تارة يندبون غياب الحبيب وتارة يتهمونه بالقسوة. وبين الحين والآخر، كانت ضربات قوية على الدف تهز الأجواء وتجمع الجميع في لحظة اندماج قائلين: "انظروا إليّ، بنظرة جانبية."

في خضم ذلك، وقف أحد الحاضرين وخاطب الجمع: "أيها الإخوة والأخوات! لقد أضاءت أشعار 'الچهار بيت' قلوب الناس لأربعمائة عام. دول مثل ثونک، رامپور وبهوپال رعتها، لكنها الآن تقبع على هامش الثقافة الهندية. إن لم نحافظ عليها، سنفقد هذا الجمال الشعري والموسيقي". بدت تلك إشارة لبدء الفعالية الرسمية. وتحت الأشجار، في مشهد الليل الهادئ، تكتظ الحشود بالطلاب والطالبات، والهواء البارد ينساب بينهم، كأنهم قافلة بدوية في وادي الطبيعة. ولكن حين تجاوزت الأشعار فهم الجمهور وتحول الإعجاب إلى إلقاء النقود على الموسيقيين، تحول كل الاهتمام إلى كيفية استخدام الطلاب والطالبات لهذه الفعالية لتعزيز الروابط والصداقات، فاقت كونها مجرد أمسية شعرية وموسيقية. كانت تلك احتفالية ثقافية بامتياز، حيث لم يكن هناك مجال للتأمل في نوح اللغة والثقافة التي، بحسب الموسيقيين، كانت تزحف نحو الفناء.

سألت الشاب المتجاور معي: "هل استمعت إلى هذه المجموعة من قبل؟" أجاب بدهشة: "أنا منبهر بكيفية أن رواية القصص والحكايات بالشعر مع مجرد الدف يمكن أن تسحر الجمهور لساعات، وكم هو عميق الألم فيها."

تدخل شاب بمظهر مولوي جالس بجوارنا قائلاً: "هذه فن يختفي ببطء، حتى في زواله يمنحنا البهجة، كشمعة تتوهج بشدة قبل أن تنطفئ". كانت هذه

الكلمات مفاجئة بالنسبة لي. "وماذا تفعل هنا؟" سألته. لكن قبل أن يجيب، قاطعه الشاب الأول: "هذا صديقي حيدر، يدرس الماجستير في اللغات الأجنبية، ويدعونني بأحمد الصهيوني". "ماذا؟" فاجأتني كلمة "الصهيوني."

أجاب: "أو قل ماسوني إن شئت. لماذا لا تخبرنا بحقيقتك؟" رد: "هذه قصة لوقت آخر، لكنني معروف أيضًا بالرفيق أحمد". لمست في حديث أحمد جانبًا مثيرًا للإعجاب. "ما قصة كونك صهيونيًا ثم تحولت إلى ماسوني؟ هل أحدهما لقبك؟"

قال: "لا، ليس الأمر كذلك. عندما يبتعد الإنسان عن موقعه الأصلي، لا يجد لنفسه مكانًا آخر مناسبًا. لكن ماذا نفعل، هذه ضرورة الحياة".

ما هذا الذي تتحدث عنه؟ لم أستوعب

"قلت: لا يمكنكم إدراك هذا الشوق العميق. أنتم تقيمون في جزيرة صغيرة في عالم علي غراه، حيث إذا حدث شيء يخالف مزاجكم، يبدو كأن الإسلام نفسه يتعرض للخطر. نحن أيضا، ما دمنا في دار العلوم ديوبند، كنا نعيش في عالمنا المنفصل. حيدر، لقد جاء إلى هنا في هذا العام فقط. وأنا، لأربع سنوات الآن، أحاول فهم سياسة هذا المكان. في رحلتي هذه، تحولت أحياناً إلى رفيق، وفي أحيان أخرى، تقدمت خطوتين لإثبات ثوريتي، وبدأت أعرف نفسي بأحمد صهيوني. ثم بدا لي أن 'الماسوني' تبدو كلمة أكثر ألفة وقبولاً، ولكن خلف هذه الأقنعة المتعددة، كان هناك هدف واحد يسيطر على ذهني: أن أجد مساحة أوسع لنفسي في بيئة جامعة جواهر لال نهرو، حيث كان الجهاد والعمل مع الهوية الإسلامية الصريحة محدوداً.

فماذا حدث بعد ذلك؟ كان يجب أن يكون الانضمام إلى الرفاق كافياً لهذا العمل.

قال: من الوهلة الأولى، يبدو الأمر كذلك. وفعلاً، تحولت إلى رفيق بسرعة. العديد من الطبعات لأمهات كتب الشيوعية ما زالت محتفظة بها في غرفتي. رفوفي مليئة بكتب المؤلفين الروس. قضيت أوقاتاً طويلة أردد كلمات البرجوازية والبروليتاريا، معلماً الناس دروس الصراع الطبقي. ها هي حقيبة الرفاق لا تزال

معلقة على كتفي حتى اليوم. لكن رغم كل هذا، بقيت على هامش الرسالة، ربما بسبب هويتي المسلمة. لم أجد مكاني في قلب المهمة، لم يتم تخصيص دور لي في المركز".

"لماذا الأمر كذلك؟ يفترض أن يسعوا وراء أمثال هؤلاء الأشخاص.

قال: أحد الأسباب هو التحيز الكامن في قلوب الرفاق الهندوس ضد الرفاق المسلمين، والآخر هو توقعهم أن ننبذ إسلامنا بالكامل بعد الانضمام إلى الحزب.

لكن، إذا كنت تستطيع أن تكون صهيونيًا وماسونيًا، فأين المجال للشكوى؟

قال: هذا مجرد رد فعل. لقد قضيت سنوات عديدة في العمل مع الاتحاد الطلابي الهندي لكل الهند .(AISF) العديد من الطلاب المسلمين انضموا إلى الحملات السياسية اليسارية بفضلي. في تلك الأثناء، اكتشفت ذات يوم أن هناك مسجدًا مهجورًا بالقرب من الحرم الجامعي القديم بحاجة إلى إعادة تأهيل. كانت المنطقة ذات أغلبية غير مسلمة. قرر طلاب جامعة جواهر لال نهرو تنظيم صلاة الجمعة في هذا المسجد كجزء من حملة. كنت جزءًا من هذه المجموعة، بل يمكن القول إن هذه الحملة أيقظت فيّ الحاجة إلى أداء صلاة الجمعة بعد وقت طويل. نظر الحزب إلى هذا النشاط بعيون مملوءة بالاستياء. وُجهت إلي اتهامات بالتخلف من قبل الأصدقاء. وبدأ الشك في ولائي للحزب يتزايد. تساءلت في نفسي: هؤلاء الناس غريبون، يذهبون إلى المعابد ويشاركون بحماس في الاحتفالات الهندوسية دون أن يؤثر ذلك على ماركسيتهم، بينما يُطلب منا نحن المسلمين التخلي التام عن مظاهر ديننا وهويتنا القومية. والأمر المثير للسخرية هو أنه رغم كل هذا، لا يزال يتعين علينا البقاء على الهامش، فلا يمكن تخصيص دور لنا في الواجهة".

فهل قد ودّعت الحزب الآن؟

أجاب: عمليًا، هذا هو الحال. بيد أنهم لا يزالون يعتبرونني ضمن دائرتهم.

فلماذا لا ترسل للشيوعيين ثلاث كلمات من اللوم؟

قال: هذا هو واقع جامعة جواهر لال نهرو، حيث لا يوجد تجمع أفضل للبقاء من الشيوعيين. هم من يسيطرون على الأساتذة هنا، وبدعمهم تتم

التعيينات. تخيل، لو أنك دخلت جامعة جواهر لال نهرو وخرجت منها دون أن تكون جزءًا من دائرة الشيوعيين، لن تكون قد استفدت من نعم هذا المكان. لا مجال هنا للهوية الإسلامية الصريحة، لا هنا ولا في أي مكان آخر. إن الإلحاح على كلمات مثل بورجوا وبرولتاريا، والتمسك بتفسير ماركسي للحياة، قد يجعلك مقبولاً نوعاً ما. القلة من المسلمين الذين تراهم في هذا الحرم قد وصلوا إلى هنا متبعين هذا الدرب. دعنا نحن نخوض هذه المعركة. استمروا أنتم في علي غراه برفع شعار 'الإسلام في خطر'. عملكم أكثر سهولة، بل في غاية السهولة. ومع هذا القول، مد أحمد يده لمصافحة الوداع. كان الليل يمضي. كان صدى الموسيقى يعلو بنغمة 'هاؤ هُو'. وكان الناس منغمسين في عالم من الخشوع. طلبت الإذن من السادة، فقد كان ذلك كافيًا لهذا اليوم.

في جامعة جواهر لال نهرو، حيث كان مقامي، لم يكن منزل البروفيسور مظفر عالم بعيداً. في صباح يوم الأحد، توجهت أنا وأخي لزيارته. كان مشير الحسن، الذي أصبح لاحقاً رئيس جامعة جامعة ملية الإسلامية، قد سبقنا إلى هناك. تنقل الحديث بين مشكلات المسلمين وصولاً إلى الوضع الراهن في علي غراه. كان مظفر عالم يؤكد مراراً وتكراراً على أنه كعضو في الأمة، يتحمل مسؤولية جسيمة لا يمكنه التهرب منها. كان عليه سداد هذا الدين. أثار اهتمام هؤلاء الرجال بالأمة الشعور بأنهم، على الرغم من تبنيهم للفكر التنويري أو الماركسي كوسيلة للبقاء في بيئة معادية، لم يتخلوا عن اهتمامهم بالإسلام والمسلمين. ثم خطر ببالي، هل يتطلب الأمر حقاً التخلي عن الهوية الأصلية للحصول على قبول العقلانيين؟ كانت أفكار أحمد الصهيوني، خريج ديوبند، تعود إلى ذهني، حيث لا يرى مستقبلاً لنفسه في جامعة جواهر لال نهرو بدون هوية شيوعية جديدة. وتبادر إلى ذهني أن الثمن المطلوب باهظ للغاية. لكن الأمر الذي لم أستطع فهمه هو لماذا يحتاج الأشخاص في علي غراه، الذين يحملون لواء التنوير ويفتخرون بكونهم ماركسيين، إلى هوية جديدة رغم وجودهم في بيئة ذات أغلبية مسلمة.

حينما غادرت علي غراه، كانت الجامعة تشهد معركة عنيفة بين الإسلاميين والشيوعيين. الطلاب كانوا يمثلون الرؤية الإسلامية في مواجهة 'التنوير' الذي يقوده البروفيسور عرفان حبيب وحزبه الشيوعي، حيث تمكن أنصارهم من اختراق الهيئات التعليمية وغير التعليمية بشكل مكّن السيد عرفان من تعطيل الجامعة بإضرابات عن الطعام، اعتصامات ومظاهرات، مستخدمًا عناده كسلاح. كان الطلاب يتهامسون حول كفاءته كبروفيسور، وأن كتبه تُدرس في أكسفورد، ولا يوجد عالم آخر مثله في الجامعة. وفي الأوساط التعليمية، نجح في ضم أتباع مخلصين يهتفون له في كل وقت.عندما جاء السيد حامد كرئيس جامعة إلى علي غراه، حاول في البداية الحد من نفوذ عرفان، لكن ربما خوفاً من نقاباته، انتهى به الأمر إلى تبني موقف أكثر مرونة تجاهه. وفي المقابل، شرع الطلاب في تصوير الرئيس كمحور للشر. أتذكر طالباً متحمساً في الأوساط الإسلامية، أصبح لاحقاً أستاذاً في علم الأدوية، كيف كان يحرض الطلاب المنطلقين من حبيب هول لمواجهة السيد حامد قائلاً: 'إذا كانت لديهم الرصاصات، فلا ينبغي أن نخاف، سنواجههم بأظافرنا وأسناننا وسنهزمهم بإيماننا'. كان قادة اتحاد الطلاب لا يقلون حماسة في خطاباتهم. وكانت النتيجة أن الجامعة كانت محاصرة بحرب وهمية بين الإسلام والعلمانية، وبين التقليدية والتنوير.

في يوم من الأيام، وأنا أتصفح الصحف والمجلات في المكتبة المركزية لجامعة جواهر لال نهرو، استرعت انتباهي مقالة في 'الأسبوعية الاقتصادية والسياسية'. كان العنوان 'جامعة العلي غراه وعرفان حبيب'، وكاتبها هو إم وائي قاضي من نيودلهي. تحدث بلغة محتدة عن عادة الشيوعيين في تعظيم من يختارونه لدعمهم حتى يصبح ظله أكبر من الحزب أو المؤسسة الأكاديمية نفسها. عرفان حبيب، ابن علي غراه، وقفت الجامعة إلى جانبه في الأزمات. عندما صدرت مذكرة ضده بسبب أنشطته الشيوعية، تدخلت علي غراه لدى نهرو لمنع اعتقاله. بالرغم من كونه أستاذًا، اختار طريق النقابية والمواجهة، لا مباليًا بمنصبه. ومع ذلك، ترقى في شبابه إلى منصب البروفيسور. يزعم معارضوه أن هذا قد أفسد تفكيره.

ندد الكاتب بسلوك حبيب، مشيرًا إلى أنه يتصرف كمجرد موظف، لا كمحب للجامعة. رفض كل مساعي الصلح من الطرف المقابل، وعندما اقترح تحقيقًا بواسطة قاض من المحكمة العليا، رفضه قائلاً إن قاضيًا مسلمًا ليس مقبولاً لديه. الآن تم تعيين قاض سيخ، لكن السؤال الذي طرحه الكاتب يظل معلقًا: ألا يخضع الشيوعيون لأي مبادئ أخلاقية؟ فإذا كان الأمر كذلك، لماذا يتحدث ماركس عن الحقيقة، والضمير، والاستقصاء العلمي الحر؟السؤال الآخر الذي يطرح نفسه هو: هل الشيوعيون في الهند مخلصون حقًا في تحقيق الاشتراكية؟ إذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن تفسير تحالفهم مع القوميين الهندوس ضد قضية علي غراه؟ كانت المقالة تحوي ملاحظات تشير إلى أن مصدر قوة هذا الأستاذ المعروف في علي غراه لا يعود إلى تفوقه العلمي، بل إلى دعم الحزب الشيوعي له. دفعتني هذه الفكرة إلى استعراض الأعداد السابقة واللاحقة من المجلة. وعندما راجعت الأعداد السابقة، وجدت كمًا هائلاً من الرسائل التي تمجد بحماس عرفان حبيب لعظمته العلمية، نزاهته وعدالته. من مدن مثل حيدر آباد، تريفاندروم، كلكتا، ومومباي، لم تكن هناك فقط رسائل فردية داعمة له، بل أيضاً قرارات تؤكد أن الهجوم عليه هو هجوم على الحرية الأكاديمية. كانت هناك مقارنة بين حزب قومي يتمتع أعضاؤه بنفوذ في الهيئات الأكاديمية والسياسية، وبين طلاب علي غراه البريئين والمتحمسين الذين يريدون مواجهة الباطل بأظافرهم وأسنانهم. كانت المواجهة متفاوتة بشكل كبير، وكان لدى السيد عرفان خبرة واسعة في تحقيق النجاح في مثل هذه المعارك غير المتكافئة.

بعد سنوات، عندما عدت إلى الجامعة كأستاذ، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع مكائد فرقة عرفان. كان هناك في الجامعة جيش من المؤيدين للسيد عرفان، الذين نظروا إلى عودتي كتغيير كبير وتهديد للنمط الفكري المُتبع بالجامعة. السيد عرفان نفسه كتب رسالة إلى رئيس لجنة منح الجامعات، السيد فيد بركاش، يحذره من أن تعييني، الكاتب البعيد عن الأكاديمية ومؤلف 'غلبة الإسلام'، كأستاذ بالجامعة سيشكل خطراً على تقاليدها العلمانية. ولتعزيز حجته، أشار إلى

أن وجهات نظري حول غاندي لم تكن إيجابية. في البداية، فضلت تجاهله احتراماً لسنه، لكن عندما لم يخبت ضجيج نشاطاته، وجدت نفسي مضطراً، رغم التردد، لإصدار بيان صحفي ينتقد بشدة هذا البلطجة الفكرية التي مارسها.

"علي غره، ٢٢ نوفمبر ٢٠١٣: في الآونة الأخيرة، نشأت خلافات بين جمعية المؤرخين في علي غره وإدارة الجامعة، وقد حاولت بعض الصحف تصوير هذا الخلاف كصراع بين الأكاديميين والمليتارية. في تقديري، يجب اعتبار هذه الضجة التي أثارها اليسار كدليل على تراجع نفوذهم على الجامعة الإسلامية. عبر البروفيسور راشد شاز عن هذه الأفكار خلال خطابه في 'جمعية المدرسة' ضمن دورة برج، حيث كان يناقش 'ضرورة تجديد الحرية الفكرية في علي غره'. أكد على أن الجامعات والمعاهد لا يمكن أن تحقق أهدافها في بيئة تسيطر عليها مجموعة أو شخص يغلق كل منافذ النقاش. لعقود من الزمن، خاض البروفيسور عرفان حبيب وجماعته حرباً ضد الحرية الفكرية والتنوع الأكاديمي في الجامعة. كان الاعتقاد السائد قبل عهد الجنرال شاه أن التقارب والولاء لليسار أمر ضروري للترقي والتعيين في المناصب الأكاديمية البارزة.تمكن الماركسيون المتظاهرون من نحت هالة ضخمة حول البروفيسور عرفان حبيب، بحيث أصبحت صورته محور إعجاب العامة. نتيجة لذلك، بدأت قراراته وآراؤه الخلفية تحظى بأهمية متزايدة في شؤون الجامعة. الضرر الأكبر لهذا الوضع كان أن الأمر لم يقتصر على قسم التاريخ وحده؛ بل امتد ليشمل أقسامًا أخرى، حيث احتلت جموع المصفقين لإنجازات عرفان المكانة التي كان ينبغي أن تُحتل بالعلماء الحقيقيين. لم يتخذ أحد الخطوة لكشف حقيقة هذه الأسطورة الوهمية حول انتشار الدراسات المتخصصة في التاريخ الهندي القروسطي عالميًا. إن كان هناك تنافس حقيقي، فهو لا يتجاوز بضع جامعات في الهند وعدد قليل من الكليات في باكستان وبنغلاديش. هذه هي الحقيقة المرة وراء الواجهة الدولية لهذا المؤرخ.

أوضح البروفيسور شاز أن من أجل تحقيق بيئة أكاديمية حيوية ومثمرة في الجامعة، من الضروري توفير فرص متكافئة لتنمية وازدهار مختلف الأفكار

ووجهات النظر. يجب أن يُتح للطلاب فرصة لتحفيز التباين في الفكر والرأي والسير قدمًا في رحلتهم العلمية من خلال هذه التنوعات. ينبغي تحفيزهم على بناء وإضافة إلى الإنجازات العلمية والمؤلفات التي قدمها أساتذتهم، مع الحرص على رؤيتهم كباحثين ومتابعين للحقيقة، وليس كأصنام يُعبدون أو يُعتبرون كلمة الفصل في المعرفة. كما عبر البروفيسور شاز عن استغرابه من عدم قيام المجتمع الجامعي بتقييم الدعاية العلمية الباطلة من قبل جماعة عرفان. فعلى سبيل المثال، 'أطلس الإمبراطورية المغولية'، الذي يُعد أهم إنجاز علمي لهم، يعتبره خبير الخرائط الشهير جوزيف شوارتزبرغ عملاً هاوياً، حيث ينتقد اعتماد المؤلف على ثلاث خرائط شهيرة فقط دون تطوير نهج أكاديمي تحليلي وثيقي مهم.

تابع البروفيسور شاز بتوضيح أن عرفان حبيب يذكر اسم صادق أصفهاني فقط عندما يتعلق الأمر بخرائط المغول، لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال عدم وجود مواهب أخرى في هذا المجال. للمسلمين تاريخ مشرق وباهر في فن الخرائط، متجاوزين بذلك الحضارات العربية والفارسية. حتى في عهد المغول في الهند، كان من الشائع أن تحتوي مجموعات العلماء الشخصية على خرائط متنوعة الأشكال والأساليب. إعادة اكتشاف خرائط بطول أربعة أمتار في مجموعة مهراجا جايبور، سواء المحلية أو العالمية، تشير بوضوح إلى أن أطلس عرفان لم يكن الجهد الأول في هذا الاتجاه، على الرغم من إغفاله المتعمد للعديد من المصادر السابقة.

عندما سُئل البروفيسور شاز عن رأيه في الكتاب الرئيسي لعرفان حبيب 'النظام الزراعي في الهند المغولية'، أجاب أن العلماء يقدرونه كعمل جيد بلا شك، لكن يجب النظر بحذر إلى مزاعمه من الناحية النظرية. يبدو أن فكرة عرفان حبيب بأن النبلاء المغول استغلوا الفلاحين حتى دفعوهم للثورة ضد الحكومة لا تصمد أمام التحليل الدقيق. فقد نجح علماء مثل فرانك بيرلين، ديفيد واشبروك، وسانجاي سوبرامانيام في السنوات الأخيرة في تفنيد مزاعم عرفان حبيب وشيرين موسوي حول فرض ضرائب باهظة تعيق النمو الاقتصادي على المستوى الأدنى.

حتى فرانك إليس، باستخدام البيانات المالية، أثبت أن مزاعم عرفان حبيب وشيرين موسوي تنهار تحت وطأة تناقضاتها الداخلية. ومع ذلك، يظل عرفان حبيب 'شيخ الكل' في أعين أتباعه، ويُعتبر الأعظم الذي أنجبته أرض علي غره. السبب هو أن عرفان حبيب لا يخوض مواجهات مع منافسيه الأكاديميين أو من هم أعلى منه علميًا في حياتهم. فقد انتظر حتى وفاة إدوارد سعيد ليهاجمه. يبدو حبيب كشخصية لا يُقهر نقديًا لأنه يتجنب الحوار مع الأحياء.في الأيام القليلة الماضية، حين ناقش عرفان حبيب الطابع الأقليتي للجامعة، أعربت عن رأيي بأن هذه المسألة ليست تاريخية بحتة، بل قضية وطنية شاملة. لذا كان يجدر بالسيد عرفان أن يطرح حججه في مناظرة علنية. ولكن أولئك الذين يفضلون مواجهة خصومهم فقط بعد وفاتهم، الذين يمنحون شهادات الدكتوراه لطلابهم استنادًا على مخطوطات مسروقة كما في حالة 'پرماتما سرن'، والذين يكتبون بلا خجل في مقدمة النشر لترجمة 'تاريخ قندهاري' إلى الإنجليزية عن الجهود الجبارة المبذولة فيها، ويشير الطالب إلى أنه تلقى التشجيع والإرشاد من عرفان حبيب في كل خطوة، يبنون قلاعهم الأكاديمية على أسس غير متينة. كم يحز في النفس أن يكتشف باحث مجتهد هذا السر المخفي".

بمجرد نشر هذا البيان، غمر الصمت معسكر خصومه، كما لو أن الكلمات قد استنفدت قوتها وتركت الهمسات الصامتة تسود المشهد.



في أحد الأيام، كنت أحتسي الشاي مع الرفيق أحمد في دكان الشاي على ضفاف الغانج، حين رأيت السيد صغير. كان معه رجلان لم أكن أعرفهما. استقبلتهم بحفاوة وعلمت أنهم جاءوا مع وفد من الطلاب إلى دلهي للقاء القادة الوطنيين. بعضهم كان يقيم في جامعة ملية الإسلامية، وقد عادوا للتو من لقاء السيد شهاب الدين والسيد أمين الحسن رضوى. كان السيد صغير طالبًا متقدمًا في قسم القانون بجامعة علي غره. سألته عما إذا كان لديه توقعات حول موعد إعادة فتح الجامعة. فأجاب بنبرة مترددة: 'صعب التنبؤ. الشرطة منتشرة في كل

مكان. ويبدو أن رئيس الجامعة سيد حامد مصمم على موقفه وغير مستعد للتراجع أمام الطلاب.'

ما الذي يسعى إليه الطلاب حقًا؟ تساءل الرفيق أحمد، محاولًا استكشاف أعماق المسألة. 'الآن تشابكت الأمور، ولم تعد هناك مطالبة واحدة بعينها. في البداية، كان الطلاب يطالبون فقط باستقالة عرفان حبيب، لكن مقتل آفتاب جعل الوضع أكثر تعقيدًا.' أخبرني أحدهم، الذي جاء مع السيد صغير، أن 'السيد رضوى رفض حتى مصافحة سيد حامد، متهمًا إياه بأن يديه ملطختان بدماء طالب بريء'.

'حقاً؟' سألت محاولاً التأكد. وقبل أن يجيب ذلك الرجل، ضحك صغير بصوت عال. قال بسخرية: 'مثل هذه الأساطير تنتشر دائمًا في مثل هذه الظروف. إنها شبيهة بالحكايات التي تتداولها الأوساط الشيوعية عن تدريس كتب عرفان في أكسفورد وكامبريدج. كل جماعة تحتاج إلى بعض 'التوابل' لدعايتها.' هل تم تشكيل لجنة تحقيق حول الأمر؟' سأل الرفيق أحمد.

'يا صديقي، هذه ليست نزاعًا فكريًا يمكن حله بالتسوية أو التوفيق. إنه صراع على السلطة. الشيوعيون يهيمنون على الجامعة منذ عقود، ولن يتنازلوا عن سيطرتهم بسهولة'.

لماذا لم يستطع رئيس الجامعة، وهو شخص رصين، فهم هذه الحيلة من الشيوعيين؟ سألت السيد صغير. قال: 'بغض النظر عن مزايا سيد حامد الشخصية، فهو بيروقراطي تقليدي، والبيروقراطيون يميلون دومًا للانحناء أمام الجماعات المنظمة والنقابات. قد يكون سيد حامد يريد شخصيًا استغلال الفرص الجديدة التي أتاحها إعادة تأسيس الطابع الأقليتي للجامعة خلال فترته. وضع خطط لفائدة الأقلية المسلمة، لكن الذين يهيمنون على الجامعة يرون في الطابع الأقليتي تهديدًا لمواقعهم'.

'ولكن لماذا؟ إنها مسألة تتعلق برفاهيتنا الجماعية.' قلت بنبرة بريئة، فابتسم السيد صغير. 'يخاف اللوبي الشيوعي الذي سيطر على الجامعة حتى الآن أن تؤدي

إعادة تأكيد الطابع الأقليتي للجامعة إلى سيطرة جماعات مثل مجلس المسلمين الاستشاري وجماعة الإسلامية ولجنة عمل جامعة ملية الإسلامية على المحكمة الجامعية، وهي تعتبر السلطة العليا للجامعة. يرون في إعادة تأكيد الطابع الأقليتي انهيارًا لسيطرتهم'.

"آه، لم أكن على دراية بذلك!" أعرب الرفيق أحمد عن دهشته. "كنت أظن أنها مجرد صراع بين الرجعية والتنوير".

"بالفعل، لطالما قدم الشيوعيون أنفسهم بهذا النمط من خلال خطاباتهم المعسولة. لكن من يدرك أن عرفان حبيب نظم في السنوات الثلاث الماضية وحدها أكثر من مئتي إضراب للعمال من الفئتين الثالثة والرابعة؟ استطاع أن يحكم قبضته على النقابات المختلفة بالجامعة. حتى أنه قاد إضرابًا عن الطعام من أجل العمال من الفئة الرابعة، وبهذه الأساليب، تحول تدريجيًا إلى قوة لا يمكن هزيمتها. والآن، أدت إعادة تأكيد الطابع الأقليتي للجامعة إلى تقويض مخططاتهم".

"لكن الانطباع السائد في الخارج هو أنهم يسعون لتحسين مستوى التعليم في الجامعة والحد من نفوذ القوى الرجعية والطائفية." قال أحمد. على وجه السيد صغير ظهرت ابتسامة معبرة. تحدث قائلاً: "هؤلاء الأفراد يتهمون الآخرين بالرجعية، لكنهم لا يستطيعون تحمل أقل قدر من المعارضة. من ليس معهم يعتبر إما طائفيًا أو رجعيًا. الأمر يصل إلى درجة أن حتى قادة اتحاد الطلاب في نظرهم متشددون وطائفيون، على الرغم من أنهم مجرد طلاب عاديين لا ينتمون إلى أي تيار فكري محدد. القضية الحقيقية هي،" وهنا توقف السيد صغير، وضع كوب الشاي جانبًا، فك أزرار سترته وأرخى ظهره على الكرسي، متهيئًا لرواية الجزء التالي من القصة براحة تحت أشعة الشمس الذهبية.قال: 'لسنوات ستة عشر، كافح المسلمون من أجل استعادة الهوية الأقليتية للجامعة. بعد فترة الطوارئ، عندما عادت السيدة غاندي إلى الحكم، وعدت في برنامجها الانتخابي بإعادة هذه الهوية. وجاء الحادث الدموي في مرادآباد ليزيد من الحاجة إلى خطوة رمزية للحفاظ على

قاعدة الكونغرس الانتخابية من المسلمين. في أوائل عام ١٩٨١، كان يُتوقع تقديم مشروع قانون جديد في البرلمان. في ذلك الوقت، أعطى عرفان حبيب، العميد الحيني للعلوم الاجتماعية، مقابلة لمراسل صحيفة 'إنديان إكسبريس' كان من شأنها الإضرار بحملة الطابع الأقليتي في لحظاتها الأخيرة. كان هذا بمثابة محاولته الأخيرة لتقويض الحملة. وعلى الرغم من تمرير القانون، إلا أن خيانة أحد معلميهم من داخل الجامعة كانت لا تطاق بالنسبة لأولئك الذين قدموا التضحيات لمدة ستة عشر عامًا من أجل هذه القضية. غضب الطلاب وتولدت حالة من التوتر داخل الجامعة'.

فتنهد أحمد قائلاً: 'إذًا، هذه هي حكاية ما يدور خلف الكواليس في هذه القضية. لاحظ كيف أن الأمور تظهر بصورة مختلفة عما هي عليه حقيقةً. أين هو ذلك التنوير المزعوم، وما هي حقيقة هذه الرجعية المزيفة؟ انظر، دائمًا ما كنت أقول إنه يجب علينا الابتعاد عن استخدام المصطلحات المحملة بالقيم.' ومع هذه الكلمات، نهض أحمد، وقف بثبات كمن يعيد تقييم كل ما كان يعتقده.

٢٤

الشِّبَاكُ الحُمْرَاءُ

كانت أيامي في جامعة جواهر لال نهرو تمتد وتتسع. بدأت صباحي بالذهاب إلى المكتبة لاستعارة كتاب، ثم أغمر نفسي في عالم الصحف والمجلات. كنت أتنقل بين الموسوعات والمجلدات الضخمة للمراجع، أقلبها بحثًا عن جوهر المعرفة. أحيانًا، كنت أكتشف معلومات تثير العجب. في يوم ما، أمسكت بكتاب مصور عن التطور العلمي والحضاري في القرن العشرين، ومر اليوم كله في قراءته. كلما زاد وقتي بين أروقة هذه الكتب، ازدادت دهشتي وإعجابي. كنت دومًا على أهبة الاستعداد لاكتشاف شعاع ضوء مباغت يخترق ظلام المعرفة من أي جانب.

في تلك الأيام، بدأت رحلتي مع شعر تي. إس. إليوت وإزرا باوند. وهناك أيضًا، تفتحت أمامي آفاق فهم الماركسية. كانت لغة إليوت وأسلوبه تنطق بقربها من وجداني. كلماته المنقوشة على صفحاته كانت ترسم ألوانًا زاهية تسترعي الأنظار. إيقاع اللغة يخطف القلوب. ومع تعقيد فهمه الكامل، كانت هناك طبقة أساسية من المعاني توفر متعة خالصة في قراءة الشعر. كثيرًا ما كنت أحمل ديوان شعر وأستقر على صخرة في ظلال الأشجار البعيدة. بين التلال الخضراء الغناء وتغريد الطيور، وبصري يستقر على منارة مسجد قوت الإسلام، تحت الشمس الذهبية الدافئة لفصل الشتاء، وتداعبني نسمات الهواء الباردة، وفي هذا المشهد البانورامي، أتلو شعر إليوت بعذوبة ورنين.

في ذلك اليوم، حين كنت أتنقل بين أبيات تي. إس. إليوت العميقة في 'الرجال الخواء'، وقفت عند هذه الكلمات:

صوتنا المجفف، عندما

نهمس معًا،

هو هادئ وعديم المعنى.

وحسب الشاعر، هذا هو واقعنا:

شكل دون جوهر، ظل بلا لون،

قوة مشلولة، إشارة بلا حركة.

كانت القصيدة تروي حكاية خراب ميت، حيث الفصل بين الفكر والواقع، وبين الحركة والعمل، يخيم كظلال غامضة. يقول الشاعر إن هذا هو مرثيتنا في هذا العالم الصغير، حيث الظلال تطغى بين الفكر والإبداع، وبين المشاعر وردود الأفعال.

هكذا تنتهي الدنيا،

ليس بضجة، بل بنحيب خافت.

مرثية حياة خالية من الروح، حيث يشعر الإنسان بأن كل فعل يقوم به هو مجرد وهم، ويبدو كل شيء في جوهره فارغًا ومهجورًا، وتتسلل رائحة العفن من اللقم المتراكمة في الحياة، ولا يجد المرء حتى في عالم الأحلام ملاذًا. فهل يتجرأ على فتح عينيه حتى في أحلامه؟

في تلك الأيام، كان الحديث عن تقليد الغرب الأعمى وفق منظور شريعتي موضوعًا رائجًا. في اجتماعات طلاب اليسار، كلما انخرطت في الحوار، تتجه النقاشات دومًا نحو الصراع الخالد بين البورجوازية والبروليتاريا. كان الطلاب والطالبات اليساريين قد أحكموا قبضتهم على هذا التأويل الماركسي باعتباره حقيقة مطلقة، مغلقين آذانهم عن أي تفسير آخر. في كل مرة أجلس معهم، كانت حرارة إيمانهم تتأجج، مما يقضي على أي فرصة للحوار الجدي. كنت أشعر أن هؤلاء الشباب، تمامًا مثل ظلال شريعتي القاتمة، قد غرقوا في فجوة بين الفهم والفعل. غارقًا في هذه التأملات، لم أدرك كم مر من الوقت، حتى لمحت شخصًا يظهر فجأة من خلف الشجيرات، متجهًا نحو الارتفاعات.

أوه، إنه أحمد، ومعه شخص آخر. يا الهي، حسن! ما الذي جاء بك هنا؟ كنت أبحث عنك. احتضنت حسن بحماسة وحرارة.

قال: ذهبنا للبحث عنك نحو تلال مجنون، وما أحسن أن وجدناك هنا. لقد عدت لتوي من بومباي، والآن أرغب في إكمال دراسة الدكتوراه بأسرع ما يمكن. سمعت من أحمد عن وصولك، فأتيت لأبحث عنك. كان حسن إدريسي طالبًا متقدمًا في اللغة والأدب، بموهبة خاصة في الشعر. كانت معرفته واسعة وطموحه عاليًا. زار بومباي عدة مرات لاستكشاف فرصه في صناعة الأفلام، ويبدو أنه حصل على بعض الفرص الصغيرة في كتابة السيناريو. لكن كان هناك شيء من التقلب في طبعه. يقال أن ذلك كان بسبب قصة حب فاشلة من طرف واحد. كان يمضي ساعات على حجر بالقرب من سكن الطالبات، ربما ينتظر مرورها ليلمحها. كانت هناك الكثير من القصص حول حسن. على الرغم من عدم شيوع الرومانسية في جامعة جواهر لال نهرو، ولم تكن هناك حاجة لتلك التكلفات، ولكن لا أحد يعلم لماذا تكونت هذه الصورة عن حسن كشخص مضطرب الفكر، متقلب الطبع، ومتوتر الذهن، بحيث يبدو أقل من شخص عادي. اليوم، بعد لقاء حسن بعد وقت طويل، تجددت الكثير من الذكريات القديمة.

"لقد اخترتم مكانًا رائعًا حقًا، إذ من هنا يظهر مشهد مهرولي بروعة لا تُصدق." قالوا ذلك وهم يجلسون على أحد الألواح الحجرية المجاورة. "ومن هذا العلو، يبدو قطب مينار قريبًا جدًا. ترى، كيف كانت عظمة مسجد قوت الإسلام في الماضي البعيد؟" تأمل أحمد في المنظر بنظرة تحاول أن تخترق أعماق التاريخ الغائر تحت هذه الصخور.

"لم يعد هناك من يحمل لواء عظمة الإسلام أو قوته. كل ما تبقى الآن هم بعض الرفاق ينظرون بحسرة إلى هذه المشاهد." حاولت أن أستفز أحمد بهذا التعليق.

"لكن الرفاق أنفسهم ليسوا حقيقيين، لقد ألبسنا أنفسنا قشرة الرفاقية فقط." شرح حسن ذلك بتفصيل. "لا تتخيلوا مدى صعوبة حمل شخصية غريبة

على ذاتكم. أحيانًا تشعرون وكأنكم قد ذابتم تمامًا في هذه الشخصية، لكن شيئًا داخلكم يُذكركم بأنكم لستم هذا الشخص، أن جوهركم الحقيقي مختلف تمامًا".

لقد أصبت الهدف بدقة. ليس فقط الصوت الذي ينبعث من أعماق الذات هو ما ينادي، بل حتى أولئك الذين تعتبرهم أنصارك وحلفاءك، الذين تشاركهم روابط الأخوة وتلقبهم بالرفاق، هم أنفسهم يصبحون مصدر الإيقاظ عندما يرون قبضتك تشتد على دفة الحزب، أو عندما تقترب من مفاتيح السلطة. بأفعالهم تلك، يوجهون إليك ضربة تذكيرية تجعلك تدرك بأنك لست كما تدعي. في جوهرك ما زالت تسكن روح الإسلام، فكيف يمكن الوثوق بولائك؟ كما قلت، محاولة ركوب حمارين في آن واحد لا تؤدي بالإنسان إلى أي مكان.

"بلى، هناك مجموعة من المفكرين الأحرار. في البداية، راودتني فكرة الانضمام إليهم، لكنهم كانوا مجموعة صغيرة، والبعض يدّعي الحرية الفكرية كنوع من الموضة، لكنهم في الواقع كانوا هامشيين سياسيًا واجتماعيًا. كانت السيطرة في المركز للمجموعات الطلابية اليسارية، ففكرت لماذا لا أنضم إليهم؟"

"لكنك أتيت من مؤسسة دينية، ألم يكن هذا قرارًا صعبًا بالنسبة لك؟" سألت أحمد.

"لم يكن صعبًا فحسب، بل بدا كأنه مستحيل. عندما سمع أصدقائي القدامى، كان الذهول واضحًا عليهم. البعض اتهمني بالكفر والإلحاد، والبعض الآخر قطع علاقاته معي".

"لكن كيف خطر لك فجأة أن تصبح شيوعيًا في جامعة جواهر لال نهرو بعد تخرجك من ديوبند؟"

"لم يكن اختياري، بل هو حسن من جاء بي إلى هنا. لكن حتى في تلك الأيام، كانت لدينا جذبة صادقة في داخلنا".

"جذبة صادقة؟" سألت معبرًا عن دهشتي.

قال: "نعم، لم ألبث في جامعة جواهر لال نهرو إلا قليلاً حتى شعرت كما لو أنني عدت من كهف أصحاب الكهف بعد عقد من الزمان. كانت تلك بيئة جديدة، حيث لم يكن لي موطئ قدم. كلما نظرت إلى أيامي في ديوبند، كانت الحيرة تتملكني كيف أننا ظللنا معزولين في جزيرة وهمية، بعيدين عن العالم الخارجي. وعندما واجهت العالم الجديد، فكرت أنه إذا انغمست هنا أيضًا في قوقعة رجعية ضيقة، فما فائدة التواجد في هذه الجامعة الحديثة؟ رغبتي في تجربة حياة طلابية غنية قادتني إلى معسكر اليسار".

"فهل تشعر بالندم على هذا القرار؟"

أجاب: "ندم؟ كان قراري نابعًا من تفكير عميق واجتهاد شخصي. لو لم أفعل ذلك، لشعرت بالأسف. يعتقد بعض رفاقي أنني تاجرت بديني. لكن هل يمكن للإيمان أن يغادر قلب مسلم؟"

"لكن هذا يبدو كأنه معضلة نفسية، حيث تحمل شخصيتين متناقضتين على كتفيك في آن واحد، كامراد من جهة وأحمد من جهة أخرى".

"هذه هي متلازمة الهوية المُعارة." قال حسن بينما كان يحاول كشف أغوار الموضوع. "عندما تتبنى شخصية غريبة تحت ضغط الضرورة، يتطور في شخصيتك الأحادية العديد من الأقطاب البديلة. في بعض الأحيان، تفلت الأمور من يديك ولا تعرف حتى أي من هذه الأقطاب هو الأصيل. مررت بفترة كانت فيها هويتي الحقيقية تتلاشى من ذهني، وكنت أندمج تمامًا مع البيئة والأشخاص من حولي بطريقة لا توصف، إنها مسألة شديدة التعقيد. ذات يوم في كشك عصير الليمون، طلبت عصيرًا. وكانت هناك قطع ليمون طازج على الطاولة أمامي. قررت عصرها بنفسي. وعندما بدأت في عصر الليمون في كؤوس مختلفة، حاول البائع منعي، لكني لم ألتفت. بعد قليل، أقنعني أحد أصدقائي بصعوبة أنني هناك كزبون، ولست البائع".

"عجيب، هذا حقًا وضع مؤلم." قلت بتعجب.

"نعم، حين تحمل هوية مستعارة، تبدأ في طلب ثمنها منك." أجاب حسن.

"لكن الاضطراب الذي مررت به، سمعت عنه الكثير من القصص." عند سماع هذا، ظهرت ابتسامة خفيفة على وجه حسن.

"هذه هي معضلة العيش بين هويتين متناقضتين. في يوم من الأيام، كنت شيوعيًا متحمسًا. كنت أتفاخر بكوني ماركسيًا متواضعًا. خلال تلك الفترة، اكتشفت مسجدًا مهجورًا قريبًا من الحرم الجامعي. بدأ بعض الطلاب والموظفين المسلمين في ترميم المسجد وأقاموا صلاة الجمعة هناك. أصبح من واجبنا كمسلمين الحضور بأعداد كبيرة لدعم الدعوى للمسجد. كنت متشددًا شيوعيًا، مهملاً لصلاة الجمعة لفترة طويلة، لكن هذه كانت فرصتي للوقوف مع الإسلام. اسأل أحمد! كيف قدمنا كل شيء في هذه الحملة. أصبحنا جزءًا منها. في أحد الأيام، كنت أرتدي قبعة للذهاب إلى صلاة الجمعة عندما رأيت فارشا تغادر الحافلة من الباب الخلفي. التقت أعيننا، ابتسمت كالمعتاد، لكن وجهها كان مليئًا بالدهشة والاستياء. لاحقًا، اشتكت لي بأنني أصبحت متعصبًا دينيًا. كانت تعتقد أنني ليبرالي. حاولت شرح نفسي لها، لكنها لم تقتنع. شعرت بأن شيوعيتي كانت مجرد خدعة. كأن شيئًا داخلها قد تحطم عند رؤية صورتي المسلمة المفاجئة. هكذا بدأت قصتنا. بعد فترة من الصمت، تابع حسن قائلاً: "المشكلة هي عندما تحمل شخصيتين مختلفتين على كتفيك، تأتي لحظة يجب عليك فيها أن تقرر أي من هذه الهويات ستحتفظ بها وأيها ستضحي به. لقد اخترت المسجد وتخليت عن الحب".

"لكن يا حسن، هذا القرار كان لابد أن يكون شديد الصعوبة عليك." أجاب: "بالفعل، كان الأمر كذلك. فجأة وبشكل مفاجئ، وجدت نفسي في مواجهة هذا الواقع الجديد. نعم، كان من الصعب قبول هذه الحقيقة والتمسك بقراري. أشعر بالشفقة على أولئك الذين يقضون حياتهم كماركسيين متواضعين، غارقين في سعيهم لحياة مفعمة بالكمال. ترى، هل يسمعون تلك الأصوات القادمة من أعماقهم؟ كيف يتعايشون معها؟"

"هذا بالضبط ما يشير إليه نظامنا، إنه يجبر المسلمين في هذا البلد على تخفيف شدة هويتهم أو الاعتماد على هوية غريبة للتأثير على المسرح المركزي للبلاد وطلب نصيبهم من الدنيا"، ألقيت الضوء على خطورة الوضع.

أحمد يعلق بتأمل: 'ربما اللجوء إلى الحياة الدينية في المدارس والخانقاهات هو الحل، حيث نعيش بعيداً عن تعقيدات العالم الخارجي، في عزلة تامة عن الواقع.' ولكن حسن يرد بنبرة عميقة، معبراً عن تجربته الشخصية ومخاوفه: 'لكن حتى هناك، يا صديقي، نجد أنفسنا تحت وطأة القيود. الشيوخ الكبار مرتبطون بسلسلة الولاء للحزب، وهذا يجعل فكرة الحرية المسلمة مجرد سراب. إذًا، لماذا يسعى المسلمون لاعتناق هوية أجنبية؟' يُظهر حسن استياءً من الواقع المرير الذي يحيط بهم. وأنا، وسط هذا الحديث، أشعر بثقل النظام القمعي الذي نعيش تحته، حيث الجمهور غير مدرك لقسوته. أتذكر كلمات الأستاذ وقار حسين، التي ترن في أذني كأنها نواقيس تحذير: 'أشد ما في هذا النظام هو أنه يحجب عنا رؤية حقيقته الشريرة وخبثه العميق'.

٢٥

صراع الكفروالإسلام

في علي غرة، اتخذت المعركة بين الإيمان والكفر منحى جديداً. تصاعدت الإجراءات الانتقامية ضد الطلاب بشكل ملحوظ، مما يشير إلى أن هذا الصراع لن يُحل بسهولة. في عيون الطلاب، كان كل تحرك يقوم به رئيس الجامعة، السيد حامد، يُعتبر عملاً ضد الإسلام والمسلمين. من ناحية أخرى، بدأ السيد حامد ينظر إلى قادة الطلاب كعناصر معادية للمجتمع. وراء هذا المواجهة كانت سياسة اليسار هي الدافع الأساسي، والتي وقع في فخها السيد حامد دون قصد. على الرغم من تجربته وفهمه العميق للأمور، إلا أنه ارتكب خطأً كبيراً في تقدير دعاية ونوايا مجموعة عرفاني، مما أدى إلى عواقب وخيمة عليه وعلى الجامعة. كان السيد حامد، في حياته الشخصية، مسلماً تقليدياً وجاء إلى الجامعة بمهمة لاستعادة كرامتها، لكن السياسة اليسارية قدمته على أنه شخص بلا دين، عنيد، ويفتقر إلى الفخر الوطني، ويخلو تماماً من أي عنصر من العطف أو الحب تجاه طلابه.على الرغم من أن هذا الانطباع السلبي عن سيد حامد لم يكن له أي صلة بحقيقته، إلا أن الوقت اللازم لإزالته كان طويلاً. بل يمكن القول إن هذه الصورة المشوهة ظلت تغطي شخصيته طوال فترة تواجده في علي غرة. في إحدى المرات بعد عودته من رحلة إلى لندن، كان بحوزته قصاصة من مقال لبيتر واتسون، ربما نشرت في إحدى نسخ صحيفة تايمز لندن. تحدث بحماس عن هذا المقال المثير للتفكير، الذي يسلط الضوء على قضايا مهمة تتعلق بانحدار المسلمين، وأكد على ضرورة قراءته في الأوساط الأوردية. هذه كانت المرة الأولى التي أسمع فيها عن

بيتر واتسون منه، والذي أصبح فيما بعد مفتاحًا لي لاكتشاف بعض كتب المؤلف العميقة.

في حادثة ما، احتدمت المواجهة بين الطلبة ومشرف قاعة حبيب - وهي مجمع سكني يضم عدة مساكن طلابية. تصاعد الأمر ليبلغ ذروته في التمرد. واجه بعض الطلاب خطر العقوبات التأديبية. لجأوا إليّ طلباً للمساعدة، فوافقت على القيام بدور الوسيط بين الطرفين. أخذتهم معي إلى سيد حامد، رئيس الجامعة، الذي كان منهمكاً في اجتماع. خرج للحظات ليستفسر عن الواقعة. أوضحت له أن الجامعة كقبيلة علمية، وهو يمثل رأسها، وعندما تحدث مشكلات بين أعضاء هذه القبيلة، يتجه الأمر إلى القائد. جئنا إليه على أمل أن يجمع بين الطرفين المتنازعين - المشرف والطلاب - لحل النزاع وتقريب وجهات النظر. ابتسم سيد حامد، مؤكداً أنه لن يتوانى عن أداء واجبه في هذا الشأن، وطلب منا أن نكون مطمئنين. عدنا ونحن مطمئنون بزوال خطر العقوبات التأديبية.

في تلك المرة، احتجز الطلاب البراكتور كرهينة، وكان ذلك في قاعة حبيب. كان البراكتور قد قصد القاعة لتهدئة بعض الاضطرابات. من بين مطالب الطلاب كانت هناك مطالبة بأن يقدم المشرف على القاعة استقالته فورًا. بدأ الاضطراب في المساء واشتد حتى منتصف الليل، ولم يعد بالإمكان إخراج البراكتور بأمان. كان التدخل الشرطي قد يؤدي إلى مشكلات أكبر. حوالي الواحدة صباحًا، توجهنا أنا وثلاثة أو أربعة من الطلاب إلى مقر إقامة رئيس الجامعة. في الطريق، التقينا بالأخ شوكت، وهو طالب كبير، الذي كان يتجول لمراقبة الوضع. كان متحمسًا جدًا، وأخبرنا أن الطلاب في قاعتي إس إس وفي إم جاهزون لكل شيء. لم أعلم كيف أشرح له أنني خرجت لتهدئة الأمور. وصلنا حوالي الواحدة والنصف أو الثانية صباحًا، حيث كان سيد حامد جالسًا مع فريق الإدارة وبعض المسؤولين الحكوميين. اقترحت عليه إصدار قرار بإقالة المشرف لتهدئة الطلاب وربما تسهيل إطلاق سراح البراكتور. لم يتردد، فأخرج ورقة رسمية من الدرج وكتب قرار الإقالة

وسلمه لي. عندما وصل الخبر إلى القاعة، هدأت الأمور وتمكن البراكتور من المغادرة بأمان.

في إحدى الليالي ببرنامج نادي الدراما، حدثت واقعة تضمنت مشهدًا مخلًا بالآداب. تصاعدت التوترات بين الطلاب المسلمين والشيوعيين، وتحول الأمر إلى نزاع حاد. استدعى السيد حامد المسؤولين في النادي للمحاسبة. بالصدفة كنت قريباً من غرفة الزوار في مكتبه. سمعته وهو يوبخهم بشدة. كانت المشكلة الحقيقية أن السيد حامد لم يكن عنيداً أو معادياً للتقاليد، بل وجد نفسه محاصراً في تبادل للنيران بين الإسلام والكفر. لكن ما الذي كان بإمكانه فعله؟ في تلك الفترة، كان الاعتقاد السائد هو أن النجاح في الحياة الجامعية دون دعم اليسار أمر صعب. نشاطات عالمين في مركز دراسات التاريخ، اللذان كانا يُعتبران جزءاً من اليسار رغم إسلاميتهما الصريحة، كانت تدعم هذا الاعتقاد. أحدهم، بفضل جهود السيد حامد، حصل على الحرية.في الجامعة، كان هناك عدد كبير من الأشخاص الذين شعروا بالنفور من السياسة اليسارية، لكن لم يجدوا مكاناً لهم في الدوائر الإسلامية أيضًا. تجسدت هذه الحالة في قصة أخوات زيدي، اللواتي كن يسعين لعيش حياة أكاديمية واجتماعية نشطة. لكن المجتمع التقليدي في علي غراه لم يكن يستطيع أن يواكب تطلعاتهن المتقدمة. عندما كن يظهرن في الحرم الجامعي على دراجاتهن، كانت العديد من أسس التقاليد تهوي أرضًا. في مجتمع الإقطاع، شكلت القيم هيئة من الإسلام لم تترك مجالاً كبيراً للنساء مثلهن. وبالتالي، لم يكن أمامهن خيار آخر سوى اللجوء إلى ظل اليسار الفكري رغماً عنهن. كانت هذه المواجهة بين الكفر والإسلام في الواقع لعبة بين الضوء والظل. الأشخاص الذين كانوا يسعون لدور رئيسي في مركز الحياة كانوا يعيشون في التناقض بين الضوء والظل، متقبلين الولاءات الجديدة أحياناً برضا وأحياناً أخرى مرغمين. لكن بالنسبة لأولئك الذين كان من المهم بالنسبة لهم البقاء على ما هم عليه، كانت الحياة ليست سهلة في هذا الزمان والمكان، كما هو الحال في كل الأزمنة والأماكن.

في جامعة علي غره، التي يعتبرها مسلمو الهند قلعتهم الفكرية والعلمية، والتي ناضلوا من أجل استعادة وضعها الخاص لمدة ستة عشر عامًا، كان يُعتبر ضروريًا للشخص للاستفادة من الفرص والإمكانيات أن يعتمد هوية غريبة بدلًا من هويته الحقيقية. يضطر للادعاء بأنه شيوعي بسيط بدلًا من الاعتراف بكونه مسلمًا. بغض النظر عن ماهيته الحقيقية، لا يمكنه تحقيق التقدم في بعض الأقسام إلا إذا لجأ إلى ظل الشيوعية. كما ذكرنا سابقًا، كان هناك بعض العلماء في قسم التاريخ يتبعون استراتيجية حمراء، مما يعزز الفكرة بأنه لا بد من إخفاء الإسلام تحت العباءة الحمراء لتجنب الاتهام بالتطرف الإسلامي. ربما كان هذا هو السبب في عدم وجود جو من الاحتفال في علي غره أو خارجها حتى بعد استعادة وضعها الخاص كأقلية. استخدم الشيوعيون كل أسلحتهم لتصوير الطلاب كمتطرفين ومجرمين. استمرت الجامعة في التأرجح بين الفتح والإغلاق. وبعد طرد العديد من الطلاب، عندما عادت الأمور إلى طبيعتها واستعادت الحياة الأكاديمية رونقها، أصبحت مشاركة الطلاب المطرودين في الامتحانات والحصول على شهاداتهم المسألة الأساسية. عندما يُحرم الناس من حقوقهم الأساسية، يصبحون ممتنين لمجرد أنهم على قيد الحياة، بعيدًا عن التشبث بمعتقداتهم الدينية. لذا بدلًا من التمسك بالهوية الإسلامية، كان الطلاب الذين احتجوا يشعرون بالرضا لأنهم تجنبوا الإجراءات التأديبية واستطاعوا المشاركة في الامتحانات ومواصلة البحث عن فرص في العالم الخارجي.

على الرغم من أن الإجراءات التأديبية قد أعادت الجامعة إلى الطريق الصحيح، إلا أن اليسار ظل يسيطر على الآلية الإدارية. استمرت معاناة الهوية المستعارة. في قسم التاريخ، الذي كان مركز هذه الأوهام، كان هناك منافسة بين الطلاب للتخلي عن هوياتهم الأصلية ورفض الهويات التقليدية. في إحدى المرات، كتب أحد الطلاب، مدفوعًا بحماسه الثوري، في رسالة إلى "تايمز أوف إنديا" أن "القرآن الصامت" قد بدأ في التحدث مرة أخرى. كان هذا الشاب من عائلة مسلمة تقليدية، لكن الواقع كان أنه لم يكن هناك خيار آخر للنجاح في قسم التاريخ

سوى اتباع هذا المسار. أثارت هذه الأفعال الاستياء في الأوساط الدينية. وقعت اشتباكات بين مجموعتين من الطلاب، وأصبح هؤلاء المجاهدون الحمر مفضلين لدى أساتذتهم الشيوعيين. بعد سنوات عديدة، التقيت بأحد هؤلاء الطلاب في مؤتمر علمي في لندن. في البداية كان متحفظًا، لكن عندما تلاشت الحواجز بيننا، اكتشفت أنه مسلم متدين للغاية، أكثر مني، ويعتبر حتى تحليل ونقد المسلمات الإسلامية التقليدية خطيئة. تفاجأت وتساءلت إذا كان هذا التغير في فكره نتيجة إقامته في لندن، حيث كانت حركات الإحياء مثل حزب التحرير تنتشر بسرعة في حرم الجامعات. لكن الحقيقة كانت مختلفة. أشار ببراءة وبساطة إلى سترته الحمراء وقال إنه لولا ارتداؤه لهذا القباء الأحمر، لما كان من الممكن أن يلتقي بي في هذا المؤتمر.

تغيير الهوية كان في الواقع مسألة الوجود أو العدم. كانت معركة البقاء والنجاح، حيث كانت فرص النجاح ضئيلة للغاية بالنسبة للكثيرين. أحد أصدقائي، الذي أصبح فيما بعد رئيس سجن في حكومة إقليمية، غاب يوماً عن صلاة الجمعة. عندما زرته للاطمئنان عليه، اكتشفت أنه اعتنق الزي الأحمر. ولكنه سرعان ما أدرك أنه لا يستطيع منافسة أولئك الذين كتبوا علانية رسائل تدين "القرآن الصامت". كان يعيش في حالة تشبه الشاعر الذي يصف التناقض بين الإيمان والكفر، قائلاً:

"الإيمان يحبسني والكفر يشدني، الكعبة خلفي والكنيسة أمامي"

وهذا يعكس حالة الصراع الداخلي والتوتر بين القيم والمعتقدات المتناقضة التي ظلت تسيطر عليه.

٢٦

الهوية المفروضة

بعد قضائي حوالي ثلاث سنوات في علي غره، عندما عدت إلى مسقط رأسي، وجدت عالمًا قد تغير. لم أتوقع أن يدخل والدي مرحلة الشيخوخة في هذه الفترة القصيرة، وأن يغلب البياض على شعره الأسود. كانت عيناي تبحثان عن إخوتي الصغار في المنزل، لكنهما لم يظهرا. بدلاً من ذلك، كان هناك طفلان أكبر سناً يتحركان بألفة توحي بأنهما من أهل البيت. في البداية ظننت أنهما ربما من الجيران، لكن مع استمرار غياب إخوتي وبقاء هذين الطفلين في منزلنا بأريحية، أدرك قلبي أنهما ليسا سوى إخوتي الصغار، اللذان شكّلهما الزمن بهذه الصورة. عندما غادرت، كان حديث أبي يعبر عن عزم لا يلين نحو التغيير، وكان يرى نفسه شخصية محورية في هذا التحول. الآن، تحول محور حديثه إلى نقل هذا الحلم إلى أبنائه. تذكرت كيف أنه في طفولتي، أصبح مضطربًا عند مناقشة تفسير 'ما تعبدون من بعدي'، وكان يقول بالكاد إنها مسؤولية عظيمة. والآن، كان يتوق لنقل مشعل التوحيد إلى أبنائه. كل جملة كان ينطق بها كانت تبدو وكأنها تصدح بسؤال 'ما تعبدون من بعدي؟'

كان أبي يتمتع بعادة الإصغاء بحماسة عميقة لروايات إنجازات أبنائه، محاولاً اكتشاف أدق تفاصيلها بفضول متزايد. أثارت دهشته حقيقة أن الصراعات النظرية والجماعية قد خلقت للطلاب في الجامعات العلمانية الحديثة تحديات متعددة ومعقدة، مشكّلة بذلك مشهداً جديداً من المواجهات الفكرية والتحديات العصرية.

زاهدة زيدي، التي كانت من مؤيدي اليسار، كانت تعلمنا الأدب الأمريكي. لقد تم تعيينها كمشرفتي الأكاديمية، لكن الأمور لم تدم طويلًا واضطررت لتغيير مشرفي. من ناحية أخرى، كان هناك أساتذة مثل أسلوب أنصاري، الذين كانوا يصرون بشدة على عقيدتهم الراسخة. كانوا يُعرفون بأنهم تركوا اجتماعًا لكبار الأساتذة احتجاجًا على تعليقات قيلت فيه تفتقر للاحترام تجاه النبي محمد ﷺ. وهكذا، كانت الولاءات الفكرية لها تأثير كبير داخل أسوار الجامعة. أدرك أبي حيرتي وتحدث عن الاختبار الحقيقي الذي يواجهنا: البقاء ثابتين على هويتنا الأصلية. قال إن "أصلها ثابت وفرعها في السماء" يشير إلى هذه الفكرة، مؤكدًا أنه إذا تردد أهل الحق في التعبير عن أنفسهم، فإن فرص نمو كلمة الحق تنخفض. وأضاف أن هذا ليس جديدًا في الهند بعد الاستقلال، حيث فُرضت على المسلمين هويات جديدة لم يكونوا مرتاحين لها ولا يستحقونها. حصة المسلمين في الهند المنقسمة كانت خداعًا فقط. تحدث وعلى وجهه علامات الألم، ثم تغير وضعه وأكد أن الخداع حدث على كلا الجانبين، هنا وعبر الحدود.

قال والدي: "تأسست باكستان باسم الإسلام، لكن جناح، قبل أيام قليلة من استقلال باكستان، أعلن صراحة في خطابه أمام الجمعية التأسيسية الباكستانية عن رفضه للأساس الديني للدولة. أكد أنه لا يهم أي دين أو طائفة تنتمي إليها، فالدولة لا تهتم بهذا الأمر. وأوضح أنه في المستقبل لا يوجد هندوس أو مسلمون في البلاد، إذ أن الانتماء الديني هو مسألة شخصية. ومن الناحية السياسية، سيكون الجميع مواطنين للدولة. في ذلك الوقت، أصيب الكثيرون بالذهول من هذه اللهجة الجديدة لجناح. إذا لم يكن من المفترض أن يبقى الناس مسلمين أو هندوس في الدولة الجديدة، وأصبحت هذه الأمور مجرد قضايا شخصية، فما الحاجة إلى تأسيس باكستان؟ كان يمكن القيام بذلك ضمن الهند المتحدة. خطاب جناح هذا أفرغ البالون الدعائي لحركة باكستان، التي امتلأت بشعارات مثل 'ما معنى باكستان؟ لا إله إلا الله'، من هوائها منذ البداية. ومن ناحية أخرى، أصبح استقلال باكستان تحديًا جديدًا للمسلمين في الهند. نظرًا لأن

باكستان أُسست باسم الإسلام، فقد بدأ الناس يعتبرون الإسلام وباكستان وجهين لعملة واحدة. بالنسبة للمسلمين الهنود، أصبح من الضروري إظهار ولائهم للهند من خلال إعلانهم العلني برفض باكستان، التي تأسست على فكرة الدولة الإسلامية".

قلتُ: "إذن كانت تلك فترة اختبار عصيبة، أليس كذلك؟"

رد والدي: "نعم، كانت لحظة عصيبة للغاية. المسلمون تحولوا بين عشية وضحاها إلى مجرمين في هذا البلد. حتى أولئك الذين لم يكونوا مرتبطين بحركة رابطة العالم الإسلامي، كان عليهم اعتماد سياسة التشهير بباكستان كدليل على ولائهم. بسرعة، ظهر في البلاد قبيلة جديدة من المسلمين القوميين. كان يُعتبر من الضروري لهؤلاء المسلمين القوميين، عندما يعبرون عن مطالبهم أو يتحدثون عن الاحتجاج، أن يتضمنوا بضع كلمات سلبية أو مذمومة عن باكستان لضمان ألا يُشك في ولائهم للوطن. كان الهوية القومية للمسلمين في الواقع هوية مفروضة. كانت مجرد عباءة مستعارة يرتديها الكثير من المسلمين البارزين بعد تقسيم الهند لإخفاء أنفسهم. لم يكن لديهم خيار آخر، فقد سُلبت الأرض من تحت أقدامهم بسبب التقسيم. فكّر في راجا من محمودآباد، الذي كان أمين عام رابطة العالم الإسلامي ويُعتبر اليد اليمنى لجناح. لم يتوقع أبدًا أن يصبح غريبًا في بلده. ربما لم يكن مستعدًا لهذا الوضع، لذلك قدم استقالته على الفور من رابطة العالم الإسلامي. أعلن بصراحة أن الحزب ارتكب خطأ استراتيجيًا سياسيًا. في هذه الظروف الجديدة، نصح المسلمين الهنود بالاستعداد للقتال نيابةً عن الهند، حتى لو كان ذلك يعني محاربة باكستان. كان هناك رجل يُدعى إم. أ. سلام، كان قائدًا بارزًا لرابطة العالم الإسلامي في جمعية مدراس التشريعية، وجد أيضًا أنه من الملائم الإعلان عن أن مسلمي أندرا وفيون للدولة الهندية ومستعدون للتضحية بآخر قطرة من دمائهم من أجل حمايتها".

"ثم كانت تلك فترة اختبار عظيمة، أليس كذلك؟" سألت والدي.

أجاب: "نعم، فقد تحول المسلمون فجأة إلى مجرمين في هذا البلد. حتى أولئك الذين لم يكونوا مرتبطين بحركة رابطة المسلمين، كان عليهم أن يثبتوا ولاءهم الوطني كدليل على ولائهم. لم تكن هذه الاختبارات سهلة بالنسبة للمسلمين. أتذكر عندما قال غاندي، قبل بضعة أشهر من الاستقلال، إنه من مسؤولية الولايات القومية والإقليمية التعامل مع المسلمين بعدالة كاملة، مما أثار ضجة في الصحافة الهندوسية. كانوا يقولون إنه بالنسبة للمسلمين القوميين فقط يمكن التفكير بهذه الطريقة، ولكن منح المسلمين العاديين هذا المستوى من الاعتراف كان سيكون خطأ خطيرًا. كانوا يعتقدون أن قلوب هؤلاء المسلمين مملوءة بحب باكستان، وأنهم شاركوا في حركة رابطة المسلمين، ولا يمكن لولائهم أن يتغير بين عشية وضحاها".

"هل كانت هذه الاتجاهات السائدة في البلاد بشكل عام، أم أنها كانت محصورة فقط ضمن التيارات الهندوسية المتشددة؟" هذا ما استفسرت به والدي بفضول.

فأجاب: "حتى القادة الهندوس الظاهرين بمظهر الاعتدال كانوا يسيرون على خطى التعصب الطائفي. هل سمعت عن رام منوهار لوهيا؟"

"نعم، يُعرف بكونه قائدًا اشتراكيًا وله مكانة مرموقة في الأوساط العلمانية".

فأجاب بنبرة تحمل بعض الدهشة: "ستتفاجأ بمعرفة أن قادة مثل لوهيا، حتى بعد التقسيم في أكتوبر ١٩٤٧، كانوا يحرضون الناس ضد باكستان. تحدث لوهيا قائلًا: 'أناشد خاصةً المسلمين الهنود أن يتخلوا عن أسلحتهم، أن يصبحوا مواطنين موالين للهند، وأن يستعدوا للحرب ضد باكستان أو أية دولة أخرى إذا دعت الحاجة.' ستجد الصورة الحقيقية لتلك الأيام في صحف سبتمبر وأكتوبر ١٩٤٧. وكان هناك أيضًا جوفند فالابه بانت، رئيس وزراء أوتار براديش، الذي كان يطالب المسلمين الهنود بتبني الولاء للوطن كشعار لهم. أعلن بوضوح أنه يتعين على كل مسلم هندي أن يقاوم المهاجمين الباكستانيين ويقدم دمه تضحية. كان

يعتقد أنه يجب على المسلمين الهنود أن يتأملوا في قلوبهم ويقرروا ما إذا كان ينبغي لهم الهجرة إلى باكستان أم لا".

"كانت هذه الأجواء تشبه الهجوم المفاجئ. ما الذي أدى إلى هذه الموجة العنيفة من العداء ضد المسلمين؟ حتى قبل بضع سنوات، شهدنا تآلفًا عميقًا بين الهندوس والمسلمين في حركة الخلافة، حيث كانت قيادة الحركة بشكل كبير بيد المسلمين. فكيف وصلنا إلى هذه النقطة بحلول عام ١٩٤٧، حيث أصبحت الأرض ضيقة على المسلمين في بلدهم، لدرجة أنهم اضطروا لإثبات ولائهم والتستر تحت هوية قومية جديدة، على الرغم من هويتهم الدينية والقومية الأصلية؟"

عندما طرحت هذا السؤال، توقف والدي لحظة، كأنه يبحث في أعماق التاريخ للعثور على اللحظة التي تكشف الحقيقة. قال: "ما نسميه الاستقلال، كان يُنظر إليه من قبل العديد من القادة الهندوس كفرصة لإحياء الهند القديمة. وهذا لم يكن محصورًا على الهندوس المحافظين فقط، بل حتى شخصيات الكونغرس الرائدة كانت تعتبره بمثابة نهاية لألف عام من الحكم المسلم. كان هناك رجل يدعى بابو سمبورنانند، وزير التعليم في حكومة أوتار براديش، الذي كتب في مقال صحفي قبل أسابيع قليلة من الاستقلال، معربًا عن سعادته بأننا على وشك استعادة شيء ثمين كان قد فُقد قبل ألف عام. وفقاً لسمبورنانند، فقدت الهند كرامتها الذاتية في معركة تاراين، حيث هُزم بريثفيراج على يد محمود غوري، ومنذ ذلك الحين، لم تحدث أي تطورات كبيرة في العلوم أو الفلسفة في الهند. يمكنك أن تجد مثل هذه الأفكار في العديد من المجلات والصحف في ذلك الوقت. إذا سنحت لك الفرصة، زُر مكتبة عليكره واطلع على الأرشيف القديم للصحف والمجلات، وستدرك مدى قسوة التحديات التي واجهها المسلمون مع فجر الاستقلال. حتى الأشخاص الذين لم يكونوا مرتبطين فكرياً أو نظرياً بحركة باكستان، عندما أدركوا صعوبة العيش في الهند المقسمة، اختاروا الهجرة إلى باكستان، معتقدين أن من يبقى في هذا البلد سيقضي حياته كلها في محاولة لإثبات أنهم مواطنون أوفياء وصادقون".

وفيما كان الحديث لا يزال يتدفق، اقتربت ركشة وتوقفت أمام المكتبة. نادى والدي: "ساعدوه على النزول". إنه صديقه القديم، أستاذ الرياضيات في الكلية المحلية. أصابني القلق لرؤيته يستخدم عكازًا. فقد فقد الأستاذ ذكي بريق وجهه السابق. عندما رآني، تألقت ملامحه بالفرح. علم بأننا كنا نناقش قضية هوية المسلمين قبل وصوله، فأطلق تنهيدة حزينة. قال: "لقد أبدعوا في إخفاء هويتنا الحقيقية بخطط ذكية. ادعوا أننا أقلية، وأن مكانتنا على الهامش. وعلى الرغم من أننا كنا الأغلبية من الناحية النظرية، إلا أنهم صنعوا وهم الأغلبية الهندوسية. الهندوسية لم تكن عقيدة أو ديانة، بل مصطلح عام استخدمه العرب والفرس للإشارة إلى سكان هذه المنطقة. في الحقيقة، كانت هناك طوائف متعددة ومتناقضة من المؤمنين وعباد الآلهة المختلفة. وللتغطية على هذا الواقع المروع، ابتكروا هيئة الديانة الهندوسية المصطنعة. في هذا السيناريو المزيف، تحول المسلمون، على الرغم من كونهم أكبر أمة، إلى أقلية". أزال نظارته، طلب كوبًا من الماء، ثم تابع بعد فترة صمت: "هناك ما يُعرف بـ'الهوية المفروضة'، حيث يُقنعك الآخرون بأنك شيء لست عليه. أسمي هذه الصورة النمطية المعادية 'الهوية المفروضة'. وصفوا المسلمين في هذا البلد بأنهم أقلية، وأكدوا على ذلك حتى صدق الكثيرون من المسلمين أنهم حقًا أقلية، وبدأوا يعتبرون أنفسهم كذلك."

عندما قال السيد عبد المتين، "لقد استخدمتم هذا المصطلح 'الهوية المفروضة' ببراعة"، انضم إلى الحوار بتعليق حاد: "هذا يحمل في طياته النكران الإجباري أيضًا."

استأنف الأستاذ ذكي الحديث قائلاً: "تصوروا العجز الذي يشعر به المرء عندما يُفرض عليه تصور غير حقيقي عن نفسه. في عهد البريطانيين، فُرضت علينا هوية مصطنعة - كانوا يطلقون علينا 'محمدان'، لكننا رفضنا هذا التعريف بكل قوتنا. نحن اليوم ما زلنا نُعرف بالمسلمين، لكن تمسك هوية الأقلية بنا بشكل يجعلنا الآن نسعى بأنفسنا للحصول على امتيازات كأقلية."

"لم أكن أدرك قط أهمية الهوية في حياة الأمم إلى هذا الحد. لقد سمعت والدي يكرر أن الشخص هو ما يعتقده، لكنني كنت أجد صعوبة في فهم كيف تؤثر تصورات الفرد عن نفسه في حياته الفردية والجماعية بهذا الشكل الحاسم."

٢٧

مائدة الاثنتين وسبعين طبقًا

في يوم الجمعة الهادئ، كانت المكتبة خالية من الحيوية المعتادة. لم يتوقف عم شحمة بسيارته أمام المكتبة كما كان يفعل دائمًا، ولم يظهر العلامة خورش، المعروف بتفانيه في العلم ولكنه فقد توازنه بسبب مأساة التقسيم. وكذلك لم يتواجد الأستاذ، الشخصية المعروفة بعلمها الغزير واضطرابها النفسي، لطلب طعامه المفضل. ورد خبر وفاة نواب بيغمبربور منذ بضعة أيام، الذي توفي في ظروف مأساوية. كان والدي قد أرسل أخي للتحقق من أحواله في أيامه الأخيرة. لم يكن أحد يتوقع أن يواجه رجل من طبقة النبلاء مثل هذه النهاية المحزنة.يُقال إن البروفيسور، في ذلك اليوم، كان مضطربًا للغاية. ترك طبق البيلاف نصف فارغ وانطلق إلى المسجد الجامع، حيث كان يمضي أحيانًا لياليه في العبادة. لقد مرت سنتان على ذلك الحدث، ولا يزال مصيره مجهولًا. هل ابتلعته الأرض أم اختفى في الفضاء؟ عندما سمعت بغيابه المفاجئ، تذكرت أنور علي خان سوز من جامعة جامعة ملية الإسلامية، المعروف بكتاباته الجريئة باللغة الإنجليزية حول قضايا المسلمين. يُقال أنه أيضًا كان يحمل روحًا مضطربة. لا أحد يعرف مأساة المسلمين الهنود أفضل منه. يُقال أنه ذات يوم خرج من منزله ولم يعد أبدًا. بحث عنه الأقارب والأصدقاء في كل أنحاء دلهي دون جدوى. ربما كان القدر رحيمًا به. لم يعد هذا البلد يتسع لأولئك الذين يحملون نفوسًا مضطربة.

كانت المكتبة الآن مركز تجمع للجيل الجديد من الشباب، الباحثين عن مستقبلهم في ثنايا التاريخ وتحليلاته. كان هؤلاء الشبان يتساءلون بفضول. إذا كان مسلمو شمال الهند على علم بأن مناطق بهار وأوتار براديش ستظل ضمن

الهند بعد تشكيل باكستان، فلماذا دعموا حزب الرابطة الإسلامية؟ كانوا يعلمون أنهم لن يتمكنوا من الانتقال إلى باكستان، فلماذا لم يقفوا ضد هذا المخطط الغير مدروس للتقسيم؟ هل كان التقسيم مؤامرة، أم أن قيادة الرابطة الإسلامية كانت فعلاً ترغب في ذلك؟

سأل عبد المعز يومًا إذا ما كانت فكرة باكستان مجرد وسيلة مساومة. هل كان جناح يستخدم هذه الفكرة كتهديد لاستخلاص أقصى الامتيازات من قيادة الكونغرس؟

حتى عام ١٩٤٠، كانت الأمور على ما يرام، كما أوضح والدي. في تلك الجلسة بلاهور، المعروفة باسم قرار باكستان، كان هناك تصور لحكم ذاتي موسع للمسلمين. حتى في أفكار إقبال، كان هناك حديث عن إقامة مناطق ثقافية مسلمة بدلًا من دولة منفصلة أو تقسيم الوطن. كانت الهند دائمًا دولة فيدرالية، لذلك لم تكن فكرة هذه المناطق الثقافية داخل وحدة سياسية واحدة بعيدة. ولكن بعد عام ١٩٤٦، تغيرت الأمور بسرعة كبيرة بحيث لم يعد بالإمكان السيطرة عليها.

"هل وُجدت باكستان صدفة؟" هذا سؤال يصعب الإجابة عليه. كانت المعركة الحقيقية حول رؤية المسلمين لأنفسهم ضمن وفاق لين، يحافظون فيه على مراكزهم الثقافية، بينما كان الكونغرس يسعى إلى تحقيق دولة قوية ومركزية. هذا التنافس أدى إلى حل غير طبيعي، نوع من الجنون الذي لا مثيل له في التاريخ الإنساني. الخط الذي رسمه ريدكليف على أرض الله كان مليئًا بالعنف والدمار، وابتلع العديد من الأرواح، وأدى إلى تدمير حضارة بأكملها.

"تخيلوا لو لم يحدث ذلك، كيف كانت ستكون دلهي ولكناو. ما هي الإمكانيات الثقافية والأدبية التي كانت ستنمو في حيدر آباد وبوبال؟"، تأمل عبد المعز في ماضٍ مفقود.

أجاب والدي: "رغم أن كل هذا حدث بشكل مفاجئ، إلا أن الظروف كانت تتجه نحو هذا المسار لفترة طويلة. لقد عاش المسلمون في عالم من الأوهام. حتى

بعد التقسيم، لم يحاولوا التكيف. تعرضوا لهجمات متتالية لم يتمكنوا من تحملها. تم تنفيذ قوانين بشكل منهجي لإزالة المسلمين من ممتلكاتهم."

"فعلاً؟"

"نعم، مثل قانون الممتلكات المهجورة وقانون ممتلكات العدو. هذه القوانين كانت مصممة خصيصًا لتجريد المسلمين من ممتلكاتهم."

"ألم يُبدِ القادة السياسيون المسلمون أي احتجاج؟"

"ماذا كان بإمكانهم أن يفعلوا؟ كانت الحملة تُدار مباشرة من قبل سردار باتل. حتى رؤساء الوزراء مثل بانت، خر، وشكلا كانوا مُصرّين على زج المسلمين في زاوية العزلة. لكن، هذا فقط جانب واحد من القصة. المسلمون أنفسهم كانوا في حالة من عدم الوعي بكيفية التعامل مع هذه التحولات الجديدة. إلغاء نظام الزماندارية أسقط المسلمين فجأة من علياء الرفاهية إلى حضيض الفقر. فقدوا وظائفهم وجفت منابع دخلهم. أما نواب لكناو الأثرياء، فقد استمروا لفترة بالاعتماد على المعاشات الوقتية التي منحهم إياها البريطانيون، ثم سرعان ما اجتاحهم الفقر والضيق".

"ما هذه الوثائق؟"

"تُشبه المعاشات البطالة المؤقتة. وعندما انقطعت سبل الرزق، لجأ هؤلاء النواب إلى استدانة الأموال من التجار الهندوس، وسرعان ما أصبحوا ضحايا للديون الربوية. نتيجة لذلك، انتقلت قصورهم ومنازلهم الفخمة إلى أيدي تجار الرستوغي".

لو أنهم أداروا ما تبقى من أملاكهم بحكمة، لربما احتفظ المسلمون بنفوذهم في المواقع المركزية بلكناو.

صحيح ما تقول، لكن المشكلة كانت في نظرة هؤلاء الناس للعمل على أنه أمر تافه. كانوا يستنكرون فكرة بيع عقاراتهم بأسعار مناسبة لتمويل أعمالهم التجارية. في نظرهم، كان بيع العقارات أو الأثاث الثمين يشكل إهانة اجتماعية. كانوا يخشون القيل والقال حول بيع ممتلكاتهم. واحد من أقربائنا، المعروف باسم

نواب بريول، كان يعيش حياة الفخامة. عندما نفدت المحروقات في مطبخه، أمر بتقطيع الأثاث الثمين لاستخدامه كوقود. نصحه الناس ببيع قطعة من الأثاث مقابل كمية كبيرة من الحطب الجاف، لكنه رفض، خوفًا من الحديث الناس عن بيعه لأثاث منزله. في المناسبات مثل المحرم، كان يقيم سبيل للشرابات. لكن هذه كانت أيام الرخاء. الآن، لم يعد هناك نفس الحماس في صرخات 'بول محمدي يا حسين' التي تُترجم إلى "قولوا محمد ويا حسين"، كانت صرخة حماسية يرددها المشاركون، حيث كان الهندوس والمسلمون يشاركون على حد سواء.نصحه الناس بأن عصر الآبار قد ولى ويمكن أداء هذه المهمة بأسلوب أكثر حضارة باستخدام أوعية الفولاذ الكبيرة. لكن نواب كان متمسكًا بطريقته. حتى في إعلان هلال رمضان والعيد، كان يفضل استخدام المدفعية، معتبرًا أنها أكثر توافقًا مع الإسلام. نصحه الناس بأن التكنولوجيا قد تطورت ويمكن استخدام الصافرات، لكنه كان يرى أن المدفعية تُظهر عظمة الإسلام بطريقة لا يمكن للصافرات تحقيقها.



كانت تلك الأيام الأخيرة من جاه وبهاء النظام الإقطاعي، والتي شاهدتها في بيت جدتي حين كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري. على الرغم من زوال النظام الإقطاعي، استطاع جدي المحافظة على نفوذه بحنكته ودهائه. لا يزال لديه امتداد شاسع من الأراضي التي يزرعها بنفسه، مما يعطي شعورًا بأنه لا يزال يمتلك دولة صغيرة خاصة به. كان السوق يُقام مرتين في الأسبوع في القرية، حيث تُحل الخلافات ويجتمع الباحثون عن العدالة في بيت جدي. أصبح جدي يشغل منصب السربنش المحلي في نفوذه، لكن هذه التدابير المصطنعة لم تكن تكفي دائمًا. بدأ الناس يدركون أن علاقتهم لم تعد علاقة ملك ورعية. كان هناك شعور بالتمرد الخفي يتأجج في الصدور، ولكن الاحترام المتبقي في العيون أوقف الكثيرين عن التعبير عنه. ربما كانت هناك حالة من الإنكار المتعمد لتغطية هذا الواقع المرير. استمرت الهوايات القديمة من الأيام الجيدة؛ كان جدي يذهب في رحلات

الصيد عندما يكون لديه وقت فراغ، وكان يجد في ذلك متعة خاصة، خاصةً الشعور بأنه يمكنه فعل ما يشاء في نفوذه دون الخضوع للمساءلة أو الاستجواب.

لجدي كانت هواية فريدة: تقديم مأدبة ضخمة بها ثنان وسبعون صنفًا من الأطعمة المختلفة. في البداية، كنت أتساءل عن سبب إعداد هذه الولائم الكبيرة. كانت الأطباق المتنوعة تُعد منذ الصباح حتى المساء، مع إضافة مجموعة من المخللات، المربيات، والشتنيات المقدمة في أواني زجاجية صغيرة. جدي كان يتناول الطعام فقط مرتين في اليوم ولم تكن شهيته كبيرة، لكنه لم يرغب أبدًا في تقليل عدد الأطباق السبعين، مخافة أن يُفسر الناس ذلك على أنه دليل على ضعفه أو انحسار مكانته.

كان لجدي شغف آخر إلى جانب مأدبة الطعام الفخمة: الرغبة في أسرة كبيرة. بعد وفاة زوجته الأولى، تزوج مرة أخرى، وخلال حفل زفاف، وقعت عيناه على امرأة جميلة أخرى، فقرر ضمها إلى حريمه للحفاظ على مكانته وهيبته. كان الحكماء يذكرون أن الحديث النبوي يحث المؤمن على الدعاء من أجل البركة في أسرته. كانت العائلة تضم عدداً كبيراً من الأعمام والخالات، بالإضافة إلى الخدم الذين خدموا الأسرة لأجيال. كان صراخ وضحك الفتيات يخلق جواً من الاحتفال المستمر. وكانت أسماء الخادمات مميزة: إحداهن تسمى جولبدان (زهرة الورد)، وأخرى تسمى تشاندني (ضوء القمر)، وواحدة تدعى خوشبو (عطر)، وأخرى راسيلا (العصيرية). من كان يصدق أن الأوضاع قد تغيرت بينما كانت الحياة داخل الأسرة تستمر كالمعتاد؟ حاول جدي جاهداً إخفاء الواقع، لكنه لم يستطع الصمود طويلاً أمام هذا الانهيار. أنهى نوبة قلبية حياته، وهكذا انتهت حقبة من العظمة والبهاء.بعد رحيل جدي، بذل عمي الأكبر جهودًا جبارة للحفاظ على الفخامة والعظمة الأسرية. كان يدرك الواقع الجديد ويعي أنه يخوض معركة خاسرة، لكنه لم يستسلم. بعد وفاته، بقي من العائلة فقط الأقزام الذين فقدوا الإدراك لمجدهم السابق وعظمة أجدادهم. بعضهم تكيف مع الواقع الجديد، في حين انطلق آخرون، مكسوري القلوب، بحثًا عن فرص عمل في دول الخليج. الآن،

عندما أتذكر الوليمة الضخمة بسبعين طبقًا، ضحكات الفتيات الصغيرات، وأوقات الصيد السعيدة في أراضي جدي، يبدو كل ذلك وكأنه حلم بعيد. لم يكن أحد يتوقع أن ذكريات العظمة والسلطان للمسلمين الهنود ستصبح مجرد حلم بعد بضع سنوات فقط من تقسيم الهند.

في حيّنا كان يقطن رجل قدم من مدينة في غرب ولاية أوتار براديش بعد هجرته. مع زوال عظمته الأرستقراطية، اقترح عليه أحدهم فتح متجر للأحذية. أجاب بازدراء: "هل سأقوم بخدمة أولئك الذين كانوا يحيونني بالأمس بوضع الأحذية في أقدامهم؟" ورفض الفكرة بشدة. كان لديه بعض الخبرة في طب الأسنان، لكن هذه المهنة لم تكن تتناسب مع وضعه الاجتماعي الرفيع في مدينته، فاختار الانتقال إلى مدينة نائية في ولاية بهار. في هذا المكان، كان يشعر براحة بال؛ فلم يكن بإمكان أي شخص فتح فمه أمامه دون إذنه.

كان الأمر مثيرًا للتأمل كيف أن المسلمين لم يقدروا على تقدير الهبة العظيمة التي أُعطيت لهم في هذا البلد، تلك الهبة التي تمثلت في التفوق السياسي. اعتقدوا أن هذا الوضع سيظل دائمًا. القدر حاولت تحذيرهم مرات عديدة، لكنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار أي من تلك التحذيرات"، قال والدي بنظرة عميقة إلى عيون عبد المعز المتسائلة. واصل قائلاً: "لم نتعلم دروسنا حتى بعد سقوط دلهي في عام ١٨٥٧. كان المسلمون من أصحاب الأراضي والتعلقه دار راضين بالوثائق والشهادات التي حصلوا عليها من البريطانيين، معتبرين ذلك دعمًا لكبريائهم الزائف ووسيلة لتوسيع مجال استهلاكهم المجاني".

"في الفترة الممتدة بين عامي ١٨٥٧ و١٩٤٧، التي شهدت تسعين عامًا، كان بإمكان المسلمين التخطيط للكثير"، تأمل عبد المعز بنبرة تشوبها مرارة الأسى. "لكن كيف لهم التخطيط وهم يعرضون عن قبول الواقع المر؟ حتى بعد التقسيم، عندما أُعلن في عام ١٩٥١ عن إلغاء نظام الزمنداري، ظل الزمندارون الصغار وأصحاب الأراضي متمسكين بحفظ مظاهرهم الأرستقراطية عوضًا عن مواجهة الواقع الجديد. لقد كانوا معتادين على الإطراء والتملق ولم يملكوا الخبرة

في إدارة أراضيهم وممتلكاتهم. تلك الحكايات التي تقرأونها عن النواب الذين يصيبهم الهلع عند رؤية ثعبان ويستدعون الخادمة لطلب رجل يتعامل مع الموقف. تذكرهم الخادمة بأنهم أيضاً رجال. يتنبهون لذاتهم ويطلبون عصاهم ويبحثون عن حذائهم. ولكن بحلول الوقت الذي يكونون فيه مستعدين للتحرك، يكون الثعبان قد اختفى بالفعل، مما يعكس حالة الإنكار وعدم الاستعداد للتغيير التي سيطرت على العقلية السائدة".

"كانوا أشخاصاً استثنائيين بالفعل!" تفوه عبد المعز دون تفكير.

"هناك حكاية أخرى مثيرة للاهتمام سمعتها في طفولتي، لست متأكداً من صحتها، لكنها بلا شك تعكس مشكلات عصرنا الاجتماعية. يقال أن النواب وزوجته كانا تحت العلاج، وطلب الحكيم منهما عينة بول للفحص. لكن بالخطأ تم خلط العينات. النواب، الذي يثق بالحكيم بشدة، لم يعد قادراً على النهوض من الفراش بعد أن أعلن الحكيم أن عينته تظهر علامات الحمل بوضوح. حقاً، كانوا أناساً عجيبين!" لم يستطع عبد المعز كبح ضحكته.

أضاف قائلاً: "ما أكثر تقليديتهم. كان أبي على حق، فالتقليد الأعمى يفتر من العقل." وحتى في هذه النكتة، وجد عبد المعز طريقة لإبراز تفوق مذهب الأهل الحديث الذي يتبعه.

"التقليد، في الدين أو السياسة، يوقعنا في مأزق، وليس فقط الذين يعتمدون على عقولهم المطاطية في التقليد ممن يعانون من هذا، بل حتى الذين يرون أنفسهم خارج دائرة التقليد لا يختلفون كثيرًا.

'عقل مطاطي؟ ماذا تعني؟ لم أسمع بهذا التعبير من قبل'.

كما يعود المطاط إلى شكله الأصلي بغض النظر عن مدى تمديده، بعض الأشخاص، بغض النظر عن قدر الشرح والحجج المقدمة لهم، يلتصقون دائمًا بآرائهم السابقة، رافضين ترك طرق أسلافهم. والآن، دعني أروي لك قصة مضحكة عن طريقة التقليد لدى الغير مقلدين. كان هناك رجل متخصص في علم الحديث، خبير في تحليل الرواة وعلم أسماء الرجال. في يوم ما، كان يبكي بشدة.

سأله تلاميذه عن سبب بكائه. قال: 'أي مصيبة حلت! زوجتي أصبحت أرملة، زوجتي فقدت زوجها.' واستمر في البكاء. لفت التلاميذ انتباهه إلى أنه ما زال على قيد الحياة، وبينما هو موجود، كيف يمكن أن تكون زوجته أرملة؟ للحظة، بدا وكأنه فهم الأمر، ثم بدأ في البكاء مرة أخرى قائلاً: 'أجل، ما تقولونه صحيح، لكن الشخص الذي أبلغني بالخبر هو راوٍ موثوق، لا يمكنه الكذب'.

"عبد المعز ربما أدرك الإشارة. تحدث بتأمل: 'حقًا، إنه أمر يثير الدهشة. إذا تمعنت في الأمر، يبدو أن كل خيمة تصدح بـ'وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.'

لكن هذا الحديث انحرف عن الموضوع الأصلي. الفكرة الجوهرية التي يجب إدراكها هي أن الإنجليز استطاعوا السيطرة على مصائرنا لأن الخلل كان من داخلنا. لقد فقدنا القدرة على التفكير خارج المألوف لفترة طويلة. كلما واجهنا تحديًا جديدًا، كانت إجابتنا تقليدية. علماؤنا وقادتنا انفصلوا عن الواقع الحقيقي. كانوا يبحثون عن إجابات الأسئلة الجديدة في كتب الفتاوى القديمة. عندما قام شاه ولي الله بترجمة القرآن، اعترض الجمهور بشدة. شاه عبد العزيز حاول مناقشة حرمة الربا في الهند البريطانية، لكن النقاش لم يتقدم.

لكن هؤلاء الأشخاص كانوا من خيمة المقلدين التقليديين، بل يمكن القول إنهم كانوا قادتها، سأل عبد المعز ببعض الدهشة.

'بالضبط! لقد فهمتها صحيح. لكن الناس لم يكونوا مستعدين للتحرك ولو بوصة واحدة خارج مسارهم المعتاد. اعتادوا على التقليد المطلق لفترة طويلة. أصبح التفكير المحدود مصيرهم. نتيجة لذلك، لم يتمكنوا من قراءة الكتابة على الحائط. على الرغم من التغيرات المتتالية من حولهم، ظلوا غارقين في عالمهم الخيالي'.

'يبدو أنهم كانوا ضحايا لحقيقة ما بعد الحداثة'، قلت، محاولًا إظهار معرفتي أمام عبد المعز".

والدي لم يعر انتباهًا لتعليقي، فكان يبدو متعجلاً للوصول إلى جوهر المسألة. قال: "إن هذه العقلية المحدودة، حين تتسرب إلى الحياة الدينية، تولد

نوعاً من التدين الآلي، الخالي من روح العبودية. يتمركز كل الاهتمام على جمع الثواب، دون الالتفات إلى انتهاك حقوق بني البشر. استيلاء الإنجليز من الخارج على شؤوننا كان جزئياً بسبب انهيار حالتنا الأخلاقية، نتيجة لهذا النوع من التدين التقليدي والميكانيكي. من جهة، كان هناك المهرجانات والاحتفالات الدينية التي تعطي الانطباع بأن الحياة الدينية مزدهرة، ومن جهة أخرى، كانت هناك بيوت الطوائف مليئة بالحياة، والتي كانت تُعتبر جزءًا من الثقافة الرفيعة للطبقة الأرستقراطية. الذين كانوا يستمتعون بالموسيقى والشعر لم يجدوا حرجاً في الذهاب إلى هذه الأماكن.ذات مرة، أرسلني والدي المرحوم في رحلة مع أحد أصدقائه من الأرستقراطية. كنت قد عدت إلى الوطن في إجازة من دراستي للقرآن في مدوبني. توقفنا في مكان على الطريق، كان عبارة عن مبنى يشبه القصر مزود بكل وسائل الراحة التي كانت متاحة في ذلك الوقت في منازل الأرستقراطيين. استرحنا لبعض الوقت ثم واصلنا رحلتنا. فيما بعد، اكتشفت أن المكان الذي توقفنا فيه كان منزل منى باي. عندما علم والدي بذلك، غضب كثيراً من صديقه. لم يكن يريد لأبنائه أن يكونوا على دراية بمثل هذه الأماكن المختلطة بالفن والفساد".

في ثنايا صفحات "بهشتي زيور"، ينسج مولانا أشرف علي ثانوي حكاية امرأة صالحة من لكنؤ. كان زوجها يهيم على وجهه في الكوتة (بيت الغناء أو الرقص الخاص بالثقافة الجنوب آسيوية)، يقضي أيامه ولياليه بعيداً، ولكن هذه المرأة، بدلاً من أن ترفع صوت الاحتجاج، اختارت مسلك الصبر والشكر، ترسل الطعام إليه في موقع غيابه، متحلية بسمعة طيبة تعلو بين الناس. وفي موقف آخر، يتذكر عبد المعز حفل زفاف قريب له. حيث شابت الأجواء بغضب عم العريس بسبب أمر ما. في تلك الأزمان، كانت الخصومات والمصالحات تلون مراسم الزواج. وعندما اشتد الأمر ووصل غضب العم إلى نقطة حرجة، اتجه والد العروس إليه حاملاً كأس شربات في يده كبادرة صلح. لكن العم، بمكانته كشخصية من جانب

العريس، لم يكن ليقبل بسهولة. فقال بلهجة حاسمة: الأمور تعدت حدودها. الشربات وحده لا يكفي، يجب أن يرافقه شيء آخر.

"استغفر الله! ما أغرب الأشخاص الذين عايشناهم!" تعجب عبد المعز بنبرة حيرة. واصل أبوه الحديث بلهجة متأملة: "لقد أفرزت ترف الحياة الزراعية العديد من الفساد. في هذا العالم المضطرب، كان الحديث عن الدين يبدو كأنه لا ينتهي. كان لنا صديق يدعى ارتضى حسين، انتقل إلى رحمة الله العام الماضي. في الضواحي البعيدة للمدينة، كانت هناك قرية تُدعى تشاندن بتي، حيث تسكن جماعة شيعية كبيرة، وكان هو من أهلها.

"أليست بروين شاكر كانت تعيش هناك أيضًا؟" انتابت عبد المعز ذاكرة مفاجئة بمجرد ذكر تشاندن بتي. أجاب أبوه: "نعم، كانت عائلتها من هناك قبل أن تهاجر إلى كراتشي. كان السيد ارتضى رجلاً نبيلاً، عميق التقوى والإخلاص، عاشقًا للقراءة. قال لي ذات يوم، والأسى يعتصر صوته، 'يا حافظ، اليوم هو الثامن من محرم. أجلس يوميًا في المجلس، أستمع إلى مآسي أهل البيت، لكن قلبي لا يتزعزع. ما أعظم البلاء أن تجف ينابيع الدموع. عندما أرى الذاكرين يتربعون على المساند، يبدون كآلات تعمل بلا روح. أسميهم 'تجار دم الحسين'. لو سمعت بأتعابهم الفاحشة لصعقت. يتحدثون بلسان فصيح على المنبر، لكنهم يتحولون إلى لغة فجة وسوقية بمجرد نزولهم عن المسرح. كيف للدموع أن تنساب من العيون عند سماع نواح هؤلاء المنافقين؟'"

"يبدو أن الحالة الأخلاقية لأهل الشيعة كانت هشة كحالنا." تمتم أحدهم بنبرة تأملية. "لكن، كان وضعهم أكثر تعقيدًا، ومعاناتهم كانت أشد." أضاف آخر. "في لكنؤ، كان أغلب النواب من الشيعة، وفي عالم اللغة والأدب والثقافة، كانت المبالغة تحتل مساحة كبيرة في حياتهم.

"كانوا يعتادون على تزيين الورد بريش البلبل،" تدخل عبد المعز بتعليق ذكي.

"بالضبط، فهمت القضية بشكل صحيح." استطرد الأب. "الرفاهية المفرطة والتظاهر بالثراء جعلتهم يبتعدون عن الواقع. فقانون الزراعة لعام ١٩٥١ قطع

شرايينهم الاقتصادية. حتى إنهم لم يستطيعوا إعادة تنظيم ممتلكاتهم الحضرية القيمة. والأمر لم يتوقف عند هذا الحد، بل وقعوا ضحايا لمكائد السياسيين والمرابين الذين اشتروا قصورهم بأسعار زهيدة، أو أولئك الذين استغلوا أملاكهم كرهن".

"أوه، حقًا؟ وكيف ذلك؟" استفسر أحدهم بتعجب ممزوج بالفضول.

"لن تصدق، لكن لكنؤ هي المدينة الوحيدة في الهند التي لا تشهد صراعات بين الهندوس والمسلمين، بل النزاع يكمن بين المسلمين أنفسهم." أجاب بنبرة متأملة.

"آها، وما المقصود بذلك؟" تساءل الآخر مع زيادة الحيرة في عينيه.

"الشيعة والسنة في لكناو يتصارعون بشراسة تغني الأغيار عن التدخل. نحن، بكل ما نملك من تاريخ وإرث، نتراجع على كافة الجبهات، الداخلية والخارجية. من جهة، يوجد الهندوس المحافظون الذين يرون في الاستقلال إحياءً للهند الفيدية، وقد بات وجودنا عندهم مثار للنفور. ومن جهة أخرى، خلقنا نحن، المسلمون، فضاءً واسعًا للمنافسات الداخلية والنزاعات المذهبية، مما يضعفنا ويشتت شملنا".

"فهل كانت المنافسات بين الشيعة والسنة قبل الاستقلال لم تكن واضحة كما هي اليوم؟" سألت بحثًا عن فهم أعمق.

"كانت المنافسات موجودة بالفعل، لكنها كانت مثل خلافات البريلوي والديوبندي. لم يكن هناك إحساس عميق بالاختلاف. كانت الزيجات المشتركة أمرًا طبيعيًا، وكانت الطوائف تتعاون في القضايا الوطنية. خذ مثال جامعتك؛ حيث وجد سر سيد دعمًا كبيرًا من أصدقائه الشيعة، ليس فقط من الاثنا عشرية ولكن أيضًا من الأغاخانيين والبوهرة. لكن الأمور في لكناو تدهورت في الستينيات، عندما انخرطت جن سنغ في الصراع بين الشيعة والسنة.

"جن سنغ؟" تساءلت بدهشة.

"نعم، هذه نقطة تحول في صراعنا الداخلي. تلك المجموعة التي لم تكن مسلمة والتي اشترت أملاك النواب الشيعة وكانت لها علاقات جيدة مع الشيعة، أصبحت نشطة في سياسات جن سنغ. كانت لكناو تعتبر معقلًا للكونغرس، حيث كان السنة ينظمون مواكب مدح الصحابة والشيعة يلعنون الأصحاب الثلاثة. الوضع كان كالشرارة الخفية التي أشعلتها يد جن سنغ. عرضت جن سنغ دعمها للشيعة مقابل الحصول على أصواتهم، مما أدى إلى سيطرة جن سنغ على جميع المقاعد الأربعة في البرلمان في لكناو في انتخابات ١٩٦٧. وبذلك، تحولت الفتنة بين الشيعة والسنة إلى جزء من الروتين في كل انتخابات. لكن هذا النزاع خف حدته في السنوات الأخيرة بعد أن فرضت حكومة جنتا الحظر على المسيرات المثيرة للجدل من كلا الطائفتين".

كان والدي يغوص في أعماق الحديث، حينما اخترق صوت الأذان الآتي من جامع المسجد هدوء الجو. "الآن، حان وقت الصلاة، هذه المحادثات لا تنتهي." قالها بنبرة تعكس حكمة الزمان، وقام ببطء، فانفض المجلس كأوراق الخريف تتساقط عند هبوب الريح.

في طريقي إلى المسجد اليوم، داهمتني بلا مقدمات ذكرى الدكتور كوكب قدر ميرزا. كان أستاذًا في قسم الأردو، لكن ما ميزه حقًا كان أنه حفيد آخر ملوك أود، نواب واجد علي شاه. عندما يخاطبه أحدهم بـ "سيدي، نحن رعاياك"، كانت تتفتح على محياه زهرة من الحنين، تعيد رسم ملامح ماضٍ زاهر وقد أعادته الذكرى إلى الحياة. كانت جل اهتماماته وأبحاثه تدور حول هذا الإرث العائلي العريق. كيف يمكن المقارنة بين حياته التدريسية البسيطة في علي جرح وبين سحر وجمال أود؟ لابد أن قلبه كان يتمزق عندما يتذكر قصور لكناو. نواب واجد علي شاه عاش ٣١ عامًا بعد خلعه، متمسكًا برقصه وموسيقاه وحنينه إلى الجمال الفائق. ابتكر العديد من "التومري" و"راج بهيروفي"، ولا تزال أغنيته "بابل مور نيهر تشوتو هي جاي" تُسمع في الآذان. لكنه لم يستطع إيجاد وسيلة للتعبير عن هذا التحول الجذري في حياته، حتى في شعره وأغانيه.كأن همسًا دائمًا كان يصدح في

أذن نواب واجد علي شاه، يذكره أنه ليس سوى تاجدار أود، معزولًا كان أم لا، لكنه حارس لمجد عظيم. يُروى أنه عندما تم نفيه من أود، كان يرافقه ألف طاهٍ كجيش مهيب. كان يتقاضى من الإمبراطورية البريطانية معاشًا سنويًا يبلغ اثني عشر لاخًا من الروبيات. في متيا بورج بكلكتا، حيث أمضى أيام منفاه، أسس عالمه الصغير الذي يشبه لكنؤ. لم يتمكن أحفاده من الهروب من ظلال الماضي الثقيلة. كان صدى عبارة "بدرم سلطان بود" يتردد في أذنيهم باستمرار. تحولت البارانويا أو الوهم بالعظمة إلى قدرهم المحتوم. في هذه الحالة النفسية، ينفصل الإنسان عن الواقع، يعيش ذروة مجده في ذكريات الماضي البعيد، يعتقد أن الأيام الجميلة قد ولت، وكل ما تبقى هو ركام الحياة. في تاريخ الأمم، يُعرف هذا الداء المزمن باسم "الغرق في الماضي."

لكتابة فصل جديد في سجلنا، يتعين علينا امتلاك الجرأة لرسم ملامح تفوقنا لا في الصفحات البالية للماضي، بل على خريطة المستقبل الممتدة أمامنا. عبارات مثل "العظمة الضائعة" تعكس في الحقيقة نمط تفكير يقوم على الهزيمة، ترسم في مخيلتنا من البداية صورة الذات كخرطوش فارغ، تائه بين ذكريات لا تعود ولا تبعث الحياة في الحاضر.

٢٨

ليلة الغرباء

في أولى خطوات العام الدراسي الجديد، أحسست بغصة الفراق عندما علمت أن كثيرًا من رفاق الأمس، الذين كانوا يومًا يشاركوني في صناعة مجلة "تجديد" وفي الفعاليات الأدبية والثقافية لمنتدى الكتاب، لم يعودوا معنا في هذه الرحلة الجديدة. شاهد وعادل كانا قد اختارا طريق التجارة، وقمر وعلي لم يكونا من طلاب الأدب الإنجليزي، أما حليم، فقد كان يعيش في عوالمه الروحية العليا، مما جعل مصيره غامضًا. ذات يوم، أتاني حارس السكن بظرف ضخم من الورق البني، قائلاً إن صديقًا تركه لي خلال العطلة. عند فتح الظرف، اكتشفت بداخله قاطع ورق نحاسي أنيق على هيئة سيف صغير، مزيّن بآية قرآنية "علم الإنسان ما لم يعلم". وبرفقته دفتر صغير مرتبط برسالة مختصرة على غلافه.

"صديقي العزيز، السلام والرحمة عليك. لا أعلم متى سيكون لقاؤنا المقبل؛ الأقدار تجري بنا إلى حيث لا ندري. الآن، أنا مشغول برعاية والدتي. منذ وفاة أخي، أصبحت والدتي خارج نطاق السيطرة. تعاني من النقرس، ولكن الأصعب هو عدم قدرتها على نسيان مأساة الثالث عشر من أغسطس. تبكي طوال الليل والنهار. ليت لنا القدرة على النسيان. ولكن، دورنا ليس النسيان بل التذكير، لكي تستطيع الأجيال القادمة وقف هذه البربرية. حاولت مرارًا كتابة شيء بناءً على إلحاحكم، لكن عقلي لا يساعدني. إذا أتيحت لك الفرصة، فالرجاء تعديل هذا النص. لدي نية لنشره. قد أقوم بزيارة علي جرح في المستقبل. حتى ذلك الوقت، وداعًا. عبد الحليم صديقي"

عند قراءة الرسالة، شعرت بصدمة تهز كياني. راودتني الأفكار، متسائلاً عن حال حليم في هذه اللحظات. كان مسيره التعليمي يجابه الأزمات مرة أخرى.

حاولت تهدئة نفسي بالأمل في عودته القريبة وإمكانية لقائنا. فحصت الدفتر بتمعن. كان مكتوبًا بخط يد جلي: "ليلة الغرباء، ١٣ أغسطس ١٩٨٠". تبين لي أنه نوع من اليوميات. الهوامش كانت مزينة برموز متنوعة بالحبر الأحمر. في بعض الصفحات، رسم مثلثات فارغة مع سهام تشير للأعلى، وفي أماكن أخرى كان مكتوبًا داخل دائرة بيضوية: "الوثائق موجودة". وفي أقسام أخرى، كتب: "يستحق التأمل". أما فوق التواريخ المحددة، فرسمت صورة صغيرة لذو الفقار. وفي نهاية النص، رسم بياني مبهم مع كلمات "سينجلي، سينجلي" محاطة بأرقام وإحصائيات متنوعة. لطالما كانت طريقتي في تصحيح كتابات حليم تعتمد على الاستماع والتوجيه البسيط. الآن، وبعد أن نظرت عن قرب في دفتره ورأيت هذه الرموز المعقدة، أدركت كم كان يحاول جاهدًا إيجاد طرق لدعم قلبه المكلوم. بدأت اليوميات بهذه الطريقة:

علي غره، ٥ سبتمبر ١٩٨٠

في هذا اليوم، السابع من معركتي مع الحمى، تتملكني النفور من حبوب الدكتور جغر الملونة بألوان الحياة والموت. تبدو الحياة في داخلي كأنها بناء يتهاوى شيئًا فشيئًا تحت وطأة المرض. في لحظات ضعفي، أتمنى لو كان الهروب من الحياة أمرًا يسيرًا. ترتجف القلوب عند ذكرى الوالدة. أحيانًا أفكر أنه عليّ البقاء حيًا، ليس إلا لأخلد قصتي المليئة بالأسى، لعل العالم يدرك ما يعانيه المسلمون في هذه الأرض. بدأت كتابة هذه اليوميات بذلك الأمل، ولكن حمل الألم ليس بالمهمة السهلة. يا رب، منحني القوة والصبر.

دلهي، ١١ سبتمبر ١٩٨٠

اليوم حضرت في اجتماع مجلس المشاورة الإسلامي في منزل الأطفال. كان الاجتماع للجنة التنفيذية، لكن بعض الطلاب من علي غره أيضًا حضروا. كنت أأمل أن أحصل على فرصة للتحدث كشاهد عيان على المجزرة التي وقعت في العيد، لكن كان الجو هناك فوضويًا. لم يكن أحد يستمع للآخر. شاهدت لأول مرة قادة الأمة الكبار يشاركون في المشاورات. كان هناك مفتي عتيق الرحمان، رئيس المجلس، والشيخ أبو الحسن علي الندوي، ومولانا

منت الله رحماني، ومولانا محمد يوسف من جماعة الإسلامية، وإبراهيم سليمان سيث، وسيد شهاب الدين، وذوالفقار الله من مجلس المسلمين، وغيرهم. كما يقولون، عندما يكون هناك اثنان من العلماء، هناك على الأقل ثلاثة آراء لكل مسألة. هذا بالضبط ما حدث. تفاقم الوضع عندما شعر الحاضرون أن قادتنا يترددون في اتخاذ موقف حازم. في النهاية، تم الاتفاق على إرسال وفد إلى مراد آباد، لكن لا أحد كان مستعدًا لتحديد موعد. بدا واضحًا أن القادة لم يكونوا في عجلة من أمرهم. بعد مرور شهر على المذبحة، تم عقد الاجتماع، لكن لم يبدُ أن لدى السادة أي خطة ملموسة. كان الأمر يبدو وكأنهم اجتمعوا فقط لقراءة الفاتحة على أرواح شهداء مراد آباد. ليتني لم أشارك في هذا الاجتماع، لأحتفظ على الأقل بصورة مثالية عن قادتنا في ذهني. أغرقني الوجود بثقله.

بعد مراقبتي الدقيقة لإجراءات مجلس المشاورة، تعزز إيماني بهذه الطرفة الساخرة. يُروى أنه في إحدى مجالس إبليس، كان الشياطين يتقدمون بتقارير عن مآثرهم. استفسر إبليس عما ابتكروه لإحباط عزائم أولئك الذين يعتبرون أنفسهم حملة الرسالة الخاتمة. انبرى شيطان واثق بنفسه، قائلاً: "في مراد آباد، جعلت الرصاص يمطر على المصلين، وأفنيت أعمال المسلمين، أنكسرت ظهورهم، وسيحتاجون لسنوات للنهوض." لكن إبليس لم يكترث لذلك. قال شيطان آخر: "سيدي، زرعنا الفتنة في المؤسسات التعليمية الإسلامية." ومع ذلك، لم يؤثر ذلك في إبليس. وادعى آخر: "قيدت العقول وسددت طرق العلوم الجديدة في المدارس الدينية، ونشرت التقليد الأعمى." حتى هذا لم يلفت انتباه إبليس. ثم سأل: "هل هناك المزيد؟" فقام شيطان منحني وأعلن: "سيدي، أنا من أسس مجلس المشاورة الإسلامي ومجلس القانون الشخصي الإسلامي، حيث القاعدة القديمة: عضوان وثلاثة آراء." عند سماع ذلك، انبسط وجه إبليس. تقدم وعانق الشيطان المنحني قائلاً: "لقد أصبت الهدف. الآن سيجلس هؤلاء في منظماتهم، يتوسلون لأعدائهم،

ويطالبون بالتحقيقات بعد كل ظلم، دون أن يجدوا أي توافق في العمل الفعال".

علي غره، ١٣ سبتمبر ١٩٨٠

عدت اليوم من دلهي، ومراد آباد لا تزال تتوهج بلهيب الأحداث. تحدثت مع عمي عبر الهاتف، وكان غارقًا في بحر من اليأس. تُلغى تراخيص مصانع المسلمين بتهمة صناعة الأسلحة غير القانونية. تصادر الشرطة مسدسات من بيوت المسلمين الفقراء. يبدو أنهم يعدون العدة لإلصاق تهمة حيازة الأسلحة غير القانونية بالمسلمين. مسلمون يمتلكون مصانع؟ ما هذا سوى مزاح مرير. يبدو أن هذه المصانع التي يُزعم أنها تنتج الأسلحة لا تعدو كونها ورشًا صغيرة. ماذا تحوي هذه المصانع؟ فرنًا صغيرًا، إطار دراجة قديم، بعض أدوات الحدادة ودريل. هذه هي أدوات مصانع المسلمين، حيث تُصنع المسدسات والبنادق. بعض الحرفيين يصنعون نسخًا من المسدسات الأصلية تبدو حقيقية بثمن بخس. الحكومة على علم بهذا، ولكنها تفضل تشويه سمعة المسلمين بدلًا من استثمار مهاراتهم. ترمي اللوم في المجازر على المسلمين أنفسهم، متجاهلةً أي فرصة للعدالة أو التغيير الحقيقي.

علي غره، ١٦ سبتمبر ١٩٨٠

في عدد اليوم من جريدة "قومي أواز"، برز خبر مفاده أن وفدًا من مجلس المشاورة الإسلامي قد التقى برئيسة الوزراء إندرا غاندي. كتب الخبر بطريقة توحي بأن هذا اللقاء يُعد إنجازًا عظيمًا لقادتنا. أيها القادة الأفاضل، احتفظوا بعزيمتكم، فهناك المزيد من "مراد آباد" في انتظاركم، وستتاح لكم الفرص لمزيد من اللقاءات مع رئيسة الوزراء. لكن هذا اللقاء ثمين للغاية. في مقابل دماء ٢٥٠٠ مسلم بريئة وتحويل مدينة بأكملها إلى خراب، كل ما في جعبتكم هو هذا اللقاء المشؤوم. ألا يُعد ذلك مفارقة مؤلمة؟

علي غره، ١٨ سبتمبر ١٩٨٠

وأخيرًا، تحقق ما كان يخامرني من قلق. الأخبار تؤكد أن وفد مجلس المشاورة الإسلامي لم يذهب إلى مراد آباد لتمثيل المسلمين، بل كانت رحلتهم تحت إمرة

وبإذن من رئيسة الوزراء إندرا غاندي. استُقبل الوفد بحفاوة من قبل الإدارة المحلية ونُزل في بيت الضيافة الحكومي. التقى المفوض والمدير العام للشرطة بالوفد المكون من ١٩ عضوًا وأتاحوا لهم اللقاء بقادة المدينة من المسلمين وغير المسلمين. وصل الوفد في الحادية عشر صباحًا، وكان لزامًا عليهم المغادرة قبل غروب الشمس، مدفوعين بالخوف من البقاء ليلًا. لقد اختفت الشجاعة والمجازفة من معجم قادتنا. اكتملت الطقوس الشكلية، وتُرك مسلمو مراد آباد لمصيرهم المحتوم. البستاني في سعادة، والصياد أيضًا راضٍ تمامًا.

علي غره، ٢٥ سبتمبر ١٩٨٠

تحدثت اليوم مجددًا مع عمي، ويبدو أن المسلمين يواجهون تحديًا جديدًا. الحكومة تجمع بيانات عن المسلمين: من تضرروا، أين تقع ورشهم المنزلية، من يعمل فيها، وما هي أعمارهم. هناك تساؤلات حول عدد الشبان بين ١٦ و٣٠ عامًا. يظن البعض أن الحكومة قد تقدم مساعدات، بينما يخشى آخرون من نواياها الحقيقية. لماذا تجمع قائمة بالشباب إذا كانت تريد المساعدة؟ لا يزال كثير من هؤلاء الشبان محتجزين منذ المجزرة. من يعلم ما تريده الحكومة حقًا؟ تستمر الشرطة في تفتيش المنازل واعتقال من تشاء. لا أحد يجرؤ على المقاومة. من قاوموا إما قتلوا أو سُجنوا. الآن، السكوت والكبت هما السائدان. امرأة حاولت الاحتجاج عندما اقتادت الشرطة زوجها، فألقى أحد أفراد الشرطة طفلها الذي لم يتجاوز العامين في الهواء. يُقال إن الطفل في حالة صدمة منذ ذلك الحين. ماذا تفعل تلك المرأة المسكينة؟ تراقب طفلها أم زوجها؟ ما أعظم العجز. ليت قادتنا يرون هذا الواقع بأعينهم. لا أدري على من تركنا الله. نحن في هذه الحالة لأننا مسلمون، لكن الإسلام غائب عن حياتنا، فكيف يأتي نصر الله؟ هي معضلة لا يُمكن فهمها. لا نعرف ما يحدث خلف الستار.

تم تحميل الدفتر بأكمله بتدوينات مؤلمة ومعاناة عميقة. من جهة، هناك شكاوى من ظلم الأجانب، ومن جهة أخرى، حزن على تقصير الأقرباء. وأثناء

تقليب الصفحات، اجتذبت مدخلة بتاريخ ٣٠ أكتوبر انتباهي بشدة. كتب فيها: "سمعت أنه في لكناو، أُقيمت جلسة كبيرة باسم 'رسالة الإنسانية' كرد فعل على الأحداث المؤسفة. في حديقة قيصر، جلس الهندوس الأنقياء والمسلمون المذعورون جنبًا إلى جنب. تحدثوا عن إيقاظ ضمير الأمة، موضحين أن هذه الأزمات ناجمة عن المادية المفرطة والحسد والتعصب. استُقبلت هذه الفكرة بحماس. هل قادتنا فعلاً يفتقرون إلى الفهم، أم يحاولون التغطية على الحقيقة؟ يبدو أنهم يحاولون تحويل الرواية. لم تكن هناك فتنة طائفية في لكناو، بل كانت مذبحة منظمة من قبل الشرطة ضد المسلمين. والهدف الحقيقي هو كسر عزيمة المسلمين وإبقائهم كبنك أصوات للكونغرس. لماذا لا نعترف بهذا صراحةً؟ يبدو أن آهات المظلومين في لكناو ستضيع وسط ضجيج الخطابات الرنانة. لا حول ولا قوة"!

كان دفتر أخي حليم مليئًا بالتدوينات الطويلة. فيه الكثير من المعلومات التاريخية القيمة، وكل صفحة تنضح بالألم والمعاناة. ومع ذلك، لم يحمل الدفتر ذلك العمق العاطفي الذي كان يخلقه أخي حليم عندما يروي قصصه شفهيًا. عندما كان يصف مأساة "شام غريبان" في ١٣ أغسطس بلهجته المميزة، ويعكس أنين الأمهات الذين فقدوا أطفالهم تحت رصاص الشرطة في العيدغاه، كانت الكلمات تتحول إلى تماثيل من الحزن والأسى. لو كان أخي حليم قد كتب كتابًا كاملاً عن ذلك اليوم المشؤوم! بعد هذه الأفكار، وضعت المخطوطة بحذر في الخزانة ونظرت من النافذة إلى الحديقة الداخلية لحبيب هال، حيث كان بعض الطلاب ينعمون بدفء الشمس الشتوية ويقرأون الصحف، بينما كان البعض الآخر يتحاور حول الأخبار. حتى هنا، كانت نماذج خطاب القيادة الشائعة تسود المشهد.

٢٩

مجلة علي غره

في أحد المساءات بمجلس الأستاذ سورتي الموقر، دار نقاش حول 'نموذج الخطاب' الذي يتبعه القادة. بدأت الأحاديث بابتسامات خفيفة عند سماع المصطلح، لكن سرعان ما تحول الجو إلى جدية. بنبرة تحمل بعض النقد، قالوا: "ليس من العدل رفض كل جلسة وكل اجتماع لمجرد أنها تتبع 'نموذج الخطاب'. المهم هو ماهية الكلام الذي يُقال. للكلمات تأثيرها ووزنها. الكلام الصادق الذي ينبع من القلب له تأثيره العميق. 'فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره' - هذا هو جوهر الأمر. التحدث ضد المنكرات، والوقوف بكلمة الحق أمام السلطان الجائر، يتحقق كل ذلك بفضل فن الكلام. الكلام هو الشرارة الأولى للثورة".

"لكن ماذا عن هذه الاجتماعات اليومية؟" اعترضت. "تكرر الحكومة مرارًا وتكرارًا ضماناتها بعدم التدخل في القانون الشخصي للمسلمين. وفي المقابل، يؤكد مجلس القانون الشخصي باستمرار رفضه لأي تدخل في القانون. ثم يتبع ذلك اجتماع كبير تلو الآخر، وتواصل الحكومة تكرار تأكيداتها. فما الغاية من كل هذا؟" عند سماع ذلك، ابتسم السيد سورتي وقال: "يا صديقي، هذا ليس خطابًا بل حب الخطاب، كلام يُقال بلا نية للعمل. بعض الشعوب تدمن على حب الخطاب. كما في مجالس الشيعة حيث يُسرد مناقب آل البيت ويصفق الجمهور على كل جملة، أو في مجالس السنة حيث تُمجد الصحابة، الهدف الأساسي هو الجلسة نفسها. غالبًا ما تُضحى بالحقائق التاريخية للحفاظ على حماس الخطاب.

عندما يصير الخطاب هو الهدف بحد ذاته، وتُعتبر الاجتماعات والمسيرات حلولًا للمشكلات، يصبح الخطاب مجرد رمز للعمل بلا فعل".

"وماذا عن قولك أن لكل كلمة وزنها، وأن كلمة الحق لا تذهب سدى؟"

ردّ الأستاذ سورتي بنبرة تشع بالحكمة: "كلمة الحق تلك تحمل قصة مختلفة كليًا. هي الكلمة التي دفعت سقراط لشرب كأس السم، وأودت بحياة الحلاج. هل سبق لكم حضور برامج إقبال أنصاري؟ يطرح قضايا حيوية للنقاش. كان يطمح ليكون مفكرًا لكنه انتهى بأن أصبح ثريًا. قضى سنواته في السعودية فيما يبدو كتبديد للوقت. إنه رجل جريء. يستحق الاهتمام والمتابعة".

كان الأستاذ إقبال أنصاري مدرسًا للنقد الأدبي حول شكسبير، لكن تألقه الحقيقي كان يظهر خارج جدران الفصل الدراسي. تارة يناقش تقارير لجان التحقيق، وتارة يتحدث عن إصلاح الشرطة، وأحيانًا يستشهد بالضمانات الدستورية لحقوق الإنسان، وأحيانًا أخرى يذكر الاضطهاد الذي يتعرض له المسلمون، معتبرًا إياه إبادة جماعية. لم يكن مجرد شخص، بل كان بمثابة مؤسسة بذاته. كان نطاق نشاطه واسعًا، وله صلات عميقة مع منظمات حقوق الإنسان في جميع أنحاء البلاد. كانت النقاشات في اجتماعاته تنبئ بالخطر. في إحدى المناسبات، ويبدو أنها كانت بعد حادثة عنف، أردنا نحن الطلاب إصدار بيان. فكرنا في إطلاع الأستاذ إقبال عليه لأخذ رأيه. كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً، لكن كان لا بد من نشر البيان في الصباح. استقبلنا بحفاوة حتى في تلك الساعة المتأخرة وعدّل المسودة بدقة. عند مغادرتنا، نصحنا قائلاً: "يا أصدقائي، احرصوا على تعيين اثنين أو ثلاثة أشخاص لهذا الغرض. أنا دائمًا في خدمتكم. إذا حدث لكم شيء، يجب أن يكون هناك من يقدم الضمانة فورًا". كان يعي تمامًا أن الحديث عن المواضيع الحساسة والمهمة في هذا البلد يعد دعوة للمخاطر.

في تلك الأيام، كنت أتولى أمانة الجمعية الأدبية في قسم الإنجليزية، حيث كانت تُعقد جلساتنا بين الحين والآخر، صغيرة كانت أم كبيرة. كان من بين

الأساتذة البروفيسور ظهور عثماني، الذي كان يحضر بانتظام ويترك أثرًا عميقًا فينا. كانت معرفته غزيرة لدرجة أن الجلوس معه لساعات لم يكن يشعرنا بالملل. كان يترجم الأشعار الفارسية بطلاقة وبراعة تبهر العقل. في تلك الجلسات، كنا نتعاون في جمع التبرعات لترتيب الشاي والقهوة. ذات مرة، اقترح الأصدقاء دعوة البروفيسور أسلوب أنصاري لرئاسة البرنامج التالي وتقديم الشاي على نفقته. كان اقتراحًا معقولًا، لكن الأستاذ أسلوب كان رجلًا جادًا، وكانت هيبته العلمية وجلال شخصيته تجعل الكثيرين يرتجفون. عندما كان يسير في ممرات كلية الفنون، كان صخب الطلاب يخفت. وفي سوق شمشاد، كان الشباب الذين يستمعون بشغف إلى أغنية "جب بيار كيا تو ڈرنا كيا" - والتي تعني "عندما تُحب، فلماذا الخوف؟" - يقفون احترامًا، وكأنهم وُجِدوا في حالة مخالفة..جمعت شجاعتي وطرحت فكرتي على البروفيسور أسلوب، الذي استمع بتمعن، ثم بعد لحظة من التأمل وبدون أن يرفع نظره نحوي، قال: "بالتأكيد، لم لا". وهكذا، تقرر أمر الشاي. خرجت من الغرفة وأنا أتعجب من جرأتي الفجائية. فكرت فيما كان يمكن أن يحدث لو كان قد نظر إليّ. في ختام البرنامج، قدمت شكري للبروفيسور أسلوب على كرم ضيافته، مشددًا على أهمية من تشاركه الشاي وليس الشاي بحد ذاته. فسر بعض الأصدقاء تعليقي على أنه تقدير وحاولوا رؤيته ضمن سياق علي غره، حيث كانت مشاعر الاحترام والمودة متبادلة بين البروفيسور وطلابه. في إحدى المناسبات، خلال حفل سنوي للقسم، أُطلق عليّ لقب "مستر شادويل" من قبل الطلاب. كانت هذه الشخصية تُعرف بكتاباتها الطويلة وأشعارها، وكان هذا اللقب يمثل تهكمًا على قدراتي الكتابية. على الرغم من طابع المزاح الذي يحمله هذه الألقاب عادةً، إلا أن البروفيسور أسلوب عبر عن استيائه بشدة في ختام كلمته، معتبرًا اللقب تهكمًا سيئ الذوق وغير مناسب لشخصيتي.

يمكن اعتباره حظًا جيدًا حين دعاني يومًا الأستاذ جعفر زكي، الذي لاحقًا أصبح معلمي ومشرفي، إلى مكتبه وأخبرني بأن البروفيسور أسلوب يرغب في أن أتولى مسؤولية مجلة علي غره. كما يقولون، يتمنى الأعمى أن يكون له عينان!

ولكن، عندما يُقدم لك شيء بهذه السهولة، فمن الطبيعي أن تتولد لديك بعض التحفظات. فأجبت بحذر: "أنا مستعد لتحمل هذا العبء، لكن لدي شروطي الخاصة". "وما هي؟" سألوا. فقلت: "أريد الحرية الكاملة في اختيار فريقي". فردوا بتفهم: "لا مشكلة في ذلك."

في مكتب الأستاذ جعفر زكي، كانت تقف خزانة خشبية ضخمة، مهيبة الحضور، وعُرفت لي أنها مكتب المجلة. بجوار هذه الخزانة العتيقة، منحني الأستاذ مفتاح الغرفة، وهكذا بدأت رحلتي في التخطيط للإصدار الجديد من المجلة. في أحد الأيام، بينما كنت أتصفح الأعداد السابقة، استوقفني عدد خاص بالفكاهة من "مجلة علي غره" لعام ١٩٦١، تحت إدارة محمد صديق. كان هذا العدد تحفة فنية تعكس مهارة احترافية بارعة. كل مقال وكل نص كان موضوعًا بعناية فائقة، وكل تفصيل كان مضبوطًا بدقة. ضمت قائمة الكُتّاب أسماء لم تكن غريبة عليّ. مشتاق أحمد يوسفي، الذي سخر في هذا العدد من الأدب الرفيع، أصبح فيما بعد عملاقًا في عالم الفكاهة. محمد حامد أنصاري، الذي ألقى الضوء على علم الأمراض في الرياضة، ترقى لاحقًا لمنصب نائب رئيس الجمهورية. وأنور صديقي، الذي أبدع في رسم كاريكاتير عن قسوة قاعة الطعام، بلغ مرتبة رئيس قسم في جامعة جامعة ملية وأصبح أحد ممتحني درجة الدكتوراه الخاصة بي.محمد حسن، الذي كتب مقالًا بعنوان "انتحار الثقافة"، يصور فيه كيف أن "السيد ثقافة" انتحر نتيجة لبرنامج ثقافي في ميرس هول، أصبح معروفًا الآن كناقد مرموق في الأدب الأردو وبروفيسور في جامعة جواهرلال نهرو. مونس رضا، الذي كتب مقالته حول الممتحنين، اشتهر فيما بعد كجغرافي معروف وكان من بين مؤسسي جامعة جواهرلال نهرو، وأصبح بعد ذلك رئيسًا لجامعة دلهي.ومن بينهم جميعًا، إس زين العابدين، الذي كتب رحلة خيالية لعلي غره في المستقبل تحت عنوان "١٩٩٤"، كان يدير مجلة تُعنى بشؤون الأقليات تصدر في جدة، وكانت معروفة بمعاييرها الأكاديمية المتميزة. محرر العدد الخاص بالفكاهة، الذي سعى إلى تبرير هذا الإصدار، كتب يقول: "أصبحت حياتنا مثقلة بالغم

والحزن لدرجة أنه من الضروري التخلي عن هذه الأعباء لبعض الوقت والنظر إلى الحياة من منظور مختلف. إذا لم نكن في موقف يسمح لنا بالضحك الصريح، فعلى الأقل يجب أن نجد طريقة للابتسام".

عالية كاظمي، التي كانت حينها طالبة في برنامج الماجستير، قدمت مجموعة من الطرائف الأدبية الساحرة. ففي نصها، أشارت إلى حادثة حين تساءل جوناثان سويفت يومًا: "لماذا لا تفرض الحكومة ضرائب على جمال المرأة بينما تفرضها على كل شيء آخر؟" لكن التحدي كان في تقدير جمال المرأة، ولذلك، تم ترك الأمر لتقدير النساء أنفسهن، مما يعني أن حتى أقل النساء جمالاً ستساهم بمبلغ معقول من الضرائب.

وتحكي عن نكتة أخرى تتعلق بمكسيم غوركي. في إحدى المرات، أقام غوركي في نُزُل حيث عانى طوال الليل من إزعاج بق الفراش. عندما اشتكى لصاحبة النُزُل في الصباح، نفت وجود أي بق في النُزُل. رد غوركي ببراعة: "أنا لا أتحدث عن بق غير متزوج. هذه كلها متزوجة ولها أسر كبيرة."

كما تروي نكتة عن برنارد شو. ذات مرة، كان شو يحضر حفلة موسيقية حيث كان هناك شخص يعزف الكمان. بعد الاستماع لفترة، علق شو: "هذا يذكرني ببيدروسكي". عندما أشار أحدهم إلى أن بيدروسكي لم يكن عازف كمان، أجاب شو بدهاء: "ولا هذا الرجل."

في الصفحة الأخيرة من المجلة، كان هناك إعلان ينبئ بالعدد القادم كعدد خاص بالسخرية .(Satire Number)لم يكن واضحاً ما حل بهذا المشروع، لكن بعد الاطلاع على هذا العدد، بدأت تتشكل في ذهني فكرة إعداد عدد خاص يركز على موضوع نابض بالحياة والإحساس.

٣٠

دموع على تلال نيللي

مع قدوم الصيف، كان خالد ميان يدفع عربته المتنقلة للمطعم إلى البوابة الداخلية لـ "حبيب هال". وفي الصباح الباكر، عندما ينتشر عبق براثا البطاطس المغري عبر غرف النزل، تبدأ الطلبات على الإفطار من كل الاتجاهات. براثا ساخنة بروبية واحدة، وفوقها شاتني الطماطم مجانًا. وإذا شعر المرء برغبة في الترف، يمكنه إضافة الأومليت أيضًا. كان ذلك صباح يوم أحد أو يوم إجازة. وأنا، من الطابق العلوي حيث كنت أسكن، كنت أنادي خالد ميان، حين لفت نظري شمسي الذي كان جالسًا مع مجموعة من الطلاب في الحديقة، يستمتعون بالإفطار وقراءة الصحف. يبدو أن شمسي سمع صوتي. "هيا انزل! عليك أن تواجه واقع الحياة الأرضية!" صرخ بي.

قبلت دعوة شمسي، إذ رأيت فيها خلاصًا. منذ بداية دراستي في الماجستير، كنت قد انقطعت عن الأنشطة غير الأكاديمية. كان الأساتذة يوصوننا باستمرار بأن دراسة الماجستير تتطلب تركيزًا وإخلاصًا شديدين. كانت دراسات شكسبير المتخصصة والأدب العالمي - التي شملت روايات معقدة وأدبًا كلاسيكيًا من اللغات الروسية، والفرنسية، والألمانية وغيرها - قد أخذت من وقتي كله، فلم يبق مجال للمشاركة في أي نشاط آخر. نتيجة لذلك، ليس فقط توقفت الندوات والإرشاد، بل لم يعد هناك وقت حتى لقراءة الصحف والمجلات. كان هناك نبرة من اللوم في صوت شمسي. لقد كان هناك فرق شاسع بين النقاشات الصباحية والمسائية، والحوارات الحية حول الكتب القديمة، والآن البقاء حتى وقت متأخر من الليل في غرفة واحدة بقسم الأدب الإنجليزي.

في الحديقة السفلية، كانت المناقشات حول قضايا المسلمين تدور بحرارة. أحد الطلاب بدأ بالحديث، نبرة صوته تحمل مزيجاً من الاستياء والتساؤل: "أصدقائي، لقد أصبحت أفعال قادتنا المسلمين موضوعاً للسخرية. تقدم الحكومة تأكيدات متكررة بأنها لا تخطط للتدخل في القانون الشخصي، في حين يستمر قادتنا في التصريح بأنهم لن يتحملوا أي تدخل في القانون الشخصي. ما الغرض من كل هذه الأقوال؟ لماذا لا يتناولون القضايا الأساسية؟ انظروا إلى ما حدث في نيلي - وقعت كارثة هائلة ولم يظهر أي استجابة حقيقية من الأمة."

"بالفعل، قتل ثلاثة آلاف مسلم في غضون سبع ساعات فقط"، أضاف طالب آخر، مؤكدًا.

"هذا الرقم هو مجرد تقدير رسمي. يعتقد الكثيرون أن العدد الفعلي للقتلى لا يقل عن عشرة آلاف."

"عشرة آلاف!" تساءلت بدهشة وتأثر.

"نعم، وُصفت مذبحة نيلي من قبل بعض الصحفيين بأنها أكبر فاجعة إنسانية منذ الحرب العالمية الثانية."

هذه المناقشات تعكس تلك الحقائق المرة والتحديات العميقة التي تواجه المجتمع. كانت الأصوات تتعالى، معبرة عن الألم والحيرة التي تسيطر على قلوب الشباب المسلمين، بينما تتجاهل القيادات الرئيسية القضايا الجوهرية وتترك الشباب يواجهون مستقبلاً محفوفاً بالتحديات والمجهول.

"وانظر إلى وحشية هذا الظلم"، تابع أحدهم بنبرة حماسية. "في نيلي ومناطقها المجاورة، هاجم الناس أحياء المسلمين البنغاليين كأنهم يشنون حملة صيد على الحيوانات البرية. كان صدى الطبول وهتافات 'جاي آهوم' (عاشت أم أسام) يعلو في الأجواء، بينما كانت جموع البشر المسلحين بالحراب والأسلحة الحديثة تضيق الخناق على تلك الأحياء. أولًا، أضرموا النار في المنازل، ثم أخرجوا الناس الأحياء إلى الساحات المكشوفة، وبدأت بعد ذلك المذبحة الحقيقية. كان الهدف الرئيسي هو النساء والأطفال".

"تعلمون لماذا حدث هذا؟" قاطع شمسي الحديث، "لأنهم يريدون إبادتنا، هم يسعون للقضاء على نسلنا."

"سمعت أن السيدة غاندي زارت موقع الحادث، والآن الرئيس أيضًا سيزور المكان. هل تعتقد حقًا أن الحكومة تشعر بالأسف على ما حل بالمسلمين؟"

"هذه مجرد لعبة سياسية"، رد شخص آخر، "كل هذه الأحداث نشأت بسبب الغطرسة السياسية للسيدة غاندي وعنادها."

"حقًا؟" تساءلت بدهشة.

"نعم، هذا ما أوردته مجلة 'إنديا توداي' في تقريرها"، قال شمسي وهو يخرج العدد الأخير من المجلة من حقيبته، مضيفًا بنبرة جادة: "يعتقد الناس عمومًا أن الظروف في آسام لم تكن ملائمة لإجراء الانتخابات. كانت الأحزاب المعارضة الرئيسية، مثل حزب بهاراتيا جاناتا وجنتا بارتي ولوك دال في كلا جناحيها، تقود حملة قوية لمقاطعة الانتخابات. وأتال بيهاري فاجباي، الذي يُعتبر عادةً قائدًا معتدلاً، والذي وصفه عالم جمعية بعد وفاته بأنه 'جوهرة الهند الثمينة'، على الرغم من تصريحه الصريح في حياته بأن من يصبح عضوًا في السويم سيفاك يظل كذلك دائمًا، أشار في خطابه الحماسي إلى ما كان سيحدث. قال:

'الأجانب يغزون هذا المكان والحكومة لا تتخذ أي إجراء. لو كانوا في البنجاب، تعلمون ماذا كان سيحدث! لكان الناس قد قطعوهم إلى أشلاء'.

في ظل هذه الظروف، قررت السيدة غاندي إجراء الانتخابات بأي ثمن. ونظرًا لأن المقاطعة كانت تحظى بدعم شعبي، فقد أعلن المسلمون البنغاليون، الداعمون لحزب المؤتمر، عن نيتهم في التصويت، مما أدى إلى وضع تصادمي. يمكن القول إن المسلمين البنغاليين وقعوا في فخ نيران صراع سياسي دون ذنب منهم".

"إذًا، المسلمون هنا أيضًا أصبحوا ضحايا الألاعيب السياسية لحزب المؤتمر"، قال أحدهم بنبرة تحمل الأسى والاستنكار. "أتعلمون، في آسام، المسلمون يشكلون حوالي خمسة وثلاثين بالمئة من السكان. هي الولاية الوحيدة

بعد كشمير حيث للمسلمين وزن عددي مهم. ترغب السيدة غاندي في الحفاظ على أصوات المسلمين ضمن صفوف حزب المؤتمر. تاريخيًا، حكومة المؤتمر في آسام استمرت بفضل دعم المسلمين".

"وأليس هناك امرأة مسلمة شغلت منصب رئيسة وزراء أيضًا؟"، تساءل طالب آخر.

"تقصد أنورة تيمور؟"، رد طالب ثالث. "لقد شغلت المنصب لمدة شهرين فقط، لكن الثمن الحقيقي لهذه المناصب الشرفية يتحمله الشعب. المظاهر الخارجية تخفي وراءها واقعًا مريرًا وتكاليف باهظة يدفعها المواطنون العاديون".

كان النقاش يدور حولي، وأفكاري تتعمق في حادثة نيللي الشنيعة التي لم أكن على علم بها. لأيام، تسرب اسم "نيللي" إلى محادثات الناس، لكنني لم أتوقف يومًا للسؤال عنه. كنت أسمع الطلاب يتحدثون عن الكريكيت وكأس العالم وغيرها من المواضيع التي كانت تظهر وتختفي في الحديث. اعتقدت أن "نيللي" كانت مجرد كلمة عابرة، لا تستحق الاهتمام. لم يكن لدي أي اهتمام بالرياضة أو معرفة بها. حتى عندما نُظمت مباراة كريكيت بين طلاب الماجستير، وكانت هناك حماسة كبيرة بين اللاعبين والطالبات اللواتي جئن للتشجيع، لم أكن حاضرًا. لما سُئلت لاحقًا عن سبب غيابي، اعتذرت مدعيًا الانشغال، ولم أستطع حتى تمييز نتيجة المباراة. اعتقدت أن "نيللي" ربما كانت اسمًا لإحدى الطالبات أو شيئًا ليس بذي أهمية. لكن عندما وصلتني أحدث نسخة من "إنديا توداي" ورأيت على غلافها صورة المنازل المحترقة تحت عنوان "احتراق آسام"، اهتز قلبي وشعرت بغضب شديد تجاه غفلتي. كان هناك عالم من الألم والظلم خارج حياتي الأكاديمية التي غمرتني بالكامل، عالم لم أكن قد اكتشفته بعد.

مجلة "إنديا توداي" ذكرت في تقريرها أنه في الثاني عشر من فبراير عام ١٩٨٣، عندما وصلت السيدة غاندي إلى جواهاتي بمروحية تابعة للقوات الجوية، كانت تدرك تمام الإدراك أنها تحمل معها قنبلة موقوتة قد تنفجر في أيديها. تحدثت إلى الجماهير في تجمعات انتخابية تحت حراسة مشددة، ومعظمها في

المناطق الإسلامية، بنية الفوز بأصواتهم التي تشكل ٣٥٪ من إجمالي الأصوات. استخدمت السيدة غاندي بدهاء ومكر بطاقة المسلمين. كانت جميع الأحزاب المعارضة تعارض الانتخابات. وحتى وكالات الدولة توقعت أن ٢٠٪ فقط من الناخبين البالغ عددهم ٨٧ مليون سيتمكنون من التصويت، وذلك فقط في المناطق ذات الأغلبية الإسلامية. كانت الأحزاب الأخرى تقود حملة لمقاطعة الانتخابات. تم تدمير خطوط الهاتف والجسور التي تربط القرى. وكان المعارضون يعارضون إجراء الانتخابات بأي ثمن، في حركة شعبية أقوى من تلك التي شهدتها بهار في حركة جاي براكاش. في هذا الوضع، كانت السيدة غاندي تسعى لجذب المسلمين إلى صناديق الاقتراع بأي ثمن لضمان إجراء الانتخابات.كان الوضع في آسام متوترًا للغاية، حيث رفض موظفو الحكومة المحليون المشاركة في واجبات الانتخابات. أطلق اتحاد طلاب آسام و"جن باريشاد" حركة عدم التعاون لمدة ثمانية عشر يومًا. كان هناك حوالي ١٥٠ ألف جندي من القوات العسكرية وشبه العسكرية متمركزين في مناطق مختلفة من آسام للتعامل مع هذا الوضع المتفجر. تم اعتقال العديد من القادة السياسيين أو اختفوا. في مثل هذه الظروف، كان المؤتمر الوطني الهندي يدعي أنه مخلص المسلمين. غني خان تشودري، وزير السكك الحديدية المركزي وقائد حزب إندرا كانجرس، كان يتجول بين المسلمين ويقول صراحةً أنه إذا لم يصوتوا لصالح المؤتمر الوطني الهندي، فسوف يتم إلقاؤهم مرة أخرى في بنجلاديش من قبل أعدائهم. كان المسلمون خائفين وقرروا التصويت لصالح المؤتمر الوطني الهندي بسبب هذا الخوف. نتيجة لذلك، وجد المسلمون أنفسهم في مرمى غضب الشعب الذي اندلع ضد عناد وسياسة المؤتمر الوطني الهندي الخاطئة. ذكرت مجلة "إنديا توداي" أنه لن يُطرح أي سؤال على السيدة غاندي بسبب هذه الأخطاء، ولكن البلاد والأمة ستدفع الثمن.

في تلك اللحظة، كنت أفكر في الراحة التي يمكن أن يوفرها الجهل. حدثت كارثة في نيلي، حيث تعرض المسلمون لمأساة ضخمة، ولم أكن على علم بها. كنت منهمكًا في قراءة "بودنبروكس" لتوماس مان، تلك الرواية الألمانية التي ترسم صورة

لثلاثة أو أربعة أجيال من عائلة تجارية. يبدو أن الجيل الأول، الذي بذل جهدًا كبيرًا لتحقيق النجاح في التجارة، يتبعه أجيال تفشل في الحفاظ على ذلك الإرث، حتى يبقى لهم فقط قصة مليئة بالأسى. الإنجازات التي يحققها الجيل الأول تفقد بريقها بحلول الأجيال اللاحقة. سواء في السياسة أو الاقتصاد، يبدو أن "تأثير بودنبروكس" يحكم سير الأمور. الأجيال اللاحقة ترث الثروة والرفاهية، لكنها تفقد الرؤية والمهمة التي كانت وراء تلك الثروة. الإمبراطوريات العظيمة كالعثمانية والفارسية والرومانية، كلها تعرضت لهذا التأثير في نهاية المطاف. في الرواية، تُظهر كيف أن عائلة ثرية تتفكك حتى لا يبقى منها سوى طفلة واحدة. وفي نيلي، تعرض المسلمون لإبادة جماعية منظمة. هل يسير المسلمون الهنود نفس الطريق نحو الهلاك؟ ماذا حدث لرسالتهم؟ كيف أصبحوا فريسة للسياسة القاسية للمؤتمر الوطني الهندي؟

فكرت طويلاً ولكن لم أتمكن من تكوين صورة واضحة. ذات يوم، أثناء مروري بسوق شمشاد، لفت نظري أحدث عدد من مجلة "إنديا توداي"، وكانت الصورة على غلافها تظهر مشهد دفن جماعي مؤلم لأطفال أبرياء. كانت جثث الأطفال متناثرة في كل مكان بالميدان. اقتنيت العدد ووجدت بداخله بعض الصور المروعة. كتب فيه أن المهاجمين لم يكتفوا بمحاولة إبادة الجيل الجديد من المسلمين فقط، بل خططوا أيضاً للتخلص من كل امرأة قد تلد أطفالاً مسلمين في المستقبل. بدأت المذبحة في الثامنة صباحًا واستمرت طوال اليوم وحتى متأخرًا في الليل، حسب بعض التقارير. وكتب الصحفي عبارة غريبة: في ١٨ فبراير وقعت المذبحة، وبعد أيام قليلة عندما زارت السيدة غاندي موقع الحادث، لم تجد أي أثر لها. فهل تم محو كل الآثار بهذه السرعة؟ يذكر التقرير أن الدماء غطت الحقول حتى بدت المياه حمراء. كانت الجثث في كل مكان، جثث النساء والأطفال وكبار السن، ممزقة ومشوهة. كيف اختفت هذه المشاهد المروعة بهذه السرعة؟ كتبت على غلاف المجلة ملاحظة قصيرة لتذكير نفسي:

"ما وقع على البشر في نيلي، لا يمكن تقديره بأي مقياس. سواءً كان عدد القتلى ثلاثة آلاف أو عشرة آلاف، لا يمكن للأرقام أن تنقل عمق المأساة. لو كنا ندرك أن الذين فقدوا حياتهم لم يكونوا مجرد أرقام بل كانوا أشخاصاً من لحم ودم مثلنا، عاشوا حياتهم مرة واحدة فقط. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل ستظل أكبر مجزرة في تاريخ الهند المستقلة محتفظة بمكانتها في ذاكرتنا الجماعية؟"

كانت الأيام تمضي نحو نهاية عام ٢٠١٣، وأنا غارق في شؤوني الأدبية بعلي غره. في تلك الأثناء، عرضت علي جامعة المسلمين منصبًا تدريسيًا ضمن برنامج للتعليم التجريبي. وبحثًا عن شهاداتي التعليمية لإتمام بعض الإجراءات الرسمية، عثرت على نسخة من مجلة 'إنديا توداي' التي حملت تعليقي المكتوب منذ سنوات. تلك الكلمات أعادتني إلى ذكريات الكرب الذي خيم على عام ١٩٨٣. في الوقت نفسه، كان كتاب 'مجزرة نيلي ١٩٨٣' لماكيكو كيمورا ينتظرني على مكتبي للقراءة. بعد ثلاثين عامًا، كانت الكتابات حول مجزرة نيلي نادرة وقليلة. ماكيكو، الكاتبة اليابانية التي جاءت إلى جامعة جواهر لال نهرو للبحث العلمي، قد كُتب لها أن تخلّد هذه الفاجعة بكلماتها. أيضًا، نُشر في عام ٢٠٠٨ كتاب قصير بعنوان 'بعد ٢٥ عامًا... نيلي لا تزال تطاردني' لهيمندر نارايان، الذي كان شاهد عيان على المجزرة. كتب هيمندر عن حمله لذلك الألم في قلبه لسنوات طويلة، وقرر تسطيره على الورق لتخفيف الوطأة عن قلبه. كان يجيب الذين سألوه عن سبب تأخره في الكتابة بأنه لم يكن بمقدوره حمل تلك الأحزان إلى الأبد، وأن كتابته كانت بمثابة تحرر من الألم الذي طالما حمله في صدره.بالإضافة إلى هذين الكتابين، يُذكّرنا الفيلم الوثائقي لسوباسري كريشنان، بعنوانWhat the Fields Remember، بتلك الأيام المشؤومة. يروي الفيلم قصة خير الدين الذي كان يهرب مع طفليه، محملًا الأصغر على ظهره، وممسكًا بيد الأكبر. في قلب الرعب والفوضى، تعرضوا لهجوم وحشي. الطفل الصغير سقط فجأة إلى الأرض، وفي محاولة يائسة للنجاة، قفز خير الدين إلى بركة مائية، ولكنه تعرض لضربة أخرى من الخلف. وعندما التفت

ليرى، انكسر قلبه. رأس طفله كان مقسمًا إلى نصفين، يتأرجحان بشكل مروع. يقول خير الدين إن هذا المشهد المرعب لا يزال يطارده حتى اليوم، يسرق منه النوم ويملأه بالرعب. فقد خير الدين ثلاثين فردًا من عائلته في هذه المذبحة، ولا يزال يبحث عن العدالة، ولكن كيف يمكن العثور على العدالة في عالم لا يرى ولا يسمع؟ الحكومة لم تنشر تقرير لجنة تيواري، الذي أُعد للتحقيق في الحادثة. والذين أُدينوا في هذا التقرير، لم تتخذ الشرطة أي إجراءات ضدهم. ثم تم منحهم عفوًا عامًا في اتفاقية آسام لعام ١٩٨٥، التي تم التوصل إليها بين رئيس الوزراء راجيف غاندي وبرفولا كومار ماهانتا. صرخ خير الدين والضحايا الآخرون في وجه هذا الظلم، وفي عام ٢٠٠٧، طرقوا أبواب المحكمة العليا، ولكن من يستمع إلى صوت الببغاء في قاعة الطبول؟

في أغسطس من عام ٢٠٠٧، عندما وصلت ماكيكو كيمورا إلى نيلي في رحلتها البحثية الثانية، لم تجد سوى بقايا ذكريات مؤلمة لا تزال تخيم على المكان، حتى بعد مضي كل هذه السنوات. هناك، حيث الأصداء تتردد بين جدران الذاكرة، قص لها أحد السكان قصة فقدان سبعين فردًا من عائلته، بينما روى آخر كيف نجت أمه من ستة وعشرين جرحًا بمعجزة، ولكن خسروا سبعة عشر من أفراد عائلتهم. ولا يزال البعض يتذكر وعود السيدة غاندي بإعادة توطين مسلمي نيلي، وعود لم تتحقق قط، معلقة في فضاء الأمل المفقود.

"إندرا غاندي طلبت منا التصويت لها، وعندما زارت المكان بعد المجزرة، أكدت لنا قائلة: 'ما حدث قد حدث، لكن يجب ألا تغادروا هذا المكان. سأساعدكم قدر استطاعتي في إعادة الإعمار. أنا هنا من أجلكم في كل وقت، لا داعي للقلق'. وعدتنا بتحويل هذه القرية إلى نموذج يحتذى به، ستُبنى فيها المنازل والطرق، وستُقام المستشفيات والمدارس ومراكز الشرطة، لكننا لم نحصل إلا على ألفي روبية وثلاث حزم من الصفيح لأسقفنا".

تشير ماكيكو كيمورا إلى أن بعض الأشخاص أعربوا عن شكواهم من أن المسلمين المتأثرين بالحادثة تلقوا تعويضًا بمبلغ خمسة آلاف روبية فقط، في حين

تم تقديم خمسة وثلاثين ألف روبية لعائلات المهاجمين المتوفين. كما أشار البعض إلى أنه في وقت قريب، تم قتل ثمانية وأربعين شخصًا من بهار في منطقة أعلى آسام، وقدم الحزب السماجوادي مائة ألف روبية كتعويض لكل من أقارب الضحايا. قدمت حكومة آسام ثلاثمائة ألف، ورئيس الوزراء منموهان سينغ مائتي ألف، وحكومة بهار مائة ألف. وبذلك بلغ المجموع سبعمائة ألف. كما زاد منموهان سينغ، بعد أن أصبح رئيس الوزراء، مبلغ التعويض لضحايا أعمال العنف ضد السيخ في دلهي إلى سبعمائة ألف روبية. فتتساءل كيمورا: لماذا يُقدَّر دم المسلمين بهذا القدر المتدني، حيث يُقدم لهم فقط خمسة آلاف روبية كتعويض؟

قراءتي لكتاب مكيكو كيمورا أثارت في نفسي شعوراً عميقاً بالحزن تجاه المسلمين في نيلي، الذين لا يزالون يعيشون أحلام وعود إنديرا غاندي، بانتظار العدالة التي لم تأتِ. في هذه القرى المثالية التي أنشأتها غاندي حول نيلي، لم ينل الناس العدالة، بل تحولت حياتهم إلى كابوس يجعل أدق المعاناة وأكبرها تبدو هينة أمام جروح نيلي المستمرة. حتى أشد الفظائع وحشية تصبح مجرد حوادث صغيرة أمام ذاكرة نيلي المؤلمة. وفقاً لمجلة "الاقتصاد والسياسة الأسبوعية" (مايو ١٩٩٥)، في يوليو ١٩٩٤، تم قتل ألف مسلم بنغالي على يد متطرفين بودو في منطقة باربيتا في أسام السفلى. آلاف أصيبوا، وأكثر من ستين قرية حُرقت حتى تحولت إلى رماد. حتى الأشخاص الذين كانوا يعيشون في مخيمات اللاجئين التي أقامتها الحكومة تم قتلهم بلا رحمة. ولكن لم تحدث أي ردود فعل عامة على هذه الحادثة، ربما لأن مذابح المسلمين باتت جزءاً من الروتين في هذا البلد.

الملاحظة التي أُلصقت على غلاف "إنديا توداي" لم تلتصق بالورق فحسب، بل بقلبي وعقلي أيضاً، حيث أصبحت تلاحقني بلا كلل، مثيرةً سؤالاً دائماً حول الخطوات الواجب اتخاذها لحفظ تلك الذكريات المؤلمة في ذاكرتنا الجماعية. الذكريات أمانة، ولا تقل ذكرياتنا الجماعية أهمية عن كونها إرثاً وطنياً. الأمم التي تفشل في الحفاظ على ذاكرتها تفتح المجال لأعدائها لتزوير وتحريف التاريخ.

وعندما تصبح الروايات التاريخية مضللة، فإنها تفقد قدرتها كمصدر للدروس والعبر، ويظل الإنسان مثل ضحية تُعض من نفس الثقب مراراً وتكراراً. هذه الظاهرة تصبح أكثر وضوحاً في بلد حيث الحكومات قادرة على محو الأدلة بين عشية وضحاها وتقديم نفسها كمخلص بدلاً من كونها المجرم، في تحول ماكر وخادع للواقع.

في ليلةٍ ما، زارني البروفيسور في حلمي، محمّلًا بغضبٍ كظيم. ثوبه متسخٌ بالغبار وملطخٌ بالدماء. بدأ بتمتمة كلماتٍ غامضة، ثم قال بنبرة حزن عميق: "هذه العذابات تتوقف وتستمر، لكنها لا تنتهي أبدًا. يا ليت أحدهم يخبر الله أن يضع حدًا لهذا." عندما استفسرت عن المزيد من التفاصيل، رفع قبضته في الهواء، مشبعًا بالغضب، وقال: "ألا ترى كيف أصبح الحكام السابقون، الذين كانوا يومًا ما أصحاب سلطة وقوة، الآن عاجزين ومهانين؟ آه، تلك المشاهد المؤلمة لتقسيم الوطن... كبار القوم والنبلاء أُجبروا على ارتداء ثياب الذل. نساء مسلمات، كنّ يومًا محط الإعجاب، تم جرهن كالحيوانات. الأمراء الذين كان يخشى الناس حتى النظر إليهم، كيف تم دهسهم بقسوة! وفاطمة الصغيرة، أختي البريئة، في الثانية عشر من عمرها... هل تعرف ماذا فعل بها الوحوش؟ أُجبرت أولاً على مشاهدة انتهاك النساء الأخريات، ثم أصبحت ضحية لشهواتهم الجماعية. وهم يهددون بقتلها، لكن لا أعرف لماذا تركوها على قيد الحياة. نجت بجسدها لكن روحها كانت قد ماتت بالفعل، ولم تتمكن من مشاركة أحدٍ في حزنها. فمن نلوم، ومن نطالب بالعدالة؟" وبعد أن أطلق تنهيدة عميقة، نظر البروفيسور إلى السماء بعجز ويأس.

فاطمة الآن في السموات، تسير في حدائق الجنة مع ربها. حاولت مواساة البروفيسور بقولي هذا، لكنه أبدى دهشته من سذاجتي، قائلاً بنبرة من الأسى: "أنت لا تعرف شيئاً. لا تملك أدنى فكرة عن الواقع. آخر مرة رأيتها فيها كانت خلال مذبحة نيلي". حاولت توضيح الأمر قائلاً: "ربما تختلط الذكريات في ذهنك، يا بروفيسور. ربما لذلك يطلب شاعر الزمان في دعائه: 'أخذل مني ذاكرتي'". لكنه رد

بعمق: "هذا ليس الحل. حتى لو اختفت الذكريات القديمة، فإن الأحداث الجديدة تولد ذكريات أشد مرارة. وهذه الذكريات المريرة تستمر في التقطير كالجرح الذي لا يلتئم. يمكنك التعافي من أفدح الكوارث إذا وصلت إلى خواتيمها، ويمكنك إعادة ترتيب خيوط الحياة المشتتة، لكن إذا أصبحت الكارثة حالة مزمنة، تتحول هذه الذكريات إلى قرحة نازفة لا ترى نهاية لألمها. يبدو كأننا سنعيش في هذه الحالة إلى الأبد. الكلمات العادية لا تكفي لوصف هذا الضيق الذي يخنق الأرواح. إن الواقع المرير هو أن هذا هو العذاب الحقيقي للمسلمين في الهند."

لعلّنا ننير درب المستقبل بوهج الذكريات؟" هكذا استفسرته، فأجاب بنبرة ملؤها اليقين: "إنه ممكن، من خلال الحكايا والأساطير. ربما تتمكن بعض الأشياء من الاستقرار في أذهاننا، أو قد يشعر القارئ بأن الحقيقة قد مرت بجواره، لمست روحه بلطف. هذا الأسلوب الذي استخدم في الكتب السماوية، حيث تم الاعتماد على القصص والتشبيهات، ليس إلا لأن الأفكار الرفيعة والأحداث الخارقة لا يمكن التعبير عنها بلغة البشر العاديين. إن وصف الصاعقة يتطلب لغة جديدة، غير مألوفة. ربما هذا ما دفع نيتشه في 'هكذا تكلم زرادشت' لمحاولة تبني أسلوب روحاني. لم ينجح في الإمساك بالفكرة برمتها، لكنه في سعيه فقد محوره. عندما تُحمّل اللغة فوق طاقتها، تتعثر وتنهار. أحيانًا تتصدع اللغة، وأحيانًا ينهار شيء في داخل الإنسان بطريقة تفقده توازنه العقلي. هؤلاء الذين ترونهم يتلعثمون، في الواقع هم أشخاص تضرر لاوعيهم بفعل حادثة جلل، وغالباً ما يكونون غير مدركين لذلك. الأشخاص ذوو اللاشعور المصاب لا يقدرون على تحليل حالتهم بصدق وواقعية."

لعلّنا ننير درب المستقبل بوهج الذكريات؟" هكذا استفسرته، فأجاب بنبرة ملؤها اليقين: "إنه ممكن، من خلال الحكايا والأساطير. ربما تتمكن بعض الأشياء من الاستقرار في أذهاننا، أو قد يشعر القارئ بأن الحقيقة قد مرت بجواره، لمست روحه بلطف. هذا الأسلوب الذي استخدم في الكتب السماوية، حيث تم الاعتماد

على القصص والتشبيهات، ليس إلا لأن الأفكار الرفيعة والأحداث الخارقة لا يمكن التعبير عنها بلغة البشر العاديين. إن وصف الصاعقة يتطلب لغة جديدة، غير مألوفة. ربما هذا ما دفع نيتشه في 'هكذا تكلم زرادشت' لمحاولة تبني أسلوب روحاني. لم ينجح في الإمساك بالفكرة برمتها، لكنه في سعيه فقد محوره. عندما تُحمّل اللغة فوق طاقتها، تتعثر وتنهار. أحيانًا تتصدع اللغة، وأحيانًا ينهار شيء في داخل الإنسان بطريقة تفقده توازنه العقلي. هؤلاء الذين ترونهم يتلعثمون، في الواقع هم أشخاص تضرر لاوعيهم بفعل حادثة جلل، وغالباً ما يكونون غير مدركين لذلك. الأشخاص ذوو اللاشعور المصاب لا يقدرون على تحليل حالتهم بصدق وواقعية."

"أليس هناك علاج لهذا المرض العتيق؟" سألت. "أم أن المسلمين الهنود محكوم عليهم بالعيش مع هذه الجروح النازفة؟" أجاب بحزم: "لكل داء دواء. الخطوة الأولى نحو الشفاء هي تشخيص الداء. الذين يتحملون الألم المستمر يتعودون على هذا الوجود المؤلم حتى يرون الخلاص منه أمراً مستحيلاً. لكن الظالمين، الذين جلبوا المعاناة للمسلمين الهنود، لا يجدون الراحة في حياتهم أيضًا. تقض مضاجعهم ضمائرهم، تعكر صفوهم. الناس يظنون أنهم بلا ضمير، لكن هذا غير صحيح. في آهات المظلومين تكمن وعود الله بالنصر والرحمة، وهي البلسم الذي يمكن أن يخفف من جروحهم. الظالم ليس أمامه سوى طريق واحد: الاستمرار في الظلم لتخفيف قلقه وعاره، فيصير في دوامة شيطانية تحكم قدره".

"عندما يعجز اللسان عن حمل ثقل البيان، فلماذا يلجأ الكاتب إلى لعبة الكلمات الباطلة، مخادعًا نفسه والآخرين؟" سألته.

فأجاب بنبرة حزينة وصوت يكسوه الأسى: "أرأيت هذه الخطوط المتشابكة في دفتري؟ إنها رمز لفوضى الأفكار. الصمت في مواجهة الظلم أشد وطأة من الهذيان العبثي. خالم مخول! فوضى الكلمات"!

شعرت بظلال الألم تخيم على شخصيته. شخصية محطمة ومهجورة، تحمل في طياتها أنين الروح المجروحة، وكأنها تصرخ صامتةً إلى خالق الكون: "لماذا أصبت

روحي بالجرح، يا رب العالمين؟" جروح الجسد قد تكون مرئية، لكن عندما تفقد الروح شكلها، يظل فقط ألم لا يمكن وصفه، جرح نازف يستمر بالألم والعذاب الأبدي والدائم.

"لماذا لا يقيم المسلمون الهنود نصبًا تذكاريًا لهذه الكارثة العظمى؟" سألت. "لدينا تقاليد حية لتذكر حزن الحسين بالأناشيد الحزينة والرثاء العميق، ومع ذلك، لم نتمكن من عرض معاناتنا للعالم. يمكننا على الأقل أن نقيم نصبًا تذكاريًا مثل اليهود، بلوحة تحمل عبارة 'ألا يتكرر أبدًا'."'

أجاب بلهجة تحمل وقع الحكمة والألم: "جراح المسلمين الهنود أعمق من جراح اليهود، لكننا لا ندرك ذلك. استطاع اليهود إقامة متاحف لتذكر آلامهم لأنهم عاشوا بعد الصدمة، بينما يعيش المسلمون الهنود في حالة مستمرة من الألم، كرب مستمر لا ينتهي. كل جيل يعاني من ألم أشد من سابقه، مما يجعل الأخطار السابقة تبدو ضئيلة مقارنة بالتحديات الجديدة. تزداد حدة الألم باستمرار. لا توجد هنا غرف غاز أو معسكرات اعتقال، بل هو عملية غير محسوسة يصعب إدراكها حتى على قادة المسلمين الهنود البارزين."

٣١
القيادة المأسورة

في ذاكرتي دومًا، تتردد كلمات والدي التي تحذر من أن جيلًا بأكمله قد يضيع في فهم هذا الخداع. ثم خطر لي أنه إذا ما أكمل جيلنا مهمة الفهم، فربما يختار القدر الجيل التالي ليكون مسؤولًا عن العمل. لذا، فكرت في استخدام مجلة علي جاره كأداة لتوضيح هذه المشكلة، مع إصدار عدد خاص يركز على قضايا المسلمين في الهند. رحب الأصدقاء بالفكرة، وبدأوا في جمع المواد من كتب ومجلات متخصصة حول الموضوع. أول كتابين وقعا في يدي كانا لكاتبين يحملان اسم سميث؛ الأول لدونالد يوجين سميث بعنوان 'الهند كدولة علمانية' والثاني لولفرد كانتويل سميث بعنوان 'الإسلام في التاريخ الحديث'. الكتاب الأول يكشف بالأدلة والوثائق عن حقيقة العلمانية الهندية. وعلى الرغم من نشره قبل عشرين عامًا، إلا أن قراءته أوحت بأن القضية أعمق وأشمل، مما يتطلب دراسة واسعة ومعمقة لإعداد عدد خاص حول قضايا المسلمين الهنود.ومن ثم، كان لزامًا على القائم بأمور التحرير أن يتحلى بالوعي التام بمجريات الأقلام التي زخرت بها الصفحات حول الموضوع، ليثبت قدميه على أكتاف الرواد بثقة، متجهًا نحو رسم مسارات جديدة في أفق المعرفة. في غمار ذلك، كان ثقل الأنشطة الأكاديمية يتزايد بشكل ملحوظ، حتى توارى بداية العام الدراسي الجديد خلف ستار من الانشغالات. ومن هنا، سلك نائبا المدير، منوج يادو الذي تبوأ فيما بعد مرتبة رفيعة في السي بي أي، وسهيل أحمد الذي صعد إلى ذروة إدارة السجون في مادهيا برديش، دربهما الخاص، متفرغين لإصدار مجلات قاعاتهما. وفي تلك الأثناء، حملت الأنباء إلينا أن مجموعة من الطلاب والطالبات ستشارك في معرض الكتاب

الدولي بدلهي، مانحةً إيانا فرصة ذهبية قدرية لاكتشاف كنوز المؤلفات الجديدة والنادرة حول موضوعنا. وكانت جولة في أروقة المعرض تحت راية الأستاذ أسلوب، بمثابة تجربة ثرية لا تقدر بثمن. ومع حلول المساء، انطلقنا في رحلة العودة، حيث كان ترتيب المقاعد في الحافلة يجمع في الصفوف الأمامية بين الأستاذ أسلوب ومستشاره الخاص، الدكتور رضوان الدين، الموكل إليه مهمة الإشراف على مكتبة الندوات، لكن يبدو أن شغفه الأكبر كان مراقبة أخلاق الطلاب.مدت الرحلة ثلاث أو أربع ساعات، فلما انطلق الحافلة، انقسم الطلاب والطالبات إلى مجموعات صغيرة غارقة في أحاديثها. رفعت وفريدة، اللتان كانتا تجلسان بالقرب مني، كانتا نموذجاً للرقة والأناقة في تصرفاتهما. كان لديهما شغف بالشعر والأدب يتجذر في أعماقهما. وفي الأنشطة غير الأكاديمية، كانتا تشاركان بحماس يفوق نظرائهم من الطلاب، كأنهما تخوضان معركة العلم والمعرفة. وعلى الرغم من طبيعتهما المرحة، كانتا دائماً متحفظتين، مغطيتين رؤوسهما بالدوباتة. وكانت تحيتهما الخاصة توحي بأنهما قد أسرتا قلب المخاطَب. مع تقدم الرحلة، أبدت رفعت رغبتها في أن تقدم لي قصائد إقبال. فبدأت تغني بصوتها العذب والمؤثر 'لوح بهى تو قلم بهى تو...'، وتتابعت القصائد الواحدة تلو الأخرى حتى نفدت جميعها. وما زالت الرحلة مستمرة، وكأنها أحست بأن حماسي لم ينقص. فانتقلت الآن إلى غناء أغنية من فيلم 'دے دے پيار دے'، وهي تعني "أعط الحب" بكل عشق وشغف، وأنا متحير في تلك اللحظة الغريبة. جلس الأستاذ أسلوب في المقعد الأمامي، وأنا في الوسط، ووراء كانت رفعت تتغنى. ولما وصلت ألحان "أعط الحب" إلى أذني الأستاذ أسلوب، أبدى قلقه للدكتور رضوان. فالتفت الدكتور بعنقه الطويل ونظرته الفاحصة إلى الوراء قائلاً: 'لا شيء يُقلق، إنها مجرد فتيات يغنين للسيد شاز'. وبهذه الكلمات، اطمأن الأستاذ أسلوب وتبدد قلقه. وفي اليوم التالي، روى لنا الدكتور رضوان هذه الحكاية.

حينما اطلع بعضهم على خططنا لإصدار عدد خاص من 'مجلة علي غره' يتناول قضايا المسلمين، سرعان ما انبروا لشن حملة دعائية ضدي، متهمينني

بالتطرف الفكري واستغلال المجلة الجامعية لبث أفكاري. وكان هناك شخص، معروف بنظرته السطحية، رأى فيّ صورة الشاب الراديكالي والمتشدد. مع أن وضوح 'ليبراليتي' كان جليًا للجميع. فكيف لشخص يستمع لأغنية 'دے دے پیار دے' في مجلس مفعم بالجمال أن يوصم بتهمة التطرف الإسلامي؟ لكن،

'بگڑتی ہے جب ظالم کی نیت نہیں کام آتی دلیل اور حجت'

'عندما تسوء نوايا الظالم، لا تجدي نفعًا الحجج والبراهين'.

في تلك الأيام التي كانت فيها المجلة تتشكل وتنمو في رحم الإعداد، ودعنا الأستاذ أسلوب أنصاري، راعي المجلة ومشرفها الأعلى، الذي اختار طريق التقاعد. كان ذلك في الوقت الذي أسفرت فيه نتائج الامتحانات النهائية للماجستير عن تفوقي بالمركز الأول، ومع ذلك لم يكن ذلك لمصلحتي، إذ بات من الواضح أنني لم أعد طالبًا من الناحية التقنية. استغل المشرف الجديد هذا الأمر في أول اجتماع لنا، محاولًا إضعاف موقفي بالتشديد على هذه النقطة. قرأ مقالي الافتتاحي بتمعن وقلق، مشيرًا إلى هنا وهناك، ثم تنهد قائلاً: 'أيها الشاب، أنت في بداية رحلتك المهنية. ستصعد سلم النجاح يومًا ما، ولكن بكتاباتك هذه، أنت تشعل النيران في مسيرتك'. توقفت لحظة، ثم رددت بأدب: 'ربما تتكشف لي هذه الدقائق في المستقبل، لكن في هذه المرحلة من حياتي، ما أفهمه هو...' وأعقبت ذلك بصمت متعمد. وفي تلك اللحظة التي بدأ فيها الوضع يتأزم، تدخل السيد جعفر ذكي، مقترحًا بحكمة حذف بعض الفقرات بدعوى طولها الزائد.

في ذلك الزمان، كانت الأحاديث تتناقل في دوائر المتشككين، تُروى عن قلق رئيس الجامعة، السيد سيد حامد، من طبيعتي المتطرفة بخصوص المجلة. لكن كان هناك أمر يثير العجب، ففي كل مرة ألتقي به في تلك الأيام، كان يظهر تجاهي نفس العطف والحب الذي عهدته. ومع أنني من الناحية التقنية لم أعد أُعد طالبًا، إلا أنه وافق على استمرار إقامتي في السكن الجامعي. وليس هذا فحسب، بل وقد زاد من ميزانية المجلة بشكل كبير، مما سمح بنشر هذا العدد الخاص بأعداد أوفر بكثير مما كان عليه في الأعداد السابقة.

بعد طباعة المجلة، وصلتني أولى رسائل التقدير والتشجيع من شيخ أبو الحسن علي ندوي. وكتب فيها:

'لقد استلمت حديثًا العدد الخاص لمجلة علي غره لعام ١٩٨٤. لم أتيقن هل كان التأخير في النشر أم في وصولها إليّ. قرأت كتاباتك والمقابلة التي أجريتها معي، فامتلأت بالسرور والاطمئنان. لم أكن على علم بمستوى مهارتك في الكتابة بالإنجليزية كما أظهر هذا العدد. تشير مقالاتك إلى مستقبل مشرق في ميدان الأدب والصحافة. أسأل الله أن يجعل ذلك حقيقة. يجب عليك تنمية هذه الموهبة والسعي لتطويرها أكثر. بدأت قراءة المقابلة بنوع من القلق والشك، لكن سرعان ما زال هذا القلق عندما وجدتها تعكس أفكاري بدقة. تضمنت المقابلة العديد من النقاط الهامة. تقبل مني أجمل التهاني بهذا الإنجاز'.

لقد طالت مدة علاقتي بالشيخ أبو الحسن علي ندوي. كانت رسائلنا تتبادل عبر السنين، وكثيراً ما كنت ضيفًا في الندوة، وأحيانًا أقوم بزيارة مسقط رأسه في رائے بريلی. في مرة، بدعوة خاصة منه، أمضيت بضعة أيام من رمضان في رائے بريلی. كلما اقتربت من الشيخ، كنت أجده يتمتع بسمو الأخلاق والشيم، براعة في اللطف وفصاحة في الحديث. لكني توقفت متفاجئًا عندما رأيتهم يضعون أكوامًا من بذور التمر الهندي بعد صلاة العصر للمعتكفين، ليشغلوا أنفسهم بها في أذكارهم وأورادهم، فهذه عادة قديمة عند أهل السلوك. في تلك الأيام، كانت لدي رغبة جامحة في زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم، رغبة تدفعني لتجربة كل طريقة ووصفة مجربة في هذا المضمار. ذات يوم، دخلت خلوة الشيخ خصيصًا لمناقشة هذا الأمر. كان جالسًا على السرير، مستندًا إلى وسادة، يبدو أنه كان منهمكًا في قراءة مصحح لإحدى كتبه. وحوله كان تلاميذه ومريدوه منتشرين على الأرض.أعطى إشارة للحاضرين بإخلاء الغرفة قائلاً: 'هذا زائف العزيز، أتى ليتحدث معي في شؤون'.في تلك اللحظة، اغتنمت الفرصة وسألته بفضول إذا ما كان من الممكن حقًا رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة أو الحلم. اعتمد الشيخ أبو الحسن علي ندوي في رده على أقوال السيوطي وعلماء آخرين، مؤكدًا

إمكانية ذلك. هذا النقاش أوقد في روحي لهفة متزايدة لتحقيق هذا اللقاء المنشود، على الرغم من أنني لم أتمكن من تحديد مسار واضح لهذا الهدف، إذ لا توجد في عالم أهل السلوك طريقة واحدة تناسب الجميع. لطف الشيخ وعناياته كانت وراء دفعي لإجراء مقابلة معه للعدد الخاص من مجلة علي غره حول قضايا المسلمين. بعد تبادل الرسائل لتحديد التفاصيل، وصلت في الوقت المحدد حاملاً مسجلًا. كان مولانا يتمتع بذوق رفيع في الشعر والأدب، وبدا مزاجه مشرقًا في ذلك اليوم. قدم لي أحد مؤلفاته عن الأدب الإسلامي وتلا هذا البيت من شعر إقبال:

'أيها الناظرون، ذوق النظر جميل لكن،

ما قيمة النظر الذي لا يرى حقيقة الشيء؟'

في لحظة تشغيل الشريط، انسابت المقابلة مع الشيخ ندوي. عند أول سؤال مني، توقف الشيخ، معبرًا عن دهشته: 'ظننت أن المقابلة ستكون حول الأدب'. بدا أن سوء الفهم قد رسم ظلاله على الحوار. قدمت توضيحًا عاجلاً، موضحًا أن العدد الخاص من مجلة علي غره سيركز على قضايا المسلمين، وأنني جئت خصيصًا لهذا الغرض. رد الشيخ بتؤدة: 'هذا موضوع حساس، ولا يتناسب مزاجي مع المقابلات. الأفضل أن ترسل لي أسئلتك وسأوافيك بالإجابات'. حاولت بإصرار يشوبه الإعجاب إقناعه بالحديث المباشر، لكنه ظل ثابتًا على موقفه. كنت من المعجبين به، وكان إصراري يعكس هذا الإعجاب. رغم عدم إتمام المقابلة، شعرت بنوع من الإنجاز، وغادرت مكتنزًا بالبهجة. وعندما شاركت والدي تفاصيل هذا اللقاء، عبر عن قلقه إزاء إعجابي المفرط، قائلاً: 'لا يجدر بالإنسان أن يغتر بالدعاية. للشيخ ندوي صفاته المتميزة وهو كاتب بارع، لكن لا يجب أن يكون هو وحده موضع تقديرك. تعلم منه كطالب، لا كمعجب. هناك العديد ممن يستحقون الإعجاب'.

في كل زيارة لي إلى الندوة، كنت أُعامل كضيف الشرف في مجلس الشيخ ندوي الأرضي. أحيانًا، كان الفراش الوحيد هو الفراش الخاص بالشيخ، ولم أكن أقبل بالجلوس على الأرض كما يفعل المريدون. كان الشيخ واعيًا لهذه الدقائق وكان

يكرمني بمعاملة خاصة كطالب. لعله لم يرني كمريد، لكن بعد نشر المجلة، أيد فكرتي بحماس لإصدار مجلة بالإنجليزية تحت إشراف المجلس الشخصي للقانون. في رسالة مؤرخة ١٤ ديسمبر ١٩٨٥، كتب الشيخ:

'التقيت بالسيد حسنين سيد في لكناو وتحدثنا طويلاً عنك. أسعدتني الأفكار التي عرضتها. فكرة المجلة الإنجليزية معقولة ورشيدة. يرجى إطلاع مولانا رحماني على هذا الاقتراح.'

وما لبث أن وصلني خطاب من مولانا منت الله رحماني يدعوني لإعداد ميزانية المجلة وبدء العمل. وأوصى بحضوري لاجتماع العاملة في دلهي في الشهر التالي. لكن قبل أن تتحقق هذه الخطة، وجدت نفسي متوجهًا إلى إنجلترا لدراسة الدكتوراه، وظلت الفكرة معلقة دون تحقيق.

خلال الفترة من ١٩٨١ إلى ١٩٩٢، توطدت علاقتي بالشيخ أبو الحسن علي ندوي، حيث شهدت تلك الأعوام حظي بعنايته وشفقته الخاصة. كانت رحلاتي إليه تتجه أحيانًا إلى دلهي، لكناو أو تكية كلاں. وكان الشيخ يعاملني برعاية خاصة. في إحدى زياراتي للندوة، دونت في مجلة علي غره عن تلك اللحظات بقولي:

'في ٢٢ سبتمبر، عندما وصلت، كانت الأجواء في الندوة مفعمة بالحيوية. ساعدني طالب في الوصول إلى بيت الضيافة. سرعان ما علمت أن الشيخ سيعود من رائے بريلى. بعد لحظات، أعلن صوت سيارة وصول الشيخ. استقبلني بدفء قائلاً: 'أهلاً، لقد وصلت'. ومع وصول الشاي، ألحّ الشيخ على أن آخذ بعض البسكويت. تواصل حديثنا حول الأدب والدين. خلال ذلك، أحضر أحد كتبه وقرأ لي بعض الأسطر البارزة وأبيات من شعر إقبال، محتفيًا بي فوق مكانتي. تم تحديد موعد للحوار الرسمي في اليوم التالي. كان هناك حفل تنصيب اتحاد الطلاب في المساء. ألحّ الشيخ على بقائي ليلة أخرى لحضور الحفل، معبرًا عن تقديره: 'أنت ضيفنا العزيز، وأتمنى حضورك في هذا التقريب'. كانت ملامح وجهه تعكس السكينة والمحبة، وفي عينيه بريق شفقة وسرور، مصرًا على إلحاحه في بقائي.'

(مقتطف من مجلة علي غره الإنجليزية، ١٩٨٤، ص ١٦٩)

التقاءاتنا المتكررة مع الشيخ أبو الحسن علي ندوي من عام ١٩٨١ إلى ١٩٩٢ أثارت في بعض الدوائر ظنونًا بأنه يُعدني لدور مهم. لكن هذه العلاقة العريقة تلقت ضربة قاسية في ديسمبر ١٩٩٢ بعد تدمير مسجد بابري. في مايو ١٩٩٣، في أعقاب هذا الحادث المأساوي، دعوت إلى تنظيم أول جلسة وطنية للبرلمان الملي في دلهي، في محاولة لتجديد الأمة بفكر جديد. هذه الدعوة لاقت تجاوبًا كبيرًا في ظل اليأس الذي خيم على المسلمين وانهيار القيادة الملي. بعد شهور من العمل الدؤوب، دعونا القيادات الشابة والمضطربة من كل أنحاء البلاد إلى اجتماع في مايو الحارق بقاعة ماؤلنكر في دلهي. وبسبب علاقتي الوثيقة مع الشيخ علي ندوي، كنت أتوقع دعمه لهذا التحرك الثوري. لم أظن أنه سيشارك شخصيًا، لكن في مسعى للحصول على دعمه، أرسلت أخي فهيم اختر خصيصًا إليه كرسول. عندما قرأ الشيخ خطابي، عبر عن تحفظاته حيال دعم المبادرة. أوضح قائلاً: 'في ظل الظروف الراهنة، لا أرى من الحكمة إبراز قيادة جديدة'. بالرغم من إلحاح أخي للحصول على رد كتابي، اكتفى الشيخ برسالته الشفوية، مما أضفى لحظة من الصمت والتأمل.بعد تلك الأحداث، تبدلت علاقتي بالشيخ أبو الحسن علي ندوي؛ فلم يعد الحماس السابق يطغى على لقاءاتنا. واصل كل منا مسيرته في عوالمه الخاصة. آخر لقاء بيننا كان في تلك الفترة التي ألمت به الجلطة. قد استعاد الشيخ قواه إلى حد كبير بعد الوعكة. في تلك الزيارة، قدمت له نسخة من كتابي 'المسلمون الهنود: خمسون عامًا من الأيام المفقودة'. تنقل نظره بين صفحات الكتاب بإمعان وأظهر إعجابه، ثم طلب نسخة من 'قرآني أفادات'، كتابه، وقدمه لي كهدية بمثل حجم كتابي. في المجلس المسائي، حيث كان يجلس الشيخ عبدالله عباس وآخرون، سأل صديقي عبدالحميد سوانور، الذي رافقني في الرحلة، الشيخ عن رأيه في موقفي بأن المسلمين الهنود يغرقون في دوامة الردة السياسية. استمع الشيخ إلى السؤال وحافظ على صمته. لم يكن مستعدًا للخوض في مثل هذا النقاش. وعندما حاول عبدالحميد الإصرار، أثار ذلك غضب الشيخ عبدالله عباس، الذي اعتبره خروجًا عن حدود اللياقة. كان هدفي من الزيارة هو العيادة،

وكان يتعين علينا، في ضوء سن الشيخ وصحته، عدم الإلحاح في مناقشة موضوع حساس إذا لم يكن في مزاج لذلك.

من فوائد قربي من الشيخ أبو الحسن علي ندوي كان التعرف على عدد من الشخصيات البارزة، القادة، والعلماء، خاصة في مجالسه. في إحدى المناسبات، وُفقت لحضور اجتماع مجلس العمل لمجلس القانون الشخصي بدعوة خاصة من الشيخ. كان ذلك في أيام انشغالي بإعداد العدد الخاص للمجلة. كانت هذه المرة الأولى التي أتاحت لي فرصة مشاهدة قيادات المسلمين الهنود والتحاور معهم وجهًا لوجه. كان المجلس على الفرش، بحضور لا يتجاوز الثلاثين أو الأربعين شخصًا. من بين الحضور اللامعين كان إبراهيم سليمان سيت، سيد شهاب الدين، بالإضافة إلى الشيخ علي ندوي ومنت الله رحماني من مجلس القانون الشخصي. في هذا الاجتماع، ألقى مجاهد الإسلام قاسمي خطابًا شاملاً ومتقنًا، مما أبرزه كعالم شاب واعد. تولى سيد شهاب الدين مسؤولية إعداد القرارات وصياغة المذكرات. وعندما جُهزت المسودة، راجعها الشيخ بعناية، مؤكدًا على كل بند أثناء قراءته بصوت جهوري. وهكذا اختتم الاجتماع الذي استمر يومين بنجاح.في خلال اليومين الذين قضيتهما هناك، تاحت لي فرص عديدة للتواصل مع القادة الذين قدموا من أماكن بعيدة، سواء على مائدة الطعام أو في أثناء استراحات الشاي. لاحظت فيهم تواضعًا عميقًا وشفقة خاصة تجاه الأصغر سنًا، سمة لفتت انتباهي بشدة. ومع ذلك، كان من المدهش أن يكون هؤلاء هم القادة الذين يحملون على عاتقهم مسؤولية قيادة عشرين مليون مسلم في الهند. بدأت المناقشات بصياغة القرارات وانتهت بلقاء رئيس الوزراء وتقديم المذكرة له. عكست تجربتي مع هذه القيادة الملي، التي رأيتها بعيني، في العدد الخاص لمجلة علي غره، وذلك بطريقة تعكس عمق اللحظات وجوهر الأحداث:

> لم تكن جلسة مجلس القانون الشخصي الإسلامي الهندي التي استمرت لمدة يومين كبيرة كما يوحي اسم 'الهند بأكملها'. كانت الغرفة رقم أربع في ويسترن كورت مكان الاجتماع، غرفة واسعة معدة بمجلس على الأرض. عند وصولي،

لم تظهر أي علامات للاجتماع، لكن سرعان ما بدأ الحضور يتجمعون. من بينهم رجال دين، علماء، وغيرهم من الشخصيات البارزة. وفيهم رجل في السبعين من عمره، قصير القامة، بلحية بيضاء طويلة وعصا تقليدية، هو مولانا منت الله رحماني، الأمين العام للمجلس وشيخ خانقاه مونجير.

بعد تقديم نفسي لمولانا رحماني، علمت أنه مطلع جيدًا على عائلتي وعني. جلسنا معًا وبدأت بنقاش حول قضايا المسلمين، وكان حديثه ينضح بالشفقة والمحبة. كان يبدو كمن فقد الأمل في إحياء أمته من جديد.

سألته صراحةً: 'مولانا، أليس صحيحًا أن المسلمين الهنود يعيشون في جو من الخوف والذعر، وأن الأمة التي تشعر بالتهديد لا يمكنها التقدم والتخطيط بثقة؟'

أجاب بنبرة تحمل وزن التاريخ: 'لا يمكن إيجاد حل سريع للمشكلة. نحن نعيش نتائج تاريخ يمتد لألف سنة، نتائج أفعال أجدادنا".'

وجهت سؤالاً إلى مولانا: 'هل يوجد مخرج من هذه الحالة، مولانا؟ هل يمكن للعلماء والقادة الدينيين أن يساهموا في استعادة عظمتنا المفقودة؟' وقبل أن يجب، طرحتُ فكرتي عن دور العلماء الفاعل.

رد قائلاً: 'يا عزيزي، ليس لديك فهم كامل للوضع. المسلمون في حالة أخلاقية يُرثى لها، فاقدين الثقة في أنفسهم. لا يثقون بالعلماء، الذين فقدوا فاعليتهم. تسود بينهم التضارب والاختلافات الشديدة. إنه وضع مأساوي'. كان مولانا محبطًا من الحالة الراهنة للأمة. أسئلتي المباشرة أزعجته. وفي ختام الحديث، قال: 'أنتم الشبان لا تشاركون بفعالية، بل تلقون باللوم علينا. حان الوقت ليتقدم أشخاص مثلكم'. كان النقاش مستمرًا عندما وصل الشيخ أبو الحسن علي ندوي. كان الآن هناك المزيد من الحضور في مجلسنا. تحدث أحد البزرغ من دلهي عن وفاة شخص وأعرب عن قلقه من 'أزمة الرجال الحقيقيين'. بدا لي أنه خائف من المستقبل، حيث تفلت الأحداث من أيديهم بالفعل.

عقب مشاركتي في اجتماع مجلس القانون الشخصي الإسلامي الهندي، تملكني شعور عميق بأن ما نظنه قيادة جماعية للمسلمين لا يعدو كونه سرابًا وخيالاً. كان معظم القادة منشغلين بإدارة أضرحتهم، تكاياهم، مؤسساتهم، وجمعياتهم. أعمالهم الواسعة هذه لم تترك لهم مجالًا لتحليل مشكلات الأمة بعمق والتخطيط الفعال للمستقبل. لم يكن هناك أي إطار تنظيمي شامل لتنفيذ خطط على نطاق وطني. في أفضل الأحوال، كان بإمكانهم فقط عقد اجتماعات طارئة، صياغة القرارات، وفي نهاية المطاف، مقابلة رئيس الوزراء وتقديم مذكرات له.بينما يحمل العامة نظرة مليئة بالأمل تجاه هؤلاء القادة، يستجيبون لنداءاتهم بكرم، ويتبرعون بسخاء للمساجد والمدارس باعتبارها صدقة دينية، ويسلمون زكاة وجلود الأضاحي للعلماء بفرح. ينزلون بحشود للدفاع عن الشريعة بدعوة من المجلس. يعيش هؤلاء بانطباع أن قيادة حكيمة، نزيهة، وصالحة تحمي مصالحهم. لو فقط عرفوا أن هذه القافلة من القادة المثقلين بمهامهم لا تهدف إلا للحفاظ على الوضع القائم، دون وجود خطة حقيقية للتغيير.

في يوم معتدل، وأنا أتلذذ بشرب شاي العلامة الخضراء في الشرفة، ظهر جاري عبد الله الأفغاني. كان شغوفًا بشاي العلامة الخضراء، وقد كان يومًا ما طالب هندسة في موسكو. الآن، يكمل دراسته غير المنتهية في علي غره. تلك الأيام كانت تعج بأخبار التوترات الهندو-مسلمة في بعض مناطق المدينة. تحول حديثنا نحو مشكلات المسلمين في الهند. أبديت وجهة نظري: 'للأسف، نفتقر إلى جهد موحد ومنسق. المسلمون بلا قيادة حقيقية أو خطط محددة، ونتيجة لذلك، نحن في انحدار مستمر'. عند سماع ذلك، انفجر عبد الله بضحكة عالية، قائلاً: 'يبدو أنك وقعت في صحبة غير مناسبة. يجب عليك تغيير دائرتك الاجتماعية، بل وحتى الصحيفة التي تقرأها.'ثم تابع عبد الله حديثه بنبرة حنين إلى الماضي: 'حينما كنت طالبًا في موسكو، كان أصدقاؤنا الروس يشيدون بروح التعاون والاتحاد بين الأفغان، ويقولون إن هذه الروح هي التي مكنتهم من مواجهة عملاق عسكري مثل روسيا. ولكن في الوقت نفسه، كانت ترد أخبار من أفغانستان تحكي عن عدم

تسامح مجموعات المجاهدين المختلفة مع بعضها البعض'. ثم أردف بسرد لطيفة يهودية لتوضيح الفكرة، قائلاً: 'يُروى أن يهوديًا بدل صحيفته اليهودية بأخرى عربية. وعندما علم أصدقاؤه اليهود، سألوه عن سبب التغيير. فأجابهم: كنت أشعر بالإحباط من الأخبار اليهودية التي كانت تتحدث باستمرار عن انعدام الوحدة بين اليهود، والتهديدات التي تواجه إسرائيل، وابتعاد الجيل الجديد عن التوراة. لكن عندما بدأت بقراءة الصحيفة العربية، اكتشفت أن إسرائيل تتفوق على جميع الدول العربية، وأن مستوى معيشتها يفوق أغنى الدول العربية، وأن اليهود يهيمنون على وسائل الإعلام العالمية.'وأضاف عبد الله قائلاً بنبرة تختلط فيها السخرية والجدية: 'كنت أشعر باليأس عند قراءة الأخبار في الصحف اليهودية، التي لا تتوقف عن الحديث عن غياب الوحدة بين اليهود، والتهديدات التي تواجه إسرائيل، وابتعاد الجيل الجديد عن تعاليم التوراة. كانت تلك الأخبار تنبئ بأن اليهود سيفقدون هويتهم في أوروبا وأمريكا إذا لم يتم التصدي لهذا الاتجاه. ولكن، عندما بدأت بقراءة الصحف العربية، تغيرت نظرتي بشكل جذري. اكتشفت أن إسرائيل تتفوق على العالم العربي كله تكنولوجيًا وعسكريًا، وأن مستوى معيشتها يتجاوز أغنى الدول العربية. علاوة على ذلك، يسيطر اليهود على وسائل الإعلام العالمية ويحصلون على أكبر عدد من جوائز نوبل. حتى السياسيون الأمريكيون يقعون تحت تأثيرنا، ولا يمكن لأي رئيس أمريكي الفوز بالانتخابات بدون دعمنا. بات يبدو لي أن اليهود يمسكون بزمام العالم في قبضتهم. ومنذ أن بدأت بقراءة الصحف العربية، أعيش في حالة من النشوة والرضا.'

عبد الله غادر متركًا وراءه صدى ضحكاته، لكن هذه الضحكات لم تستطع أن تخفف من وطأة الهموم التي كانت تراودني. كنت أفكر في الجدل المتواصل حول أزمة القيادة وشكاوى نقص الرجال المؤهلين. ألم نكن نحن أنفسنا، بطريقة ما، نقصر في صنع القادة، ونركز جهودنا على خلق المتبعين والمريدين فحسب؟ القيادة الواعية والمقتدرة للمستقبل يمكن أن تنشأ فقط على يد أولئك الذين يمتلكون وعيًا عميقًا بمعنى ومسؤوليات القيادة، ويدركون تعقيدات هذا المسار.

ولكن الشخصيات التي تهيمن على مواقع القيادة لدينا اليوم، معظمها إما سجادة نشين أو متولو مدارس ومساجد، ورثوا مناصبهم. قائد من هذا القبيل ينتج المريدين، وليس القادة. إذا حول هؤلاء المريدين إلى قادة، فماذا سيتبقى للأجيال اللاحقة؟ هذا السؤال يتردد في ذهني، ملقيًا بظلاله على مستقبلنا.

دققت في التفكير، تساءلت عمن يجلسون اليوم على كراسي القيادة، ومن الذي رفعهم إلى هذه المرتبة. هل كان الشعب المسلم أم الحكومة وراء هذا؟ الجماهير المسلمة، البسيطة والغافلة، لا تملك هذا النفوذ. إنها الحكومة، التي تختار من تتحدث معه، تعطيه الأهمية، تقدمه على أنه القائد، هذا هو الذي يتبوأ مقام القائد للأمة. في الآونة الأخيرة، لمحت الحكومة إلى تغيير في قيادة المسلمين، مما أثار قلق الأمين العام للمجلس، مولانا منت الله رحماني، الذي أرسل إلي في رسالة مؤرخة في ٢٢ يناير ١٩٨٦م، يعبر فيها عن هذا القلق.في كلمات مولانا منت الله رحماني، التي تناثرت مثل أوراق الخريف في رسالته:

> 'ماذا تعرف الحكومة عن أعماقنا؟ لقد بدأت الفرقة تتسلل إلى صفوفنا. كانت قوتنا الحقيقية تكمن في وحدة المسلمين بالهند، ولكن الشقاق قد دب فيها. ظهرت جماعة جديدة تحت مسمى "مؤتمر القانون الشخصي للمسلمين"، وهناك محاولات لتعزيز دورها. يجدر بنا التفكير في طبيعة العلاقة بين هذا المؤتمر والحكومة. في هذا السياق، بذلنا جهودًا لحل قضية المادة ١٢٥ بأسرع وقت ممكن. تمت المناقشات وانتهت القضية. استجابة لطلب الحكومة، قدمنا مسودة تعديل المادة ١٢٥. تلك الحادثة كانت في ٢٣ ديسمبر. قيل لنا أن المسألة ستُحل في غضون يومين أو أربعة، لكن مر شهر والحكومة لا تزال صامتة، كما لو أنها تجمدت. نخشى الآن أن كل تلك المناقشات كانت مجرد خداع وأننا وقعنا ضحية له. في ظل هذه الظروف، علينا أن نكثف جهود المجلس ونسعى للتأثير على الحكومة.'

كان الأمر، فيما يبدو، بشكل كبير تحت رحمة وتقدير الحكومة، التي كان لها القدرة على اختيار وتقديم من تشاء كقائد للمسلمين، ولأي مدة ترغب، وكذلك

على إقامة قيادة جديدة متى تشاء. في هذا الواقع، تحولت مهمة القيادة للمسلمين إلى تحدي أكبر من المشي على حد السيف؛ فالمطلوب كان التوفيق بين القبول لدى الحكومة والحفاظ على ثقة المسلمين في آن واحد. هذه القيادة، المأسورة بين هذه الأطراف، كيف لها أن تعمل لخير الأمة، بينما كان الحفاظ على كرامتها ووقارها يمثل تحديًا ذاته؟

٣٢

في رحلة الشوق

كان ذلك في صباح نوفمبر الساحر، حيث كنت أجلس على شرفة غرفتي في قدوائي هوستل، أتمتع بشاي أرجواني تحت أشعة الشمس اللطيفة. فجأة، وصلني رسول من مكتب رئيس الجامعة، سيد حامد، مُبلغًا بأن هناك رسالة مهمة بانتظاري في مكتب شؤون الطلاب. تلك الدعوة كانت تُنذر بالخطر، والأخطر من ذلك، أنها جاءت بتوجيه من مكتب رئيس الجامعة. كنت قد تضمنت قائمة الطلاب المطرودين من السكن الجامعي بعد أحداث العام الماضي. لم أكن أعرف ماذا ينتظرني، لذا توجهت إلى مكتب شؤون الطلاب محملًا بالقلق.في طريقي، صادفت العميد المساعد، شمس الدين، الذي التقى بي بود وحفاوة. قال لي بأن هناك مؤتمر دولي للمحررين الشباب في كراتشي، بالتعاون مع اليونسكو ومؤسسة همدرد، وأعرب رئيس الجامعة عن رغبته في أن أمثل الجامعة هناك. استغليت الفرصة ووافقت على المشاركة، وأرسلت برقية إلى مؤسسة همدرد معربًا عن استعدادي للمشاركة. لكن المشكلة كانت أنني لم أكن أملك جواز سفر، وكان الحصول عليه في تلك الأيام مسألة ليست بالسهلة.

في تلك الأيام، كان مكتب الجوازات يتربع في شاستري بهوان، وعندما وصلت إليه وشاهدت الطابور الطويل المليء بالضجيج والفوضى، شعرت بقلبي يغوص في بحر من اليأس. ومع ذلك، لم يفتر نور الأمل في عيني. عندما دنا دوري، اكتشفت حقيقتين: أولاً، إصدار جواز السفر ليس مجرد مهمة يمكن إنجازها في يومين أو ثلاثة، وثانيًا، قائمة الوثائق المطلوبة كانت تمتد طويلة كنهر متعرج. وبعد مشقة وجهد، وصلت إلى رئيس الجوازاتعند الظهيرة. ولعله شعر بالشفقة على حالي

البائس ووجهي الملتمس. فتفحص الوثائق الخاصة بالمؤتمر، ثم علت نبرته القلقة وهو يقول: 'الوقت المتبقي لمؤتمرك قصير جدًا، وبدون الوثائق الكاملة، لا يمكننا إصدار جواز السفر لك.' لم أكن من الذين يستسلمون بسهولة، فشرحت له بحماس شديد عن رغبتي في السفر وأهمية المؤتمر. كان رجلًا ذا قلب واسع، فاستوعب ما أقول. قال: 'أعلم أنك إذا لم تحصل على جواز السفر، فإن رحلتك ستتعثر وستفقد فرصة ثمينة. هناك طريق واحدة، إذا تمكنت من الحصول على خطاب توصية من مسؤول حكومي أو عضو برلمان، قد نجد لك حلاً'.عندما ذُكر عضو البرلمان، توهجت في ذهني صورة لافتة إبراهيم سليمان سيث المكتوبة بالأردية، والتي أثارت اهتمامي بشدة. أخذت الملف من موظف الجوازات وتوجهت بخطى سريعة نحو منزل السيد سيث، الذي كان يقع على الجانب الآخر من الشارع. رنّ الجرس، وفتح السيد سيث الباب ليستفسر عن سبب زيارتي. دون تأخير، قام بكتابة التوقيعات اللازمة على الوثيقة ووضع عليها أختامًا متعددة. كتب أيضًا خطابًا منفصلًا موجهًا لموظف الجوازات، يتضمن عبارات تقدير وثناء عني. بعد حوالي نصف ساعة، عندما عدت إلى موظف الجوازات مع الخطاب، بدا متفاجئًا بشدة. تساءل: 'كيف تمكنت من إنجاز كل هذا بسرعة كبيرة؟' ثم أضاف: 'انتظر حتى الساعة الخامسة وسيكون جواز سفرك جاهزًا لك'.

كنت أتوقع أن يكون فريق المؤتمر في مطار كراتشي لاستقبالي، لكن عندما وصلت اكتشفت أن المؤتمر قد تأجل وأنه تم إرسال إخطار بذلك عبر البرقية إلى جامعة علي غراه. نظرًا لأنني غادرت علي غراه قبل عدة أيام في إطار استعداداتي، لم أتلق الإخطار في الوقت المناسب. الآن، ما العمل؟ فكرت في نفسي: حتى لو لم يعقد المؤتمر، فقد حصلت على تجربة السفر. الرحلة هي الجوهر الحقيقي، فهي وسيلة النجاح، كما يقول العلماء. في الواقع، يجب أن يكون السفر هو الهدف الرئيسي؛ فالوصول إلى الوجهة يمثل مجرد ركود. كما قال الشاعر:

'أنت في رحلة الشوق، فلا تقبل بالوجهة كنهاية'.

في كرمٍ لا يُضاهى، رتب مضيفونا برنامجاً حافلاً لمدة أربعة أو خمسة أيام، يُعنى بشغفي وميولي. تنوع البرنامج بزيارات لمؤسسات حكومية ونصف حكومية، وجولاتٍ في أحضان التاريخ، وحواراتٍ مُثريةٍ مع أهل العقل والفكر، ولقاءاتٍ جامعيةٍ مع طلاب وأساتذة في جامعة كراتشي. رئيس سلطة تطوير كراتشي، الذي اتضح أنه من خريجي علي غره، أعدّ لي لقاءً مع محيطه الاجتماعي، حيث كان كل فرد يتوق لمعرفة أدق التفاصيل عن علي غره. تدفقت أسئلة متلاحقة: هل ما زالت الأسواق في شمشاد تشهد تجمعات الطلاب كما كانت؟ هل ما زالت أنغام الغرامافون تُعزف بذات الطريقة؟ ما حال مقهى دي فوس اليوم؟ وغيرها من الأسئلة التي كانت تُظهر أن جيل الخريجين القدامى يبحث عن زمن علي غره المفقود. وما إن خفت حدة الحنين حتى انحرف الحوار نحو مواضيع أكثر جدية وعمقاً. أحد الحضور، ويُدعى نظامي على ما يبدو، طرح سؤالاً: "هل ستعود هوية الأقلية للجامعة بالفائدة، أم هي مجرد أحاديث نظرية؟" وقبل أن أتمكن من الرد، تدخل آخر قائلاً: "المسألة ليست في القانون، بل في النوايا. لو كانت النوايا سليمة، ما كانت باكستان لتوجد أصلاً." رديت قائلاً: "إعادة الهوية الأقلية للجامعة على الأقل قدمت بعض الدعم النفسي والعاطفي للمسلمين. من الناحية القانونية، فإن البرلمان منح الجامعة الحق في اتخاذ خطوات فعّالة لتعليم ورفاهية المسلمين في كل أنحاء الهند. بطريقة ما، اعترفت الحكومة بالدور التقليدي لعلي غره في الهند المسلمة".

"إنها حقًا تطور مهم"، هكذا خرجت الكلمات مترددة من بين شفتيه، محملة بنبرة تعكس الإدهاش والتقدير. "بلى، وفي هذا السياق، اتخذت الجامعة خطوة مبادرة، إذ أنشأت مؤسسة باسم 'مركز تعزيز التعليم والثقافة لمسلمي الهند'. ولكن، تكمن التحديات في إيجاد التمويل اللازم لمشروع بهذا الحجم. ولن يحدث تقدم عملي حقيقي إلا مع استتباب الأمن والاستقرار داخل جدران الجامعة. فمنذ صدور القانون التعديلي الجديد، غرقت الجامعة في دوامة صراع بين الكفر

والإسلام. يجب أن تخبو حدة هذا الصراع قبل البدء في أية خطوات جادة. كنت أجمع تلك التفاصيل في ذهني بعناية.

وأردف بنبرة تحكي عن زمن فات: "لا يزال النزاع بين الكفر والإسلام مستمرًا هناك. حتى في زماننا، كانت هذه المشاكل قائمة. في تلك الأيام، كان البروفيسور محمد حبيب، أستاذ التاريخ، يتولى قيادة الشيوعيين، فيما كان النائب رئيس جامعة يوسف حسين خان يحمل لواء الفكر التقليدي في علي غره. وكانت هناك ضجة عارمة حول بعض التعيينات المثيرة للجدل في قسم التاريخ، أيامٌ خلدت في ذاكرة الجامعة".

"أليس محمد مجيب من جامعة الجامعة هو أخهم؟" سأل أحدهم بنبرة تحمل ظلال الفضول.

"بلى، والآن يحمل ابن السيد حبيب لواء الماركسية في علي غره"، جاء الرد محملاً بنوع من التأمل العميق.

"مدهش! لم أكن أتوقع ذلك. يبدو أن عهد أبناء الأعيان قد بدأ. نفس الضجيج، نفس المعارك، الإسلام والكفر على حالهما، علي غره وعالمها المميز الذي يعيد نفسه." كانت هذه الكلمات تنطق بنبرة تحكي عن أزمنة وذكريات.

"في أيامنا، كان ياور جنك هو رئيس الجامعة. ولكن ما الذي خطر بباله عندما قرر تخفيض نسبة الطلاب الداخليين في كلية الطب من خمسة وسبعين في المئة إلى خمسين في المئة؟ حاول الكثيرون إقناعه بأن هذا سيؤثر سلبًا على نسبة الطلاب المسلمين، لكنه أبى الاستماع. ونتج عن ذلك ضجة كبيرة. في الحقيقة، كان وراءه عبد الكريم شاغلا، الذي كان حينها وزير التعليم المركزي، يدعمه من الخلف".

"كان تشاغلا من أعضاء رابطة المسلمين في الماضي، أليس كذلك؟" تساءل أحد الحضور بنبرة تمتزج فيها الدهشة بالتساؤل.

"بالفعل، لكن عندما كُشف عن جوهره العلماني الصريح، تجلى كخصم شديد الخطورة. أُرسل ياور جنك إلى علي غره بغية إزاحتها عن موروثها العريق،

تمامًا كما حدث في جامعة عثمانية. هل تعلم أن ياور جنك كان يشغل منصب نائب رئيس جامعة عثمانية أثناء العملية الأمنية في حيدرآباد؟ الآن، بتوجيه من تشاغلا، جاء ليُشرع في 'فتح' علي غره. أصدر تشاغلا مرسومًا أفقد محكمة الجامعة قوتها وسلطتها. وصل به الأمر حتى إلى الزعم بأن الجامعة مؤسسة حكومية لا تخضع للمادة ٣٠ من الدستور، المانحة للحماية للمؤسسات الأقليات. لكن الدكتور محمود، في توقيت مثالي، وقف داعمًا لعلي غره. كان خريج علي غره وعضوًا في الكونغرس، لكن عندما حانت ساعة الخطر، رجح كفة ولاءه للجامعة على الحزب، ونجح في توحيد الفصائل المسلمة المختلفة تحت راية مجلس المسلمين للتشاور. يا نظامي، تأمل كيف أن سيد محمود، العضو البارز في الكونغرس، وجد نفسه مضطرًا في شيخوخته لدعوة الاحتجاج السلمي لحماية علي غره. بدا وكأن المسلمين في الهند المستقلة يُعيدون خوض غمار معركتهم من أجل الحرية."

عندما اختتم المجلس أطواره، تقدمت قافلة من كبار خريجي العليغار نحو سيارتي ليودعوني. أحدهم، مُغمر بمشاعر محبة وحنين، أمسك بيدي بقوة. بدأ يتحدث بصوت يشوبه نبرة عاطفية مختنقة: 'علي غره هي شمعة أملنا الأخيرة، جوهرتنا الثمينة. أرجوك، احرص على حمايتها، ففي غيابها نجد أنفسنا ضائعين، بلا ملجأ أو مأوى.' وبينما كان ينطق هذه الكلمات، برزت دموع الحنين في عينيه. تلوح الأيدي مودعة في الهواء، وتبدأ رحلة السيارة، مخترقة طريقها نحو المستقبل.

٣٣

من ت إلى تفنگ

كانت لاهور محطتنا التالية، حيث كانت العودة إلى دلهي مخططة بعد أيام قليلة. لكن ما شهدته في لاهور أيقظ في نفسي شوقًا متجددًا للرؤية. عندما وصلت إلى منصورة للقاء العلامة نعيم صديقي، اصطدمت بمشهد لم أتوقعه: شبان يحملون الكلاشنكوف، متوزعون هنا وهناك، يتبادلون الحديث في حيوية. في بيت الضيافة، المسجد، الحدائق، والمكاتب الإدارية، كان حضورهم يعلن بصمت عن دخول الحركة الإسلامية عهدًا جديدًا من المواجهات المسلحة. تبين لي أن قافلة من المجاهدين الأفغان قد وصلت من بيشاور. هؤلاء الشبان، الحاملين للسلاح، كانوا جزءًا من الحرس الأمني. معرفتي بجهاد أفغانستان كانت محدودة بما قرأته في الصحف والمجلات. والآن، أمام هذه البنادق في أيدي شبان مفعمين بحماس الجهاد، بدا كأن الأحلام الجهادية قد حلقت على أجنحة الرومانسية. بدأت تتبلور في ذهني صورة دولة إسلامية حرة في شبه القارة الهندية، وتملكني الحنين إلى ما فقدت. راودتني الفكرة أنني أعيش في عالم موازٍ، حيث الجهاد المسلح من أجل الهيمنة الإسلامية العالمية قد بدأ بالفعل، وأنا خارج دائرة هذا النضال.

كانت المحادثات مع قادة الجهاد تتواصل، سواء على مائدة الطعام في بيت الضيافة أو في باحة المسجد الصامتة. في إحدى الليالي، بعد صلاة العشاء، وأنا أتجه إلى غرفتي، جذب انتباهي جاري رمضان مرادوف الذي كان يدخل غرفته، مرهقًا من يوم طويل مشابه ليومي. سبق والتقيت بمرادوف مرات عدة، لكن لم يسنح لنا الوقت لتبادل الحديث بتفصيل. هذه المرة، هو من بادر بالمقترح. 'لم لا نشرب الشاي معًا إذا لم تكن متعبًا؟' ومع تدفق الكلمات، اكتشفت أن مرادوف

من أبناء الشيشان ويعمل صحفيًا، يقيم في إسلام آباد وتستهويه قضية جهاد أفغانستان. عندما رأيت في يده نسخة من مجلة الجهاد باللغة العربية، سألته: 'ما تقييمك؟ هل بدأ الجيش الأحمر حقًا يفقد العزيمة؟' أجاب بنبرة تحمل وقع اليقين: 'لا شك في أن الاتحاد السوفيتي يعيد النظر في موقفه من الحرب في أفغانستان. لم يعد الروس يرغبون في إطالة أمد القتال. هذا يُعتبر انتصارًا للمجاهدين، لكن السؤال الأكبر يظل معلقًا: ماذا بعد الحرب؟ الصراع الحقيقي ليس في الحرب ذاتها، بل في التحدي الذي يلوح في أفق ما بعد النصر، والذي لا نملك له أي استعداد.'

'وما بعد الحرب؟ ما الذي تقصده؟ إنها ستكون البداية لدولة إسلامية حرة، حيث ينسج المجاهدون نسيج الحياة الجماعية على أساس الشورى.' كان في صوتي نبرة مفعمة بالأمل.

لكنه قال بنبرة تحمل أثقال الواقع: 'في كلماتك نقاء وبراءة. أتمنى لو كانت الحياة بهذه البساطة'.

أضفت: 'كثير من الناس يتوقعون حربًا أهلية في أفغانستان المستقبلية بسبب النزاعات بين المجاهدين. هذه نظرة تشاؤمية ينبغي تجاوزها'.

لكنه أردف بصوت يعكس ألمًا أعمق: 'لا أتحدث عن هذا الخطر بل عن جرح آخر. ناضلنا لتقديم جهاد أفغانستان كنموذج للجهاد الإسلامي الخالص. أعلناه فرضًا على كل مسلم. أصبح الشبان المتعطشون للشهادة من أنحاء العالم يتوافدون على أفغانستان، معتبرين إياها المدينة المنورة الجديدة. فماذا سيحدث عندما ينسحب الدعم الأمريكي بعد انتهاء الجهاد؟ ما مصير هذه النظرية المبنية على الأخوة الإسلامية؟ وإلى أين سيتجه الذين رأوا في هذا الجهاد واجبًا دينيًا؟'

'ما الذي يجعلك قلقًا بشأن المستقبل؟ ربما تصبح أفغانستان الحرة بداية عهد جديد على الصعيد الدولي.' كان في صوتي لمحة من التفاؤل.

لكنه رد بنبرة تحمل ثقل الواقعية: 'أرى في كلماتك براءة الأمنيات ولهفة الحماس، لكن ينقصها لمسة الواقع. دعني أوضح لك.' وهو يقلب صفحات مجلة

الجهاد، أشار إلى عمود بعنوان 'عشاق الحور'، وقال: 'هذه قصة مجاهد توحي بأن السماء تغدق على المجاهدين في هذه الحرب بركاتها الخاصة. من أجساد الشهداء تنبعث روائح الكستوري والمسك والعنبر، تنذر من بعيد بوجود جثمان شهيد. عندما تحلق الطائرات للقصف، تتجمع أسراب الطيور كغيمة تحجب الرؤية عن الطيارين. أحيانًا، تمنع هذه الطيور القنابل من الانفجار بقواها الغامضة. وقد شهد الناس بأم أعينهم فرشتين تهبط من السماء لتقاتل إلى جانب المجاهدين على ظهور الخيول في مواجهة الأعداء'.

كان لهذا الرجل كتابه الخاص، وهو أيضًا محرر هذه المجلة. ربما تكون معتادًا على اسمه، اسمه عبد الله عزام. أنصحك بقراءة الكتاب الذي ألفه حول المعجزات والكرامات التي شهدها الجهاد. هي قصص جمعها من شهادات متعددة ودوّنها في كتابه. يحكي عن شهيد يُدعى، حسبما أذكر، ابن جنت. بعد أيام من دفنه، أُخرجت جثته لنقلها إلى المقبرة العائلية. يُقال إن والده خاطب جثمان ابنه: 'يا بني، إن كنت استشهدت حقًا في سبيل الله، فأرني علامة تثبت قبول شهادتك.' وفي تلك اللحظة، تحركت جثة الشهيد، سلم على والده، مد يده للمصافحة، وظل يمسك بيد والده لمدة خمس عشرة دقيقة. يؤكد الراوي أنه شاهد هذا بنفسه. بمثل هذه الروايات، اشتعلت نار جهاد أفغانستان، لكننا لم ندرك كيف أننا بذلك زعزعنا أسس مفهومنا عن الشهادة.

'مفاجأة! لم أكن على دراية بهذا. حتى العلماء الثقات في زخم الجهاد كتبوا مثل هذه القصص. عبد الله عزام، في تصوري، ينتمي لمعسكر الجهاديين السلفيين الإخوانيين. في تقاليدهم، لا يفترض أن تكون هذه الكرامات محور الاهتمام،' عبرت عن دهشتي.

رد بنبرة تحمل وزن التجارب: 'إنه مجرد مثال. فمن كتاباته وخطبه، يبدو أن القضية الأفغانية هي الشغل الشاغل حتى في السماء العليا، وأن الله مصمم على منح المجاهدين النصر. يروي بناءً على شهادات متعددة أن رصاص البنادق أصاب المجاهدين لكنه بقي بلا أثر، والدبابات دهستهم دون أن تمس شعرة منهم. أُلقيت

مئات القنابل النابالم على صفوفهم دون أن تنفجر واحدة. عن شهيد كتب أنه حتى بعد موته لم يرخ قبضته عن كلاشنكوفه. لم يتمكن الناس من فك قبضته حتى أخبره والده أن السلاح ليس ملكه بل للمجاهدين، فأرخى قبضته. رُؤي خط ضوء متألق في السماء بعيدًا عن جثة أحد الشهداء. والعديد من الحوادث التي تُظهر أن الجهاد الأفغاني هو مشروع سماوي يحظى بنصرة الله وتأييده. لكن عندما لا تظهر النتائج المتوقعة في عالم الحقائق، لن ينهار فقط إيمان الناس بالجهاد ومنهجه، بل ستتزعزع ثقتهم بالله نفسه'.

'لكن هذا يظل موقفًا شخصيًا، كيف يمكن أن يُعمم على كامل الجهاد؟'حاولت بما أملك من جهد أن أحرر جهاد أفغانستان من الحصار الفكري لعبد الله عزام.

قال بصوت يحمل وقع التاريخ: 'عزام ليس مجرد شخص، ولا اسمًا لجمعية أو مدرسة فكرية. في سياق جهاد أفغانستان، يعتبر بمثابة أب الجهاد. يُنظر إليه نظريًا كقائد لجميع المجاهدين، وهو في الحقيقة يشغل دورًا رئيسيًا في تحويل الجهاد الأفغاني إلى مشروع إسلامي عالمي.' ومع هذه الكلمات، أمسك بكتاب من على مكتبه وناولني إياه: 'هذا هو الكتاب الذي يُعد المرجع النظري الرئيسي لهذا الجهاد'.

ألقيت نظرة على غلاف الكتاب، فتبين أنه ترجمة لعمل عربي. كان عنوان الكتاب الأصلي مكتوبًا بعناية: الدفاع عن أراضي المسلمين أهم فروض الأعيان. هذا الكتاب، الممتد عبر ١٣٣ صفحة، يشتمل على فتوى في ٧٩ صفحة تؤكد بلغة حاسمة أن الجميع من الفقهاء، من السلف حتى الخلف، متفقون على أنه عندما يستولي العدو على شبر واحد من أراضي دار الإسلام، يصير الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة. في مثل هذه الأوقات، لا يحتاج الابن إلى إذن والده، ولا الزوجة إلى إذن زوجها. كانت فتوى عزام هذه تحمل بصمات الدعم والتأييد من كبار العلماء في ذلك الزمان. من بينهم شيخ ابن باز وشيخ العثيمين من السعودية، شيخ المنيع من مصر، شيخ عمر سيف من اليمن، وعشرات العلماء الآخرين.

سبق وأن سمعت اسم عبد الله عزام مرارًا وتكرارًا، لكن لم أكن على وعي بأهميته الكبيرة في الفكر النظري للجهاد. تساءلت: 'عندما يجمع كبار العلماء في عصرنا على أن هذا الجهاد فرض عين، ألا يبدو لك أننا نسير في مخطط إلهي؟ يُعد أفغانستان الطريق لنهضة إسلامية جديدة في المستقبل. ربما يسعى الله لإحداث تغيير جذري عبرنا'.

أجاب بصوت يحمل ثقل الواقع: 'أتمنى لو كان كلامك صحيحًا. ولكن، هذه الوحدة في صفوفنا، وقصص المعجزات والكرامات الآتية من أرض الجهاد، وفوق كل ذلك، تنظيم مهمة الجهاد على المستوى العالمي، كل هذا يبدو أن خلفه دعمًا أمريكيًا أكثر من كونه بركة إلهية'.

'أليس من الممكن أن تكون هذه الحاجة الأمريكية جزءًا من مخطط إلهي؟' تساءلت، محاولاً إيجاد بصيص من الأمل في هذا الواقع المعقد.

ابتسم مرادوف بلطف وأجاب: 'بلا شك، هذه علاقة شراكة استراتيجية. إذا اعتبرنا هذا فحسب، فلا مانع. لقد ساعدتنا أمريكا للقضاء على عدوها، ونحن نستفيد من هذه الظروف. لكن المعضلة تكمن حين نبدأ في رؤية الحرب كحلقة مقدسة. قد تؤدي قصص المعجزات والكرامات إلى زيادة الحماس مؤقتًا، لكنها في النهاية تضعف جذور فكرنا الديني. اليوم، حوّلنا الجهاد من فرض كفاية إلى فرض عين. أعلنا أفغانستان وفلسطين أراضي للجهاد. وبسبب الدعم الدولي الكبير في أفغانستان، أولينا الأولوية لجهادها على فلسطين. لكن عندما تنتهي الحرب وتتخلى أمريكا عنا، ستصبح مهمة الإبقاء على الجهاد كفرض عين أمرًا صعبًا. استراتيجيات الحرب تتغير دائمًا. اليوم معنا أمريكا، وربما غدًا يقف معنا آخرون لمصالحهم، لكن لا يمكن تغيير الموقف النظري بين عشية وضحاها. ما هو فرض عين اليوم لا يمكن أن يتحول إلى فرض كفاية بمجرد اختفاء الدعم الأمريكي. إن لم نستوعب هذه الحقائق، فعندما ينتهي الجهاد وتتوقف حرية الدعوة له حول العالم، وعندما لا يُسمح لنا بإلقاء الخطب في المدن الأمريكية والأوروبية دعمًا

لجهاد أفغانستان، سندرك حينها كيف ألقى غياب الدعم الأمريكي بظلال اليأس والحرمان على الحركة الإسلامية في العالم'.

لقد أسدل الليل ستاره. طلبت الإذن للانصراف من الأستاذ رمضان مُرادوف. كنت أعتقد أن مرادوف يعيش في دوامة من الوساوس. الأشخاص الذين أجبروا الجيش الأحمر على التراجع بمجرد شجاعتهم الشهادية، سيجدون بلا شك حلاً حتى في غياب الدعم الأمريكي. لكن، لم أستطع فهم كيف أن الولايات المتحدة، التي تقف ضد الحركة الإسلامية في إيران وتُعتبر 'الشيطان الأكبر' لدى الملالي الإيرانيين، تحولت إلى داعمة وناصرة للجهاد الإسلامي في أفغانستان؟ هل كانت كلمات مرادوف تحمل جزءًا من الحقيقة؟ هل من الممكن أن نكون أدوات لحماية المصالح الأمريكية في المنطقة وتعزيز هيمنتها العالمية؟ تبادر إلى ذهني المثل 'الرؤية أبلغ من السماع'، فلماذا لا أشهد الحقائق بنفسي؟ سمعت أن هناك مخيمات للاجئين الأفغان تمتد على مسافات طويلة بالقرب من درة خيبر في بيشاور، حيث يوجد معسكرات تدريب للمجاهدين ومكاتبهم. وفي المدينة أيضًا مكاتب وبيوت ضيافة مفتوحة لاستقبال المجاهدين الأجانب. فلماذا لا أتوجه إلى بيشاور؟ ولكن، كانت المعضلة أنني مقرر السفر في رحلة بحثية وعلمية إلى بالاكوت صباح اليوم التالي، ترتيباتها كانت بفضل جهود الأستاذ نعيم صديقي.

ذات يوم، قدمت إلى العلامة نعيم صديقي خطابين من مولانا مودودي. في أحدهما موجهًا إلى عمي أكبر، كتب مولانا مودودي أنهم يسعون منذ ستة وعشرين عامًا لتحويل باكستان إلى دار الإسلام، ويبدو أن الحلم على وشك أن يتحقق. دعاه لزيارته ليستقبله بكل التكريم في دار الإسلام. بعد قراءة الخطاب، تحدث العلامة نعيم صديقي قائلاً: 'نعم، مر مولانا بفترة من الأمل والتفاؤل. ثم تطرق الحديث إلى تاريخ الحركة الإسلامية في شبه القارة، وذُكر شهداء بالاكوت. ربما لاحظ حماسي، فأخذ قطعة من الورق وكتب عليها:

‘أخي عبد الهادي صاحب! لقد جاء ضيفنا العزيز راشد شاز من الهند، ويرغب في زيارة بالاكوت. الرجاء تقديم الإرشادات اللازمة له حول الطريق والطقس.’

كانت هذه الرقعة بمثابة تذكرة لترتيبات سفري إلى بالاكوت. عند وصولي هناك، اكتشفت أن خبر قدومي كان قد أثار ضجة. كان البرد قارسًا، وكأن الرياح الجليدية تخترق الأجساد. وصلنا إلى المسجد الجامع قبل المغرب بقليل، حيث يتدفق نهر بجواره، وعلى ضفافه يتوضأ الناس من ينبوع ماء دافئ. في صلاة المغرب، أُعلن عن وجودي كشاب باحث ومسافر في درب العزم. كان الخطاب أمام الجمع الكبير تحديًا مفاجئًا، لكن بفضل الله أنجزت المهمة بنجاح. في اليوم التالي، أثناء زيارتي للآثار والمعالم، وصلت إلى قبور سيد أحمد شهيد وإسماعيل شهيد، ورأيت الأعلام الملونة وخيوط المنت على قبورهم البسيطة والمهجورة. تذكرت مولوي كفر توڑ، الذي كان من المقربين لسيد صاحب وعاش لفترة طويلة بعد ذلك. يُقال إنه كان متحمسًا للغاية لإزالة الشرك والبدع، إلى درجة أنه كان يهاجم بعصاه الحديدية أي مكان يجد فيه أمام باژه، أو موقعًا لوضع التعزيات، أو قبرًا وشجرة تعلق عليها خيوط المنت وأعلام الدعاء، ولا يهدأ حتى يدمرها. لشدة حماسته للقضاء على الشرك والبدع، أطلق عليه لقب 'مولوي كفر توڑ.'

على الرغم من كل الإخلاص، ظلت حركة المجاهدين غارقة في النزاعات الداخلية ومشغولة بأهداف غير واقعية. عندما شاركت انطباعاتي النقدية عن هذه الرحلة مع الشيخ أبو الحسن علي الندوي، استقبل تعليقاتي بابتسامة مفعمة بالحنان وقال بنبرة تأديبية: 'لا يكفي أن تكون موسوعة في الحركات الإسلامية فحسب، بل يجب عليك أيضًا الاستعداد للعمل الميداني.' في تلك الفترة، قدمت تحليلي لأسباب فشل حركة المجاهدين بالطريقة التالية:

...أحد الأسباب الواضحة، والتي كان ينبغي أن يدركها نشطاء الحركة، تتعلق بالخطأ في تحديد العدو الحقيقي لإقامة الغلبة الإسلامية. تشير الكتابات المتكررة في مؤلفات شاه ولي الله وحتى في أعمال الشاه إسماعيل إلى أن

> الإنجليز كانوا العائق الرئيسي في إقامة النظام الإسلامي، حيث كانوا يتوسعون بسرعة في الهند. في عهد سيد أحمد، كان دلهي قد خضع لسيطرة الإنجليز، وكان الانحدار السياسي للمسلمين واضحًا للجميع... كان سيد أحمد على وعي بأن المعركة الحاسمة ستكون ضد الإنجليز، ولذلك سعى إلى الحدود بحثًا عن مدينة الإسلام. ولكن من هذا المنظور، كانت استعداداته لمواجهة هذه القوة العظيمة محدودة. لم يُبذل الكثير من الجهد لفهم هذه الحضارة التي تتقدم كالطوفان، وأسسها، وكيفية توجيه الضربة لجذورها... ليس من سنة أهل الله أن يكون العدو مجهزًا بأحدث الأسلحة، الصواريخ والطائرات المقاتلة والقنابل الخطيرة، بينما نحن نخرج لمواجهته مدفوعين بحماس الإيمان وعصي الناموسية فقط.
>
> (مقتبس من "غلبة الإسلام"، صفحات ٣١، ٣٢، علي غره، ١٩٨٧)

في تلك الأيام، كانت كل لحظة تنبض بإحساس أن فجرًا جديدًا على وشك البزوغ في عالم الإسلام. في إيران، تجرعت الشيطان الأكبر، الولايات المتحدة الأمريكية، مرارة الهزيمة. وفي أفغانستان، دفع المجاهدون الجيش الأحمر إلى الانكسار. خلال تلك الفترة، ألفت كتابًا موسعًا يقع في ثلاثمائة صفحة بعنوان 'دستور العمل للثورة الإسلامية'، حيث روجت لاستخدام جميع الوسائل المتاحة، من الأساليب الديمقراطية إلى الانقلابات العسكرية. قام بنشر هذا الكتاب محمد صلاح الدين، مدير 'تكبير الدولية' في كراتشي. ولكن للأسف، أفسدت الهجمات وأعمال الحرق التي استهدفت مكتبه هذا المشروع، وبعد سنوات قليلة، وجد نفسه يتناول كأس الشهادة.

محملاً في قلبي وذهني تصورًا رومانسيًا لبزوغ فجر الثورة، وصلت إلى بيشاور، التي كانت قد تحولت إلى مركز الجهاد العالمي. تناولت الغداء في أحد معسكرات المجاهدين بضواحي المدينة. في كل مكان، كانت هناك نقاط تفتيش يحرسها شباب. أُقيمت صلاة العصر في الطابق السفلي لمبنى مؤقت. كان المبنى إما قيد الإنشاء أو جزءًا من عادة بناء هذه الأنواع من المباني المؤقتة وغير المكتملة

للمعسكر. كان البرد في الطابق السفلي قارسًا. عندما وضع المجاهدون المسلحون أسلحتهم على الأرض أمامهم لأداء الصلاة، بدا الأمر كأنه:

'لا في المسجد ولا في ظلال جدران الكعبة،

تُؤدى صلاة الحب تحت ظلال السيوف'.

في تلك الأيام، كانت أغنية يوسف إسلام 'أفغانستان هي الإسلام' تنتشر بشعبية كبيرة. لقد تحول حديثًا من كات ستيفنز إلى يوسف إسلام. كان اعتناق شخصية غربية بارزة مثله للإسلام حدثًا بارزًا بذاته، والآن، عندما جسد الإسلام في أفغانستان، بدا وكأنه أي تفسير آخر للإسلام بدون جهاد أفغانستان يخلو من المعنى. كان هناك نوع من الضجيج والحماسة حول جهاد أفغانستان، من الشرق إلى الغرب، وهو ضجيج مفعم بالرومانسية يترك القليل من المجال للتحليل العقلاني والنقدي.

خلال زيارتي للمخيمات، سحرتني أنظار الأطفال البريئين الذين تقطعت بهم السبل مع أسرهم المنكوبة، وهم الآن يتلقون تعليمهم في مدارس اللاجئين. لم يكن هناك طفل لم تلمس عائلته نيران الحرب. معظم الأطفال كانوا يتامى والنساء أرامل. كان تغير العالم من حولهم واضحًا في الطريقة الجديدة التي تعلموا بها الحروف، حيث ألف تعني الله، وب تعني بابا الذي يذهب إلى المسجد، وت للتفنگ أي البندقية التي اشتراها جواد للمجاهدين، وج للجهاد الذي هو فرض، ود لديننا الإسلام. حتى في كتب الرياضيات، استخدمت صور الأسلحة لتعليم الجمع والطرح. كان على الطلاب حل مسألة: إذا قتل خمسة من عشرة كفار روس، فكم يتبقى؟ في ذلك الوقت، لم ينتبه أحد للآثار النفسية لهذه الطرق التعليمية، فقد كنا منغمسين في حماس الجهاد. ولكن لاحقًا، اكتشفنا أن هذه الكتب قد تم تجميعها وإرسالها من الولايات المتحدة الأمريكية.

كشفت الأيام عن حقيقة مذهلة تتعلق بالسيناتور الأمريكي تشارلي ويلسون، الذي كان يسعى للانتقام من الهزيمة الأمريكية في فيتنام من خلال الحرب في أفغانستان. عندما سقط خمسة وعشرون ألف جندي روسي، أعلن ويلسون أن

ثمانية وخمسين ألف جندي أمريكي قتلوا في حرب فيتنام، وأنه لا يزال يتعين على روسيا دفع ثمن ثلاثة وثلاثين ألفًا آخرين. كان يريد 'مواجهة الروس حتى آخر أفغاني'. لحسن الحظ، انسحبت روسيا بعد أن أودت بحياة مليوني أفغاني، وإلا لكانت الولايات المتحدة تمنت استمرار الجهاد حتى آخر مسلم أفغاني.

أثناء تجولي في المخيمات، جذبت انتباهي ملامح الخوف واليأس على وجوه الأطفال الأيتام الأبرياء، مما كشف لي للمرة الأولى عن عالم الألم والمعاناة المختبئ خلف أناشيد الجهاد. تلك المستوطنات التي تملؤها الحرمان، التي كانت تُدمي القلب بمجرد النظر إليها، جعلتني أتساءل عن حالة الجانب الآخر من الحدود، حيث كانت القنابل لا تزال تتساقط. تحولت القرى بأكملها إلى مقابر، والمدن إلى أنقاض، وأُجبرت عدة عائلات ثرية على الفرار لتصبح لاجئة وتائهة. لقد مات بالفعل مليون شخص في الحرب، ولكن من يدري عدد الذين أصبحوا معاقين بشكل دائم، أو النساء اللواتي تُركن أرامل، أو الأطفال الذين تُركوا يتامى. يمكن القول إن بلدًا بأكمله قد دمر، ومع ذلك، كنا لا نزال نعلم أطفالنا 'ت' من تفنگ (البندقية) و'ج' من جهاد (الجهاد) وفقًا للمناهج الأمريكية.

في صباح اليوم التالي، كان موعدي مع أمير حزب الإسلامي، جولبدين حكمتيار. قبل الفجر بقليل، أيقظني مضيفنا. ولم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى مجمع واسع في ضواحي المدينة، حيث لم يكن هناك سوى بعض الشبان المسلحين ببنادق كلاشينكوف. جلست في غرفة الزوار، حيث كانت الصحف والمجلات العالمية متناثرة على الطاولة بشكل عشوائي. جذبت انتباهي مجلة ناشونال جيوغرافيك التي على غلافها صورة الطفلة اللاجئة الأفغانية شربت غوله، والتي كانت عيناها الزرقاء تعكس الخوف العميق. أصبحت هذه الصورة فيما بعد رمزًا للعجز والمعاناة التي يعيشها اللاجئون الأفغان. كنت لا أزال أتصفح صفحات المجلة عندما انتشرت حركة في المجمع الهادئ والمهجور. دخلت ثلاث سيارات ذهبية ضخمة المجمع، وتبعها خروج شباب مسلحين منها ليتخذوا مواقعهم. ثم شكل بعض الشبان ممرًا من السيارات إلى غرفة الزوار. خلال ذلك،

خرج حكمتيار من السيارة الخلفية. كانت عمامته الخضراء مزينة بخطوط ذهبية جميلة جدًا في ذلك اليوم. استقبلني بحرارة شديدة، وبدأ يشرح دور حزب الإسلامي الأساسي في الجهاد الأفغاني كجهاد إسلامي خالص. كان متفائلًا جدًا بشأن المستقبل. نفى مخاوفي بشأن الصراعات الداخلية بين الفصائل الأفغانية. ربما لم يكن يعتبر مناقشة هذه الموضوعات الحساسة في هذه المرحلة الحاسمة من الحرب مناسبة. خلال هذه المحادثة التي استمرت حوالي ساعة، وجدت في حكمتيار شخصًا حكيمًا وكريمًا. كان واعيًا بأن القوى الأمريكية والغربية تدعم الجهاد، لكنه كان أيضًا على علم بأن الأجندة الأمريكية تختلف عن أجندته الإسلامية الأفغانية الخاصة.

كانت أيام ناصر باغ، حيث عاشت الفتاة ذات العيون الزرقاء، تحمل وقعًا خاصًا في تلك الأيام. فقد كان الزعماء من جميع أنحاء العالم، سواء من الشرق أو الغرب، يرون في زيارتهم لهذا المخيم مصدر فخر وسعادة. كانت تأتي مارغريت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا، لتؤكد للأفغان أن 'قلوب العالم الحر معكم'، وتتردد صدى هتافات 'الله أكبر' في الأجواء. وعندما يزور الرئيس الأمريكي رونالد ريغان، ووزير الخارجية جورج شولتز، ووزير الدفاع كاسبر واينبرغر، كانت تتأجج مشاعرنا الجهادية. وكانت كلمات نائب الرئيس بوش تملأنا بالاعتزاز. في هذا المخيم، كان يأتي أحيانًا رئيس الوزراء الياباني، وأحيانًا أخرى رئيس الوزراء التركي تورغوت أوزال، وملك السعودية خالد لتحفيز المجاهدين. كانت تلك الأيام عظيمة، حيث كان كارتر، وريغان، وتاتشر، وبوش هم القادة الأوائل في جهادنا. وكان أئمتنا يلتمسون بحرقة في خطب الجمعة دعاء الله 'لتدمير ديارهم وتفريق صفوفهم'، مشيرين إلى 'الروس والصين وغيرهم من الكافرين'. من كان يتوقع أن هؤلاء القادة الغربيين، الذين يعتبرون التقاط الصور مع المجاهدين شرفًا اليوم، سينسحبون من دعمنا بطريقة تحول جهادنا إلى إرهاب، وشغفنا بالشهادة إلى جريمة لا تغتفر في المستقبل؟

٣٤

شوربة بيغوا

لقد مرّت عقد من الزمان على رحلتي إلى بيشاور. كانت الحرب في البوسنة قد ولّت، وحلت اتفاقية دايتون لتعيد الأمور إلى نصابها. في زغرب، حيث أقمت في المركز الإسلامي بعد مؤتمر السلام، التقيت بعبد الرحمن، المجاهد العربي السابق. رجلٌ بعينين تشعان بالحكمة، وجبهة رحبة، وشعرٍ أسود مجعد، يحمل في ملامحه عبء الثلاثينات. بجانب المركز، سوق صغيرة تعج بالنساء البوسنيات يبعن الطعام. لفتت انتباهي قطع اللحم المجفف الكبيرة. ربما كانت جزءاً من شوربة بيغوا التي تناولتها مساءً، أو ربما مكوناً أساسياً في الكفتة المحلية. شابٌ عربيٌ تقدم لمساعدتي وأخبرني أنها لحوم مدخنة تُعدّ لتدوم طويلاً. عند الحديث عن المهاجرين البوسنيين، علمت أنهم على وشك العودة إلى سراييفو. في البداية، ظننت عبد الرحمن بوسنياً لبشرته الفاتحة، لكن لهجته الإنجليزية كشفت عربيته. كان سورياً من أصل سعودي، غادر بيته قبل نحو اثني عشر عاماً للمشاركة في جهاد أفغانستان، جهادٌ غيّر مسار حياته بالكامل، فقد انقطعت به السبل عن العودة إلى وطنه واستئناف حياة عادية.

عندما سألته: 'هل اسمك عبد الرحمن الدوسري؟'، ظهرت ابتسامة واضحة على وجهه وهو يرد: 'كيف تعرف الدوسري؟'

أخبرته بأنني سمعت عنه في وسائل الإعلام.

هز رأسه موافقًا وقال: 'نعم، إنه من أصدقائي. كنا معًا في أفغانستان، ثم انتقلنا إلى هنا عندما تغيرت الأوضاع'.

سألته عن خططه المستقبلية.

قال بنبرة جادة: 'الآن، نحن نصارع من أجل البقاء. البوسنة أصبحت ضيقة علينا. لا شك أنك سمعت باتفاقية دايتون. واحد من شروط وقف إطلاق النار هو إخراج المجاهدين الأجانب من البوسنة'.

تساءلت: 'فكيف لا يزال بعضكم هنا؟'

أوضح قائلًا: 'هناك عدد قليل من الرجال الذين تزوجوا من نساء المحليات، لذا لم تلاحظهم وكالات الاستخبارات الغربية ولم تعرفهم وسائل الإعلام. هم وحدهم من بقي هنا. بعضهم صُوِّر في وسائل الإعلام الغربية كإرهابيين خطيرين. يكافح هؤلاء الفقراء الآن معركة قانونية من أجل البقاء. من بينهم صديقنا الدوسري، المعروف الآن باسم أبو عبد العزيز. وهناك آخر يُدعى أبو حمزة من سوريا، اختلطت هويته بأبو حمزة المصري في وسائل الإعلام، فتحول إلى شخصية مثيرة للجدل. لا نعلم ما الذي ينتظرنا في المستقبل'.

في تلك اللحظة من حديثنا، لمحت تغييرًا في نظرات عبد الرحمن، التي كانت تتلألأ بابتسامة متفائلة. ظللت الجدية عينيه عندما علم أنني زرت المركز الإسلامي في زغرب قبل عامين ونصف، خلال تلك الأيام حيث كان المكان يعج بالمسلمين البوسنيين المشردين، وكانت أصداء آهات الأطفال الأيتام والنساء الأرامل تملأ الأجواء. سماع هذا أحيا في عبد الرحمن ذكريات عميقة، تلك التي بدا أنها تغمره بموجة من المشاعر.

قال بنبرة محملة بالحنين: 'أيام الجهاد تلك كانت مليئة بالشغف والتوق للشهادة. كنا نرتدي الزي الأسود ونثير الرعب في قلوب الصرب والكروات. تخيل، ستون ألف جندي أمريكي متمركزون على متن سفنهم قبالة السواحل البوسنية، لكنهم لم يتجرأوا على مواجهتنا. كنا نقاتل من أجل الموت، نسعى للشهادة بكل شغف، بينما كان الأعداء يقاتلون من أجل الحياة. في تلك الأيام، مجرد رؤية مجاهد عربي واحد بالزي الأسود كانت كافية لإرباك العدو'.

في ذلك اليوم، وقفت أمام عبد الرحمن، رجلًا عربيًا بالزي الأسود، وسألته بفضول: 'لماذا اخترتم الزي الأسود؟ هل كان لديكم تدريب خاص كالكوماندوز؟'

نظر إليّ بعينين تشعان ببريق الذكريات وقال: 'لم يكن الأمر كذلك. كنا نرتدي الأسود منذ البداية، فقد عدنا من جبهات أفغانستان حيث ألحقنا الهزيمة بالجيش السوفيتي. كنا نفيض بالثقة والعزم'.

تساءلت بحذر: 'كم من المجاهدين العرب استُشهدوا في البوسنة؟'

أجاب بصوت يحمل نبرة الفخر: 'لم يتجاوز عدد شهدائنا بضع مئات. كان ذكرنا وحده يزرع الرعب في قلوب الأعداء'.

وأضفت، محاولًا استكشاف أعماق تجربته: 'والآن، بعد نهاية الحرب، كيف تشعر؟ ما الذي خسرته وما الذي كسبته من هذا كله؟'

عندما توجهت بسؤالي إلى عبد الرحمن حول ما خسره وما كسبه من تجربته الجهادية، توقف للحظة، مغلقًا عينيه ومغطيًا وجهه بيديه كمن يبحث عن إجابة في أعماقه. ثم قال بنبرة محملة بالتأمل: "هذا السؤال شغلني طوال الأشهر الماضية. ليست مجرد قضية شخصية، بل هي مسألة تستدعي التفكير العميق للحركة الإسلامية ككل. في بعض الأحيان، عندما أفكر، أشعر بالدهشة من كيفية تحولي، من طالب في جامعة الملك سعود إلى شخص يجد نفسه في مرحلة لم يعد فيها العالم الإسلامي بحاجة إلى جهاده، وحيث تنظر الحركات الإسلامية البارزة إليه على أنه عنصر زائد ومعطل. لقد أصبح العالم، من أفغانستان إلى البوسنة، ضيقًا علينا." تسلل الحزن إلى نبرة صوت عبد الرحمن، وتساءلت في نفسي: هل يمكن أن يكون عبد الرحمن بمثابة جوهرة للحركة الإسلامية، مرورًا بتجربة لا تقدر بثمن؟ ربما من خلال التعمق في تفاصيل حياته، يمكننا أن نكشف عن الطرق المفقودة للحركة الإسلامية الحديثة، ونجلي الطريق لمستقبل أكثر وضوحًا.

عبد الرحمن روى قصته بصوت يملؤه الحنين والتأمل. قال: "كان ذلك في العام ١٩٨٣. الامتحانات قد انقضت، وكنت أقضي عطلتي الصيفية في جدة. كانت أصداء الجهاد الأفغاني تملأ الأجواء، وشبانٌ مفعمون بالحماسة كانوا قد زاروا بيشاور، ذلك المحور الجديد للجهاد. تحدثوا عن مدينة تعج بالمجاهدين من كل

حدب وصوب، ومكاتب الخدمات للمجاهدين منتشرة في كل مكان. كانت الأناشيد الجهادية تعلو في كل زاوية، وكأنها تنقل المرء إلى عهد الصحابة الكرام. أثار ذلك في نفسي شوقًا لرؤية أرض الجهاد. وفي أحد الأيام، شاء القدر أن أستمع إلى خطبة الجمعة للشيخ عبد الله عزام. كانت كلماته تتردد في أعماق روحي، وأيقظت في داخلي إحساساً جديداً بالتفاني. بدا لي أن أفغانستان ستنبثق كعاصمة جديدة للعالم الإسلامي، وأن طريق تحرير فلسطين وهيمنة الإسلام العالمية ستمر عبر أفغانستان. تلك الكلمات حولتني من مجرد مراقب فضولي إلى مجاهد مكرس، مدفوعًا برؤية أكبر من مجرد السياحة الجهادية، إلى رؤية تحمل في طياتها الأمل والتضحية من أجل قضية عظيمة".

"ماذا عن الحلم الذي كان يعتمل في قلبك في تلك الأيام؟" سألت بفضول.

عبد الرحمن أغمض عينيه للحظة، وكأنه يستحضر ذكريات من عمق تجاربه، ثم قال بصوت يحمل نبرات الحكمة والتجربة: "لم أتخل عن الحلم حتى الآن، لكنني الآن أدرك أننا ربما لم نفهم الواقع بشكل صحيح. ليست النوايا الحسنة والإخلاص في الجهاد وحدها كافية، بل يجب أن يكون هناك فهم عميق ورؤية واضحة. عندما أعيد التفكير في الأمر الآن، يبدو واضحًا أن جهاد أفغانستان تم استغلاله من قبل القوى الكبرى لتحقيق أهدافهم. الدول الخليجية، التي كانت تخاف من الصحوة الإسلامية، وجدت في الجهاد فرصة لنقل المعركة إلى أرض بعيدة. ومن ناحية أخرى، استغلت القوى الكبرى دماء وموارد المسلمين لخدمة مصالحهم الإقليمية. طالما استمر الدعم الأمريكي، ظلت معنوياتنا عالية. لكن بمجرد انسحاب هذا الدعم، شعرنا وكأننا تُركنا وحيدين تحت السماء الواسعة".

"متى شعرت لأول مرة بأن مسار الجهاد قد تم اختطافه؟" سألت بترقب.

تأمل عبد الرحمن لبرهة، ثم بدأ يتحدث بصوت يملؤه الحنين والتأمل: "كان ذلك بعد انسحاب الروس من أفغانستان في ١٩٨٩. فجأة، اختفى الدعم الأمريكي وتحولنا من مقاتلين متحدين إلى متنافسين متقاتلين. بحلول ١٩٩٢، سقط النظام الشيوعي، لكننا فشلنا في تأسيس حكومة بديلة. في تلك الأيام، بدأ حلم الجهاد

يتلاشى. ثم جاءت البوسنة، حيث كان عزت بيجوفيتش يحلم بدولة إسلامية في قلب أوروبا. لكن في باكستان، طُلب منا، المجاهدين العرب، المغادرة، مما جعل العودة إلى ديارنا أكثر تعقيداً. رأينا في البوسنة فرصة جديدة للجهاد، وهكذا بدأنا رحلة جديدة نحو مستقبل مجهول، محملين بأحلام الماضي وتحديات الغد".

"كيف كانت تجربتك في البوسنة؟" سألت بفضول.

عبد الرحمن نظر بعيدًا وكأنه يسترجع ذكريات، ثم قال: "كان الوضع في البوسنة مختلفًا. الناس كانوا متحدين حول عزت بيجوفيتش، لكننا واجهنا نفاق الداعمين المزعومين. أمريكا لا تريد دولة إسلامية في قلب أوروبا. الأمر محير، فعندما بدأ القتال بين صربيا وسلوفينيا في ١٩٩١، تدخلت أمريكا وأوقفته سريعًا، وكذلك مع صربيا وكرواتيا. لكن مع البوسنيين، تركتهم لمصيرهم لأربع سنوات. وأغرب شيء هو أننا، المجاهدون العرب الذين كانوا حلفاء لأمريكا في أفغانستان، عندما جئنا لمساعدة إخواننا المسلمين في البوسنة، بدأت وسائل الإعلام الغربية تصورنا كإرهابيين. كانت تلك لحظة صادمة حيث أدركنا أن حتى من كانوا حلفاء لنا قد تخلوا عنا، تاركين وراءهم الخيانة والنفاق."

"لكنني قرأت أن السعودية على المستوى الرسمي دعمت بوسنيا والشيشان. الأمير سلطان حتى أقام لجنة خاصة لدعم بوسنيا،" قلت مستفسراً.

عبد الرحمن هز رأسه قائلاً: "المساعدات السعودية كانت تذهب لوكالات الإغاثة الغربية، لا للمجاهدين مباشرةً. المجاهدون كانوا يحصلون فقط على ما يرسله تجار الخليج بشكل فردي. في ميلانو كان هناك شيخ اسمه أنور شعبان، له صلات واسعة بالعرب، وكان يتمتع بنفوذ كبير على المجاهدين البوسنيين. كان بمثابة عبدالله عزام في البلقان. قُتل في نقطة تفتيش منذ عامين، وكان رحيله ضربة موجعة للمجاهدين".

"لذا يبدو أن تجربتكم في البوسنة لم تكن بالمستوى المتوقع،" استفسرت، محاولاً اختراق غموض أفكار عبد الرحمن.

أجاب بنبرة عميقة: "لا يمكنني القول إنها كانت خيبة أمل كاملة. في البوسنة، كان لوصولنا تأثير كبير. أولاً، كان له تأثير إيجابي على معنويات المجاهدين المحليين. ثانيًا، قمنا بتثقيف المسلمين البوسنيين الذين كانوا في غفلة عن دينهم، ولم يكونوا حتى على دراية بتحريم الخمر والخنزير. قمنا بمحاولات لتوجيههم وتعليمهم. وربما الأهم من ذلك، عندما كانت دولة البوسنة على شفا الانهيار، أدى وصولنا إلى قلب موازين القوى في ساحة المعركة. لا أعتبرها هزيمة، لكني أعتقد أن معاهدة دايتون جعلتنا نخسر في طاولة المفاوضات ما فزنا به في ساحة المعركة".

"ربما يوجد عنصر غامض لا نستطيع الإمساك به. كيف يمكن أن يفشل جهاد استمر عشر سنوات في أفغانستان وكفاح دام أربع إلى خمس سنوات من أجل دولة إسلامية مستقلة في البوسنة قبل أن يحقق أهدافه؟ لماذا حدث ذلك؟" سألت بفضول. عبد الرحمن فكر للحظة ثم قال: "من الصعب تحديد السبب بدقة، لكن يبدو أن الأمر كان جزءًا من حالة من الصخب العام. كان حلم فجر جديد مغريًا للغاية. خطب العلماء والدعاة وقصصهم عن المعجزات زادت الأمر تعقيدًا. أنت على حق، هناك حاجة ماسة إلى تحليل عميق لهذه المسألة. يتعين على مفكر أو باحث أن يجعلها موضوعًا لدراسة مفصلة وشاملة".

ظل حديث عبد الرحمن مختبئًا في أعماق ذاكرتي لسنوات عدة. بعد مرور زمن طويل، وجدت نفسي في رياض، حيث كان نائب رئيس البوسنة يتحدث في مجلس علمي، برئاسة الأمير تركي الفيصل. كنت أفكر في سؤال حول ضياع حلم الدولة المسلمة المستقلة في البوسنيا، وقبل أن أطرح السؤال، بادر النائب بالحديث. بصوت يتسم بثقل الألم والمعاناة، شرح كيف أن اجتماع منظمة التعاون الإسلامي حول الاعتراف بالدولة المسلمة قوبل بالرفض والأعذار. قال إن الأعضاء أغلقوا أبواب الأخوة الإسلامية بأنفسهم. وأثناء حديثه، ترنح صوته بالألم وترقرقت دموعه في عينيه. فكرت في ذهني، 'لقد كان عبد الرحمن على حق'. هناك شيء نتجنب ذكره، ولكن دون حوار صريح وواضح، كيف يمكننا أن نعرف الحقيقة؟"

٣٥

الأقلية بلا هامش

لم تمضِ أيام قليلة على عودتي من بيشاور حتى حان وقت السفر إلى الرياض. دعيت للمشاركة في مؤتمر دولي لثلاثة أيام نظمته جمعية الندوة العالمية للشباب الإسلامي، لبحث قضايا الأقليات المسلمة، وقد وافقوا على مسودتي الأولية للبحث. في البداية، شعرت بغضب من فكرة اعتبارنا "أقلية" من قِبَل الآخرين، حتى من بين أمتنا. لكن سرعان ما قررت كتابة الورقة البحثية، مدركًا أن التعبير عن معاناتنا لا يكفي دون تقديم موقفنا بأدلة وبراهين في المحافل الدولية .

خلال تلك الفترة، صادفت قراءة مقال للعالم الاجتماعي الأمريكي لويس ويرث حول الدلالات السياسية والنفسية لمصطلح "الأقلية". يشير ويرث إلى أن تصنيف مجموعة بشرية كأقلية يفصلهم عن التيار الرئيسي للمجتمع، موحيًا بأنهم مخلوقات مسكينة ومختلفة عن الآخرين. يبدأ هؤلاء الناس بالاعتقاد تدريجيًا بأنهم مختلفون عن البشر العاديين. غالبًا ما يتم اعتبارهم أقل شأنًا في المجتمع، بمكانة ثانوية وتأثير ضئيل في الحياة الوطنية. يؤكد ويرث أن "العزلة" ليست إشارة إلى التميز، بل إلى وجود مجموعة محرومة من الدور المركزي في الحياة، وهم على الهامش. حتى لو شكلوا ٦٠٪ من السكان، فإن أعدادهم الكبيرة لا تعوض عن حرمانهم وعجزهم ومعاناتهم. قراءتي لويرث أكدت لي أن رفضي الشديد منذ الطفولة لقبول تصنيفنا كأقلية وجد أخيرًا أساسه في الحجج والبراهين العلمية.

في خلجات تأملاتي، ظهرت أمامي صورة المسلمين الهنود، الذين كانوا يوماً ما محركين أساسيين في مسرح الحياة الهندية، ليتحولوا فجأة إلى صورة الأقلية،

المنبوذة والمستضعفة، المحكوم عليها بالتهميش الأبدي. كانت البداية في عام ١٨٧١، حين فضح البريطانيون الواقع بتعدادهم السكاني، مُظهرين أن الهندوس من الطبقة العليا لا يشكلون سوى نسبة ضئيلة من السكان، في حين يشغل المسلمون والداليت نصيباً كبيراً. هنا، شرعت الطبقة العليا من الهندوس في نسج هوية هندوسية جديدة، غامضة وشاملة، تضم تحت جناحيها الداليت وربما الجان والسيخ أحياناً، مستولية على الساحة ومهمشة للمسلمين، متجاهلةً تنوعهم وثراء تاريخهم. وبذلك، بدأ المسلمون يشعرون بالقلق حيال مستقبلهم، ناسين أن نسبتهم في تركيبة السكان ظلت ثابتة على مر العصور. استفاقوا على واقع مؤلم؛ لم يكن هناك قط وجود لهوية هندوسية شمولية تجمع بين أطياف متناقضة وعقائد متباينة.

لقد فتح لي مقال لويس ويرث أبواب الإدراك، فذلك الإحساس الذي ظل يراودني منذ صباي، والذي لم أكن قادراً على تفسيره بشكل معقول، وجد أخيرًا صداه في كلمات لويس. بدأت أدرك الآن الدوافع النفسية والسياسية التي تقف وراء تصنيف المسلمين الهنود كأقلية. أن تصبح جزءاً من الأقلية يعني ببساطة أن لا خيار للمسلمين الهنود سوى التعرض للتهميش والحرمان. في أي نظام ديمقراطي، السلطة الفعلية تقع دائماً بيد الأغلبية، وفي مكان يُسيطر فيه الأكثرية على كل شيء، يتحول الشعور بأنك جزء من الأقلية إلى عذاب مستمر لا ينقطع.

لقد تأملت بعمق في مسألة كون المسلمين أقلية في الهند، ولكن تأملاتي امتدت إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى العصر الذهبي للإسلام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. عندما توسعت حدود الدولة الإسلامية بشكل لم يسبق له مثيل، وظهرت مدن عظيمة مثل بغداد ودمشق والقاهرة، كان المسلمون في تلك المدن يمثلون نسبة ضئيلة، لا تتجاوز أربعة أو خمسة في المائة من إجمالي السكان. ومع ذلك، كان صدى أفعالهم يتردد في أنحاء العالم. كانوا يتحركون من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، بكل شموخ وعزة، وكأنهم موكلون بمهمة إقامة العدل والإنصاف. لم تكن لديهم أي إحساس بالنقص أو العجز بسبب قلتهم

العددية. لم يكن مفهوم 'الأقلية' المشين يشوش على تفكيرهم أو يعكر صفو عزيمتهم. لم يكن هذا المصطلح الذي يستحضر الضعف والهوان معروفًا لهم في تلك الأيام.

في أعماق التاريخ، كانت الأقليات دائمًا تحكم الأغلبيات. حتى في الديمقراطيات الحديثة، الأحزاب التي تحصل على ثلاثين أو خمسة وثلاثين في المئة من الأصوات تسيطر على البرلمانات. في الولايات المتحدة نفسها، يُوصف الحكام الذين يصعدون إلى السلطة عبر الانتخابات بأنهم يمثلون 'حكم الأقلية'. وهكذا، فإن العدد القليل بحد ذاته ليس عيبًا. المشكلة تنشأ عندما تبدأ بعض الجماعات في اعتبار قلتها العددية علامة ضعف بدلاً من قوة، وتقع في فخ الشعور بأنها أدنى من الآخرين، عاجزة ومقيدة، وتصبح مقتنعة بأنها لم تعد لها مكانة في مركز السلطة والقيادة. إذن، القلة في العدد شيء، وكون المرء جزءًا من أقلية أو الغرق في نفسية الأقلية هو شيء آخر تمامًا.

بعد مشاركتي في المؤتمر بالرياض، تأكدت بعمق أن معظم المشكلات التي تواجه الأقليات المسلمة حول العالم نابعة من الحصار النفسي الذي أقمناه نحن حول أنفسنا. خلال حواراتي مع رؤساء الجمعيات الإسلامية من أنحاء أوروبا، لمست بوضوح تفوق الشعور بكونهم جماعة ثقافية وشرقية على مهمتهم النبوية. كانت جهودهم منصبة على الحصول على اعتراف كجماعة أقلية دينية وثقافية ضمن المجتمعات المضيفة، وكأنهم منذ البداية خططوا لوضع أنفسهم على هامش هذه المجتمعات. لقد أدركت أنه حتى في أمريكا، حيث تهيمن الأعراق البيضاء، كان يُنظر إلى الإيطاليين واللاتينيين في البداية كعناصر خارجية، ثم تدريجيًا حصلوا على مكانة مماثلة للبيض. أما المهاجرون من شمال أيرلندا، الذين تعرضوا للظلم بسبب عقيدتهم الكاثوليكية، فقد تمكنوا من الوصول إلى مناصب رفيعة في المجتمع الأمريكي، متجاوزين حواجز العنصرية والتمييز.أن اليهود، الذين وصلوا إلى أمريكا هاربين من نيران النازية، لم يسلموا أنفسهم لوهم الضعف أو القهر. بل أصبحوا بمهارة وذكاء قوة فاعلة ومحركًا رئيسيًا في المجتمع. فقد استطاعوا ترسيخ

أقدامهم وتأكيد تواجدهم في كافة المجالات، من الفن إلى السياسة، ومن الحرف إلى التجارة. يُقال أن الاندماج في مفهوم "البياض" يمر بمراحل تدريجية، وهذا قد يحمل جزءًا من الحقيقة. لكن الواقع الذي لا يمكن تجاهله هو أن الأمم الحية تتفحص بعين الحكمة ديناميكيات المجتمع الذي تعيش فيه، وتظل في سعي دائم لإيجاد فرصتها في قمرة القيادة.على النقيض، الأمم التي تعتبر نفسها أقلية منذ البداية، أو تركز فقط على ترسيخ هويتها الثقافية، لا تستطيع حمل ثقل مسؤولية القيادة. عندما بلغ المسلمون الأوائل بلادًا متعددة حاملين رسالة العدالة والاستقامة، واجهوا ثقافات ولغات مختلفة، لكنهم بحثوا عن موقعهم في محركات هذه المجتمعات الجديدة، وأصبحوا رموزًا للتغيير. وفي هذه العملية، تحللت ثقافتهم العربية الأصلية، وولدت لغات وثقافات جديدة. هذا التحول يمكن اعتباره بمثابة الاندماج في مفهوم "البياض" بطريقتهم الخاصة.

في ذلك اليوم، في بهو مركز الخزامى، كنا نحن الأصدقاء جالسين، وقد انتهت للتو الجلسة الرئيسية للمؤتمر. تفرق المشاركون في مجموعات صغيرة، يتبادلون الأحاديث بحماس. رجل من بريطانيا تحدث، مستنكرًا تصنيف المسلمين الهنود كأقلية، مشيرًا إلى أن هذا العدد الكبير لا يمكن أن يوصف بالأقلية. أكد أن الإحصائيات الرسمية لا تعبر عن حقيقة قوتهم العددية. وأوضح أنه في زمن الاستقلال كان هناك تسعون مليون مسلم، وبعد التقسيم بقي أربعون مليونًا في الهند. أثار فكرة مقارنة الأعداد الحالية في باكستان وبنغلاديش بتلك الأربعين مليونًا لكشف الحقيقة الكامنة وراء قوة المسلمين في الهند.

ضحك بشدة وقال: "إنها حقيقة كبيرة كشفتها لكم." وعندما تطور الحديث، عبر مندوب هندي عن خوفه من أن يؤدي الاعتراف بكثرة عدد المسلمين إلى خروجهم من تصنيف الأقلية وفقدانهم للمزايا المرتبطة بهذا الوضع.

دكتور ساجد، الذي كان يستمع بهدوء، تحدث قائلًا: "ما الذي يمكن أن يخسره المسلمون في الهند الآن؟ لقد تجاوزوا بالفعل تلك الحماية الدستورية الممنوحة للأقليات. لو كانوا فقط يدركون ذلك"...

عندما طرحت السؤال، اخترت أن أتظاهر بالجهل. رد بنبرة عميقة: "هل قرأت مسودة دستور ١٩٤٨؟ إن لم تفعل، فكيف ستدرك التحول الجذري الذي طرأ عندما تحولت المسودة إلى دستور الهند في ١٩٥٢؟ المسودة التي نوقشت وعُدلت بإسهاب قبل أن تصبح دستورًا قد فقدت جوهرها. المسلمون خرجوا من نطاق الحماية الدستورية، وكل ذلك تم بمكر بحيث لم يدرك الكثيرون التغيير وتبعاته المستقبلية".

كنت قد سمعت الكثير عن الجمعية التأسيسية وقرأت بعض مناقشاتها، لكني لم أكن أعلم أن هناك فارقاً جوهرياً بين مسودة ١٩٤٨ والدستور المعتمد في ١٩٥٢. سألته إن كان يود توضيح المزيد.

بنبرة متأملة قال: "بالتأكيد، فبحثي يتناول هذا الموضوع بالتحديد. أجريت دراسة مقارنة لكلا الوثيقتين وتوصلت إلى استنتاج مفاده أن الحمايات التي وُعد بها المسلمون في مسودة ١٩٤٨ قد تم إلغاؤها في التعديلات اللاحقة. وكل ذلك تم تحت راية الديمقراطية والعلمانية وشعارات الديمقراطية البراقة".

تحدثت بصوت يحمل نبرة تساؤل: "هل يمكنك توضيح ذلك بالتفصيل؟"

فأجاب: "مسودة عام ١٩٤٨ كانت تعد الأقليات بمقاعد محجوزة في الهيئات التشريعية، وحصة في الوظائف الحكومية، وتمثيل ثابت في الكابينة. كان هناك أيضًا اقتراح لإنشاء هيكل إداري يضمن تمثيل الأقليات ويحافظ على مراقبتهم باستمرار. الجمعية التأسيسية التي تشكلت في عام ١٩٤٦ بموجب خطة كابينت كانت مؤسسة على أساس حماية الأقليات. لكن تغيرت الرياح بشكل كامل في الأيام التالية. أولاً، تم استبعاد الطبقة المجدولة من فئة الأقليات وإدماجها ضمن الأمة الهندوسية. وفقًا لكي إم منشي، الذي كان على رأس هذا النقاش، لم يكن من المناسب اعتبار الطبقة المجدولة أقلية. كان يعتقد أنهم جزء من الأمة الهندوسية ويجب منحهم امتيازات فقط حتى يتم دمجهم تمامًا في الأمة الهندوسية. هذا التعديل الذي اقترحه منشي قُبِل من قبل الجمعية التأسيسية".

أبديت استغرابي بقولي: "إذًا، كانت الطبقة المجدولة تُعد من الأقليات سابقًا؟"

فأجاب بثقة: "نعم، لم يُعتبروا أقليات فحسب، بل كان أمبيدكار يريد لهم تمثيلًا انتخابيًا منفصلاً، مثل المسلمين، في الجمعية والبرلمان".

"وماذا حدث بعدها؟" سألت.

أوضح: "لم يسمح غاندي بذلك. في عام ١٩٣٢، أضرب عن الطعام في بونا، رافضًا فكرة التمثيل الانتخابي المنفصل للهاريجان بإصرار. لم يرغب في اعتبار الهاريجان أقلية، بل سعى لإدماجهم ضمن الأمة الهندوسية. وقد نجح في مسعاه".

تابعتُ، معبرًا عن دهشتي: "لكن الهاريجان كانوا مُنبوذين من الطبقات العليا الهندوسية، حتى إنهم كانوا ممنوعين من دخول المعابد. يبدو أن غاندي قام بإجراء تجديدي جريء".

أجاب بنبرة حاسمة: "كان غاندي ينظر إلى المستقبل، مدركًا أن عدد السكان سيصبح عاملًا حاسمًا. إذا تم اعتبار الهاريجان أمة منفصلة، ربما كانوا سيجدون في المجتمع المسلم فرصًا أفضل للعدالة الدينية والاجتماعية. قاد حملات ضد التمييز الطبقي وعمل جاهدًا لضم الهاريجان إلى الأمة الهندوسية. وهكذا، تحققت رؤيته".

عبرتُ عن دهشتي بنبرة متأملة: "لكن غاندي رحل عن عالمنا في عام ١٩٤٨، واستمرت التعديلات على المسودة الدستورية بعده. كيف يمكن ذلك؟"

فأجاب بنبرة حازمة تحمل وقار العارفين: "لقد وضع غاندي الأسس، والذين جاءوا من بعده ساروا على خطاه. تم إخراج الهاريجان من فئة الأقليات أولاً، ثم أُلغيت الحمايات الممنوحة للأقليات بذريعة أنها تولد الشكوك والفجوات بين الأقلية والأغلبية".

سألتُ بفضول: "إذًا، كانت مسودة ١٩٤٨ تحمل في طياتها فرصًا أفضل للمسلمين؟"

أومأ بثقة: "بالتأكيد! كانت بعض النقاط فيها استراتيجية بشكل ملحوظ. على سبيل المثال، الانتخابات المنفصلة التي تم إلغاؤها لاحقًا بحجج متعددة. وعلى النقيض من ذلك، حصل الهاريجان على حمايات دستورية خاصة لعقد من الزمان، بينما ظل المسلمون خارج دائرة تلك الحمايات. حتى مسألة تمثيل الأقليات في الحكومة تم تجاهلها بحجج متنوعة. في النهاية، تحولت التحفظات المخصصة للأقليات في مسودة ١٩٤٨ إلى حكر على الطبقة المجدولة والقبائل المجدولة بحلول أكتوبر ١٩٤٩".

فجأة، خرجت الكلمات من فمي دون تفكير: "إذًا، أمبيدكار اهتم فقط بقومه؟"

رد بتأنٍ يشي بعمق فهمه للموضوع: "ليس تمامًا. كان أمبيدكار نفسه قلقًا بشدة من هذا الواقع. كان يواجه لوحده الهندوس من الطبقة العليا، بمن فيهم غاندي، الذي كان مصممًا على ضمان تفوق الهندوس بكل الوسائل".

تساءلت باستغراب: "لكن غاندي ناضل من أجل حقوق الشودراس، أطلق عليهم اسم 'هاريجان'، أي عباد الله، وفتح لهم أبواب المعابد"...

قاطعني بحزم: "توقف! هذه الدعاية غرست في أذهاننا وأعمتنا عن الحقيقة. إذا أردت حقًا فهم غاندي، يجب أن تقرأ لأمبيدكار. فقط عندها ستدرك كل معالم الخطة. لقد صنف الإنجليز الشودراس تحت خانة الهندوس في التعداد السكاني. بحلول عام ١٩٣٢، بلغ عددهم نحو أربعة ونصف كرور، أي نصف عدد المسلمين في شبه القارة. وكان الشودراس يتجهون بأعداد كبيرة نحو الإسلام، المسيحية، والسيخية. فقط في البنجاب، تراجعت نسبتهم من ٤٤٪ إلى ٢٩٪ بين عامي ١٨٨١ و١٩٤١. في هذا السياق، بدأ الهندوس يخشون أنه إذا لم يتم كبح هذا التيار، فإن هيمنة الطبقة العليا ستزول. كما قال سوامي فيفيكاناندا، 'كل شخص يترك الهندوسية لا يفقدنا شخصًا واحدًا فقط، بل يضيف إلى عدد أعدائنا'".

لقد تفاجأت عندما علمت أن فيفيكاناندا، المعروف بتنويره الروحي والذي لمع نجمه في مؤتمر الأديان في شيكاغو، كان يحمل هذه الأفكار. "ويفيكاناندا كان يفكر بهذه الطريقة أيضًا؟" تساءلت بدهشة.

قاطعني بثقة، موضحًا: "إذا كانت ذاكرتي صحيحة، ففي عدد أبريل ١٨٩٩ من مجلة 'برابوده باراتا' ستجدون مقابلة معه. ستكتشفون مدى قلق الهندوس من هذا الوضع. كانت الحركات الإصلاحية في الهندوسية تهدف في الأساس إلى تعزيز مكانتهم ومنع الشودراس من تغيير ديانتهم. ديانانند ساراسواتي، مؤسس الآريا سماج، قاد حركة 'شودهي' لتطهير الشودراس. 'جات بات توراك مندال' في البنجاب، الذي كان جزءًا من مهمة آريا سماج، دعا أمبيدكار لإلقاء خطاب في مؤتمرهم السنوي ضد التمييز الطبقي. لكن عندما أدركوا أن أمبيدكار لا يرغب في الاعتراف بالهيمنة الهندوسية ويريد إخراج الشودراس من خيمة الهندوس، سحبوا دعوتهم للخطاب بحذر".

"إذًا، لا بد أن أمبيدكار واجه تحديات هائلة في هذا الصدد"، استفسرت بفضول مكثف.

"بالطبع، أمبيدكار كان معتادًا على هذا النوع من المعارك"، رد بنبرة تحليلية عميقة. "في مسودة خطابه المقترح، ذكر أمبيدكار بأن مفهوم المجتمع الهندوسي لا يعدو كونه وهمًا. كلمة 'هندو' لم تكن سوى مصطلح أجنبي، غائب عن المصادر السنسكريتية القديمة. ولم يظهر استخدامه قبل قدوم المسلمين. فأين ظهر فجأة هذا المجتمع الهندوسي؟ الواقع أنه كانت هناك طبقات متعددة، لكن لا وجود لمفهوم 'هندو' كمجتمع واحد. اعتبر أمبيدكار الهندوسية بمثابة محفل لتعذيب الأونتوتشابلز الأبدي، وصفها كغرفة عذاب حقيقية. لذا، في نهاية المطاف، لم يجد خلاصًا إلا بتغيير ديانته للهروب من هذه المعاناة المستدامة".

"لكن غاندي كان يعارض نظام الطبقات والتمييز، أليس كذلك؟"، تساءلت بدهشة.

"أوه، يبدو أنك قرأت لمؤلفين مثل لويس فيشر"، قاطعني بنبرة حاسمة. "نعم، أنت محق"، أقررت بخطئي.

"كُتّاب مثل فيشر صوروا غاندي بمثابة رمز سماوي، متجاهلين جميع الحقائق الأرضية. بالنسبة لهم، غاندي لم يكن مجرد بشر، بل كان كأنه مبعوث من السماء. هناك فرق بين كتابة السيرة الذاتية وكتابةhagiography، التي تعتبر نوعًا من كتابة القديسين. كان غاندي محظوظًا بوجود كُتّاب ماهرين في هذا المجال. سيفاجئك أنه قبل عودته إلى الهند، كتب بالفعل سيرتين ذاتيتين نُشرتا في جنوب أفريقيا في عامي ١٩٠٩ و١٩١٠. وعندما نشر الفرنسي غوما غولون سيرتهMahatma Gandhi: The Man Who Became One with the Universal Beingفي عام ١٩٢٤، لم يكن قد التقى بغاندي بعد. هل تعتقد أن هناك 'حبيبًا خفيًا' الذي حوّل غاندي من سياسي محنك إلى مهاتما؟"

"سياسي محتال؟ ربما تبالغ في تقييمك"، احتججت بتعجب.

"هذه هي الحقيقة"، قال بثقة. "أنت اعتدت على رؤية غاندي محاطًا بالتقديس، لذا تبدو كلماتي غريبة لك. فكر في شخص يقود حركة الخادي، وهو نوع من القماش يُصنع يدويًا ويُعتبر رمزًا للاستقلال والمقاومة الوطنية في الهند، وفي الوقت نفسه يحظى بدعم من شخصيات مثل جي. دي. بيرلا، صاحب مصانع النسيج التي تنتج الأقمشة بالآلات، وهو ما يتناقض مع مبادئ غاندي المعلنة ضد الإنتاج الصناعي. هذا الشخص، في جنوب أفريقيا، كان يحمي مصالح رجال الأعمال الهنود ويعتبر السكان الأصليين السود أدنى، ويساعد الإنجليز في قمعهم. انضم في ١٩٢٠ إلى حركة خلافت وحولها إلى حركة عدم التعاون، ثم فجأة في ١٩٢٢، توقف عن الحركة بشكل أحادي الجانب دون استشارة المسلمين، تاركًا حركة الخلافت في حيرة. ماذا تعتقد عن هذا الشخص؟"

في ذلك الوقت حيث كان الدكتور ساجد ينسج من حروفه حكايا تمتد في أعماق التاريخ، اضطربت أرواحنا عند الباب الأمامي. همس الزمان بأن حافلة فندق شيراتون قد استعدت لتحملنا عبر أزقة الأمل. بينما كان الحديث يتمايل

كسفينة في بحر من الأفكار، وجدنا أنفسنا غارقين في مقاعد الحافلة، تحت وطأة كلمات الدكتور ساجد التي كانت تكشف، برفق ولكن بثبات، عن الوجه الآخر لشخصية المهاتما، كاشفةً عن روحها تدريجيًا.

تاهت أفكاري في متاهات التساؤل: هل ستسنح لي فرصة أخرى لأن أغوص في بحر معرفة هذا الرجل؟ هل من الممكن أن أستلهم منه مزيدًا عن أسرار الجمعية التأسيسية التي كانت محور اهتماماته العلمية؟ وبينما كانت الحافلة تشق طريقها، أطلقت سؤالي: "نسيانًا لمعركة أمبيدكار وغاندي، أخبرني لماذا لم ترتفع أصوات الأعضاء المسلمين في الجمعية التأسيسية ضد التغييرات الجذرية التي أُدخلت على مسودة القوانين؟"

فأجاب بصوت يحمل وقار الزمن: "ومن كان ليحتج؟ في بداية الأمر، كان هناك ثمانية وعشرون مسلمًا يجلسون في قلب الجمعية التأسيسية. منهم من اختار الهجرة إلى باكستان. والبقية، أسرى الحيرة والدهشة، تاهوا في لغز هذه الأحداث المتسارعة. وتحولت ملامح الأعضاء غير المسلمين، تغيرت أصواتهم ونبراتهم. وكانت هناك بيغم إعجاز رسول، تلك المرأة التي قاومت بشجاعة فكرة الانتخابات الفصلية وحجز المقاعد للمسلمين. كانت تؤمن بأن هذا الحجز سيزرع الشقاق بين الأقلية والأغلبية، وسنفقد بذلك فرصة كسب قلوب الأغلبية. تصور، كيف استقبل ولبهاي باتل، ذلك الرجل الذي كان يقود اللجنة، حججها بفرح غامر".

"عجيب!" تفلت الكلمات من شفتي بلا إرادة.

تحدث قائلًا: "أجل، هذه كانت معضلة المسلمين القوميين. اضطر هؤلاء المساكين لأن يصدحوا بنعم في وجه أسيادهم الهندوس، تأكيدًا لولائهم للوطن. لكن ليس كلهم كانوا على هذا الحال. فقد ظل الرجال الأبرار كمولانا حسرت موهاني من أتر برديش، وحسين إمام من بهار، ومحبوب علي بيغ من مدراس، يرفعون أصواتهم بقوة من أجل حق التمثيل النسبي حتى آخر نفس. لكن أصواتهم خُنقت بزعم أن التمثيل النسبي ليس إلا صورة مغايرة للانتخابات الفصلية. حاول

جواهر لال نهرو أن يسكت هذه الدعوات بقوله إنه لا يليق بأقلية صغيرة أن تظهر كأنها لا تثق بالأغلبية، وتسعى للعزلة. وأضاف غوفند فالابهاي بانت بحكمته قائلًا: حتى وإن وصل المسلمون إلى البرلمان عبر الانتخابات الفصلية، فإن قلتهم لن تمكنهم من تحقيق تأثير حاسم، فالسلطة تكمن في يد الأغلبية. كأنه يقول: سواء بالتمثيل النسبي أو الانتخابات الفصلية، كان المنظمون الحقيقيون لهذه المسرحية الديمقراطية يعلمون أن الديمقراطية ستتحول في النهاية إلى طغيان الأغلبية. وكان هناك رجل، زيد إتش لاري، أدرك هذا الخطر منذ البداية. كان يرى أن الديمقراطية تعني تمثيل كل فرد، والأهم هو أن كل رؤية تحصل على تمثيلها وفقًا لنسبتها العددية. لكن ما كان يجري هنا، كان تمهيدًا لحكم الواحد وخمسين بالمئة، تحت ستار الديمقراطية، وهو ما لا يمكن أن يوصف بأي حال من الأحوال بأنه ديمقراطي".

"كان الكلام معقولاً، فلماذا إذًا لم يلقِ قادة المؤتمر الوطني الهندي بالاً له؟"

أجاب: "بغض النظر عن منطقية الكلام، لكن بعد الاستقلال بوقت قصير، كأنه تلاشى الاعتراف بحقوق المسلمين في ربوع الهند. بصراحة مريرة، أنذر باتيل بأنه بعد قيام دولة باكستان، لن يجرؤ أحد على الحديث عن نظرية الأمتين هنا في الهند. كأنما كان هذا إعلاناً بأنه لا يجب على المسلمين أن يأملوا في تمثيل حكومي بعد الآن. من جانب، أُبعد المسلمون عن حمايات الدستور، ومن جانب آخر، استمرت الدعاية للعلمانية والديمقراطية. وكلما ارتفعت أصوات المسلمين مطالبةً بحقوقهم، كانت تخفت تحت وطأة القول بأن مثل هذه المطالب تضعف البنية العلمانية للدولة، وتفتح الباب للطائفية والانفصالية. أعطى هذا فرصة ذهبية للهندوس المحافظين الذين يحلمون بتحويل الهند إلى دولة هندوسية لتعزيز تنظيماتهم. وهكذا لم يبقَ أمام المسلمين إلا أن يثبتوا ولاءهم للوطن، حاملين على أكتافهم الهيكل الفارغ للدستور، خشية أن تُسلب منهم حتى هذه السندات النفسية في يوم ما. ومن يمكنه أن يفهم حقيقة الدستور المعدل أفضل من أمبيدكار، الذي قال في عام ١٩٥٥ في مجلس الراجيا سابها: 'كان دستور الهند

هذا معبدًا رائعًا أُقيم للإله، لكن قبل أن يتخذ الإله مكانه فيه، احتله الشياطين".'

كان في حديث الدكتور ساجد بحر من المتعة والانبساط يغمرني، لكن الحافلة بدأت بالفعل تعانق ظلال الفندق. بلغت قمة التودد عندما طلبت منه الإذن للرحيل، ثم تسللت بخطوات متمهلة نحو ملجأي الخاص، غرفتي.

في مؤتمر ندوة الشباب، اجتمعت وجوه الشباب الثوريين والشخصيات الإسلامية البارزة من أرجاء المعمورة، في تلك الأيام التي كان فيها صدى الإسلام يهز الآفاق. من الشرق إلى الغرب، حيثما تتجه الأنظار، كانت الثروات الخليجية والحماية الأمريكية تقدم الدعم، أو على الأقل، كانت الحركات الإسلامية تتفتح في مشاريعها التعليمية والثقافية والدعوية والجهادية دون معارضة النظام الغربي. كانت الرياض تتحول إلى مهرجان عالمي للروح الإسلامية، حيث أتيحت لي فرصة اللقاء بمفكري الأمة من كل حدب وصوب. في ختام المؤتمر، تم تنسيق برامجنا بحيث نسافر عبر المدن المختلفة للمملكة في طائرة خاصة، نلتقي بالناس ونستكشف المؤسسات الهامة. نسجت خلال هذه الرحلة صداقات أبدية، تحكي قصص الوفاء التي لا تنتهي. المؤتمر قد اختتم في أيام قليلة، لكن زخم النقاشات بين الإسلاميين لم يهدأ يومًا. كل لحظة كانت تحملنا إلى عنان السماء، كأننا نعيش فجر صحوة جديدة، تنبئ بعودة زمام التاريخ إلى أيدينا من جديد.

٣٦

مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ

في تلك الأيام الصاخبة من الصحوة، كنت أغرق في لذة المجالس في نجد والحجاز، حيث كان اللطف ينساب كالنهر. لكن بغتة، شعرت بأن قلبي ينفض يديه من هذه اللقاءات. ذات صباح، وأنا جالس في أحضان فندق أجياد قرب الحرم المكي، امتدت أمامي مائدة إفطار تزخر بأصناف النعم، لكن لا شيء فيها استطاع أن يغري قلبي. في البداية، ظننت أن هذا الجفاء ينبع من طبعي الزاهد الذي يجد السكينة في النوم على الأرض بدل الفرش الناعمة في الفنادق الفخمة، ويفضل الطعام الفطري كالفواكه والعدس والخبز على المأكولات الفاخرة. لكن سرعان ما بدأت الأعراض تتكشف، واكتشفت أن ما يعتريني ليس مجرد تجربة روحانية بل نوبة حادة من اليرقان.

كنت أخطط لزيارة بعض دول شمال أفريقيا خلال هذه الرحلة. كان أصدقائي يحثونني على ضرورة توجهي إلى المكتبات في بريطانيا للعمل على بحث الدكتوراه، وكان السيد حسن مطهر، رئيس تحرير مجلة المسلم ورلد ليج آنذاك، قد أعد كل ما يلزم لهذا المسار. ولكن، وجدت نفسي مضطرًا للعودة على وجه السرعة إلى وطني. خلال الرحلة، تحولت حالتي الصحية إلى مثل سفينة تكافح أمواج البحر الهائجة، وفي رحلة الطيران التي استغرقت أربع ساعات، شعرت مرارًا وتكرارًا كأنها رحلتي الأخيرة. وعندما خرجت من مطار دلهي، انتابتني نوبة قاسية من البرد والإنفلونزا. بمشقة بالغة وبصحبة أخي، وصلت إلى المنزل. لم يخف قلق أبي عندما رآني في حالة مرضية وهزيلة. حوالي الساعة الثالثة صباحًا، وأنا أرتعش تحت وطأة الحمى، شعرت بلمسة أنامل أبي على جبيني. كان يمرر يده على جبيني

المتقد وهو يردد "يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم". كانت هناك روحانية في تلك الأيدي حيث بدأت حدة الحمى تخف تدريجيًا وهدأت روحي من القلق والتوتر. ثم رفع أبي صوته بتلاوة "يا مسبب الأسباب"، وانخرط بعدها في صلاة التهجد كما هو معتاد.

بعد أيام معدودة من تعافيّ، تبين لي أن بلادنا تقف على أعتاب زوبعة جديدة. المسجد البابري، الذي ظل مغلقًا لأعوام وشهد ليلة ظلماء في ديسمبر من عام ١٩٤٩ حيث حاول بعض الفتنويين زرع تمثال لرام للاّ في جنباته، فُتح فجأة أمام الهندوس في الأول من فبراير عام ١٩٨٦. كانت هذه الأحداث تجري تحت إشارة الحكومة وبتواطؤ مع المتطرفين الهندوس بطريقة لم تكن للمسلمين القدرة على استيعاب أبعادها وتداعياتها. طوال الأشهر الماضية، كان القادة المسلمون، سواء الدينيون أو السياسيون، يسعون للتفاوض مع الحكومة. تم تقديم مشروع قانون جديد لتلافي تأثيرات قضية شاه بانو. كان العلماء والمفكرون المسلمون يحملون أملاً في أن رئيس الوزراء راجيف غاندي، بحكم تعاطفه الشخصي، سيجد حلاً مناسبًا. طاهر محمود، أستاذ القانون في جامعة دلهي، الذي أطلع راجيف غاندي على دقائق الشريعة في قضية النفقة، كانت توقعاته عالية جدًا، حتى أنه، حسب ما تقول الصحف، كان يؤكد في كل مكان أن راجيف غاندي هو الوحيد القادر على فهم قضايا المسلمين في الحكومة. وأعلن راجيف غاندي نفسه أنه سيقدم قريبًا مشروع قانون لمعالجة مسألة 'التدخل في الدين' التي نجمت عن قضية شاه بانو.

منذ عام ١٩٨٣، كان يتردد صدى تحرك مجلس المشورة الإسلامي في دلهي لاستعادة المساجد التي ظلت تحت وطأة الحكومة منذ الاستقلال. في هذا الإطار، قدم سيد شهاب الدين وآخرون من القادة المرموقين مذكرة إلى السيدة غاندي. وفي ظل حكومة راجيف، ازدهرت حركة شاه بانو، وتجمع المسلمون في مظاهرة واسعة النطاق، وظهرت الحكومة في حالة حوار مع القيادة الإسلامية. هذا أوحى للأوساط الهندوسية أن الحكومة ترضي المسلمين من أجل أصواتهم. كما يسرد علي ميان ندوي

في 'كاروانِ زندگی'، كانت له لقاءات 'غير رسمية' مع رئيس الوزراء. يبدو أن القادة السياسيين والروحانيين المسلمين قد سيطروا على راجيف غاندي ليتكلم بما يرغبون. ومع ذلك، وفي خضم النقاش حول مشروع قانون شاه بانو، فتح غاندي قفل مسجد بابري لإرضاء المتطرفين الهندوس، مما وضع القيادة الإسلامية في حيرة. الرجل الذي كانوا يثنون عليه لحكمته ونزاهته قد حاول إرضاء الجانبين بمنح المسلمين حماية الشريعة والهندوس الدخول لرؤية تمثال رام للاّ في المسجد. فماذا كان بوسع المسلمين أن يفعلوا؟ كان مشروع القانون لا يزال في طور الانتظار للموافقة في البرلمان، فغمروا أنفسهم في صياغته بكل عزم وجهد.

في ذلك الزمان، ظهرت في 'باكستان تايمز' مقالة تتناول نفقة المطلقة، مؤكدةً على صوابية موقف المحكمة العليا الهندية في قضية شاه بانو. أشار الكاتب إلى أن منح مبلغ عادل لامرأة تُركت بلا سند بعد الطلاق يمثل العدالة في أسمى صورها، ويتماشى مع جوهر القرآن. في تفسير 'وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين'، كانت الأصوات المستنيرة ترى أن 'متاع بالمعروف' هو ذلك المبلغ الثمين الذي يحفظ كرامة المطلقة ويحميها من الاعتماد على الآخرين. للمسلم التقي، يُعد من الضروري أن يحافظ على الكرم والسخاء حتى بعد الفراق. الأوساط التقليدية كانت تعتبر الآية مجرد توجيه وتشجيع، لا يمكن اعتبارها حكمًا أو قانونًا. بينما كانت الجهات المستنيرة تؤكد أن الاعتناء بمن هم في حاجة، خصوصًا امرأة تأثرت بقرار الطلاق وواجهت حياة الحرمان، يعد من الأمور المحمودة في الإسلام. فكيف يستطيع الزوج المؤمن أن يتجاهل تعاليم 'متاع بالمعروف.' تحت ظلال دستور الهند، كانت المادة ١٢٥ التي استندت إليها قضية شاه بانو للمطالبة بنفقة من زوجها السابق، في الأصل المادة ٤٨٨، المخصصة للمحرومين من رعاية. في عام ١٩٧٣، أُدرجت النساء المطلقات ضمن هذه الفئة، مع تأكيد أن النفقة يجب ألا تتجاوز ٥٠٠ روبية وأن تكون متناسبة مع القدرة المالية للزوج السابق. في قضية شاه بانو، قدرت المحكمة النفقة بـ١٧٩ روبية شهريًا، استنادًا إلى المقدرة المالية للزوج. رأي علماء اللجنة التقليديين كان يقول إنه لا يلزم الرجل بتحمل نفقة امرأة أصبحت بمنزلة الأجنبي

بعد الطلاق. فاقترحوا أن يكون أقارب المطلقة أو وقف البورد مسؤولين عن الإعالة إذا لم يستطيعوا ذلك. وكان العلماء على دراية بأن وقف البورد، المثقل بسوء الإدارة والفساد، لا يستطيع حتى دفع رواتب موظفيه وأئمة المساجد. في هذا السياق، كان ترك المطلقات بلا معيل يعد ظلمًا بينًا وتوجهًا مجرمًا. ومع ذلك، لم يترك تفسيرهم للشريعة مجالًا لتحويل التوجهات إلى أوامر، فما الذي كان بوسعهم فعله؟

يُروى أن راجيف غاندي قد اضطرب إثر قراءته لمقال في 'باكستان تايمز' حول نفقة المطلقة. يبدو أن أرون شوري أرسل له هذا المقال مشيرًا إلى أن العلماء الهنود الذين يرون حكم المحكمة العليا في قضية شاه بانو مخالفًا للشريعة قد يكونون على خطأ، فالرأي في باكستان يختلف. توجه راجيف غاندي بالاستفسار إلى نجمة هبت الله، التي بعد التشاور مع علماء البورد، أفادت أن فقط دائرة محدودة من العلماء تؤيد هذا التفسير لـ 'متاع بالمعروف'، وأن الأغلبية مع العلماء التقليديين. ويقال إنها نصحت رئيس الوزراء بأن عدم استجابة مطالب العلماء التقليديين، الذين يحظون بدعم الجماهير المسلمة، قد يؤدي إلى خسارة الكونغرس لقاعدته الانتخابية من المسلمين. استوعب راجيف غاندي الرسالة وقرر المضي قدمًا في إصدار تشريع جديد من البرلمان لحماية حقوق المرأة المسلمة. تمت صياغة مسودة القانون وفُحصت بعناية من قبل علماء البورد وخبرائهم القانونيين، لكن ما أثار الدهشة هو أنهم لم يلاحظوا أن القانون الجديد لا يزال يفسح المجال لتطبيق حكم المحكمة العليا السابق. كُتب في المادة ٣ من القانون الجديد بشكل صريح:

"بغض النظر عن ما ورد في أي قانون آخر معمول به في الوقت الراهن، يجب تقديم ودفع توفير وإعاشة معقولة وعادلة خلال فترة العدة من قبل الزوج السابق".

يثير الدهشة أنه لم يتمكن لا كبار علمائنا ولا خبراء القانون في البورد من إدراك أن العبارة في هذا البند تضمنت كلمات 'خلال فترة العدة'، بدلاً من 'لفترة العدة'. يبدو أن الأهمية هنا تكمن في التأكيد على ضرورة تحقيق دفع المتاع

بالمعروف خلال فترة العدة ذاتها. بعد سنوات، في عام ٢٠٠١، قامت محكمة مومباي العليا بتفسير هذه النقطة في قضية كريم ضد كريم، موضحةً أن 'خلال' تشير إلى توفير مبلغ مناسب ومعقول للمرأة خلال فترة العدة بذاتها.

في سبتمبر عام ٢٠٠١، عندما وصلت القضية إلى المحكمة العليا، أكدت العدالة العظمى أن المادة ٣(١) من القانون لا تقتصر فقط على أيام العدة، بل تمتد لتشمل 'بقية حياة المطلقة حتى إعادة زواجها'. ومع ذلك، يجب دفع النفقة خلال فترة العدة نفسها، ويجب أن يكون المبلغ معقولًا ومناسبًا، فالمقصود هنا ليس فقط توفير الكفالة خلال أيام العدة - حيث استخدمت كلمة 'خلال' وليس 'لـ'. هذه التفاصيل القانونية الدقيقة لم يتنبه لها علماء البورد التقليديون وخبراؤهم القانونيون مثل عبد الرحيم قريشي وسلمان خورشيد وطاهر محمود. عندما تم تقديم مسودة القانون لمراحلها النهائية، تم إدراج بند يسمح للنساء المسلمات، إذا رغبن، بمتابعة قضاياهن وفقًا للمادة ١٢٥ من القانون العلماني بدلاً من القانون المقترح.عند النظر من منظور معين، تبدو الإضافة التي تمت في اللحظة الأخيرة للقانون كإنكار لحملة الشريعة بأكملها. شاه بانو نفسها استفادت من هذا البند لتطالب بحقها في النفقة. إذاً، لماذا كان هناك كل هذا العناء والضجيج تحت شعار حماية الشريعة إذا كان من المفترض أن تظل الخيارات العلمانية متاحة للنساء المسلمات؟ لم يكسب المسلمون شيئًا باسم حماية الشريعة، بينما أبقى القانون الجديد الأوضاع على حالها. بعد سنوات، فسر مني شنكر أيير هذا كدليل على ذكاء راجيف غاندي، الذي أدرج في قانون النساء المسلمات بنودًا جعلت العلماء التقليديين يرونه حاميًا للشريعة، ورغم إقرار القانون الجديد، لم يحدث تغيير جوهري في الواقع. ولكن، بدهاء شديد، نجح راجيف غاندي في التهرب من تهمة تملق المسلمين وفي الوقت نفسه قدم هدية المسجد البابري إلى المتطرفين الهندوس. بفتحه غير القانوني لقفل المسجد، أثبت في الواقع مكانته في التاريخ كأول كارسيفاك.

٣٧

نداءات قوة شيفا

كانت إقامتي في وطني العزيز قد تجاوزت الشهر. في تلك الفترة، بدأت أعراض المرض تتلاشى، لكن الوهن ما زال باقيًا. كنت أقضي معظم وقتي إما مستلقيًا على السرير أطالع الجرائد والمجلات، أو جالسًا أحيانًا في مجلس المكتبة حسب طاقتي. انتشر خبر مرضي من نجد والحجاز إلى دائرة أصدقائي في الهند. وفي يوم ما، وصلتني رسالة من الشيخ مقتدي حسن الأزهري من بنارس يقول فيها:

"ساورني القلق لمعرفة إصابتك باليرقان. أدعو الله أن يمنحك الشفاء الكامل والسريع." وأضاف في نفس الرسالة نصيحة قائلًا: "خطتك لزيارة لندن موفقة. عندما تسمح الظروف، انطلق إلى هناك وضع خطة للعمل في خدمة الدين".

التقيت بالشيخ مقتدي في ذلك المؤتمر بالرياض. كان غالبا ما يشارك في تلك المجالس الليلية الودية، حيث يضع رواد الصحوة الإسلامية خططهم الطموحة. كانت تلك الجلسات تشهد نقاشات حول انتصارات وتقدم الحركة الإسلامية في أرجاء مختلفة. رسالته أيقظت ذكريات ملهمة للإيمان بداخلي. تذكرت الدكتور عبد القادر عثمان علي من تنزانيا، الذي كان يخطط لإنشاء مؤسسة خاصة بشؤون الأمة موجهة للتخطيط المستقبلي فقط. لاحظ في حديثي بعض الأفكار المستقبلية، فدعاني لزيارة مركزه الجديد.

في أحد الأيام خلال مؤتمر في الرياض وفي أحد العشاءات، حدث لقاء غير متوقع مع الشيخ بن باز. رأيت شابين سعوديين يخدمان الشيخ بتقديم الفواكه له. كان الشيخ فاقدًا للبصر، لكنه كان يتمتع ببصيرة نافذة. خلال دقائق قليلة من لقائنا، استفسر الشيخ عن تفاصيلي الشخصية وسألني عن موضوع

الدكتوراه، ثم غرق في سحر الحديث لدرجة أنه ألقى خطبة قصيرة. تحول هذا اللقاء إلى بداية لمزيد من اللقاءات والحضور في مجالس الشيخ. في يوم آخر، دعاني الشيخ لتناول وجبة الغداء في منزله. كان الشيخ لقمان السلفي، مترجمه الخاص، والبروفيسور عبد الجليل، أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة الإمام، حاضرين على المائدة. كان للبروفيسور عبد الجليل مكانة مرموقة في مجالس الدعوة والتبليغ، وكان لديه خبرة واسعة في مجال دعوة غير المسلمين.

خلال أحد العشاءات في مؤتمر بالرياض، حدثت مصادفة لقائي بالشيخ ابن باز. لاحظت اثنين من الشبان السعوديين يقدمان الفواكه للشيخ. كان الشيخ فاقد البصر، لكنه كان متمتعاً ببصيرة عميقة. في لقاء استمر لدقائق، سألني الشيخ عن تفاصيل حياتي وموضوع الدكتوراه، ثم غرق في سحر الحديث وألقى خطبة قصيرة. أصبح هذا اللقاء بوابة للمزيد من اللقاءات والمشاركة في مجالس الشيخ. وفي يوم آخر، دعاني الشيخ لتناول وجبة الغداء في بيته، حيث كان الشيخ لقمان السلفي، مترجمه الخاص، والبروفيسور عبد الجليل، الأستاذ في جامعة الإمام، حاضرين. أصر البروفيسور عبد الجليل على انضمامي لركاب سفينة الصحوة الإسلامية التي كانت تجوب أراضي نجد والحجاز. بعد أن تناول الشيخ بعض اللقم، انضم إلينا ثلاثة أو أربعة بدو حول المائدة. تحدثوا مع الشيخ وعرضوا قضاياهم، وكانت لهجتهم قوية ومباشرة. رد الشيخ بأن يأتوا إلى مكتبه يوم السبت لحل القضية، لكن الانتظار لثلاثة أيام بدا طويلاً للبدو. اتهموه بالكذب والمراوغة، معتقدين أنه لو كان جاداً لحل المشكلة على الفور. حاول الشيخ توضيح الفارق بين العمل في المكتب والمنزل، لكنهم لم يتراجعوا عن اتهاماتهم. وعند مغادرتهم، قالوا "ليهديك الله يا ابن باز". ومع ذلك، لم تظهر على وجه الشيخ أي علامات للغضب. في كل مرة جلست في مجلس الشيخ ابن باز، أعجبت بشخصيته القوية والصريحة. لكني ما زلت متعجباً كيف وقع الشيخ على أمر إعدام جهيمان ورفاقه، الذين رفعوا راية ثورة جديدة في الحرم المكي في فجر

القرن الخامس عشر. يبعث الدهشة كيف يمكن لاختلاف التفسير أن يؤدي إلى مثل هذا الصراع بين المخلصين للدين.

كان هناك رجل يدعى راشد راجع، رئيس جامعة أم القرى. بالصدفة، كنت قد قدمت بحثي حول المشكلات الثقافية للمسلمين الهنود في إحدى جلسات المؤتمر التي كان يرأسها. بعد انتهاء الجلسة، دعاني لزيارة مكة وعينني فورًا كأستاذ شاب. كانت رحلة سفينة الصحوة تجذب قلبي وعقلي أحيانًا، وفي أحيان أخرى كنت أفكر فيما يمر به المسلمون الهنود من تحديات، وأن البحث عن مسار فكري وعقائدي في هذه الظروف الصعبة قد يكون أكثر أهمية. ليت الناس يدركون حقيقة هذه المأساة المروعة. ليتهم يعون مدى العذاب الذي يخفيه هذا السجن، الذي هو أسوأ من أوشفيتز، ولكنه يوحي بأجواء ديمقراطية حرة.

انتشر خبر إقامتي في المدينة ومرضي بين أصدقائي. كان الناس يزورونني بين الحين والآخر للاطمئنان على صحتي. في يوم من الأيام، جاء بعض الأصدقاء القدامى من المدرسة لزيارتي. كان من دواعي سروري رؤية بعضهم بعد سنوات عديدة. قد اجتاز ظفر مؤخرًا امتحان إدارة البنك، وكان سجاد في السنة الثالثة من كلية الطب، وبدا أنه لا يزال يعاني من تحديات السنة الثالثة. عندما رأيت آصف يحمل مجموعة من المجلات الأسبوعية والصحف الإنجليزية، شعرت بإثارة. قلت له: والله، ما زلت تحت تأثير سحر صحيفة الدجال. التقيت بآصف العام الماضي أيضًا. دائمًا ما وجدته مستغرقًا في قراءة الصحف والمجلات، فكان يبدأ يومه بقراءتها كما لو كانت نصوصًا سماوية. كنا نطلق على الصحف لقب "صحيفة الدجال"، لأنها استبدلت بقراءة القرآن في معظم البيوت المسلمة. كان لدى آصف دائمًا كنز من الأخبار، يتميز بتركيزه على التفاصيل والجزئيات. عندما كان يقدم هذه الأخبار كقصة بطريقته الخاصة، كان يبدو كأنه شاهد كل شيء بأم عينيه. كنا نسميه آصف بي بي سي لموهبته في السرد. اليوم، بدأ الحديث فور وصوله عن قضية مسجد بابري، قائلاً: "هل تعلم ما سيحدث في البلاد؟" ثم أجاب نفسه: "لن يتم السيطرة على العفريت الطائفي بسهولة الآن."

"فماذا نفعل؟" سألت.

أجاب: "الفعل يأتي لاحقاً. أولى الخطوات هي الفهم والتخطيط. التنظيمات الإحيائية تخطط منذ فترة طويلة. كل خطوة لهم مدروسة بعناية. بيانات القادة المسلمين في الصحف وتهديدات اللجان التنفيذية الفارغة لا تكفي لإيقافهم".

"إذًا ماذا نفعل، هل من حل عملي؟" سألت مرة أخرى.

قال: "التأمل العميق. أنا أقول إننا بحاجة لتأمل جاد ونبوي يشتمل على تركيز غار حراء، حتى يهبنا الله الحلول لهذه المعضلة المعقدة." تغيرت نبرة آصف إلى الجدية المطلقة. وأضاف: "إن لم نتناول هذه المسألة بعمق وبصيرة، فإن النيران المستقبلية ستحرق بيوت المسلمين في الهند".

تدخل ظفر قائلاً: "اترك الفلسفة جانباً، أعطنا حلاً عمليًا".

"الحل العملي يتطلب تعاونًا وتفكيرًا مشتركًا. الأهم هو أن تتخذ خطواتنا في الاتجاه الصحيح. نحتاج إلى تحليل واقعي للتغيرات الكبيرة التي طرأت على المشهد الوطني خلال السنوات الأربع أو الخمس الماضية. لم يمض وقت طويل، ربما سنتين أو ثلاث، منذ أن بدأت فيشوا هندو بريشاد حركة 'إيكتا ماتا ياجنا' لتوحيد الهندوس على الصعيد الوطني. وفي فترة قصيرة فقط، تغير المشهد الوطني بشكل جذري لدرجة أن العداء ضد المسلمين أصبح يظهر في كل مكان الآن كبركان ثائر".

"في رأيي، نحتاج إلى العودة إلى ما قبل عام ١٩٨٣"، تدخل ظفر. قال: "القلق بين الهندوس بدأ فعليًا عندما وقعت حوادث تحول جماعي إلى الإسلام في ميناكشي بورام في عام ١٩٨١. شعرت التنظيمات النهضوية الهندوسية وكأنها تسمع أجراس الخطر".

"ميناكشي بورام عامل مؤثر بالفعل، لكننا بحاجة إلى النظر إلى أبعد من ذلك. أعتقد أن الخطأ الأول في هذا السياق يعود إلى جاي براكاش نارايان"، قال سجاد الذي كان صامتًا حتى الآن، مصقلًا وجهة نظره. أضاف: "في حكومة جنتا، أدرك الهندوس المتطرفون لأول مرة أن قلعة الكونغرس ليست حصينة. وأنهم يمكن أن يتفوقوا على الكونغرس النفاقي بسهولة من خلال الدعاية المعادية

للإسلام وحملة العداء للمسلمين، ويسيطروا على السلطة في البلاد. منذ ذلك الحين، بدأت الرابطة الهندوسية الوطنية وتنظيماتها الفرعية في التفكير في طرق لتحويل العداء للمسلمين إلى جدول سياسي".

"صحيح ما قلته. لقد أتاحت أحداث ميناكشي بورام الفرصة لهم لإطلاق حملة ضخمة حول مظلومية الهندوس في البلاد. وفي عام ١٩٨٣، نُظمت حملة واسعة النطاق على المستوى الوطني. حيث ظلت ٩٢ قافلة صغيرة وكبيرة تجوب أنحاء البلاد على مدى عدة أشهر، بهدف توحيد الهندوس".

'هل هذا يعني وجود خطة محكمة وراء ذلك؟' عند طرحي لهذا السؤال، غير آصف وضعه قليلاً. تحدث بنبرة جادة: 'في الواقع، في تاريخ الهند المستقلة، بل حتى في تاريخ الهندوس من الطبقة العليا على مر العصور، لم نشهد حركة بهذا الحجم والتنظيم على المستوى الوطني، تضمنت تحالف هندوسي يشمل كل الطوائف، بما في ذلك الداليت والأدفاسي، الجين وبعض فئات السيخ الذين لم يكونوا جزءًا من الهندوسية من قبل. تصوروا فقط، القافلة التي انطلقت من كاتماندو إلى راميشوارم مرت عبر ثلاثمائة ألف قرية، وقطعت خمسين ألف ميل. وكانت هناك قافلة أخرى كبيرة تحركت من جانجا ساغار في بنغال إلى سومنات، وقافلة ثالثة سافرت من هاريدوار إلى كانياكوماري. شهدت بأم عيني كيف تجمعت النساء من الداليت إلى جانب نساء الطبقات العليا عند مرور قوافل الشاحنات التي تحمل مياه جانجوتري في القرى والمدن، يتوقن للحصول على البركات. حتى شنكاراچارياه من بوري ودواركا، المعروفين بدعمهما لنظام الطبقات، سمحوا بهدوء للهندوس من الطبقات الدنيا بالاندماج في هذه الطريقة'.

ظفر استفسر: 'ما هو موقف باقي المعابد الهندوسية؟' فأجاب آصف بجدية: 'المعابد الكبرى أربعة، منها بوري ودواركا. لم تظهر أي بيانات من شنكاراچارياه في جيوترپيٹھ وسيرنگوري. أما شنكراچارياه بوري، نرنجنا ديفترتها، الذي يُعرف بأنه الجاغاد غورو(مرشد العالم) الرابع والأربعون بعد المئة، فيستمر في تأجيج نيران الكراهية. يزعم أن الحكومة الحالية تعادي الهندوس وتسعى لإرضاء المسلمين من

خلال تقديم مشروع قانون جديد في البرلمان للنساء المسلمات. ومع ذلك، لا يعتبر شنكراچارياه دواركا كل هذا المهرجان سوى لعبة سياسية.' وأضاف ظفر بنبرة تحمل نوعًا من اللوم: 'كان على المسلمين أن يستعدوا لهذه اللحظة الحرجة منذ زمن بعيد. لا أفهم لماذا لم يُقدّر علماء المسلمين والمثقفين هذه الحملة المنظمة والمخطط لها بشكل صحيح.' وتابع آصف بحماس: 'لأول مرة، اجتمع ٨٥ فصيلًا مختلفًا من السادهو والسانت في يجناه للتوجيه. وفي هذه المناسبة، أضيفت إلهة جديدة تحت اسم بهارت ماتا إلى قائمة الـ٣٣ كرور من الآلهة الهندوسية'.

"حسنًا! لم أكن أعلم أن تمثال بهارت ماتا، الذي يُظهر في الصور وهي راكبة على نمر، هو ابتكار حديث"، قال سجاد. "ولكن لماذا كان هناك حاجة لإلهة جديدة على الرغم من وجود ٣٣ كرور من الآلهة والإلهات؟" تساءل ظفر.

لدى سماع هذا، ابتسم آصف وقال: "الآلهة القديمة لم تكن كافية لخلق رؤية دينية تجمع مختلف فرق الهندوس عند نقطة واحدة. تم تقديم مفهوم بهارت ماتا لملء هذا الفراغ. على الرغم من معرفتهم بأن الهند القديمة التي تشمل باكستان وبنغلاديش ونيبال وسريلانكا وبوتان وميانمار وأفغانستان لم تعد ضمن نطاقهم، كان من الضروري تشكيل هوية وطنية هندوسية جديدة. تمثلت هذه الهوية في تصور الأرض كإلهة يعبدها الناس، وتقديم الأمة الهندوسية كحامية لهذه الأرض وأنهارها ومواقعها التاريخية والدينية. لذلك، عندما انطلقت مواكب ايكت ماتا يجنا، حملت قوافلها المياه المقدسة من الأنهار المختلفة، معلنة رسالة بأن عزة الهندوس متوقفة على استعادة أماكن عبادتهم القديمة، وأن في بلد يطغى فيه المؤمنون برام، لا يزال معبد رام للا مقفلاً تحت قفل مسجد بابري. يريد رام من أتباعه أن يحرروه من هذا الأسر. يجب فتح قفل المسجد والسماح للجميع بزيارته".

"لكن، الحملة لفتح القفل لم تكن جزءًا من حملة عام ١٩٨٣،" قال ظفر محاولاً تصحيح سرد الأحداث.

"صحيح، أنت على حق. في عام ١٩٨٣، كان الهدف فقط هو تهيئة الأرضية. بدأت حملة فتح القفل في العام التالي، حيث أسس VHPلجنة رام جنم بهومى يجنا، وقاموا بعرض تمثال رام خلف القضبان. ثم تم تداول هذه التماثيل في مختلف المدن لغرس فكرة في أذهان الهندوس العامة بأن رام لا يزال يعاني من الظلم في بلده، محتجزًا في المباني التي أقامها الملوك المسلمون.

كان ذلك في سبتمبر عام ١٩٨٤. كنت في ذلك الوقت في سيتامڑهی في بيت جدتي. بدأت الاضطرابات هناك. لسيتامڑهی قصتها الخاصة المتعلقة بالاضطرابات. هناك معبدان يدعي كل منهما أنه موقع ولادة سيتا، وكل منهما يزعم أن سيتا وُلدت في ذلك المكان".

"هل يمكن أن تكون سيتا قد وُلدت في مكانين في آن واحد؟" استغرب سجاد، متسائلاً بدهشة.

ظفر أجاب بتأكيد: "نعم، يقع أحد المعابد في بورونا دمام، والآخر على مسافة ثلاثة كيلومترات في جانكي استهان. ولكل منهما بحيرته الخاصة، إحداهما تُسمى أُرجيوا كنڈ والأخرى سيتاكنڈ. وكلاهما يدعي أنهما مكان ظهور سيتا، عندما أمسك الملك جنك بالمحراث ليصلي طلباً للمطر، واصطدم بإناء نحاسي، ومن ذلك الإناء ظهرت سيتا. يقول البعض، الذين يجدون دائمًا مساحة للتوفيق بين كل الخلافات، إن مكان ولادة سيتا هو بالفعل بورونا دمام، لكن حفلة الشَّتّي الخاصة بها أقيمت في جانكي استهان".

"كيف تورطت في هذا الحدث كمتفرج؟" سألت ظفر.

أجاب ظفر: "في ذلك الوقت، كان هناك جو من الاحتفال محليًا، لكن مع تقدم الجلوس وتزايد الدعاية حول مظلومية الهندوس، بدأت مشاعر الناس تتأجج. تطور الأمر إلى أعمال عنف وقتل. بصراحة، بعد ذلك خرجت الأمور عن السيطرة تمامًا".

"هل يمكن أن تكون سيتا قد وُلدت في مكانين في آن واحد؟" استغرب سجاد، متسائلاً بدهشة.

ظفر أجاب بتأكيد: "نعم، يقع أحد المعابد في بورونا دمام، والآخر على مسافة ثلاثة كيلومترات في جانكي استهان. ولكل منهما بحيرته الخاصة، إحداهما تُسمى أُرجيوا كنڈ والأخرى سيتاكنڈ. وكلاهما يدعي أنهما مكان ظهور سيتا، عندما أمسك الملك جنك بالمحراث ليصلي طلباً للمطر، واصطدم بإناء نحاسي، ومن ذلك الإناء ظهرت سيتا. "يعتقد بعض الناس الذين يجدون دائماً سبيلاً للتوافق في كل خلاف، أن مكان ظهور سيتا كان في بورونا دهام بالفعل، لكن احتفال 'حفلة الاحتفال باليوم السادس بعد الولادة' لسيتا تم في جانكي استان."

"كيف تورطت في هذا الحدث كمتفرج؟" سألت ظفر.

أجاب ظفر: "في ذلك الوقت، كان هناك جو من الاحتفال محليًا، لكن مع تقدم الجلوس وتزايد الدعاية حول مظلومية الهندوس، بدأت مشاعر الناس تتأجج. تطور الأمر إلى أعمال عنف وقتل. بصراحة، بعد ذلك خرجت الأمور عن السيطرة تمامًا".

"أليس من الواضح أن حملة رام جنم بهومي مكتي يجنا صاغت قالبًا جديدًا للهندوسية؟" - سؤالي لآصف كان ينبض بالفضول والتحليل.

أجاب بجدية: "نعم، إنها حقيقة لا يمكن إنكارها. دعني أسرد لك واقعة من احتفالات رام نومي أوتسو. على ضفاف نهر سريو، بأيودهيا، حيث تجمعت أفواج ضخمة من عباد رام، وقف سادهو وألقى خطابًا محملًا بالرمزية. قال: 'كنا نوصي دائمًا بأنه إذا زرع أحدهم الشوك في طريقك، زرع له الزهور تحت قدميه. لكن الآن، الوقت قد تغير. أقول: 'من يزرع الشوك في طريقك، زرع له الرمح - فقط هكذا سيفهم من يحاول عرقلة مسيرتنا".'

وتدخل ظفر، مضيفًا لمسة تحليلية: "لا ننسى الشعار الذي اكتسب شهرة في مواكب راث ياترا: 'كل طفل هو من أتباع رام - مكرس لخدمة جنم بهومي'. هذه الكلمات ليست مجرد شعارات، بل إعادة تشكيل لوجدان جماعي جديد".

في ظل هذه الظروف، تبرز هندوسية محاربة وقوية بكل زخمها. ففي السنة الماضية، في أودوبي، حيث اجتمع السادهو والقديسون في مجمع ديني كبير،

أُطلقت هتافات مثل "سنردد صلوات شيفا - سنحمي أنفسنا بأنفسنا". اجتمعت هناك جموع تقدر بنصف مليون شخص. نحو تسعمائة من السادهو من مختلف الطوائف اتحدوا في عزم، متعهدين بتجاوز خلافاتهم الداخلية والتفرغ لبناء هوية هندوسية جديدة. يؤكد أشوك سينغال أن هذا الإظهار للتضامن الهندوسي لم يشهده تاريخ الهند في الستمائة سنة الماضية. الآن تقف ولاية أوتار براديش على حافة الفتنة. أخبار مقلقة تأتي بلا توقف من ميرات، موراداباد، سمبهال، بارابانكي، وكاشي وماثورا. تظهر الحكومة عاجزة في مواجهة هذه الهندوسية المتشددة التي تتصاعد بشراسة. عبر أصف عن قلقه العميق إزاء هذه التطورات.

"أليس الأمر غريبًا أن الحكومة، بدلاً من أن تكون قوة رادعة، تشارك في هذه المؤامرة؟ هل نسيتم أنه قبل عامين، أقامت السيدة غاندي تحالفًا انتخابيًا مع حزب شيف سينا في مهاراشترا؟ وحتى السيدة غاندي نفسها توجهت إلى هاريدوار لحضور مراسم تأسيس بارات ماتا عام ١٩٨٣. دايود ديال خانا، أحد قادة الكونجرس ووزير سابق في أوتار براديش، كتب إليها يزعم أنه تلقى إلهامًا غيبيًا بأن الوقت قد حان لتحرير الأماكن المقدسة للهندوس في أيوديا وفاراناسي وماثورا وإعادتها إلى الهندوس.

"لكن ما هذه القصص؟ تارة يُلهمون غيبيًا، وتارة أخرى يظهر إلههم فجأة في الظلام داخل المسجد. أحيانًا يعرفون بالضبط المكان الذي وُلد فيه رام بزعمهم."

"ويتغير هذا المكان أيضًا من وقت لآخر. حتى الأمس كانوا يشيرون إلى رام تشابوترا خارج المسجد كمكان ولادة رام، وكانت الصلوات تُرفع باسم رام هناك، والآن لفترة طويلة، أصبح رام للا متواجدًا داخل المسجد"، قال ظفر بابتسامة خفية.

"في عالم الطب النفسي، يتردد مصطلح يستخدم عادة لوصف حالات المصابين بأمراض عقلية. في بعض الأحيان، بفعل صدمة دماغية، يبدأ المريض في اختلاق الواقع، وهذا ما يُعرف بـ 'التلفيق الإدراكي' أو .confabulationتخيل شخصًا محتجزًا في غرفة منذ الصباح حتى المساء، يسرد لك عن يومه كيف قضاه في نزهة

على شاطئ البحر، يصف الطقس الجميل واللقاء المفعم بالبهجة مع الأصدقاء القدامى. هذا النوع من المرضى العقليين ليسوا بكاذبين في ادعاءاتهم، رغم علمك بأنه لم يغادر غرفته طوال اليوم وأن المدينة التي يعيش فيها لا تطل على أي بحر. إنه واقع مؤلم، يُشبه تلك الأوهام التي تبنيها العقول المتعبة، وتحاول فيها رسم صورة لواقع مُختلف، ربما كوسيلة للهروب من قسوة الحقيقة التي تحيط بها".

'أنت على حق'، قال آصف. 'بالنسبة لنا، فإن تشكيل حقائق جديدة حول بعض الشخصيات الأسطورية يُعتبر أمرًا مشابهًا لظاهرة الهلوسة الذهنية. لقد أصبح واضحًا للهندوس المفكرين أن راما ليس شخصية تاريخية. يعتقد بعض الباحثين أن عصره يعود إلى مليون سنة خلال تريتايوجا، وهو عصر ثانٍ من أربعة عصور كبرى في الفلسفة الهندوسية، ويُعتبر وقتًا من الفضيلة والحقيقة لكن بدرجة أقل من العصر الأول. ويُحدد بعض المؤرخين عصره في القرنين الرابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد، لكن لا أحد يمكنه القول بثقة أن أيودهيا الحالية هي بالفعل أيودهيا راما تشندرا جي. وعندما يكون من الصعب التحدث بشكل قاطع عن أيودهيا، كيف يمكن تحديد مكان ميلاده؟ والادعاء بأن مسجد بابري بُني فوق مكان ميلاد راما تشندرا جي غير صحيح أيضًا، لأن تولسي داس في 'رامتشاريتماناس' لم يذكر شيئًا من هذا القبيل'.

"من هو تولسي داس وفي أي عصر عاش؟" سأل ظفر.

أجابه آصف، "كان عاش في الفترة نفسها التي بُني فيها مسجد بابري. عام ١٥٢٨ هو العام الذي بُني فيه المسجد. في ذلك الوقت، كان تولسي داس شابًا في الثلاثين من عمره. عاش في أيوديا الحالية وهناك قام بتأليف رامايانا، كتابه الشهير. لو تم بناء مسجد بابري فوق مكان ولادة رام، لما فوت تولسي داس، المتعبد لرام، الفرصة لذكر هذا الوضع المؤلم في كتاباته".

"لكن هذا يترك السؤال الرئيسي دون إجابة. لم تخبرنا بعد عما يجب علينا فعله لمواجهة هذا الوضع المتفجر." قلت، محاولاً تطبيق المعرفة الواسعة لآصف بشكل عملي.

"نعم، أنت على حق"، قال آصف بنبرة جادة. "أتقن فن النقد والتحليل ببراعة علمية، لكن هذا لا يكفي لإيجاد حلول للمشاكل." ظفر حاول التخفيف من الجو بتعليقه.

"لا تستهينوا بأهمية التحليل والنقد. إذا كان التشخيص صحيحًا، فاعتبروا أن نصف العلاج قد تم بالفعل." أضاف سجاد تعليقه.

"لماذا تتوقعون مني دائمًا إيجاد حل لكل مشكلة؟ لم أدع النبوة قط. ولكن، أستطيع أن أقول إنه لا ينبغي لنا القيام بما تفعله لجنة العمل، سواء عن قصد أو غير قصد. من ناحية، لدينا الهندوس المتطرفون مع خططهم المنظمة التي استغرقت سنوات، ومن ناحية أخرى، نحن نستجيب للاستفزاز بمزيد من الاستفزاز ونرد على الشعارات بشعارات مضادة. بهذه الطريقة، نصبح مجرد أدوات في أيديهم." تأمل آصف، ثم نظر إلى ساعته ووقف متفاجئًا، طالبًا الإذن بالمغادرة. "سنناقش الإجراءات العملية في وقت لاحق." وبهذه الكلمات، ودعت أصدقائي.

٣٨

المباني الناطقة

في ركن هادئ من المكتبة، تستقر على الرفوف ذخيرة ضخمة وثمينة من كتب الطب اليوناني والهوميوباثي، كنوز من العلم والمعرفة تحكي قصصًا من الماضي والحاضر. وفي تلك الأيام، كنت أغوص في صفحات كتاب يتناول الشلل النصفي، ذلك المرض الذي ينبعث من أعماق الدماغ، حيث الإصابات الغادرة أو الأضرار الخفية في الحبل الشوكي.يروي الكتاب كيف يتحول الدماغ، هذا الكون الصغير، إلى ميدان معركة. إذا ما أصيبت النصف الأيمن، تتجمد الحركة في الجانب الأيسر من الجسد كأوراق الشجر في ليلة شتوية باردة. وإن طالت الإصابة النصف الأيسر، تخبو الإشارات الموجهة للجانب الأيمن، فتبقى الأطراف بلا حراك، كأنها نسيت لغة الحياة.هناك، في زوايا الكتاب، بدأت أشعر بنوع من التوازي المؤلم بين مرض الشلل النصفي وحال لجنة عمل مسجد بابري. كأنما يعاني قادتها من نوع مماثل من الشلل، حيث الكلمات المحترقة بنيران الغضب تتطاير كالشرر، لكنها خالية من الحركة الحقيقية أو الخطة العملية. كانت بياناتهم تشبه ثوران بركان في ليلة هادئة، مذهلة في عنفوانها لكنها فارغة من المعنى الحقيقي.في تلك اللحظات، كانت الصفحات تتحول إلى مرآة تعكس واقعًا معقدًا، حيث تتصارع الأفكار والمعتقدات والرغبات، مثل مريض يكافح في صمت، محاولًا استعادة السيطرة على جسده الذي خانه. وفي كل فقرة وكلمة، كانت القصص تتشابك وتتعانق، محملة بثقل الوجود ومرارة الحقيقة.

اليوم، عندما تدفقت من شفاه سجاد كلمة "التأليف الوهمي"، غمرتني حالة من الدهشة والتأمل. إن بعض المصطلحات الطبية تبدو كما لو أنها تحمل في

طياتها أعمق الحقائق الاجتماعية والسياسية، تُظهرها بكل تعقيداتها وتفاصيلها بطريقة تجعل العقل يقف مبهوراً.في هذا العالم الذي نعيش فيه، حيث المشاهد المركبة من الصراعات والمظالم، قام المتطرفون من الهندوس بصياغة واقع جديد تحت ستار "التأليف الوهمي"، واقع يقلب الحقائق رأساً على عقب، حيث يصير المظلوم ظالماً في مشهدٍ تراجيدي. منذ لحظة الاستقلال، شهد المسلمون تراجعاً مستمراً في كل منحى من مناحي الحياة، لكن بمكر ودهاء، تم تشويه سردية معاناتهم، لتُصبح الصيحات الرنانة بأن "الهندوس في خطر" تملأ الأرجاء.أُجبروا على ترك مساجدهم، ولكن الدعاية تتحدث عن رام المحتجز خلف القضبان الحديدية. يتم تصويره في العربات الدينية على أنه أسير، وقد ابتلع الهندوس البسطاء هذا الزيف، معتقدين أن إلههم قيد الأسر في بلده الخاص. وفي هذه الأثناء، يجري التحضير لمشروع قانون جديد للنساء المسلمات، كمحاولة أخرى لتكميم أفواه المسلمين.أثارت هذه الأفكار في ذهني مشاعر الاستياء والظلم. كيف يمكن أن يُلقى باللوم على المسلمين الذين عاشوا في ظل الموت والخوف لأربعين عاماً مضت، ويتم اتهامهم بأنهم السبب في مظلومية الهندوس المزعومة؟ هذا هو جوهر سياسة تشاناكيا - اللعب بالحقائق وتحويلها إلى أداة للسيطرة والتلاعب.

في يوم من الأيام، حين كانت الطبيعة تستحم بنسمات الحيوية والانتعاش، وجدت نفسي مستغرقًا في أجواء المكتبة الهادئة. وهناك، بين رفوف الكتب التي تحمل قصص الأمس وأحلام الغد، رأيت عبد المعز يلقي على مسامع والده مقالاً حديثاً لأيه جي نوراني. كان يتلو الكلمات بعناية، ينسج بين السطور تعليقاته الدقيقة والمتأنية، كأنه يرسم لوحة بألوان الكلام.

تحدث عن كيف أن ايه جي نوراني كشف بمهارة عن ظهور الآلهة، واستدل على ذلك برسالة إذاعية مؤرخة في ٢٣ ديسمبر ١٩٤٩، أرسلها المجسٹريٹ الضلعي كي كي نائر إلى رئيس الوزراء والأمناء العموم. كان النص يحكي كيف اقتحم بعض الهندوس مسجد بابري في ظلمة الليل، وهو خالٍ وصامت، وقاموا بتركيب تمثال داخله. وأفادت الرسالة أن القاضي ومدير الشرطة والقوات كانوا هناك، والوضع

تحت السيطرة. لكن، في تلك الليلة، عندما وقعت الحادثة، كان هناك خمسة عشر شرطيًا في الخدمة، لكن يبدو أنهم لم يحاولوا بجدية لمنع الحادثة.

في كلمات عبد المعز، كان هناك صدى لواقع مرير وتاريخ يُعاد كتابته على جدران الذاكرة، قصة تروي كيف أن الحقيقة والأسطورة يمكن أن تتداخل وتتشابك في اللحظات الفاصلة من التاريخ.

عبد المعز أطلق قهقهة عميقة ملؤها السخرية والمرارة، وقال بنبرة مفعمة بالسخرية: "ليس للكذب أقدام". وأضاف، محمّلًا كلماته بمزيج من الدهاء والتهكم: "المفارقة العجيبة هي أن تقرير الشرطة المسجل في المركز المحلي لا يجد فيه أثرًا لظهور الإله". وتابع، وهو يشير إلى ما سجله النقيب رام دوبـ في مركز شرطة أيودهيا في تقريره المؤرخ في الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٩، وقد تناثرت كلماته في الهواء كأوراق الخريف، حاملةً في طياتها تناقضات واقعية معقدة:

> "يروي ماتا برساد كيف أنه عند وصوله إلى جنم بومي في الصباح الباكر، عند الساعة الثامنة، اكتشف بدهشة أن ما يقارب خمسين إلى ستين شخصاً قد اقتحموا مسجد بابري، إما بكسر قفل الباب الخارجي أو بتسلق الجدران. وفي داخل المسجد، أقدموا على وضع تمثال لشري باغوان رام وخطوا باللون الأصفر كلمات سيتارام على الجدران الداخلية والخارجية. هانس راج، الذي كان يؤدي واجبه في ذلك الحين، حاول منعهم، لكنهم تجاهلوا محاولاته. كان هؤلاء الأشخاص قد دخلوا المسجد قبل وصول كتيبة.P.A.Cوفي الصباح، وصلت السلطات الإقليمية إلى مكان الحادث لتقييم الوضع. بعد ذلك، تجمع حشد يتراوح عدده بين خمسة وستة آلاف شخص، يرددون التراتيل والهتافات، ولكن تم إيقافهم. تمكن رام داس، رام شكتي داس وحوالي خمسين إلى ستين شخصاً آخر من الدخول إلى المسجد، حيث أساؤوا إلى قدسيته. شهد على هذه الأحداث الموظفون الحكوميون والأشخاص الآخرون الذين كانوا متواجدين في المكان، لذا تم تدوين هذه الأمور وأرشفتها".

"في ظل هذه الشهادات الوثائقية، بأي وجه يمكن لأعضاء VHPأن يتحدثوا الآن عن ظهور الإله؟" تساءل عبد المعز بنظرة تمزج بين التحدي والشك، موجهًا كلماته نحو والده.

فرد والده بنبرة تحمل عمق الخبرة وثقل التاريخ: "ليست المسألة في الظهور، يا بني. هذه الأقوال ما هي إلا جزء من دعاية شعبية مصممة بدهاء. الحقيقة الأعمق تكمن في مشاعرهم تجاه الوجود البارز للمعالم التاريخية الإسلامية. ينظرون إليها كأيقونات للهوية الإسلامية، تنبض بقصص عظمة الماضي الإسلامي في كل زاوية من زوايا البلاد. يسعون بحماس لمحو هذه الرموز واستبدالها بمعالم هندوسية تاريخية. سترى، بدأت هذه الحملة تتفجر بقوة وحماسة مباشرة بعد الاستقلال. الطريقة التي أُعيد بها تجديد معبد سومنات على المستوى الحكومي ترسل رسالة واضحة: لم يغادر الإنجليز في عام ١٩٤٧، بل انتهى عهد محمود غزنوي."

"ألم يقم الهندوس العلمانيون بأي فعل لكبح جماح هذه الحملة الشرسة المشحونة بالكراهية؟" استفسرت، وأنا أغوص في تفكيري.

والدي رد بنبرة تحمل وقع الحقائق المرة: "في الحقيقة، كانت معظم طبقات الهندوس، بطريقة أو بأخرى، جزءًا من هذا المخطط. لكن، نعم، هناك استثناءات محدودة. فبعد إغلاق مسجد بابري، أبدى أكشاي برهماشاري، سكرتير الكونغرس في فايز آباد، شجاعة أخلاقية غير عادية في محاولته لاستعادة الوضع الأصلي للمسجد. وحتى نهرو، عبر عن استياءه البالغ للحكومة الإقليمية إثر الحادث. لكن، رغم كل هذه المحاولات، تم في نهاية المطاف استبعاد المسلمين من المسجد وأُقيم تمثال رام للّا في مكانهم".

"لو كان غاندي بيننا اليوم، ربما كانت الأحوال قد اختلفت"، قلت، وأنا أعبر عن رؤيتي المتأملة.

والدي أجاب، وفي صوته نبرة تحمل وزن التاريخ: "لواجه غاندي بالتأكيد تحديًا أخلاقيًا عظيمًا، لكن ما الذي كان بوسعه فعله؟ ربما في نوفمبر ١٩٤٧، في تلك الأيام التي تلت الاستقلال مباشرة، تحدث غاندي في صلاة جماعية ببرلا

هاوس عن تلك المساجد الـ ١٣٧ في دلهي التي تم تدميرها أو تحويلها إلى معابد. نهرو كذلك، كتب بنفس الروح الاحتجاجية رسالة إلى وزير الداخلية ولبه بائي باتل، لكن حتى تلك الجهود لم تغير من الواقع شيئًا. منذ الاستقلال، ظلت المعالم الإسلامية تمثل معضلة لدى الهندوس المتشددين. تلك المعالم لم تكن مجرد تراكمات من الطوب والإسمنت، بل كانت تضم بين جدرانها قصصًا وتاريخًا للمسلمين. عندما كان القتل والخراب يعم دلهي، واللاجئون من باكستان يستولون على بيوت وأملاك المسلمين، وعندما لم تعد حياة وممتلكات وكرامة المسلمين آمنة، وجد مسلمو دلهي في تلك المعالم التاريخية ملجأً. حوالي مائة وخمسون ألف مسلم احتموا في هذه المعالم التاريخية في مدينتهم. بالنسبة للكثير من الهندوس المتعصبين، بقاء تلك المعالم كان يعتبر عائقًا أمام تطهير المسلمين من البلاد".

"لكن هذه المباني كانت منتشرة في كل أرجاء الوطن، ومحو آثارها لم يكن بالأمر اليسير"، تساءل عبد المعز. "فما الحل الذي وجدوه لهذه المعضلة؟ هل استسلموا للواقع؟"

والدي رد بنبرة تحمل وقع الزمن: "أعلنوا هذه المباني ببساطة كأثر قومي، .National Monumentحاولوا بشكل متعمد فصلها عن تاريخنا الغني".

"لم أكن قد فكرت في الأمر من هذا المنظور من قبل"، عبر عبد المعز عن دهشته.

وأضاف والدي: "نعم، الهجوم الأول في هذا السياق كان على القلعة الحمراء، حيث ألقى نهرو خطاب الاستقلال الأول عند منتصف الليل من أسوارها. كانت خطوة رمزية قوية، تهدف إلى إعلان أن نهرو وأتباعه أصبحوا الآن حراسًا لتراث القلعة الحمراء بعد رحيل البريطانيين. في تلك الأيام، كانت تُنشر صحيفة 'داون ' (Dawn)بالإنجليزية في ميرت، وقد أعرب فيها بعض المسلمين المفكرين عن احتجاجهم. بالنسبة للمسلمين، كانت القلعة الحمراء تمثل قوتهم السياسية والثقافية. وعندما رفع نهرو علم الهند الجديد مكان العلم البريطاني، شعر المفكرون المسلمون وكأنهم قد انتقلوا من تحت السيطرة البريطانية إلى الهيمنة

الهندوسية. هذه المباني الصامتة من الحجارة بدأت، إذا سألتني، تتحدث. فالقلوب الحساسة والعقول الواعية كانت تلتقط صدى هذه الأصوات".

"وهناك ذلك الشعر الذي يصدح بحقيقة هذه الأرض:

'هذا السرزمين هو خانقاه عظمة الإسلام،

في ترابه يرقد تاجدار خير الأمم،

حول حكمهم دارت أقدار العالم'"

تردد صدى كلمات عبد المعز في الفضاء.

والدي استطرد بصوت يحمل وزن الحكمة: "أجل، لقد أدركت الأمر. هل تذكر خطاب مولانا أبو الكلام آزاد الذي قال فيه: 'انظروا... مآذن المسجد تسألكم: أين ضاعت صفحات تاريخكم؟ لم يمضِ وقت طويل منذ أن كانت قوافلكم تتوضأ على ضفاف الجمنا، واليوم تعيشون هنا تحت وطأة الخوف، مع أن دلهي رُويت بدمائكم'. اختار آزاد سلالم الجامع الكبير ليكون مكان إلقاء خطابه، تلك المآذن التي تتكلم، أصبح صوتها. في هذا الواقع الجديد حيث تم الاستيلاء على القلعة الحمراء، رأى آزاد أنه من المناسب استخدام الجامع الكبير كرمز للهوية الإسلامية الوطنية للمسلمين في البلاد، كنقطة انطلاق جديدة".

"ثم إن خطاب آزاد لابد وأنه أثار ضجة واسعة، وأغضب الهندوس المتعصبين بكلماته، أليس كذلك؟" سأل عبد المعز بتساؤل محمل بالفضول.

والدي أجاب بصوت عميق يحمل آثار التاريخ: "نعم، في ذلك الوقت كان المسلمون يُجبرون على مغادرة دلهي، وكان وضعهم متأزمًا. كان هناك خشية من أن يُغتصب الجامع الكبير كما حدث مع العديد من المساجد الأخرى. لو حدث ذلك، لتشوهت صورة الهندوسية بشكل مرير. كان غاندي على دراية بأهمية هذه النقطة. في أحد اجتماعات الدعاء في سبتمبر ١٩٤٧، تحدث عن الأهمية التاريخية والرمزية للجامع الكبير والقلعة الحمراء - لا أتذكر الكلمات الدقيقة، لكن يمكن العثور عليها بسهولة في مجموعة خطاباته - قائلاً إن دلهي، عاصمة البلاد التي فيها الجامع الكبير والقلعة الحمراء، هما من بناء المغول والآن جزء من تراثنا. طرح

سؤالاً على من يطالبون بخروج المسلمين من الهند: 'ماذا ستفعلون بالجامع الكبير بعد رحيلهم؟ هل سنستولي عليه؟' تأملوا في خطورة ذلك. شدد على حق المسلمين في هذا المسجد التاريخي، معبرًا عن فخره بعمارته. 'هل سنهدمه؟ لا، هذا أمر لا يمكن أن يحدث'. كانت تصريحات غاندي في اجتماعات الدعاء تملأ الأخبار آنذاك. في إحدى تلك الاجتماعات، تحدث عن الذين يحلمون بتحويل الجامع الكبير إلى معبد شيفا أو الذين يريد السيخ تحويله إلى جوردوارة، محذرًا إياهم أنهم بذلك يحفرون قبورًا للهندوسية والسيخية. 'لا يمكن لأي دين أن يسمح بهذا'، هكذا قال بحزم".

"فكيف إذن تعامل الهندوس المتعصبون مع هذه المباني الناطقة؟" استفسر عبد المعز بنظرة متسائلة.

والدي أجاب بنبرة تحمل ثقل التجربة: "لجأوا أولًا إلى تسويقها بصورة علمانية. بدأوا يرونها كآثار قومية، تنتمي إلى الهوية الوطنية الهندية، لا الإسلامية.

"هذه خطوة ضخمة في حد ذاتها"، أضفت، محاولًا فتح آفاق النقاش. "تجريد هذه المباني من ماضيها الثقافي وتحريرها من خلفيتها التاريخية".

وتابع والدي: "بالفعل، ولتحقيق هذا الهدف، قاموا بإعادة هيكلة المباني وبناء هياكل زخرفية جديدة حولها. في البداية، تم تعريف هذه المباني كمواقع سياحية. ثم تم إنشاء الهياكل الإدارية المحيطة بها لتسهيل وصول الزوار. بما أن هذه المباني اعتُبرت جزءًا من التراث القومي للهند العلمانية الجديدة، تمت إعادة تفسير أهميتها ضمن هذا السياق. خذ مثلاً تاج محل، الذي يعد من روائع الفن المعماري الإسلامي وهو ضريح في نفس الوقت. يحيط به قبور أخرى ويقع بجانبه مسجد. بكل الوجوه، يمثل تاج محل مكانًا دينيًا ومقدسًا للمسلمين، لكن من يديرونه والإعلانات التي تجذب السياح من شتى أنحاء العالم، يصورونه كأفضل نموذج للطراز المعماري المغولي وكأحد عجائب العالم الفريدة".

"والآن بعض الأشخاص يدعون أن تاج محل هو في الأصل معبد شيفا القديم"، قال عبد المعز بنبرة تمزج بين الاستنكار والتساؤل.

والدي رد بصوت يحمل بصمات التاريخ: "نعم، هذا مستوى آخر من التلاعب بالحقائق. هناك أشخاص يسعون لإعادة كتابة تاريخ هذه المباني. هذه الادعاءات لا أساس لها، لكن الأكاذيب المتكررة والمنظمة تجد صداها، حتى وإن كان مؤقتًا. هناك شخص يُدعى بي إن أوك، من جناح السنغ، يزعم في كتابه أن تاج محل هو في الأصل معبد تيجو محاليه، أي معبد شيفا. لكن مثل هذه الأقاويل لا تغير الحقائق. هذه المباني ما زالت تتحدث، ولكن يحتاج المرء إلى قلب وعقل حساسين ليستمع إليها." وفي هذه اللحظة، تغير وضع والدي ونظر إلى ساعته، لكن قبل أن يقوم، أضاف عبد المعز: "هذه الادعاءات حول المغول بأنهم ركزوا جهودهم فقط على بناء القلعة الحمراء وتاج محل، ولو كانوا قد بنوا جامعات لكان وضعنا اليوم أفضل، تبدو الآن لي غير موفقة. بناء هذه المعالم التاريخية كان إنجازًا عظيمًا بحد ذاته." عند سماع ذلك، ابتسم والدي وقال: "هذه الادعاءات ليست سوى دعاية معادية لا أساس لها، ونحن ضحاياها. في بلد يُبنى فيه مثل هذه المعالم العظيمة، يُعد دليلاً على تقدم العلوم والفنون. كانت المؤسسات التعليمية تنتج الأفراد المؤهلين في كل مجال، وإلا من أين كان يأتي الأفراد اللازمون لإدارة وتنظيم مثل هذه الإمبراطورية الكبيرة؟ الزعم بأن بناء الجامعات كان سيحسن من وضعنا هو تجاهل لإنجازات المسلمين في الهند. حسنًا، دعونا نكف عن الحديث الآن، فقد كانت محادثة طويلة اليوم".

"كيف تتحدث المباني، تهمس، وكيف تطرح المآذن أسئلتها برفعة في أوقات الأزمات، كما قال مولانا آزاد؟ فهمت هذا لأول مرة عندما التقت عيناي بشكل غير متوقع بأسوار قلعة آغرة في إحدى رحلاتي. لم يكن الفجر قد تبدد تمامًا بعد. جدران القلعة، مغمورة في الضباب، بدت وكأنها تروي لي قصة من زمن بعيد، وكأنها تعرض أمامي تاريخًا من القرون المنقوش بالعظمة.

'كنا كالنار في بداية العشق، وأصبحنا رمادًا في نهايته'

عندما مررت بجانب جدران القلعة، شعرت برعشة تسري في جسدي. الآن، بعد أن تحدث والدي عن هذه المباني الناطقة، أدركت أن هذه الأعمال المعمارية

التاريخية، على الرغم من ظاهرها الجامد، تقدم لنا الدعم العاطفي في لحظات الأزمات. يبدو أنها مأوى طبيعي لنا، دائمًا ما تفتح أحضانها لنا، تحتضننا في كل لحظة".

في عام ٢٠٠٥، انتشرت في الصحافة الوطنية أصداء تدعي أن المسلمين بدأوا ينظرون إلى تاج محل، وهو إرث وطني وعلماني معترف به كتراث عالمي، على أنه رمز إسلامي، في اتهام لهم بالتعصب. هذه الأصداء كانت خلفيتها تعود إلى هدم مسجد بابري في عام ١٩٩٢، الذي اعتبره المتطرفون الهندوس رمزًا للعبودية، مما أثار قلقًا عميقًا لدى المسلمين بشأن معالمهم التاريخية. مساجد مثل تلك في أيودهيا، كاشي، ومتهرا كانت تحت الخطر. بعضهم يدعي أن الجامع الكبير في دلهي هو في الأصل معبد شيفا القديم، والبعض الآخر يعتبر تاج محل معبدًا لشيفا أو كالي. في هذا الوضع المتوتر، فكر مسؤولو وقف أوتار براديش في تسجيل تاج محل كوقف. في عام ٢٠٠٤، تقدم محمد عرفان بيدار من فيروز آباد بعريضة للمصلحة العامة إلى محكمة الله آباد العليا في هذا الشأن. كان عرفان قد قدم بالفعل طلبًا إلى مجلس الوقف السني في عام ١٩٧٨، يطلب فيه من المجلس تحمل مسؤولية رعاية تاج محل كوصي عليه.أصدرت المحكمة توجيهاتها لمجلس الوقف لاتخاذ الخطوات اللازمة في هذا الشأن. بدأ مجلس الوقف في جمع الأدلة الضرورية. يقدم "بادشاه نامه"، الذي ألفه عبد الحميد لاهوري بين عامي ١٦٢٩ و١٦٣٢، دلائل واضحة على أن شاه جهان قد أقام تاج محل والأراضي والمباني المرتبطة به كوقف. يحتوي مجمع تاج محل، بجانب الضريح الرئيسي، على عدة قبور ومسجد، ولطالما كان موقعًا لإقامة مراسم عرس شاه جهان لمدة تقارب الـ ٣٥٠ عامًا. كل هذه العناصر كانت ينبغي أن تكفي للاعتراف بتاج محل كوقف إسلامي. ولكن، عندما أكمل رئيس مجلس الوقف، حافظ عثمان، إجراءات التسجيل وأعلن عن نية المجلس لتولي إدارة تاج محل وفقًا للقواعد المحددة، اندلعت عاصفة في الصحافة الوطنية. بدأت الانتقادات تتوجه إلى عثمان بأنه ينظر إلى

رمز تاريخي وطني من خلال عدسة طائفية. هرعت الهيئة المعنية بالآثار والتراث الوطني(ASI) ، التي كانت تدير تاج محل في ذلك الوقت، إلى المحكمة العليا على الفور. أوقفت المحكمة في نهاية المطاف تسجيل مجلس الوقف، وبذلك بقيت قصة العظمة والشوكت النابعة من هذا الضريح الإسلامي محاصرة ضمن سياج التراث الوطني العلماني المفترض.

بعد سنوات من تلك الحادثة، وفي زمن تلاشت فيه سياسة تملق الكونغرس للمسلمين، وتحت قيادة ناريندرا مودي، حيث كانت الهند تصدح بنداءات إقامة دولة هندوسية، جاء إلى مكتبي في أحد أيام مايو الحارقة زعيم ديني هندوسي. كان قد زارني من قبل، مرات عدة، بمقترحات للمصالحة بين الهندوس والمسلمين، وتطورت بيننا علاقة غير رسمية. بدأ الحديث حول حل سلمي لقضية مسجد بابري. أعرب عن موقفه بأنه لا يؤيد فكرة بناء معابد هندوسية على أنقاض المعالم الإسلامية، لكن المشكلة تكمن في أن الهندو العادي، عندما يرى هذه المعالم التاريخية الإسلامية، مثل القلعة الحمراء وتاج محل، يشعر بأنه ضئيل في الهند المستقلة، وكأن هويته الدينية أقل من الهوية الإسلامية.

"لكن هذا ناشئ، أليس كذلك، لأن طبقة من الهندوس تنظر إلى العهد الإسلامي ليس كفصل مشرق في تاريخ الهند، بل كتدخل خارجي من قبل الحكام المسلمين؟" تساءلت.

"بالضبط، لقد أصبت الحقيقة. هذه النظرة هي التي أوجدت الفجوة بين الهندوس والمسلمين. الإنجليز هم من بدأوا بترويج هذا النوع من التأريخ، ولكن تدريجيًا تسربت هذه الفكرة إلى وعينا. والنتيجة هي أن المعالم التاريخية الإسلامية تُعتبر في نظر بعض طبقات الهندوس رموزًا للعبودية".

"بعض الطبقات؟ في تقديرنا، هذه الرواية التاريخية قد سممت قلوب وعقول الكثير من المفكرين الهندوس البارزين ومن يُطلق عليهم اسم القادة العلمانيين. فوراً بعد تقسيم الهند، شهدنا كيف انطلقت حركة إعادة بناء سومنات بدعم حكومي،

وكيف انخرط فيها بحماس غاندي، باتيل، راجندرا براساد وكي إم منشي. هذا يكشف بوضوح عن طموحات هؤلاء الشخصيات للهند الجديدة".

قال بنبرة تحمل ثقل التاريخ والسياسة: "لننظر إلى الفرق بين المبنى ذاته وسياسة المبنى. قام الحكام المسلمون بإقامة عمارات ضخمة وفخمة في كل مكان، التي تستمر حتى يومنا هذا بإلهام الزائرين بعظمتها وجلالها. بعد الاستقلال، حاولت الهند بالفعل إعطاء قالب جديد للمباني التي أقامها المغول في دلهي والإنجليز، بما في ذلك تغيير الأسماء، لكن لم يمكن محو رموز العهد الإسلامي من المشهد العام. هذا الأمر يثير قلق الهندوس من الطبقات العليا وكذلك الداليت من الطبقات المهمشة. أعتقد أن في خلفية قضية معبد راما، هناك محاولة لتشكيل رمز ثقافي وسياسي هندوسي. في العام الماضي في غوجارات، تم الانتهاء من تمثال سردار باتل العملاق، وفي دلهي، أصبح معبد أكشاردام مقصدًا سياحيًا جديدًا ينافس القلعة الحمراء والجامع الكبير. هذه كلها جزء من سياسة المباني، محاولة لفرض الوجود والهيمنة في الأماكن العامة".

"على ضفاف نهر يمونا، وعلى مسافة تقارب الستة إلى السبعة كيلومترات من أكشاردام، أُقيم مزار آخر يُعرف بـ'دلت بريرنا ستال'"، قلت، في محاولة لاستكشاف رؤية ضيفي غير المسلم.

أجاب بلهجة تحمل بصمات الزمن وتغيراته: "نعم، لقد كانت خطوة سريعة من الداليت. ليس فقط في نويدا، بل في لكنؤ أيضًا، حيث تم إنشاء مزار باسم 'دلت بريرنا كندرا'. وبالإضافة إلى ذلك، في لكنؤ أقيم نصب تذكاري لأمبيدكار، حيث يجذب تمثال أمبيدكار العملاق الأنظار من بعيد. وقد تم كل هذا خلال عهد حكومة مایاواتي. كان من الضروري أن يجد الداليت أيضًا فرصتهم للتعبير عن عظمتهم وفخامتهم".

"فهل ترى أن وراء هذه السياسة المعمارية للداليت تكمن رسائل عميقة؟" سألت، محاولًا استكشاف أبعاد القضية.

أجاب بنبرة تعكس التأمل والفهم العميق: "بالفعل! في حضرت غانج، حيث كان يقف تمثال غاندي القديم، الآن يُعلو تمثال ضخم وفخم لأمبيدكر. هذا التمثيل يجلب الصراع الخالد بين أمبيدكر وغاندي إلى العلن، وكأنه يشق طريقه إلى شارع عام. في ولاية أتر برديش، يظهر أمبيدكر بصورة أكثر شعبية وبقاءً من غاندي، بفضل العدد الكبير من تماثيله. ماياواتي، التي تولت رئاسة وزراء ولاية أتر برديش أربع مرات، ركزت خلال فترة حكمها بشكل متواصل على حملة لإثبات وجود الداليت في الأماكن العامة، مهما كانت إنجازاتها الأخرى".

والآن، يتقدم الهندوس الحماسيون في هذه الحملة، لكن هل يمكن أن يغيروا حقًا المشهد الجغرافي والثقافي للبلاد ببناء معبد رام الشامخ؟ سألت ضيفي، محاولاً استشفاف أفكاره.

أجاب بصوت يحمل وقع التاريخ وأصداء المستقبل: "معبد رام أصبح الآن قضية إيمان بالنسبة للأغلبية الهندوسية، ويريدون استخدامه كرمز لانتصارهم. لكن خطتهم الحقيقية هي تجديد العاصمة دلهي، المعروفة الآن بـ'سنترال فيستا'. يريدون عاصمة جديدة لهند جديدة، لا تحمل طابع البناء الإنجليزي والمغولي، بل تعكس ألق الهند الفيدية".

أثار هذا الحديث غير الرسمي من ضيفي اهتمامي بشدة. فكرت في نفسي كم هو صادق في كلامه، 'سنترال فيستا' ليست بأقل أهمية لحزب بهاراتيا جاناتا من 'بريرنا كندرا'. إنها فرصة ذهبية للاستيلاء على المشهد العام وإعادة تشكيل الوجه التاريخي والنظري لدلهي. الآن يجب علينا مراقبة كيف ستستمر المباني التاريخية الإسلامية في دلهي والمباني من العهد البريطاني في إجراء حوارها ونقاشها وسط التعديلات البنائية الجديدة للإمبراطور الهندوسي الجديد.

٣٩

الأزمة العظمى ولا اسم

في يوم من الأيام، كان هناك تجمع للعلماء في المكتبة، وكان الحديث يدور حول قضية مسجد بابري. تحدث السيد عبد المتين، أحد الأصدقاء القدامى لوالدي، قائلاً: "يا سيدي حافظ نور، يستهزئ الناس بظهور رام للا فجأة في مسجد بابري ليلًا. يمر البعض على هذه القصة باعتبارها مجرد خرافة، ولكنها في الواقع نوع من الفاشية الدينية المتعصبة التي لا مثيل لها في تاريخ القمع. كيف يمكن أن يبرر أحدهم هذا الاعتقاد الخاوي ويمنحه شرعية روحية وأخلاقية؟"

"بالفعل، إذا تم قبول هذا التبرير، فلن يتبقى شيء." أيد ذلك الشيخ إفتخار منياربوري. وتابع: "الأمر يصل إلى أن دوردرشان، تحت الرعاية الحكومية المباشرة، تعمل ليلًا ونهارًا على تغذية الهوس الديني، بينما تزعم الحكومة دعمها للمسلمين. هم يقدمون قانونًا جديدًا في البرلمان لحماية الشريعة بخصوص النفقة بعد الطلاق".

"والطريف أن علماء المجلس القانوني يرون في راجيف غاندي حاميًا للمسلمين. لا ينتبهون إلى أن قفل مسجد بابري تم فتحه بإشارة من راجيف غاندي نفسه." حاول السيد عبد المتين إلقاء الضوء على الواقع بوضوح.

"ومع ذلك، يستمر علماء الكونغرس في تمجيد راجيف غاندي لميله إلى الإسلام وحنكته السياسية"، تحدث السيد ذكي وهو يضبط نظارته. "على الرغم من كشف أرون نهرو للحقيقة، وأن فتح قفل مسجد بابري من قبل راجيف غاندي كان في الحقيقة محاولة لإحداث توازن في مواجهة الانتقادات التي واجهها بسبب تقديم قانون حقوق المرأة المسلمة. ألم تطلع على تصريح أرون نهرو، حيث

سأل رئيس وزراء ولاية أتر برديش من الذي أمر بفتح القفل، فأجابه أنه يجب سؤال رئيس الوزراء. وعندما استفسر من رئيس الوزراء عن سبب بث مشاهد فتح قفل المسجد وظهور رام للا على تلفزيون الحكومي على المستوى الوطني، لم يحصل على جواب واضح، بل اكتفى رئيس الوزراء بالابتسامة".

"الأحداث تتسارع نحو مواجهة متفجرة"، عبر أبي عن قلقه بلهجة متأملة. قال: "في هذه الفيضانات من العواطف الشعبية، يبدو الآن أن الأمور تخرج عن نطاق سيطرة الحكومة نفسها".

"من يدري كيف ستستقر هذه الرمال المتحركة في النهاية؟" تساءل السيد عبد المتين، وفي عينيه بريق التحليل.

"لو استقر الجمل أخيرًا، فذاك بحد ذاته غنيمة. ربما يوفر فرصة لتشكيل خطط جديدة. لكن ها هنا تكمن المعضلة، فسلسلة محاولات اقتلاع المسلمين لا تتوقف. أربعون عامًا مرت على الاستقلال، وكل يوم يحمل مأساة جديدة، ظلمًا جديدًا، وإحساسًا جديدًا بالخسارة. كيف نسمي هذا الانحدار المستمر؟ يسعى هؤلاء لمحو آثارنا التاريخية في هذا البلد. يبدو الآن أن الحكومة ترعى بنفسها حركة تغذي المشاعر الدينية للهندوس، ومع هذا، لن يكون هناك صباح الأمان والراحة للمسلمين في هذا البلد".

"نعم، والمأساة الأكبر هي أن كل هذا يحدث تحت إشارة من رئيس وزراء يحظى بثقة العلماء المنتمين للبورد. إنها لحالة تثير الدهشة والذهول. فقد تم تغطية معاناتنا وحرماننا بستارة من النفاق والزيف. علماؤنا ومفكرونا يصورون المنافقة الحكومية على أنها رصانة وحكمة. حتى في هذا الوقت العصيب، يشعرون بنصر عظيم بسبب القانون الجديد. إنها حالة مؤلمة بشكل يفوق الوصف. العقل أصبح يماثل الجنون، والجنون يتحول إلى عقل"، أفاض الشيخ إفتخار في حديثه بنبرة حزن عميق.

"بالتأكيد! الواقع هو أنه تم بناء قبة خادعة من الحماية الدستورية والديمقراطية والتملق للمسلمين فوق حياتنا المليئة بالمعاناة والألم، حيث تبقى

صرخاتنا وآهاتنا محبوسة داخل هذه القبة. الآخرون لا يدركون الواقع المرير. ليت لدينا اسم لهذه الحالة الموجعة التي يعاني منها المسلمون في الهند على مدى الأربعين عامًا الماضية"، أضاف أبي بنبرة تعكس عمق التأمل والتحسر.

"اختاروا لها أي اسم تشاؤون، لكن خطورة الوضع تتجلى بوضوح أمامنا جميعًا. نحن نواجه حالة من العذاب والكبت لم يشهد التاريخ لها مثيلًا من قبل".

"الاسم له أهميته القصوى. كيف يمكن للناس أن يدركوا ما نواجهه بدون تسمية مناسبة؟ في ألمانيا النازية، عندما كان اليهود يواجهون الإبادة الجماعية، كانت الكلمات مثل 'معاداة السامية' و 'البوغروم' هي الألفاظ المستخدمة. لكن الظلم الذي واجهوه كان أكبر من أن تحتويه هذه المصطلحات. وبعد جهد استغرق خمسة عشر إلى عشرين عامًا، اختار المحللون كلمة 'الهولوكوست' لوصف ما تعرض له اليهود. الآن، أصبحت هذه الكلمة رمزًا محددًا للمأساة التي حلت باليهود في ألمانيا النازية بحيث إن ذكر 'المحرقة' يثير في الأذهان صورة لوحشية لم يسبق لها مثيل ولا يُتوقع تكرارها. بالمثل، ما عاناه الفلسطينيون بعد قيام دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨، حوّل حياتهم إلى فوضى مطلقة. منذ ذلك الحين، لم يذقوا طعم السلام أو الاستقرار. يشير الفلسطينيون إلى هذه المأساة بكلمة 'النكبة'، مصطلح يرمز إلى الدمار الشامل. الآن، كلما ذُكرت 'النكبة'، تنبعث أمام أعيننا تفاصيل المعاناة الفلسطينية بكل أبعادها؛ مذبحة دير ياسين، التهجير القسري من البيوت والأراضي، صرخات الأطفال الأبرياء، وعويل النساء العاجزات. ولكن، بالنسبة لما يمر به المسلمون في الهند، ما زلنا عاجزين عن إيجاد كلمة تليق بوصف محنتهم. ألا يمثل هذا ذروة العجز؟"، أضاف أبي، معمقًا غوصه في تأملاته.

والدي تحدث، معمقًا التأمل في الأمر: 'هنا، حتى أكبر المجازر تُخفى تحت غطاء الشغب، كأنها مواجهات بسيطة بين مجموعتين من الهندوس والمسلمين. لو كان الأمر كذلك، لما كان له وقع الصدمة. لكن في الأندلس المسلمة، حيث تعرض المسلمون للقتل والنهب والترحيل القسري، ظلت معظم العمارات التاريخية سالمة. قصور غرناطة ومساجدها لا تزال تنطق بحكايات العظمة الإسلامية. لكن

مأساتنا أشد وأعمق. فهم لا يطيقون حتى النظر إلى عماراتنا التاريخية، معتبرينها دليلاً على أيام العبودية، ويسعون لمحوها من الوجود. فما الاسم الذي يمكن أن نعطيه لهذه الحالة، التي تتجاوز في شدتها كل أنواع العذاب المعروفة وتستمر دون توقف، في انتظار أن يتوقف المحللون لتقييمها وتسميتها بما يليق؟'

في ذلك اليوم، عندما سمعت والدي يطرق هذه النقطة، اكتنفتني حالة من الدهشة المتعمقة. منذ ذلك الحين، جابت خطاي أرجاء مختلف البلدان والأمصار، جلست في مجالس العلماء والمفكرين، غمرت نفسي في فهم وتحليل التاريخ والحضارات، تعلمت تقلبات اللغات وابتكار المصطلحات الجديدة. لكن بعد أن عبرت مسالك العلم والفهم، ووقفت على قمة الإدراك والتحليل، وامتلكت رحابة لغة الحجاز، وجدت نفسي لا زلت عاجزًا عن إيجاد الكلمة الدقيقة لوصف هذا الحال المؤلم والمستمر. في إحدى الأيام، وأنا جالس في مجلس أستاذي العزيز وصديقي المقرب وقار حسين، وتناول الحديث إلى فهم هذا التعذيب الأبدي، شعرت أن كل ما تعلمته من علم وفكر، وكل قوتي في التحليل والتفسير، وحتى معرفتي الواسعة باللغة، لم تكن كافية لابتكار الكلمات الصحيحة التي تصف هذا الوضع.

٤٠

النشرة السرية

كانت صحتي قد تعافت تمامًا بفضل الله. خطر ببالي أن أستغل موسم الصيف هذا العام في رحلة علمية إلى بريطانيا، لكن كان عليّ أولاً إنهاء بعض الأمور المعلقة في جامعة علي غره الإسلامية. كانت اختبارات الماجستير في الفلسفة وشيكة، وبعد توديع الوالدين، توجهت إلى علي غره. هناك، لاحظت حالة من القلق والاضطراب بين الطلاب بخصوص مسجد بابري. خلال الأشهر القليلة الماضية، منذ فتح أبواب مسجد بابري لزيارات رام للا، نشأت في ولاية اتر برديش ودلهي لجان عمل مختلفة، أسس معظمها خريجو جامعة علي غره السابقون، وكانوا يسعون بحق للحصول على دعم ومساندة من حرم الجامعة .كان المنافسة بين قادة اللجان النشطة تشتعل، كل يسعى للتفوق على الآخر بتصريحاته الحماسية وطموحاته الثائرة. كانت الصحافة تفضل نشر تلك التصريحات التي تحتوي على أكبر قدر من التحريض العاطفي. في لكناو، برزت لجنة فعالة تحت قيادة مظفر حسين كتشوتشوي، وضمت أسماء مثل اعظم خان وظفرياب جيلاني. الأول اكتسب شهرة لاحقًا كأحد رموز حزب السياسي الاجتماعي، والثاني ظهر كمحامي للقانون الشخصي الإسلامي للمسلمين. مظفر حسين كتشوتشوي، في تصريح متوعد، أعلن أنه إذا لم يتم إعادة مسجد بابري فورًا إلى المسلمين، فإن اللجنة ستقود مسيرة تضم ملايين المسلمين إلى أيودهيا لاسترداد المسجد. وأشار بتحذير أنه إذا اضطروا لهذا الفعل، فلا يتوقع أحد أن يظل أي معبد يقف في طريق هذه المسيرة آمنًا.في الظلال المترامية للأحياء ذات الأغلبية المسلمة، كانت الكلمات تتحول إلى شرارات تشعل حالة من الهياج. التصريحات التي تنبعث من

أفواه القادة، وكأنها تنفث اللهب، تترك وراءها مساراً من الاضطراب. في دهاليز الإعلام، رسمت الأقلام صورة؛ المسلمون الذين كانوا يرفعون رؤوسهم بعد قضية شاه بانو، ينظرون الآن بعيون محدقة نحو الأغلبية، مُعلنين تحدياً صارخاً.في دلهي، حيث تتقاطع الأزقة وتتداخل الأصوات، كان جاويد حبيب يحمل راية لجنة العمل. ومن منبر جامع مسجد، كانت خطب عبد الله بخاري تتردد كالرعد، تلقي بظلالها على الأرواح والعقول. وهناك، في الزوايا البعيدة، كان سيد شهاب الدين، الذي برز من عباءة حزب جنتا إلى مرتبة يُعتبر فيها نفسه الناطق باسم المسلمين، يرسم خططه لتوحيد اللجان المتنوعة تحت قيادته الفريدة. كان ينسج شبكته بمهارة، ويضع نفسه في قلبها كما يضع العنكبوت نفسه في مركز شباكه.

كانت لجنة العمل في الأصل مشروعًا لقادة شبان ومبتدئين من علي غره. لكن بياناتهم المثيرة للجدل جعلتهم يظهرون في وسائل الإعلام الوطنية كممثلين للمسلمين. حتى القادة البارزون في المجلس، الذين كانوا يجتمعون بانتظام مع رئيس الوزراء بسبب حملتهم العاطفية لحماية الشريعة وكانت وسائل الإعلام تُعيرهم اهتمامًا كبيرًا، وجدوا أنفسهم مهمشين بسبب بيانات لجنة العمل المثيرة للغضب. لم يكن الشيخ أبو الحسن الندوي مؤيدًا لفكرة إطلاق حركة شعبية حول قضية المسجد، لكن من كان يستمع إليه الآن؟ كانت الحملة التي قادها لحماية الشريعة مبنية أيضًا على الحماس والتبعية دون فهم عميق. إذا استطاع الناس في الأمس الخروج إلى الشوارع باسم الشريعة، فمن يمكن أن يمنعهم اليوم من تقديم أرواحهم في سبيل حماية بيت الله؟كانت الممارسة التحليلية والتجزيئية غائبة عن الساحة، بالأمس كما اليوم، فلا مجال لها. استغل قادة المسجد الحماسة العارمة التي اشتعلت باسم الشريعة لصالحهم. كان لهذا الوضع تأثيره المباشر على حرم الجامعة، حيث كانت مشاعر الشباب كبركان يكاد ينفجر في أي لحظة. بدأت بذل جهودي للتخفيف من حدة الوضع، فتبادلت الأفكار مع الطلاب الأكبر سنًا، ثم خطر ببالي أن أدعو رئيس الجامعة الجديد للانضمام إلى هذه المبادرة. حتى ذلك الوقت، لم يكن لي لقاء رسمي برئيس الجامعة الجديد، السيد

هاشم علي. تم تحديد موعد للقاء، وقبلنا دعوته لتناول الشاي معه، نحن مجموعة من عشرين من كبار الطلاب.

في نُزُل شيخ الجامعة، كانت هناك تغييرات في ترتيب الأثاث. في الرواق الطويل على اليسار، حيث كان السيد حامد يضع مكتبه الصغير، وُضعت الآن طاولة مؤتمرات كبيرة مُحاطة بحوالي خمسة عشر إلى عشرين كرسيًا. وصلنا إلى نُزُل شيخ الجامعة في الوقت المُحدد، ولم نكد نستقر في مقاعدنا حتى ظهر السيد هاشم علي من الباب الخلفي، بشخصيته الوقورة والمهيبة. جلس على الكرسي المركزي وقال مباشرة: "إذًا، أخبروني، أي قواعد تريدون مني أن أخرقها؟" كان يظن على ما يبدو أن وفد الطلاب الكبار قد جاء بقائمة من المطالب. امتحانات، قبول، أو بعض المشاكل في السكن الطلابي، ماذا يمكن أن يفكر به قادة الطلاب أكثر من ذلك؟ فوجئ عندما اكتشف أننا جئنا لمناقشة القلق وعدم اليقين الذي ينتاب الطلاب والشباب بشأن قضية مسجد بابري وأننا نرغب في إشراكه في هذه القضية.عندما استمع هاشم علي إلى حديثنا، تجمّد في مكانه مذهولاً. بدأ يتحدث قائلاً: "قبل قدومكم، زارني وفد من الأساتذة، ولم يتركوا أي فرصة لإلقاء اللوم عليكم وتصويركم كمصدر الشر. يبدو أن معظم الأساتذة هنا يتجنبون العمل، هم كسالى وفاسدون، يشتغلون فقط بالسياسة. كم كنت أتمنى لو أنهم يدركون مسؤولياتهم." ثم قام هاشم علي من كرسيه، ذهب إلى غرفة داخلية وعاد حاملاً ملفًا من الأوراق المطبوعة. واصل قائلاً: "أنا نفسي ضحية لهذا النظام. في بدايات الاستقلال، كنت جزءًا من البيروقراطية الحاكمة. أصدرت حكومة الهند تعميمًا سريًا يمنع تعيين المسلمين في المناصب الهامة والحساسة. سألته إذا كان بإمكانه الإشارة إلى أي مصادر أو أدلة بهذا الخصوص. فأجاب: 'لقد تناولت هذا الموضوع في مقالتي، وهناك العديد من القضايا الأخرى التي تناولتها.' وقدم لي نسخة من أحدث مقالاته".كان مقاله يتحدث عن الاندماج الوطني. في البداية، تحدث المؤلف عن خدمته الحكومية التي دامت اثنتين وأربعين سنة، مؤكدًا أن الاندماج الوطني لن يكون سوى فكرة باطلة إذا لم يشعر كل مواطن في الهند بالأمان، ولم

يعتبر نفسه مواطنًا محترمًا، ولم يحصل على فرصة للمشاركة في شؤون الدولة ولم يكن له حضور فعّال في الحياة الوطنية. أشار أيضًا إلى الرسالة التي كتبها لرئيس جامعة بنارس الهندوسية وهو يشغل منصب رئيس جامعة علي غره، حيث دعاه للعمل معًا لتشكيل جبهة مشتركة من العلماء والأكاديميين. كان يرى أن على الأساتذة الجامعيين أن يلعبوا دورًا حيويًا في الوضع الراهن المتفجر، الذي بدأ يتجاوز سيطرة السياسيين والقادة الدينيين.في مكتبه الواسع، مزين بأوراق العمل المتناثرة، كتب السيد هاشم علي، بحبر الشجاعة والصدق، مقالاً عن وحشية الشرطة الخاصة المعروفة باسمPAC، وهي الشرطة المسلحة الإقليمية في ولاية أوتار براديش. كانت كلماته تتحدى الظلم، موجهة الانتقادات اللاذعة لتقاعس المجلس الوطني للاندماج الوطني عن حماية المسلمين. تناول بجرأة غير معهودة في الأجواء الأكاديمية المحتاطة، العنف الممنهج ضد المسلمين، وانتقد بشدة السياسة الحكومية التي تحرم المسلمين من تولي مناصب حساسة. كان يطالب بصوت مرتفع وواثق بإصدار توجيهات جديدة لاستعادة ثقة المسلمين في النظام الحاكم. في لقاءاتنا اللاحقة، كان يظهر كشخصية صريحة وواضحة، لا يخشى قول الحقيقة، حتى في بيئة جامعة علي غره التي تعودت على الحذر والتقليد، مما جعل أقواله تبرز كأصوات نادرة وجريئة في بحر من التحفظات والمألوف.

٤١

لهيب نمرود

في زاوية روحي حيث تتجلى الأحلام والواقع، كانت فكرة الرحلة إلى لندن تلوح كظل طويل يمتد على مساحات وجداني. بين الهيجان الذي يعصف بالبلاد وبين اللهفة لحياة علمية مترفة، كنت أجد نفسي معلقًا في متاهة من التردد. وفي ليلة ملؤها الصمت والتأمل، بعد صلاة العشاء، وأنا مسندًا ظهري إلى الجدار، غلبتني حالة من النصف يقظة والنصف حلم. رأيت في تلك الحالة العجيبة نفسي أصلي، قدماي تتخطى الحدود المألوفة نحو الكعبة المشرفة. شعور عميق بالخشوع يغمرني، وقدماي تتقدم إلى مقام إبراهيم وأنا في عزلة عن الكعبة. أيقظني شخص من هذا الوضع، فعدلت قبلتي. عندما فتحت عيني، استمر هذا الحلم يسيطر على قلبي وعقلي لفترة طويلة. كان الحلم واضحًا وجليًا لدرجة أنه كان من الصعب نسيانه. راودني الشك، هل كانت هذه إشارة من الله لدعوتي إلى بيته الحرام؟

كانت أيام الحج قد اقتربت، وبقي حوالي عشرة إلى خمسة عشر يومًا لوقوف عرفة. في اليوم التالي، وصلتني أنباء عن وصول الأخ المحترم حسين ذو القرنين إلى دلهي. فكرت في الذهاب إلى دلهي لمقابلته. كان يقيم في منزل قريبه عبد الرزاق الكشميري، الذي كان يعمل بالصدفة سكرتيرًا ثانيًا في السفارة السعودية. أثناء حديثنا، جاء ذكر الحج وكيف أن السفارة السعودية تصبح أكثر انشغالًا خلال هذه الفترة. هنا، خطرت ببالي فكرة رائعة: لماذا لا أسافر إلى لندن عبر جدة وأقوم بأداء الحج في الطريق. تذكرت قول أكبر إله آبادي عندما كان سر سيد يستعد لرحلته إلى لندن:

"سوف يذهب الشيخ إلى الكعبة، ونحن سنرى إنجلترا
سيشاهد هو بيت الله، وسنشاهد نحن مجد الله"

إذا تمكنت من أداء الحج خلال رحلتي إلى لندن، فستكون رحلة واحدة تجمع بين بيت الله ومجد الله. سألت عبد الرزاق إذا كان من الممكن الحصول على تأشيرة الحج في هذه اللحظات الأخيرة. أجاب: بالطبع، تعال غدًا صباحًا بجواز سفرك إلى السفارة وابدأ في تحضيرات سفرك.

في ذلك الوقت، حيث الأيام العجاف تعانق السماء، والأرض تحت قدمي تشهد على رحلة غير متوقعة إلى الحج، لم يكن هناك وقت للتحضيرات التقليدية أو التعمق في كتب مناسك الحج. خرجت من رحم الوقت، حاملاً حقيبتي الصغيرة، متجهًا نحو قدري كطالب علم يسير وحيدًا في درب غير مألوف. كانت هناك طمأنينة تسكنني، تحتضن كياني برفق، تمضي بي نحو مشاهد لم تكن في الحسبان.على قمم جبل الرحمة، حيث تتعانق السماء والأرض، وقفت مع المجاهدين الأفغان الذين كانوا يدعون بحرارة لنصرة الإسلام. شعرت بروحي تندمج في دعائهم، وكأنني أشهد لحظة تاريخية حيث يعود الرحمة والنصر إلى الأمة. هناك، على ذروة الجبل، تبلورت فكرة كتاب "غلبة الإسلام" في ذهني، وكأن مستقبل جديد يتشكل أمام عيني.من منى إلى مكة، بدأت رحلتي وحدي، مخترقًا الصفوف الطويلة للحافلات، مشيًا على قدمي في رحلة تأملية عميقة. وعندما انتهت رحلة الحج ووجهت وجهي شطر لندن، تذكرت ذلك الحلم الذي كنت فيه أسير في صلاتي، تاركًا الكعبة خلفي. كانت تلك لحظة انعتاق، حيث تتجلى الأحلام وتتحول إلى حقيقة، ويبدأ الفصل الجديد من رحلة العمر.

عندما عدت من لندن بعد حوالي ستة أشهر، وجدت الأوضاع في الهند قد تغيرت بشكل ملحوظ. كانت المشاعر المحيطة باستعادة مسجد بابري تغلي بين المسلمين، بينما كانت الحركات الهندوسية النهضوية تتحرك بسرعة وتنظيم نحو مواجهة حاسمة. كان هؤلاء النهضيون يتلقون الدعم من الحكومة والأجهزة الإدارية، في حين لم يكن لدى القادة المسلمين أي خطة عملية واضحة بخلاف بياناتهم الاستفزازية. كانت الصحافة تنشر تصريحات المسلمين فقط لتبرير أفعال الهندوس العدوانية .كانت الأيام الأخيرة من ديسمبر ١٩٨٦ عندما عدت إلى

دلهي. كان صدى المؤتمر الوطني لمسجد بابري، الذي عقد في دلهي قبل بضعة أيام فقط، لا يزال يتردد في الدوائر الاجتماعية. حاول المؤتمر توحيد جهود اللجان العملية المختلفة والقادة الشباب من خريجي جامعة علي غره تحت لواء واحد. أدى المؤتمر إلى تشكيل لجنة التواصل لمسجد بابري المكونة من عشرة أعضاء، بقيادة سيد شهاب الدين. كان إبراهيم سليمان سيث وعبد الله بخاري من بين أبرز الأعضاء. حصلت اللجنة أيضًا على دعم من لجنة استعادة مسجد بابري في أوتار براديش ودلهي ومجلس مشاورات المسلمين. وبذلك، اكتسبت لجنة التواصل التي أسسها سيد شهاب الدين مكانة كجبهة موحدة على مستوى الأمة بعد مجلس القانون الشخصي الإسلامي.في السنوات الأخيرة، أثار مجلس القانون الشخصي الإسلامي حماسة شعبية كبرى حول حماية الشريعة، وكان تأثير هذا الحماس ما يزال قائمًا. استخدم قادة مسجد بابري هذا الحماس الديني لأغراضهم الخاصة. كان الوضع مشابهًا لما فعله غاندي حين حول الحركة الشعبية الناتجة عن حركة الخلافة إلى حركة عدم التعاون بحنكة. في البلاد، كانت سفينة القيادة تبحر الآن دون مشاركة علماء المجلس. في ديسمبر، لم يشارك كبار قادة المجلس في مؤتمر بابري مسجد الوطني الذي عُقد في دلهي. لم يكن الشيخ أبو الحسن علي الندوي، المعروف باسم علي ميان، مؤيدًا لفكرة حركة شعبية لاستعادة المسجد، لكن سفينة القيادة كانت قد أبحرت بالفعل، فوجد العديد من القادة والمنظمات المحلية الأمان في الانضمام إلى هذه السفينة.

لقد تم اتخاذ ثلاث قرارات رئيسية في مؤتمر دلهي: أولاً، مقاطعة احتفالات يوم الجمهورية في ٢٦ يناير. ثانياً، تنظيم تجمع جماهيري كبير في Boat Club في ٣٠ مارس. ثالثاً، إذا لم تكن هاتان الخطوتان فعّالتين في استعادة المسجد، فسيقوم المسلمون في أكتوبر بمسيرة نحو أيودهيا كخطوة استباقية.عندما أُعلنت مقاطعة يوم الجمهورية، اندلعت ضجة كبيرة في الصحافة الوطنية. أصبح سيد شهاب الدين، بصفته منسق لجنة الاتصال، محور النقاش في كل مكان. اعتبر الكثيرون دعوته لمقاطعة احتفالات يوم الجمهورية خيانة وطنية. طالب أدفاني من حزب

جاناتا بطرد شهاب الدين من الحزب. حتى قادة حركة المسجد الآخرين وقعوا في حالة من الارتباك. وفي النهاية، سحب شهاب الدين الدعوة، لكن هذا النزاع في الصحافة الوطنية قوى موقفه الاستراتيجي.على الرغم من أن حملة مجلس القانون الشخصي الإسلامي لحماية الشريعة بدأت كحركة صاخبة وغير منظمة، إلا أن العلماء كانوا يُنظر إليهم كشخصيات روحانية ومقدسة، مما أدى إلى عدم إدراك فوري لعواقب ومخاطر حملتهم. لكن كان واضحًا أن قادة المسجد ببياناتهم المثيرة للجدل وإعلاناتهم غير المسؤولة كانوا يتنافسون في التفوق على بعضهم البعض، مما أدى إلى تصاعد العداء ضد الهندوس وتقوية الشعور القومي لدى المسلمين. كان من الواضح أنه سيكون من الصعب السيطرة على هذه العاصفة من الكراهية والتصادم في المستقبل. أرسلت رسالة إلى سيد شهاب الدين تعبر عن هذه المخاوف، لكنه لم يفهم قلقي. في رده على رسالتي، كتب:

> كريمي السيد شاز! السلام عليكم،
>
> تلقيت رسالتكم الكريمة، وأشكركم على دعواتكم وتمنياتكم الطيبة. نحن الآن عند منعطف تاريخي. الحماسة مطلوبة، ولكن العقلانية أيضاً ضرورية، ومع ذلك، لن تفلح الحكمة والحذر في هذا الوضع. الآن هو الوقت الذي نحتاج فيه إلى شجاعة إبراهيم عندما قفز دون تردد في نار نمرود. دعوا الله تعالى أن يهدينا ويمنحنا الإرشاد.
>
> سيد شهاب الدين

في تلك الأيام، كانت دعوة القفز في نار النمرود تُطلق ليست فقط من قِبل سيد شهاب الدين، بل أيضًا من قبل قادة اللجان العملية الشبان وخطباء المسجد الجامع. وكأن هناك صدى مستمر يتردد بالتحدي للقوميين الهندوس. خرج نائب إمام المسجد في رحلة إلى أيودهيا بعزم لا يتزعزع، إما أن يؤدي صلاة انتصار في مسجد بابري أو يعود جثمانه. وفي لحظة حاسمة قبل مغادرته، عندما سُئل عن موعد عودته، خرجت الكلمات منه دون تفكير: "بعد غد."كان الوضع الذي يتخذ مساره الآن خارج سيطرة الحكومة وأي مجموعة مسلمة مرموقة أو منظمة وطنية أو شخصية دينية. لم يعد بإمكانهم منع المسلمين من المشاركة في

هذه المعركة من أجل الكرامة القومية، التي لا تتعارض فقط مع احتمال أن يظل المسلمون عالقين في حرب غير مخطط لها، ولكن أيضًا مع شخصيتهم النبوية والدعوية. إنها ليست مجرد معركة من أجل الحقوق الدستورية لأمة، بل معركة تحمل أبعاداً أعمق وأكثر تعقيدًا.

في منتصف مارس، انتشرت أخبار وصول سيد شهاب الدين كالنار في الهشيم. في حديقة سر سيد هال التاريخية، أقيم تجمع ضخم، وظل الجو يهتز بصدى التكبير لفترة طويلة. في الثلاثين من مارس لعام ١٩٨٧، اجتمع المسلمون الهنود في رالي ضخم بميدان بوث كلب، في ما يُعتبر أكبر تجمع للمسلمين في الهند المستقلة، تجمع هائل بحق. كانت الظروف بالغة الحساسية؛ السفر إلى دلهي لم يكن آمنًا أو مضمونًا. كانت القطارات والحافلات المتجهة إلى دلهي تحت مراقبة الغرباء. في هذا الجو المشحون بالخوف والقلق، وصلت إلى المحطة مع صديقي العزيز محمد نور الله. بصعوبة، وجدنا قطارًا. في ذلك اليوم، كانت معظم القطارات إما متأخرة أو تسير ببطء. في الحشائش الخضراء الواسعة لبوث كلب، كان هناك بحر من المسلمين يتلاطم بعنف. على الجانب الأيمن من المنصة، كانت هناك لافتة كبيرة مكتوب عليها بحروف واضحة:

"لا تخافوا يا مسلمين، فمجد الله لا يزال قائمًا،
لا يزال الإسلام حيًا، والقرآن موجودًا.
ماذا يظن هؤلاء الكفار، الذين يضحكون في قلوبهم؟
لا تزال المعركة الأخيرة في كربلاء قائمة".

في تلك الأيام، بدا وكأن المسلمين قد تجمعوا مرة أخرى في دلهي لمعركة حاسمة ونهائية. كان هناك من جهة حماس شعبي كبير، ومن جهة أخرى، كانت الخطب على المنصة تعكس الانقسام والفوضى داخل الأمة. كان السؤال الذي يتردد بين القادة هو: من هو القائد الحقيقي لهذا التجمع التاريخي؟ اعتبر جاويد حبيب أن مسجد بابري نفسه هو قائد هذه الحركة ولا يحتاج إلى قائد. لم يتمكن عبد الله بخاري، إمام جامع مسجد دلهي، من السيطرة على مشاعره لدى رؤيته

هذا الحشد الضخم من المسلمين. حذر الحكومة قائلاً: "إذا أشرت إلى هذا الجمع أن يحرقوا منازل الوزراء المسلمين ويكسروا أرجلهم، ماذا سيحدث؟" في هذه الأثناء، حاول سيد شهاب الدين تهدئة الإمام بخاري، مشيرًا إلى قميصه، لكن الإمام لم يكن من النوع الذي يمكن السيطرة عليه. دفع الإمام بخاري شهاب الدين بعيدًا عن المنصة، مؤكدًا أنه لا يؤمن بالتحفظ في القضايا الوطنية والدينية. بعد العودة من هذا التجمع التاريخي، كتبت كتيبًا بعنوان "مسجد بابري والمسلمون الهنود"، حيث انتقدت بشدة الحملة غير المسؤولة وقصر النظر لدى القادة. كتبت فيه:

"أيها الإخوة الأعزاء، إن مأساة مسجد بابري تبشر بلا شك بمستقبل قاتم لكم في الهند، لكن ما هو أكثر خطورة من ذلك هو الطريقة التي تسعون بها لاستعادة هذا المسجد. والله، أنتم ترتكبون خيانة كبرى، فأنتم تستغلون اسم بيت الله لتعزيز نزاعكم القومي، ومن المؤسف أنكم لا تشعرون بأي تردد حتى عندما تضعون سمعة الإسلام على المحك. تسعون بأي ثمن لتحقيق التقدم القومي لكم، ليتكم استفدتم من دروس الماضي. هذا النوع من التفكير لديكم هو الذي أدى إلى تقسيم البلاد من أجل المصلحة القومية فقط، كنتم تخافون من الفقر الاقتصادي في هندوستان الموحدة، ومن سيطرة الهندوس، ولذلك أصبح الحصول على منطقة منفصلة أمرًا لا مفر منه. لكنكم لم تفكروا في أنه إذا ترك المسلمون هندوستان المقسمة، فإن هذه الأرض ستظل لفترة طويلة خالية من صيحات 'الله أكبر'، وستُغلق جميع الطرق لنشر رسالة الله إلى جمع كبير من البشر دفعة واحدة.ثم ما حصل نتيجة هذا التفكير القومي المشوه، وما يحدث في باكستان، الدولة التي تم الحصول عليها باسم الله لمصلحة الانتهازيين، هو عقاب من الله، جزاء لخيانة كبيرة. ليتكم تتعلمون شيئًا من ذلك. أعطى هؤلاء الوطنيون المنتفعون فرصة لأعداء الإسلام ليقولوا: 'انظروا، الإسلام فشل في باكستان'، بينما الحقيقة هي أن الإسلام لم يُمنح فرصة للدخول في باكستان. منذ اليوم الأول، كان الخطأ الخطير هو تنظيم أمة الإسلام في باكستان على

أسس وطنية بدلاً من الأسس الأيديولوجية. وعندما يتجاوز الولاء للأمة الولاء لله، وعندما تصبح المصلحة الوطنية هي كل شيء، فمن الطبيعي أن تظهر فرق مختلفة داخل الأمة وتحدث الاشتباكات والدماء بينها. لقد ذكرت تفاصيل حادثة التقسيم بشكل مفصل لأنني اليوم أسمع مرة أخرى نفس الشعارات الأنانية.

كيف يمكنني أن أقنعكم بأن الشعارات الوطنية المسحورة والجهود المبذولة من أجل المصلحة الوطنية لن تكون علاجًا لألمكم؟ الهزيمة في نزاع قومي محدد أمر مؤكد لكم، ومن المؤسف أن انحطاطكم الأخلاقي أخذ منكم القدرة على التمييز بين الهزيمة والنصر. فكروا قليلًا، فإذا حققتم مسجد بابري في نتيجة نزاع قومي طويل، فما الفائدة التي ستعود على الإسلام من ذلك؟ نعم، ستتمكنون من الوقوف بكبرياء أمام الأمة المنافسة وتقولون إنكم أمة حية. ستتمكنون من إلقاء سهام الاحتقار على الآخرين وأنتم ثملون بغروركم الوطني، لكن هذا الفعل الذي تعتبرونه نصرًا سيكون في الواقع أكبر هزيمة لكم، لأنكم في هذه العملية ستخلقون جوًا من الكراهية وستروون بذور التعصب بين الأمم الأخرى، وهو ما بدأ بالفعل من قبل قادتكم الوطنيين العلمانيين. تأكدوا، فإن هذه الفيضانات المرعبة من الكراهية والتعصب والتعصب الوطني ستغمر هويتكم الدعوية أيضًا. وبالتالي، سيتم حصار أغلبية كبيرة من الهندوس، التي لا تزال تتمتع بفرص كبيرة للدعوة والتبليغ والتي ترغب في دراسة الإسلام بنظرة واسعة، داخل جدران التعصب الهندوسي. بالتالي، ستغلق استعادة مسجد بابري على أسس وطنية باب الدعوة والتبليغ والتفاهم في البلاد لفترة طويلة. ولن تتوقف هذه السلسلة هنا، فإحساس الأمة المنافسة بالهزيمة سيولد فيها دافعًا شديدًا للانتقام والكراهية، ولن تجدوا مأوى حتى في قوقعة التعصب القومي التي بنيتموها."

(ص ص ١١-١٢)

على الرغم من أن هذه الكتيبة كانت تعارض الرأي العام السائد، إلا أنها حظيت باستقبال استثنائي. في وقت قصير، تم طبع العديد من الطبعات منها.

اشترى الكثير من الناس نسخًا بكميات كبيرة لتوزيعها مجانًا في دوائر تأثيرهم. بدأت أتلقى رسائل من جميع أنحاء البلاد تشير إلى أنني قد حددت الانحراف الوطني في وقته المناسب. بسبب النثر الرائع وأسلوب الكتابة الذي يذكر بأبو الكلام، اعتقد الكثيرون أنني كبير في السن. كما وجهوا إلي تهمة أنني، بما أنني كنت أرى الأوضاع بدقة بالغة، لماذا ظللت صامتًا حتى الآن. في نهاية الكتيبة، تم أيضًا تقديم مقدمة لكتابي القادم 'الغلبة الإسلامية' لتوفير خطة عمل واضحة لأولئك الذين يهتمون بتنظيم مهمة نبوية جديدة بدلاً من القتال من أجل الفخر الوطني. كان هناك توق كبير في العديد من الرسائل لنشر 'الغلبة الإسلامية.'

في لحظة أصبح فيها التيه العام مصيرنا، فكرت في نشر منشور لإحياء الإسلام في الهند تحت عنوان 'الغلبة الإسلامية' بشكل عاجل. كانت درجة حرارة العداء بين الهندوس والمسلمين ترتفع باستمرار. كانت الأخبار حول الاضطرابات والتوترات بين الهندوس والمسلمين تأتي من مختلف المدن. في مثل هذه الظروف، كان التركيز على الكتابة والتأليف ليس بالأمر السهل. كان الكتاب في مرحلته الأخيرة عندما أحدثت رسالة غير متوقعة اضطرابًا في سلسلة تركيزي. لم أكن أعلم أن الأحداث المروعة لمعاداة المسلمين في ميرت، التي كانت الأخبار الرهيبة تأتي منها، ستكون مرتبطة بحليم الأخ. كلما قرأت الخطاب، كان يبدو كما لو أن موجة من الخوف والذعر تتسرب إلى وجودي. كان مكتوبًا:

"أخي العزيز، السلام عليكم

أكتب هذه الرسالة من ميرت، حيث أجريت مؤخرًا عملية جراحية. للتو خرجت من غرفة العمليات، عندما هاجم المتظاهرون مركز التمريض. أصروا على إخراج المرضى المسلمين، لكن الدكتور باتناغار رفض بشدة. في المقابل، تعرض المركز للتخريب والنهب. ومن سخرية القدر، فقدت مسودة يومياتي غير المنشورة في هذا الهجوم. كانت تلك المذكرات توثق ألمي ومعاناتي على مدار السنوات القليلة الماضية.

كتيبك 'مسجد بابري والمسلمون الهنود' وصلني مؤخرًا. انتقلت إلى ميرت هربًا من حملات الشرطة في مورادباد. بدعم من الأقارب، بدأت الحياة من

جديد، لكن الاضطرابات وجدت طريقها إلى بيتي مرة أخرى. حركة رام جنم بهومي أثارت الوحشية في الناس. عندما زرت الحكيم سيف الدين، تحدث عن الكراهية المتزايدة بسبب النزاع حول المسجد والمعبد، حتى أن الناس يؤيدون الثيران في قتالها بناءً على هويتها الدينية. لقد كتبت كل هذا. الشيء الذي لم أكن أرغب في إزعاجك به، لكن لا بد من ذكره، هو أن أصغر إخوتي، كليم، مفقود منذ حوالي خمسة وعشرين يومًا. بمجرد أن أتعافى من المستشفى، سأبحث عنه. البعض يقول إنه قُتل في الاضطرابات. عندما كانت الشرطة تبحث عن الأسلحة في الأحياء المسلمة، هرب عبر الجدار الخلفي. الله وحده يعلم أين ذهب. لا يبدو أنه نجا بعد الحوادث في ماليانا وهاشيم بورا. لا يزال هناك أمل ضئيل. لقد اعتدت الآن على تحمل الحزن. أحيانًا أفكر، هل سيحاسبنا الله يومًا ما نحن الذين نعاني؟ كم من القيامات سنتحمل؟ الكراهية في عيون الجميع. هذا المكان لم يعد للبشر. نحن نخطط للنقل مرة أخرى. أمروها، موراداباد أو شاهجهان بور، لا أعلم ما هو وجهتنا التالية.

بطلب الدعاء، أخوك

عبد الحليم صديقي"

بعد قراءة الرسالة، خطر ببالي ترتيب بعض المساعدات الفورية لأخي حليم. ففي ظلال الأيام القليلة الماضية، شكّل بعض الطلاب من ميرت وهابور لجنة إغاثة لمساعدة المتضررين، ومن خلال جهودي تم التبرع بمبالغ كبيرة. كان أرشد، روح اللجنة، يقطن في نفس السكن الجامعي الذي أعيش فيه. بعد بضعة أيام، ذهب أرشد ورفاقه محملين بأموال الإغاثة إلى ميرت، في رحلة كانت بمثابة عبور حقيقي ومجازي نحو قلب الظلام.وصلوا إلى حي الشيخ في ميليانا، حيث كان حليم يقطن. لم يبقَ هناك سوى الأنقاض وصدى صرخات الأيتام والأرامل، فقد كان هذا المكان، الذي كان يومًا مجتمعًا حيويًا، قد تحول الآن إلى مسرح للخراب. تحولت الشوارع الحيوية في السابق إلى مسارات للنفي، مسكونة بأشباح الماضي وصدى الآلام المفقودة.في هذا المشهد القاسي، يتجلى الصراع الإنساني بكل وحشيته وجبروته، حيث تتحول الشوارع والمنازل إلى شهود صامتين على الألم

والفقدان. وفي هذا السياق، ينبثق جهد أرشد ورفاقه كشعاع ضوء في ظلام دامس، محاولة لإعادة بعض الأمل إلى قلوب منكسرة.

في مدينة مليانا، تتناقل الألسن حكاية غريبة. يُروى أن الأوضاع في ميرت قد تمت السيطرة عليها بعد فترة من الاضطرابات. بدت الحياة تستعيد طبيعتها، حتى استدعى راجيف غاندي، رئيس وزراء الهند، فجأة فير بهادور سينغ، رئيس وزراء الولاية، إلى دلهي. وجه غاندي اتهامات لمسلمي هاشم بوره وأمليان بالتمرد، مشيرًا إلى رفضهم السماح للشرطة بتفتيش مناطقهم خلال حظر التجول. أعرب فير بهادور عن اطمئنانه بأن الأمور في ميرت تحت السيطرة، لكنه كان أمام أمرٍ من رئيس الوزراء. في اليوم التالي، وصل فير بهادور إلى ميرت وعرض قضية تمرد المسلمين على ضباط قوة الشرطة المسلحة. كان بهادور يتحدث بلهجة البوجبورية، وكان لديه عيب في النطق. أساء ضباط الشرطة فهم كلماته بسبب تلعثمه، فظنوا أنه يتحدث عن مليانا بدلاً من أمليان. وهكذا، انتقموا خطأً من مسلمي مليانا بدلاً من مسلمي أمليان.في تلك الأيام، كانت الشائعات تعمّ أن راجيف غاندي عيّن فير بهادور سينغ كرئيس وزراء أوتار براديش لتحقيق أهدافه الخاصة. تم فتح قفل مسجد بابري بأوامره، وعلّم مسلمي الولاية درسًا قاسيًا. عندما انتشرت أخبار سوء إدارته، تم نقله من منصبه كرئيس وزراء إلى وزير الإعلام في حكومته. ومع زيادة مخاوف تسريب أسراره، توفي فير بهادور بشكل غامض خلال رحلة إلى فرنسا. الحقيقة معروفة فقط لله، ولكن نقل منصب رئيس وزراء ولاية أوتار براديش من إن دي تيواري إلى فير بهادور، ثم إعادته لاحقًا إلى تيواري بعد انتهاء المهمة، يوحي بأن راجيف غاندي استخدم فير بهادور لتحقيق ما أراد، وبعد ذلك أقصاه عندما أصبح خطرًا.

٤٢

الشيخ سبحاني

بعد مسيرة مسجد بابري، اجتاحت موجة من أعمال العنف ضد المسلمين البلاد بأسرها، ولا سيما في مدن ولاية أوتار براديش المختلفة. في الأيام الأخيرة من شهر رمضان، في مايو، تحت حرارة الصيف المرهقة ووابل من الأخبار المقلقة كل يوم. عندما عدت من المكتبة، وجدت الكهرباء مقطوعة، وكان معين ومجاهد يجلسان في الشرفة، غارقين في تصفح الصحف، وقد غلبت عليهما جدية غير مألوفة. كانا جيراني، يدرسان للحصول على الدكتوراه في العلوم الطبيعية، ويقضيان معظم وقتهما في المختبر. عادة ما يملآن الجو بالضحك والمزاح عندما يجتمعان، لكن اليوم بدا القلق يسيطر عليهما. اكتشفت أن هناك حادثة جديدة من الوحشية في أحداث العنف بمدينة ميرت تثير قلقهما.في البداية، قامت الشرطة والقوات العسكرية بحصار تام للأحياء المسلمة. أُخرج السكان من منازلهم إلى الشوارع وتم ترتيبهم في صفوف. تم فصل الرجال المسنين والأطفال والشباب والنساء عن بعضهم. تم اعتقال ٧٠٠ شخص فقط في حي هاشم بورة، بما في ذلك ٤٢ شابًا تم اختيارهم للإعدام. في المجمل، تم اعتقال أكثر من ٢٥٠٠ شاب من مختلف الأحياء المسلمة في المدينة، ولم يُعرف مصيرهم. الأشخاص الذين تم اعتقالهم رسميًا والذين ماتوا في الحجز أو السجون نتيجة التعذيب من قبل الشرطة يختلف عن هذا العدد. أثار خبر القتل الوحشي لـ٤٢ شابًا موجة من الذعر والصدمة في وسائل الإعلام. قال مجاهد إن هذا يعتبر حادثة فريدة في تاريخ الهند المستقلة، حيث تم اعتقال الشبان المسلمين في عملية مشتركة للشرطة والجيش، ثم تم إطلاق النار عليهم واحدًا تلو الآخر على ضفاف نهر هندن ليلاً،

وأُلقيت جثثهم في النهر.لحسن الحظ، كانت هناك قرى مسلمة على طول ضفاف النهر. عندما علم سكان القرية بوجود الجثث تطفو في النهر، بدأوا فورًا في البحث عن الناجين. وُجد أربعة أشخاص لا تزال عليهم علامات الحياة، وتم نقلهم إلى المستشفى. من ناحية أخرى، كان بابو دين أنصاري من داربهانجا، الذي أصيب برصاصة من الشرطة وظل عالقًا في الأدغال في حالة شبه ميتة، وتركته الشرطة معتقدة أنه ميت. في تلك اللحظات الأخيرة، كان يناجي ربه. وأرسل الله فيبهوتي نارايان روي، ضابط شرطة مخلص من غازي أباد، لإنقاذه. أخرج فيبهوتي نارايان بابو دين من الأدغال، أحضره إلى مركز الشرطة، سجل إفادته وقدم بلاغًا ضد الكتيبة ٤١ لقوات المسلحة الإقليمية. كان رئيس وزراء ولاية أوتار براديش، فير بهادر سينغ، نائمًا فيUP Bhawanفي دلهي في ذلك الوقت. عندما علم بالبلاغ، شعر بالذعر. يقول العارفون به أنه ركض حافي القدمين نحو سيارته قائلاً 'هذا أمر جنوني، هذا أمر جنوني'. ذهب على الفور إلى غازي أباد، أصدر أوامر بتعليق وظيفة فيبهوتي نارايان، ووضع حراسة شرطية على المستشفى الذي كان يُعالج فيه الناجون لمنع وسائل الإعلام من دخولها.

أخبار ميليانا وهاشم بورة المروعة سرقت الابتسامات من وجوه الشباب الطموحين مثل معين ومجاهد. العيون التي كانت تحلم بالمستقبل الباهر أمس، أصبحت اليوم مليئة بالرعب والخوف. المجالس التي كانت تنبض بحديث الرومانسية والجمال، الآن يسيطر عليها القلق بشأن مستقبلهم في هذا البلد. مجاهد، الذي عاد للتو من مؤتمر في ألمانيا، كان مليء بالثقة بالأمس، اليوم أصبح مثقلًا بالهموم. يرى أن القتل والدمار يزدادان، وأن قادتنا الوطنيين أصبحوا، دون قصد، أدوات في يد الأعداء. يبدو أننا، بشعاراتنا الحماسية، نعزز حركة رام جنم بهومي.

عندما قرأت الخبر، سألت: "كيف ذلك؟"

قال: "انظر، في ٣٠ مارس، أقيمت مسيرة مسجد بابري التي وُصفت بأكبر تجمع للمسلمين في الهند المستقلة. وكانت هناك خطابات تحريضية. شعر

الهندوس بأن المسلمين يعيدون تنظيم أنفسهم. بعد أسبوع، كان مهرجان رام نومي، الذي استخدمه الهندوس كهجوم مضاد. في كل مكان مرت به مواكب عباد رام، أريقت دماء المسلمين الأبرياء".

قلت: "لكن يبدو أن مواكب رام نومي لم تكن بهذه الأهمية. الحريق الحقيقي بدأ بسبب خطاب ١٦ مايو." قال معين.

سألت: "أي خطاب؟"

قال: "خطاب بوت كلوب".

قلت: "لكن المسيرة كانت في ٣٠ مارس".

قال: "الجميع يعرف عن مسيرة ٣٠ مارس. لكن في بوت كلوب نفسه، في ١٦ مايو، ألقى رئيس الوزراء راجيف غاندي خطابًا أمام نشطاء الكونغرس. قال إن بعض الأشخاص يريدون زعزعة استقرار البلاد، وأن هناك تدخلًا أجنبيًا. تسلح الولايات المتحدة باكستان. قال راجيف غاندي: 'سنعطيهم ردًا قويًا، ردًا سيجعلهم يتذكرون أجدادهم'".

سألت: "إذًا، كان راجيف غاندي يلعب بورقة الهندو؟"

أجاب معين: "هذا واضح للغاية. إذا أثار خطاب عبد الله بخاري في بوت كلوب عواطف المسلمين، فإن خطاب راجيف غاندي كان رسالة واضحة للهندوس بأن الحكومة جادة في مواجهة المسلمين وداعميهم".

تساءل معين: "لكن لماذا لم يثر قادتنا الوطنيون ضجة حول هذا البيان؟"

أجاب: "كيف كانوا سيفعلون ذلك؟ يعتبر القادة الوطنيون راجيف غاندي جوهرة عيونهم. ألم تلاحظ كيف كان العلماء المسلمون وقادة المسلمين في الكونغرس يمتدحون صداقته للمسلمين خلال قضية النفقة المطلقة؟"

أيد مجاهد معين قائلاً: "أنت محق. لم يكن ينبغي لرئيس الوزراء أن يدلي بمثل هذا البيان".

أضاف: "هذه هي الطريقة المميزة لراجيف. لا يتردد أبدًا في تعليم درس للضعفاء. في عام ١٩٨٤، عندما وقعت أعمال عنف ضد السيخ في جميع أنحاء

البلاد، وعندما قُتل أكثر من ٣٠٠٠ سيخ بريء في دلهي وحدها، برر راجيف غاندي هذه المذبحة قائلاً: 'عندما تسقط شجرة كبيرة، تهتز الأرض.' هذه هي طريقة عمل رئيس وزرائنا المستنير والعلماني".

قال مجاهد، متوجهًا نحوي: "أعتقد أن معين يتحدث بصدق." وتابع: "يبدو أن كل من القوميين الهندوس وحزب المؤتمر الحاكم يتحدان ليذكرا المسلمين بأجدادهم. قبل يومين، كنت في دلهي، مررت بمنطقة دريا غنج حيث رأيت ريكشا سكوتر مزينة بلافتات كبيرة تحمل شعارات تحريضية: 'كيف سيكون العيد هذا العام؟ مثل مورادآباد'. وعلى الجانب الآخر كُتب: 'من يطالب ببابري، فهذا وقته الأخير'. كان هناك مجموعة صغيرة من الشباب يرتدون زي البهاجفاد خلف الريكشا، يطلقون الشعارات ويشغلون الأغاني التحريضية عبر مكبرات الصوت. كل لحظة شعرت أن فوضى جديدة على وشك أن تبدأ. ماذا أقول لك، شعرت بالرعب، لا يُعلم متى قد يبدأ سفك الدماء. عندما تخرج من الحرم الجامعي، تدرك مدى عطش العالم لدمائنا"...

بينما كان مجاهد لا يزال يتحدث، سمعنا صوت خطى على الدرج. قال معين فجأة عندما رأى القادم: "أهلاً، الشيخ سبحاني! تفضلوا، تفضلوا. ألم تستريحوا بعد؟"

كانت قصة الشيخ حسن سبحاني فريدة من نوعها. انضم إلى الجامعة للحصول على درجة الدكتوراه وهو في سن الثانية والسبعين. كان ابن الشيخ آزاد سبحاني، أحد الأولياء الصالحين المشهورين. يعرف العالم بالشيخ آزاد سبحاني الذي قاد الاحتجاجات ضد هدم مسجد مشتشيلي بازار في كانبور وتحمل السجن والمحن في سبيل ذلك. شارك بنشاط في حركة باكستان، لكن عندما شاهد معاناة المسلمين في الهند بعد الانقسام، قرر البقاء هنا. كانت غرفة الشيخ سبحاني بالقرب من غرفتنا. كلما التقينا به، كان يسألنا عن أحوالنا باللغة الأردية الفصحى. لم يدنس لسانه بكلمة إنجليزية واحدة.

على سبيل المثال، كان يقول: 'هل شاركتم في مناقشة التعيين؟ سمعت أن العزيز فاروق قد تم تعيينه في الفصل الثاني عشر، وقد حصل أيضًا على تسهيلات الطعام والإقامة في الدار الإقامية'".

"وعندما يكون الجو غائمًا، كان الشباب يسألونه عن توقعات هطول الأمطار. أحد الشباب، والذي يبدو أنه تلقى تعليمه في مدرسة إنجليزية، قدم صديقه للشيخ سبحاني قائلاً: 'شيخنا، هذا صديقي، نحن أصدقاء منذ أيام المدرسة.' للحظة، بدا الشيخ متحيرًا، لكن عندما فهم المعنى، انفجر ضاحكًا".

اليوم، بدا الشيخ سبحاني مضطربًا وقلقًا. تساءل بنبرة متفكرة: "ماذا تريد الحكومة حقًا؟ الأوضاع تخرج عن السيطرة. أخشى وقوع حادث كبير خلال تجمع عيد الفطر".

"لكن هذه المرة، قررنا الاحتفال بعيد متواضع وبسيط." قال مجاهد، محاولًا تقديم بعض التوضيح.

رد الشيخ سبحاني بنبرة حزينة: "منذ الاستقلال، كان كل عيد في هذا البلد متواضعًا وحزينًا. ولكن ستكون هناك تجمعات، أليس كذلك؟ لقد سمعت أن شعارات مراداباد تُردد".

أكد معين، "نعم! وكل ذلك يحدث تحت إشراف الحكومة مباشرةً. ألم تسمع الخطاب الذي يذكر بالجدات؟"

أضاف الشيخ سبحاني بقلق: "يبدو أننا نعود إلى أيام تقسيم الهند. سمعت أنهم يحددون هوية المسلمين في القطارات من خلال قوائم الركاب".

"لكننا وجدنا حلاً لهذه المشكلة." قال مجاهد، موضحًا. "تعرف عبد الله من غوراخبور، الذي يدرس في قسم الهندية؟ قام بترجمة اسمه إلى الهندية على تذكرة القطار." وظهرت على وجه مجاهد ابتسامة مشاكسة.

متفاجئًا، سألت، "وماذا كتب؟"

رد مجاهد بمكر: "هي ترجمة دقيقة ومناسبة. كتب: بهاجوان داس".

ضحك الشيخ سبحاني، معبرًا عن إعجابه المصطنع بالترجمة، "إذًا، أصبح الشاب الكريم الآن بهاجوان داس؟ يجب أن أقابله وأتحدث معه عن ذلك".

قال مجاهد، محاولًا إضافة المزيد من الجدية للمحادثة: "ما المشكلة في ذلك؟ إذا كان تغيير أسمائنا من نور الله إلى أوم براكاش أو من سلمى بيجوم إلى شانتي ديفي يمكن أن يحول دون الفتنة، فلماذا لا؟ بهذه الطريقة، يمكننا أيضًا التخلص من حجاب اللغة".

أجاب الشيخ سبحاني بنبرة تعكس تفكيرًا عميقًا: "هذه مسألة دقيقة ومعقدة. اللغة تجلب معها الثقافة أيضًا. إذا كنا

٤٣

أرض دلهي: محراب الأحزان

الأشهر القليلة الماضية مرت في حالة من الاضطراب الشديد. لم يكن هناك يوم لا تأتي فيه أخبار عن القتل والدمار من مختلف المدن. خلال هذا الوقت، اكتمل كتاب "غلبة الإسلام". كنت قد خططت لرحلة إلى دلهي لنشره. للتو خرجت من غرفتي عندما سمعت أنه تم إنزال أحد عشر مسافرًا مسلمًا من حافلة ميرت-بجنور وقتلهم. حاول أصدقائي إثنائي عن الرحلة. تذكرت الليلة التي نجحت بالكاد في ركوب عربة قطار لحضور تجمع مسجد بابري، لكن مع تأخر القطار وتوقفه غير المتوقع في المحطات الصغيرة، تزايدت المخاطر، وظل قلبي يخفق بقلق، لكن بفكرة أن هذه هي الآن أيامنا ولياليـنا في هذا البلد، اتجهت نحو دلهي. عند وصولي، ماذا وجدت؟ لافتات سوداء كبيرة معلقة على البوابة الرئيسية لجامع مسجد تحتج بشدة على المذابح والظلم ضد المسلمين. كانت المآذن مغطاة بأغطية سوداء، مما أعطى انطباعًا بأن المسلمين يمرون بأوقات صعبة، وأن قلوبهم مجروحة وحزينة، وأن جامع مسجد في حالة حداد. سمعت أن إمام جامع مسجد، عبد الله بخاري، أغلق أبواب المسجد على المصلين والزوار احتجاجًا على أعمال الشغب في ميرت بعد رمضان بأيام قليلة. ظل المسجد مغلقًا لنحو أسبوعين. ثم بعد تأكيدات الحكومة بأنها ستعاقب الضباط المذنبين وستطلق سراح المسلمين المظلومين، أعيد فتح المسجد، لكن الأغطية السوداء الملفوفة حول المآذن ما زالت تعلن أن...

"أرض دلهي هي موضع سجود لقلب حزين ومجروح".

عند دخولي من الباب الرئيسي للمسجد الجامع، لفت انتباهي صندوق التبرعات المخصص لدعم آدم سينا. كانت المرة الأولى التي سمعت فيها عن آدم سينا في العام الماضي، لكن لم أشهد أي دور فعلي لهذا التنظيم الناشئ في المقاومة أو الدفاع خلال هذه الفترة المضطربة. الآن، ومن خلال صناديق التبرعات المعلقة في جامع مسجد، اتضح أن هذا التنظيم لا يزال قائمًا ويعتبر السند الوحيد للمسلمين في مواجهة نوايا متطرفة لتنظيمات مثل شيوسينا، بجرانغ دال وفيشوا هندو باريشاد، كما تصورها الصحف الوطنية. لو لم يكن آدم سينا موجودًا حتى على الورق، لكان من الصعب على الصحفيين إيجاد توازن في تغطيتهم. ثم كيف كانوا سيقدمون القضية كلها، التي كانت في الواقع صراعًا بين الآلة الحكومية والمسلمين العاجزين، على أنها نزاع هندو-مسلم؟

شهادات الضحايا التي قُدمت في مارس ١٩٨٨ في ميرت ودلهي تُظهر بوضوح كيف تم تنفيذ الحملة الحكومية لـ "تذكير المسلمين بأجدادهم" بكفاءة وفعالية. أحد السكان، محمد عثمان من هاشم بورة، يصف تجربته المروعة بالتفصيل:

> "في مساء ٢٢ مايو ١٩٨٧، حوالي الساعة السادسة، قامت قوات الأمن والشرطة والجيش باعتقالي أنا وجميع جيراني. أُجبرنا على الجلوس في الشارع، وشاهدنا الشرطة وهي تأخذ سكان حينا في ثلاث شاحنات. أُعيد الأطفال وكبار السن إلى منازلهم. بقينا نحن، حوالي خمسين شخصًا من الحي، وأُمرنا من قبل قائد قوات الأمن، الذي كان يحمل مكبر صوت، بالصعود إلى الشاحنة. كنت مع قادر صاحب متجر الشاي، حاجي مستقيم، حاجي شميم، نعيم، رضوان، عبد الحق وآخرين. تم حشرنا في الشاحنة بطريقة ما. حصلت على مكان في الوسط، لذلك لم أتمكن من معرفة وجهة الشاحنة. توقفت في مكان ما ونزل بعض أفراد قوات الأمن. ثم تحركت مرة أخرى، واستمرت في السير. كنا في حيرة من أمرنا، لم نفهم لماذا لم نصل بعد إلى مركز شرطة سيفيل لاينز، المنطقة الراقية.
>
> واصلت الشاحنة طريقها ثم انعطفت يمينًا. سمعت أحد جيراني يقول إن هذا هو قناة مرادنجر. هنا، أنزل رجال PACشخصًا واحدًا، أطلقوا النار عليه

ثم ألقوه في القناة. فعلوا الشيء نفسه مع شخص آخر، ثم ثالث. شعرنا جميعًا أن الموت أصبح حتميًا لنا. في تلك اللحظات الأخيرة، كان علينا أن نتذكر الله. نهضنا فجأة. رأى جنود PACحركتنا ووجهوا بنادقهم نحونا. أي شخص نجا من الرصاص أُلقي به في القناة. سقط شخص فوقي، لذلك نجوت من الرصاصة. ثم أمسكني اثنان من جنودPAC، بدأت بالصراخ والتوسل من أجل الرحمة، ذكرت أطفالي الصغار ووالديّ الكبيرين في السن. اقترب أحد الجنود واستعد لإطلاق النار. حاولت دفع فوهة البندقية بعيدًا عني. بعد ثوانٍ قليلة من الارتباك، أطلق الجندي النار وأصابتني في بطني. صرخت "أنا ميت". اعتقدوا أنني مت وألقوني في القناة. بعد وصولي إلى القناة، حاولت السباحة بصعوبة، لكن ساقاي لم تكونا تعملان. وصلت إلى الشاطئ بصعوبة. بعد مغادرة شاحناتPAC، خرجت من القناة. عندما وصلت إلى الطريق، وجدت عاملين بهاريين، مصابين بالرصاص مثلي، ينزفان. مرت شاحنتان، حاولت إيقافهما لكن دون جدوى. بعد قليل، رأيت بعض رجال الشرطة على دراجات نارية. لوحت لهم بيدي وتوقفوا. أخبرتهم أن رجال PACأطلقوا النار علينا وألقونا في القناة. قالوا إنهم سيأتون بسيارة جيب. بقي أحد رجال الشرطة معنا. قال لي رجال الشرطة إنه إذا أدليت بتلك الشهادة، فستكون حياتي في خطر، لذا يجب أن أقول إنني جئت لزيارة أخي، وأثناء ذلك بدأت الاضطرابات. أطلق شخص ما النار على ظهري. لا أعرف من كان. طوال فترة علاجي في معهد أول إنديا، كان هناك شخص من CID بجانبي طوال الوقت، ولم يسمح لأي صحفي بالتحدث معي. كنت أكرر لكل من حاول السؤال قصة الشرطة، لأنني شعرت أن حياتي لا تزال في خطر".

بعض الشبان الذين تم اعتقالهم من هاشم بورة إما استشهدوا نتيجة للضرب المبرح من قبل الشرطة أو توفوا في سجن فتح غره عجزًا عن تحمل جروحهم. أحد الشهود العيان على الوحشية البوليسية، برويز أحمد، الذي حصل على درجة الماجستير في الاقتصاد من جامعة ميرت، قد وصف الوضع بالكلمات التالية:

"كنت أنا، قمر الدين، وشيراز أحمد، في منزل نصير الدين، رقم ٩، في حديقة محمد حسين. كانت الساعة الخامسة والنصف مساءً عندما دخل الجنود إلى منزلنا. ألقوا القبض عليّ وعلى قمر الدين وشيراز أحمد ومحمد نصر وسالم، وأخذونا إلى الطريق الرئيسي. هناك، كان هناك العديد من سكان الحي. كان اللواء باثانيا وقائد سيخ يتوليان قيادة العملية. تم وضعي في شاحنة مع معين الدين. نُقلنا إلى خطوط الشرطة. عندما وصلت الشاحنة إلى خطوط الشرطة، أحاط بها جنود PACمن كل جانب وبدأوا في ضربنا. كانت الشاحنة مكشوفة. للهروب من الضرب، كان الناس يركضون من جانب إلى آخر. حدثت حالة من الفوضى داخل الشاحنة. خلال هذه الفوضى، سقط معين وأصيب بجروح بالغة. بعد قضاء ساعتين أو ثلاث ساعات في خطوط الشرطة، نُقلنا إلى محطة الشرطة في سيفيل لاينز. أخرجونا واحدًا تلو الآخر من الشاحنة وبدأوا في ضربنا بقسوة شديدة. نتيجة لهذا الضرب، فقد معين الدين وظهير أحمد ومينو الوعي. جروا أجسادهم ووضعوهم تحت شجرة. كانت تقريبًا الساعة الحادية عشرة ليلاً. أعتقد أن هؤلاء الأشخاص إما كانوا قد توفوا بالفعل أو توفوا بعد فترة قصيرة. في الساعة الرابعة صباحًا، أخذت الشرطة الجثث الثلاث إلى مكان آخر. بسبب الضرب الشديد، كسرت عظام كلتا ساقيّ".

تعرض هؤلاء الشباب المسلمون الأبرياء، الذين تحطمت قلوبهم بالغم، للتعذيب حتى في السجن. روى تاج الدين بن شمس الدين، الذي تم اعتقاله ونقله إلى سجن فتح غره، تفاصيل ما حدث داخل السجن بالكلمات التالية:

'في مساء يوم ٢٤ مايو ١٩٨٧، تم نقلي أنا وأحد رفاقي إلى محطة الشرطة في سيفيل لاينز. من هناك، تم نقلنا إلى سجن فتح غره في صباح يوم ٢٥ مايو. كانت الساعة السابعة صباحًا تقريبًا عندما دخلنا السجن، وبمجرد دخولنا، بدأ المجرمون المحكوم عليهم والشرطة في ضربنا بالعصي والأنابيب، مما أدى إلى وفاة دين محمد في ذلك الحين. توفي حنيف خان وجميل أحمد، اللذان وصلا في شاحنة أخرى، ومحمد سليم في مستشفى السجن في اليوم التالي.

طُلب مني التعرف على الجثث، لذا قمت بتأكيد هوية جثث دين محمد وحنيف خان وجميل أحمد. رأيت محمد عثمان، الذي تم نقله إلى سجن فتح غره في شاحنة أخرى، قد كُسرت ساقيه. بعد يومين في مستشفى السجن، توفي أيضًا'.

كانت قصة الذين ماتوا مؤلمة، لكن ما عاناه الأقارب الناجون كان أيضًا مأساويًا. يظهر ذلك جليًا في شهادة شكيلة بيجوم، التي تلقت خبر وفاة زوجها حنيف من الشرطة بهذه الطريقة:

'كانت حوالي الثلاثة أو الرابعة عصرًا في ٢٢ مايو عندما اقتحمت قواتPACوالشرطة النسائية منزلنا. كان زوجي، الذي كان مريضًا للغاية لمدة ثلاث سنوات، داخل المنزل. توسلت إلى الشرطة ألا يأخذوه لكنهم لم يستمعوا. ضربوه بمقبض البندقية في بطنه وأخذوه بالقوة. أظهرت لهم تقارير الأشعة السينية والوثائق الطبية لزوجي، توسلت إليهم وعندما حاول حفيدي البالغ من العمر ست سنوات مقاومتهم، حاولوا أخذه أيضًا. خرجت إلى الخارج وبصعوبة أنقذت حفيدي منهم. جاء رجال PACفي ٢٧ من الشهر وقالوا: 'حنيف ليس على ما يرام، يمكن لأحدهم المجيء معنا'. قلت لهم: 'لقد أخذتم الجميع، من بقي ليذهب معكم؟' ذهبت معهم إلى محطة الشرطة في سيفيل لاينز حيث أخبروني أنهم يريدون تقديم هدية لي بمناسبة العيد، وسلموني جثة زوجي. وهم يشتمونني، قالوا إنهم أحضروا هذه 'الهدية' من سجن فتح بور البعيد'.

كما عانت شكيلة بيجوم، كانت ليلة العيد بمثابة ليلة عاشوراء لكثير من المسلمين. تم اعتقال حوالي ٢٥٠٠ شاب مسلم من مختلف مناطق ميرت، وتم تسليط الضوء في الصحف على ٤٢ منهم في مجزرة هاشم بورة. لا أحد يعرف مصير الباقين. كتب إم جي أكبر، الذي كان المتحدث باسم الكونغرس في تلك الأيام ورافق رئيس الوزراء راجيف غاندي في زيارته إلى ميرت، عن مداهمة منزل عبد الماجد في هاشم بورة، حيث دخلت الشرطة منزله بعد صلاة الجمعة. طلبت الشرطة من الزوجين الجلوس تحت شجرة النيم أثناء التفتيش. لم يجدوا شيئًا،

لكنهم أخذوا ابن عبد الماجد، دين محمد البالغ من العمر ٢٠ عامًا. في ليلة القمر، ليلة العيد، جاءت الشرطة إلى عبد الماجد وأخبرته أن ابنه يتوق إلى رؤيته في السجن. شعر عبد الماجد بالقلق من أن ابنه قد يكون مريضًا بسبب تعذيب الشرطة. ذهب مع أصدقائه إلى مركز الشرطة، حيث جعلوه ينتظر لفترة طويلة. في الثانية والنصف ليلاً، سلمته الشرطة جثة ابنه، وأصيب بالذهول. أمرته الشرطة بدفنه قبل الفجر. عندما وصل عبد الماجد وأصدقاؤه إلى المقبرة مع جثمان ابنه، اكتشفوا أنه ليس وحده، فقد جاء ثلاثة آباء آخرين يحملون جنائز أبنائهم الشباب. كل هؤلاء الشباب المسلمين كانوا ضحايا التعذيب الوحشي على يد الشرطة أثناء الاحتجاز في السجن.لم تكن أحداث هاشم بورة لتصل إلى عناوين الأخبار في هذا البلد لولا نجاة بعض الشباب الذين أُلقوا في النهر ولولا تدخل الضابط الشرطي الفاضل فيبهوتي ناراين، الذي أسهم في تسجيل بلاغ ضد كتيبة الشرطة الـ٤١. فيبهوتي ناراين، الذي كان في الأصل كاتبًا حساسًا، قام لاحقًا بتأليف كتاب بعنوان "هاشم بورة ٢٢ مايو". تم تقديم القضية، وبعد سنوات من الجهود، قدمت كل من المخابرات المركزية والشرطة الجنائية في عام ١٩٩٦ لائحة اتهام ضد ١٩ من أفراد الشرطة أمام محكمة القاضي الجزائي الرئيسي في غازي آباد. وتم نقل القضية إلى محكمة دلهي في عام ٢٠٠٢ بناءً على طلب الضحايا. وعندما صدر الحكم في ١٥ مارس ٢٠١٥، كان ثلاثة من أفراد الشرطة قد توفوا بشكل طبيعي، وبرأت المحكمة الـ١٦ المتبقين بسبب نقص الأدلة. هذه المعركة القانونية التي استمرت ٢٧ عامًا وانتهت بهذه الطريقة أصابت بابو دين والثلاثة الناجين الآخرين بالحيرة. الطريف أنه خلال هذه الفترة، تم تأسيس 'حكومة إسلامية' في أوتار براديش تحت قيادة مولايام سينغ، وكانت ماياواتي معروفة بصداقتها مع المسلمين، لكن لا أحد تمكن من تقديم العزاء للضحايا. يقول فيبهوتي ناراين إن هاشم بورة ليست حادثة فريدة في هذا البلد، بل هي اسم لأسلوب فكري. لذا لا ينبغي أن يكون من المستغرب أن تقع الفتن الطائفية بين المسلمين والشرطة عادةً، وليس بين المسلمين والهندوس. يعتقد راي أن ما حدث في ميرت كان مرتبطًا بأعلى

المستويات. ليس من السهل على مفتش شرطة عادي أن يأمر بمجزرة بهذا الحجم. يقول المطلعون أنه عندما زار راجيف غاندي ميرت بعد مذبحة هاشم بورة، كانت هتافات تأييد الشرطة ترتفع. كانت محسنة قدوائي، عضو البرلمان من ميرت في ذلك الوقت وعضو في حكومة راجيف، قد زارت المدينة أيضًا، لكن للأسف لم تنطق بكلمة واحدة ضد الواقعة.

٤٤

الداعية ذو الحقيبة

في أجواء الهند المتوترة، شعر المسلمون بالضيق الشديد، وكأنهم محاصرون في زاوية ضيقة. بدت حركة "تحفظ الشريعة" للعلماء المسلمين وكأنها أطلقت شرارة القومية الهندوسية الحماسية. قرار راجيف غاندي بمنح المسجد البابري كهدية للهندوس مقابل قانون بسيط وغير ضار حول النفقة بعد الطلاق، كان كافياً لكسب رضاهم. هذا القرار أطاح بسهم الشريعة من جعبة علماء المسلمين دون أن يشعروا. من ناحية أخرى، دفعت القيادة العلمانية لقضية المسجد البابري المسلمين إلى معركة قومية خالصة. كان هناك إحساس عام بأن أي شخص لا يظهر الحماس والشغف المجاهدين تجاه قضية المسجد البابري سيُقصى من الغالبية. أما قادة المسجد، فلم يكن لديهم شيء يقدمونه للأمة سوى الشعارات العاطفية والبيانات الحماسية. في ظل هذه الظروف، جاء إصدار كتاب "غلبة الإسلام" ليضيء شعاعًا جديدًا من الأمل.

كتاب 'غلبة الإسلام'، الذي قُدم في الهند كميثاق لإحياء الإسلام، لم يكن مجرد عمل أكاديمي بل كان إعلانًا لخطة ثورية. تضمن الكتاب بطاقة استجابة تطلب معلومات شخصية من القراء وتسألهم إذا كانوا مستعدين لدعم هذه المهمة الجديدة لسيادة الإسلام. كانت هذه البطاقة بمثابة تعهد خطي بالولاء. استقبل الكتاب بحماس في كل مكان وصل إليه. تلقيت مئات الاستمارات من مختلف أنحاء البلاد. بعض المسلمين المتحمسين من ولايتي بهار وأتر برديش جاءوا بأنفسهم لمقابلتي في علي غراه.في يوم من الأيام، بينما كنت في مكتبة بسوق الأردو بالقرب من جامع مسجد دلهي، أُخبرت أن الشيخ إنعام الحسن، قائد

جماعة التبليغ، يرغب في مقابلة الكاتب الشاب لـ 'غلبة الإسلام'. في تلك الأيام، كان مقر جماعة الإسلامي في تشيتلي قبر. أفضل حسين، الأمين العام لجماعة الإسلامي، المعروف باحترام كـ 'عم أفضل'، كان عادةً ما يكون مشغولًا بالملفات. كان يتميز بالخلق الحسن لكنه كان يُجري المحادثات بإيجاز. لكن في ذلك اليوم، عندما سلمت عليه وكنت على وشك المضي قدمًا، جلس بتمعن ووضع جانبًا ملفاته. قال: 'أخبرني رئيس جماع الإسلامية أنك انتقدت جماعتنا بشدة في كتابك. انتقادك صحيح، ويجب أن تكون هناك مساءلة. لكن ماذا يمكننا أن نفعل؟ لقد جلبنا منظمتنا إلى هذا الحد في ظروف صعبة جدًا.'في تلك الأيام، كانت لقاءاتي متكررة مع الشيخ وحيد الدين خان. كان حديثه غالبًا ما يتخلله نقد لأفكار الشيخ مودودي. أدى الرواج الاستثنائي لكتابي "غلبة الإسلام" إلى تفكيري في ترجمته إلى اللغتين العربية والإنجليزية. قام أستاذ كبير في قسم اللغة الإنجليزية، الأستاذ مجيب، بترجمته إلى الإنجليزية بأسلوب راقٍ. وفي الوقت نفسه، قام الشيخ أكرم ندوي، الذي كان يبرز ككاتب شاب متألق، بترجمة الكتاب بسرعة إلى العربية. تولى كمال حلباوي مهمة تحرير وتصحيح الترجمة العربية. وهكذا، اكتسب كتاب صغير شهرة واسعة إلى درجة أنه أينما ذهبت، كانت شهرته تتبعني. كانت تلك الفترة زمنًا للصحوة الإسلامية، حيث كان دعاة المعسكرين السعودي والإيراني يخططون لمشاريع ضخمة للفتح الإسلامي. وكما ذكرت سابقًا، كان الجهاد في أفغانستان يُنظر إليه بعين التقدير بسبب مشاركة ودعم أمريكا. في هذا الجو، أصبح العمل في سبيل الدين بالنسبة للكثيرين وسيلة للسعي وراء المكاسب الدنيوية بدلاً من دعوة الأخطار. وفي مواجهة هذا الوضع المؤلم، كتبت ما يلي:

> "على الرغم من وجود عدد لا يحصى من المؤسسات والجمعيات والمنظمات الإسلامية، لماذا لا يتحقق تقدم ملحوظ في حركة الإسلام؟ الإجابة المباشرة على هذا السؤال الهام هي أن هناك نقصًا كبيرًا في القلق والحماس الشديد من أجل هيمنة دين الله ورغبة عارمة في التضحية في سبيل الله بين دعاة العصر الحديث الذين يحملون حقائبهم. وطالما لم يحدث هذا التغيير الكبير

في الفكر والعمل بين مجموعة كبيرة من الناس، وطالما لم يتم تكوين مجموعة من أصحاب المواقف الثورية في الإسلام، فإن خلاص المسلمين من حياة الذل سيبقى أمرًا مستحيلاً، وفكرة السيطرة الإسلامية ستظل مجرد خيال. هدف هذا الكتاب هو نشر هذا الشغف".

أثارت عبارات الكتاب الموجهة ضد الداعية ذو الحقيبة استياءً عارمًا. قال أحدهم إن النقاط العشر المذكورة في 'غلبة الإسلام' يعتبرها المؤلف بمثابة الوصايا العشر، ويعتبر نفسه كموسى. وأضاف آخر أن الأسلوب المتعالي في الكلمات واللهجة يوحيان بأن جميع جهود نشر الإسلام في البلاد كانت على أساس خاطئ، والآن تم تكليف هذا الرجل بدور المجدد في العصر الجديد. وسخر مؤلف آخر: 'الحمد لله، أصبح السيد شاز مؤلفًا'. وعلق آخر: 'لا تقل مؤلف كتاب، بل قل من أهل الكتاب، هذا أفضل'. في الأوساط العلمانية بالجامعة، تمت ملاحظة نشر هذا الكتاب كمؤشر على ظهور قيادة راديكالية جديدة تتوق للظهور.

في ذلك اليوم، وأنا منهمك في ترتيب أطروحتي للدكتوراه في قسم اللغة الإنجليزية، دخل شمسي بشكل مفاجئ وغير متوقع. كان يحمل بيده نسخة من كتاب 'غلبة الإسلام'، وقد امتلأت هوامشه بملاحظاته. بمجرد أن بدأ بالحديث، أفصح عن استغرابه: 'ما هذه الفكرة؟ نحن نرى أن فكرة الغلبة نفسها مضللة. لماذا نحتاج إلى الغلبة؟ هل نفقد هويتنا كمسلمين بدونها؟ لماذا لا نجعل من حديبية نبراسًا يهدينا؟ أعتقد أن طريق الفتح المبين يمر عبر حديبية'. رددت بثقة: 'كل هذا جهد للوصول إلى حديبية. حديبية ليست مجرد رمز للسلم، بل هي نهاية لحركة ثورية. الذين يفهمونها على أنها دعوة للسلم فقط يسيرون في طريق الخطأ'. واصل شمسي، الذي كان تحت تأثير كتابات الشيخ وحيد الدين خان، حديثه بتفصيل، مشيرًا إلى أن الله سيواجه بعض الناس يوم القيامة بأعمالهم الدينية، قائلاً: 'هذه الأمور التي كنتم تمارسونها كدين لم نأمر بها على الإطلاق'. أكد أنه لا يوجد طريق لإحلال السلام في العالم إلا بقبول الوضع القائم دون قيد أو شرط. أجبته قائلاً: 'الأنبياء يُرسلون لكسر الوضع القائم. والهدف من بعثة الرسول ﷺ

وصف بأنه 'ليذهب عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم'. إذا استسلم الأنبياء أو أتباعهم لنظام الظلم، فمن سيرفع راية 'كونوا قوامين بالقسط'؟

"لكن وضع الدولة في مركز الدين، هل هذا مناسب؟" هكذا سألوا.

وأجبتهم قائلًا: "لا تجعلوا الدولة محورًا، ولكن أيضًا لا تزيلوها من الصورة. لكل شيء مكانه الطبيعي. تقولون إن الخلافة هي ابتكار لاحق، لكن يا أخي، الخلافة هي فقط الاسم الذي أطلق على النظام الذي أسسه المسلمون من الجيل الأول بعد وفاة النبي ﷺ للحفاظ على تماسك الأمة. أبو بكر الصديق رضي الله عنه قدم نفسه كخليفة للرسول، وعمر رضي الله عنه أشار إلى نفسه كخليفة لخليفة الرسول. وهكذا تم تنظيم الأمة حول الرسول ﷺ كمحور، وأصبحت متابعة الأمير المؤمنين ضرورية لأنها كانت تعتبر خلافة للرسول. في سقيفة بني ساعدة، وعبر الترشيح المباشر، أو بالتشاور بين كبار الصحابة، كانت جميعها طرقًا لتنظيم الأمة حول محور نبوي. سواء أسميتموها خلافة أو إمامة أو حكمًا بمبدأ 'أمرهم شورى بينهم'، لا يمكننا تجاهل الحقيقة البديهية أن الرسول ﷺ في حياته، والجيل الأول من المسلمين بعده، كانوا ملتزمين بكون المسلمين جزءًا من نظام جماعي، وأن يستخدموا قوتهم الجماعية للأمة في إقامة العدل والإنصاف في جميع أنحاء العالم".

لقد كان الحوار لا يزال مستمرًا مع شمسي عندما دخل الأستاذ المحترم أحمد سورتي، الذي كان قد تقاعد مؤخرًا من الجامعة، ولكنه كان يحظى بنا بزيارته كلما جاء إلى المكتبة. قال بأسلوبه العفوي: "ظننت أن هناك درسا يُعقد هنا. ثم، عندما سمعت صوت شاز، فكرت أن أي تجمع يحضره شاز يجب أن يكون بمثابة تجمع للنخبة، يُذكرني بنظرية المجموعات في الرياضيات"...

"لكن شمسي يُؤرقه القلق حول مستقبلنا، هل سنبقى قادرين على الحفاظ على هويتنا في هذا البلد أم لا"، استغلت وصول الأستاذ سورتي لتحويل النقاش إلى سؤاله.

أجاب الأستاذ سورتي بنبرة تعكس أهمية وحساسية الموضوع: "هذا سؤال بالغ الأهمية والحساسية، يجب عليكم بالتأكيد أن تتمعنوا فيه. نحن نواجه أشخاصًا ماكرين وتجاريين إلى أقصى الحدود. لا يمكن مواجهة المكر بالمكر وحده، بل تحتاج إلى بصيرة نبوية لذلك. 'يمكرون ويمكر الله' يتم ترجمتها عادةً إلى أنهم يخططون والله يخطط أيضًا، ولكن تخطيط الله يختلف كليًا عن تخطيطهم. فكر في تخطيط الله كما لو كان مثل عصا موسى في مواجهة سامري. من الضروري بالنسبة لنا أن نتصدى لسامري عصرنا على مستوى نبوي، وليس بأسلحة السحرة التقليدية".

في الحقبة التي تعمها الهواجس، حيث يتصارع نهضة الهندوسية والمسلمين، استفسر شمسي، محاولًا توسيع أُفق النقاش: "لماذا يُفترض أن يكون الجواب على تجديد الهندوسية بتجديد إسلامي مماثل؟" وأضاف بثقة: "لقد صدقت في تحليلك. تحمّلنا عواقب وخيمة بسبب المنافسة بين القومية الهندوسية والمسلمة في الماضي. لم يُقسّم الوطن فحسب، بل أفضى ذلك الصراع إلى تشتيت قوتنا العددية. والآن، يُعدّ لحرب قومية على نفس تلك الخطوط، وهي محكوم عليها بالفشل منذ البداية".

"ونعم، أظن أن موقفك صائب، لكن يتطلب المزيد من الدقة والتنقيح"، معبرًا بإشارة نحوي.

"ولكن الأمة بأسرها قد اتخذت قرارًا بالرد بمثل الهجوم، حتى أولئك في الجماعة الإسلامية، الذين كانوا يومًا مبشرين بأيديولوجيا إسلامية مثالية، قد انجرفوا الآن في موجة هذه الحرب القومية المسلمة"، أعرب شمسي عن قلقه.

"كان هناك زمان، وإن كان عابرًا، حملت فيه دعوة الجماعة الإسلامية تلك اللمسة النبوية في خطابها. ففي أولى كتابات مولانا مودودي، كانت أفكاره نقية حول معايير الحساب في الآخرة - لن يعتمد على ما إذا كان الاسم عبد الله أو رام برشاد، بل على الأعمال الصالحة، لا على الاعتراف اللفظي فحسب. وصفهم في خطبه بأسلوب سلس. يقول إن رحمة الله في الدنيا والآخرة مُخصصة لمن يعرفونه

ويطيعون أوامره فقط. لكن مع الزمن، تلاشت تلك اللمسة النبوية، والآن، مثل باقي الجماعات المسلمة، يُولون أهمية مفرطة للهوية القومية والملية والثقافية".

في تلك الأوقات التي تتصادم فيها نهضة الهندوس مع تجديد المسلمين، فتح الشيخ شمسي النقاش، مشيرًا إلى أهمية الأمة المختارة. قال: "يجب أن نحافظ على لمعان نبرتنا النبوية في هذه اللحظات الحرجة ليدرك أهل الوطن حقيقة دورنا كحملة لهذه الرسالة الخاتمة، الرسالة التي بغيابها يفقد مسار التاريخ معناه." وأضاف بحماس: "لو عرف أهل هذا البلد حقيقتنا وموقعنا في مخطط الخالق للمستقبل، ربما يتحولون من عبادة الحجر والشجر إلى تقديسنا وتعظيمنا. إذا علموا أننا الأمة المختارة، وأن الرحمة تنزل في هذا البلد ببركتنا، وأن بغيابنا تتوقف الأمطار وتكف الأرض عن إنبات خيراتها، ويتراجع الشمس عن إشراقها." وأشرت إلى إستراتيجية محتملة.

رد الشيخ أحمد سورتي بتأمل عميق، قائلاً: "هذا الاعتقاد بأننا الأمة المختارة هو في الحقيقة مصيدة، وضلالة قد يقع فيها الصياد نفسه. في هذا البلد، سعت الطوائف الصوفية والسادات لنشر صيتهم وبركاتهم، واستمر الناس في التبرك بهم والتوق للرؤية الروحية. ولكن ماذا أفاد ذلك؟ يمارس البراهمة هذه الطقوس بطريقتهم الخاصة. مهمتنا هي أن ندعو الناس ليكونوا 'ربانيين' كما يوصي النبي. على العكس، الذين يفتقرون إلى الوعي الصحيح بالنبوة يحولون هذه الدعوة إلى 'عبادة'، حيث يصبح تقديسهم وتعظيمهم محور تعاليمهم. الاعتقاد بأننا الأمة المختارة أمر، وتحمل هذا المنصب العظيم أمر مختلف تمامًا".

"لقد غمرني الحيرة! يبدو أن الأمور تشابكت وتداخلت بطريقة معقدة"، علق شمسي، طالبًا بعض الوضوح.

رددت بهدوء: "مكانتنا كأمة مختارة تنبع من مهمة النبوة التي أوكلت إلينا كخلفاء وأوصياء للنبي. إذا انحرفنا عن هذه المهمة الجليلة، فإننا نفقد حقنا في هذا الشرف. توهم اليهود أنهم المختارون من قبل الله، متفوقون على جميع الأمم، لكن تفوقهم كان مرتبطًا بحملهم للتوراة. عندما تخلوا عن تعاليمها ولم يحافظوا

على مركزهم القيادي، فقدوا منصبهم تلقائيًا. وفي نهاية المطاف، لم تعد أوهامهم تنفعهم عندما امتدت عليهم ليالي الظلم في معسكرات الاعتقال النازية. وجدوا أنفسهم عاجزين عن فهم السبب وراء تخلي الله عن شعبه المفضل بهذا الشكل المأساوي".

"يبدو أن هذا الإحساس يمكن أن يولد نوعاً من الغرور العظيم".

قلت: "نعم، إذا ابتلي شعب ما بإحساس زائف بكونه المختار، فإنه لا يدمر نفسه فحسب، بل يصبح أيضًا سببًا في دمار الآخرين. خذ مثال النازية في ألمانيا. غرور اليهود التقليدي جرهم إلى الهلاك، لم يتمكنوا من قراءة الكتابة على الجدار. من ناحية أخرى، اعتقد أولئك الذين أرادوا محوهم من الوجود أنهم ينفذون مهمة إلهية".

"ماذا تعني؟ هل كان هتلر رجلًا دينيًا؟" سأل شمسي بدهشة.

"لم يكن اليهود أنفسهم دينيين بعد. ليس من الضروري أن يكون الشخص دينيًا ليقع في فخ الغرور. كانت فكرة هتلر بأن الشعب الألماني متفوق عرقيًا ومقدر له السيادة، متصلة في الواقع بحركة الإصلاح التي بدأها لوثر.

"حقاً؟" تساءلت.

"نعم! لم يلتفت الناس كثيرًا إلى هذا الجانب، بل لا يزال تحليل ظهور النازية في ألمانيا موضوعًا قيد البحث. كتب المؤرخون أنه في عام ١٨٧١، عندما كانت القوات البروسية تعود إلى برلين بعد هزيمة الفرنسيين، كانوا يحملون لافتة كتب عليها .'Welch eineWendungdurchGottesFugung' :في تلك الفترة، لم يتوقف اللاهوتيون البروتستانت عن ذكر في خطاباتهم أن الله اختار الشعب الألماني لإذلال الفرنسيين اللادينيين. تذليل الذين جعلوا من العقل إلهًا لهم، ودعموا حركة التنوير التي أدت إلى ثورة فرنسا وتحطيم مفهوم السيطرة الكنسية، كان بمثابة عقاب من الله. فإذا كان الله قد اختار الشعب الألماني لهذا الغرض، فما الذي يمكن أن يكون أكثر حظًا بالنسبة لهم؟"

"هل كانت ألمانيا وفرنسا في تلك الحقبة منقسمتين إلى معسكرين فكريين متضادين؟" سأل شمسي، محاولاً استيعاب التناقضات التاريخية.

أجاب الأستاذ: "نعم، إذا درسنا المشهد الاجتماعي في تلك الفترة، نكتشف لوحة معقدة ومثيرة. سواء في معركة ١٨١٣ ضد نابليون أو حرب ١٨٧٠ أو خلال الحرب العالمية الأولى، كان كل هذا يُصوّر الألمان كأنهم على مهمة إلهية. بالنسبة لهم، كان نابليون كالمسيح الدجال، واختار الله الألمان لهزيمته. كان هناك حيوية استثنائية بين البروتستانت المسيحيين، بإنشاء الأديرة ومراكز الرعاية وتكثيف الأنشطة التبشيرية، كأنهم يستعدون لعودة المسيح الثانية وقرب قيام مملكة الله".

"لكن كيف يمكن لحركة دينية خالصة أن تولد عنصرية متطرفة؟" تساءل شمسي، محاولاً فهم التحولات الغريبة.

"الأمر بسيط. الدين هنا كان مجرد واجهة، في حين كانت الدعوة الحقيقية لتفوق العرق. لوثر كان يُعتبر أكثر من مصلح ديني، كان بطلاً قوميًا. لقد قدم نفسه كمخلص للشعب الألماني. لم يكن يفتقر للنبرة النبوية في دعوته، بل كانت قلوبهم مليئة بالكراهية والعداء لليهود".

"عجيب! يبدو أن الجانب المظلم من شخصية لوثر لا يُناقش كثيرًا. يُعتبر عادةً مصلحًا تنويريًا، بل إن بعض المسلمين العلمانيين يتمنون أحيانًا لو أن الإسلام حظي بمصلح مثل لوثر"، علقت بتأمل.

رد الأستاذ بنبرة تحمل وقعًا ثقيلًا: "هذا مجرد جهل. أعتقد أنه لولا لوثر، ربما لم يظهر هتلر. كيف ذلك؟ لوثر كان مصلحًا دينيًا بتأثير كبير في الكنيسة البروتستانتية، بينما يُنظر إلى هتلر عادةً كرمز للشر."

أضاف الأستاذ بلهجة تخترق غبار التاريخ: "على الرغم من الفارق الزمني الذي يقارب الأربعمائة عام بين الشخصيتين، كان كلاهما يدعو إلى القومية العدوانية ويرفضان حق اليهود في الحياة. الفارق هو أن لوثر استخدم اللغة الدينية، بينما استعان هتلر بأفكار عصر العلمانية مثل الداروينية الاجتماعية

لتبرير العنصرية الألمانية. لكن الهدف كان واحدًا: سلب اليهود حقهم في الحياة مع تحديد هويتهم الدينية."

"لكن من المثير للدهشة أن هتلر يُعتبر منبوذًا عالميًا بينما يُحترم لوثر"، قلت بدهشة.

أجاب الأستاذ بصوت يحمل ثقل الأسرار: "هذه هي فائدة القداسة الدينية. جرائم الأفراد العاديين تُكشف بسهولة، بينما تُغطى المكائد والخداع الديني بستار القداسة. إذا قرأ أحدهم رسالة لوثر 'عن اليهود وأكاذيبهم' بعيون مفتوحة، سيدرك بسرعة أن الأساليب التي اقترحها لوثر للتعامل مع قضية اليهود، استخدمها هتلر بإضافات جديدة في التطبيق العملي."

"عجيب أمرهما! هل يمكن أن تكون وجهات نظرهما متشابهة إلى هذا الحد؟"، تساءل شمسي بدهشة واضحة في نبرته.

أجاب الأستاذ بثقة واقتدار: "بلى، لقد دعا لوثر إلى حرق الكنس اليهودية، وتدمير منازلهم، ومصادرة كتبهم الدينية، ومنع حاخاماتهم من الدراسة والتعليم، وفرض قيود على تنقلاتهم، وإنهاء معاملاتهم المالية الربوية، وتشغيل الشباب اليهودي قسراً. ولم يكتفِ هتلر بذلك فقط، بل أضاف عليه بقيوده الخاصة، كمنع اليهود من الزواج من العرق الآري، وإنشاء الغيتوهات اليهودية، وعمليات التعقيم للأعراق التي اعتبرها دونية. كان اليهود الألمان يرون في أنفسهم مواطنين ألمان، لكن لوثر وهتلر رأيا فيهم اليهودية فقط. بالنسبة لهما، كان كونهم يهوداً يعني أنهم ضد ألمانيا. اعتبر هتلر لوثر شخصية عظيمة، واصفاً إياه في كتابه 'كفاحي' بأنه أعظم محارب في العالم. وبعد سقوط هتلر، عندما تمت محاكمة أتباعه، زعم بعض القادة الرئيسيين أن لوثر، لو كان حيًا، لكان واقفاً معهم في قفص الاتهام، معتبرين أنه رأى في اليهود نسل الثعابين، ويجب حرق كنائسهم وإبادتهم. كان الكثيرون من أتباع هتلر يرون فيه تجسيداً لمارتن لوثر. تشكلت القومية الألمانية من مشاعر معادية للسامية. في هذا الإطار، يظهر هتلر ولوثر كوجهين لعملة واحدة."

"أجل، يا له من وهم! فهل القومية الألمانية ليست إلا تفسيرًا علمانيًا مُضللاً لفكرة الأمة المختارة؟" تساءلت بحيرة.

أجاب الشيخ أحمد السورتي بنبرة جادة: "لا تسمها 'علمانية'، بل 'مُضللة'. الاستبداد يجلب معه الفساد العميق. في علم النفس، هناك مصطلح يُعرف بـ 'الهيوبريس'، وهو حالة تتجاوز النرجسية. عندما يفقد القائد صلته بالواقع، يبدأ بالاعتقاد بأنه، رغم عدم دعم الناس له، معه كل قوى الكون. يُشعره تركيز القوة في يديه بأنه مُكلف بمهمة إلهية. لكن هذا كله ما هو إلا نتيجة لاضطراب في الشخصية. ما يختبئ في قلوب وعقول الشخصيات التي نعتبرها كاريزمية من أوهام ومعتقدات لا يزال النقاب عنها لم يُكشف بعد." وبهذه الكلمات، استعد الشيخ أحمد السورتي للرحيل.

لقد تساءلت، ربما كان الشيخ أحمد السورتي على صواب. أن تكون جزءًا من الأمة المختارة أمر دقيق وحساس. غالبًا ما يتجاوز الإدراك البشري متى نتراجع من المقام النبوي ونجد أنفسنا غارقين في معركة الفخر القومي. ليس فقط قادة مسجد بابري، بل في كل أنحاء العالم، تُرتكب الفتن باسم السلام وتحقيق العدالة. الاستعمار الأمريكي يغلف توسعه باسم حقوق الإنسان وحرية الفرد. وترتكز سلطة الدولار الأمريكي أيضًا على هذا التقديس نفسه، حيث يُكتب عليه: 'In God We Trust'.

٤٥

ثقل العبودية

في ظلال البلاد المضطربة، حيث كانت الأوضاع لا تزال تنضح بالقلق والطوارئ الحادة، كان سؤال البحث العلمي يتوارى خلف غيوم الضروريات الصارمة. لكن في هذا العالم الملتهب، أصر الأستاذ الجليل، البروفيسور جعفر ذكي الرضوي، بقلبه المفعم بالحنان، على أن أغوص في أعماق أطروحتي الدكتوراه بكل حماس. فقد كرّس عاماً من حياته، مستقيلاً من الجامعة، لتحقيق هذا الهدف. وبالكاد بدأت في غرس قلمي في الصفحات الأولى للفصل الأول، حتى اجتاحته نوبة قلبية مفاجئة ومروعة. وبعد أيام، عندما بدأ يستعيد عافيته، شعرت بثقل الحرج في إلقاء عبء العمل الأكاديمي على كاهله المثقل بالفعل. بإصراري الشديد، وافق أخيراً على أن يتولى السيد نقوي مهمة تدقيق وترتيب الأطروحة بدلاً منه. وهكذا، رسمت خطة يومية للكتابة، تراوحت بين عشر إلى اثنتي عشرة صفحة، أعرضها على السيد نقوي في الصباح التالي. كانت عادتي الكتابة بإصبع واحد، ولم يمض إلا عشرة أيام حتى بدأت أصابعي تشعر بالوهن. وفي هذه الأثناء، وصل شاب من غرب البنغال مع عروسه الجديدة إلى عليغره، هرباً من زواج أثار جدلاً اجتماعياً واضطرهما لمغادرة وطنهما. كان يبحث عن عمل مناسب. وبواسطة ابن عمي العزيز، جاويد ذوالقرنين، جاء الشاب إلى منزلي. كان اسمه شريف، وكان يحمل صفات اسمه، متمكناً من الطباعة بالإنجليزية. بدا كأن القدر قد أرسله ليكون سندي في مشروعي. كان يأتي كل يوم بعد الظهر، أملي عليه المسودة وهو يعيد إليّ الأوراق مطبوعة بمهارة. وفي غضون أربعة إلى خمسة أشهر، كنت قد أنجزت المسودة الأولى للأطروحة.

في ذلك اليوم، بينما كنت منغمسًا في تنقيح وتزيين المسودة مع الأخ شريف، دخل عبدالقادر مفاجئًا عالمنا الصغير. عبدالقادر، الذي كان لي به معرفة قديمة، كان من سكان الصومال، تخلف عن العودة إلى دياره بسبب الحرب الأهلية المستعرة في مقديشو. كان يحتفظ دومًا بابتسامته حتى في أقسى الظروف، لكن في ذلك اليوم بدا على وجهه شيء من القلق غير المألوف. قال بصوت مثقل: 'يا أخي، إن الشيطان ذكي جداً. إذا لم نتحرك سريعًا، سينفذ خطته.' في البداية، لم أستوعب كنه الموضوع. رددت عليه بنبرة مطمئنة: 'دع الشيطان يفعل ما يشاء. نحن، عباد الرحمن، سنواصل طريقنا.' فأجابني بجدية: 'الأمر أكثر خطورة مما تظن، ليس وقتًا للمزاح. عثمان، الذي تعرفه، رجل صالح ومتدين، نشأت بينه وبين أمينة مشاعر الحب والعاطفة. إذا لم نجد حلاً سريعًا، فالشيطان سيجد طريقه إليهما.' قلت له بحزم: 'اترك الشيطان جانبًا ولا تتدخل أنت.' لكنه أصر: 'أنا في طريقي للبحث عن قاض وأتمنى مساعدتك.' سألته: 'لماذا لا ينتظران بضعة أيام حتى يتمكن أهلهم من المشاركة؟' فأجاب: 'إذا علم أهلهم، لن يتم الزواج. الفتاة من قبيلة أبغال وعثمان من قبيلة هبرجدير، وهما في حالة حرب في الصومال. لا يوجد حل آخر سوى الزواج السريع.' تلك الكلمات أعادت إلى ذهني ذكريات صديقي العراقي القديم في الفصل، علي باقر. باقر، الذي غاب عن الفصل لأيام، عندما سألته عن حاله قال: 'واجهت بعض المشاكل، لكن الجيد أننا تغلبنا أخيرًا على الشيطان.' تعجبت وسألته كيف؟ فابتسم قائلاً: 'أجريت متعة، والآن أعيش بلاخوف'.

أصر عبدالقادر بحزم على ضرورة استدعاء قاضٍ بأسرع ما يمكن. هذا الإصرار ألهمني فكرة طلب المشورة من الشيخ تقي أميني، الرجل الذي كان يحتل مكانة عالية في قلوبنا، ولكنه في الوقت نفسه كان يتمتع بسهولة الوصول إليه وعفويته في تعامله معنا نحن الطلاب. في اليوم التالي، وفي منزل الشيخ تقي، تم إجراء مراسم الزواج. وهكذا، تمكنا مرة أخرى من إلحاق الهزيمة بالشيطان".

بعد عدة أيام، حين ذهبت لحضور وليمة بسيطة في بيت عثمان، اكتشفت أن الأخ شريف يقطن أيضًا في ركن من هذا المنزل نفسه. دعاني بإلحاح إلى منزله، حيث عرفني على زوجته عائشة. خلال حديثنا الأولي، فهمت أن عائشة قد وُلدت في أسرة من الداليت الجدد على الإسلام. كانت طالبة في علم الاجتماع وتبدو متأسفة لتوقف دراستها. قالت بنبرة تملؤها الأمل والترقب: 'ربما في غضون بضعة أشهر، تخف الأحداث المزعجة ويتسنى لنا العودة إلى الوطن'.

أجبتها: 'الإسلام لك ليس بميراث عائلي، بل اختيار شخصي. أنت من جيل المسلمين الثاني، الذين يشار إليهم في التاريخ كالتابعين. هذا شرف عظيم. كيف ترين مسار الإيمان من هنا؟' كلماتي هذه أثارت في وجه عائشة موجة من المشاعر، ثم غرقت في بحر من التأمل. قالت بصوت يحمل أوزان الحكمة والتجربة: 'شريف غالبًا ما يردد هذا البيت: "دخول هذه الشهادة عشقٌ، يظن الناس أنه من السهولة أن تكون مسلمًا." أعتقد أيضًا أن الحياة بالإيمان ليست سهلة. كلما تخطينا تحديًا، يظهر آخر. نحن، جيل تلو جيل، نبحث عن هويتنا الحقيقية، أو ربما كرامتنا. لقد كنا تحت سيطرة البوذية لفترة طويلة. ثم هدانا الله إلى الإسلام والآن يبدو أن هناك وجهة أخرى في الأفق، لا أعلم ما يخططه الله لنا'.

"أسلام بعد الإسلام؟" سألتها بدهشة.

فأجابت: "الإسلام الذي كان جدودنا يبحثون عنه واعتنقوه، يبدو أنه مفقود حتى بين المسلمين أنفسهم".

"ماذا تقصدين؟" طلبت توضيحاً.

أردفت قائلة: "هناك إسلام نظري، وإسلام عملي وشعبي، أي الإسلام السائد بين المسلمين. أنا الآن أقرأ عن الأشراف والأجلاف وأندهش كيف يمكن للمسلمين من الطبقة العليا أن يتجاهلوا الطبقة الدنيا. في فتاوى رضوية، ورد حتى أنه لا يمكن لأشخاص من قبائل الجلاها، الدنيا، والتيلي، حتى لو أصبحوا علماء، أن يكونوا مثلين للسادة والشيوخ. أتعجب كيف يمكن لهذا أن يكون الإسلام الذي يقول الله فيه: إن أكرمكم عند الله أتقاكم. كيف تحول الإسلام؟"

قلت: "كتب العلماء تعكس آراءهم الفردية".

فأجابت: "صحيح، لكن العامة تتبعهم. ينظر إليهم كممثلين للدين. فتاواهم تعبر عن هذا النظرة. يتم تطبيق أوامرهم وتُنسى كلمات القرآن. كلما يهين شخص الإنسانية باسم الدين، أفقد توازني. ربما أكون حساسة جداً في هذا الأمر، لكن ما العمل؟ أنا من مجتمع ظل يبحث عن طرق لتطهير الروح لقرون، وكما يقولون، لم نتمكن بعد من تحقيق تطهير الروح واكتساب الكرامة".

لم أستطع فهم هذا الحديث عن القرون الطويلة، فسعيت لاستفزاز عائشة لتكشف المزيد.

فتحدثت قائلة: 'ربما لم يذكر لك شريف، كنا في الأصل من أتباع البوذية. اعتنق والدي الإسلام، وبذلك وُلدت في أسرة مسلمة. عندما اكتشفت تاريخنا القديم، أصابني الذهول لمدى الرحلة الطويلة التي قطعها أجدادنا لإثبات إنسانيتهم، لكن الواقع هو أننا ما زلنا لا نُعترف بهم كأشخاص كاملين. الناس يروننا ككائنات من درجة أدنى، أقل من الإنسان'.

"متى شعرتِ بهذا الإحساس لأول مرة؟" سألت عائشة بفضول.

فردت قائلة: "ولدت في مومبرا، حيث استقر والدي هناك بعد أن اعتنق الإسلام وهاجر من بومباي. كان عمري يقارب الرابعة أو الخامسة. مدينة جديدة، وجوه جديدة. أنشأ والدي متجراً صغيراً للملابس. تم تسجيلي في مدرسة أردية، بمثابة مدرسة غير رسمية حيث كانت تتعلم الكثير من الفتيات من الحي. لم أكن أعي حقيقة هويتي لسنوات طويلة. ثم جاء يوم تلقى فيه والدي خبر وفاة أحد أقاربنا. كان لنا قرية صغيرة في ضواحي بونه تربطنا بها علاقة. بعد أيام من الارتباك والحزن، وعندما اختلطت بأطفال العائلة، اكتشفت أننا من طبقة المهار. أجدادنا اعتنقوا البوذية بعد حركة بابا صاحب أمبيدكر لتغيير الدين. في القرية، كان بقية أفراد العائلة لا يزالون يتبعون البوذية. لقد كانوا يصرون على استقلالهم عن الهندوسية، لكنهم لم يمتلكوا هوية ثقافية واجتماعية مستقلة، فكانت البوذية

تُعتبر جزءاً من الهندوسية ثقافياً. حتى المهرجانات الهندوسية مثل هولي وديوالي لا تزال جزءاً من حياتنا".

"الاحتفال بالهولي والديوالي بعد اعتناق البوذية؟" عبرت عن دهشتي.

أوضحت عائشة: "نعم! العادات القديمة تزول بصعوبة. حتى بعد أن أعلن بابا صاحب في عام ١٩٥٦ تحول ٢ مليون داليت إلى البوذية في ناجبور، واستلزم أتباعه القسم بالتخلي التام عن الهندوسية، وعدم عبادة براهما، فيشنو وماهيش، وعدم الاعتراف برام وكريشنا كأفاتار للآلهة، وعدم عبادة غوري غاناباتي وغيرهم من الآلهة الهندوسية، كان هناك ٢٢ بنداً في القسم الذي قطعه أتباعه".

"فكيف ظلت هذه المهرجانات الهندوسية قائمة؟"

"قد تُسميها التبرير الفقهي أو التفسير النفسي. يشارك الكثير من الداليت في هذه المهرجانات بحجة أنهم لا يحتفلون بها دينياً، وإنما من أجل متعة أطفالهم. لو عاش بابا صاحب لفترة أطول بعد تغيير الدين، لكانت أحوال الداليت اليوم مختلفة".

"هل كانوا سيعتنقون ديناً آخر؟"

"من الصعب القول، لكن كان من المؤكد أن ذلك كان سيُسقط خيمة البراهمنية".

"كيف ذلك؟" سألت.

فأجابت: "هل تعلم أن بابا صاحب عاش أقل من شهرين بعد إعلان تغيير الدين؟ في ١٤ أكتوبر نظم جلسة في ناجبور، وكان من المقرر إقامة جلسة كبيرة مماثلة في بومباي في ١٦ ديسمبر، ثم في مدن أخرى. كانت هذه الخطوات ستطيح بخيمة البراهمنية، لكنه توفي فجأة في ٦ ديسمبر".

"فجأة؟ هذا يوحي بوجود مؤامرة!" ترددت الكلمات مني بلا شعور.

ردت عائشة بتأمل: "الحقيقة يعلمها الله وحده. لكن من المحير كيف أن رجلاً بصحة جيدة، كانت خطواته الإصلاحية ترعب الهندوس من الطبقات العليا، يرحل هكذا بهدوء في نومه. الله أعلم! دع هذه الأمور جانباً، هي محور للبحث

والتحقيق. بالنسبة لي، الفخر يكمن في أنني أنتمي إلى طبقة المهار، طبقة أنجبت شخصية عظيمة مثل بابا صاحب. في أول زيارة لي للقرية، اكتشفت هذه الهوية. والأهم من ذلك، أن مناطق القرية التي يقطنها الهندوس من الطبقات العليا كانت لا تزال مغلقة أمامنا. يعيش أبناء قومي خارج حدود القرية في منطقة تُعرف بمهارواره، حيث يسكن الناس من الطبقة الدنيا المهار.

بعد عودتي من القرية، نمت داخلي رغبة عارمة لاكتشاف جذوري. تعمقت في دراسة تاريخ قوم المهار. ألهمتني النضالات السياسية لأمبيدكر وكتاباته الثورية بشكل عميق. في البداية، كانت لدي تساؤلات حول لماذا فضل البوذية على الإسلام. لكن بعد سنوات من البحث، بدأت أتفهم أن أمبيدكر ربما واجه نفس الإشكالية: إذا اعتنق الإسلام، فأي مكان سيجد في طبقات المسلمين؟ لم يكن بمقدوره أن يصبح سيدًا، شيخًا، مغوليًا أو بثهان، فهذه الألقاب تتطلب انتماء عرقي. وفي النظر إلى الأنصاري أو المنصوري، إذا كان سيظل في الطبقات الدنيا من المجتمع حتى بعد اعتناق الإسلام، فما القيمة في هذا الإسلام؟"

"لكن ماذا وجدوا في البوذية؟" تساءلت بدهشة.

فأجابت عائشة بتأمل عميق: "البوذية كانت مجرد محطة لهم، ليست الوجهة النهائية. كان بابا صاحب قد عزم منذ البداية، للتخلص من نظام المانووادي واسترداد إنسانيته، على التخلي عن الديانة الهندوسية. كان الإسلام بديلاً محتملاً، وكانت له علاقات جيدة مع المسلمين. لكنه أدرك وجود براهمنية غير مرئية حتى بين المسلمين الهنود. فكما يُغفر للبراهمنين سبعون ذنبًا، كذلك يُبالغ في تكريم السادات بين المسلمين. المسلمون منقسمون بين الأشراف والأجلاف. لم يكن من الحكمة أن ينتقل شعب مُضطهد لقرون من عبودية نظام إلى آخر. كانت مهمة أمبيدكر الأساسية هي إلغاء نظام الطبقات، سواء كان ذلك بين الهندوس أو المسلمين. البوذية لم تكن سوى محطة توقف مؤقتة في مسيرته".

"ماذا تقولين عن معاهدة بونة، التي يُعتقد عمومًا أنها جعلت من الصعب على أمبيدكر ترك الهندوسية؟" تساءلت مستغرباً.

أوضحت عائشة: "معاهدة بونة لم تكن بها مشكلة كبرى، ربما تشير إلى معاهدة أمبيدكر-مونجهي لعام ١٩٣٦. في معاهدة بونة لعام ١٩٢٣، كان الشرط يتعلق فقط بتخلي بابا صاحب عن المطالبة بالهوية القومية المستقلة والانتخابات المنفصلة للداليت مقابل الحصول على مقاعد محفوظة في الجمعيات الإقليمية و١٨٪ من مقاعد الجمعية المركزية. لكن معاهدة أغسطس ١٩٣٦ حددت بوضوح أن الداليت الذين يعتنقون الإسلام أو المسيحية لن يكونوا مؤهلين للمحفوظات. من هذه النقطة، يمكن القول إن اعتناق الإسلام بالنسبة لأمبيدكر أصبح كجدار لا يمكن اختراقه. الضغط من الهندوس من الطبقات العليا كان شديدًا للغاية بحيث اضطر أمبيدكر إلى اتخاذ قرار مؤقت. ماذا كان بإمكانه أن يفعل؟ من جهة واجه جدار المحفوظات والامتيازات الحكومية من الهندوس، ومن الجهة الأخرى كان الإسلام المتأثر بالبراهمنية غير مستعد لقبوله بكامل الكرامة الإنسانية كمسلم من الطبقات العليا".

"لكن في الإسلام لا يُفترض وجود نظام الطبقات، أليس كذلك؟ هذا شر مجتمعي ناتج عن تأثير الهندوس." أعربت عن تساؤلي.

ردت عائشة بلهجة حازمة ومتأملة: "عن أي إسلام تتحدث؟ في مجتمع مسلم منقسم إلى طبقات، حيث يفخر السادات بنسبهم المزعوم وتتفق عليه العقول، سواء كانوا من ديوبند أو البريلويين، على أن المسلمين من الطبقات الدنيا لا يمكن أن يكونوا ندًا للسادات. في 'بهشتي زيور'، يُنصح الأشراف بتحديد اختلاطهم الاجتماعي. يُحظر على المسلمين من الطبقات الدنيا المشاركة في التجمعات الاجتماعية. فكيف يمكن لمن يسعون لاسترداد كرامتهم الإنسانية أن يجدوا الجاذبية في نظام اجتماعي هندوسي مانووادي متبنى من قبل المسلمين الهنود؟"

واصلت عائشة حديثها عندما دخل شريف بأكواب الشاي. قال: "يبدو أن الحديث وصل إلى 'بهشتي زيور'. نعم، عائشة غاضبة جداً من العلماء." تابع: "ما أكثر ما عانينا من هؤلاء العلماء. في كلكتا، كنا جيرانًا. قبل نحو خمس أو ست سنوات، تولى والد عائشة منصب مدير في مدرسة محلية. نشأت صداقة بينه

وبين والدي. كانت زياراتنا المتبادلة متكررة. والدي كان يقدر عائشة كثيرًا. قرر ذات يوم أنه يريد أن تصبح زوجة لابنه. كانت متدينة، واعية ومتعلمة. أين تجد هذه الأيام مثل هذه الفتاة؟ لكن المشكلة كانت أننا من عائلة سادات، وكان معروفًا أن عائشة من عائلة داليت اعتنقت الإسلام. وافقت والدتي بصعوبة، لكن الأقارب الآخرين صُدموا. هل يأتي أحد بفتاة داليت إلى منزل سادات؟ تحولت الأمور إلى نزاع. والدي، كونه عضوًا في جماعة دينية، أصر على هذا الزواج كعمل صالح، لكننا دفعنا ثمنًا باهظًا. في يوم الزفاف، هاجم الأقارب منزلنا. جاءت الشرطة، وتفاقمت الأوضاع. اضطررنا لمغادرة المدينة على الفور. سمعت أن الأمور هدأت الآن بعد التفاوض، لكن اضطررنا للهجرة. انظر كم هو غالٍ الثمن الذي يجب دفعه في مجتمعنا المسلم لمجرد تطبيق مبدأ من مبادئ الإسلام. إذا كانت معاناتي بهذه الصغر، فتخيل ما تمر به عائشة. لقد عانى أجدادها في الجحيم لأجيال".

"هكذا وصلتِ إلى مكانة اجتماعية رفيعة، أليس كذلك؟" سألت.

ردت عائشة بصوت حازم: "أية مكانة؟ هذه بالضبط قضيتي، أنا لا أرى في ذلك مكانة عالية. جميع البشر متساوون، والتقوى وحدها هي مقياس التكريم. لماذا يُنظر إلى الزواج من عائلة سادات كمصدر للفخر؟ يمكنك القول إنني الآن في موقع يمكنني من خلاله محاربة التمييز الطبقي في المجتمع المسلم بفاعلية أكبر. أستطيع تحدي العنصرية السائدة. في الكلية، كانت لي صديقة براهمنية. كنا مقربتين حتى علمت بأصلي من طبقة المهار، وبدا كأن غشاوة سقطت عليها. تحولت صداقتنا إلى عداوة، وأصبحت ترمي عليّ كلمات مسيئة وتلمح بجمل ذات معاني مزدوجة. 'أصبحت مراحيض الكلية قذرة هذه الأيام.' كنت فقط أستمع وأبتسم".

"إذن، الهندوس من الطبقات العليا لم يقبلوا الداليت في الفضاء العام بعد؟"

أجابت: "بالضبط، لقد تحملوهم فقط، ربما خوفًا من أن يعتنق الداليت دينًا آخر إذا لم يتحملوهم، مما قد يؤدي إلى انتهاء الأغلبية المصطنعة للهندوس من الطبقات العليا".

"ما هو شعورك تجاه أولئك الذين تُركوا وراء؟" سألت بتفكير عميق.

"من هم؟" استفسرت.

"أتحدث عن الذين لا يزالون داليت، الثابتين على دينهم القديم. ما هي طرق الخلاص المتاحة لهم؟"

أجابت عائشة بنبرة مليئة بالتأمل: "الخلاص كلمة كبيرة. كيف لأولئك الذين تُشكك في إنسانيتهم، ويُنظر إليهم على أنهم دون البشر، أن يفكروا في الخلاص والجنة والجحيم؟ لقد وجدوا أنفسهم في جحيم على مر العصور، حيث يتحملون مسؤولية جمع النفايات البشرية جيلًا بعد جيل. النظافة مطلوبة في كل مجتمع، ولكن ليس هناك مجتمع آخر يُكرس فئة بأكملها لهذه المهمة مثلما يحدث في الهند، ويعتبر ذلك واجبًا دينيًا. ما قام به بابا صاحب من أجل التغيير الاجتماعي أحدث ثورة في مجتمع الداليت. الآن، هناك جيل من الشباب الداليت المتعلمين والواعين يسعون لإحداث تغيير، لكن الضغوط الاجتماعية قوية وتجعل من فتح الطريق أمامهم صعبًا. لقد طرق الداليت أبوابًا كثيرة، لكن لم يُعترف بهم كبشر كاملين في أي مكان".

"هذا الحديث المتكرر عن 'الإنسان الكامل' أو تقديم الكرامة الإنسانية على كل شيء، هل هو نتيجة لشدة الإحساس بسبب الظلم الذي يعاني منه المسلمون أيضًا؟" سألت.

"غمنا كداليت مسلمين مضاعف." أجابت. "المسلمون في وضع صعب، لكننا كداليت مسلمين، حتى بعد تغيير الديانة، لم نصل إلى هذا الوضع. حتى بعد اعتناق الإسلام، لا يتغير موقفنا الاجتماعي. يُنظر إلينا كداليت مسلمين. بغض النظر عن مستوى تعليمنا، نظل في نظر الناس كباسي، دُهنيا، وبهنگي. وعلى الرغم من أنه لا علاقة لنا بهذه المهن. في كلكتا، لدينا معلم يُدعى الدكتور نور عالم، معلم متميز. لكن عندما عُرف أنه من طبقة البمريا، دائمًا ما كانت له مشكلات مع الشيوخ والسادات".

"بمريا؟" تساءلت.

"نعم، في بهار، هذه الكلمة تُستخدم عادة للإشارة إلى الباسي." أضفت.

سنوات بعد، عندما أصبح كيه آر نارايانن رئيسًا للجمهورية، كنت جالسًا في نادي الصحافة الهندي مع مجموعة من الصحفيين غير المسلمين. كان معظم الحاضرين هندوس من الطبقات العليا. أحد الحضور، وفي يده جريدة، أشار إلى صورة نارايانن المنشورة وعلق: 'هل تعرفون ماذا شعر نارايانن عندما أُتيحت له الفرصة لأول مرة لرفع العلم في راشترباتي بهافان؟ انظروا إلى الصورة، يبدو وكأنه يتمنى أن يتسلق العمود.' انفجر الحضور بالضحك. لاحقًا علمت أنه ينتمي إلى طبقة البادوا، أو طبقة الباسي.

"في رأيك، ما هو الحل؟" سألت، محاولًا فهم موقف عائشة.

ردت بحزم: "لن يكون هناك نجاح في النضال من أجل كرامة الإنسان وحقوقه في هذا البلد حتى يُهزم البرهمنية بشكل كامل".

"لكنك تقولين إننا كمسلمين لم نتغير".

أوضحت: "لقد استشرت البرهمنية في كل مكان. لا يوجد دين في الهند بمأمن من تأثيرها. أولئك الذين تحولوا إلى المسيحية بحثًا عن روحهم، أجبروا على البقاء كمسيحيين داليت. في بعض الأماكن، حتى الكنائس مخصصة للداليت. وكذلك الأمر بالنسبة للذين انتقلوا إلى السيخية. الواقع هو أن الداليت، إذا وجدوا طريقًا لاستعادة كرامتهم، سيتبعونه بكثرة".

"ما الخيار الأفضل من الإسلام؟" قال شريف. "يقول البروفيسور نور عالم إن المساواة بين المسلمين موجودة فقط أثناء الصلاة لخمس دقائق. بمجرد خروجهم من المسجد، يبدأ التمييز الاجتماعي والنسبي. الداليت والقبائل الأصلية وغيرهم من المضطهدين في هذا البلد، مستقبلهم مرتبط بالإسلام، لكن بالإسلام الذي وصل في القرن الأول الهجري إلى شواطئ مالابار. التجار والمبشرون المسلمون الأوائل تعاملوا مع السكان المحليين كبشر وأقاموا علاقات عائلية دون تمييز. لكن الجيل الحالي من المسلمين وكبار علمائهم، يعانون من نوع من البرهمنية. الإسلام يجب أن يُطهر من هذه الآفات لفتح أبوابه أمام الإنسانية المظلومة".

كانت كلمات عائشة تنبض بألم عميق. كلامها كان محمّلًا بالدراسة العميقة، المشاهدات الدقيقة، والتجارب الشخصية. كنت أرغب بشدة في مواصلة الاستماع إلى بصيرتها حول مجتمع الداليت. لكن الليل تقدم، وكان علي أن أطلب الإذن من شريف للمغادرة. وأثناء عودتي، كان بيت من شعر محمد إقبال يتردد في ذهني وقلبي:

'شب ہندی غلاماں را سحر نیست،
بایں خاک آفتاب را گزر نیست'.
'ليل الهنديين العبيد لا فجر له،
في هذا التراب، لا مرور للشمس'.

عائشة، وإن كانت مسلمة بالولادة، فقد نقشت معاني بابا صاحب في قلبها بفضل تربيتها في أسرة داليت مسلمة حديثة الإسلام. تأملت في أنه إذا نهض شخص واحد من أمة العبيد ليكسر قيوده، يمكن أن يحدث تغييرًا جذريًا في العالم. تذكرت تلك الأغاني الشعبية التي تُغنى في يوم امبيدكار جيانتي، حيث يُغني المغني مع ضربات الدهول:

'نريد الحقوق التي كتبها بابا،
نحمل عبء العبودية حسب إرادتنا،
الآن لا نريد أي اعترافات كاذبة، نريد حبنا'.

شعرت أن هذه الأغاني الشعبية كانت بمثابة سخرية لطيفة لنا كمسلمين هنود. هناك سبب وجيه يجعل امبيدكار يظهر كمنقذ لملايين المضطهدين والمعذبين، في حين أن أولئك الذين كان يفترض أن يكونوا محررين للمستضعفين، أغلقوا جميع أبواب الكرامة الإنسانية على أبناء جنسهم بتفسيراتهم الفقهية حول الكفاءة وعدم الكفاءة.

٤٦

لو لم يكن بهيم في عالمنا

اليوم، تذكرت محادثة مع جاري البراهمي من طفولتي. كان عمري حينها حوالي العاشرة أو الثانية عشر. في أيام الشتاء، كان يجلس أميري لال في الشمس الدافئة يقرأ الصحيفة. بدأ الحديث فجأة عن الطبقات العليا والدنيا. قال بثقة: 'خلق الله بعض الناس عاليين وآخرين دنيين، هذه هي نظامته. ألا ترون كيف أن الأبقار الأصيلة تعطي أكثر من الأبقار العادية؟ الفرق في النسل.' كان يُصر على أن الله خلق بعض البشر من رأسه وبعضهم من قدمه، وأن عكس هذا الترتيب سيؤدي إلى الفوضى. كنت أستمع إليه بدهشة. وأضاف: 'إذا حاول شخص وضع قدمه مكان رأسه، أو أن يضع أنفه مكان عينه، فهل سيظل صالحًا لشيء؟ هكذا الحال مع الطبقات التي يولد فيها الإنسان.' أكد أن الشاسترا تعلمنا أن كل إنسان يجب أن يؤدي العمل الذي خُلق له. وعندما اعترضت قائلًا إن الله خلق كل إنسان على نفس الفطرة، كيف يمكن اعتبار أي إنسان نجسًا أو مكروهًا؟ أجاب: 'النجاسة في الجسد وليس في الروح. أولئك الذين يتناولون الطعام الفاسد ويلوثون أجسادهم، لا يمكنهم أن يكونوا طاهرين. نعم، إذا عاش هؤلاء الأشخاص في طبقتهم وأدوا أعمالهم بسعادة، فقد يحصلون على فرصة للانتقال إلى طبقة أعلى في الحياة القادمة.'

سألته بطفولية: 'هل ليس هناك أمل في الخلاص لهم في هذه الحياة؟' فرد بصوت يملؤه اليقين: 'لماذا يحتاجون إلى الخلاص؟ هذا الفكر خاطئ. الفرنات الأربعة تكون معًا جسدًا واحدًا. عندما تتألم قدمك، من يصرخ أولًا؟ إنه الفم الذي يصرخ. انظر! الضربة تصيب الشودرا (القدم) ولكن الصرخة تخرج من الفم

(البراهمن). ومن يسارع لتقديم المساعدة؟ هذه الأيدي (الكشترية) هي التي تعالج. إنه نظام يحافظ على توازن المجتمع. إذا أراد الشودرا تولي منصب القيادة، فهذا يعد تعديًا على النظام الطبيعي. كما يقول منو في الشاسترا بوضوح، يجب أن يجلس الشودرا على الأرض أمام البراهمن، ومن يخالف ذلك يُعاقب. ما هو مكتوب في الشاسترا هو الحقيقة، ولا يجب علينا تطبيق عقولنا عليه. الإنسان يتبع الشاسترا، والحيوانات تتبع غرائزها.'

في ذلك اليوم، شعرت بدهشة كبيرة من كلام أميري لال. لم أكن أدرك في ذلك الوقت أن نظام الطبقات الهندوسي المنوي قد حرم ملايين البشر من (المفترض) الطبقات الدنيا من كرامة الإنسانية على مدى قرون. تذكرت القرية التي عشت فيها في طفولتي، حيث كانت توجد تجمعات للهندوس من الطبقات الدنيا في محيطها. الجوالي، الصيادين، الدوم، الجمار، وغيرهم من الفئات التي كانت تخدمنا ليل نهار، تنادينا بألقاب 'السيد' و'السيدة'، والعزيز منغلا الذي كان يسقي حدائق الزهور ويجلب لنا الورود الحمراء والصفراء بكل حب، هؤلاء الناس كانوا مفيدين لنا في كل مناسبات الفرح والحزن، وكانت بيوتنا تزدهر بفضلهم في موسم المانجو ووقت الحصاد، لكن لم يخطر ببالي قط أن أزور منازلهم. المجتمع الإقطاعي والطبقي الذي شكل الإسلام فيه قد وضع حدودًا فاصلة بين الأشراف والأدنين، وكل هذا كان موجودًا في تلك الأسر الدينية حيث كان يعتبر الإسلام الولي اللهي وشراحه الديوبنديون والبريلويون معيارًا للأرثوذكسية.

في أحد الأيام، بينما كنت أمر بجوار الكافتيريا في المكتبة، ألقى أخ الشريف نداءً إليّ. كان يجلس تحت الأشجار بالقرب من الكافتيريا، يتناول وجبة دوسة مع رجل يبدو كشخصية دينية مهمة. بعد التعريف بيننا، علمت أن اسمه شيخ الإسلام. كان رجلًا ذا بنية قوية، بلحية كثيفة بيضاء وعينين تلمعان من خلف نظاراته المقعرة. أفادت المعلومات أنه حمو أخ الشريف وقد توقف لزيارة ابنته أثناء رحلته إلى دلهي. بدا مرتاحًا لعلاقتنا. تحدث بحرارة عن اسمه، قائلًا: 'عندما قررت اعتناق الإسلام قبل ثلاثين عامًا، أردت أن يكون اسمي إسلام شيخ. لكن في

المسجد الكبير، بعد حديثي مع الإمام، الذي أعجب بثقافتي، أصر على تسميتي شيخ الإسلام. منذ ذلك الحين، أشعر أن هذا الاسم يتوقع مني مسؤولية عظيمة.' هنا توقف للحظة، غارقًا في التفكير، مما أعاد إلى ذهني حديثي مع عائشة. أدركت أن شيخ الإسلام، على الرغم من عدم ظهوره كشخص من الطبقة الدنيا، يحمل جلالًا ووقارًا يشيران إلى مكانة رجال الدين العظيمة.

لما اكتشف أن حديثنا مع عائشة تناول مواضيع مختلفة، قال بنبرة تعكس تجربة الأجيال: 'عائشة فتاة لها حساسية عصرها، تدرس الأنثروبولوجيا. ربما لديها فهم أعمق لتلك الأمور. ولكن، في معركة الكرامة والاحترام، المهم هو كيف تعرّف نفسك'. تحدث بثقة: 'نحن، المهار، قد فهمنا هذا. فأصبح انتماؤنا للمهار مصدر فخر، وليس عارًا'. سألته إذا كان ذلك بفضل أمبيدكار. أجاب: 'أمبيدكار لعب دورًا رئيسيًا، لكنه لم يكن الأساس. كان إنجازه الحقيقي هو اكتشاف تاريخنا وتطبيق رؤية جديدة عليه'. سألني إن كنت سمعت عن قرية بهيما كوريجاون، فأجبت بالنفي. قال بحماس: 'إن إنجاز أمبيدكار الأعظم كان في اكتشاف هذا الركن الأساسي من تاريخنا. عندما تتاح لك الفرصة، عليك أن تدرس قرية بهيما كوريجاون بالتفصيل. ستفهم حينها كيف يصبح الشعب عاجزًا عندما يفقد تاريخه'.

"هل كوريغاون مكان مقدس؟" سألت بفضول.

أجاب بلهجة تحمل وقع التاريخ: "ليست بمقدسة دينيًا، لكنها تتمتع بأهمية لا تقل عن ذلك. تعود الحادثة إلى عام ١٨١٨، عندما واجه حوالي ٨٠٠ من قبيلة المهار جيش البراهمين البيشوا المكون من ٢٨ ألف جندي في كوريغاون. حقق هؤلاء المهار انتصارًا باهرًا، وتكريمًا لشجاعتهم، أقام الإنجليز عمودًا تذكاريًا هناك. اكتشف أمبيدكار، أثناء دراسته في إنجلترا، هذه الصفحة المشرقة من تاريخ قومه. ولدى عودته إلى الهند، أعاد اكتشاف العمود التذكاري وجعله مزارًا لشعب المهار. وكان يحرص على زيارته سنويًا في الأول من يناير ليحتفل بذكرى ذلك الانتصار العظيم.

تدفقت الحشود بأعداد غفيرة، مما أثار في المهار شعورًا بالفخر والانتماء إلى أجداد بطوليين، قادرين على هزيمة البراهمين الأعلى نسبًا رغم قلة عددهم."

"ثمانمائة مقابل ثمانية وعشرين ألفًا - هذا ليس بأقل من معجزة!" عبّرت عن دهشتي بصوت مملوء بالإعجاب.

ردّ بنبرة تعكس تأملاته العميقة: "فهم هذا الانتصار العظيم يتطلب الغوص في أعماق الدوافع النفسية والاجتماعية المستترة وراءه. لنا، شعب المهار، تاريخ غامض ومعقد. نحن من نسل الناجا. هل لاحظت من قبل تماثيل بوذا التي يحميها الثعبان بظله؟ كانت هناك فترة امتد فيها نفوذ البوذية من الهند إلى أفغانستان ومن الصين إلى اليابان. أرسى بوذا أسس مجتمع قائم على المساواة والأخوة، بعيدًا عن عبادة الأصنام. لكن، كما يحدث غالبًا في تاريخ الأديان، بدأ أتباعه بنحت تماثيل له.ثم جاءت غارة البراهمنة، ولم يستطع أتباع البوذية الصمود أمامها. تحولت تماثيل بوذا، بتعديلات جديدة، إلى صور لبراهما وفيشنو وماهيش. وقعت المعابد البوذية تحت سيطرة البراهمنة، وأُجبر الأتباع، الذين كانوا يومًا حماة التعاليم البوذية، على العبودية. بُني تفسير ديني جديد يدعي أن بعض البشر وُلدوا ليكونوا عبيدًا دائمًا. كان من المقرر أن يتعاملوا مع الأوساخ والحيوانات الميتة وأن يعيشوا في الخارج، منبوذين، خشية أن يلوث ظلهم العبادة. هكذا نشأ تفسير جديد للدين، وأصبح يُقال أن بعض البشر خُلقوا ليكونوا عبيدًا إلى الأبد."

"في ظل هذا الصراع بين الأعلى والأدنى، هل يُعتبر تحصيل حاصل لتصادم بين البوذية والبراهمنية؟" استفسرت بفضول.

أجاب بنبرة تحمل ثقل التجربة: "لا تنعتها بالهندوسية. الهندوسية في جوهرها ليست ديانة بقدر ما هي تعبير جغرافي منحه العرب. ففي الفيدا، البورانا، الجيتا، الأوبانيشاد، أو أي نص ديني هندوسي لن تجد ذكراً لكلمة 'هندو'. لقد مارست البراهمنية عنفًا وحشيًا باسم الدين على المهار. من الصعب تصديق أن أعناقنا كانت محاطة بأواني فخارية لقرون، ومكانس معلقة بأحزمتنا، ليتعرف علينا الناس من بعيد كمنبوذين، مكلفين أساسًا بجمع القاذورات".

"المكانس مفهومة، لكن ما المنطق وراء تلك الأواني المعلقة حول الأعناق؟" سألت.

أجاب: "كمنبوذين، اعتقد الناس أن لعابنا لا ينبغي أن يلمس الأرض، لذا تم تعليق الأواني حول أعناقنا".

"هذا إجحاف فادح. كيف تقبل المهار بهذه الظروف؟"

أوضح: "لم يقتصر الأمر على المهار فحسب؛ ففي مختلف أنحاء البلاد، فُرضت هذه المعاناة على مجموعات مختلفة من الطبقات الدنيا. البعض هجر القرى واضطر إلى اللجوء إلى الغابات. هؤلاء الذين تسمونهم 'السكان الأصليين' هم هؤلاء المعذبون."

"لكن كيف تقبلوا بحياة الذل هذه رغم كثرتهم العددية؟" سألت، متأملاً في تناقضات الواقع المرير.

أجاب بثقل: "على مر العصور، كانت هناك انتفاضات متفرقة، لكن الطغيان البرهمني كان يستخدم الدين كوسيلة للسيطرة. قيل لهم إن قبولهم الراضي لمصيرهم في هذه الحياة سيؤدي بهم إلى ولادة جديدة في طبقة أعلى. كانت هذه مغسلة عقول حقيقية، حيث بدأ الشعب يؤمن أنهم وُلدوا ليكونوا من الشودر، ملوثين بشكل طبيعي".

"لكن المسلمين أيضًا وُصفوا بأنهم 'مليتش'، منبوذون، أليس كذلك؟"

أجاب بنظرة حادة: "صحيح، استخدم البراهمنة هذه الحيلة ضد المسلمين، لكنها لم تؤتِ ثمارها. بفضل قوتهم السياسية، كان من الصعب عزل المسلمين اجتماعيًا. لكنهم وجدوا تكتيكًا جديدًا بعد الاستقلال: أقنعوا المسلمين بأنهم أقلية وأن عليهم أن يقبلوا بالعيش على الهامش إلى الأبد".

تابعت السؤال بفضول: "ماذا عن هذه الحيلة الجديدة؟"

أوضح بصوت متأمل: "لم يكن تكتيك 'المليتش' ناجحًا، لكن عندما أدرك البراهمنة أن الهندوس من الطبقات العليا لا يمكنهم الهيمنة وحدهم، حاولوا ضم الطبقات الدنيا إلى الهندوسية بالإكراه. في هذا السياق، كما تعلم، اضطر غاندي

للإضراب عن الطعام. ثم استخدموا تكتيكًا آخر: إقناع المسلمين بأنهم أقلية وأن مصيرهم هو العيش على الهامش إلى الأبد".

في تلك اللحظة، وأنا أتأمل الأفق الرحب للتحرر، سألته: 'إذًا، ما هو مفتاحكم لفك أغلال هذا التلاعب النفسي؟' كان السؤال يحمل وزن ألف تساؤل، يبحث عن مسارات جديدة للانعتاق.

بنظرة ثاقبة، ملؤها الثقة، أجاب: 'الداليت ينفضون غبار البرهمنية عن أكتافهم، خطوة خطوة. لقد أضاء أمبيدكار دربهم، لكن قضية المسلمين تكتنفها تعقيدات جمّة. كلما سمعت علماءهم ومفكريهم يرددون "أقلية"، يغمرني الحزن لفقدانهم البصيرة. الإصرار المستمر على ضعفك يجعلك تؤمن به، وحين يفقد الإنسان ثقته بنفسه، تصبح الدعائم الخارجية عديمة الجدوى'.

وأضاف بعمق، وكأنه يرسم لوحة ثورية: 'أما بخصوص فكرة تحالف الداليت والمسلمين لإحداث ثورة جديدة في البلاد، فأنا أراها بمثابة بارقة أمل. ولكن ينقص المسلمين الجاهزية النفسية لهذه الخطوة الكبرى. لم يتهيؤوا بعد للتواصل الاجتماعي مع الطبقات الدنيا مثل الداليت. في الحقيقة، يعانون هم أنفسهم من نوع من البرهمنية. في مثل هذه الظروف، لا يمكن للتحالف أن يستمر. لقد كان المسلمون يدعمون حزب المؤتمر لوقت طويل، حزب البراهمن والتجار. يشعرون بالمرارة تجاه المؤتمر، لكنهم لا يستطيعون الإفلات من قبضته. يثير دهشتي أن كبار العلماء والمفكرين يقبلون بهذا الوضع المؤسف. أرى أن داليت الهندوس أوعى منهم. عندما أتواجد بين أقاربي غير المسلمين، أشعر بأن قلوبهم تحترق باستمرار ضد الطبقات العليا، يحملون إحساسًا عميقًا بالظلم الذي لحق بهم. في العام الماضي، في تجمع ببونة، استمعت إلى شاب يحذر الداليت والطبقات الدنيا من الانجرار وراء حركة معبد رام. وقال بصوت يخترق القلوب: 'هذا فخ جديد ينصب لنا. نحن لسنا هندوس. لا يجدر بنا أن نسهم في بناء معبد يعاملنا كمنبوذين.' هذه الأصوات ما زالت خافتة، لكن الجيل الجديد من الداليت المتعلم يعمل في الخفاء، ينسج خيوط ثورة تحت سطح الأرض".

"هل تعتقد أن الوعي السياسي للداليت سيؤدي إلى تقارب مع المسلمين في المستقبل؟" سألت، محاولًا استشراف مسارات جديدة للتحرر.

أجاب بنبرة تعكس عمق التجربة: "في الوقت الراهن، لا يبدو ذلك مرجحًا. هناك تعقيدات قانونية، مثل المادة ٣٤١ من الدستور، تحول دون اعتناق الداليت للإسلام. والسبب النفسي يعود إلى تفضيل أمبيدكار للبوذية على الإسلام".

تابعت بسؤال: "لماذا اختار أمبيدكار، الرجل المتعلم وصديق المسلمين، البوذية على الإسلام؟"

أجاب بتأمل: "أولًا، برود المسلمين تجاه الداليت مثل الشمار والبهنجي، وثانيًا، إدراك أمبيدكار أن البوذية تربطه بتاريخ أجداده المجيد. أحيا أمبيدكار في قومه شعورًا بالكبرياء الوطني، مربطًا إياهم بماضيهم المهيب. منحهم ثقة استثنائية، ليس فقط بربطهم بأتباع بوذا الأوائل ولكن أيضًا بإيجاد رمز وطني في قرية كوريجاون يجسد الانتصار البطولي للمهار على البراهمنة الحكام كل عام في الأول من يناير. ولكن عندما يستيقظ أسد التاريخ، ويأسرك تمثال الفخر الوطني بسحره، يصبح مجال التفكير الحكيم والاستقلالي ضئيلاً للغاية."

عندما برزت قصة بيما كوريجاون في عناوين الأخبار سنوات لاحقة، عادت إلى ذهني ذكريات حديثي مع الشيخ الإسلام. لم أكن قد أدركت بعد أن أمبيدكار لم يقدم للداليت مجرد رمز دائم للفخر الوطني في كوريجاون، بل كان قد بدأ أيضًا في عدّ الأيام المتبقية لنهاية المجتمع البرهمني المبني على الطبقية. احتفالية الذكرى المئوية الثانية لكوريجاون كشفت للعالم أن الحركة التي أسسها أمبيدكار لرفع المجتمعات المهمشة عبر الحجز الدستوري والحمايات الدستورية الأخرى قد تطورت الآن إلى صوت قوي. وعندما كنت أستمع إلى قوالي براكاش ناث باتانكار وسمعت هذه الأبيات، بدا لي وكأنها تحل العديد من ألغاز طفولتي:

"أعلنوا عن وجودكم بصوتكم الخاص،

فالعالم لديه ما يقوله عن هؤلاء المفتونين ببيم.

لو لم يكن هناك بيم، أين كنا سنجد أنفسنا؟

أقسم ببوذا، كنا لنكون في طي النسيان منذ زمن بعيد.
تلك الظلمة التي ألقاها علينا البراهمنون،
أولئك الذين يتقنون فن ارتداء الخيوط والملابس الصفراء،
قد أثقلوا كواهلنا بالظلم والتمييز،
بأمطار القهر التي أمطرونا بها.
نحن الذين حرمنا حتى من قطرة ماء للشرب،
عندما جعلهم بيم راو يرقصون على طرف قلمه،
تلك كانت اللحظة التي سار فيها هؤلاء الذئاب على الطريق الصحيح".

في ذاكرتي، يتردد صدى حديث والدي في مكتبة المجتمع عن علمانية الهند. لم تكن هذه العلمانية نتيجة رؤية موسعة للحكام، بل كانت ضرورة عملية وسياسية. كان من غير الممكن قبول فكرة دولة هندوسية قائمة على نظام الطبقات لأمبيدكار وملايين من أتباعه. فهمت أخيرًا جوهر التعاطف والمحبة التي أبداها غاندي تجاه 'هريجان'، أطفال الله. أدرك غاندي مبكرًا أنه إذا قامت الطبقات الدنيا بالمطالبة بحقوقها، فإن وهم الأغلبية الهندوسية سيتلاشى. ومنح الأونتاتشابلز لقب 'هريجان' كان استراتيجية سياسية؛ دافع عن حقهم في دخول المعابد، لكنه عرقل تطورهم نحو تأسيس قوة سياسية مستقلة بإضرابه عن الطعام. وأخيرًا في ١٩٣٢، اضطر أمبيدكار للخضوع لغاندي، تخلى عن مطالبته بانتخابات منفصلة، لكن الحجز الدستوري والامتيازات الوظيفية للداليت، بالإضافة إلى الرمز التاريخي لكوريجاون، قدمت للداليت هوية مميزة. إعلان أمبيدكار في ١٩٥٦ مع ملايين من أتباعه عن الخروج من خيمة الهندوسية في تجمع شعبي بناجبور كان كالزلزال الذي هز أسس المجتمع البرهمني.

كانت الأول من يناير عام ٢٠١٨، يوماً مميزًا في كوريجاون، حيث احتفل السكان بمرور مائتي عام على معركتهم الشهيرة. لكن الطريقة التي حاولت بها السلطات تقويض هذا الاحتفال على المستوى الحكومي تؤكد أن تأثير حركة أمبيدكار لا يزال يعمل بقوة في الخفاء. في عام ١٩٥٠، أُدخل تعديل على البند ٣٤١

من الدستور بموجب مرسوم حكومي، في محاولة للحفاظ على الداليت ضمن حدود الهندوسية، مما أدى إلى حرمان الذين يتخلون عن الهندوسية من الامتيازات المقررة للطبقات المجدولة. ورغم الاحتجاجات الواسعة، تم إدراج أتباع السيخية والبوذية في هذه الامتيازات فيما بعد، لكن الداليت الذين يعتنقون المسيحية أو الإسلام لا يزالون محرومين منها حتى الآن. هذا الوضع يعكس بوضوح المعضلة التاريخية والاجتماعية التي تواجه الداليت في الهند، بين التمسك بالهوية والبحث عن الحرية.

٤٧

مطالبة الله بالاعتذار

في ظل الأصداء المتزايدة لحركة معبد رام، استشرى الغضب الشعبي بشكل تدريجي. بدأ الهندوس العاديون يصدقون الدعاية التي روج لها النهضويون، والتي تزعم أن الهندوس، رغم كونهم الأغلبية، ليسوا في مأمن في بلدهم. كان يُنظر إلى عدم السماح لهم ببناء معبد عظيم يليق بالإله رام في مكان ولادته على أنه نتيجة لسياسة حكومية متملقة للمسلمين. كان قادة المسلمين يظنون خطأً أن تصريحاتهم تحظى باهتمام الصحافة، ولكن الحقيقة كانت أن الإعلام كان يستخدم هذه التصريحات النارية لتأجيج الرواية الهندوسية المتشددة.في الجانب الآخر، كانت منظمات المسلمين تعاني من قلة الموارد والبنية التحتية الإدارية، كما ذكر نائب الرئيس سيد شهاب الدين. ولم يتمكن مجلس القانون الشخصي للمسلمين من إحراز تقدم في تصحيح عيوب قانون المرأة المسلمة لعام ١٩٨٦. ظلت النقاشات حول تدوين القانون الشخصي بلا حسم، فكيف يمكن تدوين القانون في وجود تناقض بين التفسيرات الفقهية وأحكام القرآن؟ كان العلماء في المجلس عاجزين عن حل هذا التناقض. فقد بدت مواقف القرآن في قضايا الطلاق الثلاثي، النفقة بعد الطلاق، وميراث الحفيد اليتيم مختلفة عن تلك الموجودة في كتب الفقهاء. لم يكن بمقدور علمائنا رفض الفقهاء، لكنهم لم يكونوا مستعدين أيضًا لقبول هذه الكتب كحقائق أبدية تتناقض مع القرآن. وهكذا ظل تدوين القانون معلقًا، محكومًا بتأجيل دائم.

في ظل التغيرات، برزت حركات النهضة الهندوسية بشعاراتها الجديدة وزخارفها الباهرة، فيما غمرت الانقسامات والخلافات المنظمات الإسلامية.

شهدت جمعية علماء الهند انشقاقاً، مع تولي السيد أحمد هاشمي قيادة إحدى الفصائل. بالمقابل، أسس مولانا أسعد مدني تنظيمًا جديدًا تحت مسمى 'إمارة هندية'. وكانت مدرسة مظاهر العلوم تسير على خطى دار العلوم ديوبند، متبنية مبدأ 'اختلاف الأمة رحمة.'لكن التطور الأبرز كان في صندوق الإغاثة المركزي لمجلس المشاورات الإسلامية، الذي أصبح فعالاً، كما أفاد سيد شهاب الدين. وكيف لا يكون كذلك، عندما أحدثت أحداث ميراث لعام ١٩٨٧، ولا سيما في ماليانا وهاشمبورا، ضجة كبيرة في الصحافة العربية. تمثلت الصحف العربية ميراث على غرار بيروت (ميروت)، مما أثار تعاطف العديد من المحسنين، الذين أرسلوا تبرعات لإعادة توطين الضحايا. لم تقتصر تأثيرات الأحداث المروعة في ميراث على تنشيط صندوق الإغاثة المركزي فحسب، بل فتحت أفقًا جديدًا لخدمة المجتمع باسم الإغاثة لعدد من المنظمات الإسلامية.

على جانب واحد، رسمت المنظمات الإسلامية خطًا تنازليًا متواصلاً في تأثيرها، حيث تتلاطم أمواج التصريحات المتهورة والمحرضة من قادة المساجد، وتُطل تنظيمات وهمية كآدم سينا وإمارة الهند بدعاوى جوفاء. على الجانب الآخر، اكتسحت البلاد موجة النهضة الهندوسية، حتى بات يرى رئيس الوزراء أن مشاركته في مراسم تكريم الأصنام وزيارة المعابد ضرورية لبقائه واستقراره السياسي. كان المستقبل يبدو مثل ليلة طويلة ومظلمة، لا يُرى فيها أي شعاع فجر؛ ليل لا نهاية له ينتظر المسلمين في هذا البلد.

في تلك الأيام المليئة بالشكوك والتوتر، كنت أتخبط في بحر من القلق. أتجول لساعات طويلة تحت ظلال الحدائق الغناء، أو أنساب عبر الشوارع المقفرة والميادين الواسعة. بعد نشر 'غلبة الإسلام'، ألزمني والدي بقيام الليل كواجب علي. وخلال تلك الليالي، كنت أغرق في متعة وسكون روحي. أحيانًا أتلو الأوراد والأذكار، وأحيانًا أتغنى بمناجاة الروح من 'مثنوي' جلال الدين الرومي بحماس. في إحدى رحلاتي إلى العالم العربي، اكتشفت كتاب 'الأدعية المأثورة'، الذي ظننته في البداية مجموعة من المعارف السامية المستمدة مباشرة من الكتاب والسنة. ولكن

مع الوقت، أدركت أنه، مثل غيره من كتب الأوراد، مُعد لمجرد إشغال السالكين. رغم ذلك، كانت تلك الجلسات الليلية تمنحني شعورًا بالراحة والانتشاء. لكن، ظلت الأسئلة تتردد في ذهني: إذا كانت هذه الرياضات والأوراد لها القدرة حقًا على تغيير الواقع وهزيمة الأعداء، فلماذا لم تحقق ذلك من خلال تلك الحلقات الروحية التي شاركت فيها، حيث كان يُمنح الإذن بتلاوة الأوراد فقط للمستحقين من قبل الشيخ؟ إذا كان هؤلاء الصوفية الكبار، الذين ينتسبون إلى سلسلة الطريقة المتصلة بقطب الأقطاب وصولاً إلى الإمام علي، أو الذين يدّعون انتسابهم إلى خيمة الصديق، لم يستطيعوا إحداث تغيير إيجابي في الأوضاع، فكيف يمكن لمبتدئ مثلي، لم يكشف بعد عن كل معاني 'المثنوي'، أن يحقق شيئًا؟

في أحد الأيام، تطرق حديثي مع معلمي، الأستاذ السيد نقوي، إلى حال البلاد. سألني: "هل قرأت لسبينوزا؟ في هذا الكون الفسيح، لا يعدو كوكبنا أكثر من ذرة تراب. ومع ذلك، انظر إلى البشر الذين يعتبرون قصصهم محور الكون. يعتقد البعض أن الله يسجل مكافآتهم وعقابهم. إنها مجرد أوهام بشرية. لماذا يعنى الله بإعداد جهنم أبدية لنا؟ الله يريد منا أن نستمتع بنعمة الحياة التي منحنا إياها - أن نتجول في وديان الطبيعة، أن نلعب تحت الأشجار، أن نعزف الناي على ضفاف الأنهار. كن سعيدًا بنفسك وشارك الآخرين في هذه السعادة. هذه العاصفة من الكراهية التي تعصف ببلادنا هي أيضًا نتاج لسردية دينية. فمن هو رام وأين ولد؟ لكن ما اهتمام أهل الديانات بهذه الأسئلة؟."

كان الأستاذ نقوي يتمتع بنظرة علمانية مميزة وغير متحيزة في الدين، مُعززة بابتسامة على وجهه تُضفي عليه سحرًا خاصًا. كان يتجنب المناقشات الدينية عادةً، ولا يرفض الدين بشكل قاطع، بل يطرح الأسئلة ويمضي قدمًا. كان يقيم في منزل البيبي، مقابل مسجد الحي الذي تحول الآن إلى مدرسة دينية كبرى بعد توسعتها. زوجته كانت تتبرع بانتظام للمسجد، وعلى الرغم من تحفظاته، كان يعبر عن ذلك بابتسامة، قائلًا ذات مرة إنه أوكل شؤون الدين إلى زوجته. في المقابل،

كان إمام رضا يتبنى موقفًا تبشيريًا أكثر صرامة. كان ضياء من أبرز تلاميذه وكان يشارك معه في اجتماعات الحزب الشيوعي. في أحد هذه الاجتماعات، شرع ضياء في سرد درس جديد تعلمه هناك. قال: 'الله ليس كيانًا منفصلًا، بل هو إنشاء نفسي خلقه اللاوعي البشري. في الواقع، نحن البشر من خلقنا فكرة الله. يسعى الإنسان لتحقيق رغباته التي لم تكتمل أو تلك التي لا يقدر على تحقيقها، فيطلبها من كيان يُفترض أن يكون كلي العقل ومتمتعًا بالقدرة الكاملة'.

قلت: يبدو أنك مؤخرًا تطالع أعمال فويرباخ. لا ضير في ذلك، لكن القراءة المباشرة من المصادر الأصلية تظل الأمثل. في مجالس النقاش، غالبًا ما تتلاشى تفاصيل الحقيقة. هناك، حتى هذه العبارة العميقة من ماركس تُفهم كجزء من الخطاب المناهض للدين:

'Religion is the sigh of the oppressed creature, the heart of a heartless world, and the soul of soulless conditions. It is the opium of the people.'

فتعجب ضياء: 'إذًا، وجدت في ماركس بُعدًا روحانيًا أيضًا؟'

'بالطبع، لمَ لا؟ عندما تُفهم هذه العبارات في سياقها الأصلي. يقول ماركس:

...the criticism of religion is, therefore, in embryo, the criticism of that vale of tears of which religion is the halo.

...فالنقد الديني هو، في جوهره، نقد لوادي الدموع الذي يشكل الدين هالته.'

كان هدف ماركس ليس الدين بذاته، بل النظام الاجتماعي المبني على الظلم. الدين كان استراتيجية للنجاة، خطة للعيش تحت وطأة الرأس المنحني. كان ماركس يهدف، من خلال الدين، إلى هز النظام السياسي الذي كان يغذي هذا الأفيون الممرض المستمر. نسينا أن ماركس تحدث عن مجتمع أشار إنجلز في عام ١٨٦٠ إلى أننا أصبحنا فيه دولة علمانية بكل المعايير، حتى تصوراتنا الدينية تحولت إلى القالب العلماني. كان ماركس يعي أن شمس النظام العادل الجديد لن تشرق حتى يتم اقتلاع النظام القائم من جذوره. في هذا السياق، حمل ماركس في

عصره رسالة نبوية قديمة، مهمة تقوم بها النخبة المصلحة في كل عصر، تسعى لتحقيق التغيير والعدالة.

نجحت في توديع ضياء بطريقة ما، لكن لا يزال السؤال يلح عليّ: لماذا يُخضع الله، الذي يُعرف برحمته، المسلمين الهنود لهذا التعذيب المستمر؟ نحن لم نتعاف بعد من محنة حتى نواجه أخرى أكثر رهبة. حياتنا الجماعية عبارة عن سلسلة متواصلة من العذاب. لماذا لا يرحمنا الله؟ يقول الحكماء إن هذا كله نتيجة لأخطاء أسلافنا. لكنني لم أفهم لماذا يحاسبنا الله على أخطاء أجدادنا. تجربتي الشخصية مع الله كانت دائماً مُرضية. كلما ناديته، وجدته مستعدًا لمساعدتي. كأنني أمشي ممسكًا بإصبعه، وأحيانًا أفلت يده وأهرول كطفل مشاكس، لكن الله لم يغضب مني قط. لم أخشى الله أبدًا. أحيانًا أصلي وأحيانًا أهمل الصلاة. كنت مطمئنًا أنه يعرف كل تفاصيل حياتي، رفيق وحدتي، فلماذا يعترض؟ لكن في الآونة الأخيرة، بدأت أشعر بالشكوى والاعتراض تجاه الله العزيز. في دعائي، استبدلت لغة الإلحاح والدموع بلغة النقاش والمواجهة. لم أكن أصدق أن كلمات جريئة كهذه تخرج من شخص ضعيف مثلي. سجلت هذه المناقشات العفوية التي دارت بيني وبين الله خلال هذه الأيام المضطربة على عدة أشرطة:

يا إلهي،

هل قررت حقاً أن يتحول مسجد بابري إلى جلجثة لنا، نحن المسلمين في الهند؟

في مذبحك، تتقاذف مركب إيماني بين الأمواج.

كنت خفيًا، لكن منذ ظهورك، انقلبت الحياة رأسًا على عقب.

الضعفاء سحقوا، ولا تكفينا عبارات الخسارة والجوع.

كتب أحدهم على جدار معسكر النازي:

'إذا كان هناك إله، فسيأتي يوم يطلب فيه الغفران مني عما يحدث لي. ما ذنبي؟'

في الضيق يولد النضال! ياقوب قاومك،

أنحن، حاملو لوائك الأخيرون، هل نواجه مصير بروتس؟

إذا فقدنا، من سيرفع راية ربوبيتك؟

تقول إننا الأمة المختارة، حقاً! سخريتك لا تضاهى.

كفى الآن، منحنا السلام، أوكل مهمة النبوة لغيرنا.

يا منافس العباد! حان الوقت للتوقف.

٤٨

مسيرة الصمود والإيمان

كانت لدي العديد من الشكاوى تجاه الله، ولكن إلى أين يمكنني الذهاب؟ في كل مرة حاولت فيها التحرر من هذا العمود الذي كنت مربوطًا به، كان يبدو لي كما لو كان حبلي يزداد تشابكًا حوله. كنت أشعر أن الله، الذي كان يمسك بيدي في شؤوني الشخصية، يتجاهل كلامي في الشؤون القومية والدينية. لكن ما الذي كان بإمكاني فعله؟ لم يكن لدي مكان آخر أستند إليه. لذا، كنت أحيانًا ألجأ في عزلة الليل إلى الدعاء والتضرع تحت ضوء الشمعة الغامضة، وفي أحيان أخرى كنت أبحث في سلة الأوراد والأذكار عن صيغة جديدة. استمر هذا القلق لفترة طويلة. جربت القيام بنصف الليل تحت الأشجار وأحيانًا قطعت جميع الأسلاك الكهربائية أثناء التركيز الروحي، لئلا يظهر شعاع ضوء من سجادة الزاهد الذي يقظ في الليل إلى السماء العليا. لم تؤد هذه الجهود إلى أي تغيير في السماء، ولكنها أدت إلى مأساة جديدة على المسلمين المكلومين في الهند.

كانت الأنباء المروعة تأتي هذه المرة من باغالبور، حيث تعرض المسلمون الهنود لأسلوب جديد من المذابح وتعذيب مختلف عما سبق. في نيلي (آسام)، حيث قُتل نحو عشرة آلاف مسلم بريء، وفقًا لتقديرات غير رسمية، استمرت المجزرة من الصباح إلى وقت متأخر من الليل. وفي موراد آباد، تحول عيد المسلمين إلى كابوس بفعل الرصاص الأعمى للشرطة، وفي مليانة وهاشم بورة، تم انتقاء الشباب المسلمين للقتل لمجرد أنهم يمكن أن يرفعوا صوت الاحتجاج. أما في باغالبور، فقد كان الوضع فريدًا بالنسبة للأحداث السابقة؛ فتحت رعاية الشرطة الحكومية، قامت المنظمات الهندوسية النهضوية بتنفيذ خطة منظمة

لتطهير البلاد من المسلمين بدعم كامل من رئيس الوزراء في ذلك الوقت. كانت هذه الخطة لتهجير المسلمين مختلفة لأن المذبحة التي بدأت في ٢٤ أكتوبر ١٩٨٩ خلال موكب رام شيلا استمرت بنفس الشدة لأكثر من شهرين. كانت الشرطة الحكومية لا تمنح البلطجية حرية التحرك فقط، بل كثيرًا ما كانت تقودهم في أماكن عديدة. وقد شملت هذه الخطة نحو ٢٥٠ قرية. وكانت الشعارات المرفوعة أكثر دموية وشدة من تلك التي رُفعت في فساد باغالبور عام ١٩٤٦، التي تثير الرعب لدى قراءتها في كتاب شهاب نامه. وقد كتب منت الله رحماني، الذي أعد تقارير عن فساد ١٩٤٦، في إحدى رسائله أن فساد ١٩٨٩ كان أشد وأكثر خطورة من فساد ١٩٤٦. في عام ١٩٤٦، كان الناس في المناطق المنكوبة يعبرون عن خجلهم من هذه البربرية، لكن في الهند المستقلة لم يكن هناك خجل، بل كان من المستحيل للمسلمين العودة إلى قراهم بسبب الكراهية السائدة في المناطق المتضررة.

كان الاعتقاد السائد أن أحداث الشغب في باغالبور لم تكن تحدث بشكل عفوي، بل كانت مُدبرة ومُخطط لها بعناية. كانت حكومة حزب المؤتمر تحكم كلاً من الولاية والمركز. وفقًا لستندر نارايان سينها، رئيس وزراء بيهار في ذلك الوقت، كان خصومه السياسيون يحاولون خلق تحديات له من خلال هذه الفتن. أمرت الحكومة الولائية بنقل السوبرنتندنت المحلي للشرطة، إس كيه دويدي، المتهم بالتحيز ضد المسلمين، فورًا. لكن عندما جاء راجيف غاندي لمراجعة الأوضاع، بدأ النهضويون الهندوس في المدينة المحاصرة بحظر التجول بالاحتجاج ضد نقل دويدي. استسلم راجيف غاندي أمام المتظاهرين، وطمأنهم فورًا بأن 'السيد دويدي سيبقى هنا'. كان توقف نقل دويدي بهذه الطريقة وبتدخل من رئيس الوزراء بمثابة إعلان بأن خطة تطهير المسلمين وتهجيرهم بالكامل ستحظى بدعم الدولة. وأكدت جميع التحقيقات الرسمية وغير الرسمية التي أجريت فيما بعد بوضوح أنه لو تم نقل دويدي في الوقت المناسب، لكان من الممكن منع مذبحة المئات من المسلمين العزل والاستيلاء الغاصب على ممتلكاتهم فورًا.

في بهار، أدت أحداث باغالبور إلى سقوط حكومة حزب المؤتمر. صعد لالو براساد ياداف إلى السلطة بشعارات الدفاع عن المسلمين، لكنه سرعان ما انتهج نهجًا مختلفًا. بدأ وزيره شكيل أحمد خان في الترويج لفكرة أنه من أجل الحفاظ على التناغم الطائفي، يجب على المسلمين نسيان معاناتهم والبدء في مرحلة جديدة. هذا النهج أدى إلى استمرار سيطرة الغوغاء على المساجد والأراضي والمنازل المملوكة للمسلمين. يعيش المسلمون، في وطنهم، حياة اللاجئين والمشردين والمحرومين. نيتيش كومار، الذي كان يُنظر إليه كمدافع عن المسلمين ضد المنافقة الدينية والحماية السياسية للمجرمين مثل كمليشوار ياداف في باغالبور، قام بتعيين ضابط شرطة مثل دويدي كرئيس لشرطة بهار. هذا القرار يمثل معضلة ذات تداعيات سياسية وأيديولوجية معقدة، تحتاج إلى فهم عميق وتأمل.

ظلت عبارة 'السيد دويدي سيبقى هنا' تتردد في ذاكرتي، مثيرةً القشعريرة في قلبي وعقلي كلما فكرت بها. أصبح واضحًا بلا شك أن المسلمين في هذا البلد يواجهون في كل مرحلة من حياتهم شخصيات تشبه دويدي. الإعلان الفاضح تحت رعاية الحكومة بأن دويدي سيبقى، بغض النظر عن فظائعه وجرائمه، كان بمثابة رفض لتوفير أي شكل من أشكال الراحة النفسية للمسلمين. كلما تأملت في هذه الحقيقة، كنت أجد نفسي غارقًا في دوامة من العجز المرير. كان العداء الصريح لدويدي تجاه المسلمين معروفًا للجميع. كان مشهورًا بتآمره مع الهندوس المتحمسين لفترة طويلة لتنظيم مذابح ضد المسلمين. في ٢٤ أكتوبر، عندما سمح بمرور موكب رام شيلا عبر المناطق المسلمة، تحولت الأمور إلى فوضى واندلعت أعمال القتل والنهب. كان نقل دويدي يُعتبر إجراءً منطقيًا وروتينيًا، وأدنى ما كان يأمل به المسلمون وحتى الهندوس السلميين. سنوات لاحقًا، كشف ستندر نارايان في مذكراته 'ذكرياتي وأخطائي' عن اللحظة التي تعرض فيها راجيف غاندي، رئيس الوزراء، لمظاهرات الهندوس المتحمسين أثناء تقييمه للأوضاع في باغالبور. طالب المتظاهرون، بما في ذلك بعض أفراد الشرطة بالزي المدني، بوقف نقل دويدي،

مدعين أنهم بدونه لن يشعروا بالأمان. استسلم راجيف غاندي لضغوطهم، وأطفأ غضبهم بتأكيده 'السيد دويدي سيبقى هنا'، معلنًا بذلك دعم الدولة للمجرمين.

في أواخر ديسمبر، عندما كان البرد في أوجه، كنت في قاعة مكتبة مولانا أزاد الرئيسية، حيث كانت توجد حديثًا زاوية للصحف والمجلات، أتصفح العدد الأخير من 'India Today' الذي تناول الأوضاع في باغالبور حتى بعد شهرين من الفتن، حيث القتل والدمار لا يزالان مستمرين والرعب يخيم في كل مكان. حوالي ٣٠,٠٠٠ شخص مجبرون على اللجوء في مخيمات الإغاثة. الأوضاع تتفاقم بمجرد تخفيف الحظر. لا يمكن التنبؤ بموعد عودة الحياة لطبيعتها. تحدث التقرير عن ملكة بيجم، الناجية الوحيدة من مسلمي قرية تشانديري، والتي فقدت الثقة، وعن أغني كوماري، طفلة تبلغ من العمر ثماني سنوات، التي كانت تتشبث بوالدتها المذعورة ووجهها مشوه من هجوم بقنبلة. محمد جهانجير لا يجرؤ على قيادة ريكشاه في منطقة هندوسية، وللن شاه لا يمكنه البحث عن ركاب في منطقة مسلمة. كلاهما يخشى الآخر. محمد بهرام، تاجر حرير بارز في المدينة مع أعمال تصدير إلى نيويورك، يخطط الآن لنقل أعماله إلى غرب البنغال.

كنت أقرأ هذا التقرير عندما شعرت بتربيتة خفيفة على كتفي. 'أراك عدت مجددًا إلى عالم الصحافة والمجلات'، همس في أذني. عرفت صوت شمسي مباشرة. سألني: 'ما هذا الذي تقرأ؟ كل هذا مجرد هراء. هذه التقارير لا تقدم حقائق. إنها مجرد لعبة توازن في عالم الصحافة تسعى لإخفاء الحقيقة. يشعر القارئ وكأن الأمر متكافئ، كما لو أن هناك فتنة حقيقية بين الهندوس والمسلمين، حيث يخاف كل طرف من الآخر. إذا كانت عيون ملكة بيجم تعبر عن الخوف، فإن أغني كوماري ليست أقل رعبًا. لكن الواقع هو أن ما يحدث في باغالبور ليس فتنة طائفية، بل حملة منظمة لتهجير المسلمين وتطهيرهم عرقيًا تحت رعاية الدولة. الغالبية الساحقة من الضحايا مسلمون، والمخيمات مكتظة بهم. وسائل الإعلام تروج لأخبار كاذبة عن لجوء المسلمين إلى 'إسلام نجار' والهندوس إلى 'رام نجار'، لكن لا أحد يعرف مكانها. الحقيقة هي أن وسائل الإعلام لا تعرض سوى جزء

بسيط من المعاناة الحقيقية لمسلمي باغالبور. ربما لم تقرأ تقرير إندو بهاراتي.' قائلاً ذلك، أحضر شمسي عددًا من مجلة 'EPW' من الرف المقابل. كان العدد الصادر في ٣ ديسمبر، وطرح تساؤلات حول دور حكومة بهار المنحاز. كتب المؤلف بوضوح:

> لم تكتفِ قوات الشرطة العسكرية في بهار بمجرد تأييد المتمردين جهاراً، بل كانت أيضًا شريكة فعّالة في المذبحة الجماعية ضد المسلمين. كل الأرواح المسلمة البالغ عددها مائة وخمسون نفسًا، التي تم إنقاذها من قبضة الموت في قرية تشاند يري على يد القوات العسكرية، وُهبت إلى شرطة بهار فقط لتُزهق في معسكرات اللجوء. محمد حسين آزاد، الوزير في الحكومة المحلية، ظل ينادي بصوت متعب لإزاحة هذه الوحدات من المناطق المنكوبة، لكن دون جدوى. لمدة ثلاثة أيام، كانت هذه المناطق، التي كانت مسرحًا للقتل والنهب، تحت سيطرة شرطة بهار، المعروفة بعدائها للأقليات، والتي كانت أياديها ملطخة بالفعل بدماء المسلمين في فتنة هزاريباغ في مايو. حتى قبل ساعات قليلة من زيارة راجيف غاندي إلى باغالبور ، وقعت ثلاثون حادثة وفاة في منطقة نيا بازار، حيث ظلت قوات شرطة بهار العسكرية تحرس المكان.

ومضى الكاتب في كتابته:

> في زوايا مظلمة من بعض الأماكن، كان مصير أسر الأقليات المحتجزة داخل منازلها الاحتراق حتى الموت في ليل ساكن. في مناطق ناتهـ نگر، چمپانگر، نيا بازار، صاحب گنج، پربتی، اسحاق چک، جوكسار، كريه، رحمن پور ومنصورگنج، وقع دمار بهذا الحجم لدرجة أن هذه المناطق لم تعد قابلة للتعرف عليها. قرى مثل چاند يرى وسندهيرى تم محوها بالكامل. في مناطق مثل چمپانگر وناتهـ نگر، المشهورة بصناعتها الحريرية، لم ينجُ أي من عائلات النساجين. تم تدمير آلات النسيج بطريقة أجبرت المسلمين النساجين على الهجرة القسرية. في باغالبور وضواحيها، الأرقام الرسمية تشير إلى ٢٥٠ ضحية، لكن التقديرات غير الرسمية ترجح أن العدد قد يتجاوز الألف.

وهناك أنباء تفيد بأن السلطات أغرقت شاحنتين محملتين بالجثث في نهر الغانج.

ذكر الصحفي:

'لقد أحدثت المجازر في باغالبور، سيتامڑهی، مونگیر، وموتیهاری، اهتزازًا عميقًا في ثقة المسلمين بحكومة بيهار. كان الخوف قد تسلل إلى قلوب المسلمين، إلى درجة أنهم، في التاسع من نوفمبر، تزامنًا مع وضع أساس شيلاپوجن في أيودهيا، بدأوا بإغلاق متاجرهم والفرار من مدينة پاتنة قبل ثلاثة أو أربعة أيام من الحدث. ظلت متاجر المسلمين مغلقة لمدة أسبوع إلى عشرة أيام. الآن، بدأ التجار المسلمون الصغار بالعودة تدريجيًا إلى المدينة، لكن لا تزال ثقتهم بالنظام الحكومي مهزوزة وغير مستعادة بعد'.

كانت الأوضاع ترقى إلى الحرج الشديد. من ناحية، كانت الجماعات الهندوسية المتطرفة تتمتع بدعم كامل من الآلة الحكومية، ومن الجانب الآخر، لم يجد المسلمون المستضعفون تحت هذه السماء سندًا سوى الله. مشهد سحبهم من منازلهم إلى مواقع الإعدام، وتحول القرى إلى مدن أشباح خالية من المسلمين، كان كافيًا ليشهد على فقدانهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم. في مثل هذه الظروف المظلمة، ماذا يمكن أن يفعل المسلمون؟ كيف يدافعون عن أرواحهم وممتلكاتهم؟ وما هي التوجيهات الإسلامية لمواجهة مثل هذه الأزمات؟ تناولت هذه الأسئلة في كتابي 'ضرورة تشكيل ميليشيا مسلمة'. تم توزيع الكتيب بين الأصدقاء بنفس الحذر والتفاني كما تم توزيع كتيب مولوي منت الله رحماني خلال حالة الطوارئ، الذي انتشر في الخفاء ووصل إلى دائرة مؤيديه. بعد بضعة أسابيع فقط من نشره، بدأت الشرطة السرية تتحرك. حين داهمت الشرطة المكتبة، استمر التفتيش. كانت الكتب تُقلب، الأدراج والملفات تُفتش، لكن الكتيب لم يُعثر عليه - فكيف لهم أن يجدوه والله قد أعمى أبصارهم؟ كتب 'ميليشيا المسلمين' ظلت مخفية بإحكام تحت كتب القواعد الأردية، بحيث بقيت جهود الشرطة السرية عقيمة لساعات.

في تلك الفترة المضطربة، شهدت ولاية بهار تغييراً في منصب رئيس وزراء الولاية. كان رئيس الوزراء الجديد من الكونغرس، جوج نات مشرا، يتمتع بسمعة طيبة بين المسلمين، خاصة فيما يتعلق باللغة الأردية. أحدث هذا التغيير شعوراً بالراحة النفسية لدى الناس. ومع ذلك، بعد أقل من ثلاثة أشهر على توليه المنصب، أدت الانتخابات الإقليمية الجديدة إلى خسارة الكونغرس، وتولى لالو يادو منصب رئيس وزراء الولاية. على الرغم من تشكيل الحكومة الجديدة بناءً على وعد بحماية المسلمين، إلا أنها على مدى خمسة عشر عامًا من حكمها لم تبذل جهودًا فعالة في إعادة تأهيل المسلمين المتضررين في باغالبور، ولم تنجح في استرداد أراضيهم.

سنوات بعيدة مضت، وفي عام ١٩٩٥، عندما خرجت إلى النور تقارير التحقيق حول مجزرة باغالبور، كُشف النقاب عن حقيقة مذهلة: الشرطة قد أهملت حتى تسجيل البلاغات في الغالبية العظمى من الحوادث. تم تسجيل خمسمائة وخمسة وتسعين بلاغًا فقط (٥٩٥)، تشمل حوادث السلب والحرق والقتل. ووفقًا لسجلات الشرطة نفسها، فقد بلغ عدد القتلى تسعمائة واثنين وثمانين (٩٨٢)، لكن البلاغات أشارت فقط إلى ثلاثمائة وأربعة وخمسين (٣٥٤) ضحية. خمسمائة حالة وفاة ظلت خارج نطاق التحقيق. كان المجرمون يتجولون بحرية، فيما لم يتمتع الشهود بالشجاعة لذكر أسمائهم. تم تسجيل هذه البلاغات بعد تأخير شديد جعل من جمع الأدلة مهمة شبه مستحيلة. في قرية لوگائين مثلًا، حيث دُفن مائة وثمانية جثث في قبر جماعي بموافقة الشرطة وغُطي بنباتات الكرنب، استغرق تسجيل البلاغ واحد وأربعين يومًا. هذا التأخير في تسجيل جريمة قتل بهذا الحجم يلقي الضوء على نوايا من قاموا بالتسجيل. بما أن المجرمين كانوا إما جزءًا من الآلة الحكومية أو متواطئين معها، لم يتم ذكر أسماء محددة في أربعمائة وستة عشر (٤١٦) من البلاغات الإجمالية. الأمر المثير للدهشة أن الشرطة قدمت لوائح اتهام فقط في مائة وأربعين (١٤٠) بلاغًا، وأُغلقت القضايا الأخرى لعدم وجود أدلة. وافقت المحكمة على هذه المبررات

وأغلقت ملفات القضايا. لم تتخذ المحكمة خطوة إعادة فتح التحقيق في أربعمائة بلاغ أو تحويلها إلى وكالة تحقيق أخرى.

من بين الناجين، ترددت أصداء أسماء مثل أشرف علي من لوگائين، محمد جاويد من پربتى، وملكة بيغم من چانديرى في وسائل الإعلام، وبفضل شهاداتهم المروعة، أصبحت بعض الحوادث معروفة. في غير ذلك، لم يكن هناك من ناجٍ ليروي تفاصيل الموت في ٢٥٠ قرية. في لوگائين، حيث دُفن الضحايا في قبور جماعية تحت زراعات الكرنب، كشف تقرير رسمي أن من بين ١٠٥ ضحايا، كان ٥٢ منهم أطفالاً. يقول ماني خان، الذي شارك بفعالية في أعمال الإغاثة، إنه عند اكتشاف الجثث، كان منظر أشرطة وضفائر الفتيات الصغيرات يبعث على الألم. حتى يومنا هذا، عندما يرى أشرف علي ملابس زوجته وأمه، يغمره الجنون. تقول ملكة بيغم: 'في لوگائين، تجمع المسلمون في بيت واحد، وعندما غادر الجيش، تم اقتيادهم من منازلهم، ثم بدأت المذبحة. تقدم المعتدون، يقطعون الأجساد، يتقدمون ويقطعون من الخلف. كان يُقطع شخص إلى ثلاث أو أربع قطع، يُقطع الرقبة والبطن.' جاويد، الذي فقد اثني عشر فردًا من عائلته وكان الناجي الوحيد، يعرف القتلة. نجا بأعجوبة من هجمات غوسوامي ومنڈل، لكنه لا يستطيع أن يذكر أسماءهم. كانت الشرطة والمعتدون يبحثون عن المسلمين في منازلهم للقبض عليهم. وبحسب تقرير لجنة التحقيق: 'كان أسلوب البحث يذكر بالبحث الذي قام به النازيون في أوروبا المحتلة'.

كانت مجزرة باغالبور، بطبيعتها الشرسة، أشد ضربة للمسلمين في الهند المقسمة، وكان الهدف منها الإخلاء الكامل للمسلمين، وإبادتهم، والسيطرة على أراضيهم وممتلكاتهم. حسب بعض التقارير، لا يزال هناك حوالي ثلاثة آلاف فدان من الأراضي تحت سيطرة غير المسلمين. لم تعتبر اللجان التي تم تشكيلها لتحقيق العدالة للضحايا هذا الجانب جديرًا بالاهتمام. وعلى الرغم من وجود حكومات ادعت رعاية مصالح المسلمين، فقد ظلت القيادة المسلمة مفتونة بكل من لالو ونتيش. مولوي مجاهد الإسلام، الذي كان قاضي الشريعة ثم أصبح أمير

الشريعة، شوهد وهو يطعم لالو ياداف لدو بيده. تم نشر صور تعكس العلاقة الحميمة بينهما في الصحف. في عهد نتيش، شهدت پاتنة أكبر تجمع للمسلمين، حيث بدت رعاية نتيش كمار واضحة للغاية، لدرجة أنه اعتبر تعيين ناظم الاجتماع عضوًا في المجلس التشريعي أمرًا حتميًا. ومع ذلك، رغم هذه العلاقات الحميمة بين القيادة المسلمة والحكومة، لم تُحقق العدالة لضحايا باغالبور. بعد سنوات، في عام ٢٠١٦، كشف مؤلفو 'Splintered Justice' عن تشابه واضح بين فساد باغالبور عام ١٩٨٩ وفساد غوجارات عام ٢٠٠٢ في تقويض العدالة وترك الجراح مكشوفة ونازفة. وقع فساد باغالبور في عهد الكونغرس، وتم التستر على خطورته بفضل المجاملات السياسية من القيادة المسلمة والمولويين الرسميين، بينما في غوجارات، كانت وحشية الأحداث تتكشف مع الزمن بسبب عدم حصول القتلة على دعم فوري من المسلمين الرسميين والمولويين الدرباريين.

بعد بضعة أشهر من مذبحة باغالبور، عندما عدت إلى أرض الوطن، رأيت مشهداً لم يكن مألوفاً: حول شخصية أبي تكونت دوائر من الأنشطة الغير مرئية. أشخاص لم يسبق لنا رؤيتهم، وجموع من الفلاحين يأتون من أماكن مجهولة، يتحدثون إليه للحظات، يستمدون العزم ثم ينصرفون. بعد اعتقال أبي خلال الطوارئ، كانت لدينا بعض الفكرة عن شبكة زير زمينية وصامتة من المؤيدين والمحبين، والتي بدت الآن كأنها تحركت بالكامل. كان الناس يأتون من مناطق بعيدة، بدون معرفة من هم أو من أين أتوا. ذات يوم، جاء رجل مسن بلحية بيضاء، يبدو وكأنه خضر النبي. قدمه أبي لي قائلاً: 'أهلاً، أنت راشد ميا!' وعانقني بحرارة. أمسك يدي للحظات وقال: 'يا بني، لقد كتبت الكتيب في الوقت المناسب. حثثت الناس على اتخاذ إجراءات استباقية. يمكن التغلب على التحديات الكبيرة بالشجاعة والعزيمة. في منطقتنا سيتامڑهی، كانت بعض المستوطنات المسلمة تواجه وضعاً مشابهاً لما حدث في باغالبور. كان المثيرون للشغب المسلحون يخططون لإبادة المسلمين العزل. في قريتنا، المحاطة بمستوطنات غير مسلمة، كانت الكراهية تتأجج في قلوبهم ضدنا. فضل أطفالنا الإجراءات الاستباقية على

الموت العاجز. كان سكان القرية حوالي مائة وخمسين شخصاً، بما في ذلك الأطفال والمسنون. صقلنا الأسلحة المحلية لدينا، وارتدى الجميع ملابس الرجال. وضعنا العمائم البيضاء وحملنا الرماح والعصي، ثم خرجنا في ليلة قمرية إلى الطريق العام. عادت هذه المسيرة الصامتة من القديسين بعد جولة حول القرية ومحيطها، لكن كل من رآها شعر بالرهبة. بدا لهم وكأن مخلوقات سماوية قد نزلت لحماية أهل الإيمان. كانت عزيمتنا قوية، وكان أطفالنا مستعدين لتفضيل الشهادة على الموت العاجز. عندما تكون مستعداً للموت، تبدأ الحياة في تقبيل قدميك.

في تلك الأيام، عندما كانت ظلال مجزرة باغالبور لا تزال تخيم على الأفق، أرسل والدي مبلغاً معتبراً من المال لمساعدة ضحايا الفاجعة، رغم أن ظروفه المالية الخاصة كانت بعيدة كل البعد عن الاستقرار. لكن في هذا الصراع من العزائم، الذي اشتعل في أرجاء بهار بعد الواقعة المروعة، لم يكن أبي مستعداً لقبول الهزيمة. لم يُظهر فقط تفهماً للمشكلات التي نجمت عن نشر كتابي، بل وقف إلى جانبي كسند وحماية. كانت متابعات الشرطة السرية للكتيبة لربما استمرت أطول، لولا أن القدر أحدث تغييراً دراماتيكياً في المشهد السياسي في أوتار برديش وبهار، حيث انتهت حقبة حكومات الكونغرس في كلا الولايتين. في ذلك الوقت، تسلم وى پى سنگھ مقاليد الحكم كرئيس للوزراء، وفي هذا الإطار من التحولات العظيمة، قُدر لي أن أسافر إلى السودان لتلقي التعليم العربي.

بعد أشهر من عودتي من السودان، لاحظت أن صدى الكتيبة ما زال يتردد في الدوائر الإسلامية بعلي گڑھ. في تلك الفترة، كانت هناك زيارات متكررة من وكالات الاستخبارات السرية من دلهي إلى علي گڑھ للتحقيق. بسبب هذه الأنشطة، كان بعض الأصدقاء يتوقعون أن يتم اعتقالي فوراً عند وصولي إلى مطار الهند. لكن بمشيئة الله، لم يحدث شيء من هذا. ومع ذلك، استغل بعض المعارضين هذه الإجراءات التحقيقية الرسمية، التي عادةً ما تستهدف المسلمين وتهدف إلى ترويع

الشباب المسلم، لبدء حملة دعائية ضدي. صوروني على أني شاب متشدد وصارم، يمكن أن يزعج السكينة والهدوء في الحرم الجامعي.

في تلك الأيام، كان الأستاذ جعفر ذكي يشغل منصب رئيس قسم اللغة الإنجليزية. نظرته تجاهي، متأثرة بأنشطتي الإسلامية، كانت مليئة بالتقدير والإعجاب. لم يكن يُظهر هذه المعاملة المميزة لي وحدي، بل أيضًا لطلاب إيرانيين وعراقيين آخرين في سني، الذين كانوا يسعون لرفعة الدين. أوصاني بتحمل مسؤوليات التدريس في القسم مع بداية العام الدراسي الجديد. على الرغم من أن تعييني الرسمي كان ما زال عدة أيام متبقية، إلا أنه أسند إلي مهامي وبدأت في الاستعداد للمقابلة. ولكن، بعد أيام قليلة، عندما ظهرت نتائج المقابلات، كانت الصدمة عظيمة عندما لم أجد اسمي ضمن القائمة. كيف يمكن للجنة الاختيار برئاسة الأستاذ جعفر ذكي أن تستبعدني؟ كان من الصعب عليّ تصديق هذا الخبر. ألم يكن هو من قدم لي هذا العرض؟ ما الذي كان يمكن أن يغير قراره بهذه السرعة؟ بالنسبة لي، كانت هذه المعاملة من الأستاذ الذي كنت أعتمد على حنانه ومحبته في مختلف مراحل حياتي الأكاديمية، أشد وطأة من فقدان الوظيفة نفسها. شعرت وكأنني قد غرقت في مياه ضحلة، وكأن موتي قد حدث.

في يوم من الأيام، عندما كنت أغادر مكتبة آزاد، وقعت عيني على الأستاذ المحترم. دعاني بإشارة، فاقتربت، وسأل عن أحوالي بنبرة تحمل القلق. كانت عيناه تعكسان الندم، بريق من الأسف يختلج فيهما. بدا وكأنه يجاهد ليقول شيئًا، لكن الكلمات كأنها خانته. اصطحبني إلى القسم، حيث ظللنا نتبادل أطراف الحديث في أمور شتى، مترددًا، كأنه يريد التعبير عن شيء ما ولكنه لا يجد الطريقة المناسبة. بعد تلك الحادثة، غدت علي گڑھ مكانًا مريرًا بالنسبة لي. سافرت عبر بلدان متعددة ووصلت أخيرًا إلى دلهي، حيث قضيت سنوات طويلة في إصدار 'ملّي ٹائمز انٹرنیشنل'. في كل زيارة لعلي گڑھ، كنت أرى في لقاء الأستاذ فرصة نادرة وشرفًا. ذات يوم، لم يتمالك نفسه واعترف: 'راشد مياں! كان ثقلٌ في قلبي. لقد أرعبني الناس.' جاءت كلماته غير متوقعة، خارج سياق الحديث. لم يذكر أي أسماء، لكن

الإشارة كانت جلية. اتفقنا على أن الأضرار التي تلحقها الأجهزة الاستخباراتية بالناشطين الإسلاميين ليست بالخطيرة مقارنة بالأذى والدعاية المعادية التي ينشرها الجبناء والمخادعون، مما يدفع الناشطين إلى الهامش.

`

٤٩

كريستال ناخت الهندية

بعد بضعة أشهر في علي غره، لم يعد لدي الكثير مما يثير اهتمامي. كانت درجة الدكتوراه بين يديّ الآن. تعلمي للغة العربية في السودان فتح لي أبواب التواصل مع الشرق بالإضافة إلى الغرب. خلال تلك الفترة، نسجت علاقات وثيقة مع منظمات السلام الغربية. كانت رحلة في عالم غريب، حيث كان الدهشة رفيقي الدائم. هناك، قابلت أناسًا صوفيي الطبع، يعيشون في حلم بعالم جديد، مستغرقين في جهودهم. لكن، كانت تراودني التساؤلات: من أين أبدأ؟ أحلام الرفاهية تتنازعني تارة، وتارة تنتابني الأفكار الثورية. كنت أحلم بالوقوف على مفترق طرق، أو أرى نفسي أهبط عبر سلالم ضيقة لأبنية شاهقة حتى يصبح التنفس صعباً. في إحدى الرحلات إلى الحجاز الشريف، سعيت لاتخاذ قرار حاسم في عزلة الحرم، لكن توسع دائرة معارفي في الأوساط الإسلامية حال دون العزلة حتى هناك. في يوم من الأيام، وأنا غارق في هذه التساؤلات مستندًا إلى الحطيم، جاءني هاشم مهدي وأصر على اصطحابي إلى منزله. وأنا مستندًا إلى العمود، كان الشعور يغمرني وكأن الله قد وضع هناك شخصًا مألوفًا، كما لو كان أحد ما يراقبني بصمت.ذات يوم، اتخذت مسجد النبوي ملجأً لتأملاتي. غرقت في تأملاتي تحت قبة المسجد الخضراء، حينما لمست كتفي يد الشيخ الحسين قائلاً: 'ما شاء الله! ما شاء الله!' عادت ذكريات لقاءاتنا السابقة تنبض بالحياة. كان الشيخ يقيم في شقة بجوار المسجد النبوي، حيث كانت أطباق الملوخية لديه تنبض بالنكهات الشهية. خلال تلك الأيام، كنت على تواصل مع أصدقاء من الشرق، بعضهم حاصل على درجة الدكتوراه في اللغة الإنجليزية والأدب مثلي ويشغلون مناصب

هامة، وكذلك مع رواد حركة السلام في الغرب، من بينهم الكويكرز الذين كانوا يسعون دوماً إلى النور الداخلي، وأرواح حرة تتوق إلى حياة بسيطة وطبيعية، تخطط لعالم الأحلام. كان لدي حقيبة تشبه الكيس تحوي كل كائناتي. حياتي كانت بسيطة، بعيدة كل البعد عن التكلف. أحمل حقيبتي تلك في رحلاتي بين الشرق والغرب، أستمتع بصحبة الأصفياء. لم أكن قد اتخذت قراري بعد. كان قرار عدم العيش بالطريقة المعتادة ليس بالأمر الهين. كنت لا أزال أتخبط في هذه الحيرة عندما تلقيت دعوة لحضور ورشة عمل دولية حول اللاعنف في هولندا. بالنسبة لشاب ثوري و'راديكالي' مثلي، كانت هذه فرصة لتجربة شيء جديد. وبلا تردد، قررت المشاركة.

في تلك الورشة الدولية، حيث تجمع المشاركون من أرجاء شتى، غالبيتهم من طلاب وطالبات الدول الأوروبية. من بينهم من أنهوا لتوهم مراحلهم التعليمية وكانوا على أعتاب بدء حياتهم العملية مع منظمات خيرية مختلفة. كانت هناك جِل من أمريكا، التي أتمت ماجستيرها في دراسات السلام من جامعة نوتردام وكانت على وشك تسلم منصب مهم في منظمة خيرية هولندية. وناتاشا ويوري، اللذان بدآ مسيرتهما المهنية في التلفزيون الروسي. كانت لناتاشا صوت ملائكي، عندما تعزف على البالالايكا تسحر الحضور، تغمرهم بنشوة تجعل الوقت يتوقف. وتيري، الأكبر سناً بيننا، أمضى سنوات في الحركات الثورية في أيرلندا الشمالية، والآن يسعى نحو مسار اللاعنف. وصوفيا، التي كانت يوماً ناشطة في الحزب الاشتراكي بألمانيا الشرقية، تعاني الآن من ضغوط نفسية شديدة بعد سقوط جدار برلين، وغالباً ما تنهمر الدموع من عينيها الحزينتين. وليليانا، طالبة الرقص من أوكرانيا، كانت تخطط لاستخدام فنها من أجل السلام العالمي. عرضت علي تعليم الرقص، لكن ذلك ظل حديثاً مبهجاً لا يتعدى حدود الدعابة والمرح.

في الورشة الدولية، كانت الفعاليات تمتد من الصباح حتى المساء، تنوعت بين جلسات يحضرها دانشورون معروفون ومبلغون للسلام، وجلسات نقاشية بين مجموعات صغيرة من الطلبة يبحثون عن حلول مشتركة. كان تنوع الخلفيات

الفكرية والثقافية للمشاركين واضحًا، لكن الإقامة المشتركة والحوارات المتواصلة خلقت بيننا أجواءً تشبه العائلة الواحدة. بجانب قاعة المؤتمر، كانت هناك مكتبة صغيرة يديرها مضيفنا إيبل (هابيل)، الذي كان منشغلاً بتنظيم الأمور الإدارية. عندما تلاشت الحواجز الرسمية، بدأنا باستكشاف المكتبة. فوجئت بوجود مجموعة كبيرة من أشرطة الفيديو عن اليهود. في أوقات فراغي، أصبحت هذه المكتبة ملاذي الجديد. تعرفت على عدد من الشخصيات اليهودية البارزة مثل البروفيسور ليبوچ، الحاخام تيتلباوم، مارتن بوبر، هانا آرنت، بن اهرينريخ، إسرائيل شحاك، وغيرهم. وكشفت لي المكتبة حقيقة مفادها أن ليس كل اليهود مؤيدين لدولة إسرائيل. فالحاخام موشيه ليب هيرش من فرقة ناطوري كارتا يعتبر أن دولة صهيونية غير مقبولة حتى لو نالت دعم العرب، وقد رأى الحاخام البارز سامسون هيرش في القرن التاسع عشر أن أي محاولة رسمية للعودة إلى فلسطين هي خطيئة.

في ذلك اليوم، كان إيبل يتمتع بلحظات من الفراغ. معظم المشاركين في الورشة قد خرجوا لجولة مسائية، بينما انغمس البعض في أحاديث على المقاعد الحديدية المحيطة بالمساحات الخضراء. في تلك الأثناء، دخلت السيدة مخدا وابنتها شاشا إلى المكتبة حاملتين أدوات الشاي، وبدأ حديث عن أيام هولندا تحت النازية. 'ولدت في بيت طويل على ضفاف القنوات في أمستردام، ثم جاء النازيون وتغير كل شيء،' قال إيبل بتسارع يشوبه الحنين والألم. في البداية، لم أتمكن من ربط كلامه بالسياق، لكن بتأمل عميق، اجتاحتني موجة من الاغتراب والخوف، كأنها لامست روحي. هل كان إيبل يهوديًا؟ وماذا عن مخدا التي تصف نفسها بأنها ابنة أسقف محافظ؟ كان الزوجان يحظيان بتقدير في دوائر حركة السلام لنزاهتهما وأعمالهما الخيرية. كانت اليهودية حتى ذلك الحين مجرد موضوع أكاديمي بالنسبة لي، لكن عندما واجهت إيبل، اليهودي الحي، شعرت بالرعب. كانت صورة اليهود المسبقة والغامضة تراودني منذ الطفولة. والآن، قدرت لي الأقدار لقاءً مع يهودي ليس فقط شاهدًا على ظلم النازيين، بل ناقدًا لدولة إسرائيل.

في أحد الأيام بينما كنت أقلب الأشياء في المكتبة، لفت نظري شريط فيديو مكتوب عليه '.Kristallnacht ٥٠.' لم أكن متأكدًا في البداية ماذا يعني هذا المصطلح. لكن الفضول دفعني لمشاهدته، وبذلك اكتشفت أنه يروي قصة تلك الليلة المأساوية عندما انهالت الكوارث على اليهود في ألمانيا النازية. القصة بدأت عندما أقدم شاب يهودي بولندي على إطلاق النار على دبلوماسي ألماني في باريس، مما منح النازيين الفرصة المثالية لإدانة اليهود. وزير الدعاية الألماني أعرب عن غضبه الشديد، وبتحريض من الحكومة، خرج الشعب الألماني إلى الشوارع للانتقام من اليهود. في ليلة ٩ نوفمبر ١٩٣٨، تحولت ألمانيا والنمسا تحت الاحتلال الألماني إلى مشهد يشبه القيامة. طوال الليل، هاجمت الجماعات القومية الألمانية منازل اليهود وأماكن عبادتهم وممتلكاتهم التجارية. استمرت أعمال النهب والقتل لمدة يومين، وحتى فرق الإطفاء لم تتدخل إلا لمنع انتشار الحرائق إلى المناطق غير اليهودية. يُقال أن ٩١ يهوديًا قُتلوا خلال تلك الليلتين، وأُحرقت أكثر من ٢٥٠ كنيسًا، وتم اعتقال نحو ٣٠ ألف شخص ونقلهم إلى معسكرات الاعتقال. استيقظت البلاد على مناظر الدمار المطلق: الزجاج المتناثر، الأبواب المحطمة، المنازل المحترقة، والممتلكات المنهوبة، مما جعل اليهود يدركون أنه لم يعد لهم مستقبل في ألمانيا.

في الذكرى الخمسين ليلة كريستال ناخت، تحدث حاخام يهودي في برنامج خاص عن الصمت. قال بنبرة مفعمة بالحكمة والعمق: 'أحبائي، لدينا علاقة عميقة وتاريخية مع كريستال ناخت. تذكروا أيام المنفى في بابل بعد دمار الهيكل، حين احتفل الناس في زفاف بفرح وسرور، لكن فجأة قام رجل حكيم وتحدث بصوت عميق: 'دُمر الهيكل، وضاعت مملكة داود وسليمان، وطُردنا من أرض كنعان، وأصبح المنفى قدرنا، ومع ذلك تظهر الابتسامات على وجوهكم، كأن شيئًا لم يحدث.' ومع هذه الكلمات، ألقى بجرة زجاجية فاخرة وجميلة على الأرض، فانفجرت بصوت مدوٍ عالٍ وخيم الصمت على الحضور. 'هذا هو كريستال ناخت المذكور في التلمود،' قال. 'وهذا الصمت الذي نعيشه يحمل معاني عميقة.

الصمت يمكن أن يعني القبول. قبل خمسين عامًا، في التاسع والعاشر من نوفمبر، صمت الشعب الألماني بينما تعرض اليهود للمظالم، كما لو كانوا يوافقون على مذبحتنا. وهناك صمت آخر يأتي من الخوف من المصائب، حيث يصمت الأفراد المؤثرون لتجنب الوقوع في المتاعب. أيها الأخوة، هؤلاء الأشخاص يتحملون مسؤولية كبيرة. فهم شركاء في الجريمة. وهناك نوع من الصمت ينبع من التأمل والتفكير في الأزمة والبحث عن مخرج. والآن، بعد مرور خمسين عامًا على كريستال ناخت، تطرح أصوات الزجاج المحطم سؤالًا علينا: ماذا تعلمنا من هذا الحدث؟ بعد أيام قليلة من الحادثة، أدان الرئيس الأمريكي آنذاك الحادثة في مؤتمر صحفي. عندما سُئل عما إذا كانت الولايات المتحدة ستغير سياسة الهجرة لديها بسبب الأوضاع الحرجة التي يواجهها اليهود في ألمانيا، رفض ذلك. أيها الأخوة، التعاطف الفارغ دون إرادة للعمل هو أيضًا شكل من أشكال المشاركة في الجريمة. وأين كانت المنظمات اليهودية آنذاك؟ إيلي ويزل، الذي عاش في معسكرات الاعتقال، كتب أننا ظننا بعد الهولوكوست أن العالم تعلم من هذا الحدث، ولن يواجه الناس مثل هذه الأزمات مرة أخرى. ولكن بعد مرور سنوات قليلة على الهولوكوست، يرفض الكثيرون الاعتقاد بأنه حدث بالفعل. فلنعاهد أنفسنا اليوم بألا نسمح بتكرار كريستال ناخت. مملكة داود الأبدية في انتظارنا. العام المقبل في القدس! أيها أنهار بابل، إذا نسينا القدس، فلتهلك يدنا اليمنى.'

في خطاب الحاخام ذلك اليوم، كان هناك نبرة عميقة وقوية، تشبه تلك التي نجدها في خطب العلماء الدينيين في بلادنا. سألت إيبل بفضول: 'لقد مرت خمسون عامًا على كريستال ناخت، ومع ذلك، عندما نستمع إلى هذه الخطب، يبدو الأمر كما لو أنها حدثت للتو. الوثائقي، بصوره وقصاصاته الإخبارية، استخدم بمهارة فنية عالية. يبدو كأن أيام النازيين في عام ١٩٣٨ قد انبثقت أمام أعيننا بأبعادها المتعددة. لماذا يصر اليهود على إبقاء تلك الأيام حية في ذاكرتهم بهذه القوة؟'

أجاب إيبل بصوت متأمل وهادئ: 'هناك سبب لذلك، وهو منع تكرار هذه الفاجعة في المستقبل، وليظل الناس في حالة تأهب ويقظة. السبب الآخر هو أن الهولوكوست، منذ أن ظهر كموضوع بحثي وأكاديمي، أثار اهتمام الناس بتفاصيله والدوافع الكامنة وراءه. عندما بدأ الناجون من المعسكرات في كتابة مذكراتهم، لم يتخيل أحد أن الهولوكوست سيتحول إلى تخصص أكاديمي محدد، وأن متاحف الهولوكوست ستصبح مواقع زيارة عامة في جميع أنحاء العالم'.سألت إيبل بنبرة تفكرية: 'يقال إن هناك شعورًا عامًا بالأسف في ألمانيا الآن، ويُقام تكريم للضحايا في كل مكان'. أجاب بلهجة معتقدة: 'بالتأكيد! إنها جانب مُرحب به في السردية التي تُنادي بـ 'ألا تتكرر أبدًا!'. هناك إحساس عام بالندم على الأخطاء المرتكبة. زيارات الجمهور لمخلفات معسكرات التعذيب كأوشفيتز تُعيد إلى الذاكرة أن الظلم يخلف ندبة عميقة في ضمير الأمم. ومع ذلك، تحولت الرواية اليهودية ضد الظلم والجور تدريجيًا إلى نوع من الطقوس. نحن نرثي ظلمنا فقط، ونقيم المتاحف لإحياء ذكراه، وهذا ليس سيئًا بحد ذاته، لكننا لا نذكر الظلم الذي يحدث للآخرين.'

تساءلت: 'هذا كلام جليل. هل في الأوساط اليهودية من يعتبر سردية 'ألا تتكرر أبدًا!' تعبيرًا عن التعصب الجماعي؟'

أجاب بنبرة متأملة: 'نعم! يدرك الكثيرون أننا، اليهود، الذين نهضنا من أجل إعادة بناء هيكل سليمان، لم نتمكن من ذلك، لكننا أقمنا بدلًا من ذلك معبدًا لعصرنا الجديد في صورة متحف الهولوكوست، حيث يجلس إيلي ويزل على كرسي الحاخام الأكبر بكل هيبة.'

'إيلي ويزل؟ صاحب كتاب الليل؟ لقد حصل حتى على جائزة نوبل'، قلتُ محاولاً أن أظهر معرفتي بإيلي ويزل. أجاب إيبل بنبرة عميقة: 'إيلي كاتب موهوب، وأنا معجب بفنه، لكن ما يحيرني هو تركيزه على آلام ومآسي شعبه فقط دون الانتباه لمعاناة الآخرين. لم أره يتحدث عن الظلم الذي يُمارس ضد الفلسطينيين. في مجتمعنا اليهودي، هناك كتاب وشعراء ينتقدون إسرائيل بشدة. البعض يقول

إن الفلسطينيين في إسرائيل أصبحوا 'اليهود الجدد'، ونحن نتبع أفعال النازيين. لدينا أصوات تنادي بالحق، لكن إيلي ويزل، رغم مكانته الكبيرة، يبدو أنه لا يرى أخطاء دولة إسرائيل. هذا الأمر مؤسف للغاية.'

"لماذا يحدث هذا؟" سألت، محتارا. أجاب إيبل بصوت حازم: "التعبير عن الحقيقة ليس بالأمر الهين، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بانتقاد شعبك الذي يحملك عالياً على الأكتاف. أولئك الذين يجرؤون على نطق كلمة الحق يجدون أنفسهم على الهامش. فقط من يسير مع التيار السائد يحظى بالتكريم والتقدير. هذا هو الحال في كل مكان وزمان. تلك الأسماء الكبيرة التي تراها والتي يحترمها الناس، والتي تحظى بدعم الحكومات، يكون السبب وراء ذلك هو أنهم يتجنبون التحدث بالحقيقة الكاملة. والحقيقة، إن لم تكن شاملة وتُقال دون خوف من العتاب، تظل مشوهة بظلال الشك".

كان هناك الكثير في حديث إيبل يثير دهشتي. كان إيلي ويزل من الشخصيات التي كنت أعجب بها. كطالب أدب، كان لديه مكانة خاصة في قلبي. لقد فوجئت بمعرفة أن إيلي ويزل، الذي فضح جرائم النازيين أمام العالم، لم يكن فقط صامتًا بشأن مشكلة فلسطين، بل وقف بجرأة ووقاحة إلى جانب إسرائيل.

هل الحديث بالحقيقة صعب للغاية؟ عندما أمعنت النظر حولي في أولئك الذين يُحتفى بهم كأهل للتقوى، تبين لي أن قليلين منهم فقط ينطقون بالحقيقة كاملة. بوجه خاص، أولئك الذين يُحملون على الأكتاف، مُحاطين بهالة من القداسة، حيث يُقاس شأنهم ومكانتهم من خلال سفرهم الدولي، غالبيتهم قد رهنوا ولاءهم بلا قيد لمختلف الفصائل المذهبية وأسيادهم الرعاة. البعض يدعم الكتلة السعودية، بينما يلتزم آخرون بالثورة الإيرانية. لديهم أسبابهم، لكن أحدًا منهم لا يجرؤ على التعبير عن الحقيقة ضد الحكومات التي يقدرونها. حتى في رحلاتهم الخارجية أو في وسائل الإعلام، يفتقر معظم هؤلاء الأشخاص إلى الجرأة للدفاع عن قضية إخوانهم المظلومين في الهند. حتى في الهند نفسها، نادرًا ما يجرؤون على التحدث بصراحة.تذكرت ذلك الاجتماع لمجلس المشاورة الإسلامية

في دلهي، بعد مجزرة موراد آباد، الذي روى لي عنه حليم. قادة المسلمين لم يكونوا مستعدين لزيارة موراد آباد حتى تلقوا إشارة من رئيسة الوزراء إنديرا غاندي. وحتى عندما ذهبوا، بدا الأمر وكأنهم يؤدون مجرد شكليات. لم يزوروا المناطق المتضررة، ولم يقدموا أي خطط لمساعدة المسلمين المتضررين، ولا حتى محاولة لتقديم الظالمين إلى العدالة. نعم، كان هناك اجتماع كبير في لكناو، حيث بدا الخطاب السياسي المتألق وكأنه يشير إلى أن المسلمين ليسوا في خطر في هذا البلد. تذكرت أيضاً مجزرة نيلي؛ حيث تم جر المسلمين الفقراء والعزل من بيوتهم مثل الحيوانات وذبحهم بالآلاف. حتى في تلك الأوقات، كانت ألسنة القادة السياسيين للمسلمين مشلولة، ولم يكن هناك أي حركة في خيام علماء الحق. كانت مذبحة هاشيم بورة ستظل خفية عن الأنظار لولا تدخل الضابط الأمين فيبوتي نارايان في الوقت المناسب. كان علماؤنا وقادتنا يخبروننا أن الإسلام حر وأن المسلمين في أمان في الهند. الديمقراطية العلمانية قائمة في البلاد، ومن واجبنا كمسلمين العمل من أجل الحفاظ على العلمانية وتعزيزها في هذا البلد.

كنت أفكر بعمق، وأدركت أن نصف الحقيقة يمكن أن يكون مدمراً حقاً. نصف الحقيقة لا يعترف بآلام وعذابات الفلسطينيين المظلومين، ويجد في الحياة المشوبة بالمعاناة في ظل العلمانية موضوعاً يستحق الثناء. نصف الحقيقة يجبرنا، باسم الحكمة والمصلحة، على التكيف والتسامح مع الظروف الصعبة. الكذب يكون واضحاً وجلياً للجميع، لكن هزيمة نصف الحقائق التي يتحدث بها الشخصيات المقدسة ليست بالأمر السهل.

أثناء مشاهدتي للفيلم الوثائقي عن ليلة كريستال ناخت، تملكتني فكرة ملحة: الشعوب التي تنجح في تحليل أوضاعها بدقة وتمنح أحداثها أسماءً مناسبة، تستطيع أن تدرك خطورة الأوضاع وتمنع تكرارها. على النقيض، الذين لا يستطيعون تحليل مآسيهم بشكل صحيح أو إيجاد تسميات مناسبة لها، كيف يمكنهم الخروج من هذه الأزمات؟ كريستال ناخت، على الرغم من كونها تسمية نازية، ملأها اليهود بأنين ونحيب بحيث أن كل من يحيي ذكراها سنويًا يشعر

بأهوال تلك الليلة وكأنها تتجلى أمام عينيه بكل أبعادها. يظهر الجناة في قفص الاتهام، وتتردد صيحات 'لن تكرر أبدًا!' من كل حدب وصوب. في المقابل، نحن المسلمون الهنود لا نستطيع تحليل مآسينا الوطنية والقومية بشكل صحيح، ولا نستطيع حتى إيجاد تسمية مناسبة لها. فالنتيجة هي أن الأحداث الكبرى للإبادة الجماعية والتطهير العرقي تُغطى بكلمات مخففة مثل 'الفتن'. ليلة كريستال ناخت في ألمانيا استمرت يومين فقط، بينما في باغالبور استمرت الأحداث المشابهة لمدة شهرين. قرى بأكملها تم إخلاؤها من المسلمين، وآلاف الأسر المسلمة دُمرت وأُجبرت على التشرد دون مأوى حتى اليوم. تغيرت الحكومات، لكن لم يُقدم أي عون للمسلمين المتضررين. حتى القيادة المسلمة نفسها وافقت على الوضع باسم السلام العام والتعايش السلمي.

لطالما تأملت في سؤال محير: لماذا لا نسمي بشكل مناسب المآسي والأحداث التي نواجهها مرارًا وتكرارًا في هندوستان المجزأة؟ حينما فكرت في الأمر، وجدت أن الكلمات مثل 'المجزرة' أو 'التطهير العرقي'، سواء كانت قضايا التهجير القسري أو العذاب المترتب على الإرهاب الدولتي، لا تكفي جميعها لوصف حالتنا. بدا لي كأننا نحن المسلمون الهنود نهوي منذ عقود في هاوية عميقة لا قرار لها، حيث يتزايد معدل سقوطنا وعذابنا مع كل لحظة. ربما عندما تتوقف هذه السلسلة من الأحداث، سنجد اسمًا مناسبًا لوصفها.

تأملت في مجازر موراد آباد، نيلي، وميروت، وكيف تلاشت ذكرى ليلة كريستال ناخت في باغالبور من ذاكرتنا الجماعية. استمرت الآلة الإدارية القمعية للدولة في سحق المسلمين العاجزين. خلال ذلك، حدثت أيضًا واقعة هدم مسجد بابري في وضح النهار أمام عدسات وسائل الإعلام. وفي عام ٢٠٠٢ في غوجارات، واجهنا مرة أخرى وضعًا يُشبه ليلة كريستال ناخت، حيث قُتل أكثر من ألفي مسلم وأُحرق المئات أحياء، لكن لم يفكر أحد في استخدام مصطلح كريستال ناخت. في عام ٢٠٢٠، خلال أحداث دلهي، تم استخدام مصطلح كريستال ناخت لأول مرة، عندما حذرت بريا غوبال، أستاذة جامعة كامبريدج، العالم في رسالة

فيديو بأن ما يواجهه المسلمون في دلهي ليس مجرد صراعات طائفية بين الهندوس والمسلمين، بل هو نفس الوضع الذي واجهه اليهود في ألمانيا النازية. استغرق الأمر ثلاثين عامًا، من مأساة باغالبور إلى المجزرة في دلهي، حتى أدرك المسلمون الهنود أن الوضع الذي يواجهونه في هذا البلد لا يعبر عنه بمصطلح 'الفتنة'، بل بكريستال ناخت، كريستال ناخت الأزلية والأبدية.

٥٠

هَوَسُ الحِوَار

بعد رحلتي إلى هولندا، توجهت إلى المملكة المتحدة. بدأت لندن تأخذ مكانة محورية في رحلاتي الدولية، تمامًا كما كان لجدة والرياض أهمية في أسفاري الإسلامية. كان الاعتقاد السائد أن لندن، على عكس بيئة العالم الإسلامي المقيدة، توفر فضاءً رحبًا للحوار الحر والمفتوح. من قادة الإخوان المعتدلين إلى الشباب النشط في حزب التحرير، كانوا يرون الحرم الجامعي البريطاني مسرحًا لتحركاتهم. كان نادرًا ما يمضي شهر دون أن أشارك في مجالس أصدقائي المسلمين في لندن. فكرت في تجربة السفر إلى لندن بالحافلة هذه المرة، للاستمتاع بجمال الريف الإنجليزي أثناء الرحلة.

في طريقنا من لاهاي إلى بلجيكا وفرنسا، وصلنا إلى الساحل عند الغروب، حيث كانت تنتظرنا سفينة. لم أكد أخرج من طابور الهجرة حتى رأيت الدكتور هاري يتجه نحوي، مما أثار دهشتي. تبين أنه كان عائداً إلى لندن بعد حضور مؤتمر في بودابست مع رفاقه. التقيت الدكتور هاري لأول مرة قبل عدة سنوات في مؤتمر مناهض للحرب في لندن، حيث كان يدير جناحاً لجواز السفر العالمي. بمجرد دفع عشرة جنيهات استرلينية، يمكنك أن تصبح مواطناً في الحكومة العالمية المستقبلية. يُقال إن جاري ديفيس، مؤسس هذه الفكرة، لاقى سخرية الكثيرين عندما طرح فكرة الجنسية العالمية وإصدار جوازات السفر، لكنه لم ييأس وواصل عمله. أرثر كينيجس، الذي أنتج فيلماً وثائقياً عن حياة ديفيس فيما بعد، قال شيئاً مثيراً للاهتمام حول هذا الموضوع. يقول كينيجس: "لا شك أن إصدار جواز السفر العالمي قد يبدو مزحة في البداية، لكن يمكن قول الشيء نفسه

عن جميع جوازات السفر. (كيف حصل البشر على الحق في التحكم في حركة وتنقل بعضهم البعض على أرض الله؟)". ويضيف كينيجس: "جواز السفر الذي أصدره هو سخرية منا، وجوازات سفرنا صفعة على وجه نظامه."

لدي صديق يُدعى البروفيسور جيلين مارتن، أسس برلمانًا عالميًا مؤقتًا يُعقد جلساته في مختلف مدن العالم. حصلت على فرصة حضور إحدى هذه الجلسات في نينيتال، حيث تجمع المواطنون المستقبليون من جميع أنحاء العالم. كانت هناك مناسبة خاصة لإصدار عملة جديدة تُسمى الدولار الأرضي. الحماس كان مُلحوظًا بين الحاضرين. وصلت صناديق حديدية تحت حراسة مشددة بطريقة مُثيرة، مما أحدث ضجة في القاعة. عند توزيع العملة الجديدة على المشاركين وتسجيلها رسميًا في سجلات الحكومة العالمية المستقبلية وجمع توقيعاتهم، كان الفرح واضحًا على وجه أمين الخزينة يوجين المن. كان الأمر يبدو كما لو كان تأسيس الحكومة العالمية المستقبلية على وشك الحدوث. في كل مرة التقيت فيها بالدكتور هاري، كنت أشعر بالقوة والأمل بأن هناك فرصة للهروب من قبضة الرأسمالية، وأن هناك العديد من الأرواح النبيلة التي لم تستسلم بعد لنظام القمع.

في الطابق الأول من السفينة، كانت هناك مجموعة متنوعة من المطاعم ومحلات الطعام والشراب، بالإضافة إلى الألعاب المختلفة للأطفال وضجيج الموسيقى المزعج، وكأنه مهرجان ضخم. الطابق العلوي كان أكثر هدوءًا، حيث اجتمعنا هناك. بعد أن استقر الجميع في أماكنهم، قررت التجول على سطح السفينة لأستمتع بجمال البحر الحقيقي. كان هناك عدد قليل من الأشخاص على السطح. وجدت مكانًا نصف مظلمًا وجلست على مقعد لأصلي صلاة العشاء. فوقي السماء المفتوحة، وتحتي صخب الأمواج المتلاطمة والهواء البارد. شعرت بالدهشة أمام عظمة وغموض البحر الواسع. بعد فترة، غلبني النعاس. عندما استيقظت، وجدت والدي جالسًا على الجانب الآخر من المقعد، مستندًا إلى يده اليمنى في تأمل عميق. بدأ بترديد "يا مسبب الأسباب" في صلاته. "يا الله، أنقذ هذه

السفينة المغمورة، الهجوم يأتي من كل جانب، وليس لدينا ملجأ غيرك". ثم سمعت تكرار "من ذريتي من ذريتي" في صلاته، وفتحت عيني.

رؤية والدي في حالة من القلق والاضطراب أثارت قلقي، مما جعلني أفكر في الأحداث القادمة وما قد تحمله من مصاعب. كان يصعب فهم معنى هذا التوتر. في عالم الأحلام واليقظة، كان والدي دائمًا حضورًا داعمًا في أوقات الشدة، ولم يتغير ذلك حتى بعد وفاته. في إحدى المرات، بعد تجديد المنزل، كنا نفكر في التخلص من بعض الأغراض القديمة والمستندات. فجأة، ظهر والدي، مشيرًا إلى أهمية تلك المستندات التي كانت على وشك الإتلاف. كان دائمًا يربط بين عالم الأحلام والواقع، حيث كان الحد بينهما غير واضح بالنسبة له. على سبيل المثال، بعد الحج، أخذته لرؤية شواطئ البحر الأحمر في جدة. قضينا وقتًا طويلًا نستمتع بالأمواج، وكانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها هذه المشاهد في الواقع، وليس فقط في أحلامه. الأحلام كانت جزءًا مهمًا من حياته، وقد فتحت نافذة على عالمنا أيضًا.

لم يمض وقت طويل حتى وجدت سفينتنا نفسها تعانق سواحل مضيق دوفر، فيما كانت أصداء رحلتنا إلى لندن تتردد في أرجاء المكان. بخطى متأملة، اشتريت قهوة تنبعث منها حرارة الحياة من متجر يقظ، وتناولت العدد الأخير من جريدة 'ذا غارديان' البريطانية كرفيق سفر. استقريت في مقعدي بالحافلة، معانقًا فنجان القهوة بين يدي، وأطلقت نظراتي تتجول بين سطور الجريدة. وهناك، بين الحروف والكلمات، برزت حقيقة قلق والدي المستتر: الواقع المؤلم الذي يعاني منه المسلمون الهنود في وطنهم كان مؤشرًا جليًا على عمق المعضلة، والآن، إذ بالجيش العراقي يخترق حدود الكويت، مسببًا زلزالاً من عدم اليقين يهز الشرق الأوسط بأكمله. في الأيام السابقة، كانت أفكاري تتأرجح حول تنظيم مؤتمر وطني لبحث معضلات المسلمين الهنود، والآن، تشابكت الأحداث في الخليج لتفرض عليّ التفكير في الأبعاد الدولية كجزء لا يتجزأ من هذا الإطار الوطني.

في أيامي بلندن، كان مأواي عند الشيخ عبد الخالق، رجل فذ ذو صفات استثنائية، عميق الورع والتقوى، لا يجاريه أحد في ذلك. كان يحمل في ثنايا نفسه

روحًا تائهة، تبحث بإلحاح عن مسالك جديدة لإعلاء كلمة الحق. تتلمذ على أيدي علماء العرب والعجم الأبرار، لكنه لم يكن تابعًا أعمى لأحد منهم. ولعل هذه الخصلة كانت نقطة التقاء تجمع بيننا في رفقة عميقة. يومًا ما، تحدث بحسرة عن جمود العلماء الهنود، وتمسكهم بتقليدية حنفية تكبلهم عن الشروع في تجديد فكري. رأى أن العلماء في السعودية والإخوان أكثر تقدمًا في هذا الجانب. لقد ركزنا، في تفسيرنا الحنفي للنفقة المطلقة، على جعلها محورًا للدين، متجاهلين التفسيرات البديلة خشية أن تزعزع وحدتنا، وهذا ليس بالأمر المبشر. والآن، أخبرني بأن هناك حديثًا عن بناء مسجد يمتد من الأرض إلى السماء. ترى، ما الذي سيحل بتلك الحركة؟

بلى، في تلك الأيام التي كان فيها مجلس الشريعة الإسلامية يطلق تلك التصريحات القاطعة بأن المسجد، مرة يُشيد، يبقى مسجدًا إلى يوم القيامة، ممتدًا من الأرض إلى السماء. خلال تلك الفترة، أرسلت سلسلة خطابات ملحة إلى رئيس المجلس، أعرض فيها بأن حتى الفقه الحنفي لا ينص على قاعدة أبدية تقر بأن المكان يظل مسجدًا حتى نهاية الزمان، من الأرض إلى السماء. كان الإمام أبو حنيفة، وتلميذه الإمام محمد، يرون أنه إذا تُرك المسجد ومرافقه مهجورة لأي سبب، فلا بأس بنقله وإعادته في موقع آخر. فما هي الأسس التي يُبنى عليها هذا المفهوم للمسجد الممتد من الأرض إلى السماء؟ ولكن حتى في ذلك الوقت، لم يكن هناك من يلقي بالًا لما أقول.

قال بنبرة ممزوجة بالحسرة: 'من سيصغي إلى كلماتك في هذه الأوقات، خصوصًا عندما يكون صوت طبول الحرب قد علا من كل جانب؟ في مواجهة صيحات 'هار هار ماهاديف'، يظهر أن شعار 'من الأرض إلى السماء' هو الأكثر تأثيرًا. وأضاف، متأملاً: 'لكنني سمعت أن هناك محادثات تجري بين الشيخ أبو الحسن علي الندوي وشانكاراشاريا من كانشيبورام تحت إشراف الحكومة، لعل طريق التفاهم والوئام يفتح أبوابه'.

الشيخ أبو الحسن علي الندوي، في هذه اللحظة التاريخية، يمتلك موقفًا يؤهله للعب دور محوري وحاسم. تدرك الحكومة جيدًا وزنه وأهميته البالغة. لقد نسج علاقات شخصية مع العديد من رؤساء الوزراء، وبشكل خاص مع السيدة إندرا غاندي وراجيف غاندي. إندرا غاندي، بعد هزيمتها الانتخابية خلال فترة الطوارئ، لجأت إليه طلبًا للبركة. ومن وراء الكواليس، يبدو أن لقاء كانشي شنكراشاريا، ورئيس الوزراء في بي سينغ، كانت تُحركه أيدي خفية. في هذا السياق، لا يمكن التقليل من أهمية دور الشيخ في المشهد الراهن. ومع ذلك، يبقى الشيخ بطبيعته الرقيقة والمتفهمة، غير قادر على تحمل عبء اتخاذ قرار بشأن قضية حساسة كهذه منفردًا.

"لماذا تعتقد ذلك؟" سألني الشيخ عبد الخالق بفضول.

أجبتُ بتأمل: "انظروا، الشيخ أبو الحسن علي الندوي، بطبيعته التي فهمتها، ليس من الذين يميلون إلى الصدام مع أي طرف. لن يكون من السهل عليه أن يثبت قدمه أمام قادة مسجد بابري ويفرض وجهة نظره. هناك أشخاص لا توجد في شخصياتهم زوايا، بل هم مجرد دوائر. إنهم لا يصنعون أعداء، لأن هذا هو جمالهم وفي الوقت نفسه ضعفهم. هؤلاء الأشخاص لا يغيرون مجرى التاريخ، بل يستهلكون كل طاقاتهم في الحفاظ على الحالة الراهنة. وعلاوة على ذلك، الشيخ هو رجل الكتابة والخطابة. لكن هَوَسُ الحِوَار لا يغير مصائر الأمم".

"هَوَسُ الحِوَار؟" طلب الشيخ عبد الخالق بعض التوضيح.

فواصلتُ قائلاً: "لدي صديق في مكة يُدعى محمد ناصر. عالم بارع ومحرر مجلة الرابطة بالإنجليزية. ذات مرة سأل الشيخ أبو الحسن علي الندوي: لماذا تشارك باستمرار في فعاليات الرابطة وتساهم بنشاط على الرغم من عدم وجود توقعات بتغيير حال الأمة من هذه الاجتماعات؟ أجاب الشيخ، بحسب محمد ناصر: أيها الأخ! إن هَوَسُ الحِوَار له قيمته الخاصة".

"في هذه الأوقات الحرجة، الأمة بحاجة ليست إلى هَوَسُ الحِوَار، بل إلى شجاعة الكلمة وجرأة التعبير"، صرح الشيخ عبد الخالق بلهجة مشحونة بالعمق والتفكير.

كان الشيخ أبو الحسن علي الندوي محط إعجابنا وتقديرنا نحن الاثنين. كانت روحه الطاهرة وتقواه تلقي بظلالها العميقة على قلوبنا وعقولنا. لكن، في تلك الأيام، كانت تحيرنا حقيقة: لماذا لم يعتمد موقفًا حازمًا وقاطعًا إزاء قضايا المسلمين، رغم نفوذه الواضح في أروقة السلطة العليا؟ كان يحظى بدعم جماهيري، ومن السيدة غاندي إلى راجيف غاندي ورئيس الوزراء في بي سينغ، جميعهم يكنون له الاحترام. كانت لغزًا محيرًا بالنسبة لي، لماذا بعد المجزرة ضد المسلمين في مرادآباد، لم يتخذ خطوات جادة للدفاع القانوني عن المسلمين المستضعفين، بل ركز كل جهوده على مؤتمر 'رسالة الإنسانية' في الشهر التالي بلكناو. تلا ذلك سلسلة من الأحداث المروعة في نيلي، هاشم بورة، ماليانا، ومحاولات تهجير المسلمين من بوجالبور - كل هذا تحت أعين الحكومة، والأكثر إثارة للدهشة، كان المسلمون الأبرياء هم من يُتهمون ويُسجنون، بينما المجرمون يسرحون ويمرحون. لو اتخذت قيادتنا موقفًا حازمًا منذ البداية ضد هذه الجرائم أو نفذت إجراءات قانونية منظمة ضد المجرمين، ربما كان الأمر سيتطلب جهدًا أكبر لإثارة الشغب مرة أخرى. ومع ذلك، لماذا اعتبرت قيادتنا اللقاءات والمسيرات والخطابات والمقابلات مع رئيس الوزراء كافية؟ كلما غصت في تأمل هذا الموضوع، كان يبدو لي أشبه بلغز لا يُحل.

مضت سنوات على تلك الأحداث. خلال هذه الفترة، شهدت الأضواء نشر أجزاء مختلفة من سيرة الشيخ أبو الحسن علي الندوي الذاتية، 'كاروانِ زندگی'. في هذه المجلدات، سرد الشيخ قصته عن زيارة مورادباد، مشيرًا إلى أن مؤتمر 'رسالة الإنسانية' في لكناو كان محاولة لمعالجة الأزمة، واعترف أن المؤتمر منحه فرصة لتقوية صوته. وبدهاء، أضاف أن 'لم يكن بوسعه القيام بأكثر من ذلك'. وثق عن لقاءاته ومراسلاته مع السيدة إندرا غاندي، وذكر زيارتها لمنزله في رائي بريلي

لتقديم التحية للنساء بعد العيد (الجزء ٢، صفحة ٢٢٨). وأيضًا ذكر 'لقاءاته الودية' و'المتكررة' مع راجيف غاندي و'أسلوبه النبيل'، و'واقعيته' و'شجاعته الأخلاقية' (الجزء ٥، صفحة ٣٣). ولأجل الدقة، أشار إلى أنه 'بعد فتنة باغالبور، كانت مشاعر المسلمين متوترة لدرجة أن التحدث لصالح الكونغرس في المجالس الخاصة أصبح صعبًا، ولم يعد لديه الثبات والراحة التي كان يشعر بها تجاه الحكومات الكونغرسية' (الجزء ٤، صفحة ١٤٩). ويبدو أن السبب كان زيارة راجيف غاندي لبيهار بعد الفتنة، حيث أعاد الضباط المتهمين والمفصولين إلى مناصبهم بدلاً من معاقبتهم، مما انتشرت شهرته في الولاية وخارجها، مما زاد من إحساس المسلمين بتجاهل وإهمال الحكومة المركزية (الجزء ٤، صفحة ١٤٨). وما زال اللغز يحيرني وأنا أقلب صفحات هذه المجلدات: كيف يمكن له أن يقتنع بـ'الشجاعة الأخلاقية' و'الطريقة النبيلة' لرؤساء الوزراء الذين تلطخت أيديهم بدماء المسلمين، والذين قدم الشيخ نفسه أدلة على قسوتهم ووحشيتهم في كتابه، ولماذا يعطي أهمية كبيرة لعلاقته بهؤلاء الظالمين؟

٥١

زوايا الدائرة

في أحد الأيام، في أقبية مكتبةSOAS، حيث تمتد رفوف الكتب لتروي قصص اليهود، فقههم، وحراكهم الاجتماعي والسياسي، صادفت لقاءً مع عالم يهودي شاب. ومع تفتح بتلات الحديث، كشف أن اسمه زكريا، وهو يعكف على كتابة دراسة حول قيادة اليهود في عصر النازية. سألته لاستكشاف أعماق فكره: هل تركز بحثك على شخصية قيادية أو مؤلف محدد، أم أنك تأخذ بعين الاعتبار الصورة العامة لتلك الفترة؟ فأجاب: بلى، هناك شخص اسمه ستيفن وايز، قد لا تكون سمعت به.

فرددت بحس فلسفي: وكيف لا أعرف وايز، الحكيم؟ فنحن دائمًا في طلب الحكمة والعقل. كما قال رسولنا: 'الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها'، أي أن الحكمة هي الكنز المفقود للمؤمن، وهو الأحق بالعثور عليها. لا يمكن أن يكتمل أي تاريخ للهولوكوست دون ذكر ستيفن وايز. له ثقله وبصمته في تلك الحقبة، حتى إن الرئيس روزفلت كان يكن له احترامًا عظيمًا.

عندما تدفقت من شفتي كلمة 'شوا'، المرادف العبري للهولوكوست، وأبدى زكريا اطلاعي على ستيفن وايز، ظهرت على محياه علامات الفرحة الممزوجة بالدهشة، وتوج اللقاء بتبادل الابتسامات التي خيمت على الأجواء بلطف.

في اليوم التالي، خلال ساعة الغداء، رأيت زكريا في الكافيتيريا وهو يصطف في الطابور. تملكني الفضول حول كتاباته عن قيادة اليهود، وتساءلت عما إذا كانت قيادتهم تختلف عن الآخرين بشكل جوهري. لقد ظلت في ذهني تلك اللقطات من فيديو كريستال ناخت، حيث استمعت إلى حاخام يستفسر بحماسة عن مكان

قيادة اليهود أثناء مواجهتهم لكارثة الهولوكوست في ألمانيا والأراضي تحت سيطرتها. ماذا كانت تفعل منظماتهم؟ قبل أن أطرح سؤالي، بادر زكريا بالحديث عن خطته لزيارة نيويورك الأسبوع المقبل لمراجعة بعض وثائق ستيفن وايز. فسألته: لماذا لم تستطع القيادة اليهودية النافذة في أمريكا حماية أبناء قومهم من النازيين؟ تغيرت ملامح وجه زكريا فجأة إلى الجدية عند سماعه السؤال. قال: سأقوم بمراجعة بعض الخطابات غير المنشورة التي كتبها وايز لقادة يهود آخرين وبعض المسؤولين الحكوميين، والتي يُشار إليها في مختلف المصادر. أرى أن قيادتنا قد خذلتنا. إذا لم يكن قادتنا قد اتخذوا موقفًا ضعيفًا ولامباليًا، لربما لم تكن مذبحة ستة ملايين يهودي قد حدثت بهذه السهولة.

"فهل تنظر أيضًا إلى قادتكم على أنهم المسؤولون؟"

أجاب بنبرة تحمل ثقل التأمل: "لننظر إلى الحقائق الواضحة. ما وقع في ألمانيا لم يحدث في ليلة وضحاها. منذ صعود هتلر إلى السلطة عام ١٩٣٣م، وحتى تحرير اليهود المحتجزين في معسكرات الاعتقال بقصف الحلفاء عام ١٩٤٤م، شهدت تلك العقد من الزمن محاولات منظمة لإبادة اليهود. يطرح السؤال نفسه بإلحاح: عندما كانت هذه الكارثة تلقي بظلالها علينا، ماذا كان يفعل القادة اليهود الأكثر نفوذًا في أوروبا وأمريكا؟"

"فهل تظن إذًا أن قادة اليهود كانوا جزءًا من مؤامرة النازيين بشكل خفي؟"

عند طرحي هذا السؤال، بدا على زكريا بعض الارتباك، فقال: "لا يمكنني الجزم بهذا الأمر. يجب ألا نطرح الأسئلة المعقدة بمثل هذه البساطة الشديدة. هناك حالات تتحول فيها مصالحك وجبنك إلى أسلحة في أيدي أعدائك. ما تعتبره مصلحة هو في الحقيقة سياسة تهادنية. أعتقد أن قادة اليهود خلال الفترة النازية كانوا يعانون من هذا الداء. خذوا مثلاً ستيفن وايز، الذي كان أبرز القادة الدينيين في تلك الفترة. كان يترأس جميع الجمعيات اليهودية الكبرى في أمريكا وكان له تأثير كبير في الأوساط السياسية، حتى إن الرئيس روزفلت كان يناديه بكل عفوية بـ'ستيفن'. يُقال إنه التقى بالرئيس روزفلت ثلاثة عشر مرة. وكانت هناك

مزحة شائعة في تلك الأوقات تقول إنه بالنسبة للناس العاديين هناك عالمان 'die Welt' أي العالم الحالي، و 'yene Welt' أي الآخرة، لكن بالنسبة لليهود كان هناك خيار ثالث وهو 'روزفلت''.

"ممتاز!" هذا ما انساب من لساني بلا وعي.

تابع بصوت يحمل نبرات التأمل: "لكن، ما هي نتائج هذا الاعتماد الفائق على روزفلت؟ اليهود لم ينالوا لا الدنيا ولا الآخرة، بل ضحوا بأنفسهم في سبيل هذا الخيار الثالث. في هذا السياق، تتعاظم المسؤولية الملقاة على عاتق ستيفن وايز وغيره من قادة تلك الحقبة".

"فلماذا لم يتمكن الحاخام ستيفن وايز، برغم علاقته الشخصية مع الرئيس الأمريكي ولقاءاتهم المتكررة، من دفع روزفلت لاتخاذ خطوة حاسمة خلال أيام الهولوكوست العصيبة؟" طرحت السؤال.

أجاب بنبرة تحمل ثقل التجربة: "هناك أشخاص يميلون طبيعيًا نحو التسوية الكلية، أو ربما يكون الأدق أن نقول إنهم يفتقرون إلى العمود الفقري. لا يستطيعون تبني موقف صارم وحاسم في أي قضية. يعون أن مكانتهم القيادية مرتبطة بشخصيتهم واحترامهم في أروقة السلطة. يصبح مهمًا بالنسبة لهم أن يُدعوا خصيصًا من قبل الرئيس أو رئيس الوزراء، أو يؤخذ رأيهم، أو يقوم هؤلاء المسؤولون بزيارتهم شخصيًا، خشية أن يفقدوا هذا التقدير من الحكام، مما قد يفقدهم ذلك الأمل القليل في تحقيق الخير. يعرف الحكام هذا جيدًا، فطالما أن هؤلاء القادة موجودون، فلن يحتاجوا لأكثر من الكلام المعسول والمجاملات. النتيجة هي أن حصون مقاومتنا تسقط واحدة تلو الأخرى، وفي كل مرة يظهر هؤلاء القادة العاجزون بقصة جديدة عن معاناتهم في قصر السلطة."

"فما الذي يحول دون إدراكهم لانهيار تلك الحصون المقاومة؟" سألت بفضول.

أجاب بلهجة تحمل ثقل الواقع: "عندما يستوطن اليأس من الله والأمل في البشر قلب الإنسان، يميل إلى المسار الأسهل عوضًا عن الصمود. خذوا مثالًا على

الحاخام ستيفن وايز، الذي كان يشعر بالفخر الشديد لأن الرئيس روزفلت دعا ابنته وصهره للعشاء. الرئيس نفسه حضر الدعوة وأرسل لي تحياته الحارة. كان يفكر باستمرار، لو أن هذا الرجل يتخذ خطوة فعّالة لأجل شعبنا: (If only he would do something for my people). بينما كانت الأخبار تأتي من ألمانيا عن ترحيل اليهود ومذبحتهم. بدلاً من اتخاذ خطوات حاسمة، اكتفى روزفلت بالقول إن الطريق الوحيد لإنقاذ اليهود هو القضاء على هتلر في ساحة المعركة. ظل العالم اليهودي في حالة من القلق والاضطراب. كان يتم نقل اليهود من المناطق تحت الاحتلال الألماني بالقطارات إلى معسكرات التعذيب. ازداد القلق في الأوساط اليهودية الأمريكية. واصل الشباب اليهودي، بمن فيهم 'فتيان برغسون'، التظاهر في نيويورك وواشنطن ومدن أخرى، لكن ذلك لم يؤثر على العلاقات الشخصية بين وايز والرئيس. بل يُقال إن وايز منع الرئيس روزفلت من لقاء المتظاهرين الحماسيين، خشية أن يمنح ذلك مصداقية لقيادة يهودية بديلة في أمريكا."

"لكن ألم يكن ستيفن وايز حاخامًا تقيًا، كتاباته وخطبه تعج بالمصالح القومية والدينية لليهود، وكان رائدًا في الحركة الصهيونية من أجل تعزيز مكانة اليهود، فكيف يُقال أنه في تلك الأوقات الحرجة خان مصالح دينه وأمته من أجل الحفاظ على مكانته الشخصية؟" طرحت السؤال.

أجاب بنبرة مليئة بالتفكير: "لم يكن ذلك عن قصد. هؤلاء الأشخاص ليسوا منافقين لدرجة أن يتم اتهامهم بالتصرف ضد مصالحهم القومية عن عمد. حتى الأشخاص الأكثر قداسة يواجهون هجمات الشيطان بطرق مختلفة. نتيجة لابتعادهم المستمر عن المقاومة، يفقدون قوتهم وحدتهم. وفي اللحظات الحاسمة، يظهرون كأنهم غير ضارين لأعدائهم".

"أتقصد شخصية 'زوايا الدائرة'؟" قدمت هذا التعبير بتساؤل.

لبرهة، بدا متأملًا في استخدامي لهذا المصطلح، ثم أجاب بنبرة تحمل ثقل التجربة: "أجل، أنت على صواب. هم يتطلعون إلى تقديم قضية شعبهم بكل عزة أمام السلطة، ولكنهم سرعان ما يشعرون بالقلق من أن صراحتهم قد تثير استياء

المخاطب، مما قد يفقدهم فرصة تقديم قضيتهم. يودون أن ينطقوا بالحق، لكن الكلمات تتعثر في حلوقهم. ينتابهم الخوف من أن يؤدي صدقهم إلى نتائج عكسية عند أصحاب السلطة. قد يظهر للعيان أن قيادتنا الدينية والقومية تتحاور بثقة مع أولئك في السلطة، ولكن الواقع يشهد أن المشكلات تظل على حالها، بل تزداد تعقيدًا مع مرور الأيام.

"إذًا، ما الذي كان يجدر بالقيادة أن تقوم به في رأيك؟" سألت بتأمل.

أجاب بلهجة تحمل بصمات الخبرة: "القيادة، في حقيقتها، تشبه لعبة الأرجوحة(seesaw). إن لم تكن قادرًا على جعل وزنك مؤثرًا، فإن الطرف المقابل سيتجاهلك. بعد سنوات طويلة من اللقاءات، المرافعات المتكررة، والتوسلات المتواضعة، عندما يتأكد الطرف المقابل أن وجودك لا يشكل خطرًا كبيرًا وأنك لا تميل لخلق مشاكل جدية للسلطة، فلماذا يعيرون اهتمامًا لكلماتك؟ العلاقة بين الحاخام ستيفن وايز، النقي البسيط، وروزفلت، ذو البيان الرشيق، والتي استمرت على مدى عقد إلى عقد ونصف، تبرهن على أن القيادات الوطنية السلبية تتسبب دومًا في تعريض شعوبها للمهانة".

"لكن ما الذي كان بإمكان الحاخام وايز أن يفعله في عصره؟ ما هي البدائل المتاحة لديه؟" استفسرت، محاولًا تحدي زكريا.

أجاب بلهجة تعكس عمق التجربة: "لقد أضاع وايز وقتًا طويلًا في آماله الوهمية. في رسائله الشخصية، يظهر تذمره من موقف الرئيس روزفلت، لكنه لم يمتلك الجرأة لتوجيه تحذير صريح للرئيس. عندما بدأت مجازر اليهود في ألمانيا النازية وتبين أن الحل النهائي بالنسبة لهتلر هو إبادة اليهود بالكامل، كانت هذه المعلومات من أوائل ما وصل إلى الحاخام وايز في أمريكا. تواصل مع مسؤولي وزارة الخارجية الأمريكية، الذين نصحوه بعدم نشر الخبر حتى تقوم الحكومة بتأكيده. ظل وايز صامتًا على هذه المعلومات لمدة شهرين حتى برزت فجأة في وسائل الإعلام الأمريكية، ومن ثم أكدتها الوزارة المعنية. يرى البعض أنه لو كان وايز قد أثار

ضجة في وسائل الإعلام قبل شهرين من ذلك، لكان العالم قد أدرك الخطر مبكرًا، وربما تم إنقاذ العديد من اليهود."

"لكن وايز كان يتحرك بناءً على أمل، معتقدًا أنه بالمحافظة على مصالح الحكام الأمريكيين، سيصبح الحصول على دعمهم أسهل." أوضحت بنبرة تحمل تأملًا.

أجاب بلهجة تعكس عمق الوعي: "هذا بالضبط ما أسميه لعبة الأرجوحة (seesaw). إذا قمت بدفن الأخبار ذات الأهمية القومية والدينية فقط لتجنب غضب النظام الحاكم، فأنت لست فقط غير مؤهل لهذه المهمة، بل أنت أيضًا ترتكب جرمًا وطنيًا بسبب شخصيتك المترددة والضعيفة. زكريا بدا متأثرًا وهو يتحدث. أضاف: لا أعتقد أن الحاخام وايز شخصًا سيئًا، لكن لا بد من تحمل المسؤولية عن مجزرة بهذا الحجم!"

"لكن يجب مراعاة قداسة الأشخاص التقويين عند استخدام الكلمات القاسية،" حاولت توضيح وجهة نظري لزكريا.

لكنه لم يقتنع. أجاب بتأمل: "ما هذه القداسة؟ إنها وهم نخلقه بأنفسنا. نحن ننظر إلى البعض كمحاطين بالروحانية، دون أن نجد تفسيرًا منطقيًا لسبب قداستهم. هل اللباس المميز أو الهيئة تجعل الشخص روحانيًا أم هناك معايير أخرى للتقوى؟ في حكاياتنا التلمودية، هناك الكثير من الدرر الحكيمة. يحكى أن شخصًا زار الأرض المقدسة ثم لقي ربانيًا وقال: يا سيدي! جلت في أرض كنعان وزرت حائط المبكى وكل الأماكن المقدسة، لكنني لم أشعر بالقداسة والروحانية. سأله الرباني: هل أنت 'بفوففستك'؟

ما هذا؟

رد الرباني: أجبني مباشرة، هل أنت 'بفوفستك'؟

قال الرجل: لا أعرف ما تعني.

فأجاب الرباني: إذًا أنت لا تعرف ما هي القداسة ولا الروحانية. كيف يمكنك التعرف عليهما دون تعريف واضح لهما؟"

"أنت على حق، ولكن استخدام مثل هذه الكلمات القاسية لا يليق بأهل التقوى، ينبغي أن نعتبر قداستهم." حاولت توجيه زكريا.

لكنه لم يقتنع. قال بنبرة تعكس تأملًا عميقًا: "ما هي هذه القداسة إلا وهم نصنعه بأيدينا. الناس ينظرون إلى البعض على أنهم محاطون بروحانية، دون فهم حقيقي لما يمنحهم هذه القداسة. قال زكريا وعلى وجهه ابتسامة خفيفة: كثير من الناس يتبعون منطق العبادة والإيمان الأعمى، ويخلطون بين الروحانية والمظهر الخارجي. قال: أنا وصلت إلى نتيجة مفادها أن قادتنا ومنظماتنا يتحملون مسؤولية أكبر من الأعداء في فاجعة الهولوكوست. لو لم تقدم هذه القيادات والمنظمات نفسها كفريسة سهلة، لما كانت المذبحة بهذا الحجم الكبير. لا أستطيع فهم كيف سمح أسلافنا بترك بيوتهم وأعمالهم والانتقال إلى الغيتوات دون مقاومة، ثم ركوب القطارات المتجهة إلى معسكرات التعذيب. حتى تنظيم هذا الترحيل كان بأيدي قيادات يهودية. كيف يمكن لأمة تسير نحو معسكرات التعذيب عن رغبة وهي تعلم بانتظار الموت؟ يطلق الناس عليّ لقب 'الداخلي'، لكن كلما فكرت في الهولوكوست، أرى دماء على أيدي قادتنا."

"هذا بيان غريب منك. لست بذلك تحاول تخفيف وطأة جرائم النازيين، أليس كذلك؟" حاولت تخفيف حدة تأثر زكريا.

أجاب بصوت حمل ثقل الحقيقة: "ليس الأمر كذلك، فجرائم النازيين لا يمكن تقليلها أو التقليل من شناعتها. ما أحاول قوله هو أن النازيين وجدوا مساعدين لهم في إبادتنا من بين شعبنا نفسه. في كل مدينة يهودية، كان لدى النازيين مجلس من الشيوخ ينفذون أوامرهم بدقة. وقد ارتكب بعض الناس خيانات غريبة ضد شعبنا. هل سمعت عن محاكمة إيخمان(Eichmann trial) ؟"

أجبت بعدم معرفة: "لا، لا أعلم بها".

قال زكريا بنبرة تحمل ثقل التاريخ وألم الحقائق: 'كان إيخمان ضابطًا نازيًا مُكلفًا بتجميع اليهود من مختلف أنحاء البلاد ونقلهم في القطارات إلى معسكرات الاعتقال. تم القبض عليه فيما بعد ومحاكمته في إسرائيل، وتصدرت قضيته

عناوين الأخبار. لكنني لا أرى إيخمان هو المشكلة الأساسية؛ كان مجرد عامل يؤدي مهامه. كان هناك قائد يهودي بارز في المجر يُدعى كاسنر. أسس في بودابست لجنة لمساعدة اليهود بهدف نقلهم إلى أماكن آمنة. عقد كاسنر صفقة سرية مع إيخمان لإنقاذ حياة اليهود الأثرياء، بما في ذلك فنانين وشعراء وكتاب، حيث تم نقل حوالي ١٦٠٠ يهودي بالقطار إلى سويسرا. كان كاسنر على علم بأن القطارات التي تنقل اليهود كانت جزءًا من خطة الإبادة الجماعية، لكنه اختار إخفاء هذه المعلومات لإنقاذ هذه المجموعة الصغيرة، مما أدى إلى وفاة ملايين آخرين. وكما ظل الحاخام وايز صامتًا عن أخبار المذابح لمدة شهرين، فعل كاسنر الشيء نفسه. قد يكون لكلاهما تبريراتهما، ولكن من الواضح أن القيادات التي تجلس على الكراسي كانت أيديهم ليست خالية من دماء شعبنا.'

تعجبتُ، وقلت: 'ألا تضع كاسنر ووايز في خانة واحدة؟' على احتجاجي هذا، أطلق زكريا ابتسامة عميقة المعاني وأجاب: 'كاسنر، في الواقع، مجرم صغير إذا ما قورن بالآخرين، فجريمته واضحة للعيان. تمت محاكمته في محكمة علنية بإسرائيل، وأدانه القاضي بأنه عمل تحت تأثير الشيطان. قيل عنه إنه قام بما يفترض أن يكون من اختصاص الله وحده؛ تقرير من يستحق الحياة ومن لا. فقط الأشخاص الذين منحهم كاسنر إشارته كانوا قادرين على ركوب قطاره. حُكم على كاسنر بأنه يستحق عقوبة الإعدام بسبب جريمته. أما الحاخام وايز، فلا تزال جريمته متسترة تحت ستار التقديس حتى اليوم.'

اقترب وقت انتهاء فترة الغداء. في الكافيتيريا، كان صخب تجميع الأطباق وإعادة ترتيب الكراسي يتزايد. طلبت الإذن من زكريا للمغادرة وعدت إلى مكاني في المكتبة، لكن أفكاري ظلت تائهة. تذكرت حديث هاشم علي أختر عندما أخبرنا نحن الطلاب عن الظلم الذي وقع على موظف حكومي مسلم، ملمحًا إلى أن تأسيس باكستان ربما كان حتميًا. 'لنترك هذه القصة جانبًا، فقد حل جناح مشكلة نصف المسلمين في شبه القارة، والآن علينا أن نحل مشكلة النصف الآخر.' لقد كانت هذه الكلمات بمثابة قنبلة ذرية على قلبي وعقلي آنذاك. اليوم، بعد

سماع قصة قطار الإغاثة الذي أرسله كاسنر، شعرت كأن قادتنا أيضًا قد ضحوا بنصف المسلمين في شبه القارة من أجل إنقاذ حياة بعض المسلمين المميزين وتوفير ملاذ آمن لهم.

كلما غرقت في التأمل، بدت لي شخصية الحاخام وايز، بجلالها وقداستها، أكثر إلفة وتشابهًا. كأن تصاوير متنوعة تتناسق واحدة تلو الأخرى في هذا الإطار، بعضها اختبرته عن كثب، والبعض الآخر كان لمحات بعيدة. ثم خطر ببالي، ما الصلة بين تجوالات عالم يهودي منبوذ وعلمائنا وقادتنا؟ ووجدت في ترديد 'لا حول ولا قوة إلا بالله' راحة من هذه الأفكار المقلقة.

٥٢

شجاعة الكفر

في لندن، حيث تتاح لي الفرصة للإطلاع والرؤية، كان قلبي يميل إلى أن تمتد هذه التجربة أطول مما هي عليه. لكن الأنباء المقلقة الواردة من الهند كانت تربك أفكاري. ذات يوم، انخرطت في حوار مع الشيخ عبد الخالق حول هذا الموضوع. قال بنبرة تعكس الإحساس بالألم والوعي العميق: 'قادة المسلمين في الهند في غفلة تامة عن الواقع، لو أدركوا فقط أنهم يواجهون هجوماً عالمياً محموماً. العام الماضي، في ميلتون كينز، قرب لندن، أُقيم مهرجان هندوسي ضخم، كانت دوافعه تنبع من حركة بناء معبد رام. تجمع هناك ما يقرب من مائة ألف شخص من شتى الأماكن، وكانت الأناشيد مثل'ہندو جاگے وشو جاگے، مانو کا وشواس جاگے' (عندما يستيقظ الهندوس، يستيقظ العالم، ينبعث الإيمان في قلب الإنسانية) تصدح في الأجواء، تُرسم صورة لنهضة الهندوس على الساحة العالمية. من الجانب الآخر، إذا نظرت إلى قادة مسجد بابري ومسؤولي المنظمات الإسلامية، يبدو الأمر كما لو أنهم في حالة ضياع وتخبط، كما يقول الشعر:

'قائد عسكري غير مؤهل، والصفوف مهزومة، آه، ذلك السهم الذي لا يجد هدفه'.

ثم تابع بصوت يمزج بين الحكمة والحزم: 'المسلمون الهنود بحاجة لقيادة بطولية وليس لقيادة نسائية ضعيفة، قيادة تحمل روح النبوة والعزم.'

عندما تحدث الشيخ عبد الخالق عن 'قيادة ضعيفة' بأسلوب ريفي، ضحكت في البداية، ثم فكرت أنه ربما كان يقصد 'قيادة دينية'. لكن عندما طلبت منه توضيحًا، قال: 'لماذا نقتصر باللوم على رجال الدين فقط؟ نحن جميعًا نعاني من

نوع من الضعف. وطالما لم يُعالج هذا الضعف المزمن، سيبقى أي تخطيط للفعل النشط يخضع لعقلية مريضة.' شعرت أن كلام الشيخ ربما يكون صحيحًا. إذا كانت الصحة النفسية والروحية لأمة ما غير مستقرة، فحتى بعدد سكاني يصل إلى مئتي مليون مؤمن، سيظل هذا الشعور بأنهم 'أقلية'. رجال دينهم يحثون الناس على اتباع 'حلف الفضول'، وهو تقليد قبل النبوة، بدلاً من دعوتهم إلى الإسلام النبوي، ومثقفوهم يترددون في التعبير عن هويتهم الإسلامية خشية التهمة بالتعصب. الصورة الراسخة للإسلام كدين قومي للمسلمين شائعة لدرجة أن صوت الإسلام النبوي قد خفت. عندما يركز علماء الدين على حلف الفضول على حساب الرسالة الإسلامية، فمن الصعب لوم العامة.

'عندما تنشأ الكفر من الكعبة، أين يبقى المسلم؟'

اليوم، تمايلت ذاكرتي عائدةً إلى ذلك المؤتمر الوطني البارز للمسلمين الهنود، الذي أُقيم العام الماضي في رحاب قاعة ماولنكر، بدعوة كريمة من سيد شهاب الدين. كنت قد حملت معي، في تلك اللحظة المصيرية، نسخة من القرآن الكريم، رفيق دربي وإلهامي. وحينما بدأت بنثر حروف خطابي، رفعت القرآن عالياً بين يدي، وبصوتٍ مفعم بالحزم والرصانة، خاطبت الجمع الغفير: 'يا أيها الناس! ها أنا ذا، أقف بين أيديكم، لأدعوكم إلى سياسة هذا الكتاب، الكتاب الذي يحمل بين دفتيه حكمة السماء. لقد تحملنا ويلات جمة بسبب الحركة الوطنية للمسلمين. في زحف الصراع الدامي بين الهندوس والمسلمين، فقدنا ميراثنا الأصيل في دار الإسلام بالهند. واليوم، ها هي ذي الصراعات الوطنية، التي تجسدت في محنة مسجد بابري ورام جانم بومي، تسعى لجرنا إلى معترك حرب قومية محتدمة. من الأهمية بمكان أن نبث رسالة الإسلام العالمية، تلك الرسالة التي تعلي من شأن الإنسانية وتحترم حقوق الجميع، وذلك بدلاً من التمسك المحض بمطالبنا الدستورية والديمقراطية. إن أجندة الإسلام في العدل والإنصاف لا تعدو كونها نغمة مبهجة ستتردد في أرواح الغالبية العظمى من غير المسلمين في هذه البلاد. لقد كشفت لنا حروب مندل وكامندال، مرة تلو الأخرى، عن مكانتنا كأقلية في وجه

أغلبية مصطنعة. إن برنامج الإسلام في احترام الإنسانية سيشرق كنور يبشر بفجر جديد في هذا الوطن.' وبعد أن سكبت هذه الكلمات من فمي، رفعت القرآن مرة أخرى، معلنًا بصوتٍ جلي أن الآوان قد حان لأن تبدأ سياسة هذا الكتاب في تشكيل ملامح مستقبل بلادنا. لقد هزت كلماتي أفئدة الحاضرين بشغف عارم واهتمام بالغ، مخلفةً وراءها لحظات من الاضطراب والحراك في صفوف الجمع. وعند ختام الجلسة، تحدث سيد شهاب الدين في خطابه البليغ، مشيرًا إلى من وقف هنا، وكأن هذا المؤتمر كان مهدًا لقيام حكومة إسلامية. وقد أوضح، ببلاغة وحكمة، أن الهدف الذي نرمي إليه ليس سوى الدفاع عن نظامنا العلماني الراسخ.

كان سيد شهاب الدين ضمن دائرة معارفي الوثيقة. كانت تربطني به مراسلات عميقة، ولعل هذا ما دفعه ليكرمني بدعوة لحضور مؤتمره. لكن في ذلك الوقت، لم أتنبه لدقائق اللحظة وحساسيتها. تلك الحادثة أحدثت شرخًا في علاقتنا؛ فلم تعد كما كانت سابقاً. بعد مرور عامين، كأن القدر قد أعاد تجميعنا معاً على منصة واحدة. في نيويورك، بمؤتمر الاتحاد الأمريكي للمسلمين من الهند (AFMI)، الذي شهد حضور شهاب الدين من بلاد الهند. وأنا، الذي كنت في واشنطن حينها، وجدت نفسي ضمن الدعوة بفضل وجودي القريب. وهناك، في ذلك الملتقى، وقف السيد شهاب مدافعاً عن النظام العلماني، بينما كنت أواصل، بنبرة حاسمة ومحكمة، تأكيد أن هذا النظام 'ظاهره مشرق، لكنه في باطنه أكثر ظلمة وفداحة من نظام جنكيز'. بعد سنوات طوال، عندما أصغيت إلى مولوي محمود مدني، أمين جمعية علماء الهند، وهو يعلن بصوت جهوري وافتخار أنهم (أي أجداده الوطنيون) قد رفضوا نظام المصطفى ليختاروا النظام العلماني الراهن، لم تعتريني الدهشة. بل، زرعت صراحتهم في قلبي إعجاباً. شجاعة الكفر - هذا ما أكد لي بأن المسلمين الهنود، منذ بداية ارتدادهم الفكري في بلادهم المقسمة، واجهوا تحديات جسام.

٥٣

الهجرة الثالثة

في علي غره، كانت تلوح في أفقي خيمة البداوة، ترسم ظلالاً من الترحال على حياتي. لقد تحولت سنواتي الماضية إلى مسلسل من الأسفار، حيث لم يكد ينقشع غبار رحلة حتى أجد نفسي أبحر في أخرى. هذا التنقل الدائم جعل بعض الأصدقاء يمازحون قائلين إنني أسكن في السماء، متنقلاً بين الغيوم على متن الطائرات، وأنزل أحيانًا إلى الأرض كزائر عابر. في هذه المرة، بعد غياب طويل، عندما عدت إلى علي غره، اكتشفت أن كتبي وأوراقي قد تحولت إلى رحلة أخرى، موزعة في غرف أصدقائي كأمانات متنقلة. 'كومة غلبة الإسلام' التي وقعت في حظ أحدهم، صارت محط استفسارات لا تنتهي: 'ما هذا الكتاب؟ لماذا كل هذه النسخ؟ ما الذي يميزه؟' وكانت الروعة في ذلك الصديق، الذي ببراعة وفطنة، ينسج إجابات مقنعة عن هذه الأسئلة، مع أنه لم يطالع الكتاب بعد.

في علي غره، ظللت ليومين بظلال التشرد والضياع، إلا أنه سرعان ما تحول هذا الإحساس إلى شعور بالراحة والألفة، بفضل لطف وكرم الأصدقاء، حتى بدت لي الحياة وكأنها تفتح أبواب غرفها المتعددة لي، تاركة وراءها تلك الضيقة التي احتوتني في غرفة واحدة. في صباح أحد الأيام، وأنا أتأمل العالم من خلال صفحات الصحيفة الصباحية في البرندة، ظهر من الغرفة المجاورة ذلك الرجل الكبير ذو الهيئة المولوية، الذي بدا وجهه كأنما رأيته في مكان آخر. أجل، إنه مولانا حمايت الله الذي التقيت به في المدينة المنورة. لقد عاد لتوه من الرياض. من حديثه، تنساب قصص الرعب والخوف المخيم في السعودية عقب هجوم صدام على الكويت؛ الشوارع المقفرة، المطارات الخالية. تساءلت عما سيأتي بعد ذلك. في

تلك اللحظة، حينما كان الناس يعودون إلى ديارهم مذعورين، نبتت في ذهني فكرة السفر إلى الرياض، لأرى بأم عيني تلك الأزمة. كل ما أملك من أدوات عملي، ملفاتي، وحتى ملاحظاتي البحثية، كانت محفوظة في كراتين متنوعة. والآن، كانت حقيبتي الصغيرة هي رفيقتي الوحيدة. وهكذا، وقد انتهى بي المطاف إلى حياة البداوة والتشرد، قررت أن أوجه جملي نحو تلك الصحراء العربية، حيث يتجمع أهل الإيمان لمواجهة معركة جديدة.

بمحض الصدفة، في تلك الأيام، كان مؤتمر رابطة العالم الإسلامي يُعقد أيضًا. كنت مصممًا على عدم الانغماس في الجمع الذي يتجمهر في مكة، معبرًا عن دعمه اللامشروط للموقف السعودي. فقبلت تأشيرة المؤتمر، ولكني أبقيت على الطابع الشخصي لرحلتي. كانت لدي بعض الأعمال الملحة في كراتشي، حيث كانت مراحل نشر 'دستور العمل للثورة الإسلامية' تقترب من نهايتها، وكان رئيس تحرير مجلة تكبير، محمد صلاح الدين، يخطط لنشرها عبر مؤسسته. كانت الرحلات الجوية من دلهي إلى الخطوط الجوية الباكستانية تصل في الصباح وتغادر إلى جدة في وقت متأخر من الليل. عندما خرجت من المطار، راودتني فكرة الإقامة في قلب المدينة. كانت لي إقامة سابقة في مقر YMCA المقابل لمكتب الخطوط الجوية الباكستانية الكبير. بعد أن اغتسلت وتجهزت، وجدت نفسي أسير بشكل غير واعي نحو مكتب الخطوط الجوية. خطر ببالي أنه إذا تم تمديد تذكرتي ليوم واحد، فسيتسنى لي لقاء العم جيلاني، حلمٌ ضاع في رحلتي السابقة. شرحت للمرأة التي كانت جالسة خلف الكاونتر نيتي. فلمحت إلى جواز سفري الهندي بابتسامة ودية غير عادية وأكدت مقعدي في رحلة اليوم التالي.

كان عنواني في منطقة فيدرال بي أريا. أثناء الرحلة، مرت سيارة الأجرة التي كنت فيها عبر لياقت آباد، حيث كانت صور ألطاف حسين البارزة وعباراته المؤثرة تزين الجدران. سألت السائق باستغراب: 'لماذا تملأ هذه الصور والأقوال لألطاف حسين كل مكان هنا؟' فأجاب: 'ألا تعلم أن هذه هي مدينة القائد؟' فقلت: 'أنا على دراية بأن ضريح القائد يقع في هذه المدينة.' فرد بتوضيح: 'هل تقصد القائد

الأعظم؟ لقد ولّى زمانه، الآن نعيش في عهد قائد الثورة.' فتساءلت: 'هل تغير القائد هنا؟' فأجاب: 'ماذا كان بوسعنا أن نفعل؟ تركنا منازلنا وأرض أجدادنا من أجل باكستان واستقرينا في صحراء لالو خيت. لقد مضت أربعون إلى اثنتين وأربعين سنة على ذلك. نشأ جيل كامل هنا، ترعرع، ومع ذلك لم نستطع أن نصبح جزءًا من هذه الأرض. حتى اليوم، يُنظر إلى أطفالنا كمهاجرين.'

قلتُ بنبرة تحمل الإعزاز: 'إنها كلمة عظيمة أن يُقال لك مهاجر.' لكن هذا القول أثار حماسة السائق. بدا متأججًا وهو يقول: 'نحن أيضًا نطالب بأن يُنظر إلينا كقوم، مثل البلوش والسند والبنجاب والبشتون، حتى لا نُعامل كعناصر غريبة في باكستان.' أجبته: 'لكن المهاجرين هم أساس تأسيس باكستان. كان دورهم كمؤسسين. هم الذين تركوا بيوتهم وأتوا إلى باكستان، حيث كانت حركة باكستان قوية في مناطقهم الأصلية. فلماذا تودون التخلي عن دوركم التاريخي كقادة وتحولون أنفسكم فقط إلى مجموعات سندية أو بلوشية أو بنجابية؟' أجاب بصوت متعب: 'هذه كلها مجرد كلمات نظرية. أنت لست صحفيًا، أليس كذلك؟ لدينا شخص يُدعى صلاح الدين، يتحدث بنفس الطريقة. هو أيضًا مهاجر، لكنه يكتب ضد المهاجرين. رجل غامض. هل تعلم أن هناك الآلاف من المسلمين البهاريين عالقين في مخيمات في بنغلاديش؟ لو كانوا من البلوش أو السند أو البنجاب أو البشتون، هل كانوا سيعانون بهذه الطريقة؟ لدى هذه القوميات أراضيها الخاصة. لو كان للمهاجرين صوبة في باكستان، لكانت مشكلة المسلمين البهاريين في بنغلاديش قد تم حلها منذ زمن.'

الآن كانت سيارة الأجرة تخترق أروقة منطقة فيدرال بي أريا. الشوارع الفسيحة والمنازل المرقمة بدقة جعلت الوصول إلى العنوان المنشود أمرًا يسيرًا. ترجلت من التاكسي أمام بناية ضخمة تشبه البنغلة. عندما أرنّ الجرس، استقبلني الحاجب بباب مفتوح. سرعان ما انتشر خبر وصول زائر من الهند في أرجاء المنزل، فتحول الصمت إلى ضجة حية. امرأة في منتصف العمر مع بناتها بدأت في استقبالي بحفاوة. أخبرتني الفتيات أن جدهن لم يعد يقطن هنا، إذ ترك

البيت قبل أيام، لكن أباهن تلقى إخطارًا بوصولي. وبينما نحن كذلك، تجمعت صديقاتهن من الجيران لرؤية الضيف القادم من الهند. لفت انتباهي في تلك الفتيات أمرٌ مميز؛ كانت خدودهن تتوهج بنوع خاص من الاحمرار. تساءلت في داخلي، هل هذا الوهج نابع من خجل مخبأ، أم هو جمال طبيعي يتفتح كالزهر؟ مع مرور الوقت، كشفت الأيام أنه كان نوعًا فريدًا من المكياج، رائجًا في أروقة كراتشي في تلك الأيام، وكأن كل خد هو لوحة فنية تعكس أساليب الزمن وأذواقه.

أصرت الأخوات على بقائي، لكنني كنت متحمسًا للقاء العم جيلاني. وبإصراري، جاء أحدهم بدراجته النارية، فانطلقنا سويًا عبر الأزقة المتعرجة حتى وصلنا إلى مسجد في منطقة مكتظة، حيث اتخذ العم جيلاني من إحدى زواياه مأوى. لم يخفِ دهشته عند رؤيتي بشكل غير متوقع. واصل السؤال عن صحة والدي لوقت طويل، مصرًا على أن أمضي ليلة في منزله لتتاح الفرصة لحوار مستفيض.

ألقيت نظرة خاطفة على غرفة العم، التي كانت تعج بالفوضى البسيطة من كل زاوية. كان هناك سرير واحد فقط، وأصر العم على إصرار شديد أن أنام عليه، بينما اختار هو الأرضية مضجعًا له، وضع حصيرًا واستلقى عليه. في الساعة الثالثة صباحًا، استيقظت على صوت خفيف؛ كان العم قد أتم صلاة التهجد. أشعل موقدًا صغيرًا، صنع الشاي، ومدّ إلي كوبًا منه وهو يقول: 'ماذا عساي أفعل؟ أنا مثل الكلب في هذه الدنيا، أسير عاداتي. أينما ذهبت أجمع حولي عالمي الخاص. انظر كم تكدس هنا من الأغراض، كأنني سأقيم هنا إلى الأبد. ربما لا يوجد الكثيرون مثلي، رهنٌ بعاداته.' وبينما يتحدث، اختنق صوته بالعبرة. شعرت أنه يعيش لحظة من الزهد، خاصة وأن الكوب الذي قدم لي الشاي به كان مكسور اليد. تلك الأكواب المتشققة، الموقد القديم، بعض الملابس المعلقة، طاولة صغيرة تحمل القرآن الكريم وبضعة كتب مرتبة بعناية، وأثاث يتكون من كرسيين متهالكين وسرير. ومع ذلك، لم أستطع إلا أن أشعر بأن هذا الرجل، الذي غرق في دنياه، قد جمع حوله أكثر مما يحتاج.

سألته بفضول: 'ما القصة وراء تركك لبنغلة واسعة والإقامة في هذه الزاوية المتواضعة؟' رد بنبرة حافلة بالتجربة: 'يا بني، أصابني ضيق شديد في تلك البنغلة. في البداية، كان الأمر يبدو كخطوة نحو التقدم. لكن سرعان ما تراكمت الرتوش والمظاهر. تم تعيين حاجب وبواب، ووصلت إلى لحظة تعمي فيها الرغبة في الجاه والثروة البصر، وتتلاشى حدود الحلال والحرام. حاولت إقناع ابني سليم بأن أي شبهة في الدخل الحلال تلوث كل المال. لكنه لم يأبه لذلك. فاتخذت قرارًا جذريًا، قررت الهجرة من جديد. أشعر الآن براحة عميقة في هذه الزاوية من المسجد. أقضي أمسياتي في تعليم الأطفال القرآن، وهذا يكفي لعيشي. وباقي الأمور بيد الله.' وهو يتحدث، برقت عينا العم بدموع الحنين والتأمل.

قلت له بنبرة تحمل بعض الحيرة: 'لقد هاجرت كثيرًا بالفعل. أولاً إلى باكستان الشرقية، وعندما تحولت إلى بنغلاديش، انتقلت إلى كراتشي، والآن تأخذ هجرة أخرى من بنغلتك الفسيحة إلى هذه الغرفة الصغيرة في المسجد.' فرد بعمق مشاعر واضح: 'جاء سليم لزيارتي، ويتفقد أحوالي من وقت لآخر. أخبرني أنه سيحافظ على الابتعاد عن المصادر المشكوك فيها للدخل. أدعو الله أن يهديه إلى الصواب. يجب أن يعي أننا لم نأتِ إلى هنا طلبًا للقصور والبنغلات. كان لدينا منازل وأراض في الهند أيضًا. جئنا هنا بحثًا عن دار الإسلام، لنعيش كمسلمين أحرار. فإن فقدت حياة أطفالنا جوهر الإسلام، فما قيمة هذه الهجرة كلها؟' وبينما كان يتحدث، اغرورقت عيناه بدموع الندم والتأمل العميق.

وجهت إليه سؤالاً يحمل وقعًا ثقيلاً: 'أنت مهاجر مرتين، عندما تنظر إلى الماضي، ماذا تشعر؟ هل كانت قرارات الهجرة هذه صحيحة؟' بدا أنه لم يكن مستعدًا لمثل هذا السؤال، فغرق في بحر من الصمت العميق. بعد لحظة من التأمل، تحدث قائلاً: 'كانت رحلتنا الأولى لغزًا. ذهبنا إلى هناك معتقدين أنها باكستان، لكن من كان يتخيل أن باكستان ستغادر تلك الأرض؟ كأننا تعرضنا للخديعة. ولكن، ما زال في القلب بصيص من الأمل، فأقبلنا على هذا المكان'.

توجهت إليه بسؤال يحمل ثقل التجربة: 'حتى هنا في كراتشي، يبدو أن المهاجرين يواجهون تحديات عديدة. هناك من ينادي بسندهو ديش وتتردد شعارات تقسيم سنده بيننا وبينهم.' فأجاب بنبرة ملؤها الوعي بمرارة الواقع: 'لقد أدركنا هذا منذ أيامنا في باكستان الشرقية، إدراكًا بأننا كمهاجرين لن نجد أنصارًا. جيل بأكمله من أبنائنا نشأ هناك، انصهر في الثقافة البنغالية، لكنهم ظلوا معروفين بالبهاريين. لم يقبلهم المجتمع المحلي كأفراد كاملين. وهنا أيضًا يُنظر إليهم كمجموعة بجذور في مكان آخر. يبدو أن باكستان أصبحت موطنًا لمسلمي المناطق الأغلبية، بينما المسلمون من المناطق الأقلية، الذين كانوا في طليعة هذه الحركة، لم يجنوا سوى الحرمان والعجز'.

تابعت الحديث بنبرة تحمل أثقال الأسئلة: 'وماذا عن أولئك الذين تُركوا خلفًا، يبدو أن أنينهم وبكاؤهم لا ينتهي.' رد بصوت يشوبه الألم: 'بلى، هذا فصل آخر مليء بالمعاناة. لماذا حدث هذا؟ كيف حدث؟ لا أحد يملك الجواب. تقدمت الأحداث بشكل لم يدرك الناس فيه الخطر حتى جاءت نهايتها، وعندما استفاقوا، كان الجنون قد انتشر في كل مكان، وبدأت الهجرة.' سألته: 'ألم يكن لدى علماء وقادة المسلمين أدنى تصور لما ستكون عليه الأيام القادمة بالنسبة للمسلمين؟' أجاب بعمق: 'كان علماؤنا وقادتنا غارقين في بحر الخطابة، والجماهير مأخوذة بالخطب الحماسية. كان النداء للتحليل العميق والتفكير النقدي نادرًا. من أحشاء الشعارات الفوضوية يولد الاضطراب، لا الثورة. لكن في ذلك الوقت، لم يكن أحد يدرك هذا'.

في حديث العم جيلاني، الذي يحمل في طياته حكمة السنين وآلام عصر بأكمله، كان هناك رغبة في قلبي لاستمرار هذا الحوار العميق. ولكن، كان لزامًا عليّ الالتزام بموعد آخر مع رئيس تحرير مجلة تكبير. بعد أن قدمت احترامي وودعت العم جيلاني بكل تقدير، توجهت نحو مركز نامكو، حيث كانت تقع مكاتب مجلة تكبير في تلك الأيام.

لدى وصولي مساءً إلى ناديYMCA، كان اثنان من رجال الشرطة بانتظاري. فحصوا جواز سفري بسرعة، ثم دعوني للصعود للغرفة للتحدث. تبين لي أن تجولي في كراتشي لمدة يومين دون تأشيرة كان خطأ غير مقصود. بعد محاولاتهم الخفية لمعرفة كمية الأموال لدي، أدركوا أنني مجرد طالب بموارد محدودة. حينها تغيرت معاملتهم وظهرت إنسانيتهم. قال أحدهم للآخر إنه لا فائدة من التدخل معي. ثم التفت إلي بنبرة تحمل بعض الوقار وقال: 'عندما تزور المدينة المنورة بعد المؤتمر، هل تقبل أن تكون رسولًا لنقل سلامي إلى الرسول؟ اسمي صديق خان. رجاءً، لا تنس.' وبهذه الكلمات، وقف ومد يده لمصافحة حارة، بينما ظهرت على وجهه ابتسامة مليئة بالمودة والاحترام. كان هناك تغيير جذري في تعامله معي، فقد تحولت في نظره إلى قاصد يحمل سلامًا إلى الرسول.

٥٤

الأنفاس المتلاشية

تأخرت قليلاً عند وصولي إلى الاجتماع الطارئ في الرابطة. كان اليوم هو الأخير من ثلاثة أيام من المؤتمر. لدى دخولي قاعة المؤتمر، كان الشيخ أبو الحسن علي الندوي يلقي خطابه. كانت لدي معرفة مسبقة بفصاحته وسحر خطابته بالعربية. يُقال إنه حتى الناطقين بالعربية يعجبون بأسلوبه، لكن عندما استمعت إليه بين العرب، لم يكن الأمر كما توقعت. أدركت لاحقًا أن الكثير من تلك القصص كانت مبالغة. في علي غرهأيضًا، كان هناك شخص مشهور بإتقان الإنجليزية، يُقال أنه يعلم الإنجليز لغتهم. وأتضح لي أن مهمة تقديم 'كلمة المندوب' كانت توكل عادة للمؤيدين لسياسات الدولة. في عهد الأمير سلمان حاكم الرياض، حضرت مؤتمرًا دوليًا وقابلته. كنت أأمل بفرصة للنقاش، لكن اتبعوا الطريقة السعودية التقليدية، حيث اختير اثنان لتقديم 'كلمة المندوب'، وأهدرا الوقت في المديح. على الرغم من تكرار الأمير سلمان لرغبته في سماع آرائنا ونصائحنا، لم يكن هناك مجال لذلك بسبب النهج الروتيني. وفي النهاية، شعر الأمير سلمان بخيبة أمل واضطر لإنهاء الجلسة بإحباط.

اليوم ظهر الشيخ ابن باز في زي الإحرام، يبدو أنه كان، مثلي، قد أتم العمرة وانتقل مباشرةً إلى قاعة المؤتمر. كان هناك الكثيرون بين الحضور لم أكن أعرفهم. تجمع هناك جمع غفير لهذه المناسبة. كان هناك بعض الوقت قبل الإعلان الرسمي لإعلان مكة، فاستغللت الفرصة لزيارة مكتب السيد حسن مطهر، الموجود بالطابق الثاني من نفس المبنى. كان السيد حسن يظهر اهتمامًا بالغًا بأنشطتي وإنجازاتي، يستمع بتركيز ويقدم نصائح ذات قيمة. أرسلت له سابقًا

نسخة من كتيب حول الميليشيات المسلمة، وكان لديه بعض التحفظات عليه. قال بحكمة: 'يجب ألا نتسرع في الوصول إلى النتائج. تحتاج قضية المسلمين في الهند إلى تحليل عميق وشامل.' طرحت عليه سؤالاً: 'تسمي اليهود مأساتهم "الهولوكوست" والفلسطينيون أطلقوا على تراجيديتهم "النكبة". فهل يمكن أن نطلق اسمًا مماثلاً على المأساة الكبرى للمسلمين الهنود؟' فوجئ بسؤالي، كأنما تلقى صدمة، لكنه ظل صامتًا.

في اليوم التالي، وجدتهم في الحرم. بدأوا بالقول: 'لقد طرحت سؤالاً محورياً. ينبغي أن نسمي هذه المأساة العظمى بشيء ما. لكن، كيف نفعل ذلك؟ علينا أولاً أن نفهم ما حدث لنا بالفعل. تحولنا إلى مهاجرين في وطننا، حيث كنا نعيش منذ قرون، وأصبحنا نُعتبر لاجئين ومحاصرين، مُنفيين في أرضنا. حتى أولئك الذين كانوا يوماً قادة هذا البلد تحولوا إلى أقلية عاجزة. لغتنا، ثقافتنا، وحضارتنا التي كانت أساس سلطتنا دُمرت. إن دمار الحضارة هو عملية موجعة. تمامًا كما ننظر إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية، انهيار العاصمة البيزنطية، وزوال الخلافة العثمانية كأحداث تاريخية كبيرة، فإن سقوط دلهي والتقسيم الطائفي للبلاد ليست أقل أهمية وألمًا. ومع ذلك، لم يتم حتى الآن تقييم تلك الأحداث ونتائجها بشكل كامل.'

"كيف تشعر بالعيش في الهند الحرة؟" سألوني، على ما يبدو بنية إرباكي. استطردوا بعد ذلك قائلين: "لقد مضى وقت طويل منذ غادرت الهند. في الواقع، ما لدي من ذكريات عن علي غره هي مجرد رومانسيات طلابية." ثم طرحوا سؤالاً آخر: "وماذا عن العيش في الهند المستقلة؟" فأجبت: "في الظاهر، لا يبدو أن هناك مشكلة، لكن هناك شعور دائم بأن شيئًا ما يتحطم بداخلي في كل لحظة. حين سُئل جاي براكاش نارايان عن شعوره تجاه الحرية، أجاب ببساطة: 'بلا طعم.' وهذا بالضبط يلخص تجربتي."

"لماذا لا تنتقل إلى بريطانيا مثلي؟" ذلك السؤال جاءني محملاً بفضول. فأجبت بعمق: "اتخاذ قرار بترك الوطن إلى الأبد يحمل وزنًا كبيرًا. كتاباتي زرعت

الأمل في نفوس الناس. إذا انسحبت أنا من الساحة، فمن سيقف وجهًا لوجه أمام التحديات التي تواجهنا هناك؟ وبعد، هناك ذكريات طفولتي التي تربطني بهذه الأزقة والحقول والمروج."

"ألا تعتقد أن الحياة هناك بلا طعم؟" هكذا وجهوا السؤال، محملًا بفضول. أجبت: "بلا طعم قد لا تكون الوصف الدقيق. هي أشبه بالاختناق، لا تتنفس الأنفاس بحرية، تعيش وكأنك دائمًا على شفا الهاوية. الحياة كأنها فقدت بهجتها، هذا الشعور الذي يُصور بـ 'gasping for breath'، لا يسعني وصفه بالكلمات."

بعد زمن طويل، عندما شهدت البلاد نقصًا حادًا في الأكسجين، وتكاثرت وفيات مرضى فيروس كورونا، وجد الناس أنفسهم يائسين في البحث عن أسطوانات الأكسجين. في تلك اللحظات المأساوية، قال معلم اليوغا المعروف، وكأنه يرش الملح على الجراح: 'من يقول إن هناك نقصًا في الأكسجين في البلاد؟ الهواء مليء بالأكسجين. إنما النقص في رئتيك التي لا تستطيع استخلاص الأكسجين بشكل فعّال.' هذا الكلام جعلني أشعر كأنه قد حل مشكلتي. إنه يعكس بدقة الاختناق الذي نعاني منه نحن المسلمون الهنود منذ خمسة وسبعين عامًا. لم نتمكن من التنفس بحرية طيلة هذه المدة. يمكنهم أن يوقفوا تدفق الأكسجين كلما شاؤوا، ونحن نتخبط كالسمك خارج الماء. ليست لدينا القوة في رئتنا، والحمايات الدستورية عجزت عن توفير الأكسجين اللازم لإنعاش حياتنا.

الفهرس

`

لايموت

في هذه السيرة، يغوص القارئ في أعماق عالم راشد شاز، وهي تروي مسيرته في طلب العلم والمعرفة حتى عام ١٩٩٠، موثقة الأحداث والوقائع التي شكلت تلك الفترة. في هذا السرد العميق، لا تقتصر الأصداء على قصة المؤلف فقط، بل تتسع لتشمل الأصوات المتنوعة من تلك الحقبة. يقدم راشد شاز، بصفته مفكرًا ومصلحًا، لمحة عن جيل من المسلمين الهنود، الذين عانوا من الأذى النفسي والاضطراب الروحي والتشتت الفكري. يكافح هذا الجيل لفهم ما جرى في بلادهم تحت غطاء تهدئة المسلمين. كيف يمكن تسمية مثل هذه الأحداث؟ ومن أين نجد الكلمات لوصف هذه المأساة؟ في عالم تشل فيه الوقائع القاسية عقول العلماء والمفكرين، وتتجمد فيه الحواس، كيف يمكن للإنسان أن يحكم بينما هو جزء من الحدث ومشاهده؟

وبعد هذا السرد الناقص والذي لا يمكن وصفه، انتظروا:

لايحيى

الذي سيأتي، بإذن الله، كتتمة لهذه السيرة الذاتية،
متركًا القارئ مع أسئلة وألغاز لا نهاية لها.